قِطافُ الياسَمين

في تدبر وتفسير القرآن الحكيم

المجلد الثاني

(سورة البقرة تفسير الآيات من (102- 195)

تأمل وتحرير

أبو عمر وحمزة د/ محمد عبد المعطي محمد

مقدمة.

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد.

لقد بدأتُ هذه السلسلة مستلهما دور(النحلة) انتقَّل من زهرةٍ في أفانين التفسير إلى زهرة؛ أجمع رحيقها فرائدَ وشواردَ قيَّدها علماءٌ ثقاتٌ في تدبر وتفهُّم معاني كتاب الله-تعالى-ودلالاته، وبلاغته، وإعجازه، وتربيته للمؤمنين، ومنهجيته الراقية في ضبط إيقاع الحياة على ربانية الحق والإصلاح.

قرأتُ جميع ما وقع بين يدىْ في تفسير كل آيةٍ وتأملتها حرفاً حرفاً، ثم سجَّلتُ ما راق أسلوبه، ونضجت فكرته، وعمَّت فائدته، ودقَّت تفاصيل بلاغته، وألهمت دلالاته.

كنتُ أجمع، وأرتِّب، وأنضِّد، وأعيد الصياغة حينا، وأقرِّب الفكرة، وأبسِّط اللغة وعلوم البلاغة حيناً حتى يتسق ما جمعتُ في سياقٍ واحدٍ، لم آلُ فيه جهدي أن يجمع ما ندَّ وفذَّ وعزَّ من تأملات أهل المعاني والتفسير.

ومع تقدم قلمي في البحث والتنقيب تأملت وتدبرت عظمة لغة القرآن ودلالاته، وعلى أساس هذا التدبر صرتُ إلى المقارنة بين الآراء والترجيح بآليةٍ تتخذ (لغة القرآن) -بكل ما تعنيه الكلمة من معنى-في شمولٍ للعلاقات الداخلية التي تنتظم نظم القرآن ودلالاته وِفق (نظامٍ) و (نُسُقٍ) و(سياق) قرآنيٍ واحدٍ متصلٍ في القرآن كله بدءا من الحرف إلى الكلمة، فالجملة، فالآية، فالآيات، فالسورة، فالقرآن كله كأنه، بل هو " كلمةٌ واحدةٌ" يعود أوله على آخره، ويتناسق تناسقا رائعا فيما بين آياته.

هذا النسق أو النظام أو الاتساق أو السياق القرآني الممتد يكمِّل بعضه بعضا في كتاب الله يؤكد (تكاملية) و(انسيابية) المنهج الرباني و(تمامه) في آيات الله تعالى وفي (بنية) كتابه العظيم.

وهذه العلاقات والمعاني يجب أن يبحث عنها المؤمنون بأن هذا القرآن هو منهج هدى متكامل للبشرية جميعها كما قال ربنا في أول تعريفٍ لكتاب الله تعالى يصادفه القارئ لكتاب الله في أول سورة البقرة {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين}.

وكتاب الله تعالى كتابُ منهجٍ وهداية، ولم يكن قط كتاباً تمحَّض في فلسفةٍ وجدالٍ، أو كتاب تاريخٍ وسيرةٍ، أو كتاب مسائلٍ واختلافٍ للفقهاء، أو كتاب لغةٍ ونحو وصرفٍ، أو تصوفٍ وحكايات، أو كتاب أفكار وأحزابٍ وتوجهات. ولا ننكر أنه حوى كل العلوم إشارةً وتنبيهاً لعظمته وإعجازه.

مَن فهم هذا وتلافى في تدبره الإفراط في توجيه كتاب الله تعالى إلى ما لم يكن يوما موجها إليه.

مَن فهم هذا وعرف أن كتاب الله تعالى حوى كلَّ خيرٍ، وحذَّر من كل شرٍ. وأنَّ فيه من كل العلوم، ويحوي من الإشارات ما يتكشَّف على مدى الدهر للفهوم، (ولكن) مع كون ذلك على الإجمال، (وفي إطار) كونه كتاب الهداية الأعظم والمعجزة لمنهج هذا الدين؛ الذي تدوم إعجازيته ويزيد جماله وجلاله على مر الدهور.

وأتذكر هنا قول الشيخ محمد عبده رحمه الله:

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وما كل صعب يترك. ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه. ووجوه الصعوبة كثيرة.

أهمها: أن القرآن كلام سماوي تنزَّل من حضرة الربوبية التي لا يُتوهَّم إدراك كنهها على قلب أكمل الأنبياء. وهو يشتمل على معارفَ عاليةٍ، ومطالبَ ساميةٍ، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية، والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلبيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله تعالى خفَّف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدىً، مبيِّناً للناس شرائعَه وأحكامَه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دينٌ يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث فتابعٌ له أو وسيلةٌ لتحصيله.

وقال رحمه الله: وقد عرفت أن الإكثار في مقصدٍ خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهبَ تنسيهم معناه الحقيقي؛ لهذا كان الذي نعني به من التفسير هو ما سبق ذكره، أي من فهم الكتاب من حيث هو دينٌ، وهدايةٌ من الله للعالمين، ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته أي عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التي عدوها مشكلة، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصطلاحية، كما نفعل ذلك في بعض نكت البلاغة أو قواعد الأصول، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارئ عن المعاني، صارفةً له عن العبرة. انتهى [1]

وإن منطلقنا من أن كتاب الله كتاب هدايةٍ، يفرض علينا في تدبرنا لآياته أن نقف مع كل حرفٍ في كتاب الله تعالى نقرِّب بلاغته وعظيم دلالاته في منهج السماء بقدر طاقتنا في ذلك. وأحسب هذا مقصود قوله -عليه الصلاة والسلام-: «مَن قرأَ حرفاً من كتابِ الله فَلَهُ بِهِ حسنة، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أَقول: «الم» حرف، ولكن «أَلف» حرف، و «لام» حرف، و «ميم» حرف» أخرجه الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود.

فإن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعظم كانت كتاب الله وهو عين منهجه. فالمعجزة تحرس المنهج، والمنهج يحفظ المعجزة. وتفهم بلاغة اللغة القرآنية هو تفهم للمعجزة القرآنية الكبرى وهو بعينه إدراك لطبيعة وعظمة المنهج الإسلامي برمته.

وهذا معنى ما رواه الشيخان عَن أبي سعيد المَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: " مَا من الْأَنْبِيَاء نبيٌّ إِلَّا أعطي من الْآيَات مَا مثله آمن عَلَيْهِ الْبشر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتيت وَحيا أوحاه الله إِلَيّ، فأرجو أَن أكون أَكْثَرهم تَابعا يَوْم الْقِيَامَة ".

---

[1] تفسير المنار (1/ 17) باختصار يسير

ورحم الله تعالى الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ) في فاتحة (دلائل الإعجاز) يصف سذاجة الحديث عن حدٍ (أو تعريف) يسير للفصاحة والبلاغة والبراعة فيقول:

(ولا يكفي أن تقولوا: "إنَّه خُصوصيةٌ في كيفيَّة النَّظْم، وطريقةٌ مَخْصوصةٌ في نَسَق الكَلِم بَعْضِها على بَعض"، حتى تَصِفوا تلكَ الخصوصيةَ وتُبَيِّنوها، وتذكروها لها أمثلةً، وتقولوا: "مثْلَ كيتٍ وكَيْتٍ"، كما يذكر مَنْ تَسْتوصِفُه عَمَلَ الدَّيباج المنقَّش ما تَعْلَم به وجْهَ دِقَّةِ الصنعة، أَوْ يَعْمَلهُ بينَ يديكَ، حتى تَرى عِياناً كيف تَذْهبُ تلك الخيوطُ وتَجيءُ؟ وماذا يَذْهَبُ منها طُولاً وماذا يَذهب منها عَرْضاً؟ وبِم يَبْدَأ وبم يُثَنِّي وبِمَ يُثَلِّثُ؟ وتُبْصِرُ منَ الحِسَابِ الدَّقيق ومِنْ عجيب تصرف اليد، ما تعلم معه مكانَ الحِذْقِ ومَوضِعَ الأُستاذيَّة.... وإذا كان هذا هكذا، علمْتَ أنه لا يكفي في علمٍ "الفصاحةِ" أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من الخيوط في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل جزءٍ منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع.

وإذا نظرتَ إلى "الفصاحة" هذا النظرَ، وطلَبْتَها هذا الطلبَ، احتجْتَ إلى صبرٍ على التأمُّل، ومواظَبةٍ على التدبُّر، وإلى هِمَّة تَأْبى لكَ أن تَقْنَع إلاَّ بالتَّمام.) انتهى.

فذلكة الأمر أني استخرت الله سبحانه وحملتُ رحلي وسرت في رياض الكتب أجمع ما رأيته نافعا في بيان هدايات كتاب الله وإعجازه وبلاغته – على قلة حيلتي وضعف بصيرتي. ولسوف يجد القارئ الكريم فيه بحوثا منيفةً، ونكاتٍ لطيفةً، ومعانٍ شريفةً منَّ بها الكريم العظيم، وليس لنا فيها غير التأمل والتنظيم.

لعلَّ ما جمعتُ من زخائر يكون في رحلاتنا لتدبر كتاب الله تعالى زادا. ولعل ذاك يكون لي في رحلة الحق إلى الله شفيعا. ويتقبله منا سبحانه بمنته وفضله.

وأقولها صريحةً بغير مواربةٍ لقد أحسن علماؤنا الكرام في درسهم وتفسيرهم وخدمتهم كتاب الله تعالى. ولكن الأمر لم ينتهِ وكتاب الله تعالى مازال كنزا لم يكتشف كله بعدُ.

ونحن نحتاج إلى درسٍ جديٍّ ومتجدد لآفاق معاني كتاب الله تعالى وربطها الواجب بالحياة منطلقاً في الفكر والعمل، وان نبحث دائما عن توجيهات وهدايات كلام الله تعالى في العقيدة والمنهج والفكر والأخلاق والمعاملات والعلم والأدب.

نحتاج أن نعيش مع كتاب الله تعالى الحياة الحقيقية التي أرادها الله سبحانه لعباده المؤمنين.

ونردد دائما وأبدا قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء: 9).

{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} (الإسراء: 107 -109).

وإنني ما زلت أفكرُ أن طريقة تناولنا للقرآن عقيمةٌ جدا في أغلب الأحيان مما أدى إلى فقدان النص القرآني دوره الفاعل في ضبط حياة البشرية وبناء الدولة المؤمنة.

(فإن المنهج القرآني لا يقدِّم العقيدة في صورةٍ «نظرية» للدراسة. فهذا مجرد عِلمٍ لا ينشىء في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً. إنه علمٌ باردٌ لا يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثِقل الشهوات شيئاً، ولا يدفع الشيطان؛ بل ربما ذلَّل له الطريق وعبَّدها!

كذلك المنهج القرآني لا يقدِّم هذا الدين دراساتٍ في «النظام الإسلامي»، ولا في «الفقه الإسلامي»، ولا في «الاقتصاد الإسلامي»، ولا في «العلوم الكونية»، ولا في «العلوم النفسية»، ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية!

إنما يقدِّم هذا الدين عقيدةً دافعة دافقة موقظة رافعةً مستعليةً تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل، وتحيي موات القلب؛ فينبض ويتحرك.

يقدمه عقيدةً توقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، فترجع إلى عهد الله الأول، وترفع الاهتمامات والغايات؛ فلا تثقلها جاذبية الطين، ولا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدمه منهجاً للنظر والتدبر يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر؛ لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان!

ويقدمه ميزاناً للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم، وتُقاس به، وتُوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم؛ فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه وما رفضه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه.

يقدم هذا الدين منهجاً للحركة يقود البشرية خطوةً خطوةً في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة وِفق خطاه ووفق تقديراته.

وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم.

ثم يصوغ الناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومهم الكونية والنفسية، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية.

يصوغونها؛ وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها، وجدية الشريعة وواقعيتها، واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية.

أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثِقلة الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ولا يقدم للحياة البشرية خيراً!)[2].

*****

كان هذا مدخلا سريعا لما سعيتُ إليه منذ البداية في قراءتي المتأنية لكثيرٍ من كتب التفسير، ومعايشتي لكثير من مناهج المفسرين وطرقهم في الفحص عن معاني كتاب الله تعالى.

ولا أبالغ حين أذكر أنني سبحتُ في سماواتٍ بلا حدود جرَّاءَ سياحتي في تدبر وفهم كتاب الله تعالى من خلال أنظار علماءٍ أفذاذ وضعوا خلاصة علومهم وعصارة حياتهم العلمية في خدمة الكتاب العزيز ولكن بقي في نفسي من ذلك أمور: -

أولها: كيف أستطيع أن أنقل لإخواني المسلمين الباحثين عن النور بعضا من سعادتي وانبهاري بهذا الفردوس الأرضي في معايشة كتاب الله.

ثانيها: كيف لي أن أتصيد بعض ملاحظاتي في ترحالي في كتب معاني القرآن وعلومه وتفاسيره لتكون عونا لي على سرعة استجلابها في زحام الحياة النكد.

من هنا بدأت معركتي مع الأوراق والحروف لتمر بمراحلِ المكابدة في القراءة والتحليل والاختصار والتهذيب والتقريب والتجميع ثم الصياغة وإعادة القراءة والمراجعة....

والحقيقةُ أنَّ مجرد النقل والرصفِ لا يساوي الكثير، وإنما الكثيرُ والشاقُ هو في رؤية المعاني الكامنة من وراء الآيات تدبراً وتفكراً ثم تهذيب التراث التفسيري من أجل نقل هذه المعاني صادحةً في نَسَقٍ متصلٍ كأنها عقدٌ منضود.

كل ذلك مع محاولة نقل المتعة الحقيقية في بلاغة القرآن من خلال درسٍ تحليلِيٍ يغوص في لغة القرآن-مستعينا بالله تعالى-ليأتي بالدُرر الغوالي.

وأؤكد أن نقلي من هذا أو ذاك لا يعني أبداً الاتفاق معه في منهجه على عمومه، وإنما الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، كما في القول المشهور.

وكل ذلك لأن فهم كتاب الله تعالى ليس بالأمر الهين، وطريقه ليس بالطريق السهل (على تيسير الله – سبحانه-لمن يشاء).

---

2 في ظلال القرآن لسيد قطب3\1399.

فبالحديث عن تعدد الزوايا التي يمكن منها تناول القرآن العزيز، وعن سعيي الدؤوب لفهمٍ شموليٍ يجمع روح الدين، ومقاصده الأصيلة جنبا إلى جنبٍ مع دقة الأسلوب القرآني، وعظمته، وبلاغته، وكافةً وجوه إعجازه ليتمثل في ذلك الفهم والإدراك الواعي للمعجزة التي تحرس المنهج، والمنهج الذي يؤكد المعجزة القرآنية... بالحديث عن ذلك كله نتبين أنها مهمةٌ صعبةٌ جدا، فلا يكفي أن تغوص في كتب التراث وكتب المعاصرين في تفسير القرآن وفهمه لتجمع شتاتاً تضم بعضها إلى بعضٍ؛ حتى يكون لك فيما تقرأ وتجمع في قلبك ووجدانك تدبرٌ يصبُّ في المعاني الكبرى لهدايات هذا الدين العظيم.

وسوف تجد-أيها القارئ الكريم-بتوفيق الله – تعالى-في هذا المشروع فوائدَ وشواردَ جمعتْ مني دهراً وفكراً أتأملها في كتب العلماء في علومٍ شتى من علوم الشريعة ومكملاتها؛ حتى إنني أردت أن انقل هذا العالم الواسع اليانع من الاستمتاع في رحاب لغة القرآن ودلالاته وهداياته لطلاب العلم ومحبي القرآن عسى أن يكون لبنة في تدبرٍ عميقٍ لكتاب الله تعالى.

والأمْرُ أنني استعنتُ اللهَ-سبحانه-وتجشَّمت لعملٍ عظيمٍ -وأنا الصغير الضئيل-ولكنَّ الله تعالى المتفضل بالجميل أعان ويسّر، وأوقف لي -سبحانه-ظهيرا من أساتذتي العلماء الذين سبقوا في تدبر معاني القرآن وتحرير مسائله وضبط فهمه؛ جزاهم الله عنا وعني شخصياً خير الجزاء، وصدق الرسول العظيم إذ علمنا أنه **" لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس"**. [3]

وهذا المجلد- بتوفيق الله تعالى- هو الثاني من سلسلة **"تدبر معاني وبلاغة القرآن الكريم"**
ولله وحده الفضل أولا وآخرا...
نسأله تعالى أن يعيننا على إتمام ما بدأناه، وأن يجعله زخرا لنا يوم المعاد، وأن يغفر لنا زلاتنا، ولا يجعلنا فتنةً لغيرنا، وأنْ يسدد خطانا، إنه كريمٌ حليم.
والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين
كتبه الفقير إلى رضا ربه أبو عمر د/ محمد عبد المعطي.

3 أخرجه أَبُو دَاوُد: أدب 11، وَالتِّرْمِذِيّ: بر 35، وَأحمد: 3/ 258 و295 و303 و461 و493 و3/ 32 و74، وَالنَّظَر صَحِيح الْجَامِع للألباني رقم7719، وسلسلة الصَّحِيحَيْنِ 416 عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا.
قال الإمام الخطابي في معالم السنن (4/ 113): هذا الكلام يُتأوَّل على وجهين:
أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله وترك الشكر له سبحانه.
والوجه الاخر: أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر والكفر.

قال تعالى: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)}** (البقرة: 102، 103)

{وَاتَّبَعُوا} سر الواو هنا عطف جريمةٍ أخرى من جرائم اليهود على سابقتها، فهم لم يكتفوا بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم كما بيَّنت الآيات من قبل؛ بل اتبعوا السحر والكفر ؛ أى نبذوا كتاب اللَّه {واتبعوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ} يعنى كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها الشياطين {عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ} أى على عهد ملكه وفي زمانه، أو ما كانوا يدَّعون على ملك سليمان – عليه السلام - من قيام هذا الملك بالسحر وهذا من سوء أدبهم المتمادي مع أنبياء الله تعالى، وفائدته تسلية الرسول المؤمنين ببيان أن ذلك ديدن القوم وخلقهم؛ فلا عجب أن ينكروا الإسلام ويحاربوه .

فلقد تعلق القوم بها، وتمسّحوا بما يرجف به المرجفون عنها، من شعوذات، ابتغاء الوصول إلى شىء من تلك القوى التي تملكها الشياطين، ليتسلطوا بها على العباد، وليجنوا من ورائها الربح المادىّ الذي يحلمون به! ولهذا كثر في بنى إسرائيل الأنبياء الكذبة، الذين طلعوا فيهم من كل ناحية، والذين حدّثت التوراة عنهم، وحذّرت منهم، ولكن القوم اتبعوا هؤلاء المتنبئين الأدعياء، وكفروا بأنبياء الله وبهتوهم.

****

{واتبعوا تَتْلُوا الشَّياطِينُ} أي: تقرأ وتحدِّث وتقص، (قلتُ: وفائدة التعبير عما مضى بفعل الحال، استحضارا للموقف عند المتلقي كأنه يشاهده يحدث أمامهن وهذا من براعة البلاغة القرآنية التي تتكرر في آياتٍ كثيرة، لتبين أسلوب القرآن في رسم الصورة ليس على مستوى العقل فقط وإنما على مستوى الشعور الحى والوجدان الفاعل في النفس عبر مشاركتها الحدث لحظةً بلحظةٍ، وليس مجرد عرض الحدث على قنوات الاتصال اللغوية. وفي هذا سر من أسرار بلاغة القرآن الفاعلة الوجدانية المؤثرة).

وقوله تعالى: **{عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** (البقرة: 102).

يقول أهل التفسير: وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب.

قال السدي: إن الناس، فِي زمن سليمان، اكتتبوا السحر، واشتغلوا بتعلمه، فأخذ سليمان تلك الكتب وجعلها فِي صندوق، ودفنها تحت كرسيه، ونهاهم عن ذلك، فلما مات سليمان، وذهب الذين كانوا يعرفون دفنه

الكتب، تمثل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفرا من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. فحفروا، فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها، قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا. فاتخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فذلك أكثر ما يوجد السحر فِي اليهود، وبرأ الله عز وجل سليمان من ذلك، وأنزل هذه الآية. [4]

قال الله تعالى يرد فريتهم من جذورها: **{وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ}** تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان - عليه السلام -من اعتقاد السحر والعمل به، وسمى السحر كفراً، فتنبه. يقول تعالى: {وَلكِنَّ الشَّياطِينَ} هم الذين {كَفَرُوا} باستعمال السحر وتدوينه {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} يقصدون به إغواءهم وإضلالهم.

وفى قوله تعالى: **«وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا»** احتراز عن فهم خاطئ لاستخدام الشياطين، التي لا يحمد لها قول أو عمل، وذلك أن سليمان كان يضبط أعمالها على الوجه المحمود، الذي لا يخرج بها عن طريق الحق والخير!! أما هؤلاء القوم فإنما يبتغون من وراء تسخيرها التسلط على الناس، ووضع مقدّراتهم تحت أيديهم، حيث يتعلمون منهم أبوابا من الحيل، وأشتاتا من المكايد.

والقوم إنما يلتمسون الباطل من كل وجه، ويصيدون الضلال من كل أفق.

قال الراغب رحمه الله: والآية منطوية على أمرين: ذم اليهود في تحري السحر وإيثاره وتبرئة لسليمان -عليه السلام -مما نسبوه إليه، فذكر الله تعالى أن بعض اليهود اتبعوا ما تخرص الشياطين على ملك سليمان، ونزه سليمان عن الكفر وما نسب إليه من السحر، وذكر أن الشياطين هم المستحقون لذلك. انتهى

{وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} معطوف على السحر، أى: يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين. وقيل: هو معطوف على ما تتلو، أى: اتبعوا ما تتلو الشياطين، واتبعوا ما أُنزل على الملكين ببابل {هارُوتَ وَمارُوتَ} عطف بيانٍ للمَلَكين تعريفٌ لهما.

وقرأ الحسن (على الملِكين) بكسر اللام، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملِكين ببابل.

***

وقوله تعالى: **{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ}** اختلف أهل التفسير والمعاني فِي تعليم الملكين السحر.

فذكروا فِيهِ وجهين: أنهما كانا لا يتعمدان تعليم السحر، ولكنهما يصفانه، ويذكران بطلانه، ويأمران باجتنابه، واستعمل التعليم بمعنى الإخبار والوصف والإعلام. ويرى أصحاب هذا الرأي أن تعلم السحر في ذاته ليس بكفرٍ وإنما هو الإيمان به والاعتقاد فيه على تغيير الأقدار والتأثير في الحادثات؛ فهذا هو الكفر. فمن تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا، ومنه قول أبو نواس الشاعر:

---

[4] التفسير الوسيط للواحدي (1/ 182)

عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه.
فمن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه.
وأرى في هذا الرأي ثير تكلف، فمن العلم القبيح، وما يضر ولا ينفع، ولا مأمن لتعلمه مع كثير شروره، ومنه السحر، وعلم التنجيم، وعلوم الفلسفة المتعمقة.
الوجه الثاني: أن الله عز وجل امتحن الناس بالملكين فِي ذلك الوقت، وجعل المحنة فِي الكفر والإيمان بمجرد أن يقبل تعليم السحر، فيكفر بتعلمه، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما يشاء، كما امتحن بنهر طالوت فِي قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ... الآية} (البقرة: 249)، يدل على صحة هذا: قوله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} (البقرة: 102) أي: محنة واختبار من الله تعالى.

ويرى بعض المفسرين: أن معنى {مِن أحدٍ}: أحدا، و(من) زائدة مؤكدة كقولك: ما جاءني من أحدٍ. هكذا يرون، والحق أنه عند التأمل لا وجود في القرآن للزائد أو ما يسمونه تخفيفا (صلة)، فمثلا هنا دلالة حرف التبعيض (من) في {مِن أحدٍ} تؤكد على تقصيهم (أي الملكين هاروت وماروت) في التحذير لكل أحد يعلمونه صغيرا كان أو كبيرا، ذكيا أو غبيا، طيبا أو شريرا، فما أضافه حرف (من) هنا أغنى عن كلام كثير في إقامة الحجة بتحري الملكين للتنبيه والتحذير، فكيف تكون (زائدة)؟!

****

وقوله تعالى: **{إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ}** أى ابتلاء واختيار من اللَّه، ومعنى الفتنة: الابتلاء والامتحان، مأخوذ من قولهم: فتنت الذهب والفضة، إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد. ومن هذا قوله تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} (العنكبوت: 2) قيل فِي تفسيرها: وهم لا يُبتلون فِي أنفسهم وأموالهم.

{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} (العنكبوت: 3) أي: اختبرنا.

{فَلا تَكْفُرْ} فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر (تلك عبارة الزمخشري في تفسيره وعليها مؤاخذات، فالرجل معتزلي لا يؤمن بحقيقة السحر، ويراه مجرد تخييل كما يأتي).

وقد اتجه أهل المعاني هنا اتجاهان في إشارة ودلالة هذه الجملة. فقال بعضهم: فيها أن تعليم السحر وتعلمه كفر، واستدلوا بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهى عن فك السحر بالسحر. وقال آخرون: بل الحرام والكفر هو العمل به والاتكال عليه واعتقاد تأثيره بمعزل عن مشيئة الله سبحانه وتعالى.

وجاء في الحديث أن رسول الله، -صلى الله عليه وسلم -، سئل عن النُّشْرَة فقال: «هي من عمل الشيطان» (مسند أحمد وسنن أبي داود بسند حسن).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحَرِ عَنِ المَسْحُوْرِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِيْ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ -وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ الحديث -فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُوْرِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ. [5]

****

قال تعالى: **{فَيَتَعَلَّمُونَ}** أى الناس من الملكين {ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} أى علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين، كالنفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث اللّه عنده الفِرْك والنشوز والخلاف ابتلاءً منه، لا أنّ السحر له في نفسه تأثير بغير مشيئة الله تعالى بدليل قوله تعالى: {وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} لأنه ربما أحدث اللّه عنده فعلا من أفعاله وربما لم يحدث.

قال الراغب: وينبغي أن يُعلم أن الإذن في الشيء من الله تعالى ضربان:

أحدهما: الإذن لقاصد الفعل في مباشرته نحو قولك: أذن الله لك أن تصل الرحم، أى رضي وشرع، قلتُ: ومنه قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} (يونس: 59) أي شرع لكم هذا ورضيه.

والثاني: الإذن بمعنى المشيئة والتقدير، أي في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله، والترياق في تخليصه من أذيته، فإذن الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: الأشياء كلها بإذن الله وقضائه، ولا يقال: الأشياء كلها بأمره ورضاه.

(أقول: فالإذن بإباحة فعل الشئ ورضاه، غير الإذن بحدوثه. وهو الفرق عينه بين إرادة الله تعالى بمعنى المشيئة الكونية، وإرادة الله بمعنى الرضى والمحبة الشرعية، فإنه يحل إشكاليات عقدية عنيفة، فتنبه).

****

قال تعالى: **{وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ}** لأنهم يقصدون به الشر.

وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يُؤمَن أن تجرّ إلى الغواية.

فإن قيل: فما سر التعبير ب {مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} وما يضر معلومٌ أنه لا ينفع؟

قيل: قد يكون الشيء نافعاً من وجه وضاراً من وجه، وتعلم السحر لو احترزوا بمعرفته عمن يغوي لكان نفعاً، فلم ينتفعوا به من هذا الوجه واستضروا به لاستعمالهم إياه في غير الحق، فهو يضرهم ولا ينفعهم.

{ولقد علم} هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب اللّه {ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ} من نصيب. وَالْخَلَّاقُ: النَّصِيبُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ، قال المفسرون: الخَلَاق من هذه الآية: النصيب من الجنة.

---

5 (إِعْلَامُ المُوَقِّعِيْنَ عَنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ) (301/ 4).

{وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أى باعوها. أي: بئس شيء باعوا به حظ أنفسهم، حيث اختاروا السحر ونبذوا كتاب الله، لو كانوا يعلمون عاقبة ما يصير إليه من بخس حظه في الآخرة. ولو أنهم آمنوا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن، واتقوا اليهود والسحر، لأثيبوا ما هو خير لهم في الدنيا والآخرة.

فإن قيل: كيف أثبت لهم العلم في أول الكلام {ولقد علموا} ونفى عنهم في آخره {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (البقرة: 103)؟ فالجواب في ذلك من أوجه.

الأول: أن العلم المثبت لهم هو العقل الغريزي، وما جعله لهم بصيغته، والمنفي عنهم هو المكتسب الذي هو من جملة التكليف.

والثاني: أن المثبت لهم هو العلم بالجملة، والمنفي عنهم هو العلم بالتفصيل، فقد يعلم الإنسان مثلاً قبح الشيء ثم لا يعلم أن فعله قبيح، فكأنهم علموا أن شرى النفس بالسحر مذموم، لكن لم يتفكروا في أن ما يفعلونه هو من حملة ذلك القبيح.

والثالث: أنهم علموا عقاب الله، لكن لم يعلموا حقيقة عقابه وشدته.

والرابع: أن معنى قول {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} يعملون به، لأن من لا يعمل بما يعلم فهو في حكم من لا يعلم. (أفاده الراغب رحمه الله).

****

قال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)}**

والمثوبة بمعنى الثواب، ومادتها من رجوع الشيء إلى حالة شبيهة بالحالة الأولى، يقال: ثاب الحوض إذا امتلاء بعد فراغه عقيب امتلائه، والثيِّب من النساء لعودها إلى الأيِّمَة (أى كونها لا زوج لها)، والتثويب في الصوت ترديده، والثواب والمثوبة في الخير تحصيل نفعٍ يرجع إليه بإحسانه.

ومعنى الآية: لو أمن الذين يتعلمون السحر واتقوا لأثيبوا وكان ذلك خيرا لهم، ولو كانوا يعلمون لظهر لهم ذلك.

لطيفة:

جواب (لو) في قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} فعل مُقدَّر وتقديره: لأثيبوا، دلَّ عليه {لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ} تقول: لو أتاني زيد لإكرامي خير له، ولا تقول: لو أتاني زيد لعمرو منطلق، إذ لم يدل لفظ عمرو على فعل، وجواب لو لا يكون إلا فعلاً، أو ما دلَّ عليه، كما يقول النحويون.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب (لو)؟ قلتُ: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها.

حقيقة السحر وتأثيره

قال الراغب الأصفهاني: وأما السحر فقد اختلفوا في ماهيته على ثلاثة أوجه:

فالأول: ما ذهب إليه أكثر الجدليين (من المعتزلة وأشباههم)، وهو أنه اسم خداع وتخييلات لا حقيقة له، وإنما اعتماد الساحرين على شغل القلوب بشعبذة صارفة للأبصار وتمتمة عميقة للأسماع ولصرف الأبصار، قال تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}، ولشغل الأسماع بالنميمة، قال: فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، قالوا: ولهذا سُمي البيان الرائق سحراً.

والثاني: ما ذهب إليه الأغشام من العوام وجماعة من الأشرار، وهو أنه اسم لفعلٍ من قوته تغيير الطبائع ونقل الصور، كجعل الإنسان حيواناً أخر وذكروا من ذلك خرافات توصلت بها الملحدة والبراهمة إلى إبطال النبوات والمعجزات.

والثالث: ما ذهب إليه محصلة أهل الأثر وعامة المتوسمين بالحكمة، وهو أنه عمل يقرّب إلى الشيطان بمعونة منه، وذلك أن توقع الساحر وهمه على أمرٍ يريد فعله بالغير لافظاً بكلمات من الشرك ومادحاً للشيطان مستعيناً به.

ولهذا قال سبحانه: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}، وقال: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، وقال: {شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} ...

قال الراغب: ولو لم يكن للسحر حقيقة لا أعظم الله أمره في قوله: {وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، ولما أمروا بالتعوذ من شر النفاثات في العقد، ولو كان كما قال الجدليون لما ورد والشرائع بقتل السحرة ونفيهم عن بلاد الإسلام، ولما أجرى مجرى الشرك....

وقد أنكر الجدليون ما روي في ذلك من الأخبار الصحيحة والآثار الواضحة كنحو ما روي أن اليهود سحرت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -فقال -عليه السلام: " أتاني ملكان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بالرجل فقال الأخر: مطبوب، قال: ومن طببه؟ قال: بنات لبيد بن أعصم اليهودي "، فبماذا قال في مشط ومشاطه، وجف طلعه ذكر في بئر ذوي أروان، فبعث من أخرجه وحل عقده، فكلما حل عقده، وجد لذلك خفة كأنما أنشط من عقال ".

قالوا: إن ذلك إن قلنا بصحته لكان يقدح في نبوته.

وليس الأمر على ما ظنوه لما تقدم، ولأن تأثير السحر لم يكن في النبي -عليه السلام -من حيث ما هو نبي، وإنما كان في بدنه من حيث هو إنسان وبشر، وكما كان يأكل ويتغوط ويشرب ويمشي ويقعد ويغضب ويشتهي ويمرض ويصح من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي، وإنما كان ذلك قادحا في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة.

ثم كون النبي - عليه السلام - معصوما من الشيطان لا يقتضي أن لا يؤثر في بدنه ذلك تأثيراً صغيرا لا يقدح فيه من حيث ما هو نبي، فقد كأن تأثير ذلك في جزء من بدنه تأثيرا محسوسا لم يتعده إلى زوال عقله ولا إلي إفساد نفسه، كما أن جرحه وكسر ثناياه يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته، حيث قال: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}، وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من ارتداد أهل بلد أو غلبة المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام بقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} ومن أثبت كليات الحقائق بإثبات جزئياتها لم يسعفه في قياسه لدى التحصيل مقدمته ولا يثبت به في المقامات قدمه.

قال: وأما تصاريف لفظ السحر، فقد كثرت، وذاك إنه من حيث يتصور تارة دقته وتارة، حسنه وتارة فتنته، وتارة خبثه وشرارته استعمل في كل ذلك لفظه بحسب تصور كل واحد من ذلك، فسمي الشعبذة سحرا ومنه قوله: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ}، والكلام الرائق سحرا، ومنه قيل: (إن من البيان لسحرا)، والعين الفاتنة ساحرة، والعالم ساحرا، وعلى ذلك حمل قوله: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}، والفعل الدقيق سحرا حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة، وسمي الغذاء سحرا من حيث يدق تأثيره. انتهى [6]

أقول: وكلام الراغب -رحمه الله -في غاية الحكمة فهو يقسم قضية الاختلاف في السحر إلى طرفان ووسط، والحق دائما في الوسطية الإسلامية المنصفة، لأن مَن أنكر حقيقة السحر جملةً فقد اشتط وأنكر فعل أهل الشرور من شياطين الإنس والجن، والعجب أن الذين يقولون بذلك هم المعتزلة حاملي لواء حرية أفعال العباد. ومَن اشتط على النقيض بإثبات كل أثرٍ للسحر فقد عبد في دينه الخرافة وأفسد دينه باعتقاد تأثيرٍ مبالَغٍ فيه يخرج عن إرادة الله وحاشا. ولكن أهل الحق يثبتون وجود الأشرار من الإنس الذين يستعينون بأشرار الجن ويتقربون إليهم بالكفر لأذية الناس. وكل ذلك بإذن الله تعالى لا يخرج عن مشيئته وعلاجه في الإيمان والقرآن والدعاء. وعلى هذا جاءت آيات الكتاب وصحيح السنة المشرفة، فتنبه.

حكم السحر والساحر.

قال القرطبي رحمه الله 2/ 47: واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذميّ، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا، يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سمّى السحر كفرا بقوله {وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}. وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق، والشافعي وأبي حنيفة.

وقال الإمام الموفق رحمه الله في «المغني» 12/ 300: قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلّمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته. وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر فإن حنبلا روي عنه، قال: قال عمّي في العرّاف والكاهن والسّاحر: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلّها فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع-يعني-خلّي سبيله. قلت له: يقتل؟ قال: لا، يُحبس، لعلّه يرجع. قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلّي، لعلّه يتوب ويرجع. وهذا يدلّ على أنه لم يكفّره، لأنه لو كفّره لقتله. وقوله: في معنى المرتد. يعني في الاستتابة. وقال أصحاب أبي حنيفة: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء، كفر، وإن اعتقد أنّه تخييل لم يكفر. وقال

---

[6] تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 274)

الشافعي: إن اعتقد ما يوجب الكفر، مثل التقرب إلى الكواكب السّبعة، وأنها تفعل ما يلتمس، أو اعتقد حِلّ السحر، كفر، لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلّا فُسِّق ولم يكفّر لأن عائشة باعت مدبِّرةً لها سحرتها بمحضر من الصحابة.

- وحدّ الساحر القتل، روي ذلك عن عمر، وعثمان بن عفان، وابن عمر، وحفصة وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز. وهو قول أبي حنيفة، ومالك. ولم ير الشافعيّ عليه القتل بمجرد السحر وهو قول ابن المنذر. ورواية عن أحمد ذكرناها فيما تقدّم. ووجه ذلك عند أحمد أن عائشة رضي الله عنها باعت مدبّرة سحرتها، ولو وجب قتلها لما حلّ بيعها، ولأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث، كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حقّ». ولم يصدر منه أحد الثلاثة، فوجب ألَّا يحلّ دمه، ولنا ما روى جندب بن عبد الله عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «حد الساحر، ضربة بالسّيف».

قال ابن المنذر: رواه إسماعيل بن مسلم، وهو ضعيف وأخرجه سعيد في «السنن» 2/ 90، 91 عن بجالة قال: كنت كاتبا لجزء بن معاوية، عمّ الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كلّ ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم، وهذا اشتُهر فلم يُنكر، فكان إجماعا.

وقتلت حفصة جارية لها سحرتها. وقتل جندب بن كعب ساحرا كان يسحر بين يدي الوليد بن عقبة. ولأنه كافر فيقتل، للخبر الذي رووه.

وهل يستتاب الساحر؟ فيه روايتان:

أحدهما، لا يستتاب، وهو ظاهر ما نُقل عن الصحابة، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحرا.

كلمة في الختام.

والآيتان وإن كانتا في صدد اليهود وآثامهم ومواقفهم فإنهما تنطويان على تلقين مستمر المدى شأن الفصول السابقة والقصص القرآنية عامة. ومن هذا التلقين أنه لا يجوز للمؤمنين أن يعتقدوا أن السحر يضرّ أحدا بغير إذن الله، وأن الذين يتعاطونه آثمون عند الله ولن يكون لهم حظ ونجاة في الآخرة.

وهناك حديث رواه الخمسة ذكر السحر فيه بعد الشرك من جملة الموبقات السبع التي نهى النبي صلّى الله عليه وسلّم عنها حيث روي أن النبي قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ وأكل الرّبا وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وقد يكون من الحكمة فيما احتوته الآيتان والأحاديث أن الناس إذ يرجعون إلى السحرة لتحقيق مطالب ليست في نطاق الجهد الإنساني العادي، وإذ يتعاطى السحرة السحر بزعم أنهم قادرون على تحقيق تلك

المطالب يكون الأولون قد انصرفوا في مطالبهم عن الله عز وجل الذي هو وحده القادر على تحقيق تلك المطالب والذي لا يجوز لمؤمن أن يرجع في تحقيقها إلى غيره ويكون ذلك منهم في معنى الشرك بالله ودعاء غيره. ويكون الآخرون قد ارتكسوا فيما فيه الكذب والتدجيل والضرر الخلقي والحسي والتشجيع على ذلك للانصراف عن الله عز وجل ودعاء غيره. [7]

أقول: قد ورد عند كثير من المفسرين في تفسير هاتين الآيتين رواياتٍ كثيرة متداخلة حينا ومتعارضة أخرى وكثير منها مأخوذ من إسرائيليات أهل الكتاب. والمنهج الذي أرتضيه أن يفسر القرآن بعيدا عن تلك المؤثرات والعوامل الخارجية التي لم يأت النص الحكيم ليعالجها؛ خصوصا إذا كان النص في داخله يحمل مفاتيح بيانه دون الحاجة إلى زيادات أهل الكتاب التي تقع في مجملها ضمن دائرة الغث الذي لا يقوم مع مقصود كتاب الله تعالى.

ولذلك أرى أن نسير مع الآيات ونضرب صفحا عن علومٍ لا يحتاجها الكتاب العزيز والجهل بها لا يضر. [8]

بناء شخصية المسلم والنهى عن اتباع اليهود والنصارى.

يقول تعالى: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)}** (البقرة 104-105).

فأما عن وجه تعلق هاتان الآيتين بما قبلهما (اعلم أن الله تعالى لما شرح قبائح أفعالهم قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام أراد من هاهنا أن يشرح قبائح أفعالهم عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وجدهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه). [9]

وهذا النوع من أنواع تعلق الكلام بعضه ببعض يسمى (استطراد) وهو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبةٍ بينهما، ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول [10]، كقول السموأل: (من الطويل)

وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً...... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ.

---

[7] **دروزة محمد عزت في التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1383 هـ، 214/6.**

[8] أقول: وفي ظاهر الآيات كفاية للمتأملين، وانظر للمزيد من هذا تفسير الطبري، وتفسير الدر المنثور للسيوطي، وتفسير ابن أبي حاتم فعندهم تلك الروايات ومزيد.

وإن كان لابد لتعضيد ما تبرزه الآيات من معاني نذكر أن بعض من تلك الروايات روى بأسانيد جيدة راجع في ذلك كتاب (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور 1/ 205–210).

[9] **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 634)**

10 **يقول الجرجاني: هو سوق الكلام على وجه يلزم منه كلام آخر وهو غير مقصود بالذات بل بالعرض. وفي بعض التفاسير، مثال الاستطراد هو أن يذهب الرجل إلى موضع مخصوص صائدا، فعرض له صيد آخر فاشتغل به وأعرض عن السير إلى ما قصد وأشباهه. راجع كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم.**

يقرِّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا...... وتكرهُهُ آجالهمْ فتطولُ.
فسياق القصيدة، للفخر بقومه، وانتقل منه إلى هجو قبيلتي عامر وسلول ثم عاد إلى مقامه الأول، وهو الفخر بقومه. فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه، فذلك (استطراد)، وإن تمادى فذلك (خروج)، قال: وأكثر الناس يسمِّي الجميع (استطراد).

الاستطراد وخصوصية البلاغة القرآنية.

ولأننا نردد دائماً أن علاقات المناسبة داخل النص القرآني علاقات دقيقة ولطيفة تجعل منه كلمة واحدةً يعود أولها على آخرها، ويأخذ وسطها بأطرافها، فإنك تجد في القرآن كثيرا من نوع هذا الاستطراد الذي يدفع الملل وينبه السامع إلى دلالاتٍ واسعةٍ، ويفتح آفاقا كبيرةً للمعاني القرآنية.

ولكننا هنا تؤثر أن نركز على نكتة (اللطف) والدقة في هذه العلاقات الداخلية التي تربط أجزاء النص القرآني.

فمثلا نجد هنا أن الاستطراد له دلالات سياقية بديعة تتعلق بعملية الاسقاط الواسعة النطاق الممتدة من أول سورة البقرة – والتي نبهنا عليها مرارا-للتاريخ البشع لبني اسرائيل في تعاملهم مع منهج الله تعالى؛ اسقاط هذه الاستراتيجية الفاسدة في حرب منهج الله تعالى على امتدادهم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إصرارهم الدؤوب على رايات الكفران عبر الزمان إلى يومنا هذا.

هذا الاسقاط عينه موجه بصورةٍ موازية للجماعة المؤمنة يحذرهم طريق (المغضوب عليهم والضالين)، ويبصرهم بأدق تفاصيل خداعهم ونفاقهم وحروبهم ضد دين الله تعالى الحق.

إنه تحذير للمؤمنين أن يتبعوا طريق أهل النفاق والضلال ولو في كلامهم، وفي ذات الوقت بيان لامتداد فعل بني إسرائيل مع أنبيائهم في القديم، وفعلهم مع محمد صلى الله عليه وسلم في الحاضر وفعلهم مع أمته في المستقبل. وفي ذلك للمتأمل تسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه في سبيل دعوته من الأذى فالقوم هم القوم فعلوا ما فعلوا مع أنبياء الله تعالى في كل عصر؛ وما زال أذاهم وكفرهم يمتد ويمتد.

وهنا أيضا نتدبر دلالات الخطاب القرآني المتسعة، فهى وإن كانت في بنيتها السطحية تحتمل معنىً، ففي تأمل بنيتها العميقة تتجه إلى معانٍ جمةٍ تتعلق بالسياق وتتممه.

إذن فالحديث البلاغي المجرد عن نوع (استطراد) يقع في القرآن هو حديث ساذج وسطحي؛ لا بد من مناقشته.

فالأفق الدلالية للبلاغة القرآنية بديعة ولطيفة ودقيقة لا يكفي أبدا فيها التحليل اللغوي الاصطلاحي الجامد الذي يراعي إيقاع الشكل البلاغي على اصطلاح بعينه. وإنما هنا التدبر ثم التدبر ثم التدبر لقوم يفلحون.

أعاننا على تدبر كتابه الكريم، وفهمه والعمل به والتسليم.

{يا أيها الذين آمنوا}

قال الفخر: اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} في ثمانية وثمانين موضعا من القرآن (قلتُ-معلقه: بل هي تسعة وثمانون موضعا).

قال ابن عباس: وكان يخاطب في التوراة بقوله: " يا أيها المساكين". فكأنه سبحانه وتعالى لما خاطبهم أولا بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخرا حيث قال: {وضربت عليهم الذلة والمسكنة} (البقرة: 61)، وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولا فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة، وأيضا فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات. انتهى [11]

وأقول: إن الحديث إذ كان عن تمايزٍ وضع حده القرآن بين أهل الكفر والنفاق وسبيلهم، وبين سبيل المؤمنين كان نداء التكريم الرباني الراقي لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ب {يا أيها الذين آمنوا}، وذلك أننا مخاطبون بأن نتبع سبيل المهتدين، ونجتنب سبيل الضالين المفسدين، وهذه الخطاب لا يسمعه ويستجيب له إلا المؤمنون.

وفي تفسير ابن أبي حاتم أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: أعهد إلى فقال: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُهُ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ.

قال العلامة أبو حيان الأندلسي (م745هـ):

هَذَا أَوَّلُ خِطَابٍ خُوطِبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، بِالنِّدَاءِ الدَّالِّ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ نِدَاءٍ جَاءَ أَتَى عامًا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، وَثَانِي نِدَاءٍ أَتَى خاصا: {يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نعمتي...}، وَهِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْمِلَّتَيْنِ: الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَثَالِثَ نِدَاءٍ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَكَانَ أَوَّلُ نِدَاءٍ عَامًّا، أُمِرُوا فِيهِ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ. وَثَانِيَ نِدَاءٍ، ذُكِّرُوا فِيهِ بِالنِّعَمِ الْجَزِيلَةِ، وَتُعُبِّدُوا بِالتَّكَالِيفِ الْجَلِيلَةِ، وَخُوِّفُوا مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ الْوَبِيلَةِ.

وَثَالِثَ نِدَاءٍ: عُلِّمُوا فِيهِ أَدَبًا مِنْ آدَابِ الشَّرِيعَةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، إِذْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ عِبَادَةُ اللَّهِ، وَالتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ، وَالتَّخْوِيفُ مِنَ النِّقَمِ، وَالِاتِّعَاظُ بِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا أُمِرُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْمِيلِ، مِنْ تَعْظِيمِ مَنْ كَانَتْ هِدَايَتُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. انتهى [12]

أقول: نجد هنا تدرج الخطاب وتسلسله المنطقي من بدء سورة البقرة إلى هذا الموضع. فبعد الحديث الجميل الذي بدأ عن هدايات القرآن وأصناف الناس في تلقيها، ثم قصة البداية التي يجئ معها الصراع الأبدي

---

[11] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 634)

[12] البحر المحيط في التفسير (1/ 542) دار الفكر – بيروت.

بين الخير والشر، والنجاة والهلاك، والفوز والخسران في حياة البشرية، انتقل الحديث من تذكير البشرية بنعم ربها وهداياته إلى مثالٍ أكثر خصوصيةً وأغنى تجربةً في التعامل مع منهاج السماء للأخذ بيدي البشرية الحائرة.
إنهم بنو إسرائيل وعنادهم، ومحاربتهم لمنهج السماء برعونتهم، وخرقهم المستمر لعهودهم مع الله تعالى.
إنهم النموذج التعليمي الدقيق لبناء الأمة الجديدة على أسس صحيحة من الالتزام بوعد الله تعالى وانتظار موعوده. ومن هنا يبدأ الغرض الأسمى في بناء شخصية الأمة المحمدية على تلقي المنهج والعمل به، وتوقي وتلافي المخالفات الشنيعة التي وقع فيها بنو إسرائيل.

{لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

قرأ جمهور الناس «راعنا» من المراعاة بمعنى أرعنا سمعك ونظرك، وفي أن يخاطب بذلك أحدٌ نبيه جفاءٌ ظاهر، وقد حضَّ الله تعالى على خفض الصوت عنده وتعزيره وتوقيره، وكما قال تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} (النور: 63). فقال مَن ذهب إلى هذا المعنى إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في هذه الآية على هذا التأويل، بل هو نهيٌ عن كل مخاطبةٍ فيها استواءٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم.[13]

أقول: وفي كون ذلك المقصود دون غيره نظر. ويتعين في مثل هذه الآية [14] طلبُ سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها، فإن النهي عن أن يقول المؤمنون كلمةً لا ذم فيها ولا سخف لا بد أن يكون لسبب، وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبيء صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه فكانوا يقولون له (راعنا يا رسول الله) أي لا تتحرج منا وارفق. وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبي صلى الله عليه وسلم في خلواتهم سرا، فتلقفها اليهود كعادتهم يلوون بها ألسنتهم ليؤذوا بها الرسول، فمنع المسلمون عنها وأُبدلوا كلمةً لا مطعن فيها وهي (انظرنا) بدلا من (راعنا) سدا للذريعة.

والسياق يؤيد ذلك بخاتمة الآية الكريمة {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} والمقصود بها اليهود، والله أعلم. وكذلك يؤيده قوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} (النساء: 46)؛ من باب تفسير القرآن بعضه بعضا، وهو علمٌ متين؛ ومثلها قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (المجادلة: 8). لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ السَّامُّ عَلَيْكَ (والسام هو الموت) يُوهِمُونَ بِذَلِكَ أنهم يسلمون عليه، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك من أمرهم ونهى المسلمون أن يقولوا مثله.

---

[13] **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 189) بتصرف.**

[14] **أي مثلها من الآيات التي نزلت في أحوال معينة ولم يشرح في أثنائها ما يفصح عن سبب نزولها إيجازا واستغناء بعلم المخاطبين بها يوم نزولها بالسبب الذي أوجب نزولها، فإذا لم ينقل السبب لمن لم يحضره لم يعلم المراد منها.**

أما قوله تعالى: {وَقُولُوا انْظُرْنا} قرأ أبي بن كعب: أَنْظِرْنا بقطع الألف وكسر الظاء المعجمة أي أَخِّرْنا، وقرأت العامّة بالألف الموصولة وضم الظاء المعجمة (انْظُرنا) أي انظر إلينا. فحذف حرف التعدية "إلى"، وقيل: معناه انتظرنا وتأنَّ بنا. وقال مجاهد: معناه فهّمنا، وقال يمان: بيِّن لنّا. وقوله تعالى {وَاسْمَعُوا} أى ما تؤمرون به، والمراد به عوه وأطيعوا لأنّ الطّاعة تحت السّمع. [15]

وكما فصَّلنا آنفا أن السمع يطلق على الفعل الذي تقوم به الأذن، ويطلق على الفهم والوعي والطاعة. فمن المعنى الأول قول اليهود: {سمعنا وعصينا}. ومن المعنى الثاني وصف المؤمنين بتدبر كتاب الله تعالى {لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}.

من فقه الآية.

وفي الآية من الأحكام اللطيفة والتوجيهات الربانية الدقيقة في بناء الأمة المؤمنة أمور: -

إن في الآية وضع لأسس التمايز بين أهل الباطل من أهل الكتاب وغيرهم، وأهل الحق من الأمة المحمدية، وذلك أن الإسلام ناسخ لما أتى قبله من الشرائع ومهيمن عليه، ودين الله تعالى فيه الغنى عن ترهاتٍ وضعها أولئك الأنجاس من محرفي كتب الله ورسالاته. ثم إن حضارة الإسلام أرق وأكمل.

ولكننا قد ابتلينا باتباع الأمم من قبلنا لما تركنا كتاب الله وسنة نبينا وضاعت قدوة الرسول من قلوبنا وعقولنا واستبدلناها بكل غثٍ وخسيس من الخاسرين.

وقد نهينا أن نتبع اليهود والنصارى وأن نتميز بشخصيتنا الإسلامية العظيمة، ولكن قدر الله واقع. وهو ما يأتينا في الآية بعدُ في قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 109). فتأمل كيف كان القرآن يلتحم بعضه ببعض كالكلمة الواحدة.

قال ابن كثير: نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وفعالهم، وروى أبو داود في سننه قوله عليه السلام: «من تشبه بقوم فهو منهم» ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها. [16]

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن؟». متفق عليه.
وهذا من القدر الواقع في الجملة على بعض الأشخاص، وفيه نكتة التحذير من فعلهم، لما فيه من تقبيح اتباعهم، إذ متبعهم قد ألغى عقله حتى إنه ليتبعهم في دخول جحر الضب مع ضيقه ونتنه. ولذلك قال رسول

---

[15] تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (1/ 252)

[16] تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 256) باختصار.

الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه في كثير من المواقف: "خالفوا المشركين..."، وقال: " خالفوا اليهود". (17)

****

وفي الآية كذلك من دقائق فروع الفقه دليلان:

أحدهما: دليل على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عندنا خلافا لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة. (18)

وقال الجصاص رحمه الله: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ احْتَمَلَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَغَيْرُ جَائِزٍ إطْلَاقُهُ حَتَّى يُقَيَّدَ بِمَا يُفِيدُ الْخَيْرَ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهُزْءَ مَحْظُورٌ فِي الدِّينِ، وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الْمُحْتَمِلُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ هُوَ مَحْظُورٌ. (19)

قلت: ويؤيده قوله تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} (التوبة: 65، 66). فالكلمات الموهمة التي تشتبه بالهزء بالدين يحظر إطلاقها لما في ذلك من خطر عظيم.

والدليل الثاني في الآية: مثال لسد الذرائع وهو دليل من أدلة الفقه عند المالكية وغيرهم، قال العلامة القرافي الحنفي: وَرُبَّمَا عُبِّرَ عَنْ الْوَسَائِلِ بِالذَّرَائِعِ وَهُوَ اصْطِلَاحُ أَصْحَابِنَا (أى الأحناف)، وَهَذَا اللَّفْظُ الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِنَا.

وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ سَدُّ الذَّرَائِعِ، وَمَعْنَاهُ حَسْمُ مَادَّةِ وَسَائِلِ الْفَسَادِ دَفْعًا لَهَا فَمَتَى كَانَ الْفِعْلُ السَّالِمُ عَنْ الْمَفْسَدَةِ وَسِيلَةً لِلْمَفْسَدَةِ مَنَعَ مَالِكٌ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ فِي كَثِيرٍ مِنْ الصُّوَرِ، وَلَيْسَ سَدُّ الذَّرَائِعِ مِنْ خَوَاصِّ مَذْهَبِ مَالِكٍ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ بَلْ الذَّرَائِعُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى سَدِّهِ وَمَنْعِهِ وَحَسْمِهِ: كَحَفْرِ الْآبَارِ فِي طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ وَسِيلَةٌ إلَى إهْلَاكِهِمْ، وَسَبُّ الْأَصْنَامِ عِنْدَ مَنْ يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَسُبُّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ سَبِّهَا.

---

17 ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب ماتع سماه (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) بين فيه هذا الملمح الرئيسي لمنهج الإيمان في تمايزه عن معكسر الخاسرين الهالكين الذين بدلوا دين الله كفرا؛ فراجعه وادع لشيخنا بالقبول والجنة. اللهم ارحم علماءنا.

18 راجع تفسير القرطبي (2/ 57)

19 أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 72)

وَقِسْمٌ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى عَدَمِ مَنْعِهِ، وَأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ لَا تُسَدُّ وَوَسِيلَةٌ لَا تُحْسَمُ: كَالْمَنْعِ مِنْ زِرَاعَةِ الْعِنَبِ خَشْيَةَ الْخَمْرِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ.

وَقِسْمٌ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ هَلْ يُسَدُّ أَمْ لَا؟ كَبُيُوعِ الْآجَالِ عِنْدَنَا كَمَنْ بَاعَ سِلْعَةً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ إلَى شَهْرٍ ثُمَّ اشْتَرَاهَا بِخَمْسَةٍ قَبْلَ الشَّهْرِ، فَمَالِكٌ يَقُولُ: إنَّهُ أَخْرَجَ مِنْ يَدِهِ خَمْسَةً الْآنَ وَأَخَذَ عَشَرَةً آخِرَ الشَّهْرِ فَهَذِهِ وَسِيلَةٌ لِسَلَفِ خَمْسَةٍ بِعَشَرَةٍ إلَى أَجَلٍ تَوَسُّلًا بِإِظْهَارِ صُورَةِ الْبَيْعِ لِذَلِكَ. وَالشَّافِعِيُّ يَقُولُ يُنْظَرُ إلَى صُورَةِ الْبَيْعِ وَيُحْمَلُ الْأَمْرُ عَلَى ظَاهِرِهِ، فَيَجُوزُ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْبُيُوعُ يُقَالُ إنَّهَا تَصِلُ إلَى أَلْفِ مَسْأَلَةٍ اخْتَصَّ بِهَا مَالِكٌ وَخَالَفَهُ فِيهَا الشَّافِعِيُّ. انتهى [20]

وفي الحقيقة إن الدين في أرق معانيه مبنى على معنى المراقبة من العبد لله تعالى فيما يأتي وما يذر لأن اليقين بالحساب في الآخرة يوجب على المؤمن التوقف قبل القول أو الفعل وحسابه في ميزان الحسنات او السيئات {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (ق: 18). وعن عطية بن عروة السعدي الصحابي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وأحسن منه ما روى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه الحديث، فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وذلك سدا للذريعة.

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن من الكبائر شتم الرجل والديه) قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: (نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه). فجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء.

****

ثم في الآية كذلك الأدب الرباني الذي ربى الله تعالى به الأمة المؤمنة على توقير النبي صلى الله عليه وسلم، وتبجيله وحفظ مكانته التي حفظها الله تعالى وهو سيد الخلق. ومن حفظه وتوقيره بعد موته لى الله عليه وسلم تعظيم سنته. قال العلامة ابن العربي المالكي رحمه الله في (أحكام القرآن) عند تفسيره قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الحجرات: 1). أَصْلٌ فِي تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِأَقْوَالِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَإِيجَابِ اتِّبَاعِهِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ.

وقال رحمه الله في الآية التي بعدها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} (الحجرات: 2) حُرْمَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا، وَكَلَامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الرِّفْعَةِ مِثْلُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ؛ فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ تَلَفُّظِهِ بِهِ، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَوَامِ الْحُرْمَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمِنَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا

---

[20] الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (2/ 32)

قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} (الأعراف: 204). وَكَلَامُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مِنْ الْوَحْيِ وَلَهُ مِنْ الْحُرْمَةِ مِثْلُ مَا لِلْقُرْآنِ إلَّا مَعَانِي مُسْتَثْنَاةٌ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. (21)

حسدٌ وكيدٌ وكراهية يؤكدها كتاب الله تعالى.

في قوله تعالى **{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** (البقرة 105).

يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بين المؤمنين وبينهم، ونبَّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يقول تعالى: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِحُلَفَائِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ: آمِنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: وَدِدْنَا لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ فَنَتَّبِعَهُ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ: الَّذِينَ بِحَضْرَةِ رسول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالظَّاهِرُ الْعُمُومُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: وهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَفِي الْمُشْرِكِينَ: هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. (22)

وجاء النفى هنا ب{ما} التي تفيد نفى الحال، أي نفى حال كونهم متلبسين بالود أصلا، وذلك أبلغ في ثبات معناه هنا من النفى بحرف (لا) الذي يقيد الفعل المضارع في زمنه، فربما لا يودون الآن ولكنهم سيودُّون. والود: محبة الشيء مع تمنيه، واستعمل في كل واحدٍ منهما، فقيل: وددت فلانا إذا أحببته، وددت الشيء إذا تمنَّيْته.

والمعنى: ما يحب وما يريد أو يتمنى الكافرين - سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين - أىَّ خيرٍ للمسلمين يأتيهم من ربهم، وذلك أنهم يرون أنفسهم أحق بالوحى وبكل خيرٍ فيحسدون المسلمين، وكانوا يظهرون مودة المسلمين نفاقا، وهم هكذا في كل عصرٍ وكل مكانٍ يتغلب فيه الإسلام، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، ونهى المؤمنين –في ضمن كلامه - عن موادتهم، كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ}.

وتأمل التعبير ب {يُنَزَّلَ} بتضعيف الزاى، ولم يقل(ينزل) بالتخفيف، إذ أنه أبلغ في نزولٍ متواصلٍ ومستمر لرحمات الله والخير منه للمؤمنين على مر الزمان.

{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}. {يختص} أَيْ يُفْرِدُ بِهَا، وَضِدُّ الِاخْتِصَاصِ: الِاشْتِرَاكُ والعموم. فهو سبحانه يختار للرحمة والخير والعلم والقرب مَن يشاء، وهو الملك لا معقب لحكمه ولا يُسأل

---

[21] **أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (4/ 144-146)**

[22]

عن حكمته، وهو الحكيم الخبير. والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديما وحديثا، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية.

وختام الآية فيه تنبيهٌ لطيفٌ على رحمة الله سبحانه للعائدين التائبين من أي جانبٍ عادوا {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} فلما عظُم فضله، حقُر كلُّ ذنبٍ فعله التائب قبل توبته. وجاء ذكر الفضل هنا؛ الفضل هو ما يمَنُّ الله تعالى به على عباده بغير استحقاق، والعدل ما كان يستحقه العبيد، ولكن الكريم سبحانه نبَّه على فضله مع إعظام الجرم من المخلوقين؛ فتأمله. وتأمل في معناه قوله تعالى بعد ذكر جرائم الكفار في تعذيب وقتل المؤمنين شر قِتلة في سورة البروج: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}، فقيد نزول عذابه سبحانه بهم بعدم توبتهم مع عظيم جُرم ما اقترفوه. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ-رحمه الله: (انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ من الله سبحانه، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ).

ومن اللطائف البديعة في الآية أن حرف المعنى (مِنْ) جاء فيها ثلاث مراتٍ بثلاث معانٍ مختلفات يتذوق ذلك أهل المعاني وتدبر كلام الله تعالى:

الأولى: {الذين كفروا من أهل الكتاب} وتساءل العلامة الراغب فقال – ما ملخصه: فإن قيل: فلِمَ قال: " ولا المشركين " وذلك يقتضي أن المشركين ضربان، كافر، وغير كافر كما أن أهل الكتاب ضربان؟ قيل: إن " مِن " في قوله {من أهل الكتاب} للتبيين (أو لبيان الجنس)، كما في قوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} أي من أي جنس الأوثان كان، فإذا كان كذلك، فالمقصود جنس الكفر سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين.

الثانية في قوله تعالى: {من خير}، وما زال أهل التحقيق والفهم العميق لبلاغة القرآن وبلاغة اللغة ينكرون الزيادة في القرآن[23]، فلا يوجد حرفٌ إلا وله في القرآن معنىً عظيمٌ ربما لا تغني فيه كلمات كثيرة. وفي هذه الآية حرف الجر(من) في قوله تعالى: {من خيرٍ} يفيد معنى من التقليل والتبعيض والتوكيد لمعنى بغضهم المؤمنين في النفس ما لا يفيده النفى العادي مهما بلغ، فأهل الضلال لا يريدون (أدنى أو أقل) معنى للخير يكون للمؤمنين. قال ابن عطية: لأنهم يريدون ألَّا ينزل الله على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقائل أن يقول: نريد أن لا ينزل خير كامل ولا نكره أن ينزل بعضه. فتأمل [24]

الثالثة: في قوله تعالى {من ربكم} ومعناه ابتداء الغاية أي مبدأه والمتفضل به هو ربكم سبحانه. وفيه نكتة بديعة من إضافة عز الربوبية إلى أمة محمد بلفظ المخاطبين {ربكم} وفيه تسلية من الله تعالى للمؤمنين بأنه معهم وناصرهم على الحاقدين الباغضين ويزيدهم من فضله سبحانه.

---

23 وأطال النفس صاحب (البحر المحيط في التفسير) في توجيه زيادتها على مذاهب النحويين.

24 تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 190)

وصيغةُ الجمعِ في قوله تعالى: {عليكم} للإيذان بأن مدارَ كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم وإنما هو حسد عام للأمة المحمدية إلى يوم القيامة، وليس مختصا بزمن النبى وصحابته، فتأمل.

ومن دلالات الخطاب (العميقة) ما يكشفه الله سبحانه للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود والمشركين حولهم من الشر والعداء، ليحذروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان والقرآن والمنهج الرباني العظيم، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه.

وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها-ويقودها-اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر، وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين، وهذا المنهج الرباني القويم. ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل-عليه السلام-إذ كان ينزل بالوحي على الرسول-صلى الله عليه وسلم.

النسخ في القرآن الكريم (بحث وتأمل).

قوله تعالى: **{ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** (البقرة: **106**).

بدءاً نتساءل كعادتنا عن وجه ارتباط هذه الآية ومناسبتها لما قبلها؟

ويأتي الجواب أنها امتداد للاستطراد الذي ربط بين ماضي اليهود ووقاحتهم تجاه نعم ربهم، ورسالة أنبيائهم، وبين حاضرهم وتعاملهم مع دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا من تسلية الرسول والمؤمنين وتثبيت قلوبهم على الحق الذي ظل طريقه دائما مليئا بالذئاب الذين يريدون اختلاس المؤمنين وزللهم.

إنها إذن بيان لاستمرار الحملة الشعواء التي شنها يهود المدينة ومنافقوها والمشركون حسدا وغيظا على رسول الله وأتباعه من المؤمنين.

ذكر كثيرٌ من المفسرون أنَّ المشركين قالوا: أَتَرَون إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ، بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِخِلَافِهِ وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا، ويرجع عَنْهُ غَدًا مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا كَلَامَ مُحَمَّدٍ يَقُولُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ وَهُوَ كَلَامٌ يُنَاقِضُ بَعْضَهُ بَعْضًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ}(النحل: 101). الْآيَةَ: وَأَنْزَلَ أَيْضًا: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ

نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا} الْآيَةَ.[25] وخصوصا بعد حادثة تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة شرفها الله وما أثارته من لغط عند أهل الشرك والنفاق يأتي تفصيله في الآيات بعد.

ولعل هذا الكلام يكون ألصق أصلا باليهود في المدينة أو بتلقينهم، إذ أنهم في غالبهم ينكرون النسخ في الشرائع، ويخلطونه ويلبِّسون عليه بالبداء.

والنسخ جائز على الله تعالى عقلا لأنه ليس يلزم عنه محال ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر متعلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت، ولا النسخ لطروّ علمٍ في حق الله جل سبحانه، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ويعلم نسخه بالثاني. والبَداء – الذي يلبس به اليهود-لا يجوز على الله تعالى لأنه لا يكون إلا لطروء علمٍ أو لتغير إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخ والبَداء واحدا، ولذلك لم يجوِّزوه فضلّوا.

وربما تتصل هذه الآية بما قبلها بأن القرآن الذي ينفسه اليهود والنصارى على المسلمين وهو رحمة الله وفضله على المؤمنين جاء ناسخا ومهيمنا على الكتب قبله والشرائع قبله، فلا غرو ينسخ الله وينسأ، ويمحو ويثبت وهو الملك له معقب لحكمه.

وفي مثل معنى هذه الآية قوله تعالى: **{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}** (النحل: 101، 102).

****

لقد وجَّه بعض المفسرين الحديث عن النسخ في هذه الآية بأنه نسخ الشرائع، ونسخ آية من التوراة بآية من القرآن، ونسخ معجزة رسول بمعجزة رسول آخر[26]، متعللين بالاشتراك اللفظي في كلمة {آية} وهو توجيهه جائز، وإن كنت أرى فيه بعض تعسف. إذ أنه لا قرينة واضحة تصرف معنى الآية عن كونها الآية في كتاب الله المعهودة.

ولهؤلاء في ذلك بعض العذر إذ قد انفتح باب الحديث عن النسخ في القرآن حتى صار فيه من التطرف ما عاد بأسئلةٍ كثيرةٍ مشكلةٍ؛ خصوصا مع ورود رواياتِ آحادٍ لا يثبت أكثرها في نسخ سورٍ بأكملها أو أكثرها لا يوجد شيءٌ منها في المصحف الشريف، وروايات مثلُها عن آياتٍ تخالف في معناها وتركيبها ونسقها نسق القرآن

---

[25] الواحدي في أسباب النزول ت الحميدان (ص: 34)

26 وعلى هذا المنوال جرى اختيار الشيخ محمد أبو زهرة في زهرة التفاسير (1/ 354) والشيخ عبد الكريم الخطيب في كتابه الذي سماه "التفسير القرآني للقرآن". وقريبا منه مستخفيا كلام العلامة القاسمي رحمة الله عليه في تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 370).

ولغته. هذا وغيره من الإفراط في جانب النسخ حتى جعل بعضهم بعض الآية منسوخا وبعضها ناسخا، وحتى بالغ بعضهم فجاء بالنسخ في نواحي العقائد والأخبار وهو لا يجوز.

لقد جعل هذا بعض العلماء والباحثين – الذين لا نتهمهم في نظرهم؛ فحاشا أن نتهم دينهم-يعيد النظر في مسألة وقوع النسخ في القرآن الكريم، وإن كانت مثل هذه الآية التي بين أيدينا لا تمنع وقوعه، ولكنها في الواقع اقترنت بمعنى الشرط الذي يفيد (مجرد جواز وقوعه ولا يعني وقوعه بالفعل).

(وعند البحث يتبين جواز وقوع النسخ جملةً، أما من حيث التفصيل فله بحث طويل الذيول).

ولذلك فقد وقفت – بحول الله – باحثا ومحققا هذا الموضوع بشيء من التأمل بين طرفيْ نقيضين ما بين مثبتٍ متجاوزٍ، ونافٍ متعسف في كتابي (المحكم والمتشابه في كتاب الله سبحانه-دراسة تفصيلية) يسَّر الله خروجه بفضله.

ونقف هنا على بعض ما فيه من التفصيل.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله – وقد كان فقيها أصوليا [27]:

إن النسخ في ذاته لَا في القرآن بالذات لَا ينكره أحد (أي ذو عقل صحيح)؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يربي المؤمنين، ويدع الدين الحق في قلوبهم، وقد مكث بينهم ثلاثة وعشرين عاما يربيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وما كانوا ليقبلوا ذلك التهذيب الكامل الذي ينقلهم من الجاهلية إلى العلم والتفكير، والعمل التقي الطاهر دفعة واحدة؛ بل لابد أن يأخذهم في رفق وأناة يقر أمورًا على رجاء التغيير، حتى تشرب قلوبهم حب الإسلام، وحب آدابه، ولقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ما من نبوة إلا تناسخت " أي حولت النفوس بالتدريج، وترك أمور في مرتبة العفو حتى تتشرب النفوس الحقائق الإسلامية، وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان يجهل الحقائق ثم علم وهو ما يسمى بالبداء، والله تعالى منزه عنه تبارك وتعالى، وإنما معناه أن الله عالم بكل شيء، ولكن نبيه كان كالمربي الذي يتدرج بتعليمه حتى يشب ويعلو فكره، فتتكامل الشريعة نزولا إذ تكامل عقله إدراكا وبيانا.

لذلك كان النسخ وكانت الأحكام الئى تجيء في السنة موضع التناسخ الثابت بالحديث.

ولكن هل يجيء النسخ في القرآن، قال جمهور العلماء ذلك مستدلين بقوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ منْهَا أَوْ مِثْلِهَا). ولكن نقول: إن الآية الكريمة كما في بيان الشرط وجوابه، وتدل على الإمكان لَا على الوقوع فعلًا، وإن هذا على أساس تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية المشتملة على حكم تكليفي، ولكن كلمة الآية تدل معانيها على الآية الكونية، والمعجزات الكونية والحسية التي يجيء بها الرسل كإحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله تعالى، وإحياء الموتى من قبورهم، وتصويره كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيرا بإذن الله

---

27 زهرة التفاسير (1/ 354)

تعالى، وكعصا موسى عليه السلام التي فلقت البحر وفجرت الماء من الحجر، وكإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

وإن المشركين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - آيات أي معجزات دالة على رسالته كمعجزات عيسى وموسى ويظهر أن اليهود طلبوا مثلها، فرد الله تعالى عليهم بقوله: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) أي ما ننزل آية لنبي أو رسول أو نؤجلها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وفي ذلك إشارة إلى أن معجزة القرآن خير من المعجزات التي سبقت كمعجزة موسى وعيسى، لأنَّ معجزاتهم حوادث تنقضي، وتنتهي بانتهاء وقتها ولا تؤثر إلا في نفوس من عاينوا، وشاهدوا، أما معجزة القرآن، فإنها باقية خالدة تتحدى الأجيال كلها إلى يوم القيامة.

وإننا نميل إلى تفسير الآية بالمعجزة، وذلك للأمور الآتية:

أولا -تعقيب النسخ والتغيير بقوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فإن ذلك يتناسب بوضوح مع الآية بمعنى المعجزة القاهرة التي تدل (على قدرة الله وصدق رسوله)، والمعجزة الكونية، ولا تظهر مناسبة مع آية التكليف.

وثانيا -قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (107)

فذكر هذا النص السامي يدل قياسًا أن النسخ أو الترك يكون لآية كونية بخير منها، تكون أبقى وأعظم أثرا.

ثالثا -أنه كان لوم على طلب آية أخرى، فقد قال تعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ) هذه الآيات كلها جاءت تالية لآية النسخ وهي في تواليها تناسب أن تكون الآية المنسوخة معجزة من معجزات الرسالة الإلهية، ومعجزات النبيين.

ورابعا -أن النسخ يقتضي ألا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ، وليس في القرآن آيات تتعارض، ولا يمكن التوفيق بينها، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

وإن الله تعالى إذا أنزل معجزة لنبي، وبدل بها معجزة فذلك من كمال قدرته وليس لمؤمن أن ينكر معجزة، ولا يطلب معجزة معينة، وألا يقال: إن الرسول الذي جاء بالمعجزة القاطعة مغتر، فقد قال تعالى: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)، فإن الله العليم الحكيم هو الذي يختار من الآيات الدالة على رسالة أنبيائه ما يراه أقوى دلالة، وأكثر بقاء، فهو الذي يعلم الآيات كلها، وهو الذي يدبر كل شيء بحكمته، وإرادته، وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمكان آيته. انتهى كلامه.

أقول: هنا نرى توجيها معتبرا لتأويل هذه الآية – وإن ظل فيه بعض التعسف -ولكننا لو قرأنا ما نقله السيوطي – رحمه الله – في إتقانه وتفسيره من رواياتٍ تدفع – دون قصدٍ- القلوب المرتجفة والنفوس الفاسدة والعقول القاصرة لكثيرٍ من الطعن على كتاب الله تعالى وتواتره، كما ذكرنا آنفاً في أصل الإشكالية هنا؛ لو قرأنا ذلك فنحن أمام طريقين هيِّنَيْن؛ إما أن نمر على الآية مرور الكثيرين ونضعها في خانة ما لا نعلمه وتظل حكة

الأسئلة حول الموضوع برمته في نفوسنا مستترة، أو نأخذ طريق من ينكر ويتأول متخذا السياق سبيلا أو حتى لاويا عنقه في ذلك كما فعل الشيخ أبو زهرة – رحمه الله- وغيره.

وأمامنا طريق ثالث أكثر عمقا وصعوبة، ولكنه يلائم حق القرآن علينا في التأمل والتدبر العميق دون تكلفٍ أو تعسفٍ أو تطرفٍ في التأويل والتوجيه.

مستعينين بدلالة النص الحكيم ذاته ومشابهه في القرآن وتوجيه السلف ودقائق السنة. والله سبحانه وحده المعين.

نقول – بحول الله تعالى: نفرق هنا بين حديثان:

- حديثٌ عن النسخ في أحكام الله تعالى – بجملته – سواء نسخ أحكام الإنجيل للتوراة أو نسخ أحكام القرآن لهما، وهو انتهاء العمل بحكم شرعه الله تعالى لانتهاء الفائدة منه إلى وقت معين يبدله الله تعالى بحكمٍ منه سواه.
- والحديث الآخر هو عن نسخ آيةٍ من القرآن بأخرى من القرآن أو من السنة.

أما حديثنا الأول فإنه بيان مدة المصلحة، والمصالح تختلف بالأوقات والأعيان والأحوال، فكذلك الأحكام، ألا ترى أن الله يصرِّف ملكه بين السراء والضراء لمصالح العباد يعلمها؛ قال تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف:54)، فتغيير (نسخ) خلقٍ بخلقٍ منه سبحانه هو كنسخ أمرٍ بأمرٍ لا فرق إذ الكل ملكه وطوع قدرته سبحانه.

والنسخ واقعٌ في شرائع اليهود أنفسهم، فنسخ إباحة تزويج آدم أولاد صلبه ذوي الأرحام بعضهم من بعض، وتحريمه ثابت، كذلك جمع يعقوب عليه السّلام بين أختين، لايان وراحيل ابنتا خاله، ثمّ حرم ذلك التوراة، وكذلك ما حرم يعقوب-عليه السلام-على نفسه فحرمه الله على بني إسرائيل بعد إباحته، وغير ذلك كثير يدل على وقع تبديل حكمٍ بحكم سماوي آخر تربيةً منه سبحانه وعلما منه بمصلحة الوقت لعباده.

فالنسخ على هذا المعنى جائزٌ عقلا ونقلاً بالجملة.

(قال بعض الفضلاء: نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود: إنّ محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. وفي الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحكم السابق: تهيّؤ النفوس لأرقى منه. وهو معنى قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها} لأنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها-بواسطة الفواعل الاجتماعية-إلّا في قرون عديدة.

لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره. وهذه سنّة الخالق في الأفراد والأمم على حدّ سواء. فإنّك لو نظرت في الكائنات الحية-من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكل من أشكال الأشجار، ومن أوّل رتبة من رتب الحيوانات إلى الإنسان-لرأيت أن النسخ ناموس طبيعيّ محسوس في الأمور المادّية. والأدبية معا ...!

فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فيافع، فشاب، فكهل، فشيخ، وما يتبع كل دور من هذه الأدوار-من الأحوال الناسخة للأحوال التي قبلها-يريك بأجلى دليل: أنّ التبدّل في الكائنات ناموس طبيعيّ محقق. وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكر في الكائنات، فكيف يستنكر نسخ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة، وهي في حالة نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى؟ هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب-وهم في مبدإ أمرهم-بما يلزم أن يتصفوا به وهم في نهاية الرقيّ الإنسانيّ، وغاية الكمال البشريّ ... ؟! وإذا كان هذا يصح، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال، وهذا لم يقل به عاقل في الوجود ...! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله-وهو أحكم الحاكمين-بأن يكلف الأمة-وهي في دور طفوليتها-بما لا تتحمله إلّا في دور شبوبيتها وكهولتها ...؟

وأي الأمرين أفضل: أشرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه، ونسخ منه ما أراد بعلمه، وأتمه-بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفا منه-لانطباقه على كل زمان ومكان، وعدم مجافاته لأي حالة من حالات الإنسان. ؟! أم شرائع دينية أخرى، حرّفها كهانها، ونسخ الوجود أحكامها-بحيث يستحيل العمل بها-لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ؟!) [28]

أما حديثنا عن وقوع النسخ في القرآن الكريم، وهو تبديل حكم آية بأخرى فعلى ما قررنا من جملة جواز النسخ واقعٌ لا غبار عليه، وهو مذهب جمهور علماء المسلمين، والأئمة الأربعة الكبار، وجُلُّ الشيعة غير بعض الإمامية والمعتزلة، ومنهم أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (أحد أئمة المعتزلة المتوفى عام 322 هـ.) الذي يرى أنه لا نسخ في القرآن قط؛ لأنه شريعة الله الباقية إلى يوم القيامة؛ ولأنه لم يصرح النبي صلى الله عليه وسلم بنسخ آية من القرآن، ولأن النسخ يقتضي أن تكون آيتان في القرآن موضعهما واحد، وإحداهما مثبتة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفي والإثبات.

ثم تأوّل أبو مسلمٍ كثيراً من الآيات التي ادعي فيها النسخ بنوع تخصيصٍ وبيانٍ إحدى الآيتين الأخرى لا النسخ المعروف. وقد تصدى له د.مصطفى زيد في كتابه النسخ في القرآن الكريم وبيَّن خطأه، وأثبت أن على أبي مسلم أن ينقض دعوى النسخ في كل واقعةٍ ثبت النسخ فيها. كما تصدى له (علي حسن العريض) في كتابه (فتح المنان) ونقل ردود بعض العلماء عليه.

ومن الكتاب والمفكرين المعاصرين ممن أنكر النسخ كذلك: (د.عبد المتعال محمد الجبري) في كتابه (النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه)، وكتابه الثاني (لا نسخ في القرآن لماذا؟)، وكذلك الشيخ (محمد الغزالي السقا) أنكر وقوع النسخ في كتابه (نظرات في القرآن).

و(د.عبد الكريم الخطيب) في تفسيره، والشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره، وغيرهم...

والحق أن نفى النسخ في كتاب الله جملةً واحدةً هو خلقٌ علميٌ متهورٌ لا يؤيده البحث المنصف، كما أن الانتقاص من قدر الذين فكروا وتدبروا -أيًّا بلغ رأيهم -وتضليلهم هو تطرفٌ موازٍ كذلك، إذ نحسب أنَّ نيتهم

---

[28] **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 372)**

كانت في تنزيه القرآن ورفع قدره عن الطعن الذي توهموه، ولهم في ذلك بعض الحق، والله وليهم وولينا وهو نعم الوكيل.

هذا من حيث الجملة، وأما من حيث التفصيل فقد استدل مثبتوا وقوع النسخ في كتاب الله تعالى بثلاث آيات:

أولها: آية البقرة (106) {ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها تأت بخير منها أو مثلها}، وهي أكبر أدلتهم، وفيها تفصيلنا وبحثنا.

وثانيها قوله تعالى: {وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ} (النحل:101)، والثالثة قوله: {يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وعنده أم الكتاب} (الرعد:39) وهذه لا دليل فيها مباشر على النسخ.

ثم كان استدلال المثبتون بإجماع السلف على وجود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله، وفي إجماع تفصيلهم لضروب النسخ وحجيته وتأثير ذلك على تواتر كتاب الله نظرٌ كثير، ثم في اصطلاحهم ذاته عن معنى النسخ عندهم نظر كذلك.

وكي نصل معا بمنهجيةٍ منضبطةٍ لا أفراط ولا تفريط فيها نقف على أمور:

1- معنى النسخ في لغة العرب وتوقيع ذلك على القرآن، ثم توقيعه على نص الآية في سياقها.
2- اتساق معنى النسخ في الآية ودلالته مع نسق (الإنساء) أو (النسئ) في لفظة {أو ننسها} {أو ننسأها} في الآية.
3- اتساق معنى النسخ والإنساء مع معنى التبديل والإتيان بآيةٍ مكان آيةٍ كما في آية سورة النحل، وكما في نسق الآية هنا {نأت بخير منها أو مثلها}.
4- النظر فيما ذكر العلماء من ضروب النسخ وشرطه واتساق ذلك مع نسق الآية ودلالاتها التي نبحثها.
5- خلاصة هامة في الفصل بين جواز النسخ، ووقوعه. والفرق بين النسخ في عرف المتقدمين وعرفه بين محدثي الأصوليين. والفرق بين إثباته جملةً وإثباته على التفصيل. ومنه البحث في إثبات أي صنفٍ من صنوفه.

وفي النهاية فإن البحث النزيه وعدم المجازفة ونبذ التطرف في الأحكام هو غاية ما نريد من أجل تعظيم حق كلام الله تعالى في تدبره وفهمه والعمل به، مع اعتقاد تنزيهه وعظمته، وأن علم اليقين عند الله تعالى.

تفصيل البحث في الآية

{ما} هنا (الذي) تحمل معنى الشرط بدلالة جزم الفعل بعدها وجوابه في الشرط، نظيره: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ} (التوبة/110). تعطي معنى جواز وقوع النسخ في شرع الله تعالى خلافا لليهود الحاقدين، وقال بعض العلماء: أنها تدل على جواز وقع النسخ ولا تعني وقوعه، وردَّه عليهم مثبتوا النسخ أن الآية نزلت بعد وقوع النسخ بالفعل، كما في حادثة تغيير القبلة وغيرها.

قال الفخر الرازي: وأما تمسكنا في وقوع النسخ بقوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} ، فالاستدلال به ضعيف ، لأن " ما" ههنا تفيد الشرط والجزاء ، وكما أن قولك: من جاءك فأكرمه لا يدل على حصول المجيء ، بل على أنه متى جاء وجب الإكرام ، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ ، بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه ، فالأقوى أن نعول في الإثبات على قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ} (النحل: 101) وقوله: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب} (الرعد: 39). والله تعالى أعلم. انتهى. [29]

ومعنى الآية: إن ننسخ حكم آية، أي نغيره ونبدله من التحريم إلى الإباحة أو العكس أو غيره، نأت بما هو خير لكم في دينكم ودنياكم من التخفيف أو زيادة الحسنات والدرجات عند الله.

وقال صاحب تفسير المنار حـ 1 صـ 342 ما نصه:

إن السيوطي روى في أسباب النزول أن الآية كانت تنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا فينساها نهارا ، فحزن لذلك فنزلت الآية. قال الأستاذ الإمام: ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ؛ لأنهم معصومون في التبليغ ، والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقد قال المحدثون والأصوليون: إن من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فإن هذا النسيان ينافى العصمة المجمع عليها. أ هـ

أقول: والمعول عليه ليس ذوق العلماء وإنما هى علومٌ رصينةٌ تقررت عند العلماء في نقد الحديث متنا وسندا، وروايةً ودرايةً من علوم الحديث. وإن وافقنا الشيخ هنا في ضعف الروايات التي وردت بما أنكر.

<u>(1) معنى النسخ في كلام العرب وفي لغة القرآن.</u>

فالنسخ في كلام العرب وفي لغة القرآن على وجهين:

أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، ويثبت الأصل والمنسوخ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَنْسُوخًا، أَعْنِي: مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية، وَمِنْهُ قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية 29) أَيْ: نَأْمُرُ بِنَسْخِهِ.

وأما المعنى الثاني للنسخ: الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين:

أحدهما: يثبت الناسخ بعد المنسوخ أى يصبح محله كقولهم "نسخت الشمس الظل": إِذَا أَذْهَبَتْهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ.

---

[29] **{مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 206 . 207}**

والآخر: إِزَالَةُ الشَّيْءِ دُونَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ آخَرُ، كقولهم «نسخت الريح الأثر» وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قوله تعالى: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ} أَيْ: يُزِيلُهُ. وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين.[30]

وقبل أن نتعرض لمعنى الآية يقف بنا المقام عند ما في الآية من القراءات العشرة المتواترة لأنها الحجة ومنها يتوجه التفسير بعدُ بإذن الله تعالى: -

{ننسخ} قرأ ابن عامر بضم نون المضارعة وكسر السين، والباقون بفتحهما.

ففيها إذن من القراءات المتواترة قراءتان: قراءة الجمهور {نَنْسَخ}، وقراءة ابن عامر {نُنْسِخ}.

وكذلك {ننسها} قرأ الجمهور بضم النون وكسر السين دون همز {نُنْسِها}.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح نون المضارعة والسين وهمزة محققة بعدهما {نَنْسَأها}.[31]

****

وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها: أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

والوجه الثاني: المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا. والوجه الثالث، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ...} لأن الآية إذ أطلقت، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا.[32]

****

<u>(2) ونقف تفصيلا على تأويل {ننسخ} في الآية هنا بقراءتيها:</u>

وفي المراد بالنسخ – كما قال العلماء -ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المعروف من النسخ في القرآن: إبطال الحكم مع إثبات الخط، وهو أن تكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة، إلا أن المنسوخة لا يُعمل بها، مثل عدة المتوفى عنها زوجها، كانت سنة، لقوله

---

30 راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 193)، وفتح القدير للشوكاني (1/ 147)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب (نسخ).

31 راجع مصحف الصحابة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة.

32 تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 68-69)

تعالى: {مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} (البقرة: 240) ثم نسخت بأربعة أشهر وعشر، لقوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} (البقرة: 234) ، وكقوله: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ} (الأنفال: 65) الآية، ثم نسخت بقوله: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} (الأنفال: 66) ، الآية. رُوِى عن ابن عباس ورواه مجاهد وغيره عن ابن مسعود وأصحابه. ويعود عليه تبديل حكم آية بأخرى، والنسخ رفع الحكم مع بقاء اللفظ، (والنسخ هنا بمعنى التبديل والإحلال). ويتسق مع نسق الآية في قوله تعالى: {نأت بخير منها أو مثلها}، وكذا قوله تعالى {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ.... الآية} (النحل 101). وهذا القول هو المتجه عندنا.

والقول الثاني: رفع اللفظ والحكم (وهو هنا على معنى أن النسخ = الإزالة بغير بدل). قاله السُدِّى.

والثالث: ورفع لفظ آية وبقاء حكمها، كآية الرجم المزعومة.

أقول: ولا يتفق هذان القولان مع معنى الإنساء في {ننسِها} أي ننسك يا محمد إياها، لأنها في نفس معنى الرفع من القلوب ولا يحسن في البلاغة التكرار، وكذلك لا يتفق مع معنى الإبدال الصريح في قوله تعالى: {نأت بخير منها أو مثلها}، فإن هناك إبدالاً سواء للمنسوخة أو المنساة، ولأن المرفوعة لفظا وحكما لا تعد آية من كتاب الله أصلاً فكيف يأتي بخيرٍ منها أو مثلها، وخصوصا أن الحديث عن إبدال آيةٍ مكان آيةٍ كما قال تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ.... الآية} (النحل 101)، فتأمل.

وعلى وفق هذا التقسيم درج علماء الفقه وأصوله وهو: نسخ الحكم والتلاوة كليهما، أو نسخ الحكم وبقاء التلاوة، أو نسخ التلاوة وبقاء الحكم. وهذا من حيث (جواز الوقوع) لا من حيث (وقوعه في ذاته).

وقد ذكروا في الآيات التي نسخ لفظها مع بقاء حكمها كآية الرجم، وفي إحدى الآثار سورة بأكملها، وفي غيرها أن سورة الأحزاب كانت في مثل طول سورة البقرة، وفي أخرى آيات أخبار نُسخت من مثل: " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا". وبأقل تأملٍ في هذه الآثار نقف على ضعف في أسانيدها، واضطراب في متونها، وأحسنها حالا حديث آحادٍ لا يحكم على تواتر ما بين دفتى المصحف من كلام الله تعالى بالنسخ أو بغيره، هو أشبه بشاذ القراءات بل دونها.

كل ذلك مما حدا بنا إلى اعتماد القول الأول في معنى النسخ هنا مع ترجيحه من قِبل النسق والنظم والسياق.

وقرأ ابن عامر (من القراء العشرة): «ما نُنْسِخ» بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي الفارسي أي: ما نجده منسوخاً كقولك: أحمدت فلاناً، أي: وجدته محموداً، وإنما يجده منسوخاً بنسخه إياه (قلتُ: فيعود تفسير هذه القراءة إلى ما ذكر من معنى القراءة بفتح النون). [33]

وقد أنكر قومٌ من أهل العربية هذه القراءة وتوجيهها.

---

33 راجع مشكورا زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 98).

وتأمل بعدُ -مشكورا -ما قال أبو علي الفارسي ونقله الواحدي؛ قال: ولم يثبت بتسمية النسخ ومعناه رواية نعلمها عن العرب، ولا سماع، ولا قياس، وإن المفسرين قالوا فيه على طريق التقريب. الذي يدل على هذا: أن الفراء قال: النسخ: أن يعمل بالآية ثم تنزل أخرى فيعمل بها، وتترك الأولى. [34]

****

<u>(3) ثم نقف عند قوله تعالى: {أَوْ نُنْسِها} واتساقه مع نسق النسخ قبله.</u>

وقد ذكرنا قراءتيها:

فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو (من العشرة): «ننسأها» بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: نؤخرها. قال أبو زيد: نسأتُ الإبل عن الحوض، فأنا أنسؤها نَسْأً، إذا أخَّرْتَها عنه، ونسأت الإبل: إذا زدتَ في ظمئها يومًا أو يومين أو أكثر، وأنسأته الدين إنساءً: إذا أخرت قضاءه عنه. واسم ذلك: النسيئة، ومعنى التأخير في الآية على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يؤخر التنزيل فلا يُنزَّل ألبتَّة، ولا يُعْلَم، ولا يُعْمَل به، ولا يُتلى، والمعنى على هذا: ما نؤخر إنزالها فلا ننزِلُها.

الوجه الثاني: أن ينزلَ القرآن فيُعمل به ويُتلى، ثم يؤخر بعد ذلك، بأن يُنْسخ فترفع تلاوته ألبتّة، فلا يُتلى ولا يُعمل بتأويله (قلت-متأمله: وهذا يعود على معنى النسخ).

والوجهُ الثالث: أن يؤخر العملُ بالتأويل؛ لأنه نسخ، ويترك خَطه مُثبتًا وتلاوته في أن يُتلى قُرآن. وهو ما حكي عن مجاهد في قوله: (أو ننساها) قال: نُثْبت خطها ونُبَدّل حكمها.

قال الواحدي: ولا يصح في معنى الآية من هذه الأوجه إلا الأول؛ لأن الثاني والثالث يرجع تأويلهما إلى النسخ، ولا يَحسُن في التقدير: ما نَنْسَخْ من آية أو نَنْسَخْها. [35]

وللإمام الحرالي-رحمه الله-قول جدير بالتأمل: أن النسيء في {ننسأها} بالهمز تأخيرٌ عن وقتٍ إلى وقت، ومن أمثله ذلك المقاتلة للعدو عند وجدان المنعة والقوة، والمهادنة عند الضعف عن المقاومة، وكذلك كل ما من شأنه أن يمتنع في وقتٍ ما لمعنى مّا ثم يعود في وقتٍ آخر لزوال ذلك المعنى فهو من المُنسَأ الذي أهمل علمه أكثر الناظرين، وربما أضافوا أكثره إلى نمط النسخ لخفاء الفرق بينهما؛ فتدبر تجده عجبا.

---

34 التفسير البسيط للواحدي (3/ 225)، وأبو علي الفارسي (288-377هـ/900-987م) هو نحويٌ وعالم بالعربية وكلامه هنا ملخصًا من "الحجة" 2/ 184 – 186.

35 التفسير البسيط للواحدي (3/ 225)

وحاصله أن مدلول النسيء هو تأخير الإباحة أو الحرمة من وقتٍ إلى وقتٍ آخر كما في زواج المتعة الذي أبيح وقتا قصيرا ثم حُرِّم، ونحو ذلك. وهو على ما كانت العرب تتعارفه كما سيأتي تحريره في سورة براءة عند {إنما النسيء زيادة في الكفر} (التوبة: 37). انتهى. [36]

أقول-متأمله: أن القول عندي في معنى(ننسأها) وهو معنى التأخير، إما ينصرف إلى تأخير نسخ الآية فيتعلق المعنى بالعطف على معنى النسخ، فيكون: ما نبدل من حكم آية بالنسخ أو نؤخر نسخها بأن نتركها عاملة غير منسوخةٍ فكل ذلك بقدرة الله وأمره. أو يكون التأخير هنا هو تأخير بيان وحكمة العمل الآية إلى وقتها ويكون المعنى: ما ننسخ من آيةٍ فنزيل حكمها بالكلية، أو نؤخر العمل بذلك الحكم إلى وقته فبقدرة الله وعلمه. فتأمل السياق تجده متسقا مع ذلك والله أعلم.

***

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وقرأها أهل المدينة والكوفة: {أَوْ نُنْسِهَا}. ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل.

أحدهما: أن يكون تأويله: ما ننسخ يا محمد من آيةٍ فنغير حكمها أو ننسك إياها. وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله: (ما نُنسكَ من آية أو ننسخها نجيء بمثلها)، فذلك تأويل: "النسيان". وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأول الآية، إلا أنه كان يقرؤها: (أو تَنسها) بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه عنى أو تنسها أنت يا محمد.

والوجه الآخر منهما، أن يكون بمعنى "الترك"، من قول الله جل ثناؤه: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (التوبة: 67)، يعني به: تركوا الله فتركهم. فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل: ما ننسخ من آية فنغير حكمها ونبدل فرضها، أو نتركها لا نبدلها؛ نأت بخير من التي نسخناها أو مثلها. [37]

قلتُ: وهذا التأويل يعود على معنى النسيئة في قراءة {ننسأها} أي نؤخرها ونتركها بغير نسخ. ويعود الضميران على الآية تُنسخ أو تُؤخر ويُؤتَى بخيرٍ من المنسوخة أو مثلها.

قال الطبري مرجِّحا ما ملخصه: وأولى القراءات في قوله: (أو ننسها) بالصواب، من قرأ: (أو نُنْسِها) بمعنى: نتركها. فالذي هو أولى بالآية، أن يكون – أخبر سبحانه بصنيعه إذا هو غيَّر وبدل حكم آية وأعقب ذلك بالخبر عما إذا لم يبدل ذلك ولم يغيِّر. فصحَّ في المعنى أن يكون عقيب قوله تعالى: (ما ننسخ من آية). قوله: أو نترك

---

36 راجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (2/ 92) بتصرف.

37 تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 473)

نسخها، وكان ذلك المعروف الجاري في كلام الناس. فهو يشتمل على معنى "الإنساء" الذي هو بمعنى الترك، ومعنى "النَّساء" الذي هو بمعنى التأخير. فكل متروكٍ مؤخَّر على حال ما هو متروك. [38]

قلتُ: ومنه قوله -تعالى -: {كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} (طه 126) أي تركتها بترك العمل بها، فجزاؤك أن تترك في العذاب فهذه لطيفة في الاستعمال اللغوي القرآني لمعنى النسيان، فتأمل.

ثم قال الطبري رحمه الله: وقد أنكر قومٌ من العلماء معنى النسيان في قراءة من قرأ: (أو نَنْسها)، وقالوا: غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نسي من القرآن شيئا مما لم يُنسَخ، إلا أن يكون نسي منه شيئا، ثم ذكره. قالوا: وبعدُ، فإنه لو نسي منه شيئا لم يكن يجوز أن ينسى جميع الذين قرأوه وحفظوه من أصحابه. قالوا: وفي قول الله جل ثناؤه: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) (الإسراء: 86)، ما ينبئ عن أن الله تعالى لم يذهب بشيءٍ منه.

قلتُ-الباحث: واستدلوا كذلك بقوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} (الأعلى: 6، 7). وقد رد الطبري على ذلك، ثم قال: فأما نحن، فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام في المعنى، لا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله.

أقولُ: فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يُحفظ فجائزٌ عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلَّغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى فِي الْفَجْرِ فَتَرَكَ آيَةً، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: " أَفِي الْقَوْمِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ؟ " قَالَ أُبَيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ نُسِخَتْ آيَةُ كَذَا وَكَذَا، أَوْ نُسِّيتَهَا؟ قَالَ: " نُسِّيتُهَا "). [39]

ورأيت للشيخ محمد عبده في ذلك كلاما حسنا قال فيه:

وأما قوله -تعالى -: {سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله} (الأعلى 6، 7) فهو يؤكد عدم النسيان؛ لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، كما في قوله -تعالى -: {خالدين فيها ما

---

38 قال الزجاج: إن القراءة «أو ننسها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك لأنه لا يُقال أنسى بمعنى ترك، ورد عليه قال أبو علي وغيره: بل ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها. قلتُ: وهو على معنى ما رواه ابن عباس وغيره (ننسها) بمعنى (ننسكها) أي ننسك إياها. ويترجح لذلك عندي اختيار العلامة ابن جرير الطبري.

39 قال محققو المسند طبعة الرسالة (24/ 80): إسناده صحيح على شرط الشيخين. سفيان: هو الثوري. وذر: هو ابن عبد الله المُرْهبي الهَمْداني. وأخرجه النسائي في "الكبرى" (8240) من طريق يحيى بن سعيد، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام" (193) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان، به. وقد أورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" 2/69، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

قال السندي: قوله: قال أُبي: يا رسول الله ... الخ: فهم أُبيٌّ أن مراده بما قال: هو أن يعرف أن أُبياً متنبه لذلك أم لا، فأجاب بأنه متنبه.

دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} (11: 108) أي غير مقطوع. وقوله: {قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله} (7: 188). والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله -تعالى -لا بطبيعتها في نفسها، ولو شاء الله -تعالى -أن يغيرها لفعل، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلا غرو أن تزاح عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه، فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي، وإنما هو تأييد ومنحة من الله -تعالى -، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي، وإنما هو بإرادة الله -تعالى -ومشيئته. انتهى [40]

وقال الحرالي ما ملخصه: وأما النسيان والتنسية على قراءة {ننسها} فمعناه أخفى من النسيء، وهو ما يظهره الله من الدلالات البيّنات على سبيل إدخال النسيان على رسول الله صلوات الله عليه وصحبه وقت التنزيل. وذلك كالسنن التي أبداها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تنسيته كما ورد من قوله: " إني لأُنَسَّى لأسُنَّ". وقال عليه الصلاة والسلام في إفصاح القول فيه: «بئسما لأحدكم أن يقول: نسيت، بل هو نُسي» ومنه قيامه من اثنتين وسلامه من اثنتين – في حديث ذي اليدين-حتى أظهر الله سنة ذلك لأمته، وكانت تلك الصلاة بسهوها ليست بدونها من غير سهو بل هي مثلها أو خير؛ إذ شرع بعدها التخفيف، فتأمل.

ومن نحو ذلك منامه عن صلاة الصبح حتى أظهر الله توقيت الصلاة بالذكر كما كان قد أظهرها بالوقت الزماني، فصار لها وقتان: وقت يراها بالعيان بمدارها مع الشمس، ووقت يجدها فيه بمدارها مع الذكر، حيث قال عليه الصلاة وإسلام: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» [41] ولصحة وقوعها للوقتين كانت الموقتة بالذكر أداء بحسب تذكرها، وقضاء بحسب فوت الوقت الزماني؛ فلله تعالى على هذه الأمة فضل عظيم فيما يكمل لها على طريق النسخ، وعلى سبيل النسء، وعلى جهة النسيان الذي ليس عن تراخٍ ولا إهمالٍ، وإنما يوقعه الله تنسيةً منه للتخفيف والرحمة، وفي كل ذلك إنباء بأن ما وقع من الأمر بعد هذا النسيان خيرٌ من موقع ذلك الأمر المتقدم الذي كان يقع على غير نسيان لأنه منه سبحانه وهذا سر إضافة الفعل إلى الله تعالى { أو ننسها}، كل ذلك من اختصاص رحمته وفضله العظيم - انتهى. [42]

****

---

40 تفسير المنار (1/ 345)

41 ففي سنن أبي داود (1/ 118) بسند صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ فَسَارَ لَيْلَةً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَنَا الْكَرَى عَرَّسَ، وَقَالَ لِبِلَالٍ: «اكْلَأْ لَنَا اللَّيْلَ» قَالَ: فَغَلَبَتْ بِلَالًا عَيْنَاهُ، وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ [ص:119] فَلَمْ يَسْتَيْقِظِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا بِلَالٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا ضَرَبَتْهُمُ الشَّمْسُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَهُمُ اسْتِيقَاظًا، فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا بِلَالُ» ، فَقَالَ: أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ تَوَضَّأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ لَهُمُ الصَّلَاةَ وَصَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: " مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرَى» ، قَالَ يُونُسُ: وَكَانَ ابْنُ شِهَابٍ يَقْرَؤُهَا كَذَلِكَ، قَالَ أَحْمَدُ: قَالَ عَنْبَسَةُ: يَعْنِي عَنْ يُونُسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ «لِذِكْرِي» ، قَالَ أَحْمَدُ: الْكَرَى النُّعَاسُ.

42 راجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (2/ 92) بتصرف كثير .

(4) وفي اتساق نسق (النسخ) و(الإنساء أو النسئ) مع تبديل آية مكان آية:

أقول بعد التأمل لمباحث اللفظ والمعنى في الآية مع مراعاة السياق التركيبي والاتساق بين معاني {ننسخ} و{ننسها} و{ننسأها} و{نأت بخير منها أو مثلها}:

لقد خلص لي أن تأويل {ننسخ} يتوجه إلى معنى تبديل حكم آية بحكم آيةٍ أخرى مثلها أو خير-في مصلحة العباد -منها في وقتها تماشيا مع دلالة {نأت بخير منها أو مثلها}. وعلى هذا فإن نسخ آيةٍ لفظاً وحكما بمعنى إزالتها بغير تبديلٍ يشذ عن النظم والنسق المنطقي للكلام الفصيح، وكذلك يخرج نسخ لفظ آيةٍ مع بقاء حكمها وعدم إبدالها بلفظ غيرها. ولم يبقَ من دلالة النسخ -التي تتماشى مع معنى تبديل آيةٍ مكان آيةٍ – غير نسخ الحكم وبقاء اللفظ، واستبدال حكم المنسوخة بلفظ وحكم الناسخة. وهو في الحقيقة الذي يتماشى أيضا مع حكم النسخ التي تأملها العلماء، ولا تبرز حكمة في سواه. فتأمل.

ثم يخلص أيضا أن تأويل {ننسها} والذي يوائم معنى القراءة الأخرى{ننسأها} هو الترك والإرجاء، كما رجَّح العلامة ابن جرير الطبري رحمه الله.

ويكون معنى الآية: فاعلم يا محمد ردا على اليهود المكذِّبين بنسخ الله تعالى لشرائعه وأحكامه، أنَّه إنْ ينسخ الله تعالى حكم آيةٍ فيبدلها بآيةٍ أخرى تنزل بعدها تكون أنفع للعباد في المعاش والمعاد في حينها؛ إن ينسخها أو يتركها ويرجئها ويؤخرها فلا ينسخها فهو سبحانه على كل شيءٍ قدير؛ فلا شريك له في ملكه، ولا حد لقدرته، ولا محيط بعلمه وحكمته، ولا راد لحكمه.

****

والنسخ يعرفه أهل الفقه وأصوله بتعريفات كثيرة لعل أقربها عندي: أنه ارتفاع العمل بحكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه في النزول عُلم تأخره بيقين ولا يمكن الجمع بينهما.[43]

****

قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا}، قال ابن عباس: بألين منها، وأيسر على الناس.

43 وأقول: (ارتفاع العمل) لأن الحكم ثبت بالفعل وثبت العمل به، ولكن إلى وقت محدد في علم الله، ثم توقف العمل به. وأقول: (حكم شرعي) لأن الأخبار والعقائد والاحكام العقلية والعادية (= أحكام العادات) لا نسخ فيها، و(دليل شرعي) لأن الأدلة العقلية والعادية لا يصح بها النسخ، و(متأخر عنه في النزول) لا في ترتيب المصحف، فيكون العمل بالحكم الأول حتى نزول الأخير ونسخه إياه، (علم تأخره بيقين) أي بنقلٍ صحيح ممن عاصر نزول القرآن؛ اى بتوقيف من رسول الله أو صحابته الكرام.(ولا يمكن الجمع بينهما) لأنه إذا أمكن الجمع بينهما بتخصيص أو بغيره بطل معنى النسخ فالعمل حينئذٍ بالحكمين كليهما.
أقول: ولهذا تفصيل كبير في كتابي " المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى؛ دراسة تفصيلية ، يسر الله تعالى إخراجه، والانتفاع به.

قوله تعالى: {أَوْ مِثْلِها}، أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديل حكم آيةٍ بمثلها الاختبار هل يطيع المؤمنون أم لا.

قال ابن عطية: ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى أنفع لكم أيها الناس في عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف، وفي آجلٍ بالثواب إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، (قلتُ-جامعه: فالأفضلية هنا بالنسبة للناس وانتفاعهم بالآيات لا بالنسبة للآيات في ذاتها).

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته. ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ويفعل في أحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء، وهذا لإنكار اليهود النسخ. [44]

***

مسألة: قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها}. وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن. وقوله: {نأت بخير منها} يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيرا من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا وصية لوارث» أجاب الشافعي رضي الله عنه: بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقا للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية، وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه. [45]

*****

<u>(5) يبقي لنا أن نعرف الفرق بين معنى "النسخ" عند السلف، ومعناه في اصطلاح فقهاء المتأخرين.</u>

فهذا تنبيه هام على استعمال المتقدمين من السلف لاصطلاح النسخ وتعميمه ليشمل التخصيص والبيان الذي يكون بين الآيات، وعلى هذا المعنى درج كثير من السلف فاتسع لديهم باب النسخ جدا. ويكون النسخ عندهم يشتمل على معنى تغير في معنى أو أشخاص حكم آية بتخصيصٍ أو استثناء ونحوه.

(قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى: مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارةً-وهو اصطلاح المتأخرين-ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص أو تقييد مطلق. وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه. حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد. فالنسخ، عندهم وفي لسانهم، هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمرٍ خارج عنه.

44راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 190)

45 تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 68-69)

ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يُحصَى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر. انتهى.

وقال وليّ الله الدهلويّ في الفوز الكبير: من المواضع الصعبة في فن التفسير التي ساحتها واسعة جدّا، والاختلاف فيها كثير، معرفة الناسخ والمنسوخ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وما علم في هذا الباب، من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغويّ الذي هو إزالة شيء بشيء، لا بإزاء مصطلح الأصوليين. فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقيا، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص وما قيس عليه ظاهرا، أو إزالة عادة الجاهلية، أو الشريعة السابقة، فاتسع باب النسخ عندهم وكثر جولان العقل هنالك، واتسعت دائرة الاختلاف. ولهذا بلغ عدد الآيات المنسوخة خمسمائة.

وإن تأملت، متعمقا، فهي غير محصورة. والمنسوخ باصطلاح المتأخرين عدد قليل. لا سيما بحسب ما اخترناه من التوجيه. انتهى.

وقال الإمام الشاطبيّ في الموافقات: الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم، في الإطلاق، أعم منه في كلام الأصوليين. فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم، بدليل متصل أو منفصل، نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعيّ، بدليل شرعيّ متأخر، نسخا. لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد. وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.). [46]

والخلاصة.

أن هذه الآية صريحة في بيان جواز وقوع النسخ في كتاب الله تعالى وشرعه، وأن إنكار هذا النسخ لا مسوِّغ له فالله تعالى أعلم بالمصلحة والخير، وأعلم بأوفق الأزمنة لنسخ شرع بشرعٍ، فليس فيه (بَداء) أى ابتداء علمٍ في حقه تعالى، وإنما المسألة مسألة توقيت لوقف العمل بشرع وبدء العمل بشرع جديد، وكل في علمه القديم سبحانه، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية إنما نزلت ردا على اعتراض اليهود والمنافقين ومَن على شاكلتهم على تغيير القبلة، والحق أن كتاب اليهود نفسه وقع فيه النسخ، كذلك يقع النسخ في الشرائع، والآية هنا تشير إلى وقوعه في الآيات في كتاب الله سبحانه ، لا كما توهم البعض بكثير تكلفٍ أنها في نسخ الشرائع والمعجزات؛ فتنبه.

ولكن الكلام على حدوث النسخ وأمثلته فله مجال آخر للبحث، إذ أن القرآن الكريم لا يثبت بغير التواتر، وما ورد عن وجود سور بأكملها وآيات قد رُفعت لا يصح أكثره، بل ما صح فيه آحادٌ لا تحكم على تواتر آيات الكتاب.

---

46 راجع تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 25)

كما أن نص الآية {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: **106**)، مع جمعها مع الآية الأخرى {وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ} (النحل: **101**). يتضح لنا أن معنى النسخ الثابت وجوده في كتاب الله تعالى هو تبديل آيةٍ بأخرى، وهو ما يفيده – بظاهره -لفظ {ننسخ} في الآية والذي عُطف عليه قوله تعالى: {أو ننسها} على قراءتها ب(ننسِها) أو ننسأها)، والعطف ب (أو) التي تفيد التغاير، سواء على معنى (الإنساء) أو معنى (النسيان)، فتبين إما أن يكون هناك نسخ وإنساء (تأخير لنزول حكم)، أو نسخ ورفع. وعلى كلٍ فظاهر الآية يدل أن النسخ غير الرفع، فالنسخ إذن هو إبدال آية مكان آية توقف المتأخرة العمل بالأولى، مع بقاء تلاوة الآيتين، والرفع هو نزول آية ثم رفعها من صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بحيث لا تعد قرآنا يُذكر، فالحديث عنها هو مجرد روايات لا تمت للقرآن الثابت في المصحف بالتواتر بصلة.

فهنا حديثٌ عن ثلاث معانٍ تختلف: النسخ، والنسيان، والإنساء(التأخير).

وحين البحث نجد معنى النسخ لم يتضح المراد منه (تفصيلا) في اللغة أو لغة القرآن أو في السنة المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما دل عليه وقوعه في القرآن الكريم، وفعله عليه السلام. وما جاء في اصطلاح المتأخرين من علماء الأصول لا يُعَدّ (بتفصيله) حاكما على المراد من الآية هنا، كما لا تعد الآية دليلا صريحا على ذلك التفصيل. وخصوصا إذا كان هذا التفصيل فيه مساس بمفهوم تواتر القرآن في بعض ما ذكروه من ضروب النسخ التي لا يقين فيما ورد فيها من دليلٍ. فتنبه.

يقول الإمام ابن حزم الظاهري المتوفى سنة: 556هـ: "لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ إلا بيقين، لأن الله عزوجل، يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} (الآية 64 النساء). وقال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} (الآية 3 الأعراف). فكل ما أنزل الله في القرآن، وعلى لسان نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض اتباعه. فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ، فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف إلى أن يقوم برهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل...". [47]

ويقول ابن الحصار عليّ بن محمّد الأنصاري المتوفى سنة: (611هـ): "إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم، أو عن صحابي يقول آية كذا نسخت كذا.

قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال: ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين، من غير نقل صحيح ولا معارضة بيّنة، لأن النسخ يتضمن رفع الحكم، وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم، والمعتمد فيه النقل والتاريخ، دون

47 انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم4/ 458.

الرأي والاجتهاد. قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض فمن قائل: لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل: يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما). انتهى [48]

وأختم ههنا بكلمة غالية للزركشي في "البرهان" قال:

قيل في قوله تعالى: {ما ننسخ من آية} ولم يقل من القرآن لأن القرآن ناسخ مهيمن على كل الكتب وليس يأتي بعده ناسخ له. وما فيه من ناسخ ومنسوخ فمعلوم وهو قليل بين الله ناسخه عند منسوخه كنسخ الصدقة عند مناجاة الرسول، والعدة، والفرار في الجهاد ونحوه.

وأما غير ذلك فمن تحقق علما بالنسخ علم أن غالب ذلك من المُنسأ، ومنه ما يرجع لبيان الحكم المجمل كالسبيل في حق الآتية بالفاحشة؛ فبينته السنة.

وكل ما في القرآن مما يُدَّعى نسخه بالسنة عند من يراه فهو بيان لحكم القرآن وقال سبحانه: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس}.

وأما بالقرآن على ما ظنه كثير من المفسرين فليس بنسخ، وإنما هو نسأ وتأخير أو مجمل أخر بيانه لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخا، وليس به.

وإنه الكتاب المهيمن على غيره وهو في نفسه متعاضد وقد تولى الله حفظه فقال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}. انتهى [49]

****

{ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض}.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (البقرة: 107)

فلما كان السياق في الرد على تخرصات اليهود والمنافقين على الرسالة المحمدية واتهام شريعة الله سبحانه عقَّبت الآيات بتقرير حقيقةٍ عقائدية راقية يضعها كل مؤمن في قلبه ووجدانه وعقله ويسير معها في الحياة. يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: 23). وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله -في دعوى استحالة النسخ.

48 انظر: كلام ابن الحصار في الإتقان للسيوطي2/ 24.

49 البرهان في علوم القرآن (2/ 43)

وَالْمَعْنَى: قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَهُ التَّصَرُّفُ فِي تَكَالِيفِ عِبَادِهِ، بِمَحْوٍ وَإِثْبَاتٍ وَإِبْدَالِ حُكْمٍ بِحُكْمٍ، وَبِأَنْ يَأْتِيَ بِالْأَخِيرِ لَكُمْ وَبِالْمُمَاثِلِ. وَحِكْمَةُ إِفْرَادِ الْمُخَاطَبِ: أَنَّهُ مَا مِنْ شَخْصٍ إِلَّا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ الْمُخَاطَبُ بِذَلِكَ، وَالْمُنَبَّهُ بِهِ، وَالْمُقَرَّرُ عَلَى شَيْءٍ ثَابِتٍ عِنْدَهُ، وَهُوَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى مُتَعَلِّقَةٌ بِالْأَشْيَاءِ، فَلَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُنْكِرِ النَّسْخُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ. [50]

والاستفهام {ألم تعلم} هنا خارجٌ مخرجَ التقرير، لا مخرج الاستفهام. كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ: اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَم أَنتَ قُلْتَ لِلْنَّاسِ: اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ} (المائدة: 116) خرج مخرج التقرير لا مخرج الاستفهام. وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته، ألا تراه قال بعد ذلك: {وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}.

وهنا نكتة بديعة أيضا في العدول عن ضمير المتكلم المعظَّم سبحانه في قوله { ما ننسخ} إلى ضمير المخاطَب في { ألم تعلم} وبان وجهها، ثم ترك الضمير والإتيان باسم "الله" في {أن الله له ملك السموات والأرض} ويجيبنا أبو حيان فيقول: إِذْ هُوَ الِاسْمُ الْعَلَمُ الْجَامِعُ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ، فَفِي ضِمْنِهِ صِفَةُ الْقُدْرَةِ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي نِسْبَةِ الْقُدْرَةِ إِلَيْهِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظِّمِ، فَلِذَلِكَ عَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ:(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّنَا) إِلَى قَوْلِهِ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ} الذي فيه من الفخامة والعظمة ما فيه. قال أبو حيان: وَخَصَّ السموات وَالْأَرْضَ بِالْمُلْكِ، لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلِأَنَّهُمَا قَدِ اشْتَمَلَا عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَإِذَا كَانَ اسْتِيلَاؤُهُ عَلَى الطَّرَفَيْنِ، كَانَ مُسْتَوْلِيًا عَلَى مَا اشْتَمَلَا عَلَيْهِ، أَوْ لِأَنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْعُلْوِيَّةِ بِالسَّمَاوَاتِ، وَالسُّفْلِيَّةِ بِالْأَرْضِ. فتأمل دقة القرآن.

وهنا أيضا يعاودنا الحديث عن مستويات الخطاب القرآني: فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتا وتقريرا، ولأمته ثانيا تأكيدا وتذكيرا، ولليهود ردا وتبكيتا، وللمنافقين تفنيدا لحيلهم وتكذيبا، بل هو خطابٌ موجَّه لكل مَن يقرأ القرآن فكأنما يعنيه بذاته. وهكذا ينبغي أن نتأمل (مستويات الخطاب القرآني) وأفقه الدلالية المترامية الظليلة.

وقد ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية وتذييل الآية قبلها بين وصفين: القدرة والاستيلاء. فقال سبحانه {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (البقرة: 106، 107) لأن المرء قد يكون قادرا بِمَعْنَى أَنَّ لَهُ اسْتِطَاعَةً عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، لَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ اسْتِيلَاءٌ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَيُنَفِّذُ فِيهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ. فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الِاسْتِطَاعَةُ والملك وَعَدَمُ وجود المانع كَمُلَ بِذَلِكَ التَّصَرُّفُ مَعَ الْإِرَادَةِ. [51]

وفي تذييل الآية قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ} انتقل الخطاب هنا إلى صيغة الجمع من أجل تربية الجماعة المؤمنة وكذلك تربية المخاطبين بالقرآن فردا فردا {مِنْ دُون اللَّه} أَيْ غَيْره سبحانه {مِنْ} أدنى ما يُقال له {وَلِيّ} يَحْفَظكُمْ أو يظاهركم {وَلَا نَصِير} يَمْنَع عَنْكُمْ عَذَابه إِنْ أَتَاكُمْ إنْ أنتم لم تؤمنوا بقدرته وملكه وعدله وتتركوا

---

[50] البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي(1/ 553)

[51] راجع البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (1/ 553)

الاعتراض على حكمه وقضائه. وَلَمَّا كَانَتِ الْجُمْلَتَانِ الْأُولَيَانِ استفهامٌ لِتقْرِيرِ قدرته وملكه سبحانه، نَاسَبَ ذلك أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ الثَّالِثَةُ نَفْيًا لِلْوَلِيِّ وَالنَّاصِرِ، أَيْ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي هِيَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ وَاسْتِيلَائِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْجِزُهُ عَمَّا يُرِيدُ بِهَا شَيْءٌ، وَلَا مُغَالِبَ لَهُ تَعَالَى فِيمَا يُرِيدُ (أفاده أبو حيان).

وهو تذييلٌ فيه رائحة التهديد لأولئك الذين يتملصون من تكاليف الله تعالى بالتلاعب في شريعته واتهامها، سواء كانوا من اليهود أو من أشباههم.

والتذييل أسلوب بلاغي تجده في القرآن كثيرا وهو في البلاغة أن يؤتَى بعد الجملة الأولى بجملة أخرى تشتمل على معناها إما:

للتأكيد، وهو إما تأكيد المنطوق، نحو﴿ وقُل جاءَ الْحَقُّ وزهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهوقًا ﴾(سورة الإسراء 81)، وإما تأكيد المفهوم نحو:

ولست بمستبْقٍ أخا لا تلمه — على شعثٍ. أيُّ الرجال المهذب؟

فقد دلت الجملة الأولى بعدم وجود الرجل الكامل فأكدها بالجملة الثانية "أي الرجال المهذب؟"

أو تأتي للتذييل نفسه، وهو إما يستقل بمعناه لجريانه مجرى المثل، نحو:

كلكم أروغ من ثعلب — ما أشبه الليلة بالبارحة.

أو لا يستقل، لعدم جريانه مجرى المثل، نحو:

لم يبقِ جودك لي شيئاً أؤمله — تركتني أصحب الدنيا بلا أملِ.

ولعل ما يهيج التأمل في هذه الآية هي أسلوب القرآن في الانتقال من مناقشة القضايا الجزئية (كتعامل اليهود والمنافقين مع الرسول باللؤم، وكالنسخ وغيره) إلى تقرير الأصول العامة التي ينبني عليها حقائق عقدية كبرى في الإسلام. وكأنها القيم العليا في تعليق ختامي على نقاش وجدال تأملي طويل تمتعنا به الآيات الكريمة.[52]

---

[52] **وإن شئت أن تفهم هذا فتأمل كيف بدأت سورة مريم بقصة نبي الله زكريا، ثم يحيى عليهما السلام، ثم قصة نبى الله عيسى عليه السلام بكثير تفاصيل، ثم جاء التعليق الختامي في صورة حكم إلهى في قضيةٍ تم تناولها بمستوى لغوي موسيقي (ينتهي بالياء المشددة الممدودة الرخية " صبيا، نبيا، حيا، شقيا... وهكذا) يتغير هذا الجرس الموسيقي في فواصل الآيات تماما عند النطق بالحكم الإلهي النهائي الذي تعلوه هيبة الثبات التي تتقرر بها كليات العقيدة حيث تطول الفاصلة، وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية. {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مريم: 34، 35) . (أفاده صاحب الظلال رحمه الله تعالى).**

{ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ
(108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا
تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ
هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) } (البقرة: 108 - 112)

في هذه الآيات تتدفق اللغة القرآنية في خطابها السامي لبناء الأمة المؤمنة الناشئة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي تمثل النموذج الأسمى للأمة الخاتمة الحاملةِ لراية منهج الإسلام إلى آخر الزمان. هذا البناء الإيماني العميق الأساسات والمتين الأعمدة لوحظ فيه تلافي أخطاء الأمم السابقة وتجنب منزلقاتهم بعيدا عن حدود المنهج الرباني، وهنا تبدأ الخطوط الرئيسية التي تمتد في عمق منهجية سورة البقرة تتضح شيئا فشيئا لتبزغ في أرقى تجلياتها في خضم هذه القواعد المنهجية في البناء على أسسٍ ربانية مفارقة بذلك انحرافات اليهود والنصارى عن (سواء الصراط) ومقتضى العقيدة والشريعة الربانية. إنه المنهج الرباني الذي تضع سورة البقرة في هذه الآيات وأمثالها خطوطه لبناء الأمة الربانية. وذلك لأن هذه السورة هي فسطاط القرآن الجامعة لجميع ما تفصّل فيه؛ وهي سنام القرآن، وسنام الشيء أعلاه؛ ففيها لذلك جوامع ينتظم بعضها ببعض تبيّن تفاصيل البناء في سنامية معانيها وسيادة خطابها التي يشاكلها -ولكن في إجمالٍ-سنامية معاني الفاتحة قبلها.

لقد جاء الإسلام بعظمته الربانية في بناء الضمير الإيماني قبل مناقشة تفاصيل التشريع. مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشأ أساسات البناء الإيماني في نفوس أتباعه لأكثر من نصف عمر الدعوة ويعلمهم كيف يتعاملون مع المنهج الرباني بالتسليم والرضا بحكم وحكمة الرب الرحمن الرحيم. ثم كان الاجتماع في المدينة المنورة بأهل الكتاب، والذين استغلوا بكورية الإيمان في قلوب الرعيل الأول وحاولوا أن يمسخوهم مثلهم في العناد والمجادلة والتملص من منهج الله تعالى. وهنا بدأ التدخل الرباني ليعطي الدرس للمؤمنين ساعتها؛ وللأجيال القادمة إلى يوم القيامة والتي ستقابل حملات التشكيك والإماهة والتذويب للهوية والطعن في المنهج الرباني.

ومع الآيات نسير

ذكروا في اتصال هذه الآية ما حاصله: أن الشبهات التي ألقاها اليهود في حربهم المستمرة على دين الله الحق ربما تكون قد خلقت في نفوس المؤمنين بعض التساؤلات والتي بدورها تؤدي إلى الجدالات والتحايلات التي ملأت علاقة اليهود مع أنبيائهم ومع نبى الله موسى عليه السلام خصوصا. وعلى كلٍ؛ فالخطاب -على الأرجح- للمؤمنين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وفيه نهى عن اتباع سبيل المجرمين، واعتراضهم المستمر على منهج الله تعالى والتحايل والتحجج للتملص من تكاليفه بعقولهم الفاسدة وأهوائهم الماجنة.

فإنه (لما بيَّن لهم سبحانه أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقررهم على ذلك بقوله: (أَلَمْ تَعْلَمْ) أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالا عليهم كقولهم – لعنهم الله: {اجعل لنا إلها}، و{أرنا اللَّه جهرة}، وغير ذلك). [53]

وقد ذكر العلماء في سبب نزول الآية كلام لا يتصل أكثره بسند صحيح، وكذا ذكروا في المخاطَب بها. والحق أن سياق الآية واضح لا يحتاج لذلك؛ وخصوصا بعد بيان اتصالها بقضيةٍ خطيرة في العقيدة وهي تعامل المؤمنين مع النبوة ومع الوحي بعمومه، فتأمل. [54]

{أمْ} تأتي في اللغة إما متصلة بما قبلها بمعنى أو وتكون في استفهام ويقصد بها إرادة التعيين بين متماثلين أو التسوية بينهما. كما في قوله تعالى: {أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ} (الأنبياء 109) أي أجيبوا! وللتسوية كما في قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا}: أي جزعنا وصبرنا سواء. هذه المتصلة. وأما المنقطعة فهى التي لا علاقة لها بما بعدها وتكون بمعنى (بل) مثل قوله تعالى: {قل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ} (الرعد 16). [55]

وقد ذكر العلماء في معناه في هذه الآية الوجهين: اتصالها بما قبلها وانقطاعها في كلام مستأنفٍ جديد ولكل وجهته ووجهه ومحل خلافهم (أعاريب القرآن) [56]. فقيل هو معطوف على قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وتقديره: ألم تعلموا ذلك أم لم تعلموا فتريدون أن تسئلوا رسولكم...، وقيل هو لاستئناف

---

[53] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 176) .

[54] وراجع مشكورا ما جاء في زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 99) في سبب نزول الآية والمخاطب بها.

[55] حرف (أم) يأتي في اللغة على ثلاثة أوجه:

1- إما أن تكون متصلة (تعطي معنى العطف أو النسق) لارْتِبَاطِ مَا قَبْلَهَا بِمَا بَعْدَهَا فِي الْمَعْنَى وَهِيَ تأتي تارةً لِ(طَلَبِ التَّعْيِينِ) وهذا النوع يتطلَّب جوابًا بذكر أحد المعادلين وليس التخيير :- أتعرف الجواب أم لا ؟ - أأنت المدرسُ أم أخوك؟ وتَكُونُ مَسْبُوقَةً بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ أَوْ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ، كما في قوله تعالى: {أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ} (الأنبياء 109)،

2- وتأتي بمعنى العطف متصلة أيضا لِلتَّسْوِيَةِ بين أمرين إذا سبقت بهمزة التسوية وبكلمة سواء أو ما شابهها، ووقعت بين جملتين يصحّ حلول المصدر محلّهما، وهذا النوع لا يتطلّب جوابًا: -سواء عندي أحضرت أم لم تحضر: أي حضورك وعدمه سواء ، -{سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا }: أي جزعنا وصبرنا سواء . و{إن الذين كفروا سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} (البقرة 6).

3- وتأتي منقطعة إذا تمَّ الكلام قبلها، لِوُقُوعِهَا بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ مُسْتَقِلَّتَيْنِ. وهنا تأتي بمعنى بل، مثل قوله تعالى: {قل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ} (الرعد 16). وحرف (بل) يفيد الإضراب؛ أي: العدول عن الكلام السابق والالتفات إلى ما بعده.

[56] وراجع – إن شئت–تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 492) ففيه تفصيل.

الاستفهام المفسَّر بها. قال الزجاج: والمعنى " بل أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل "، فمعناه أنهم نُهوا أن يسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم -ما لا خير لهم في السؤال عنه وما يُكَفِّرهم، وإنما خوطبوا بهذا بعد وضوح البراهين لهم وإقامتها على مخالفتهم. فأُعْلِم المسلمون أن السؤال بعد قيام البراهين كفر. انتهى

والعتاب هنا للمؤمنين على خواطرٍ خطرت بنفوسهم. بدليل أنه علق الاستنكار على الإرادة لا على صدور السؤال منهم فقال سبحانه {أم تريدون أن تسألوا} ولم يأتِ (أم تسألون)، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم – خاصةً- وأتباعه المؤمنون عامةً أقرب عند الله تعالى وأكرم من أن يدعهم يقعون في كفر اليهود وتعنتهم، فأتاهم بما يحذرهم سوء الأدب مع الله قبل وقوعه. والحمد لله رب العالمين.

وهنا مبدأ تربوي هام للأمة المؤمنة في الأدب مع الله تعالى ومع النبوة والوحي: حيث نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وإنْ تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تُبْدَ لكم} (المائدة: 101) أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: "إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته". وفي صحيح مسلم: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. [57]

فالأدب مع النبوة والتسليم للوحي ولحكمة الله تعالى في تشريعه دون اللهاث خلف التساؤلات التي تضاهئ تحايلات اليهود للتملص من شرع الله تعالى، وقد مر بك مثل فعلهم ذلك في قصة البقرة، ولعل الإشارة اللطيفة بالإحالة على قصة البقرة منحى دقيق يدل المتأمل البصير على ما نقصده من تلاحم القرآن واتصاله في منهج ونظامٍ واحدٍ متسق.

قال تعالى: {وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} تذييلٌ للتحذير وللدلالة على أن المحذَّر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر أي لا تتبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث «الصحيحين»: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أبي زوجة ثابت بن قيس: «إني أكره الكفر» تريد الزنا. (أفاده صاحب التحرير)

---

[57] تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 380) باختصار.

ويتبدل= أي يستبدل، والباء فيها للعوض والبدل أَيْ: مَنْ يَأْخُذِ الْكُفْرَ بَدَلَ الْإِيمَانِ؟ وَهَذِهِ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْكُفْرِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: {اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى}. وَفَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذَا بِأَنْ قَالَ: وَمَنْ تَرَكَ الثِّقَةَ بِالْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَشَكَّ فِيهَا وَاقْتَرَحَ غَيْرَهَا.

{فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ} أي قصد السبيل. قال أبو حيان: وَلَمَّا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تُوَصِّلُ سَالِكَهَا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، كَنَّى عَنْهَا بِالسَّبِيلِ، وَجَعَلَ مَنْ حَادَ عَنْهَا: كَالضَّالِّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَنَّى عَنْ سُؤَالِهِمْ نَبِيَّهُمْ مَا لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ بأخذ الْكُفْرِ بدل الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ شَرْطِيَّةٍ، وَصُورَةُ الشَّرْطِ لَمْ تَقَعْ منهم بَعْدُ تَنْفِيرًا عَنْ ذَلِكَ، وَتَبْعِيدًا مِنْهُ. فَوَبَّخَهُمْ أَوَّلًا عَلَى تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِمْ بِسُؤَالِ مَا لَيْسَ لَهُمْ سُؤَالُهُ، وَخَاطَبَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ أَدْرَجَهُمْ فِي عُمُومِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ. وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقَعَ، لِأَنَّهُ ضَلَالٌ عَنِ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ، فَصَارَ صَدْرُ الْآيَةِ إِنْكَارًا وَتَوْبِيخًا على مَن يفعل ذلك، وَعَجُزُهَا تَكْفِيرًا وَضَلَالًا. وَمَا أَدَّى إِلَى هَذَا فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَعَلَّقَ بِهِ غَرَضٌ وَلَا طَلَبٌ وَلَا إِرَادَةٌ. انتهى.

حقيقة الإيمان العبودية التي هي التسليم لأمر الله.

ويبدو من الناحية الدلالية سؤال: إذا كان مستبدل الكفر بالإيمان بالفعل ضالّاً، فما فائدة الشرط وجوابه هنا؟ ويجيب الراغب في تفسيره بما لم أفهمه، وأفاد صاحب التحرير ما ملخصه: هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضيا لقصد الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه؛ حتى إنه عند ما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل؛ فكأنه حاصلٌ من قبل الشرط نحو قوله تعالى: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى} (طه: 81) وهم يجعلون (قد) علامة على هذا القصد. وأحيانا يجعلون الجزاء ماضيا مريدين أن حصول مضمون الشرط كاشف عن كون مضمون الجزاء قد حصل أو قد تذكره الناس نحو قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} [(يوسف: 77) ودلالة الجزاء هنا أنه يحمل معنى كشف او ذكر ما سبق أن وقع فعلا حال ذكر ما يحضر، ومعناه هنا فلا تعجب إذ قد سرق أخ له، وفي الآية معناه: ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه قد كان ضل قصد السبيل من قبلُ؛ كما تقول: من يقع في الحفرة، فقد عشى بصره. [58]

ولكنني أقول: المعنى العميق لهذا التركيب فيه أن من يستبدل الكفر الذي هو منهج اليهود مع الوحي بالإيمان الذي هو هدايات القرآن فهو الضال بحق علم ذلك كفرا وضلالا أو جهله. فهو تأكيد لمعنى ضلالهم وإرشادهم أن طريق المتملصين من الشرع كفر. فتنبه.

وهو تذييل آخر وفيه تقرير للحقيقة التي تمحَّضت بعد فهم قضية مناكفة الأنبياء والتملص من منهجهم. القضية صارت إذن بين (إيمانٍ) و(كفر). فحقيقة الإيمان هو التسليم الكامل لمنهج الله تعالى بتصديق خبره، والتزام أمره. كما أن الكفر هو رفض منهج الله تعالى وتركه إلى هوى النفوس. وهذا هو جوهر المفارقة والمفاصلة بين المسلمين الذين ارتبطوا بربانية المنهج، وأهل الكتاب من قبل حين حرفوا دينهم واخترعوا منهجا لهم وضعه أحبارهم ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

---

[58] راجع الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير (1/ 667)

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: 31). فجوهر الإيمان الصحيح هو عبادة الله وحده، فإذا ما اعترض على منهج الله صار الأمر إلى الهوى، فصار الهوى إلها يُعبد من دون الله، كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجاثية: 23). فمن ترك لهواه العنان يقبل ما شاء من منهج الله ويرد منه ما لا يرضي هواه، كان عابدا لهواه وليس عابدا لله تعالى. ولشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-رسالة ماتعة نافعة جدا سماها" العبودية" بسط فيها هذا المعنى فراجعه تجد خيرا.

استعمال لفظ "الضلال" ودلالاته في القرآن.

ونستطرد أيضا بنكتةٍ بديعةٍ يذكرها صاحب المفردات في معنى "الضلال" يقول:

الضَّلَالُ: العدولُ عن الطّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، قال تعالى: {فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها} (الإسراء/ 15)، ويقال الضَّلَالُ لكلّ عدولٍ عن المنهج، عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا، فإنّ الطّريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدا، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تُحْصُوا». وقال بعض الحكماء: كوننا مصيبين من وجه وكوننا ضَالِّينَ من وجوه كثيرة، فإنّ الاستقامة والصّواب يجري مجرى الهدف من المرمى، وما عداه من الجوانب كلّها ضَلَالٌ. وإذا كان الضَّلَالُ تركَ الطّريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا، صحّ أن يستعمل لفظ الضَّلَالِ ممّن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضَّلَالُ إلى الأنبياء، وإلى الكفّار، وإن كان بين الضَّلَالَيْنِ بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النّبي صلّى الله عليه وسلم: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى} (الضحى/ 7)، أي: غير مهتد لما سيق إليك من النّبوّة. وقال في يعقوب: {إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} (يوسف/ 95)، وقال أولاده: {إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (يوسف/ 8)، إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه، وكذلك: {قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (يوسف/ 30)، وقال عن موسى عليه السلام: {فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} (الشعراء/ 20)، تنبيه أنّ ذلك منه سهو، وقوله: {أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما} (البقرة/ 282)، أي: تنسى، وذلك من النّسيان الموضوع عن الإنسان.

والضَّلَالُ من وجه آخر ضربان: ضَلَالٌ في العلوم النّظريّة، كالضَّلَالِ في معرفة الله ووحدانيّته، ومعرفة النّبوّة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً}(النساء/ 136)، والضَّلَالُ البعيدُ إشارةٌ إلى ما هو كفر، وكما في قوله:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً}(النساء/ 167) ، وكقوله: {فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ}(سبأ/ 8) ، أي: في عقوبة الضَّلَالِ البعيدِ، وعلى ذلك قوله: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ}(الملك/ 9) ، {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ} (المائدة/ 77). وضرب هو ضَلَالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأحكام الشّرعيّة التي هي العبادات.

وأما قوله تعالى: {أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ} (السجدة/ 10)، كناية عن الموت واستحالة البدن. وقوله: {وَلَا الضَّالِّينَ} (الفاتحة/ 7)، فقد قيل: عني بِالضَّالِّينَ النّصارى.

وقوله تعالى: {فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى} (طه/ 52)، أي: لا يَضِلُّ عن ربّي، ولا يَضِلُّ ربّي عنه: أي: لا يغفله.... إلى آخر مبحثه الرائع رحمه الله.[59]

اتضاح المواقف.

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) } [البقرة: 109 - 112]

ذكر المفسرون في هذه الآية رواياتٍ، وزعموا أن الآية نزلت بسببها، والحق ان الآية – وإن كانت تنتظم ما رووه على عمومها-ليست على ما ذكروا. وقد أحسن العلامة الطبري في تفسيره حيث دفع تنزيل الآية على تلك الروايات بعينها مستدلا ببراعةٍ فائقةٍ بعموم لفظ الآية ودلالاتها على أن ما ذكروا من الروايات هو حكايةٌ عن نفرٍ قليلٍ من اليهود؛ مع أن لفظ الآية {كثير} وهو بصيغة الجمع {يردونكم} التي تعبر عن موقفٍ عامٍ وليس فعلا فرديا من نفرٍ من المشركين، وعلى هذا تتحدد صيغةٌ ربانيةٌ لفهم قضية التعامل مع أهل الكتاب. فتأمل براعة الترجيح والتدبر عند علمائنا تجد عجبا وتعلم سفاهة من يدعي أن نهضتنا في انفصالنا عن تراثهم.[60]

كما يتبين هنا مبدأ عموم اللفظ وتقديم دلالاته المتسعة على خصوص السبب، وهي مسألة تجدها في أصول التفسير وقواعده. فإن كثيرا من أهل الأصول وعلماء التفسير يتبنى مبدأ: ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يقولون إن الآيات التي وردت على أسباب فهى وإن كانت تنتظم أسبابها لا محالة، فهى في كثير من الأحيان تتعدى إلى عموم دلالتها. ويمثلون لذلك بالآيات التي وردت ردا على أسئلةٍ ووقائع وقعت للصحابة فأُنزل بسببها آيات هي تشريع عام للامة إلى يوم القيامة مثل قضية الظهار واللعان وغيرها. أقول: وهذه قاعدة صحيحة قطعا يمثل لها ما قدمنا من الترجيح في الآية المذكورة آنفا (109 من البقرة)، وما كان في مرتبتها من عموم اللفظ. ويشذ عن هذه القاعدة - على خلافٍ يستحق التأمل- ما إذا كان اللفظ فيه نوع خصوص بنوعٍ أو شخصٍ او أشخاصٍ ومثل ذلك، كما يشذ عنها ما إذا كان الكلام لا ينفك لفهمه عن سببه كما في آية {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} (البقرة: 158)؛ فقد فهم عروة بن الزبير أن الطواف بالصفا والمروة مباح وليس بركن في الحج، وقد ردت ام المؤمنين عائشة – عليها الرضوان- على عروة في فهمه ذلك بسبب نزولها وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية. فنزلت. ومثل ذلك وإن كان أخفى ما نقلنا آنفا في قوله تعالى {لا تقولوا راعنا} الآية؛ فمن المشكل أن ينهى المؤمنون عن لفظ عادي، إلا أن يكون خلف ذلك قصة فاستصحب ذلك في تعاملك مع تدبر كتاب الله والله أعلم.

---

[59] المفردات في غريب القرآن (ص: 509) للراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.

[60] راجع مشكورا تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 500)

******

نعود فنقول:

بيَّن الله - تعالى - في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم - من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم - لم يكتفوا بكفرهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسدا له ولقومه على نعمة النبوة، بل هم يزيدون على ذلك ما قصه - تعالى - بقوله: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا} ، فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل؟ وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله -تعالى - قبل آيات: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} (البقرة: 105) وقد بيَّن الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض: بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم، كما سيأتي في سورة آل عمران، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين.

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه، إنما هو مكر السوء، يبعث عليه الحسد، وقال: {حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرةً على حقٍ يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل، وإن ظهر لصاحبه الحق؛ ولذلك قفاه بقوله: {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} أي بالآيات التي جاء بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه.

ثم أمر الله -تعالى -المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، فقال: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}، ولم يقل: فاعفوا واصفحوا (عنهم) كأنه لإرادة العموم، أي عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان: 63).

والعفو ترك العقاب على الذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

(قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله): وفي أمره - تعالى - لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة؛ لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل للقوي الجاهل، (قال): وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذانٌ بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا

على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل، وإنما بقاءُ الباطل في غفلةِ الحقِّ عنه. ثم قال -تعالى -: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته، ويؤيدهم بنصره، ثم أحالهم بقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} على قدرته النافذة التي لا يشذ عنها شيء في العالمين تأييدا للوعد، وكشفا لشبهة مَن عساه يقول: أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد، الضعيفة القوى، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالين، وتقف مع الأمم القوية موقف العافين القادرين؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه: إن الذي أوقفها هذا الموقف، ومنحها هذا الوصف، وهو القادر على أن يهبها من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: 40) وقد فعل سبحانه فلله الحمد. انتهى [61]

أخلاق الدعوة لا تُنسخ.

أقول: كلام صاحب المنار يكتب بماء الذهب، وقد جعل شيخنا الغاية التي قيد بها الأمر العفو والصفح هي النصر الذي يمن الله به على من نصر دينه، وهو ينتظم كثيرا من الأمور، وهو جيد في تحقيقه.

وكثير من المفسرين جعلوه أمرا واحدا، وهو الأمر بقتالهم، ويعبر بعضهم بآية السيف، ويعنون آية التوبة التي فيها حكم الجزية {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ... الآية} (التوبة: 29). وقال بعضهم: إنه توقيتٌ (تحديد وقت) لبيان الحكم بغيره بعد ذلك على وفق الظروف؛ فلا يصح أن يسمى منسوخا-أي في عرف الأصوليين-وإن روي عن ابن عباس-رضى الله عنه-وغيره، وذلك أن السلف كانوا يتوسعون في باب النسخ كما وضحنا. وهو ما ارتضيه لنفسي بعد التحقيق.

وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم -كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهدا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فغدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين عليه مرارا، وكان يعفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلائهم.

إذن فالذي قضاه الله تعالى في أولئك المشركين بعد ذلك هو من باب البيان لبعض أمر الله الذ قال فيه تعالى: {حتى يأتي الله بأمره} ويظل الأمر بالعفو والصفح ديدن دعوة الإسلام وجوهره وخلقه الذي لا يأتي عليه نسخ، ويظل أمر الله على اتساع معناه، فربما يكون النصر الذي وعد الله به المؤمنين أو انتصار الإسلام واضمحلال ما سواه الذي صرَّح به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من حديثه الشريف. وما أجمل ما قال صاحب الظلال:

وهكذا؛ يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم، ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى

---

[61] تفسير المنار (1/ 346)

العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة. ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة. [62]

أقول: وإن التساهل الذي حدث في إطلاق دعوى النسخ ينم عن سطحية في تناول قضايا الإسلام، حتى قَالَ أبو عبيدة-كما ذكر القرطبي عنه: كُلُّ آيَةٍ فِيهَا تَرْكٌ لِلْقِتَالِ فَهِيَ مَكِّيَّةٌ مَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَحُكْمُهُ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ مُعَانَدَاتِ الْيَهُودِ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ. انتهى

قلتُ: وربما كان السلف لهم عذرهم في أنهم أطلقوا النسخ على أمور كثيرة منها التخصيص والتوقيت والبيان وغيره، ولم يكن يوازي عندهم رفع العمل بحكمٍ رفعا نهائيا لتعارضه مع الناسخ، كما هو في اصطلاح المحدثين. وإنما ننفي في هذه الآية وقوع النسخ بمعنى تعارض الآيتين، فليس تعارض ضرورةٌ واقعةٌ فرضها التعامل مع موقفٍ مؤقت في التاريخ بعينه؛ ليست تعارض أبداً مبدأً دعويا أخلاقيا ثابتا في الإسلام من العفو والصفح حين جهل الجاهلين. وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: " إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثت معلماً ميسّراً " (رواه مسلم وغيره).

فالعفو عن الجاهل حتى يُعلَّم والصفح عن السفيه المبغض هو من صفات وأخلاق الإيمان والدعوة المحمدية الثابتة، أما تقلب الأمور في علاقة المؤمنين بغيرهم بين سلامٍ وحربٍ، أو بين هدنةٍ وصلحٍ، وبين تعايشٍ وبغضٍ حسب مقتضيات الظروف والوقائع فهو من باب التوسعة التي مَنَّ الله تعالى بها على عباده المؤمنين في دولة الإسلام يقدرونها بحكمتهم حسب ظروفهم ووفق الضوابط الأخلاقية العليا في دعوة الإسلام. وليس في ذلك أبدا باب ناسخٍ ومنسوخٍ فتدبره تجده حقا إن شاء الله.

وتأمل ما رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأُسَامَةُ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ ابن الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَا حَتَّى مَرَّا بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ - وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ- فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وقال: لا تغيروا عَلَيْنَا!

فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا! فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَتَبَّ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ-يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ-قَالَ كَذَا وَكَذَا.

---

[62] **في ظلال القرآن (1/ 103)**

فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وأمي! اعف عنه واصفح، فو الذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فِعْلُ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً}. انتهى نقلا عن القرطبي.

*****

دعائم التمكين.

ومما يؤكد ما اتبعناه من مسلكٍ في فهم حقيقة هامة في اخلاق الدعوة ما أردف تلك الآية (البقرة 109) وهو قوله تعالى:

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

(قال الأستاذ محمد عبده- عليه الرحمة): ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة دلهم على بعض وسائل تحققه، وهي الصلاة التي توثق عروة الإيمان، وتعلي الهمة، وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها، والتعارف في مساجدها، والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسمٍ واحد، فقال سبحانه: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، ولم تُذكَر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في موضعٍ من الكتاب الحكيم إلا والمقام يقتضي الذكر لبيان فائدةٍ خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر.

[أقول-جامعه: وذكر الصلاة والزكاة هنا -وهما الركنان الأعظمان في الإسلام-هو تكملة لمنهج أخلاق الدعوة المحمدية وثوابتها؛ فبدأ بالعفو عن الجاهل والصفح عن السفيه الحاقد، ثم أردف ذلك بأن بيَّن -سبحانه -أنَّ نصره وإتمام أمره بأن يدخل الإسلام كل بيتٍ هو في الالتزام بشرع الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وما أجمل ما قال أحد الدعاة: "أقيموا دولة الله في قلوبكم يقيمها الله على أرضكم".

فالجهاد في تحقيق معاني العبودية في نفوسنا هو سبب النصر الحق، وليس السلاح؛ مصداقا لقوله تعالى: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (آل عمران/ 123)، ثم قال سبحانه تنويها بسبب الهزيمة في غزوة أحدٍ: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (أل عمران 132). مُعَاتَبَةً لِلَّذِينَ عَصَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي غَيْرِهِ. ثُمَّ قَالَ سبحانه: «وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ، وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (الآيات 133 حتى 136)، وفي الانتقال من

الحديث عن الجهاد إلى تفصيل واجبات العبودية أكبر دلالة على أن أول الجهاد جهاد النفوس وقهرها على طاعة الله، فإذا انقادت فالنصر من الله كما وعد سبحانه.

وإنْ ظل للسيف موضعه كما قال المتنبي:

وَوَضْعُ النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى.......مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدى] انتهى.

قال الشيخ محمد عبده:

وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقا، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذلك بالتوجه إلى الله - تعالى - ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه، وإشعار القلب عظمته وكبرياءه، فبهذا الشعور ينمو الإيمان، وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذا في الحق، وأشد بعدا عن الأهواء، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية، ومن الثقة بقدرة الله - تعالى -، فإذا كان قوله - تعالى - بعد الوعد بالنصر: {إن الله على كل شيء قدير} دليلا أيَّد به الوعد، فقوله: {وأقيموا الصلاة} هداية إلى طريق الاقتناع التام بهذا الدليل – وهو الصلاة والزكاة- حتى يكون وجدانا للنفس لا تزلزله الشبهات، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات.

وقد مضت سنة القرآن بقَرْن الزكاة بالصلاة؛ لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع، ثم إن فيها من معنى العبادة ما في الصلاة، فإن المال -كما يقولون -شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله -تعالى -كان بذله مزيدا في إيمانه، فهي إصلاح روحي أيضا.

وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الإيمان في نصر الله المؤمنين، وجعل السلطان لهم على الكافرين، وبيان أن إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا، بيَّن لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة، فقال سبحانه: {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله}.

وقوله -تعالى -: (تجدوه) هو كقوله: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه، ولكن لما كان الجزاء مبنيا على أثر العمل في نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه، ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه، ويدل على تحققه، فقال سبحانه: {إن الله بما تعملون بصير} فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئا. انتهى.[63]

(ثم قال الأستاذ الإمام): هذه الآيات هي آخر ما أدب الله - تعالى - به المؤمنين في هذا المقام على ما يخامر البعض منهم وما يظهر له من الشبه في مستقبل الإسلام وتأييده - تعالى - لنبيه وإعزازه لحزبه، وكان أولها قوله - عز وجل -: {يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا} (البقرة 104). وقد جاء هذا الإرشاد والتأديب في سياق الكلام

---

[63] تفسير المنار (1/ 346) بتصرف وتعليق.

على أهل الكتاب؛ لأن مكرهم السيئ كان مثارا لبعض الخواطر في المسلمين، فالكلام تأديب للمؤمنين ورد على اليهود. انتهى مختصرا.

****

أقول- جامعه: جاء البناء الإيماني للأمة الخاتمة حاملة الشعلة والراية في صورة بيان عملي بالخطاء التي وقعت الأمم من قبل؛ وما أحسن موضع ذلك في التعليم والتربية على تصحيح الاعتقاد والعمل جميعا. فإن تربية الأمة على توقير التعامل مع الوحى الذي يتصرف بحكمة الله تعالى، وتوقير التعامل مع الذي انزل عليه الوحى صلى الله عليه وسلم، ثم الإرشاد إلى الاعتقاد الجازم بأن الله ناصر الحق، وما علينا سوى المضي في أمر الله والدعوة إليه متحلّين بالصبر والعمل الصالح. كل ذلك هو منهج الحق الذي لا يتبدل ولا ينتسخ، مع أن الأحكام تتبدل بمكانها من فقه الواقع ومتطلباته. فالإسلام بهذا دين متكامل ومنهج شامل لا يعرف الجمود، وفي ذات الوقت به من الثوابت التي لا تقبل الميوعة. فتدبر كيف أن هذه السورة ببنائها للأمة الإيمانية سورة عظيمة.

****

تلك أمانيهم بغير برهان.

{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)}

قال الطبري رحمه الله: (وقالوا)، أي وقالت اليهود والنصارى. ومعناه: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن لما كان معنى الكلام مفهوما عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبر عنهما.

قلت -جامعه: وهو من حسن البلاغة التي تقدر عقل المتلقي ما دام أمن اللبس في الكلام. ونحوه في الإجمال قوله-عز وجل-{جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} ويسميه أهل المعاني (اللف والنشر) وهو من ضروب البلاغة اعتمادا على فهم المخاطَب. قال صاحب البحر المحيط: ولفَّهم في زعمهم { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ}، لِأَنَّ الْقَوْلَ صَدَرَ مِنَ الْجَمِيعِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا قَالَ ذَلِكَ، لَا أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ فَرْدٍ قَالَ ذَلِكَ حَاكِمًا عَلَى أَنَّ حَصْرَ دُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي العطف ب(أو) الَّتِي هِيَ لِلتَّفْصِيلِ وَالتَّنْوِيعِ، وَأَوْضَحَ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِمُعَادَاةِ الْفَرِيقَيْنِ، وَتَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، فَامْتَنَعَ أَنْ يَحْكُمَ كُلُّ فَرِيقٍ عَلَى الْآخَرِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَنَظِيرُهُ فِي لَفِّ الضَّمِيرِ، وَفِي كَوْنِ (أَوْ) لِلتَّفْصِيلِ قوله تعالى عنهم: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (البقرة: 135) إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّ الْيَهُودِيَّ لَا يَأْمُرُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّ يَأْمُرُ بِالْيَهُودِيَّةِ .انتهى.

قال الطبري: وأما قوله تعالى: {تلك أمانيهم}، فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قولهم؛ أنه أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علمٍ بصحة ما يدعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة.

قال تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)}.

وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم بدعاء الذين ادعوا ذلك إلى أمر عدلٍ بين جميع الفرق: مسلمها ويهودها ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا. يقول الله لنبيه: قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: (هاتوا برهانكم) على ما تزعمون، فنسلم لكم إن كنتم محقين. والبرهان: هو البيان والحجة والبينة. انتهى[64]

قلتُ-متأمله: ونلحظ ههنا ملحظين: أولهما هذه الدعوة الصادقة إلى الحوار ومقارعة الحجة بالحجة التي تتبين في هذا الرقي القرآني في التعامل مع الخصم حتى ولو ما يقوله سفها وخبطا بغير حقٍ. فالحديث هنا بين {وقالوا} و {قل}. قال تعالى: {وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

---

[64] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 507) باختصار.

ثم تجد قيمة العقل والمنطق والحجة والبرهان والدليل في الإسلام الذي يدفع أتباعه إلى فهم الحجة وإدراك الدليل وسل البرهان في كل مصاولة بين الحق والباطل. قال الزمخشري وصدق: وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأنّ كل قولٍ لا دليلَ عليه فهو باطلٌ غيرُ ثابت.ا.هـ

والتَّقْلِيدُ هُوَ قَبُولُ الشَّيْءِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ. فإن كان له دليل فهو اتباع. فإن أخرجت له الدليل فهو اجتهاد.

يقول الشيخ الدهلوي رحمه الله: [وعَلى هَذَا وجدنَا محققي الْعلمَاء من كل مَذْهَب قَدِيما وحديثا. وَهُوَ الَّذِي وصّى بِهِ أَئِمَّة الْمذَاهب أَصْحَابهم. وَرُوِى عَن أبي حنيفَة رَضِي الله عَنهُ أنه كَانَ يَقُول: لَا يَنْبَغِي لمن لم يعرف دليلي أَن يُفْتِي بكلامي.

وَكَانَ رَضِي الله عَنهُ إذا أفتى يَقُول: هَذَا رأى النُّعْمَان بن ثَابت يَعْنِي نَفسه، وَهُوَ أحسن مَا قَدرنَا عَلَيْهِ فَمن جَاءَ بِأَحْسَن مِنْهُ فَهُوَ أولى بِالصَّوَاب.

وَكَانَ الامام مَالك رَضِي الله عَنهُ يَقُول: مَا من أحد الا وَهُوَ مَأْخُوذ من كَلَامه ومردود عَلَيْهِ إِلَّا رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم.

وروى الْحَاكِم وَالْبَيْهَقِيّ عَن الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ أنه كَانَ يَقُول: إذا صَحَّ الحَدِيث فَهُوَ مذهبي وَفِي رِوَايَة إذا رَأَيْتُمْ كَلَامي يُخَالف الحَدِيث فاعملوا بِالْحَدِيثِ واضربوا بكلامي الْحَائِط.

وَقَالَ يَوْمًا للمزني: يَا أَبَا إِبْرَاهِيم لَا تقلدني فِي كل مَا أَقُول، وَانْظُر فِي ذَلِك لنَفسك، فإنه دين.

وَكَانَ رَضِي الله عَنهُ يَقُول: لَا حجَّة فِي قَول أحدٍ دون رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وإن كَثُرُوا، وَلَا فِي قِيَاس، وَلَا فِي شَيْء، وَمَا ثمَّ الا طَاعَة الله وَرَسُوله بِالتَّسْلِيمِ.

وَكَانَ الإِمَام أَحْمد رَضِي الله عَنهُ يَقُول: لَيْسَ لأحد مَعَ الله وَرَسُوله كَلَام.

وَقَالَ أَيْضا لرجلٍ: لَا تقلدني، وَلَا تقلدن مَالِكًا وَلَا الْأَوْزَاعِيّ وَلَا النَّخعِيّ وَلَا غَيرهم، وَخذ الْأَحْكَام من حَيْثُ أخذُوا؛ من الْكتاب وَالسّنة.]. [65]

****

ومن نفيس صناعة البلاغة ما طرحه الزمخشري وأجاب عنه حين تسائل: فإن قلت: لم قيل تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ وقولهم (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) أمنية واحدة؟

وكان جواب العلامة ابن المنير في حاشيته أروق فقال:

---

[65] **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي (ص: 104)**

والجواب القريب: أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً. ونظيره قولهم: رجل جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها. وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى: (إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) فانه جمع قليلا وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها. ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانه زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً، فتدبر هذا الفصل فانه من نفائس صناعة البيان واللَّه الموفق.

قلتُ -متأمله: وللزمخشري وجهٌ حسن قال فيه: أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم، يريد أن أمانيهم جميعا في البطلان مثل أمنيتهم هذه.[66]

وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأماني بالجمع ولم يقل: تلك أمنيتهم.[67]

وتأمل كيف جاء التعبير بالإشارة للبعيد(تلك) عدولا عن (هذه) إيماءً إلى استبعاد أمانيهم من كل وجه.

****

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: 112)

{ بلى}: فيه رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَن كان هودا او نصارى}، فقيل لهم: بلى يدخلها مّن أسلم وجهه لله كان هودا أو نصارى أو غيرهم، فالنجاة ليست مختصةً بصنف اليهود والنصارى ولكنها مختصة بإسلام الوجه لله والخضوع له تعالى ولأمره.

و" بلى" في اللغة جواب إيجابٍ (إقرار = عكس النفى) لاستفهامٍ منفى، والذي يؤكد النفى فيه الجواب ب" نعم". فإن قلتُ لك: أليس زيدٌ راضٍ؟ إن قلتَ: بلى، فهو راضٍ. وإن قلتَ: نعم، فهو ليس براضٍ.

وقوله تعالى: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} قال الطبري: يعني بـ "إسلام الوجه": التذلل لطاعته سبحانه والإذعان لأمره. وأصل "الإسلام": الاستسلام، لأنه "من استسلمت لأمره"، وهو الخضوع لأمره. وإنما سمي "المسلم" مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه.

وَالْوَجْهُ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجَارِحَةُ خُصَّ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ، وأكثرها في آدم حرمة، أَوْ لِأَنَّهُ فِيهِ أَكْثَرُ الْحَوَاسِّ. فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون

---

[66] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 177) وحاشيته الانتصاف لابن المنير.

67 تفسير المنار (1/ 350)

أخضع له. ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبر عن الشيء، فتضيفه إلى "وجهه" وهي تعني بذلك نفس الشيء وعينه، كقول الأعشى:

أُؤَوِّل الحكم على وَجهه ... ليس قضائي بالهوى الجائرِ. يعني بقوله: "على وجهه": على ما هو به من صحته وصوابه، وما أشبه ذلك، إذْ كان حسن كل شيء وقبحه في وجهه، وكان في وصف العرب من الشيء وجهه بما تصفه به، إبانةٌ عن عين الشيء ونفسه.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِهَةُ، وَالْمَعْنَى: أَخْلَصَ طَرِيقَتَهُ فِي الدِّينِ لِلَّهِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَخْلَصَ دِينَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْلَصَ عَمَلَهُ لِلَّهِ. وَقِيلَ: قَصْدَهُ. وَقِيلَ: فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقِيلَ: خَضَعَ وَتَوَاضَعَ. وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا يَقُولُهَا السَّلَفُ عَلَى ضَرْبِ الْمِثَالِ، لَا عَلَى أَنَّهَا مُتَعَيِّنَةٌ يُخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَهَذَا مطرد في كثير مما جاء عن السلف في التفسير فتنبه.

وأما قوله تعالى: {وهو محسن}، فإنه يعني به: في حال إحسانه. وتأويل الكلام: بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له، محسنا في فعله ذلك.

قال أبو حيان: {وَهُوَ مُحْسِنٌ}: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ لما قبلها مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ فَهُوَ مُحْسِنٌ. وَقَدْ قَيَّدَ (الزَّمَخْشَرِيُّ) الْإِحْسَانَ بِالْعَمَلِ، وَجَعَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}: مَنْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ، وَهُوَ مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ، فَصَارَتِ الْحَالُ هُنَا مُبَيِّنَةً، إِذْ مَنْ لَا يُشْرِكُ قِسْمَانِ: مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ، وَغَيْرُ مُحْسِنٍ، وَذَلِكَ مِنْهُ جُنُوحٌ إِلَى مَذْهَبِهِ الِاعْتِزَالِيِّ مِنْ أَنَّ الْعَمَلَ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَأَنَّهُ بِهِمَا يَسْتَوْجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ قَوْلَهُ: {فَلَهُ أَجْرُهُ} الَّذِي يَسْتَوْجِبُهُ. [68]

أقول-متأمله: ولعل الزمخشري أصاب في ناحية وأخطأ في الثانية، إذ أن العمل ركن أساسي من أركان الإيمان، كما اقترن كثيرا في القرآن الإخلاص مع إحسان العمل، كما في اقتران الإيمان بالعمل،

[قال سعيد بن جبير: {بلى من أسلم} أخلص، {وجهه} قال: دينه، {وهو محسن} أي: متبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده والآخر: أن يكون صوابا موافقا للشريعة. فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد". رواه مسلم من حديث عائشة عنه-عليه السلام.

فعمل الرهبان ومن شابههم -وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله-فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} (الفرقان: 23).

وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى

---

[68] ناظر مشكورا في تفسير الآية البحر المحيط في التفسير (1/ 564) و تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 507)

الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} (النساء: 142). ولهذا قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} (الكهف 110). [69]

وإنما أخطأ الزمخشري أنه وعلى مذهبه أن الثواب يجب على الله في حق من أحسن، وأهل الحق يتأدبون في مثل هذا فيقولون: لا شيء يجب على الله وهو مالك الملك؛ وإنما يتفضل بوعده على من يشاء. وعند الزمخشري في تفسيره الكشاف من نصرةٍ لمذهبه خفيةٍ لا يتنبه لها غير من أتقن علم العقيدة فتنبه.

{فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 112]. والنكتة فيها أنه سبحانه سمى ثوابه أجراً ليربط بين العمل والثواب ويؤكد على قيمة العمل الصالح من الإيمان. وباقي الآية تقدم بيانه في الآية (62 من سورة البقرة) فراجعه مشكورا.

*****

ليسوا على شيء جميعا.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (البقرة: 113)

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنْ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمِلَةَ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَفَرَ بِعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَاةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: {وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ، وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ}. [70]

وقد صدقوا جميعا إذ لا دين بعد البعثة المحمدية إلا دين الإسلام كما كذبوا في الآية السابقة. وقد وضع الناس لغزاً في هذا فقالوا: قومٌ صدقوا ودخلوا النار أي إذا ماتوا على ما عاشوا عليه من عقيدتهم الواهية، وهم اليهود والنصارى في قول هم في هذه الآية. كما يُقال في اخوة يوسف عليهم السلام قوم كذبوا ودخلوا الجنة، لأن فعلتهم مع أخيهم أعقبتها التوبة منهم.

---

[69] تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 385)

[70] سيرة ابن هشام ت السقا (1/ 549)

وليس مثل الاسلام في صراحته وسعة أفقه، فهو يصدق بالأديان السماوية ويعتبرها، ويؤمن بكتبها الحقيقية قبل أن يطرأ عليها التحريف. ما أعظم قوله تعالى: {آمَنَ الرسول بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} (البقرة: 285). هذا هو الاسلام وهذه هي عظمته.

وقولهم: {عَلَى شَيْءٍ} أي على شيءٍ يصح ويُعتدّ به. وهذه مبالغة منهم في الإنكار على بعضهم البعض، فالشيء يطلق على مطلق الموجود، وقد بالغوا في نفى أقل وجود لما هم عليه. كقول القائل: أقل من لا شيء. وهذا بيانٌ لمدى العداوة بين أهل الباطل ولو اتفقوا ظاهرا على معاداة الحق، كما قال تعالى: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} (المائدة: 64)، وكما قال بعضهم: إذا اجتمع عشرة نفر من النصارى خرجوا على إحدى عشرة مذهب.

وقوله تعالى: {وهم يتلون الكتاب} جملة حالٍ فيها كثير من التوبيخ لهم، إذ هم بذلك الجهل والعداء وهم يتلون الكتاب بين أيديهم وفيه الحق الذي نبذوه.

قال صاحب الكشاف: وحق مَن حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب اللَّه وآمن به ألّا يكفر بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدّقٌ للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب اللَّه جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا.

{كَذلِكَ} أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج {قالَ} الجهلة {الَّذِينَ لا يعلمون} لا علم عندهم ولا كتاب؛ كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم؛ قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَن لا يعلم.

{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بينهم} أى بين اليهود والنصارى {يَوْمَ الْقِيامَةِ} بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم اللَّه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار. [71]

ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطئ من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة. والطوائف الثلاث في إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان. ويأتي الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب. [72]

توعَّد الفريقين بحكمه بينهم يوم القيامة. وقد أبهم حكمه سبحانه فيما فيه يختلفون جميعه؛ فيدخل فيه كل قول قالوه، وكل ما اعتقدوا.

قال الرازي: واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد -صلى الله عليه وسلم -فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن. انتهى

---

[71] **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179)**

[72] **تفسير الشعراوي (1/ 536)**

(فإن قيل: كيف عرض تعالى بتكذيبهم فيما ادعوه، وقد صدق الفريقان على قول المسلمين أنهما كلتيهما على الباطل؟

قيل: ليس قول أحد الفريقين بسديدٍ من وجه، إذ قد بتُّوا الحكم وليس ذلك على البت والقطع، فكلا الفريقين في وقتٍ وعلى وجهٍ على حقٍ، على أن القصد بالآية الدلالة على جهلهم وتخبطهم مع تشاركهم في قراءة التوراة دالَّةً على ما اختلفوا فيه، فبيَّن أن كلا الفريقين حائدٌ عن الطريق، وأنهم في الجهل أو التجاهل كالمشركين الذين لا كتاب لهم في دعواهم على أهل الكتابين والمسلمين أنهم ليسوا على شي). (73)

والخلاصة أن في الآيات: ذكر ما ادعاه كل فريقٍ من فرقاء أهل الكتاب أن الجنة من نصيبه لوحده، فأكذب الله الفريقين، وطالبهم بالدليل الصادق على ما ادعوه، وبيَّن سبحانه أن ذلك من قبيل التخرُّص والتمني بغير بيِّنةٍ. فالذين يحوزون رضا الله ويستحقون النجاة والثواب هم أهل التسليم لله تعالى فيما أمر والعمل الصالح على مقتضى شريعته. وفيه تبكيتٌ خفيٌ لمسلكِ أولئك الضالين عن الصراط المستقيم (ويستمر معنا الحديث عن الصراط والناكبين عنه، فتأمل). ثم يرجع القول لسخيف قولهم ويبين هنا مدى تخبطهم في تكفير بعضهم البعض وإنكار عقيدته، مع أنهم أهل كتابٍ جميعا، وفيه تبكيتٌ آخرٌ لمسلك مَن جعل نفسه في سلك الجهال وهو من أهل العلم إذ حذا حذوهم في نبذ الحق. ثم توعدهم سبحانه بالفصل يوم الفصل والنكاية بأهل الكفر والضلال. فتبيّنْ هذا التسلسل والاتساق المنطقي الرائع للكلام يشد بعضه بعضا في تناسقٍ بديعٍ يدرك حلاوته الذين يتدبرون كلام الله تعالى.

****

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...}

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)}

في هذه الآية استطراد بديع بعد ذكر العلاقة المتوترة والعداوة السخيفة بين فريقين من أهل الكتاب وإكفار بعضهم بعضاً، هذا الاستطراد يُلمِح إلى ما وقع بين الفريقين من حروبٍ قامت على أسس هذه العلاقة المتوترة ولم يراعَ لله تعالى فيها حقٌ، ودُمِّرت مساجد الله ومُنع الناس من إعمارها حتى خربت بفعل شياطين الإنس. ثم ينتقل الاستطراد بصيغته العمومية البديعة إلى تقرير حكم عامٍ في كل مَن حَرم الناس من إعمار مساجد الله في أرضه تحت أي مسمىً. فمن سببٍ خاص تُلمح به الآية ولا تصرِّح إلى حكمٍ عظيم من أحكام القرآن يخص إعمار بيوت الله تعالى.

(والكلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم، فقوله - تعالى -: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) الآية فيه وجوه: (أحدها): أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة، وهي دخول (تيطس الروماني) بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب، وهدمه هيكل

---

73 تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 296) بتصرف يسير.

سليمان - عليه السلام - حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة، وكان المسيح - عليه السلام - قد أوعد اليهود بذلك. وقال بعض المفسرين: إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل.

قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله: ولا أدري هل يصح هذا الخبر أم لا، فإن قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلتهم وتشتتهم

واستخفائهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الإيقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاما منهم، وتحقيقا لوعيد المسيح، وأن الرومانيين - وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضي بهدم المعبد وإحراق كتب الدين، فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة تيطس، ولكن لا يجزم به إلا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر.

ومن الغريب أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره: إن الآية في اتحاد المسيحيين مع (بختنصر البابلي) على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بستمائة وثلاث وثلاثين سنة. ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين لالتمس له العذر بحمل قوله على حادثة (أدرينال الروماني) الذي جاء بعد المسيح بمائة وثلاثين سنة، وبنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشترى على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة، وجعل جزاء من يدخلها القتل؛ فلذلك كان اليهود يسمونه (بختنصر الثاني) لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده. ولكن هذا لا يصح أن يكون عذرا للمؤرخ.

(الثاني): ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله -تعالى -: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل في منع مشركي العرب النبي وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية، وقالوا: إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الأمد فلا مناسبة لإرادتها بالآية.

واعترض على هذا القول بأن مشركي العرب ما سعوا في خراب الكعبة، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم.

وقال الأستاذ محمد عبده: يصح أن تكون الآية في الأمرين على التوزيع، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة، والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين.

ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الإشارة إلى تساوي الفعلين في القبيح.

(الثالث): أن الكلام في أهل الكتاب، وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع،

ولكن بأمر سيقع، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الأقصى، وتخريبهم كثيرا من المساجد.

(الرابع): وهو مبني أيضا على أن الآية منبئة عن أمر سيقع وأن المراد بها حادثة (القرامطة) الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها، وهدموا كثيرا من المساجد، كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم: إنهم ليسوا على شيء من الدين، وطعن النصارى في اليهود كذلك، وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب: إنهم قالوا مثل قولهم، لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين وفي المسلمين، فأنبأ الله - تعالى - بهذه الحادثة من الإخبار بالغيب فوقعت، وكانت حادثتهم من أكبر الأحداث في المسلمين، فإنهم استولوا على جزء كبير من ممالك الإسلام وهدموا المساجد، وعاثوا في الأرض فسادا ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد (القرامطة) فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل.). انتهى كلام صاحب المنار.[74]

وأخرج ابن أبي حاتم أن قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى: "ومَن أظلم ..." الآية، ورجحه ابن كثير في تفسيره.

وأخرج ابن كثير، وأخرج ابن جرير عن أبي زيد قال: هؤلاء المشركون -حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة.

قال ابن جرير: وأولى التأويلات قول من قال: عنى الله عز وجل بقوله "ومن أظلم ..." النصارى. وقال: إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات من الصلاة فيه. وأيضاً الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر، ولا للمسجد الحرام، فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس.

وقال الرازي: وعندي فيه وجهٌ وهو أقرب إلى رعاية النظم. وهو أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال الطبري: وإن كان قد دل بعموم قوله: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه}، أن كلَّ مانعٍ مصلياً في مسجدٍ لله، فرضا كانت صلاته فيه أو تطوعا-، وكل ساعٍ في إخرابه فهو من المعتدين الظالمين.

---

[74] تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/ 355).

وقال الزمخشري رحمه الله: لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا، كما تقول لمن آذى صالحا واحداً: ولا أظلم ممن آذى الصالحين. وكما قال الله عز وجل: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} والمنزول فيه الأخنس بن شريق.

قلتُ -متأمله: وهذا هو الصواب فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل فيه السبب الخاص دخولاً أولياً.

وقد رجح ابن العربي رحمه الله: أَنَّ ذلك فِي كُلِّ مَسْجِدٍ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ وَرَدَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ فَتَخْصِيصُهُ بِبَعْضِ الْمَسَاجِدِ أَوْ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ مُحَالٌ.

قال: وفَائِدَةُ هَذِهِ الْآيَةِ تَعْظِيمُ أَمْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمَهَا أَجْرًا كَانَ مَنْعُهَا أَعْظَمَ إثْمًا، وَإِخْرَابُ الْمَسَاجِدِ تَعْطِيلٌ لَهَا وَقَطْعٌ بِالْمُسْلِمِينَ فِي إظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَتِهِمْ.[75]

****

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم غير متناهٍ، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم. أي لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أي من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه. وهو استفهام غرضه البلاغي الإنكار الشديد والاستنكار. وليس غرضه حصر أقصى الظلم في هذا فقط، فقد وردت الآيات بأنواع كثيرة من الفسوق هى من أظلم الظلم وهذا أحدها في بابه كما قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: 140]، وقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الأنعام: 21]، وقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ} [الكهف: 57]. فكل ذلك وما شاكله في التنزيل من أظلم الظلم ولا تعارض.

وقَوْله تَعَالَى: {مَسَاجِدَ اللَّهِ} [البقرة: 114] يَقْتَضِي أَنَّهَا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى، وَذَلِكَ حُكْمُهَا بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ؛ عَلَى أَنَّ الْبُقْعَةَ إذَا عُيِّنَتْ لِلصَّلَاةِ خَرَجَتْ عَنْ جُمْلَةِ الْأَمْلَاكِ الْمُخْتَصَّةِ بمالكها، فَصَارَتْ عَامَّةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْفَعَتِهَا وَمَسْجِدِيَّتِهَا، فَلَوْ بَنَى الرَّجُلُ فِي دَارِهِ مَسْجِدًا وَحَجَزَهُ عَنْ النَّاسِ، وَاخْتَصَّ بِهِ لِنَفْسِهِ لَبَقِيَ عَلَى مِلْكِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إلَى حَدِّ الْمَسْجِدِيَّةِ، وَلَوْ أَبَاحَهُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ الْعَامَّةِ، وَخَرَجَ عَنْ اخْتِصَاصِ الْأَمْلَاكِ.[76]

---

[75] راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير : 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).

[76] راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير : 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).

****

وقوله تعالى: {وسعى في خرابها} قال أبو البقاء: الخراب اسم مصدر بمعنى التخريب، وقال غيره: هو مصدر خرِب المكان يخرِب خراباً، وهو هنا السعي في هدمها ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون أعم من تخصيصه بقوله تعالى بقوله {أن يذكر فيها اسمه} فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بُنيت لها المساجد لتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما في قوله تعالى {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: 18]. والعمارة التي هي ضد تخريب بيوت الله هى إحياء المكان وشغله بما وضع له. وليس المراد بعمارته. زخرفته وإقامة صورته فقط، إنّما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك.

قال العلامة الرازي [77]:

فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان. وأما الأخبار،

فأحدها: ما روى الشيخان في صحيحيهما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه، فقال عثمان رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من بنى لله مسجدا بنى الله له كهيئته في الجنة». وفي رواية أخرى: «بنى الله له بيتا في الجنة».

وثانيها: ما روى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»، واعلم أن هذا الخبر تنبيه على ما هو السر العقلي في تعظيم المساجد وبيانه أن الأمكنة والأزمنة إنما تتشرف بذكر الله تعالى، فإذا كان المسجد مكانا لذكر الله تعالى حتى إن الغافل عن ذكر الله إذا دخل المسجد اشتغل بذكر الله والسوق على الضد من ذلك، لأنه موضع البيع والشراء والإقبال على الدنيا وذلك مما يورث الغفلة عن الله، والإعراض عن التفكر في سبيل الله، حتى إن ذاكر الله إذا دخل السوق فإنه يصير غافلا عن ذكر الله لا جرم كانت المساجد أشرف المواضع والأسواق أخس المواضع.

وفي فضل المشي إلى المساجد. جاءت الأخبار مستفيضة فمن ذلك:-

(أ) عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئته والأخرى ترفع درجته»، رواه مسلم.

(ب) أبو هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من غدا أو راح إلى المسجد أعد الله له في الجنة منزلا كلما غدا أو راح» أخرجاه في الصحيح.

---

[77] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 13)

(ج) وعن أبي بن كعب قال: كان رجل ما أعلم أحدا من أهل المدينة ممن يصلي إلى القبلة أبعد منزلا منه من المسجد وكان لا تخطئه الصلوات مع لرسول عليه السلام، فقيل له: لو اشتريت حمارا لتركبه في الرمضاء والظلماء، فقال: والله ما أحب أن منزلي بلزق المسجد، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسأله فقال: يا رسول الله كيما يكتب أثري وخطاي ورجوعي إلى أهلي وإقبالي وإدباري، فقال عليه الصلاة والسلام: «لك ما احتسبت أجمع» أخرجه مسلم.

(د) وعن جابر قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى قرب المسجد، فقالوا: نعم قد أردنا ذلك قال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم». رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية نزلت في حقهم: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: 12].

(هـ) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم إلى المسجد مشيا والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام في جماعة أعظم أجرا ممن يصليها ثم ينام» أخرجاه في الصحيح. انتهى.

****

وقَوْله تَعَالَى: {أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ} [البقرة: 114]

يَعْنِي إذَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، وَحَصَلَتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِمْ فَلَا يَتَمَكَّنُ الْكَافِرُ حِينَئِذٍ مِنْ دُخُولِهَا يَعْنِي إنْ دَخَلُوهَا فَعَلَى خَوْفٍ مِنْ إخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ مِنْهَا وَأَذِيَّتِهِمْ عَلَى دُخُولِهَا؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْكَافِرِ دُخُولُ الْمَسْجِدِ بِحَالٍ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. [78]

****

{لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود ويهدم الحدود، ويغري الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت

[78] راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير: 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).

تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به، ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين. [79]

***

{فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}

قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 115]

هنا وبعد الانتقال من ذكر انحرافات أهل الكتاب وامانيهم الباطلة وتنابذهم بالكفر والعدوان انتقلت الآيات إلى هديةٍ من الله وجائزةٍ لهؤلاء الذين أسلموا وجههم لله تعالى على التصديق والطاعة والتزام شرع الله. تلك الهدية في التوسعة عليهم في دينهم الحق الذي ارتضى لهم. فمن علم الله تعالى بنا ورحمته خفَّف علينا ووسَّع، فجعل الأرض كلها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه مسجدا وطهوراً وخفف عليهم في أمر قبلتهم حال الضرورة. وهنا تأتي هذه الآية العظيمة جائزةً للمؤمنين.

قال القرطبي في أحكامه ما مختصره: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هذه الآية عَلَى أَقْوَالٍ:

القول الأول: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: نَزَلَتْ فِيمَنْ صَلَّى إِلَى غير القبلة في ليلةٍ مظلمةٍ (أو غيم)، أخرجه التِّرْمِذِيُّ عَنْهُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةُ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ:" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ". قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَشْعَثَ السَّمَّانِ، وَأَشْعَثُ بْنُ سَعِيدٍ أَبُو الرَّبِيعِ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ. (وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجة (1020)

قال الترمذي: وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى هَذَا، قَالُوا: إِذَا صَلَّى فِي الْغَيْمِ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ثُمَّ اسْتَبَانَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّ صَلَاتَهُ جَائِزَةٌ، وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

قُلْتُ (القرطبي): وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ، غَيْرَ أَنَّ مَالِكًا قَالَ: تُسْتَحَبُّ لَهُ الْإِعَادَةُ فِي الْوَقْتِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ.

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ وَالشَّافِعِيُّ: لَا يَجْزِيهِ، لِأَنَّ الْقِبْلَةَ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ. وَمَا قَالَهُ مَالِكٌ أَصَحُّ، لِأَنَّ جِهَةَ الْقِبْلَةِ تُبِيحُ الضَّرُورَةُ تَرْكَهَا فِي الْمُسَايَفَةِ، وَتُبِيحُهَا أَيْضًا الرُّخْصَةُ حَالَةَ السَّفَرِ.

وَالقول الثاني: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: نَزَلَتْ فِي الْمُسَافِرِ يَتَنَفَّلُ حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ

[79] تفسير المنار (1/ 357)

.

نَزَلَتْ" فَأَيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ". وَلَا خِلَافَ بَيْنِ الْعُلَمَاءِ فِي جَوَازِ النَّافِلَةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلُهُ. وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الْقِبْلَةَ عَامِدًا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ إِلَّا فِي شِدَّةِ الْخَوْفِ، عَلَى مَا يَأْتِي.

والقول الثَّالِثُ: قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَى رَجُلٍ مَاتَ؟ وَهُوَ يُصَلِّي لِغَيْرِ قِبْلَتِنَا، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ-وَاسْمُهُ أَصْحَمَةُ وَهُوَ بِالْعَرَبِيَّةِ عَطِيَّةُ-يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى مَاتَ، وَقَدْ صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَنَزَلَ فِيهِ قوله تعالى:" وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ "، فَكَانَ هَذَا عُذْرًا لِلنَّجَاشِيِّ، وَكَانَتْ صَلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصْحَابِهِ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا مَنْ أَجَازَ الصَّلَاةَ عَلَى الْغَائِبِ، وَهُوَ الشَّافِعِيُّ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتِ الْيَهُودُ قَدِ اسْتَحْسَنَتْ صَلَاةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالُوا: مَا اهْتَدَى إِلَّا بِنَا، فَلَمَّا حُوِّلَ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالَتِ الْيَهُودُ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فَنَزَلَتْ:" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ" فَوَجْهُ النَّظْمِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا أَنْكَرُوا أَمْرَ الْقِبْلَةِ بَيَّنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ لَهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ، فَإِنْ شَاءَ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِنْ شَاءَ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فِعْلٌ لَا حُجَّةَ عليه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.

القول الخامس-أن الآية منسوخة بقوله:" وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ " ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَكَأَنَّهُ كَانَ يُجَوِّزُ فِي الِابْتِدَاءِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ كَيْفَ شَاءَ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّاسِخُ قَوْلُهُ تَعَالَى:" فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ" أَيْ تِلْقَاءَهُ، حَكَاهُ أَبُو عِيسَى الترمذي.

وقول سادس-رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ، الْمَعْنَى: أَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِاسْتِقْبَالِهِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ.

السابع: وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا وَابْنِ جُبَيْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ:" ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ فَنَزَلَتْ:" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".

والثامن: وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَالنَّخَعِيِّ: أَيْنَمَا تُوَلُّوا فِي أَسْفَارِكُمْ وَمُنْصَرِفَاتِكُمْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.

وَالتاسع: قِيلَ: هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ" الْآيَةَ، فَالْمَعْنَى أَنَّ بِلَادَ لله أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَسَعُكُمْ، فَلَا يَمْنَعُكُمْ تَخْرِيبُ مَنْ خَرَّبَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ نَحْوَ قِبْلَةِ اللَّهِ أَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنْ أَرْضِهِ.

وَالعاشر: قِيلَ: نَزَلَتْ حِينَ صُدَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبَيْتِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فَاغْتَمَّ الْمُسْلِمُونَ لِذَلِكَ. فَهَذِهِ عَشَرَةُ أَقْوَالٍ.

قال القرطبي: وَمَنْ جَعَلَهَا مَنْسُوخَةً فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا خَبَرًا، لِأَنَّهَا مُحْتَمِلَةٌ لِمَعْنَى الْأَمْرِ. يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ": وَلُّوا وُجُوهكُمْ نَحْوَ وَجْهِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي تَلَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أَمَرَ الْحَجَّاجُ بِذَبْحِهِ إِلَى الْأَرْضِ. (80)

قلتُ-جامعه: رحم الله شيخنا القرطبي فقد استقصى ونفع، وإن كان جعلها منسوخةً يبعد، وذلك من جهة أنها خبرٌ بالتخفيف ولا معارضة بينها وبين أصل التوجه إلى القبلة فهى مخصوصة بحال الخوف أو السفر أو عدم تبيُّن القبلة على ما تقدم. ولا تعارض بين الجميع.

والخلاصة أن الآية متسقة مع ما قبلها وفيها تخفيف من الله ورحمة. أما ما كثَّر به العلماء في تفاسيرهم من الاستطراد إلى مباحثٍ في فقه القبلة والصلاة عموما فليس بغرض النص ههنا.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا -والله أعلم-فيه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله} انتهى (81)

قال العلامة الرازي: فإن قيل: فأي هذه الأقاويل أقرب إلى الصواب. قلنا: إن قوله: فأينما تولوا فثم وجه الله مشعر بالتخيير والتخيير لا يثبت إلا في صورتين أحدهما: في التطوع على الراحلة. وثانيهما: في السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو لغيرها، لأن في هذين الوجهين المصلي مخير فأما على غير هذين الوجهين فلا تخيير.

ثم قال: إن فسرنا الآية بأنها تدل على تجويز التوجه إلى أي جهة أريد، فالآية منسوخة وإن فسرناها بأنها تدل على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فالآية ناسخة، وإن فسرناها بسائر الوجوه فهي لا ناسخة ولا منسوخة. (82)

****

أما عن تفصيل تفسير الآية: {ولله المشرق والمغرب} يطلق المشرق والمغرب على ناحيتيْ الأرض (شرقها وغربها)، كما يطلق على مطلع الشمس ومغربها، اللام في قوله تعالى: {ولله} لام الاختصاص، والواو للابتداء. والمعنى أن ملك الشرق والغرب ومطلع الشمس ومغربها وما بينهما لله وحده لا شريك له في خلقه وتدبيره.

وقد أفرد هنا المشرق والمغرب، ثم ثنَّاهما في قوله تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين} (الرحمن: 17)، وجمع في قوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} (المعارج: 40).

---

[80] راجع تفسير القرطبي (2/ 79-83) ط دار الكتب المصرية القاهرة.

[81] تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 390)

[82] انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 19)

وهذا دأب القرآن في حكمة تصريفاته، فحين عنى الجهة في المطلع والمغيب أفرد اللفظ.

وحين أشار إلى مشرق الشمس ومغربها في الشتاء، ومشرقها ومغربها في الصيف ثنَّاهما {المشرقين والمغربين} مع ملائمة خطاب الثقلين الممتد في سورة الرحمن كما في قوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}. وأما قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} (38 الزخرف) أى قال أحد هذين القرينين لصاحبه الآخر: وددت أن بيني وبينك بُعد المشرقين: أى بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلَّب اسم أحدهما على الآخر، كما قيل: شبه القمرين، وكما قال الشاعر الفرذدق:

أخَذْنا بآفاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِعُ.

فإذا قال سبحانه: {المشارق والمغارب} فمشرق كل يوم ومغرب كل يوم، حيث لا يتشابه يوم ويوم في مشرقه ومغربه زمانا، أو عنى مشرق كل مكانٍ ومغربه.

****

{فأينما} اسم شرط للمكان، و(ما) زائدة للصلة، و(تُوَلُّوا) مضارع مجزوم بـ (أَيْنَمَا)، والجوابُ (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) اقترن بالفاء لأنه جملة إسمية، وعلامة الجزم في (تُوَلُّوا) سقوط النون. و(ثَمَّ) موضع نصب على الظرفية بمعنى (هناك) ولكن مبني على الفتح. هذا من حيث النحو والإعراب. [83]

[83] **معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 197) بتصرف**

وقد جرى التنويه آنفا على وجوهٍ من اختلافهم في سبب نزول الآية: -

فربما كان المعنى: أنه لما أخبر بمنع المخربين المؤمنين من عمارة مساجدهم، سلَّاهم سبحانه وأعلمهم أن لله ملك المشرق والمغرب وما بينهما، فهو الخالق والمدبر سبحانه فحيثما توجهتم بعملكم وطاعتكم فالله سبحانه حاضر بعلمه وسمعه وبصره رقيبٌ مجيبٌ يلقاكم بثوابه. فأخبر تعالى -كما قال الحرالي- بإضافة جوامع الآفاق إليه إعلاماً بأن الوجهة لوجهه لا للجهة، كما قال سبحانه في غير هذه الآية {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]، وهذا عندي أقوى الوجوه لاتصاله بالسياق قبله، وعلى هذا المعنى فالآية خبرٌ محض لا يدخله نسخ ولا تخصيص.

وربما قيل: الآية تمهيدٌ وتوطئةٌ للإذن للمسلمين بتحويل القبلة أو رد لما عساه أن يشبِّه ويلبِّس على الناس في أمرها، فكأنه يعني: أن لله المشرق والمغرب فأينما تكون القبلة سواء إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة فإن ذلك لله وبأمره، وهو سبحانه بعلمه لا يحده زمان ولا مكان، كما قال تعالى في غير هذه الآية {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142]، وعلى هذا أيضا فالآية محكمة لا نسخ فيها.

وربما قيل: فإذا غُمَّ على أحدكم أمر القبلة واشتبه في غيمٍ أو غيره، فليجتهد في تحري القبلة، فإن أخطأ فلا إثم عليه إذ أن كل الجهات شرقا وغربا وما بينهما هي خلق الله وتحت سمعه وبصره {فلله المشرق والمغرب} وقوله {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} يدل على تَوْسيعه سبحانه على الناس في شيءٍ رُخِّص لهم به؛ كما قال الزجاج رحمه الله. فالآية على هذا من باب الرخص وهى مخصوصة من آية القبلة {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام}، فلا نسخ. وإن صح سبب نزولها في اشتباه القبلة على بعض صحب رسول الله، فهو سبب خاص والآية عامة والقاعدة: أن عموم اللفظ مقدم على خصوص السبب ويدخل فيه السبب دخولا أولياً...وفيه من الله توسعةٌ وفقهٌ عظيما لقومٍ يعلمون!

وقال قتادة وغيره: " هذا منسوخ، وذلك أن الله تعالى أباح لهم أولاً التوجه حيث شاءوا، وأخبرهم أنه أينما تولوا وجوهكم فثمَّ وجه الله، لأن له المشارق والمغارب، ثُمَّ نسخ ذلك بقوله: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام}. والقول بالنسخ هنا لابد له من نقلٍ صريحٍ يصح، ومعرفة أي الخبرين أسبق وأيهما المتأخر، وكذلك عدم إمكانية الجمع بين الآيتين من كل وجه، وكذلك رفع احتمالية أن يكون الخبر محضا لا إنشاء في معناه تماما إذ الأخبار المحضة لا نسخ فيها. فلذلك تصعب جدا دعوى النسخ ههنا وإن احتُملت، كما أن النسخ يرفع العمل بالنص المنسوخ تماما، وهو ممتنع ههنا إذ العمل بهذه الرخصة قائم حال الغيم وظرف التباس القبلة أو عدم معرفتها، أو على الراحلة في صلاة التطوع حيث لا يلزم التوجه للقبلة، وتلك الحالات مروىٌ العمل بالآية فيها بالأسانيد الصحاح عن رسول صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن عمر: " الآية نزلت في التطوع، وكان يصلي حيثما توجهت به الراحلة ويقول: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ} ".

وقيل: " نزلت في قوم عُمِّيَت (التبست) عليهم القبلة، فصلوا إلى جهات مختلفة، فأُعلموا أن صلاتهم ماضية " صحيحة، وإليه ذهب ابن عباس وجماعة.

ورأيت في الآية قولا حسنا: إذ لما جرى سياق الآيات قبلها يذكر ظلم من تعدى على مساجد الله ومنع المؤمنين من إعمارها، جاءت الرخصة والاختصاص بالنعمة من الله لعباده أن جعل لهم الأرض مسجدا وطهورا كما قال رسول الله فيما صح عنه، فأينما صلى المؤمنون، واستقبلوا القبلة التي أمرهم الله في أى مكانٍ {فثَمَّ وجه الله} حاضرٌ شاهدٌ وهو (الواسع العليم) يسع علمه وقدرته وبصره وسمعه السماوات والأرض، ويسع فضله وتيسيره الخلق كلهم. وفي هذا يقول صاحب الكشاف: يعنى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها للَّه هو مالكها ومتوليها، ففي أى مكان تولون وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}. فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أى جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا مُنِعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أى بقعةٍ شئتم من بقاعها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجدٍ دون مسجد، ولا في مكان دون مكان. إنَّ اللَّهَ واسِع الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم {عَلِيمٌ} بمصالحهم. [84]

قلتُ: وهذا القول يجمع في العمل بين الآيتين، (وإذا أمكن الجمع بين الآيتين بطلت دعوى النسخ)، ولعل هذه قاعدة جليلة في التفسير، لأن إبطال العمل بآيةٍ من كتاب أمرٌ خطيرٌ لا يصح بغير يقين.

والخلاصة أن الآية خبرٌ من الله تعالى ينبأ بحقيقة الأعمال وأن لبها وروحها الإخلاص، فليس العبرة بالاتجاه أو بعمل الأجسام دون عمل القلب واتجاهه إلى الله تعالى العليم المحيط، وفيه توسعةٌ من الله على خلقه وفقهٌ عظيم لقومٍ يتدبرون. ولعل هذه المعاني كلها يلخصها ختام الآية {إن الله واسع عليم}، واتساقها مع دلالات الآية التي رجحناها.

ولا أفوِّت هذه الفرصة دون التنبيه إلى ضابط هام من ضوابط فهم النص القرآني كوحدة واحدة حيث تجئ فواصل الآيات متسقة مع دلالات متونها، بحيث تكون بذاتها أداة توجيه للمعاني وترجيح. ويصاحب ذلك؛ أي أدوات الترجيح في فهم النص النظر في سبب النزول – إن وُجد-والسياق سباقاً ولحاقاً، وسياق الخطاب القرآني في الآيات وتقلباته مع الدلالة. وقد بحثتُ ذلك كله وأكثر بمزيد استفاضة في دراسةٍ عن ضوابط فهم النص القرآني.

فصل: في تأويل " وجه الله" في الآية.

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَأْوِيلِ الْوَجْهِ الْمُضَافِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فهذه الصفة من الصفات الخبرية الإضافية؛ أي فيها إخبار عن الله تعالى بإضافة الوجه له سبحانه كما يليق بجلاله {ليس كمثله شيء} وعلى هذا النحو يثبتها السلف وأهل الحق، (إذ مذهب السلف والأئمة؛ أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه

---

[84] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 180) بتصرف يسير واختصار

به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. قال نعيم بن حماد الخزاعي: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهًا.

وكان السلف والأئمة، يعلمون أن مرض التعطيل، أعظم من مرض التشبيه، كما يقال: المعطل أعمى، والمشبه أعشى، والمعطل يعبد عدمًا، والمشبه يعبد صنمًا.

فكان كلامهم وذمهم للجهمية المعطلة أعظم من كلامهم وذمهم للمشبهة الممثلة، مع ذمهم لكلا الطائفتين).
(85)

فكان اعتقاد السلف أسلم وأعلم إذ علموا ما أثبته الله لنفسه وما أثبته على لسان رسولهن فآمنوا به، دون خوضٍ فيما لا تدركه عقولهم فسلموا.

وَمن ذلك قَوْلُهُ تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27]. وقوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88]. ومن ذلك المروى عن جابر بن عبد الله، يقول: لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم} (الأنعام: 65) قال: «أعوذ بوجهك». {أو من تحت أرجلكم} (الأنعام: 65). قال: «أعوذ بوجهك». {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض} (الأنعام: 659). قال «هاتان أهون وأيسر». رواه البخاري في الصحيح. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ". رواه البخاري ومسلم في الصحيح. قال البيهقي: قوله: «رداء الكبرياء». يريد به صفة الكبرياء. فهو بكبريائه وعظمته لا يريد أن يراه أحد من خلقه بعد رؤية يوم القيامة، حتى يأذن لهم بدخول جنة عدن، فإذا دخلوها أراد أن يروه فيروه وهم في جنة عدن، والله أعلم.... إلى غير ذلك من الأحاديث راجع فيها الإمام البيهقي في الأسماء والصفات. [86]

هذه القاعدة فيما ورد من أسماء الله وصفاته العلى على العموم. أما الآية التي نحن بصددها فليست بموضعها وسياقها من آيات الصفات في شيء. و{وَجْهُ اللَّهِ} في هذه الآية: معناه: قبلته التي رضيها لنا سبحانه ووجَّهنا إليها، كما تقولُ: سافَرْتُ في وجه كذا، أي: في جهة كذا. ويتجه في بعض المواضِعِ من القرآن كهذه الآية أن يراد بالوجْهِ الجِهَةُ الَّتي فيها رِضَاهُ، وعلَيْها ثوابُه كما تقول تصدَّقت لوجْهِ اللَّهِ، ويتَّجه في هذه الآية خاصَّةً أن يراد بالوجه الجهةُ الَّتي وجهنا إليها في القبلة. وهذه النكتة واللطيفة في الآية، فتأمل.

وأنقل عن شيخ الإسلام ههنا بحثا بديعا يقول فيه: [فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. إذَا تَنَازَعَ النُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةُ فِي صِفَةٍ، وَدَلَالَةٍ نُصَّ عَلَيْهَا؛ يُرِيدُ الْمُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ اللَّفْظَ -حَيْثُ وَرَدَ -دَالًّا عَلَى الصِّفَةِ وَظَاهِرًا فِيهَا.

---

[85] **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية للعلامة ابن تيمية (1/ 5)**

[86] **الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 81)**

ثُمَّ يَقُولُ النَّافِي: وَهُنَاكَ لَمْ تَدُلَّ عَلَى الصِّفَةِ فَلَا تَدُلُّ هُنَا. وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ الْمُثْبِتَةِ: دَلَّتْ هُنَا عَلَى الصِّفَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً هُنَاكَ؛ بَلْ لَمَّا رَأَوْا بَعْضَ النُّصُوصِ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ جَعَلُوا كُلَّ آيَةٍ فِيهَا مَا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يُضَافُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى -إضَافَةَ صِفَةٍ -مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يا حسرتا على ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}. (قلتُ: يقصد هنا أن هذه الآية ليست من آيات الصفات، وقرينة السياق والحال تدل على أن معنى جنب الله أي حقه وأمره).

وَهَذَا يَقَعُ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والنُّفَاةِ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْغَلَطِ فَإِنَّ الدَّلَالَةَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ سِيَاقِهِ. وَمَا يُحَفُّ بِهِ مِنْ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ.

وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَمْرِ الْمَخْلُوقِينَ يُرَادُ بِأَلْفَاظِ الصِّفَاتِ مِنْهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ غَيْرُ الصِّفَاتِ.

وَأَنَا أَذْكُرُ لِهَذَا مِثَالَيْنِ نَافِعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا (صِفَةُ الْوَجْهِ) فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ إثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَةِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ الصفاتية: مِنْ الْكُلَّابِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ والكَرَّامِيَة وَكَانَ نَفْيُهَا مَذْهَبَ الْجَهْمِيَّةِ: مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمَذْهَبَ بَعْضِ الصفاتية مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ صَارَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ جَعَلَهَا مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ.

فَالْمُثْبِتُ يَجْعَلُهَا مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تُتَأَوَّلُ بِالصَّرْفِ وَالنَّافِي يَرَى أَنَّهُ إذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّها لَيْسَتْ صِفَةً فَكَذَلِكَ غَيْرُهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}. أَدْخَلَهَا فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والنُّفَاةِ حَتَّى عَدَّهَا " أُولَئِكَ " كَابْنِ خُزَيْمَة" مِمَّا يُقَرِّرُ إثْبَاتَ الصِّفَةِ.

وَجَعَلَ " النَّافِيَةُ " تَفْسِيرَهَا بِغَيْرِ الصِّفَةِ حُجَّةً لَهُمْ فِي مَوَارِدِ النِّزَاعِ.

وَلِهَذَا لَمَّا اجْتَمَعْنَا فِي الْمَجْلِسِ الْمَعْقُودِ وَكُنْت قَدْ قُلْت: أَمْهَلْت كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي ثَلَاثَ سِنِينَ إنْ جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَنْ السَّلَفِ يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْته كَانَتْ لَهُ الْحُجَّةُ وَفَعَلْت وَفَعَلْت وَجَعَلَ الْمُعَارِضُونَ يُفَتِّشُونَ الْكُتُبَ فَظَفِرُوا بِمَا ذَكَرَهُ البيهقي فِي كِتَابِ " الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ " فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} فَإِنَّهُ ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ (قِبْلَةُ اللَّهِ)، فَقَالَ أَحَدُ كُبَرَائِهِمْ - فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي - قَدْ أَحْضَرْت نَقْلًا عَنْ السَّلَفِ بِالتَّأْوِيلِ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا أَعَدَّ فَقُلْت: لَعَلَّك قَدْ ذَكَرْت مَا رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} قَالَ: نَعَمْ. قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ فَقَالَ: قَدْ تَأَوَّلَهَا مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَهُمَا مِنْ السَّلَفِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَيَّ؛ بَلْ قُلْت هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: لَا تُؤَوَّلُ آيَاتُ الصِّفَاتِ. قَالَ: أَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ فَلَمَّا قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ. قَالَ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ؟ قُلْت: لَا. لَيْسَتْ مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ فَإِنِّي إنَّمَا أُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ -هُنَا -الْقِبْلَةُ فَإِنَّ " الْوَجْهَ "

هُوَ الْجِهَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ: قَصَدْت هَذَا الْوَجْهَ وَسَافَرْت إلَى هَذَا " الْوَجْهِ " أَيْ: إلَى هَذِهِ الْجِهَةِ وَهَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فَالْوَجْهُ هُوَ الْجِهَةُ.

وَهُوَ الْوَجْهُ: كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} أَيْ مُتَوَلِّيهَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} كَقَوْلِهِ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} كِلْتَا الْآيَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَانِ وَكِلَاهُمَا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَالْوَجْهِ وَالْجِهَةِ هُوَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَّا نُوَلِّيهِ: نَسْتَقْبِلُهُ.

قُلْت: وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا} وَأَيْنَ مِنْ الظُّرُوفِ وَتُوَلُّوا أَيْ تَسْتَقْبِلُوا. فَالْمَعْنَى: أَيُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتُمُوهُ فَهُنَالِكَ وَجْهُ اللَّهِ فَقَدْ جَعَلَ وَجْهَ اللَّهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ هَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} وَهِيَ الْجِهَاتُ كُلُّهَا كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجِهَاتِ لَهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إضَافَةُ تَخْصِيصٍ وَتَشْرِيفٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ جِهَةُ اللَّهِ وَقِبْلَةُ اللَّهِ. وَلَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِهَةُ اللَّهِ أَيْ قِبْلَةُ اللَّهِ وَلَكِنْ يَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ وَعَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: {إذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ} وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: {لَا يَزَالُ اللَّهُ مُقْبِلًا عَلَى عَبْدِهِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ فَإِذَا انْصَرَفَ صَرَفَ وَجْهَهُ عَنْهُ} وَيَقُولُ: إنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ. فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

وَالْغَرَضُ أَنَّهُ إذَا قِيلَ: " فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ " لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ؛ الَّذِي يُنْكِرُهُ مُنْكِرُو تَأْوِيلِ آيَاتِ الصِّفَاتِ؛ وَلَا هُوَ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِمْ الْمُثْبِتَةُ فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ وَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى ثُبُوتِ صِفَةٍ فَذَاكَ شَيْءٌ آخَرُ وَيَبْقَى دَلَالَةُ قَوْلِهِمْ: {فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} عَلَى فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ هَلْ هُوَ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْقِبْلَةِ وَجْهًا بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْوَجْهَ وَالْجِهَةَ وَاحِدٌ؟ أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجْهَ اللَّهِ فَقَدْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَةَ اللَّهِ؟ فَهَذَا فِيهِ بُحُوثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا.... إلخ آخر كلامه رحمه الله] [87]

سبحانه عما يقولون

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)} (البقرة: 116، 117).

قال سبحانه: {وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً}. أي: وقال الذين منعوا الذكر في مساجد الله وسعوا في خرابها: اتخذ الله ولداً. يريد بذلك النصارى واليهود والمشركين من العرب، لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

---

[87] **مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (6/ 14-19) ت بن قاسم ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.**

(ولم تفصِّل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة-ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماما، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية، والشيوعية العالمية، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين! - ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون وها هم أولاء يستوون مع المشركين! وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله-سبحانه-يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً.). [88]

فمَعْنًى {سُبْحَانَه}: بَرَاءَةُ اللَّهِ وتنزهه عن كل سُّوءٍ ونقص. وروي عن ابن عباس – واللفظ له:" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قَال اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. أَمّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ (وفي رواية أبي هريرة زاد: وليس أول الخلق بأهون على من إعادته). وَأَمّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ (وفي رواية: وأما شتمه إياى فقوله: {اتخذ الله ولدا} (البقرة: 611)، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً ". وفي رواية: "وأنا الأحد الصمد؛ لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئا أحد". رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

فلما ادعوا – كاذبين لله الولد-رد عليهم بحجته الباهرة في ثلاث جملٍ متصلاتٍ موجزاتٍ. وبيان الأولى أن غرض الولد للإنسان إنما هو في بقاء نوعه وعدم انقراض أثره، ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى، فقال {سبحانه} أي هو منزه عن السبب المقتضي للولد. ثم لما كان اتخاذ الولد للبشر ليسدَّ نقصاً وعوزا وضعفاً، بيَّن تعالى أن {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فليس بمحتاجٍ عن فقرٍ سبحانه، وله الغنى من كل وجه. ثم زاد الحجة بقوله: {كل له قانتون} ففائدة الولد مظاهرة الوالد ومعاونته ومطاوعته، فبيَّن سبحانه أن كل ما في السماوات والأرض مع كونه مِلكا له فهم أيضاً في طوعه قانتين راضين كانوا، أو كارهين، أو مسخَّرين، كقوله: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}، وهذا أبلغ الحجة في ثلاث جملٍ بليغةٍ موجزة تنقضي فيها المجلدات الكبار. (أفاده الراغب) ...

فتأمل طريقة القرآن الرائعة في تقرير مسائل العقيدة.

وقوله تعالى:" كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ" ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ، وَالتَّقْدِيرُ كُلُّهُمْ، أو كل الخلق سواه، ثُمَّ حُذِفَ المضاف إليه (الْهَاءُ وَالْمِيمُ أو الخلق) وعُوِّض عنه بالتنوين.

(فأما القنوت فقال الزجاج: هو في اللغة بمعنيين:

---

88 في ظلال القرآن (1/ 105)

أحدهما: القيام. والثاني: الطاعة.[89] فالقانت: القائم بأمر الله. ويجوز أن يقع في جميع الطاعات، لأنه إن لم يكن قيام على الرجلين، فهو قيام بالنية. وقال ابن قتيبة: لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة، لأن جميع ما في الصلاة، والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها. وللمفسرين في المراد بالقنوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أنه الإقرار بالعبادة، قاله عكرمة، والسدي.

والثالث: القيام، قاله الحسن، والربيع. وفي معنى القيام قولان: أحدهما: أنه القيام له بالشهادة بالعبودية. والثاني: أنه القيام بين يديه يوم القيامة.

فإن قيل: كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟

فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون ظاهرها ظاهر العموم، ومعناها معنى الخصوص. والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفار تسجد ظلالهم لله بالغدوات والعشيات، فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على ذلّه لربّه. ذكرهنّ ابن الأنباريّ.).[90]

وجملة القول: أن الآية ناطقة بأن ما في السماوات والأرض ملك لله - تعالى - ومُسخَّرٌ لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالبا في غير العاقل وهي كلمة (ما) ؛ لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء؛ لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفا وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه، وأعلى البيان وأشرفه.[91]

****

---

[89] قال صاحب مقاييس اللغة (5/ 31): (قَنَتَ) الْقَافُ وَالنُّونُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى طَاعَةٍ وَخَيْرٍ فِي دِينٍ، لَا يَعْدُو هَذَا الْبَابَ. وَالْأَصْلُ فِيهِ الطَّاعَةُ، يُقَالُ: قَنَتَ يَقْنُتُ قُنُوتًا. ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ اسْتِقَامَةٍ فِي طَرِيقِ الدِّينِ قُنُوتًا، وَقِيلَ لِطُولِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ قُنُوتٌ، وَسُمِّيَ السُّكُوتُ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا قُنُوتًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: 238].

[90] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 104)

91 تفسير المنار (1/ 360)

{بديع السماوات والأرض} أي مبدع السماوات والأرض ومنشأهما على غير مثال سبق، وكل منشئٍ ما لم يُسبق إليه فهو مبدع. ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة. كما جاء في الصحيح لمسلم: "فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ". [92]

والإبداع في الحقيقة هو خلق شيءٍ من لا شيء، وأطلق مجازا على الإنشاء على غير مثالٍ سبق، والغاية هنا هو مزيد حجةٍ وبرهان يرد قول أهل الكذب والبهتان. وتقرير الحجة: إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها من لا شيء. فليس ببعيد على عظيم قدرته أن يوجِد أحداً بلا أب، أو يُعلِّم بلا واسطة من البشر. وهذه هي طلاقة قدرة الله العظيم القدير. وهى كلية من كليات البناء العقدي للمؤمنين.

وخَصَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا، ففيهما عالم الملك والملكوت بكل ما فيه العجائب التي لا يستطيع العلم والعلماء إلى يوم القيامة فك جزءٍ يسير من أسرار خلقها، وفي ذلك إشارة إلى حجةٍ أخرى خفيةٍ يدركها من مارس العلوم وعرف عظمة الله في خلق السماوات والأرض كما قال تعالى {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (غافر: 57).

وقوله تعالى: {إذا قضى أمراً} معناه أراده كما قدَّره في علمه سبحانه، أو أحكمه وفرغ منه.

وقوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. قال العز -رحمه الله: {كُن} هذا أمر للموجودات بالتحول من حال إلى أخرى كقوله -تعالى: -{كونوا قردة}، وليس إنشاءً للمعدوم، أو ربما هو لإنشاء المعدوم، لأنه لما كانت في علم الله جاز أن يقول لها: " كن " لتحققها في علمه سبحانه، أو إنما عبَّر عن نفوذ قدرته- سبحانه- وإرادته في كل شيء بالقول – مجازا- ولا قول على الحقيقة، فالإرادة الربانية نافذة حتى دون القول.[93]

وَمِنْهُ قول الشاعر، وهو عمرو بْنُ حُمَمَةَ الدُّوسِيُّ:

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَتْ فِرَاخُهُ ... إِذَا رَامَ تَطْيَارًا يُقَالُ لَهُ قَعِ.

وَقَالَ آخَرُ: قَالَتْ جَنَاحَاهُ لِسَاقَيْهِ الْحَقَا ... وَنَجِّيَا لحمكما أَنْ يُمَزَّقَا.

قال الشوكاني: وَالظَّاهِرُ فِي هَذَا هو الْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ، وَأَنَّهُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ هَذَا اللَّفْظَ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَانِعٌ وَلَا جَاءَ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ} (يس: 82)، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (النحل: 40)، وَقَالَ: {وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}

---

[92] والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية (أي في مسمى الشرع)، كقوله: فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. وتارة تكون بدعة لغوية (أي في إطلاق اللغة بغير معناها في الشرع)، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 398)

[93] تفسير العز بن عبد السلام (1/ 157) بتصرف.

(القمر: 50). ونبه تعالى بذلك أيضا على أن خلق عيسى بكلمة: كن، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} (آل عمران: 59). انتهى [94]

ثم اختلف العلماء في توجه الخطاب للمعدوم أن يوجد.

قال الأستاذ محمد عبده -رحمه الله: إن الأمر بكلمة (كن) هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف. فالأول متعلق صفة الإرادة لله سبحانه، والثاني متعلق صفة الكلام. وأمر التكليف يخاطب به العاقل المكلَّف، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود؛ إذ المراد به جعله موجودا، وإنما يوجه إليه؛ لأنه معلوم لله تعالى، فالله يعلم الشيء قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا. فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد. وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر القدري الكوني، ويسمي مقابله (أمر التكليف) الأمر الشرعي.

ذلك شأنه -تعالى -في الإيجاد والتكوين، وهو أغمض أسرار الألوهية، فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع سبحانه، وذلك ما لا مطمع فيه. وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقرِّبه من الفهم ولا يتشعب فيه الوهم، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير: يقول للشيء: (كن فيكون). انتهى [95]

أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بمراد الله تعالى في الوجود، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها. وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى. ولقد ضربت الفلسفات في تيهٍ لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد. فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها. مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله. وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة المنهج ابتداء. فلما أن أراد بعض متفلسفيهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية- على وجه خاص-أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى، باءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه. [96]

---

94 فتح القدير للشوكاني (1/ 155) بتصرف.

95 تفسير المنار (1/ 361) باختصار.

96 في ظلال القرآن (1/ 106)

****

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.... }

قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)} (البقرة: 118، 119)

اختلف علماء المعاني في المقصود بهؤلاء الذين لا يعلمون فقال بعضهم: هم اليهود الذين يتوجه إليهم الخطاب تبكيتا في أكثر هذه السورة، ورأى الطبري مرجحا: أنهم النصارى الذين ادعوا لله الولد، فقال جل ثناؤه، مخبرا عنهم أنهم مع افترائهم على الله الكذب، تمنوا على الله الأباطيل، فقالوا جهلا منهم بالله وبمنزلتهم عنده وهم بالله مشركون: (لولا يكلمنا الله)، كما يكلم رسوله وأنبياءه، أو تأتينا آية كما أتتهم؟ وكيف يؤيد الله الكاذب المشرك بكلامه ومعجزاته.

وقال آخرون: هم مشركو العرب. والحقيقة أنني أرى أن هذا هو الأقوى ومنه يتفرع الخطاب لبقية أهل الجهل، لما في خصوصية الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه من دلالة، حيث انتقل من بيان مخازي اليهود والنصارى وافترائهم ما ليس لهم به علم إلى تثبيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-وتسليته والمؤمنين، بعد تكذيب المشركين من العرب ومماطلتهم للرسول سنين، فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون اتبعوا ديدن الذين كانوا قبلهم من أمم أهل الكتاب الضالة في التشغيب على أنبيائهم. فهذا انتقال خطابي لطيف يربط بين تربية الأمة المحمدية بالعبرة من مزالق الأمم الضالة، وبين تسلية النبي وأتباعه لما يصيبهم من تكذيب أقوامهم وتشغيبهم.

ويؤيده لحاقُ هذه الآية: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} فكأنه سبحانه يقول لنبيه الكريم: هذه مهمتك البشارة والنذارة، وليس عليك هداهم إذا ما اتبعوا هواهم فهووا في الجحيم.

وفي الحقيقة فإن هذا الإبهام في وصفهم ب{الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يمكن أن يشمل كلا أهل الكتاب تبعا مع المشركين أصالةً، ويربطهم جميعا برباط الجهل الذي اتكأ عليه التعبير. ويعتبر هذا من مناحي الإعجاز القرآني في اتساع الدلالة، الذي يجعل كلا الإجمال والتفصيل دالاً بديعا في موضعه. والله أعلم.

وقوله تعالى: {لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ} أى هلَّا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ يقولونها استكباراً منهم وعتوا.

وقوله: {أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ} يقولونها جحوداً واستهانةً، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل، قد جاءوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، وبما يبعث اليقين بصدق الرسل في التبليغ عن الله.

{تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} أي قلوب أولئك الجاهلين والذين سبقوهم في العمى والضلال.

قال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يوقنون} فلو كانوا منصفين لأدركوا أنها معجزات بيِّنات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها؛ فمن أراد اليقين فعليه بها. أو لما تقدم ذكر الجاحدين وطلبهم ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر بيان الله المعجز الذي تقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين فقط، فلذلك خصهم بالذكر.

قال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ} أَيْ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ، متلبساً بالحق مُحاوَطاً به في كل ما تقول وتفعل كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم: 3، 4). وَفُسِّرَ الْحَقُّ هُنَا بِالصِّدْقِ وَبِالْقُرْآنِ وَبِالْإِسْلَامِ، والأمر على عمومه. وَبِالْحَقِّ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ أَرْسَلْنَاكَ وَمَعَكَ الْحَقُّ لَا يُفارقكَ.

{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيراً لمن اتبعك، ونذيراً لمن كفر بك، لأن تبشر الطائع المهتدي وتنذر العاصي الجاحد؛ لا لتجبر الناس على الإيمان، وهذه تسليةٌ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتسريةُ عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. فلذلك قال بعدها: {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} أي ولا نسألك عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغتَ، وبَلَغْتَ جهدك في دعوتهم، كقوله تعالى في الآية الأخرى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، وقوله {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}، وقوله: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ}، وقوله: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}.

وقرأ الإمام (نافع) وحده: (وَلا تُسْأَلُ) على النهي وجزم الفعل (ولا تسألْ) وفيه من المبالغة في استعظام ما ينالهم من العقاب حتى إن السامع لخبره ليصيبه ما لا يقدر أن يتحمله من سماع ذلك، كما تقول: كيف فلان؟ سائلا عن الواقع في مصيبة، فيقال لك: "لا تسأل عنه" أي إن حاله أشد من أن يُحكى.[97]

وهذا الذي رجحته وذكرته وحده في مقصود الآية يتفق مع جماليات البلاغة القرآنية واستقصائها لأفصح أساليب العربية، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا المقطع {ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم} على قراءة من جزم الفعل نزل في سؤال نبى الله – وحاشاه-عن مصير أبويه؛ والعجب من تطاول هذا الذي تأول ذلك، واستقطاعه النص من سياقه، وحشره لروايته فيما لم يُسَقْ له الكلام أصلاً؛ فكأنه فصل تفسير هذا الجزء عن الآية كلها لأجل روايته الواهية تلك، ثم إن هذا التأويل – لو ساغ- في إحدى القراءتين وليس ينطبق على قراءة الجمهور، ثم إن الرواية التي ساقوها في ذلك ضعيفة مرسلة من كل طرقها.[98]

---

97 راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 182) بتصرف وبيان.

98 ؛ فإن محمد بن كعب بن سليم القرظي: تابعي. والمرسل لا تقوم به حجة، ثم هما – عند الطبري وغيره–إسنادان ضعيفان أيضًا، بضعف راويهما: موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي: ضعيف جدا منكر الحديث، مترجم في التهذيب. وروى ابن أبي حاتم عن الجوجزاني قال: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: لا تحل الرواية عندي عن موسى بن عبيدة، قلنا: يا أبا عبد الله، لا يحل؟ قال: عندي، قلت: فإن سفيان وشعبة قد رويا عنه؟ قال: لو بان لشعبة ما بان لغيره ما روى عنه". وقال ابن معين: "لا يحتج بحديثه". وقال أبو حاتم: "منكر الحديث". والحديث الآخر الذي أورده الطبري بإسناده عن داود بن أبي عاصم عن النبى صلوات الله عليه، وهو تابعي ثقة والحديث أيضا لا يصح لإرسالة ولا تقوم به الحجة. انظر تحقيق العلامة الشيخ شاكر على تفسير الطبري = جامع البيان (2/ 558).

وبهذا يتبين سقوط هذا التأويل عقلا ونقلا، فلا يجوز تفسير الآية به عند التحقيق. وليس كل ما ذكرته التفاسير يُنقل، وخصوصا إذا كان تحكما لا يتفق وسياق القرآن، فكيف إذا كان به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا منهجي والله المستعان.

ثم إنني رأيت في التحرير والتنوير حـ1 ص 398 ما مختصره: وما قيل فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله (إنا أرسلناك) تأنيسٌ وتسكينٌ فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع. انتهى كلامه.

قال الأستاذ محمد عبده: وقد فشا هذا القول، ولولا ذلك لم نذكره، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم، والصحيح يُهجَر ويُنسَى، ولا شك أن مقام النبي . عليه الصلاة والسلام . في معرفة أسرار الدين وحكم الله في الأولين والآخرين ينافي صدور مثل هذا السؤال عنه، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه. انتهى.

والتعبير عن الكافرين والمكذِّبين بكلمة {أصحاب الجحيم} إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم، فلا يُرجَى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

فائدة

وهي هنا في منهج الاستدلال القرآني في العقيدة؛ فالقرآن حين يستدل على مسائل العقائد يجمع بين الوضوح والسلاسة والعمق ويبتعد عن التكلف والسفسطة والجدل العقيم؛ إنه يخاطب النفس الباحثة عن الحق من أقرب طرقها، ويطرق أبواب العقل من أوسعها ليجعلك تقرر حقائقه بدون عناء التفلسف.

أتصيد هنا كلام شيخنا السعدي على هذه الآية قال-عليه الرحمة:

ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.

وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين دون تعليق منهم. الزمخشري في الكشاف حـ1 صـ181، ومنهم ابن الجوزى في زاد المسير حـ1 صـ 137، ومنهم السمرقندي في بحر العلوم حـ1 صـ 115 ومنهم البيضاوي حـ1 صـ392 ومنهم النسفى حـ1 صـ68، ومنهم السمعاني حـ1 صـ132 والواحدي حـ1 صـ129، ومنهم الصنعاني حـ1 صـ77، ومنهم ابن جزى في التسهيل حـ1صـ59.

وقد رد هذه الرواية كثير من المحققين من العلماء والمفسرين منهم القرطبي رحمه الله حـ2 صـ64، وابن عطية، وأبو السعود حـ1 صـ152، والآلوسى حـ1 صـ371، والثعالبي حـ1 صـ103، والخطيب الشربيني في السراج المنير حـ1 صـ89.و غيرهم.

فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} والثالث دخل في قوله: {بِالْحَقِّ}.

وبيان الأمر الأول وهو -نفس إرساله -أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله، وأما الثاني: فمن عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوئه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك،

قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.انتهى [99]

---

99 تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 64)

فائدةٌ ورد شبهة.

قرأت لأحد العلماء كلاما نفيسا قال فيه [100]:

ولا يجوز في الجملة القول في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بشيء يؤدي إلى العيب والنقصان فيهم ، وقد أمرنا بحفظ اللسان عنهم ؛ لأن مرتبتهم أرفع ، وهم على الله أكرم ، وقد قال عليه السلام: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا" فلما أمرنا أن لا نذكر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بشيء يرجع إلى العيب والنقص ، فلأن نمسك ونكف عن الأنبياء أولى وأحق فحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا ـ عليه السلام ـ وليست من الاعتقاديات فلاحظ للقلب منها، وأما اللسان ، فحقه أن يُصان عما يتبادر منه النقصان ، خصوصاً إلى وهم العامة ، لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه. انتهى.

وكلامٌ نفيسٌ نقتنصه للشيخ الشنقيطي رحمه الله ـ في هذا الموضع أيضاً حول الرواية التي فيها قوله عليه السلام: " أبي وأبوك في النار".

قال- رحمه الله- ما ملخصه:

وكل ما ذكر في هذه الرواية يتعارض مع صريح القرآن الكريم مثل قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء:15] وقوله " لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون " [يس:6] وقوله تعالى " كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ..." [الملك:8] وقوله تعالى " ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون " [القصص:46] وقوله تعالى " وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " [سبأ:44] وقوله تعالى " رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " [النساء:165] وقوله تعالى " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى " [طه:134]...

فهذا كله يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب أهل الفترة، وقد صرحت بعض الأحاديث أنهم يمتحنون يوم القيامة كما ذكره ابن كثير -رحمه الله -عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً "

ثم يقول: ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في عرصات المحشر فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم فيه بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا

---

100 نقلا عن روح البيان حـ1 صـ395

القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب [الاعتقاد] وكذلك غيره. انتهى كلامه.[101]

وقيل في شرح حديث "أبي وأبوك في النار" أن الأب قد يطلق لغة واصطلاحاً على العم، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو طالب. ذلك أن أبا طالب عرضت عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فأبى أن ينطلق بها، كأن هذا القول يشير إلى قوله تعالى " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق " [البقرة:133] ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب -عليهما السلام – وقد جاء في الحديث الصحيح:" عم الرجل صنو أبيه".

رواه الترمذي عن علي وصححه الألباني. وفي الحديث الحسن: "العم والد" و" العم أب". (الصحيحة 1041).

وهذا الرأي وجيه جداً ويجب أن يحمل عليه الحديث السابق جمعاً بين الأدلة وصيانة لها عن التعارض. وأيضاً فتأويل الحديث ليوافق الكتاب أولى من تأويل الكتاب ليوافق السنة. وعندي في هذا الحديث وجهٌ آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها للرجل ترطيبا لقلبه بعدما حزن حين قال له: أبوك في النار. فكأنه قال: أبي وأبوك في النار إن لم يؤمنا، وقامت عليهما الحجة، وهذا يبينه أحاديث الامتحان في المحشر والآيات حاكمة عليه.

ويؤيده ما رواه ابن ماجة بسند صحيح عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَكَانَ وَكَانَ، فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ «فِي النَّارِ» قَالَ: فَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ» قَالَ: فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدُ، وَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَبًا، مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ إِلَّا بَشَّرْتُهُ بِالنَّارِ. وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُ «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ: وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا حَمَّادُ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ، وَقَدْ خَالَفَهُ مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَلَكِنْ قَالَ: " إِذَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ"، وَلَا دَلَالَةَ فِي هَذَا اللَّفْظِ عَلَى حَالِ الْوَالِدِ، وَهُوَ أَثْبَتُ.

فَإِنَّ مَعْمَرًا أَثْبَتُ مِنْ حَمَّادٍ، فَإِنَّ حَمَّادًا تُكُلِّمَ فِي حِفْظِهِ، وَوَقَعَ فِي أَحَادِيثِهِ مَنَاكِيرُ، وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ، وَلَا خَرَّجَ لَهُ مُسْلِمٌ فِي الْأُصُولِ إِلَّا مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ ثَابِتٍ.

وَأَمَّا مَعْمَرٌ فَلَمْ يُتَكَلَّمْ فِي حِفْظِهِ، وَلَا اسْتُنْكِرَ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِهِ، وَاتُّفِقَ عَلَى التَّخْرِيجِ لَهُ الشَّيْخَانِ، فَكَانَ لَفْظُهُ أَثْبَتَ.

ثُمَّ وَجَدْنَا الْحَدِيثَ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ بِمِثْلِ لَفْظِ مَعْمَرٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ، وَكَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ.

---

101 هذا ملخص كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله . في تفسيره أضواء البيان حـ3 ص66،65 عند الكلام على قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً"

فَتَعَيَّنَ الِاعْتِمَادُ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ وَتَقْدِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَعُلِمَ أَنَّ رِوَايَةَ مُسْلِمٍ مِنْ تَصَرُّفِ الرُّوَاةِ بِالْمَعْنَى عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ.

عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَحَّ يُحْمَلُ فِيهِ الْأَبُ عَلَى الْعَمِّ.

وَلِهَذَا قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ:

هَذَا مِنْ مَحَاسِنِ الْأَجْوِبَةِ، أَنَّهُ لَمَا وَجَدَ الْأَعْرَابِيَّ فِي نَفْسِهِ لَاطَفَهُ النَّبِيُّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَعَدَلَ إِلَى جَوَابٍ عَامٍّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ وَالِدِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.

وَقَالَ السيوطي: وَلَمْ يُعْرَفْ لِوَالِدِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حَالَةُ شِرْكٍ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ جِدًّا، فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لِلنَّبِيِّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالِدِيهِ حَتَّى آمَنَا بِهِ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُمَا فِي الْجَنَّةِ.

وَمِنْ أَقْوَى الْحُجَجِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ، وَقَدْ أَطْبَقَ أَئِمَّتُنَا الشَّافِعِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ لَا يُعَذَّبُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] الْآيَةَ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ: وَرَدَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ فِي حَقِّ الشَّيْخِ الْهَرِمِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، وَمَنْ وُلِدَ أَكْمَهَ أَعْمَى أَصَمَّ، وَمَنْ وُلِدَ مَجْنُونًا أَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَأْتِي بِحُجَّةٍ وَيَقُولُ لَوْ عَقَلْتُ أَوْ ذُكِّرْتُ لَآمَنْتُ، فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ وَيُقَالُ ادْخُلُوهَا؛ فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ لَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنِ امْتَنَعَ أُدْخِلَهَا كُرْهًا وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَدْخُلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَآلُ بَيْتِهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ يَدْخُلُهَا طَائِعًا إِلَّا أَبَا طَالِبٍ. انتهى [102]

قلتُ- الباحث: وَللحق فإن كُلُّ مَا وَرَدَ بِإِحْيَاءِ وَالِدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِيمَانِهِمَا وَنَجَاتِهِمَا أَكْثَرُهُ – (عند جمهور العلماء)- مَوْضُوعٌ مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى، وَبَعْضُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا لَا يَصِحُّ بِحَالٍ لِاتِّفَاقِ أئمة الحديث على وضعه كالدارقطني والجوزقاني وبن شاهين والخطيب وبن عساكر وبن ناصر وبن الْجَوْزِيِّ وَالسُّهَيْلِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَالْمُحِبِّ الطَّبَرِيِّ وَفَتْحِ الدِّينِ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ وَإِبْرَاهِيمَ الْحَلَبِيِّ وَجَمَاعَةٍ.

وقد خالفهم في ذلك السيوطي وقول ابن حجر –(يعني الهيتمي)-: وحديث إحيائهما حتى آمنا به، ثم توفيا حديث صحيح، وممن صححه الإمام القرطبيّ، والحافظ ابن ناصر الدين (ابن المنير).

---

102 حاشية السندي على سنن ابن ماجه (1/ 477)

ولكن هذا الأمر لا يترتب عليه كثير فائدة في العقيدة، ولكن ما ثبت في صحيح العقيدة هو وجوب تعظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلوب، ووجوب نصرته وعدم إيذائه في نفسه وفي أهله وفي صحبه وفيمن يحب، وأن مؤذي النبي ليس من أهل الإيمان.

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى...}

قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)}.

إنها الحقيقة التي أخذت من سياق الآيات جهدا متواصلا يكشف أسرار تلك الحرب النفسية والإعلامية والفكرية؛ فيما يطلقون عليها في الاصطلاح الحديث (حروب الجيل الرابع) ليتمحض الأمر الآن عن حقيقةٍ واقعةٍ وواقعيةٍ تماما؛ وكذلك هي ممتدة عبر الزمان بكل وسائل المكر المتاحة.

(يمضي السياق في هذا الدرس على هذا النحو، حتى ينتهي إلى أن يضع المسلمين وجهاً لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. إنه تحويل المسلمين من دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي-صلى الله عليه وسلم-حتى يتبع ملتهم، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية! وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة!!!

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»

فتلك هي العلة الأصيلة. ليس الذي ينقصهم هو البرهان وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق. ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت. لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان. إنها هي العقيدة.) [103]

فلقد أدرك معسكر الشرك قديما دور العقيدة في بناء إمبراطورية الإسلام الراقية. ويدرك حديثا دور العقيدة في استعادة مجد هذه الأمة. لقد وعووا جيدا قول ابن خلدون في مقدمته الذي قرر فيه أن العرب أمة لا تصلح ولا تجتمع بغير دين [104]؛ فإذا خلوا من الدين لم يكن لهم من الانحطاط مانع، فظلت سهام الحاقدين إذن -

---

[103] **في ظلال القرآن (1/ 100)**

104 **قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة (1/ 189): الفصل السابع والعشرون: في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.**

والسّبب في ذلك أنّهم لخلق التّوحّش الّذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمّة والمنافسة في الرّئاسة فقلّما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدّين بالنّبوءة كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدّين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التّحاسد والتّنافس. فإذا كان فيهم النّبيّ الّذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلّف كلمتهم لإظهار الحقّ تمّ اجتماعهم

مهما لفقوا وتدثروا بنفاقهم – موجهةً إلى قلب حضارة الإسلام (العقيدة الحية). فمن حروبٍ صريحةٍ لإبادة الإسلام، إلى حروب ناعمة في الفكر والثقافة والإعلام. ومن السيف والرمح والدبابة والطائرة والمدفع إلى الفكرة والقلم والميكروفون والمنبر. من إيقاع الفتنة بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زمن الوحي بقليلٍ؛ إلى اختراع فرق الروافض والباطنية وغيرها لتكون الشوكة الملتهبة في ظهر الإسلام؛ إلى حروب الصليب الممتدة لإبادة الإسلام دفعةً واحدةً؛ ثم إنهاك خلافة المسلمين إلى إنهائها على أيدي الزنديق (مصطفى كمال أتان تورك)، إلى استخراب بلاد المسلمين بالدبابة والمدفع؛ إلى استخرابها بالاستشراق والعلمنة والمذاهب الضالة التي تولى كبرها المنافقون والعملاء من جنسنا. وكل ذلك وراءه الحقد الصهيو/نصراني الذي لن يكف حتى يزيح الدين الذي يفضح عورته على الملأ ويبين فساد أديانهم وضلالها.

قال الشيخ الشعرواي رحمه الله ما معناه: إذا رأيت اليهود أو النصارى قد رضوا عن أحدهم فأعلم أنه اتبع ملتهم، فهذا ظاهر قوله تعالى: «وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ ملتهم". انتهى

ولكن برغم تكرار الآيات وتأكيد القرآن على حجم هذه العداوة والمفاصلة التامة بين منهج الحق وسبل الباطل؛ نجد المثبطين يميِّعون المسألة دائما لصالح أسيادهم في الغرب.

ورحم الله الشيخ الندوي (1332 -1420هـ) إذ يقول:

«إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية - مع الأسف - ضعيفة الوعي، إذا تحرجنا أن نقول: فاقدة الوعي، فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضي الزعماء والقادة، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الديني والوعي الاجتماعي وأضعف في الوعي السياسي، وذلك ما جر عليها ويلًا عظيمًا وشقاءً كبيرًا وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كل معركة» اهـ.

ولكي ندرك حجم المأساة نقرأ سويةً ما قاله (جان بول سارتر) في كتابه (المنبوذون في الأرض) مبينا أساليبهم في صناعة فكر ووجدان الشرق وخصوصاً المسلمين؛ من أجل يصنعوا نسخاً مستعبدةً من الطراز الغربي السخيف، قال:

(كنا نحضر أبناء رؤساء القبائل، وأبناء الأشراف، والأثرياء، والسادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيامٍ في لندن وباريس وأمستردام. فتتغير ملا بسهم، ويلتقطون بعض أنماط الحياة الاجتماعية الجديدة. ويرتدون السترات والسراويل، ويتعلمون لغتنا، وأساليب رِقصنا، وركوب عرباتنا، وكنا نزوج بعضهم من أوروبا. ونلقنهم أساليب حياتنا على شكل جديد، وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوروبي، وغذاء أوروبي.

وحصل لهم التّغلّب والملك، وهم مع ذلك أسرع النّاس قبولا للحقّ والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلّا ما كان من خلق التّوحّش القريب المعاناة المتهيّئ لقبول الخير. انتهى

قال: كنا نضع في أعماقهم أوروبا، والرغبة في تحويل بلادهم إلى أوروبا. ثم نرسلهم إلى بلادهم حيث يرددون ما نقوله بالحرف تماما مثل الثقب الذي يتدفق منه الماء في الحوض: هذه أصواتنا تخرج من أفواههم؛ وحينما كنا نصمت؛ كانت ثقوب الحوض تصمت أيضا؛ وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسا صادقا وأمينا لأصواتنا من الحلوق التي صنعناها، وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم) انتهى كلامه.

إنهم يريدون أن يصرفوننا عن مصدر الرحمة الشاملة والعامة والكاملة في حياتنا؛ عن قرآننا لنكون صدى لثقافتهم وذيلا لفكرهم. وفي هذا أيضا يقول العلامة محمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية:

لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، ف كانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد. انتهى.

*****

(إنها معركة العقيدة المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها. ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية.

إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة. ومن ثَمَّ استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة. لم يعلنوها حربا باسم العقيدة-على حقيقتها-خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية. وما إليها. وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها. بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية-بإضافة الشيوعية العالمية-جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً، فأدمتهم جميعاً!!!

إنها معركة العقيدة. إنها ليست معركة الأرض. ولا الغلة. ولا المراكز العسكرية. ولا هذه الرايات المزيفة كلها. إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه-صلى الله عليه وسلم-ولأمته، وهو-سبحانه-أصدق القائلين:

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود! ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

«قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى»

هكذا على سبيل القصر والحصر. هدى الله هو الهدى. وما عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق. (105)

****

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»

هنا يتساءل صاحب التحرير: ما معنى الغاية (ودلالة "حتى") في قوله تعالى {حتى تتبع ملتهم}؟

والجواب: فائدتها الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه صلى الله عليه وسلم ملتهم، وذلك مستحيل قطعا فهم لا يتبعون ملته ... والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف في قوله: {ولا النصارى} للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف ينسقهم مع اليهود، لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئاً من المودة للمسلمين كما في قوله تعالى: {ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} [المائدة: 82]، فجاء النفى مستقلا لهم أيضا قطعا للأمل في إنصافهم للحق.

ثم سأل: لم عبَّر القرآن عن طريقتهم بالملة مرة في قوله تعالى: {حتى تتبع ملتهم}، وبالأهواء مرة أخرى {ولئن اتبعت أهواءهم}؟

والجواب: عبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظراً لاعتقادهم انهم أهل كتاب وعلى الحق وشهرة ذلك عند العرب، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهَّد لدحض ما هم عليه من تحريف الدين بقوله تعالى: {إن هدى الله هو الهدى}؛ أي الهدى الحق المبني على الدلائل بغير تحريف هو هدى الله في القرآن. والهوى رأي ناشىءٌ عن شهوةٍ لا عن دليلٍ، فذكر آخر آخرا أنهم عدلوا عن الملة التي جاء بها نبيهم إلى أهواءهم الضالة. (106)

*****

«وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ».

الخطاب هنا خاصٌ بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراده العموم.

---

105 **في ظلال القرآن (1/ 108)**

106 **التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور حـ 1 صـ397- 399**

قال أبو حيان: في قوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضى...} خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَّقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِأَمْرٍ مُسْتَحِيلِ الْوُقُوعِ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ اتِّبَاعُ مِلَّتِهِمْ. وَالْمُعَلَّقُ بِالْمُسْتَحِيلِ مُسْتَحِيلٌ.

وَهُوَ خِطَابٌ لَهُ، وَهُوَ تَأْدِيبٌ لِأُمَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَدْرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِيَتَأَدَّبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، فَلَا يُوَالُونَ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُرْضِيهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُ دِينِهِمْ.

وَهُوَ خِطَابٌ لَهُ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ، لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ لَا يُمْكِنُ مَا خُوطِبَ بِهِ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ، فَيُصْرَفُ ذَلِكَ إِلَى مَنْ يُمْكِنُ ذَلِكَ مِنْهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، وَيَكُونُ تَنْبِيهًا مِنَ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُخَادِعُونَكُمْ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْمَيْلِ وَطَلَبِ الْمُهَادَنَةِ وَالْوَعْدِ بِالْمُوَافَقَةِ، وَلَا يَقَعُ رِضَاهُمْ إِلَّا بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ. انتهى (107)

قلتُ: فليس التهديد والوعيد هنا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-وإنما هو للمؤمنين يردهم أن ينكصوا على أعقابهم ويميلوا إلى أولئك الهالكين فيتبعونهم في ضلالهم، ولما كان الخطاب لخير خلق الله بهذه المثابة من القوة؛ صار من الأولى أن يفهم المؤمنون مدى حمق وخسارة الذين يضعفون أمام معاول أهل الكفر والخسران وحيلهم ومكرهم، كما في المثل السائر عند العرب: (إياك أعني واسمعي يا جارة) [108] يُضرب مثلاً لمن خاطب شخصا وقصد غيره على الحقيقة.

وهكذا كل خطابٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-فيه توهُّم نوعٍ من الشدة في القرآن الكريم، فإن مَن أظهر النهى وشدَّد فيه وتوعَّد عليه لحبيبه وخليله فهو لغيره ممن دون ذلك أشد وأنكى. وهذا من فقه بلاغة اللغة في الخطاب القرآني فتأمله

---

107 البحر المحيط في التفسير (1/ 590)

108 قولهم: " إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَة"

أول من قال ذلك سهْل بن مالك الفزاري. وذلك أنه خرج يومئذ فمرّ ببعض أحياء طيء، فسأل عن سيد الحي فقيل له: حارثة بن لأْم. فأمَّ رحله فلم يُصبه شاهداً قالت له أخته: انزل في الرحب والسعة، فنزل فأكرمته وألطفته. ثم خرجت من خِباءٍ إلى خباء فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها. فوقع في نفسه منها شيء، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ماوافقها من ذلك. فجلس بفناء الخباء يوماً وهي تسمع كلامه وهو ينشد:

يا أُخْتَ خَيْرِ البَدْوِ والحضارهْ ... كيف تَرَيْنَ في فَتَى فَزَارَهْ

أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ ... إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَهْ

فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني، فقالت: ماذا بقول ذي عقل أريب، ولا رأيٍ مُصيب، ولا أنفٍ نجيب. فأقِم ما أقمت مُكرَّماً، ثم ارتحِل إذا شئت مُسلَّما. فاستحيا من قولها وقال: ما أردت مُنكراً واسَوْأتاه. قالت: صدقت. وكأنها استحيت من تسرعها إلى تهمته. فارتحل فأتى النعمان فحباه وأكرمه. فلما رجع نزل على أخيها، فبينما هو مُقيم عندهم تطلّعت إليه نفسُها وكان جميلاً. فأرسلت إليه أن اخطُبني إن كانت لك فيّ يوماً من الدهر حاجة، فإني سريعة إلى ذلك. فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه.انتهى من الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة (ص: 158).

وهذا مقصود العلامة الآلوسي حين رأيته -بعد-في روح البيان ح **1** ص**315** يقول:

وهذه الجملة الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام ف سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك.انتهى

قال في البحر: وَوُحِّدَتِ "الْمِلَّةُ"، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ مِلَّتَانِ (اليهود والنصارى)، لِأَنَّهُمَا يَجْمَعُهُمَا الْكُفْرُ، فَهِيَ وَاحِدَةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، أَوْ لِلْإِيجَازِ فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْجَمْعِ فِي الضَّمِيرِ، نَظِيرُ: {وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى}، لِأَنَّ الْمَعْلُومَ أَنَّ النَّصَارَى لَنْ تَرْضَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، وَالْيَهُودَ لَنْ تَرْضَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ. وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكُفْرِ، أَهُوَ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ أَوْ مِلَلٌ؟ وَثَمَرَةُ الْخِلَافِ تَظْهَرُ فِي الِارْتِدَادِ مِنْ مِلَّةٍ إِلَى مِلَّةٍ، وَفِي الْمِيرَاثِ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي الْفِقْهِ.

وَالْأَهْوَاءُ: جَمْعُ هَوًى، وَكَانَ الْجَمْعُ دَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ اخْتِلَافِهِمْ، إِذْ لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ لَكَانَ طَرِيقًا وَاحِدًا، كما قال تعالى: {وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}. وَأَضَافَ الْأَهْوَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهَا بِدَعُهُمْ وَضَلَالَاتُهُمْ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَصْحَابُ الْبِدَعِ: أَرْبَابَ الْأَهْوَاءِ. انتهى [109]

وفي (أَهْوَاءَهُمْ) إنما جمع ولم يقل (هواهم)، لأن جميع الفرق ممن خالف النبي -صلى الله عليه وسلم -لم يكن ليرضيهم منه إلا أتباع هواهم، ثم إن القوم اختلفوا على أنفسهم في كفرهم بعقائدَ ومللٍ شتى، لا يجمعهم سوى الحرب على الإسلام.

ثم فيه تنبيه أن الحق واحدٌ والهوى يتشعب بأصحابه لكلٍ منهم هوى غير صاحبه.

ثم هوى كل واحد منهم لا يتناهى، ونحو ذلك قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، وقوله: {قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، وقوله للمؤمنين: {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ}، وقال: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وذلك تحذير من الهوى جملةً.

وقد تعلق بهده الآية من يجعل الكفر كله ملةً واحدة، لأنه جمع بين اليهود والنصارى، وسمي طريقتهما ملة واحدة. وهم في حربهم على الإيمان والحق ملةٌ واحدة، أما في ذوات أنفسهم فشتى.

****

وقوله تعالى: {بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي من الدِّينِ وَجَعَلَهُ عِلْمًا، لِأَنَّهُ معلوم بالبراهين الصحيحة. وقيل: العلم هنا القرآن ببراهينه الساطعة، والأمر أعم يشمل الإسلام والقرآن والشريعة وغيره.

---

[109] البحر المحيط في التفسير (1/ 590)

وفي هذه الجملة نكتٌ بديعة: فقد جعل الدين علما يحتاج المتكلم فيه إلى التعلم أولاً، ومثله قوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} الآية (محمد: 19) رداً على الخائضين في دين الله بالباطل وبغير علم.

ثم العلم في الدين علمان: علم بالله، وعلم عن الله.

فالعلم بالله أعلى درجات العلم، ولا يخيب صاحبه أبدا، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله الذي يورث الإيمان واليقين ويزيدهما، وأكثره من فيض الله وعطائه وتوفيقه، وفيه أكثر فقه السلف وديدنهم. وأما العلم عن الله؛ فهو علم الفقه والفروع والمسائل وغير ذلك وربما نفع صاحبه إن عمل به أو ضره إن خالفه، وربما أتى أكثره بالاكتساب، وهو أكثر علوم الخلف.

وأما اللطيفة الأخرى فهى أن قوله تعالى {بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: 120] جاءت بإظهار الاسم الموصول "الذي"، في حين جاءت {بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} بإبهام الاسم الموصول " ما" في ثلاث آيات أخرى (البقرة 145، آل عمران 61، الرعد 37). فأظهر "الذي" في الأولى إذ كان الحديث عن العلم بالله ودينه وشرعه وكتابه ودلائل أحقية دينه كلها؛ فناسب التعظيم والتعريف ب " الذي". وإنما جاءت الآيات بعد ذلك ب " ما" المبهمة إذ كان الحديث في كل منها عن العلم في مسألةٍ واحدةٍ بعينها من مسائل الدين مثل القبلة، وخلق عيسى من تراب كآدم عليهما السلام، وتنزيل الكتاب على الترتيب. فسبحان الله وبحمده، والله أعلم بأسرار كتابه.

****

وفي قوله تعالى: {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} قَطْعٌ لِأَطْمَاعِهِمْ أَنْ يتبعَ مؤمنٌ أهواءهم، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُ وَلَا نَصِيرَ يَنْفَعُهُ إِذَا ارْتَكَبَ شَيْئًا كَانَ أَبْعَدَ فِي أَنْ لَا يَرْتَكِبَهُ، وَذَلِكَ إِيَاسٌ لَهُمْ من غواية المؤمنين.

(فإن قيل لم عطف النصير على الولى في قوله تعالى {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}؟

فالجواب: عطف النصير على الولي احتراساً لأن نفي الولي لا يقتضي نفيَ كلِ نصيرٍ، فربما لم يكن لهم وليٌ، ولكن وجدوا مَن ينصرهم. وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم فِي اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفى ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفى الأعم منه وهو النصرة. انتهى بتصرف كثير). [110]

****

[110] التحرير والتنوير حـ 1 صـ397- 399

{...يتلونه حق تلاوته...}

قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)} [البقرة: 121 -123]

جاءت الآيات في استئناف الخطاب المتصل لبني إسرائيل وبيان انحرافاتهم؛ والخطاب في باب التذكير والعظة ومن وجهٍ آخر هو أيضا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يتصل وثيقا بما قبله فبعد أن بيَّنت الآيات بما مجال للين فيه أن طريق الحق مغاير تماما لتيه أهوائهم بقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} أي هو الهدى الحقيقي وما سواه ضلال، شرعت الآيات تقيم هذا الطريق على ما جاء من العلم في كتب الله التي تعاضدت على تثبيت توحيده وطاعته والإيمان به وبرسله. والإشارة العامة هنا إلى {الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ} أى واصطفيناهم من بين الأمم بإرسال الرسل وهم {يَتْلُونَهُ} أى الكتاب متأملين متدبرين لما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والمعارف والحقائق مراعين {حَقَّ تِلاوَتِهِ} بلا تحريفٍ ولا تبديل {أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} وبما فيه من الأحكام والآيات والأخبار {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ} بتحريفه وتبديله إلى ما تهوى أنفسهم {فَأُولئِكَ} المحرِّفون المغيِّرون كتابَ الله لمصلحة نفوسهم {هُمُ الْخاسِرُونَ} المقصورون على الخسران المؤبد والحرمان المخلد، وكأن الخسران لهم وحدهم.

قال الرازي: التلاوة لها معنيان. أحدهما: القراءة. والثاني: الإتباع فعلاً، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلاً، قال الله تعالى: {والقمر إِذَا تلاها} (الشمس: 2) فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً، ويصح فيهما جميعاً المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه، والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه.

فأولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.

وثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرأوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم.

وثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه.
ورابعها: يقرأونه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق.

وخامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظاً ومعنى، فوجب حمل اللفظ على كل ذلك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم.[111]

سؤال: فإن قيل لم جيء قولُه تعالى: {أولئك يؤمنون به} باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره؟

---

[111] {مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 30}

والجواب: أن ما ذكره الله تعالى من مدحهم بصفات اتباع الكتاب حق الاتباع بغير تحريفٍ ولا تملصٍ من تكاليفه يستأهل ذلك الإشارة إليهم بما يعظم شأنهم {أولئك} ويحصر المعنى الحقيقي للإيمان بكتاب الله فيهم، وفي مقابل ذلك تماما قوله تعالى: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون} أي: الكاملون في الخسران.

*****

والخطاب هكذا بعمومه وإبهامه في كل الذين آتاهم الله الكتاب ويتلونه حق تلاوته من اليهود والنصارى والمسلمين وقد خالفوا طريق أهل الخسران والكفران. فقد أفاد هذا الإبهام والعموم الكثير في إطلاق الحكم الشامل الذي يحض كل ذي دينٍ على اتباع الحق والنظر في العواقب والتمسك بصحيح كتب الله والإيمان برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: 157 - 159] وهم الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم مثل عبد الله بن سلام رضى الله عنه.

نكتةٌ في بدائعِ آياتٍ من متشابهاتِ القرآن.

ولأجل ذلك يستمر السياق في تذكير بني إسرائيل وتبكيتهم على تقاعسهم عن العمل بمقتضى ما علمهم الله من الحق الذي حرفوه واتبعوا أهواءهم فضلوا؛ قال تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة 122) وهذه الآية تكررت في الآية رقم (47) من سورة البقرة نفسها، وقد كانت في سياق تذكيرٍ عام بضربات خاطفة تمثل سياطا من المواعظ متلاحقة لتنبه أولئك المتخاذلين عن الحق من بني إسرائيل. ثم تجئ الآية هنا في سياق التذكير بعد تفصيلٍ طويل لمخازي القوم وعنادهم وحربهم على دين الله تعالى، وكأن الآية الأولى في ترقيق القلوب للحق أكثر منها في الآية الثانية التي بها التوبيخ والتبكيت بعدما أمعن القوم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم وحربهم لدينه؛ تنهي ما بدأه السياق الزاجر لأهل الكتاب. فتبين أن تكرار الآيات في كل موضعٍ له غايته وحكمته، والله أعلم.

وفي الآية الأولى {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} (البقرة: 48). ثم إن الآية هنا {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} (البقرة: 123)، وقد تكلم علماء المتشابهات في القيمة الدلالية لهذا التشابه الظاهري بين الآيتين، ثم تبينت لي لطيفةٌ قرآنية بديعة.

ففي الآية (123) {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ} والحديث فيها عن النفس المشفوع لها، وقد ذكرت الآية أنها لا تُقبل منها فدية ولا تنفعها شفاعة الشافعين، والخطاب هنا متسق تماما مع التخبط الذي يمر به الدهماء من اليهود والنصارى الذين يقولون لبعضهم أنهم ليسوا على شيء؛ بل ادعوا لله الولد – سبحانه-

فأولئك المغرورون الذين ادعوا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، لن تنفعهم شفاعة الذين أضلوهم وحرفوا كتابهم من أحبارهم. فالخطاب هنا لعوام أهل الكتاب، يخوفهم ذلك اليوم الذي لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفعهم الشفاعة.

وفي آية (48) {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} كان الحديث عن الأحبار والعلماء من بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فجاء الخطاب متسقا بأن أولئك الكاذبين لا تُقبل شفاعتهم في أحدٍ حيث لم ينفعهم علمهم في الدنيا، ولا يبقى لهم جاهٌ في الآخرة يوم ينكشف زيفهم أمام من أضلوه من عوامهم؛ بل لا يؤخذ منهم فديةٌ تقيهم حر العذاب الأليم.

فتأمل كيف اتسق الخطاب وترتيب الكلام ونظمه مع السياق الخطابي والخط الدلالي في الآيات بحيث يرى الرائي الأمر تكرارا؛ ويراه المتأمل البصير دقةً وحكمةً بالغةً في وضع كل كلمةٍ في موضعها اللائق بها تماما. والله أعلم.

إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى
عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(134)} (البقرة: 124 – 134)

بين يدئ الآيات والتربية الإيمانية في سورة البقرة

فصلٌ جديدٌ في جدال القرآن الماتع مع أولئك المارقين من اليهود والنصارى الذين احتكروا النسبة إلى إبراهيم عليه السلام وأخذوا يتنازعونه فيما بينهم فيدعي كل قومٍ أنه منهم، هذا الادعاء الباطل الذي يتناوله النص الكريم في سورة آل عمران بمزيد تفصيل ويجيب عنه بكل صراحة { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66)مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } (آل عمران: 65 – 70).

وهنا في سورة البقرة يبدأ الحديث عن أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-وقد كان أمةً وحده، بإيمانه ويقينه وطاعته لله تعالى، وقد وضعه القرآن في مكانةٍ عظيمة {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} (البقرة 124). وإبراهيم عليه السلام مدرسةٌ راقيةٌ للتوحيد والطاعة، ومثالٌ من أمثلة القرآن العليا كما قال الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل: 120 – 123).

وهذا الانتقال المفاجئ من الحديث عن انحرافات بني إسرائيل إلى ذكر سيدنا إبراهيم فيه تلك الدلالة الراقية على انتقال راية الملة الإبراهيمية من يد القوم الذين فرَّطوا في دينهم وكانوا شيعا، وحرفوا كتب ربهم، وقتلوا أنبياءه إلى يد المسلمين المؤمنين لله حقا بوريث إبراهيم -عليه السلام -وحامل راية التوحيد من بعده سيدنا محمد -صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كانت سورة البقرة تضع الدعائم الأصيلة لمنهج الإسلام عقيدةً وفكرا وعملا وسلوكا وسياسةً واجتماعاً، ففي هذه الآيات امتدادٌ لتربية أمة الخلود؛ أمة محمد – صلى الله عليه وسلم-التي تنتزع راية التوحيد والإسلام لتقوم بها إلى يوم الدين.

وقد ورد ذكر سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم (69) مرة في (25) سورة. وقد ذُكر في كل موضعٍ بدرس جديدٍ من دروس الإيمان والتربية الربانية يمثله حضور مواقف هذا النبى العظيم الذي يمثل أرقى درجات اليقين والإيمان، وكل أنبياء الله -عليهم جميعا السلام -كذلك. وهذه هي القيمة الأولى لذكر الأنبياء وقصصهم في كتاب الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف: 111). ولقد جاء القرآن – كما جاءت رسالة محمد -صلوات الله عليه – وحياته الشريفة تجسيدا حيا لكل قيم وأخلاق وعظمة الأنبياء قبله. وهذا ما نفهمه جليا من قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} (الأنعام: 90)، ثم يأتي القول الفصل لهذا المعنى من اجتماع عظمة كل الأنبياء والشرائع في عظمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4). وهذا هو مغزى وأصل منهج التربية الإيمانية في القرآن كله وفي سورة البقرة خصوصاً، فتأمل.

التفسير.

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم، وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قوله: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي}؛ شرع سبحانه هاهنا في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضله جميع

الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضا مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم -عليه السلام-أمورا توجب على الجميع قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم، والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفَّى بها نال النبوة والإمامة. وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

وثانيها: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: {لا ينالُ عهدي الظالمين} فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء إن أرادوا الإمامة في الدين وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل.

وثالثها: أن الحَج من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحُجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

ورابعها: أن القبلة لما حُوِّلت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبيَّن الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه.

وخامسها: أن من المفسرين من فسر الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى الصبر على ما ابتلي به في دين الله تعالى، ثم الانقياد لأحكامه تعالى، وهذا يوجب على هؤلاء الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام.[112]

*****

وَ{إِذِ} للتنبيه والْعَامِلُ فِيهِ عَلَى مَا ذكروا محذوف، وقدروه: واذْكُرْ إِذِ ابْتُلِيَ إِبْرَاهِيمُ، وَالِابْتِلَاءُ[113]: الِاخْتِبَارُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الله تعالى كَلَّفَهُ بِأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ. وَالله تَعَالَى عَالِمٌ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَاخْتِبَارُ اللَّهِ عَبْدَهُ مَجَازٌ عَنْ تَمْكِينِهِ مِنَ اخْتِيَارِ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: مَا يُرِيدُ اللَّهُ، وَمَا يَشْتَهِيهِ الْعَبْدُ، كَأَنَّهُ امْتَحَنَهُ مَا يَكُونُ مِنْهُ حَتَّى يُجَازِيَهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. انْتَهَى كَلَامُهُ، وَفِيهِ دَسِيسَةُ الِاعْتِزَالِ.[114]

ففي عقيدة القوم أن الاختيار للعبد في أفعاله دون حكم القدر، وهكذا شطره الحق وأصله الباطل، فالرب سبحانه يعلم ويقدِّر؛ وعلمه وقدره نافذيْن، والعبد يفعل لا عن جبرٍ؛ وهو محاسَبٌ على فعله واختياره دون

---

112 تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 30) بتصرف واختصار.

113 الابتلاء والبلاء هو الاختبار والامتحان، يقال بلوته وابتليته بلاءً وابتلاءاً إذا اختبرته، وَقَالَ الشاعر: بُلِيتُ وَفِقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ.

114 البحر المحيط في التفسير (1/ 599)

ظلمٍ. وهذا اعتقاد أهل الحق، وله ذيول ومناقشات محلها كتب العقيدة، وإنما أردت التنويه على دسائس الزمخشري في كتابه التي لا يتفطن لها سوى المحققين رغم قوة الرجل في علوم البلاغة القرآنية، وقد علَّمَنا علماؤنا الإنصاف.

وقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ هنا هُوَ الرَّبُّ سبحانه {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ...}، وَتَقَدَّمَ مَعْنَى ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُ أنه اختباره ليظهر كيف يفعل وهو أعلم به. [115] قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِلِاهْتِمَامِ بِالذي وَقَعَ عليه الِابْتِلَاءُ، إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُبْتَلِي. وَإِيصَالُ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ بِالْفَاعِلِ مُوجِبٌ لِتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ. انْتَهَى كَلَامُهُ، وَكَوْنُهُ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْفَاعِلِ هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ من علماء النحو. وَقَدْ جَاءَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِثْلِ: ضَرَبَ زَيْدًا سيدُهُ، وَقَدْ طَوَّلَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يُطَوَّلُ فِيهَا لِشُهْرَتِهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ.

وَالْكَلِمَاتُ التي ابتلى بها إبراهيم عليه السلام لَمْ تُبَيَّنْ فِي الْقُرْآنِ مَا هِيَ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِيهَا أَقْوَالٌ: ذكروها.... [116]

---

115 قال العلامة الراغب: وسمي التكليف بلاءً من أوجه:

- أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.

- والثاني: أنها اختبارات، ولهذا قال الله عز وجل: {ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} [محمد/31].

- والثالث: أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر. والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: (بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر)، ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وُسّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِر به فهو مخدوعٌ عن عقله.... فإذا قيل في الله تعالى: بلاه كذا وأبلاه وابتلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته، وإظهار أمر ذلك، دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يُجهل من أمره إذ كان الله علام الغيوب، وعلى هذا قوله عز وجل: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن} [البقرة/124]. راجع مفردات ألفاظ القرآن (1/ 117).

116منها ما رَوَى طَاوُسٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا الْعَشَرَةُ الَّتِي مِنَ الْفِطْرَةِ: المضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالْفَرْقُ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالِاسْتِطَابَةُ، وَالْخِتَانُ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ.

وقيل: حَلْقُ الْعَانَةِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَغُسْلُ يَوْمِ الْجُمْعَةِ، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَالْإِفَاضَةُ. وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا.

وقيل: هِيَ الْخِصَالُ السِّتُّ الَّتِي امْتُحِنَ بِهَا الْكَوْكَبُ، وَالْقَمَرُ، وَالشَّمْسُ، وَالنَّارُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْخِتَانُ. وَقِيلَ: الذَّبْحُ لِوَلَدِهِ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وقيل: مَنَاسِكُ الْحَجِّ، رَوَاهُ قَتَادَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وقيل: غير ذلك.... وقال أبو حيان: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَى أَنَّ كُلَّ قَائِلٍ مِنْهَا ذَكَرَ طَائِفَةً مِمَّا ابْتَلَى اللَّهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ كُلُّهَا ابْتَلَاهُ بِهَا، وَلَا يُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْحَصْرِ فِي الْعَدَدِ، وَلَا عَلَى التَّعْيِينِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى التَّنَاقُضِ. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي فَسَّرَ بِهَا الْكَلِمَاتِ، إِنْ كَانَتْ أَقْوَالًا، فَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي تَسْمِيَتِهَا كَلِمَاتٍ، وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالًا، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ الْكَلِمَاتِ عَلَيْهَا مَجَازًا، لِأَنَّ التَّكَالِيفَ الْفِعْلِيَّةَ صَدَرَتْ عَنِ الْأَوَامِرِ، وَالْأَوَامِرُ الإلهية كَلِمَاتٌ. البحر المحيط في التفسير (1/ 600)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {بِكَلِماتٍ} أَيْ: بِشَرَائِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدَرِيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ} (التَّحْرِيمِ: 12) وَتُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا} (الْأَنْعَامُ: 115) أَيْ:كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْقٍ، وَإِمَّا طَلَبُ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: {وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ}.[117]

وهنا قاعدة من قواعد التفسير: ما جاء في كتاب الله تعالى مجملاً مبهماً، فلا فائدةَ في تفصيله وتفسيره إلا أن تفسره السنة الصحيحة أو يتعلق بالأحكام التكليفية فيُنظر في إجماله.

ونقرأ هنا قول العلامة ابن كثير في مقدمة تفسيره:

وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ولون كلبهم، وعددهم، وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ، وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ على المكلفين فِي دينهم ولا دنياهم.

وَلَكِنَّ نَقْلَ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً} (الْكَهْفِ: 22).

فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا، ثُمَّ أَرْشَدَ على أن الاطلاع عَلَى عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ فَقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ }، فَإِنَّهُ ما يعلم ذلك إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً} أَيْ لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ.

فَهَذَا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَةِ الْخِلَافِ: أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْأَقْوَالَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ وَأَنْ تُنَبِّهَ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَتُبْطِلَ الْبَاطِلَ، وَتَذْكُرَ فَائِدَةَ الْخِلَافِ وَثَمَرَتَهُ لِئَلَّا يَطُولَ النِّزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَتَشْتَغِلُ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ. انتهى[118]

---

117 **تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 284)**

118 **تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 10)**

والخلاصة أن الكلمات التي ابتُلى بها إبراهيم جاءت في صيغة النكرة التي تعم كل ما أُمر به عليه السلام من تكاليف الدين والنبوة والدعوة والشرع، والمقصود هنا هو بيان اضطلاعه بها عليه السلام على أتم الوجوه فنال المدح الرباني والقرب الإلهي. وهو الوفاء بها المذكور في قوله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}.

(وفي ابتداء قصته بقوله: {بكلمات فأتمهن} بيانٌ لأنَّ أسنى أحوال العباد الإذعان والتسليم لمن قامت الأدلة على صدقه والمبادرة لأمره دون اعتراض ولا توقف ولا بحث عن علة، وفي ذلك إشارة إلى تبكيت المدعين لاتباعه من بني إسرائيل حيث اعترضوا في ذبح البقرة وارتكبوا غاية التعنت مع ما في ذبحها من وجوه الحكم بعد أن أساؤوا الأدب على نبيهم في ذلك وفي غيره في أول أمرهم وأثنائه وآخره فأورثهم ذلك نكالاً وبعداً، فظهر أن الصراط المستقيم حال إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنهم الذين أنعم الله عليهم المذكورون في آخر الفاتحة). [119]

{قَالَ} – أي ربنا تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام: {إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً} أَيْ: جزاء على ما فعل، لما قَامَ بِالْأَوَامِرِ وَتَرَكَ الزَّوَاجِرَ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ – كافةً-قُدْوَةً، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُحْتَذَى حَذْوَهُ.

(سَأَلَ رجل الشَّافِعِي-رحمه الله-فَقَالَ: يَا أَبَا عبد الله، أَيّمَا أفضل للرجل أَن يُمَكَّن أَو يَبْتَلِي؟

فَقَالَ الشَّافِعِي: لَا يُمكَّن حَتَّى يبتلى. فَإِن الله ابْتُلِيَ نوحًا وَإِبْرَاهِيم ومُوسَى وَعِيسَى ومحمدا صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ فَلَمَّا صَبَرُوا مكنهم.

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً يَأْتَمُّ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ لِصَبْرِهِمْ وَيَقِينِهِمْ؛ إِذْ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرُهُ إِلَّا بِيَقِينِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، وَبَصِيرَتِهِ بِهِ، وَصَبْرِهِ عَلَى تَنْفِيذِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِاحْتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزْمَهُ وَيُضْعِفُ إِرَادَتَهُ. فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى.). [120]

وَقَوْلُهُ تعالى: {قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ: لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} لما جعل الله إبراهيم إماما سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأُخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمةً فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طِلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: {وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ} (الْعَنْكَبُوتِ: 27) فكل نبيٍ أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.

---

119 **مشارق الأنوار فيما حواه تفسير البقاعي من الفوائد والأسرار 126/1.**

120 **انظر العلامة ابن القيم في الفوائد (ص: 208) وإعلام الموقعين عن رب العالمين (4/ 103).**

ووجه الجمع بين الآيتين بقليل تدبرٍ أن الله تعالى أجاب إبراهيم عليه السلام بكرامته عنده أن يجعل النبوة في ذريته، ولكن في الصالحين منهم، ولا ينال عهده الظالمون الزائغون. أَلَا تَرَى أَنَّهُ سبحانه قَالَ: {وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} (الصافات:113)، وفي هذا تعريضٌ لطيف ببني إسرائيل ونكوصهم عن دعوة الحق التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام. ولعل هذا هو مفتاح الخطاب وليس خلاف المفسرين في المقصود بعهد الله هنا فهو ظاهرٌ في الإمامة في الدين.

قال البغوي: ومعنى الآية لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ولدك. وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار وبالظالم المشرك كقوله تعالى: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن" (82- الأنعام). [121]

*****

وأنقل هنا كلاما خطيرا للزمخشري يؤيد فيه موقف قومه المعتزلة من الخروج على حكام المسلمين بالسيف وإراقة الدماء البريئة وخلق الفتن وهذا الموقف عينه عند الخوارج وإن اختلف في شدته بينهم، ويسمونه عند المعتزلة بأصل" الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" تلبيسا فتنبه كم جر وبلاتٍ على الأمم، يقول: -

وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة (أقول: يقصد الإمامة الكبرى أي الحكم والخلافة). وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه اللَّه يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علىّ رضوان اللَّه عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقى وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد اللَّه بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماما قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالما في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم. انتهى [122]

أقول: وهذا الذي قال الزمخشري وغيره -ضمنياً- في الخروج على الأئمة بالسيف مردودٌ جملةً وتفصيلا؛ وإن طولوا فيه حتى تطاول الجصاص في أحكامه ونسب الغلط في الفهم لما سماه " أغمار أهل الحديث"، وأهل الحديث أعلام شوامخ وهم أهل الاتباع والنصح للدين، رغم أنف كل حاقد.

فعقيدة أهل الحق أن الخروج على الحاكم المسلم ما دام يقيم الصلاة في المسلمين، ولم يكفر كفر صريحا لا تأويلَ ولا شبهةَ فيه؛ الخروج عليه حرام، وإن كان فاسقا أو جائرا، وإنما تجب مناصحته بالمعروف على من يقدر على ذلك، لما في ذلك الخروج من إشعال الفتن وإراقة الدماء وخصوصا إن كان له عصبيةٌ وشوكةٌ تمنعه،

---

121 **تفسير البغوي - طيبة (1/ 146)**

122 **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 184)**

وما حدث الأمس ويحدث اليوم من هلاك الزرع والحرث والنسل إنما سببه التنكر لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الواضحة في هذا الشأن كما ورد في كثرةٍ من الأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يتجاهلها مؤمنٌ.

وَمنها ما روى البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجماعة شبرا فمات، فميتته جَاهِلِيَّةٌ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ".

وفي صحيح ابن حبان عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(اسْمَعْ وَأَطِعْ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَكَ إِلَّا أَنْ يكون معصية) والحديث صحيح كما في (الظلال 1026)، (الصحيحة 3418). (إلا أن يكون معصية) فلا طاعة لمخلوقٍ أبداً في معصية الخالق.

وفيه أيضا بسند صحيح أن أبا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَخَطَبَنَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْجَدْعَاءِ وَتَطَاوَلَ فِي غَرْزِ الرَّحْلِ. فَقَالَ:

(أَيُّهَا النَّاسُ) فَقَالَ رَجُلٌ فِي آخِرِ النَّاسِ: مَا تَقُولُ. أَوْ مَا تُرِيدُ. فَقَالَ:

(أَلَا تَسْمَعُونَ؛ أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وصَلُّوا خمسكم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم تَدْخُلُوا جُنَّةَ رَبِّكُمْ). (الصحيحة 867).

وقد روى ابن حبان بعد ذلك تخصيص ذلك بالطاعة في طاعة الله فقط، وقدر الاستطاعة بغير عنت، ويدل الحديث على تحريم الخروج على الحكام وإن ظلموا كما وضح ذلك في الحديث الصريح المروي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: "لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا من طاعته". رواه مسلم وغيره. فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ بينهم وما أكثره. وكما قال على رضى الله عنه: كما أنتم يُوَلَّى عليكم.

ولذلك قال الإمام الطحاوي في عقيدة أهل السنة و(الأئمة الأربعة): "وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ".

وأما دعوى أن الآية من حجة أولئك المتحذلقين، فلا صحة لذلك إذ أن العهد والإمامة المذكورة في الآية هي الإمامة في الدين. وما أكثر ما يجتر المفسرون الكثير من المباحث الاستطرادية ويحملون الآيات عليها دون النظر إلى وضوح ظاهرها دون تعقيد، وخصوصا في باب الأحكام، ثم ينقل بعضهم عن بعضٍ دون تريثٍ أو

تأدبٍ في التعامل مع كلام الله تعالى الذي جاء لهداية البشرية لحقوق العبودية، ولم يأتِ قصاصات يتأوَّلها المتأوِّلون ويتحكمون بما تمليه تفريعاتهم في آيات الله، ثم تخرج الفتاوى والأحكام التي تهلك الحرث والنسل.

ويكفي لذلك مثلا مردودا ما قاله صاحب الظلال عند هذه الآية:

والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة.

فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم-أي لون من الظلم-فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها.[123]

*****

(لطيفةٌ)

في قوله تعالى {فأتمهن} أى عمل بهن واحدةً تلو أخرى على التمام، ففي التمام معنى أن الجزء مع الجزء يتمم بعضه بعضا حتى يكتمل. أما معنى الكمال فهو غاية الاكتمال للكل باجتماع أجزائه، فالتمام يقصد أكثره إلى التجزؤ والتطور شيئا بعد شيءٍ فيما يجتمع فيكمل، والكمال فبالنظر إلى تصور الشئ مجموعا واحدا بالإجمال بعد تمامه.

ولعل هذا هو سر التعبير في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] فحين ذكر الدين بصورته العامة النهائية ناسب ذلك " الكمال" في {أكملت لكم دينكم}، وحين ذكر نعمه المتواصلة في آحاد شرائعه ومفردات إنعامه ناسب ذلك ذكر "التمام" في {وأتممت عليكم نعمتي}.

ولذلك يُقال: بدر التمام، لأنه كان طورا بعد طور حتى تم. ويُقال: تمام البيت وتتمته أي شطره أو قافيته التي بها يتم إذا انضمت إليه. فلذلك يقال: تم الشئ إذا اجتمعت أجزاؤه واحدةً تلو أخرى حتى آخرها، ويُقال: كمُل بالنظر إلى تصوره النهائي في اجتماع أوصافه.

******

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً}

قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)}.

[123] في ظلال القرآن (1/ 112)

قَالَ أهل المعاني: المثابة-فِي كلاب الْعَرَبِ-: الْمَوْضِعُ: يَثُوبُ النَّاس إِلَيْهِ، ويَعُودُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ الذَّهَابِ عَنْهُ. قَالَه الْحَسَنُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّى الْعَوْدَ إِلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إِبْرَاهِيمَ: 37]، وقيل: ثوابا للناس يثيبهم الله تعالى إذا جاءوه وأدوا حقه.

والبيت: اللام فيه للعهد أي البيت الحرام أو الحرم الشريف الذي صار علما يعرفه كل أحدٌ كما لو جاءت "الدين" في القرآن فالعهد فيها لدين الإسلام؛ دين الحق...

جعل الله تعالى البيت مرجعاً يرجع الناس إليه بكلياتهم. كلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه؛ آيةً ونعمةً من الله يذَكِّر بها المشركين ممن عاندوا محمدا عليه الصلاة والسلام-ويعرِّض بهم كما عرَّض ببني إسرائيل في الآيات قبل ذلك؛ إذ كان إبراهيم عليه السلام مما اتفق عليه الجميع، وفيه بدأ التمهيد لمسألة نقل القبلة إلى البيت العتيق.

واستدل بعضهم بالآية في وجوب العمرة، فقال: لا يكون مثابة لآحاد قصاده يعودون إليه مرةً بعد مرةٍ إلا على هذا الوجه، وفي هذا الاستدلال تعسفٌ ظاهر يأباه وجه الكلام، فالكلام على معنى الخبر وذكر المنة لا التشريع. فقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَمْناً} أَيْ مَوْضِعَ أَمْنٍ يؤيد ما ننحوه من أن ذلك تعريض بالمشركين من العرب. كما قال تعالى {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: 3، 4)، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً: وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} (العنكبوت 67).

ومعناه أن الناس يغيرون ويقتتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقى الرجل بها قاتل أبيه فلا يقتص منه، لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمةً وجعلها أمنا للناس والطير والوحوش، وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق، على لسان النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا من باب إظهار المنة والفضل مِن الله على العرب. وقد اتجه بعض أهل المعاني أنه من الخبر الذي قصده الإنشاء بمعنى أن الله أمر أن يحافظ الناس على الحرم آمنا، ولا شك أن هذا معنى صحيح، ولكنه مُضمَّن فيما اخترنا من الإخبار بالمنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه" فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلا الإذخر" (رواه البخاري ومسلم).[124]

---

[124] وقال الإمام الجصاص . رحمه الله:

وَقَوْلُهُ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا} إِنَّمَا هُوَ حُكْمٌ مِنْهُ بِذَلِكَ لَا خَبَرٌ. وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} كُلُّ هَذَا مِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ مَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَلْحَقْهُ سُوءٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَبَرًا لَوَجَدَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} فَأَخْبَرَ بِوُقُوعِ الْقَتْلِ فِيهِ ؛ فَدَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبْلِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَمْنِ فِيهِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ الْعَائِذُ بِهِ وَاللَّاجِئُ إِلَيْهِ.

قوله تعالى: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}

قرأه بعضهم: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" بكسر "الخاء"، على وجه الأمر باتخاذه مصلى. أي صلوا عنده. عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وافقت الله في ثلاث، قلتُ يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله تعالى {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، قال وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت لهن: إن انتهيتن، وليبدلنه الله خيرا منكن، فأنزل الله تعالى: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن" الآية (5-التحريم). رواه بنحوه البخاري والنسائي والترمذي وأحمد وغيرهم...

وقرأه بعض قراء أهل المدينة والشام: (واتخذوا) بفتح "الخاء" على وجه الخبر...

قال أبو جعفر: والصواب من القول والقراءة في ذلك عندنا: "واتخذوا" بكسر "الخاء"، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، للخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه آنفا.

ثم اختلف أهل التأويل: فقال بعضهم: "مقام إبراهيم"، هو الحج كله.

وقال آخرون: "مقام إبراهيم" عرفة والمزدلفة والجمار.

وقال آخرون: "مقام إبراهيم"، الحرم كله.

وقال آخرون: "مقام إبراهيم" الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه، وضعف عن رفع الحجارة.

وقال آخرون: بل "مقام إبراهيم"، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام.

و"المقام" هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه، ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعته تحت الشق الآخر، فغسلته، فغابت رجله أيضا فيه، فجعلها الله من شعائره، فقال: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن "مقام إبراهيم"، هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام، لما روينا آنفا عن عمر بن الخطاب، ولما روى عن جابر قال: استلم

وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ الْحَرَمِ مُنْذُ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِلْحَرَمِ وَتَسْتَعْظِمُ الْقَتْلَ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. انتهى. (أحكام القرآن للجصاص حـ1 صـ 90)

رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى". فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين.

فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عنى ب"مقام إبراهيم" الذي أمرنا الله باتخاذه مصلى - هو الذي وصفنا.(125)

---

125 والحديث بطوله –رواه الإمام أحمد في المسند: 14492 (ج 3 ص 320-321 حلبي) عن يحيى القطان، عن جعفر.ورواه مسلم في صحيحه 1: 346-347، عن أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه –كلاهما عن حاتم بن إسماعيل، عن جعفر الصادق، به. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 32) باختصار.

قال البغوي في تفسيره – ط. طيبة (1/ 147):

وأما بدء قصة المقام فقد (1) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى إبرهيم عليه وسلم بإسماعيل وهاجر ووضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدة، ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم مكة، وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قال ذهب للصيد وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت ليس عندي ضيافة، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه، فذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه قال] فما قال لك؟ قالت قال أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه، قال ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، فدعا لهما بالبركة ولو جاءت يومئذ بخبز بر أو شعير وتمر لكانت أكثر أرض الله برا أو شعيرا أو تمرا، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولت إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقي أثر قدميه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل، وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا، وقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه فقال: ذاك إبراهيم النبي أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

(2) وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم لبثت عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا تحت دومة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأمر تعينني عليه؟ قال: أعينك قال: إن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم حتى ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام إبراهيم على الحجر المقام وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} وفي الخبر: "الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسته أيدي المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب" .

أما الأثر (1) أخرجه البخاري: مطولا في الأنبياء.

*****

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} أي أمرناهما وأوحينا إليهما، والعهد آكد في ذلك {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ} يعني الكعبة وإضافة البيت إليه تخصيصا وتفضيلا، والتَّطْهِيرُ يُرَادَ بِهِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ لَا يَلِيقُ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُفَسِّرِينَ ذَكَرُوا وُجُوهًا. فقيل: ابنياه على الطهارة والتوحيد، أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهرا من الشرك، كما قال جل ثناؤه: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: 109] كما قال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الآيات [الحج: 25 -26]. والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، وهو المؤسَّس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه. وهو من باب التعريض اللطيف بهم، فتنبه.

وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهراه من الأوثان والرَّيب وقول الزور [126]، {للطائفين} الدائرين حوله {والعاكفين} المقيمين المجاورين قال ابن قتيبة في الغريب: عكف على كذا؛ إذا أقام عليه. ومنه قوله: {وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا} (طه 97). ومنه الاعتكاف؛ إنما هو: الإقامة في المساجد على الصلاة والذكر لله.

{والرُّكَّع} جمع راكع {السجود} جمع ساجد، وهم المصلون؛ كما يُقال: قعود جمع قاعد. وقال أهل المعاني: خص السجود بعد الركوع لتحمل السجود معنى الركوع زيادة على دلالته على الصلاة، ولأن صلاة أهل الكتاب ليس فيها سجود، فوبخهم بطريقٍ خفي أن ذلك من سنة أبيهم إبراهيم وقد حرفوا الدين وتركوه.

والأثر(2) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بلفظ "إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ... " 3 / 618 وقال هو حديث غريب. ورواه الحاكم في الحج عن داود الزبرقان عن أيوب السختياني عن قتادة بن دعامة عن أنس وقال: صحيح فرده الذهبي بأن فيه داود، قال أبو داود: متروك، (فيض القدير: 4 / 59) . ورواه أيضا عن عبد الله بن عمرو، انظر: المستدرك: 1 / 456. وأخرجه الواحدي في الوسيط: 1 / 190، وانظر: تحفة الأحوذي: 1 / 618-619.

126 **قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك.**

ثم أورد الطبري سؤالا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين: أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يُعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما... وهذا الجواب مبنيٌ على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة، قال عطاء ومجاهد وعكرمة: الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل (وذكر مثله الجصاص في أحكامه وفيه نظر من حيث الاستدلال، وتفصيله في كتب الأحكام).

****

{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ}

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)}

لما جاء الأمر للخليل ببناء البيت في قفرٍ من البلاد لا زرع ولا نهر ولا صيد ولا سبيل تجارةٍ، وهو الذي كانوا يتحرون في بناء المدن، وعُلم أن لا قوام لهم إلا بأن تُجنى إليهم الثمرات، ولا يمكن جني الثمرات إليهم إلا بأمن هذا البلد، سأل الله عز وجل -أن يجعله بلداً أمناً بسياسة ربانيةٍ وأن يَرزق أهله بتسخير الناس لجبي الثمرات إليه.

ولما سأله لهم الرزق، وكان قد سمع في جواب سؤاله الإمامة لذريته ما سمع؛ تدارك سؤاله فقيده وقال: {مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فقال تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا} تنبيهاً أن رحمته في الدنيا وسعت كل شيء، وأن نعمه فيها متاحة للكل ليجعلوها ذريعة إلى إدراك ثوابه، ثم من كفر وضيَّع النعم فمَسوقٌ إلى عذابه. أفاده الراغب. [127]

كأنه قيل: ما سألته من إكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبتُه وزيادة، ولا يغتر الكافر بذلك أن له كرامة على الله، فسوف يُضطر إلى عذاب النار وبئس المصير.

إذن فالأمن المذكور في هذه الآية هو (الأمن السياسي) الذي يضع لمكة المكرمة مكانها بين البلاد، وبرغم من كونها تقع بين الجبال في قفرٍ من الصحراء إلا أن عظمة الخالق جعلتها أغنى البلاد وأكثرها زيارةً وعمارةً بقدسيتها وإضافة بيتها العتيق إليه سبحانه، فما من ناظرٍ ينظر إلى بيت الله وملايين الناس تفد إليه كل عام، وآلاف منهم يطوفونه كل يوم، ويتأمل موقعه من الصحراء إلا ويعلم يقينا دلالة هذه الآيات.

وفاتنا أن نذكر أن الأمن المذكور في قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً} هو (الأمن الاجتماعي)، وقد فعل الله ذلك شرعا وقدرا. كقوله تعالى {ومن دخله كان آمنا} [آل عمران: 97] وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [العنكبوت: 67] إلى غير ذلك

---

127 تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 313)

من الآيات. قد روى أبو شريح الكعبي أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس، فلا يسفكن فيها دم، وإن الله تعالى حلها لي ساعة ولم يحلها للناس» (متفق عليه)

وفي القراءة العميقة للآيات نستشعر لطف التعريض بأهل مكة وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووفاء نعمة الإسلام ودولته وأن نقض العهد مع الله هو من أهم أسباب هلاك الأمم، ولكن هذا التعريض يزيد قوةً في سورة القصص المكية- والشيء بالشيء يُذكر- في قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: 57 - 59]

دعوات إبراهيم المباركات عند البيت.

قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)}

هذا هو نبي الله إبراهيم يمتثل الأمر الرباني ببناء قبلة الدين في الأرض؛ بيت الله العتيق؛ يرفعه على تقوى الله تعالى والبراءة من الشرك لكي يقتدي به كل أبنائه وورثته في تطهير هذا البيت من دنس الشرك. يرفع إبراهيم وإسماعيل أساسات البيت ويدعون ربهم بالإخلاص والقبول، ليكونوا نبراسا لكل مؤمنٍ عاملٍ إلى يوم القيامة يقولون ربنا إنك تعلم ما نُسِرُّ وما نعلن، فالسر يقابله اسمه العليم، والعلن يقابله اسمه السميع سبحانه.

إن أبا الأنبياء -عليه السلام -وابنه يدعون بدوام نعمة الإسلام لله، واستكمالها على الوجه اللائق بها، فالإسلام الكامل هو تام الاستسلام لأمر الله وخبره، ولا يكون بغير توفيقٍ من الله تعالى، كما قال تعالى على لسان أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } [الأعراف: 43]، فالهدى من الله وحده، وهكذا دأب أهل كمال التوحيد.

وهذا ابراهيم عليه الصلاة والسلام-كأنه بإسلامه أمةً وحده-يبتهل إلى الله بأن يجعل من أمته أمةً مسلمةً ترفع شعار الإيمان الحق على أكتافها، وأن يريهم عباداتهم وشرعهم ومنهجهم في دين الله واضحا كاملا، وأن يوفِّق مَن زلَّ منهم إلى الرجوع والتوبة فهو سبحانه التوَّاب (كثير التوبة) الرحيم بعباده المؤمنين.

ثم يدعو عليه السلام ربه بأن يبعث في أمته رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم المنهج والعمل به ويطهرهم من أوحال الشرك وآفات الأخلاق فإنه سبحانه العزيز الذي لا يغلبه على أمره شئٌ وهو الحكيم يضع كل شيءٍ موضعه.

وقد كان استجابة الله تعالى لدعوة الخليل في بعثة سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

(إِنِّي . عِنْدَ اللَّهِ . مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وبِشارةِ عِيسَى ورُؤيا أُمِّيَ الَّتِي رَأَتْ . حِينَ وَضَعَتْنِي . أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشام). رواه ابن حبان وأحمد وغيرهما وقال فيه الألباني: صحيح لغيره . (الصحيحة 1546 و 1925).

دعواتٌ صالحاتٌ كريماتٌ من نبي الله إبراهيم عليه السلام عند بنائه بيت الله تعالى من أجل بناء الأمة المؤمنة القانتة لله تعالى، فتأمل ما بين البنائين من تناسقٍ وتناسب.

(فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة.

وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة. إنها خصيصة «التصوير الفني» بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد.

وماذا في ثنايا الدعاء؟ إنه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود.

وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء:

«رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

إنه طلب القبول. هذه هي الغاية. فهو عمل خالص لله. الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله. والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول. والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء. عليم بما وراءه من النية والشعور.).[128]

وفي مباحث اللغة البلاغة يقابلنا قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} وهو حكايةٌ عن حالٍ ماضيةٍ، جاءت بالفعل المضارع للدلالة على استحضار حال هذا النبي العظيم في إخلاصه وطاعته ودعواته.

---

128 **في ظلال القرآن (1/ 115)**

وقيل: المراد برفع قواعده رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه، ودعاء الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها في قوله تعالى {من البيت} تفخيمٌ لشأنها.

قال البيضاوي: وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلما أن في ذريتهما ظلمة، وعلما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى. (129)

قال ابن عرفة ما حاصله: في قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ ...}

هذا جاء على الأصل في تقديم العلم أولا ثم (العمل) به لأن العلم شرط في العمل، ولذلك قيل: كل شيء يمكن حصوله للولي الجاهل إلا العلم، لأن العلم لا يحصل له إلا بالتعلم... قال: وقدم هنا التعليم على التزكية، وأما في سورة آل عمران فعكس الأمر {... وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الآية [آل عمران: 164]

وكان الشيخ محمد بن عبد السلام يقول: إنه بحسب المجالس فحيث تقدم التعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواص ومَن هو أهل للتعليم، فيكون التعليم أَهَمّ، وحيث تقدم التزكية تكون الآية نزلت عليه في موضع أكثره عوام، فتكون التزكية في حقهم أهمّ.

وفي قوله قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم} عدل عن قوله: الغفور الرحيم لأن العزيز هو الذي ينفذ مراده ولا ينفّذ فيه مراد أحد والحكيم هو الذي تضمنه قوله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} وقوله {وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}. (130)

قلتُ-جامعه: وفي هذا نكتة التعريض بالمشركين واليهود الذي حسدوا رسول الله صى الله عليه وسلم على الرسالة واقترحوها لغيره. فكأن الآية تقول أنه سبحانه أعلم لمن يعطي رسالته، ولا يغلبه على أمره ذلك أحد.

****

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة وينازعون الرسول-صلى الله عليه وسلم-النبوة والرسالة ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة:

---

129 تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 106)

130 تفسير ابن عرفة (1/ 419) بتصرف.

«وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ. قالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ. وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»

وفي اللغَة: {سَفِهَ نَفْسَهُ} امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف. {اصطفيناه} أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلَّة والإمامة العظمى. {وصَّى} التوصية: إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة. [131]

إذن تلك هى الحقيقة التي تعلق بها الآيات وتختم سياقها بها: إن الدين الحق هو ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، إنه الإسلام بمعناه الكبير الذي يعني التوحيد والاستسلام الكامل لأمر الله تعالى.

(هذه هي ملة إبراهيم. الإسلام الخالص الصريح. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه. ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، ثم لا يلبون وصيته، ووصية جده وجدهم إبراهيم! ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم:

«يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ».

فهو من اختيار الله. فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه، والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم:

«فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

وها هي ذي الفرصة سانحة، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم.) [132]

يقول تبارك وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، فَإِنَّهُ جرَّد تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَالَ:

{يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فطر السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين} وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}، ....

---

[131] صفوة التفاسير (1/ 85)

[132] في ظلال القرآن (1/ 116)

وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ قَالَ تَعَالَى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}؟ أَيْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ، بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنِ اصْطُفِيَ فِي الدُّنْيَا لِلْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ إِلَى أَنِ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا وملكه وَمِلَّتَهُ، وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغَيِّ فأيُّ سَفَهٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ أَمْ أَيُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا؟!

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} قال أبو العالية وقتادة: نزلت فِي الْيَهُودِ أَحْدَثُوا طَرِيقًا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إن أولى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ والله وَلِيُّ المؤمنين}.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أَيْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا.

وَقَوْلُهُ: {وَوَصَّى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} أَيْ وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ، أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} لِحِرْصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا حَافَظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ وَوَصَّوْا أبناءهم مِنْ بَعْدِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}.

وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ -أَنَّ إِسْحَاقَ وُلِدَ لَهُ (يَعْقُوبُ) فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ وَسَارَّةُ، لِأَنَّ الْبِشَارَةَ وقعت بهما في قوله: {فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب}، أيضا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: {وَوَهَبْنَا لَهُ إسحق وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب} الْآيَةَ. وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أسحق ويعقوب نافلة}، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ وُجِدَ فِي حَيَاتِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ بَانِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بَيْتُ الْمَقْدِسِ»، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا: قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» الْحَدِيثَ....

وَقَوْلُهُ: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} أي أحسنوا في خلال الْحَيَاةِ، وَالْزَمُوا هَذَا لِيَرْزُقَكُمُ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وُفِّقَ لَهُ وَيُسِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَوَى صَالِحًا ثَبَتَ عَلَيْهِ.

قال ابن كثير: وَهَذَا لَا يُعَارِضُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا»، لِأَنَّهُ قد جاء في بعض الروايات هذا الحديث: ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وبعمل أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بالحسنى فسنيسره للعسرى}.[133]

---

133 مختصر تفسير ابن كثير (1/ 130)

وقوله تعالى: {فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} إيجازٌ بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظٍ موجزٍ يقتضي المقصود ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائبا لازما، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك هاهنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: اذهب وزل عن هاهنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية.[134]

يعبر بعض اللغويين المحدثين عن هذا التحليل بما يسمونه البنية العميقة للنص، فالبنية السطحية التي تفيد ظاهر المعنى غير مقصودةٍ هنا، وإنما يقتضي الفهم البعد المجازي للنص والذي يدور عميقا مع المعنى ليفهم من دلالته أكثر ما يفهم من ظاهره.

****

{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)}

مشاهد القرآن وسماوات البلاغة.

{ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ...} الآية تحولٌ خطابي خطيرٌ يتجه بالدلالة إلى عمقِ معايشةِ الموقف الخالد الذي تسجله الآيات؛ هذه العملية البارعة من الاستحضار للموقف من حيز التاريخ إلى بؤرة الشهود المباشر يستخدمها القرآن كثيراً كأداةٍ خارقةٍ من أدوات بلاغته، وتأمل قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: 44]، وتأمل كذلك قوله: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: 102]، وكذلك قوله: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...} [القصص: 45، 46] الآيات...

إن نقل عالم الغيب إلى نور الشهود بهذه البلاغة يتخذ في القرآن عدة أساليب منها على سبيل المثال لا الحصر: -

- استعمال الفعل المضارع الدال على الحال في موضع ذكر ما مضى وكان، وقد أشرنا إليه كثيرا في موضعه كمثل قوله سبحانه: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر: 9]

---

[134] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 213)

قال الزمخشري-عفا الله عنه: فإن قلت: لم جاء فَتُثِيرُ على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟

قلتُ: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أوتهمّ المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأنىّ قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصّحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرّت ... صريعا لليدين وللجران [135]

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة. انتهى [136]

- وكذلك من هذه الأساليب الرائعة أسلوب التصوير المتحرك الذي يرسم مشهدا تمثيليا للمعنى المراد.

وأكثره في أمثال القرآن، وعلماء البلاغة يسمونه " التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية" وهو تمثيل حال بحال بدون قصد تشابه كل تفاصيل الحالتين، بحيث يصير المقصود هو المشهد الكلي في حالةٍ بجملة تفصيلها والمشهد الكلي للحالة المناظرة كما في أول سورة البقرة في المثلين الناري والمائي {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ...} الآيات [البقرة: 17-20] فقد مثل حال أولئك المنافقين الذين كانوا في ظلمة الكفر وبرده، فأضاء الله لهم نور الهداية بيدى رسوله، فأطفئوها بنفاقهم فلم يب لهم غير نار التردد والتشكك وظلمات الحيرة، شبههم بحال من كان في ليلٍ بهيم فاستضاء شعلةً من نار يستهدي بها ويستدفئ، ولكن سرعان ما خفتت، فعاد إلى الظلمة والبرد وربما اكتوى

---

[135] فمن ينكر وجود الغول إنى ... أخبر عن يقين بل عيان

بأنى لقد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

لتأبط شرا. والغول: أنثى الشياطين. والعيان: المشاهدة بالعين. والهوى: الهبوط. والمراد: سرعة العدو. والسهب- بالفتح-: الفضاء المستوى البعيد الأطراف. والصحيفة: الكتاب. والصحصحان والصعصعان- بالفتح-: المستوى من الأرض. والجران- ككتاب-: مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة، وجمعه جرنة ككتبة، وأجرنة كأفئدة. يقول: فمن ينكر وجود الغول فقد كذب، فإنى أخبر عن يقين. ويجوز أن المعنى: فيا من تنكر وجود الغول، إنى أخبر إخبارا ناشئا عن يقين، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين، بأنى قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو، وكرر الوصف بذلك توكيدا، وأظهر موضع الإضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع وللتهويل، وكان الظاهر أن يقول: فضربتها، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها، وتعلم شجاعته، أى: فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها. وفعيل: يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا.

[136] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3/ 601)

بالجمر في تخبطه. هذا الاستحضار لتلك الصورة في وصف هذا المعنى هو خصيصةٌ تميز بها القرآن في براعة وبلاغة رسمها في تفاصيلٍ نورانية لا تكاد تضاهيها بلاغةٌ إلا في شذراتٍ متفرقاتٍ.

- ثم إن من الأساليب الراقية للمشاهد القرآنية الأسلوب الحواري الذي يقف بالمتلقي على تفاصيلٍ في الصورة المراد توضيحها لا يرتقي أسلوبٌ آخر إلى منزلتها في البيان.

وهذا تجده في أرقى أبعاده الجمالية في قصص الأنبياء، وخصوصا في قصة يوسف عليه السلام، وقصة موسى، وحوار أهل الأعراف مع أهل الجنة والنار... إلخ هذا الأسلوب الراقي في رسم المعاني القرآنية في قمة صور البلاغة، ومن أجمل ما قرأت في ذلك كتاب الشيخ الراحل سيد طنطاوي رحمه الله (الحوار في القرآن الكريم)، وقد جمع فيه وأحسن، والله يتقبله بفضله.

- ومن الأساليب التي تتميز باستحضار الغيب لأبلغ درجات الشهود هو الالتفات في الضمائر الذي يأخذ المتلقي من حيز المستمع إلى موضع المشارك في الحدث؛ المشاهد له؛ الحاضر فيه.

ومثال ذلك قوه سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [يونس: 22، 23]، فإن الالتفات (التبديل بين الضمائر) في هذه الآيات ينتقل بالقارئ البصير من موضع المستمع إلى موضع المشاهد الحاضر. قال هنا الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب في " يسيركم" إلى الغيبة في " وجرين بهم"؟

قلتُ: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح. [137]

هنا ينتزع شهادتهم على هذا الجحود وإنكار النعمة الربانية، بجعلهم شهودا على هذا المشهد من رفق الله بعباده، وحتى في موقف الضيق والايقان بالهلاك، وحين يدعونه يستجيب سبحانه، فماذا يكون منهم؟! الإنكار والجحود والكفر، فهذا ومثله من المواقف ضعوا أنفسكم مكانهم، واحكموا!

هذه الطريقة البليغة في تصريف الضمائر هي من خصائص بلاغة لغة القرآن العظيم.

هذه خمس طرقٍ استحضرها الآن، وإلا فالله يفتح بمنه على المخلصين بأمثالها عشرات. والحمد لله رب العالمين.

****

[137] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (2/ 338)

نعود للتفسير ونتوقف في إطارٍ تحليلي مع الآيات.

يقول تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ} هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام، وقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟، أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون.[138]

(أم) هي أم المنقطعة «ومعناها: بل هل كنتم شهداء». ومعنى الهمزة فيها النفي والإنكار. والشهداء جمع شهيد، بمعنى الحاضر. أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى.

وقيل الخطاب لليهود، لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبىٌّ إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية.

فالآية منافية لقولهم، كأنه قيل: أتدّعون على الأنبياء اليهودية؟ فهل كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، يعنى أن أوائلكم من بنى إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟

{ما تَعْبُدُونَ مِن بعدي} أىّ شيء تعبدون؟

{وإِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ} عطف بيان لآبائك. وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأنّ العمّ أب والخالة أمّ، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام «عمّ الرجل صنو أبيه» أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة.

وقال عليه الصلاة والسلام في العباس «هذا بقية آبائي» وقال «ردّوا علىّ أبى، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود».

{إِلهاً واحِداً} بدل من إله آبائك، كقوله تعالى: {بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ} أو على الاختصاص، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون.[139]

****

أقول: وفي هذه الآية وصية يعقوب عليه السلام الغالية لبنيه بالتوحيد الخالص والتي تؤكد رحمته بهم وشفقته عليهم، فالنسب لا يشفع مع الشرك لأن نسب الدين أعظم من نسب الماء والطين.

---

[138] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 213)

[139] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 192) باختصار.

وهي عادة الرسل في صقل هذا المعنى في القلوب جليا كما ورد في الخبر الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم -حين أنزل الله عز وجل: {وأنذر عشيرتك الأقربين}؛ قال: "يا معشر قريش! – أو كلمة نحوها-اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغنى عنك من الله شيئأ، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغنى عنك من الله شيئأ، ويا فاطمة بنت محمد-صلى الله عليه وسلم -سليني ما شئت من مالي، لا أغنى عنك من الله شيئا".

وكما جاءت في الآية صريحةً {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: 45،46].إنه التوحيد وحده العاصم والمنجي.

وفائدة قوله تعالى: {حضر يعقوب الموت} الاتكاء الدلالي على هذه الحالة الصادقة من النصح، لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه السامع وهذه الوصية جاءت عند الموت وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة فِي آخر ما يبقى من كلام الموصي فيكون له رسوخ فِي نفوس الموَصِّيْن.

قال الراغب: لم يعن بقوله: {ما تعبدون من بعدي} العبادة المشروعة فقط، وإنما عنى جميع الأعمال، وكأنه دعاهم ألّا يتحروا في أعمالهم غير وجه الله -عز وجل-ولم يخشى عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام، وإنما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: " ما قطعك عن الله فهو طاغوت "، ولهذا قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، أي نخدم ما دون الله، وهدا المعنى تحراه الشاعر بالعبادة:

فتى مَلكَ اللذاتِ أنْ تعتبدْنَهُ .... ومَا كُلَّ ذي مُلْك لهُنِ بمالِكِ. انتهى [140]

وقوله جلّ ذكره: {نعبد إِلَهَكَ ... الآية {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. ولم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّعٌ لله خالصا بقولهم {ونحن له مسلمون}. أفاده القشيري.

ومن فوائد الإمام الجصاص فِي (أحكام القرآن). قال رحمه الله ما مختصره:

(بَابُ مِيرَاثِ الْجَدِّ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلَهًا وَاحِدًا } فَسَمَّى الْجَدَّ وَالْعَمَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَبًا ، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } وَقَدْ احْتَجَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ.

وَاحْتِجَاجُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ وَإِنْزَالِهِ مَنْزِلَةَ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ عِنْدَ فَقْدِهِ يَقْتَضِي جَوَازَ الِاحْتِجَاجِ بِظَاهِرِ قَوْله تَعَالَى: { وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ } فِي اسْتِحْقَاقِهِ الثُّلُثَيْنِ دُونَ الْإِخْوَةِ كَمَا يَسْتَحِقُّ الْأَبُ

---

[140] تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 320)

دُونَهُمْ إذا كَانَ بَاقِيًا ؛ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ إِطْلَاقَ اسْمِ الْأَبِ يَتَنَاوَلُ الْجَدَّ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ وَحُكْمُ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ ؛ إذا لَمْ يَكُنْ أَبٌ ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي آخَرِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ ، قَالَ عُثْمَانُ: قَضَى أَبُو بَكْرٍ أَنَّ الْجَدَّ أَبٌ ، وَأَطْلَقَ اسْمَ الْأُبُوَّةِ عَلَيْهِ. وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ بِقَوْلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ الثُّلُثِ فَيُعْطَى الثُّلُثَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ أَحَدِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ السُّدُسِ، فَيُعْطَى السُّدُسَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا.... إلخ كلامه، وله ذيول وتفاصيل محلها كتب الأحكام.

****

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134)}

{تِلْكَ} إشارة إلى الأمّة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون.

والأمة أتت في القرآن بمعانٍ عدةٍ، والمراد بها هنا الجماعة من الفعل "أَمَّ" بمعنى قصد، وسُميت كل جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما إما دينٌ واحد، أو زمان واحد، أو مكان بذلك لأنهم يؤم بعضهم بعضاً ويقصده.

و{خلت} أي مَاتَتْ وَانْقَضَتْ وسلفت وذهبت وَصَارَتْ إِلَى الْخَلَاءِ، وَهُوَ الْأَرْضُ الَّذِي لَا أَنِيسَ بِهِ.

(والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم. ونحوه قول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: "يا بنى هاشم، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم " (قلتُ: ذكره الزمخشري ونقله عنه المفسرون، وقال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه. وصح في معناه قوله عليه السلام: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»).[141]

وهو بَيَانٌ لِحَالِ تِلْكَ الْأُمَّةِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِأَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَسْبَهُ، لَا يَنْفَعُهُ كَسْبُ غَيْرِهِ وَلَا يَنَالُهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَضُرُّهُ ذَنْبُ غَيْرِهِ، وَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَتَّكِلُ عَلَى عَمَلِ سَلَفِهِ، وَيُرَوِّحُ نَفْسَهُ بِالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّكُمْ لَا تَنْتَفِعُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ، وَلَا تُؤَاخَذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا لَا يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَمِثْلُهُ قوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى}، وكذلك {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا مَا سَعى}.[142]

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ الْقَائِلِينَ: لَا اكْتِسَابَ لِلْعَبْدِ. انْتَهَى.

---

141 تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 193)

142 فتح القدير للشوكاني (1/ 170)

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ يُبْحَثُ فِيهَا فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَهِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُعْضِلَةِ، ومذاهب أهل الْإِسْلَامِ فِيهَا أَرْبَعَةٌ.

أَحَدُهَا: قَوْلُ الْجَبْرِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي ذَلِكَ، بَلْ هُوَ مُلْجَأٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ الْفِعْلِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ حَرَكَةِ الْغُصْنِ إِلَيْهِ، إِذَا حَرَّكَهُ مُحَرِّكٌ.

وَالثَّانِي: قَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَجْبُورِينَ عَلَى الْفِعْلِ، بَلْ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى إِيجَادِ الْفِعْلِ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ، أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ قُدْرَةٌ يَخْلُقُهَا اللَّهُ لَهُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِيقَاعِهِ وَعَدَمِ إِيقَاعِهِ.

وَالرَّابِعُ: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ لِلْعَبْدِ تَمْكِينًا وَقُدْرَةً مَعَ الْفِعْلِ يَفْعَلُ بِهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، لَا عَلَى سَبِيلِ الِاضْطِرَارِ وَالْإِلْجَاءِ، وَهَذَا التَّمْكِينُ هُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ وَالثَّوَابُ. (143)

---

143 **البحر المحيط في التفسير (1/ 644)**

مشاهد دلالية

لقد حفلت الآيات التي نتأملها بمشاهد دلالية رائعة يتوقف أمامها المتدبر صاعدا في معراج طريق أهل الإيمان واليقين. {وَإِذِ ابْتَلَى} فالقيام بالحق ورفع رايته ابتلاء عظيم وطريقه لا يجتازه إلا المخلصون الذين يعلمون جيدا قيمة ما بأيديهم وخطورته. {فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} فلا يستحق الإمامة سوى الذين قاموا فوفوا وأمرهم الله فأتموا، وأما الظالمين فلا مكان لهم في ظلال إمامة النور. {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} مقام الحق والصدق والإخلاص يجب أن يكون قبلةً للمؤمنين وغايةً لأنظارهم. {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}، {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}، {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}، {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ} ما أجمل الدرس الابراهيمي في تعليم الخلق أن عز الإنسان وفلاحه في عبوديته لربه، فما دام العبد يتضرع إلى ربه فهو عزٍ ومنعةٍ وما أرق وأحلى أن تحيا معنى قوله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: 50]

قال صاحب لطائف الإشارات (3/ 469): أي فارجعوا إلى الله-والإنسان بإحدى حالتين إمّا حالة رغبة في شىء، أو حالة رهبة من شىء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرّ. وفي الحالتين ينبغي أن يكون فراره إلى الله فإنّ النافع والضارّ هو الله.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التّقى، ومن الشّكّ إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله. ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من وصفه سبحانه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه-سبحانه-حيث قال: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» إلى نفسه حيث قال: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ».

قلتُ: كما كان دعاء المصطفى صلوات الله عليه: " أعوذ بك منك، لا إله إلا أنت".

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} فهذه ملة ومذهب ودين النبي الذي وفى إبراهيم عليه السلام، ومَن ادعى النسبة إليه ولم يتبع ملته فقد وقع في الخسران بسبب سفه نفسه وطيش عقله.

{قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ} لم يكن إبراهيم حين دعاه ربه إلى الإسلام إلا مسلما مؤمنا، فما معنى سؤاله الإسلام؟ هو درجة أرقى من الإيمان؛ إنه التسليم المطلق لله سبحانه، فما أصعب موقف أبٍ لم ير ابنه طوال خمسة عشرة عاما ويزيد، وحين فرح بحضنه يؤمر بذبحه، وما أطوع إبراهيم عليه السلام لله حين امتثل ذلك، إنه عينه موقف موسى-عليه السلام-والبحر الخضم أمامه والعدو المسرع خلفه، ولم تهتز له شعرة {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]. وهو الإسلام المذكور ههنا.

{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} هكذا أهل الحق يتواصون بالحق فيما بينهم لكى تظل الراية مرفوعة أبد الدهر، وإلا فما معنى حمل الحق إذا تركته ليسقط بعد سقوط حملته، وهو عين معنى قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

تفسير الآيات من الآية (135-141)

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (136) **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (137) **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** (138) **قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** (139) **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (140) **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (141)**}** [البقرة: **135-141**]

في الواقع لا تفاجأنا الآيات كثيرا بتقرير تلك الحقائق الساطعة إلا بمقدار ما تفاجأنا غفلتنا السخيفة عن هذه العلاقة المتوترة في صميمها بين دعاة الحق ودعاة الباطل؛ ولكل جانب من الجانبين دعاةٌ، وإنْ كان دعاة الباطل أكثر سطوةً بدعوتهم؛ إما لضعفٍ في إيمان أهل الحق بالذي معهم أو لضعفٍ في منافحتهم عنه، أو حتى لضعفٍ بصيرةٍ في الدعوة إلى الحق. [144]

هذا الجدال والحوار (المزعوم والمحموم) بين الأديان الذي مهَّدت له الآيات. فإن كلَّ أهل ملةٍ أو مذهبٍ يدافعون عن ملتهم ومذهبهم ويرون أنه الحق الذي وراءه الباطل؛ بل يدعون إلى ملتهم بجِد ودَأَب. وأين أهل الإسلام والسنة من كل ذلك؟ إنهم-بصورةٍ كبيرةٍ-مخدَّرون بالشعارات الزائفة (للحوار بين الأديان)، وتطير عقول وألسنة المُغيَّبين أو العملاء تدعو إلى الحوار والتقارب المزعوم. ولا سبيل إلى إفاقتهم إلا عودتهم لتدبر كلام الله تعالى، وقراءة تاريخ هذه الدعوة قراءةً متأنيةً صحيحة.

إن الأمر –في الحقيقة-كما اعترف به أحد اللاهوتيين النصارى بقوله: «إن هذا الحوار عبارة عن عملية مُغَلَّفةٍ بالذهب وعصريةٍ لحبةٍ قديمةٍ كانوا يفرضونها قهرًا على الشعوب فيما مضى». [145]

فالأمر-إذن-إلا (التنصير أو التهويد) التي يريد أن يمحو به اليهود والنصارى دين الله الحق من على وجه البسيطة بكل السبل؛ بدايةً من تهيئة العقول الضعيفة بدعوتهم وبذل الأموال الطائلة في ذلك حتى الحرب والإبادة، وحتى الصمت المتعمد والضوء الأخضر لإبادة المسلمين؛ وخصوصا أهل السنة.

وليس الأمر -ولم يكن قط-حوارا، وإنما هو حيلةٌ والتفافٌ على انهزامهم أمام دين الله الذي ينتشر دون أدنى تعبٍ من أهله في الدعوة إليه.

هذه الحقائق الإلهية يجب ألا تغيب عن بال أى مؤمنٍ حال تعامله مع قضية الحوار المزعومة تلك. وأن يعلم أننا أُمرنا بالتعايش وليس التنازل، وبالدعوة إلى الله بالحسنى وليس الذوبان في عقائد غيرنا.

****

فقوله -تعالى -: {وقالوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا} بَيَانٌ لِعَقِيدَةِ الْفَرِيقَيْنِ فِي التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ، وَالضَّمِيرُ فِي (وَقَالُوا) لِأَهْلِ الْكِتَابِ والالتفاتِ إلى (ضمير الغائب) لإبعادهم من مقام المخاطبةِ والإعراضِ عنهم تبكيتاً

---

144 قال محمد بن إسحاق: بسنده–قال ابن عباس: نزلت في رؤوس يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين؛ كل فرقةٍ تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وقالت النصارى مثل ذلك. يقولون للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك. انظر تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 448) وأسباب النزول للنيسابوري ص 43.

145 نقلا عن حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السنية –د. عمرو كامل عمر – المقدمة–وهو كتاب رائع في بابه.

وتنفيراً ولتعديدِ جناياتهم وجرائمهم، وفيه شروعٌ في بيان فنٍ آخرَ من فنون كفرِهم وهو إضلالُهم لغيرهم إثرَ بيانِ ضلالِهم في أنفسهم.

وحرف (أَوْ) لِلتَّوْزِيـعِ أَوِ التَّنْوِيـعِ ، أَيْ إِنَّ الْيَهُودَ يَدْعُونَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا ، وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا - وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مَعْهُودٌ فِي اللُّغَةِ - وَلَوْ صدَقَ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُهْتَدِيًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًا ، وَكَيْفَ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى كَوْنِهِ إِمَامَ الْهُدَى وَالْمُهْتَدِينَ ؛ لِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - مُلَقِّنًا لِنَبِيِّهِ الْبُرْهَانَ الْأَقْوَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حنيفا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أَيْ بَلْ نَتَّبِعُ أَوِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِي هُدَاهُ وَلَا فِي هَدْيِهِ ، فَهِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْجَادَّةِ بِلَا انْحِرَافٍ وَلَا زَيْغٍ ، الْعَرِيقَةُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ بِلَا وَثَنِيَّةٍ وَلَا شِرْكٍ. والأمر في {قل} فيه ردٌ صريح وكلمةٌ واحدة صلبة راسخة ترد على كل انحرافٍ، و{بل} حرف إضرابٍ ينكر كل تخرصاتهم وسفاهة عقولهم، ثم يثبت الحق الصُراح بعد معرفة ادعائهم الذي لا يملك أى دليلٍ.

وَالْحَنِيفُ فِي اللُّغَةِ : الْمَائِلُ ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ-عليه السلام ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْكُفْرُ ، فَخَالَفَهُمْ كُلَّهُمْ وَتَنَكَّبَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَلَا يُسَمَّى الْمَائِلُ حَنِيفًا إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَيْلُ عَنِ الْجَادَّةِ الْمُعَبَّدَةِ ، وَفِي الْأَسَاسِ : مَنْ مَالَ عَنْ كُلِّ دِينٍ أَعْوَجَ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ ، وَبِهِ فَسَّرَ الْكَلِمَةَ بَعْضُهُمْ ، أَوْرَدَ لَهُ شَاهِدًا مِنَ اللُّغَةِ وَهُوَ أَقْرَبُ .

وَمِنْهُ قيل للأعرج: أَحْنَفُ، تَفَاؤُلًا بِالسَّلَامَةِ، كَمَا قَالُوا لِلَّدِيغِ: سَلِيمٌ تفاؤلاً بنجاته، والصحراء المُهلكة: يقال لها كذاك مَفَازَةٌ. قَالُوا: فَكُلُّ مَنْ أَسْلَمَ لِلَّهِ واستقام على ذلك وَلَمْ يَنْحَرِفْ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَهُوَ حَنِيفٌ.

قلتُ: وكلا المعنيين في الآية قائم، فالمسلم الحنيف هو المستقيم على دين الله، وهو المائل عن غيره من النِحل والمِلل إلي هديه وظلاله. [146]

قال الإمام الرازي: واعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ بِالدَّلَائِلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ صِحَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ ذكر عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: {كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا} وَلَمْ يَذْكُرُوا فِي تَقْرِيرِ تلك شُبْهة شيئاً، بَلْ أَصَرُّوا عَلَى التَّقْلِيدِ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ مِنْ وجهين: -

الْأَوَّلُ: ذَكَرَ جَوَابًا إِلْزَامِيًّا وَهُوَ قَوْلُهُ: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ} وَتَقْرِيرُ هَذَا الْجَوَابِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ طَرِيقُ الدِّينِ التَّقْلِيدَ فَالْأَوْلَى فِي ذَلِكَ اتِّبَاعُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى صِحَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: إِنْ كَانَ الْمُعَوَّلُ فِي الدِّينِ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ، فَقَدْ قَدَّمْنَا الدَّلَائِلَ، وَإِنْ كَانَ الْمُعَوَّلُ عَلَى التَّقْلِيدِ فَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَرْكُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ أولى.

والوجه الثاني: فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قُلْنَا: لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ قَائِلًا بِالتَّوْحِيدِ، وَثَبَتَ أَنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ بِالتَّثْلِيثِ، وَالْيَهُودَ يَقُولُونَ بِالتَّشْبِيهِ، فَثَبَتَ

---

146 انظر تفسير المنار (1/ 395) بشرح وتصرف.

أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ، كَانَ هُوَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وهو مقرر بقوله تعالى: {حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. انتهى (147)

قلتُ: وفي ذلك تلميحٌ بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

وهكذا نجد طريقة القرآن العظيمة في بسط وتقرير العقائد من جهةٍ متسعةٍ للعقل تبتعد عن الإغراق في التعقيد العقلي الصارف عن تأمل الحقائق؛ وبذلك لا تقع في فخ السفسطة والجدل. فالإسلام دين الفطرة والنقاء والبساطة التي تدخل القلب والعقل والوجدان بلا تكلفٍ ولا عنت.

*****

147 تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 70) باختصار.

{قولوا آمنا بالله...}

(ثم يدعو الله المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين، من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم، إلى الإسلام الأخير. ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد:

«قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا، وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ، وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى، وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ. لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصبٍ ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام). [148]

إنها قاعدة الإسلام الأسمى والأشمل التي تعطيه الحق في أن يكون الدين الخاتم والعالمي والكامل للبشرية: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: **285**]. فهذا هو دين الله، الذي حمله الأنبياء والرسل إلى عباد الله. فمن آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل، فليس من المؤمنين، ومن تمسك بكتابٍ وكفر بما سواه من كتب الله، فهو من الكافرين. وقد ذمّ الله أهل الكتاب-من اليهود والنصارى- الذين فرّقوا دين الله وتوعدهم بالعذاب الأليم،

فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً} (**150-151**: النساء)؛ على حين الله مدح المؤمنين الذين يؤمنون برسله جميعا، ولم يفرقوا بين أحد منهم، وأنزلهم منازل رضوان، وأوسع لهم فى جناب رحمته ومغفرته، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} : (**252**: النساء).

وذلك لأن الجميع من الله وما اختلاف الشرائع إلا اختلافا في الفروع يقتضيه الزمان، وأما أصل التوحيد فباقٍ في صحيح كل الأديان السماوية. ولكن القوم أشركوا بالله وحرفوا دياناتهم فما كانت دعوة رسول الله محمد إلا ثورة تصحيحٍ للدين وإعادةً للحق إلى موضعه.

قيل لمسيحي أسلم: لماذا خرجت عن المسيحية؟ فقال: إني لم أخرج عن المسيحية دين المسيح، ولكن دخلت فيها بدخولي في الإسلام.

---

148 في ظلال القرآن (1/ 117)

أقول: فليس النصارى في الحقيقة على دين المسيح الذي قوامه التوحيد؛ ولذلك عارض بعض فقهاء العصر الزواج بالكتابية محتجا بأنها مشركة لا تؤمن بالكتاب الحق الذي يصدق محمدا – عليه السلام-ودينه، وفي رأيه وجاهة، وفيه من حيث الفقه نظر.

وأعجبني عنوان لكتابٍ وضعه أحد الذين من الله عليهم بالإسلام: (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح).

ويعجبني في هذا المقام أيضاً قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: (يجب أن يُفهم-أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة-ليس نقضا لها، وإنما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاما لينا، وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن هاهنا اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفَّقا كل التوفيق في علاج الحالة التي عُرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين: -

تصديقٌ للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: -

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها. وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة-مثلا-عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقتل) و(لا تسرق) و.... فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آدابا مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيرا تجيء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين في نسق واحد {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ}.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطواتٍ متصاعدةً، ولبناتٍ متراكمةً في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغٍ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». [149]

قال الزمخشري: {قُولُوا آمنا...} خطابٌ للمؤمنين. ويجوز أن يكون خطابا للكافرين، أى قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل.

قلتُ: والمقام يحتمل التأويلين، وإن كان كونه للمؤمنين أبلغ في بيان رسالة المسلمين في تبليغ عالمية هذا الدين.

فهذه رسالتنا وليس الانكفاء المهين في خندق الدفاع المستمر. فتأمل كيف يرسم لنا القرآن طريق العزة والإيجابية في النظر والفعل.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، والمقصود الايمان بالأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولدا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل. انتهى

ولماذا ذكر الأسباط مع أن ذكر يعقوب يغني عن ذكرهم، لأنهم أبناء يعقوب، وقد وصاهم باتباع ملة إبراهيم وشدد في الوصية؟ والجواب عن ذلك أنهم صاروا من بعده جموعا، كونوا العشائر والقبائل، فكانت لهم صفة بهذا الانفراد. وكذلك للتذكير بمشهد الوصية التي كانت من يعقوب ببنيه، وما أبدعه من اتصالٍ بين آيات الله.

(وقوله تعالى: {وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} معناه: وآمنا-أيضا-بالتوراة التي أعطاها الله-تعالى-لموسى، وبالإنجيل الذي أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقا لهم في نبوتهم.

وعطف-سبحانه-عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقا للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاما يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله على لسانه: {وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}.

وقدَّم-سبحانه-الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

---

149 من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد 11 السنة 11 ص 68، وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه في الندوة العالمية للإسلاميات، التي انعقدت في لاهور في أواخر سنة 1957، إلا أن المنية عاجلته قبل الانتهاء من الندوة–فرحمة الله عليه ورضوانه.

وقدَّم الإيمان بما أنزل إلينا-نحن معشر المسلمين-وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال). (150)

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه -قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا ...) الآية.

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عند قوله تعالى {وما أنزل إلى إبراهيم}: لم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بيّن في سورة الأعلى أنه صحف وأن من جملة ما في تلك الصحف (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وذلك في قوله (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى). انتهى

****

150 التفسير الوسيط لطنطاوي (1/ 284)

قوله تعالى:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فقد اهتدوا}

ثم يعلن السياق القرآني دعوته الجامعة غير المفرقة ولا المتشنجة المتعصبة (!!) إلى كلمة الحق والكلمة السواء والدين الصحيح الذي دان به إبراهيم عليه السلام – إمام الموحدين-وكل الأنبياء.[151]

وهنا يأتي الحكم قاطعا ومثبّتا للمؤمنين المتبعين خُطَى التوحيد خلف نبى الله إبراهيم وتحت راية حفيده محمد عليهم الصلاة والسلام: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فقد اهتدوا}

الضمير في قوله تعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم به) يعود إلى اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين ظنوا أن الاهتداء عندهم فقط، والمعنى فإن آمنوا بإيمانٍ مثل الذي آمنتم به، أي مشابهٌ له من حيث إنه يجمع الناس على الوحدانية لله تعالى، والوحدة في الرسالة، والوحدة في الإنسانية بالصورة التي أنتم عليها - فقد اهتدوا، فكلمة " مثل " في موضعها من القول ولها دلالتها، فالمراد - وعند الله تعالى علمه - أن يؤمنوا بما آمنتم على أن يكون مثله في المعنى الجامع، ولقد تهجم بعض المفسرين ، فقال إن "مثل " في هذه الآية مُقْحَم " وأنه زائدٌ، وإنما ألفاظ القرآن ليس فيها زائدٌ ولا مقحم، وكلُّ لفظٍ في موقعه له عظيم الدلالات والمعاني لا يؤديها، إنما هي تنزيل من حكيم حميد، وقليل من الدرس والتأمل يقود البصير إلى ذلك.

فحيث أن أهل الكتابين يدَّعون أنهم موحِّدون، وأنهم ليسوا مشركين، فلو قيل لهم آمنوا بما نؤمن نحن المسلمين به سيقولون: نحن موحدون مثلكم نؤمن بالله، وهنا يأتي دور الاسم (مثل) الذي يعبر عن التلاقي في الجوهر، وجوهر الدين الحق هنا هو إخلاص التوحيد لله، كما قال تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

وفيه أيضا مراعاة أيضا لاختلاف الشرائع بين الديانات، فأصلها في التوحيد واحد وتشريعاتها تختلف. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم -«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». (رواه البخاري)

و(العَلَّات) هى الضرائر، أى إخوة لأب واحد، وهو من باب التمثيل وبيانه في قَوْله: (وَدينهمْ وَاحِد)، أَي: التَّوْحِيد أمر جامعٌ لكل الأنبياء دون الْفُرُوع لِلِاخْتِلَاف فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: {لكل جعلنَا مِنْكُم شرعة ومنهاجاً}

---

151 هذا السياق تبينه آيات سورة آل عمران بمزيد التفصيل في قوله تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 64 – 68]

(الْمَائِدَة: **84**). وَيُقَال: دينهم أَي: أصُول الدّين وأصول الطَّاعَات وَاحِد، والكيفيات والكميات فِي الطَّاعَة مُخْتَلفَة.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُمَاثَلَةَ وَقَعَتْ بَيْنَ الْإِيمَانَيْنِ، أَيْ: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ إِيمَانِكُمْ -توحيدا ونصرةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم-فقد اهتدوا وإلا فهم في تيهٍ وضلال).

وَقَالَ فِي الْكَشَّافِ: إِنَّهُ مِنْ بَابِ التَّبْكِيتِ، لِأَنَّ دِينَ الْحَقِّ وَاحِدٌ لَا مِثْلَ لَهُ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، قَالَ: أَيْ: فَإِنْ حَصَّلُوا دِينًا آخَرَ مِثْلَ دِينِكُمْ مُسَاوِيًا لَهُ فِي الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ فَقَدِ اهْتَدَوْا. انتهى

والمعنى أنها دعوة عادلةٌ منصفةٌ لأهل الكتاب بالاجتماع على توحيد الله في أصل الدين الحق؛ وإلا فالقوم قد رضوا أن يضعوا الدين لأنفسهم ويكفِّروا بعضهم البعض ويختلفوا فيما حقه الاجتماع.

ولذا قال تعالى: {وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاق} والتولي هو الترك والإعراض بالجسم الذي يدل على الإعراض النفسي، والمعنى فإن أعرضوا عن الإيمان الجامع للرسالة الإلهية فهم في شقاقٍ مستمر، لأن من ترك الوحدة في الرسالة الإلهية فقد اختار النزاع والمجادلة، وحيث دخل النزاع في الدين كانت العصبية والتعصب، والانحياز، ويفقد الدين سلطانه في القلوب، ويصير لجاجةً، وعداوةً وبغضاءَ بين الناس، ويكون كلُّ ملةٍ أو دينٍ في شِق منحازٍ لَا يلتقي ولا يهتدي؛ ولذلك قال تعالى: {فِي شِقَاق} أي عداوة وخلاف، والشقاق: أن يكون كلٌّ منهم في شَقٍّ من الأرض أو الفكر والنفس. وَأَصْلُهُ مِنَ الشَّقِّ وَهُوَ الْجَانِبُ،وَقِيلَ: إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ فِعْلِ مَا يَشُقُّ وَيَصْعُبُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَحْرِصُ عَلَى فِعْلِ مَا يَشُقُّ عَلَى صَاحِبِهِ، وَيَصِحُّ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شقاق.

وإنه عند ذلك تكون العداوة المستحكمة من أولئك الذين تولوا عن الحق، وكأن الله تعالى ينِّبه نبيه الأمين، إلى أن يتوقع منهم الشر، والبغضاء المستمرة؛ ولذلك أشار سبحانه إلى أنه معه، وأنه ناصره تعالى عليهم؛ ولذا قال تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} والمعنى: إذا أظهروا العداوة، وصاروا أعداءً لكم فسيكفيكهم، أي فسيكون الله تعالى كافيا لك، ومانعك منهم. و" السين " الدالة على المستقبل القريب هنا لتأكيد وقوع الفعل منهم، والمعنى أن عداوتهم ستُرَدُّ في نحورهم ويكون وبالهم عليهم.

وقد أكد سبحانه وتعالى حمايته لنبيه ولمن معه بقوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قال الزمخشري: وعيدٌ لهم أو وعد للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ، قال ابن عرفة: بل هما معا فهو وعدٌ ووعيد. أي أنه سبحانه وتعالى سميعٌ لما يسرون وما يعلنون، عليم بما ينوون ويخططون، لا يضرك كيدهم في شيء وإنما يعود كيدهم عليهم وبالا.

وهنا عدة حقائق تزكِّيها الآية الكريمة: منها أن دعوة الإسلام دعوة جامعةٌ لا مفرقة، دعوة إلى كلمة سواء في التوحيد والعودة إلى دين نبى الله إبراهيم وإخلاص العبادة لله تعالى ونبذ الشرك وأهله. وأن رفض هذه الدعوة هو من ناحيةٍ داعيةٌ للتفرق والشقاق والعداوة بين المتفرقين الذين ارتضوا أحبارهم ورهبانهم

يصنعون لهم الدين الزائف [152]، وما يزالون متفرقين. [153] ومن ناحيةٍ أخرى إعلانٌ للحرب على الدين الحق وأهله كما قال سبحانه: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: 109]. ثم إن موقف أهل الحق يجب أن يكون موقف الواثق من نصر ربه ورد كيد المشركين إلى نحورهم.

وهي -إذن-معانٍ رائقةٌ واضحةٌ وقوانينُ لا تتبدل يعيها أولو الأبصار، وبذلك تتسق الآيات في سورة البقرة التي يمهد السابق فيها للاحق، ويضيف اللاحق للسابق في انسيابيةٍ عذبةٍ من الدلالات التي تضع المجتمع المؤمن على طريق الكفاح لنشر كلمة الله على نورٍ وبصيرة.

إن الإيمان الجامع بالنبيين أجمعين لَا يفرق بين أحد من رسله، لأنهم جميعا يحملون رسالات ربهم إلى عباده وهي واحدة في مضمونها وأصلها، إن هذا الإيمان هو دين الله تعالى، وهوِ ملة إبراهيم وهي الشارة الوحيدة للدين الحق؛ ولذا قال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمنْ أَحْسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

****

152 كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31]

153 كما قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: 113].

قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

قوله تعالى: {صِبْغةَ الله} أي دين الإسلام، استعار له هذا الاسم إشعارًا بأن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك، وكما يفعل الصبَّاغ في الثوب المصبوغ.

قال علماء المعاني: هو من باب المشاكلة، وذلك أن النصارى امتنعوا من تطهير أولادهم بالختان؛ كانوا إذا ولد لهم ولد غمسوه في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًا. ويقولون: قد انصبغ بالنصرانية. فقال تعالى ذلك مقابلةً لقولهم. ويقرب منه في باب المشاكلة قول الشاعر:

قالوا اقترحْ شيئًا نجِدْ لك طبخَهُ ... قلتُ: اطبخوا لي جبةً وقميصا. [154]

قلتُ-متأمله: ومن باب التبكيت أيضا لما ابتدعوا من دينٍ يخالف دين إبراهيم الحنيف؛ يخبرهم أن الذي فطر الله عليه الناس هو الإسلام، وهو ما صبغ الله به الأرواح في أصل خِلقتها، ثم ابتدعتم ما صبغتم به ملتكم الباطلة {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} فهو يهدي للحق والعدل؛ وما ابتدعتموه يهدي للضلال والخسران ولذلك أمرتنا الآيات أن نردد في نفسٍ واحد باختيارنا النهائي والذي فيه الهدى والنجاة؛ نرددها عاليا: {وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

والتعبير الراقي جدا (صبغة الله) تفوح منه دلالات العظمة الربانية في هذا الانتقاء اللغوي البارع؛ فالصبغ هو تشرب اللون بحيث يصير ثابتا لا يقبل التغيير، وهو أقوى في المعنى من مجرد التلوين، كذلك إضافة هذه الصبغة إلى الله تعالى فيها خصوصية الخلق على معاني الفطرة النقية التي لا تتشربها القلوب ولا تزيلها أمواج الشبهات، وما الجحود والتملص إلا من الضالين الذين لم يستجيبوا لفطرتهم في قبول الحق كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30] وقد أجمع السلف على تفسير الفطرة هنا بالإسلام. [155]

بحديث عياض بن حمار عند مسلم عن النبي-صلى الله عليه وسلم-فيما يرويه عن ربه: **"وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم"...** الحديث.

---

154 عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ–للسمين الحلبي (2/ 318)

155 ونقل ذلك ابن عبد البر. وقد جاء في الحديث عن عياضِ بنِ حمارٍ المجاشعيّ، أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ يوماً: " ألا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ جلَّ وعزَّ به في الكتابِ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ آدمَ وبَنيهِ حُنفاءَ مُسلمينَ، فأَعطاهُمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيهِ وعَبَدوا الطواغيتَ، فأَمرني أنْ آتيَهم فأُبينَ لهم الذي جبَلَهم عليهِ،" (رواه الطبراني وابن عساكر)

وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "كل مَولودٍ يولدُ على الفِطرة، فأبواهُ يُهودانِهِ وينصّرانه، كما تَناتَجُ الإبِلُ من بهيمةٍ جمعاءَ، هل تُحِسُ من جَدْعَاءَ؟ " قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَن يموتُ وهو صغير؟ قال: "الله أعلمُ بما كانوا عامِلِين". (156)

وبهيمة جمعاء (أى: سالمة من العيوب في جميع أعضائها)، و(جدعاء) أي مقطوعة الأنف أو الأذن، والمعنى في الحديث ضرب المثل بخَلقه تعالى البهيمة سالمةً من العيوب، ثم الناس يقطعون أذنها وأنفها، فكذلك خِلقة الله لقلوب الناس سالمة من الشرك ثم يبدل بها الناس الكفر والجحود؛ كما أكدت كثير من الدراسات على الشعوب البدائية التي لم تلوثها الحضارة أنها كانت على فطرة الله قبل استخرابها وتدمير ثقافاتها بواسطة المحتلين.

ومصداقا لهذا ما جاء في تقرير نشره موقع البي بي سي بعنوان:

عندما وصل الإسلام إلى أستراليا، بتاريخ **26** يونيو/ حزيران **2014**:

(.... يقول عالم الأنثروبولوجيا (جون برادلي) من جامعة ميلبورن: "إذا ذهبت إلى جنوب شرقي (أرهام) ستجد هناك أثرا للإسلام في الأغاني وفي الرسومات وفي الرقص وفي طقوس الجنائز أيضا".... ويضيف: " ومن بين هذه الطقوس هناك صلاة تؤديها طائفة (يونغلو) في الساحل الشمالي لأرهام، يرددون فيها عبارة (واليفا واليفا)، وهي عبارة مشتقة من عبارة "الله تعالى"، وتردد عادة في الجنائز. ويتوجه الناس في صلاتهم غربا، أي باتجاه القبلة، كما أنهم يسجدون أيضا تماما مثلما يفعل المسلمون في صلاتهم".

وتقول (بيتا ستيفنسون) خبيرة علم الاجتماع في جامعة فيكتوريا: إن التطابق في المعاني بين معتقدات السكان الأصليين والإسلام ليس غريبا. فهم يشتركون في ممارسات مثل ختان الذكور وتعدد الزوجات وعدد من السلوكيات الثقافية مثل احترام الأرض وتوقير كبار السن.

ويرى بعض السكان الأصليين في اعتناقهم الإسلام تجديدا لحياتهم. كان محمد (ليس اسمه الاصلي) متشردا، ومدمنا على الخمر، وساعدته تعاليم الإسلام والصلاة وتحريم المسكرات والمخدرات والقمار على التغلب على الإدمان الذي أقلع عنه منذ ستة أعوام.

---

156 وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث كما في "الفتاوى" 4/ 245 فأجاب: الحمد لله أما قوله: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: 172] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة فإن حقيقة الإسلام أن يستسلم لله، لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله، وقد ضرب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–مثل ذلك.

فقال: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أى: سالمة من العيوب في جميع أعضائها) بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارئ، ثم ذكر حديث عياض عند مسلم (2865) ... وانظر تتمة كلامه فإنه غاية في النفاسة والتحقيق.

يقول محمد: "عندما اعتنقت الإسلام شعرت لأول مرة بأنني إنسان، قبلها كنت مشتتا بين أكثر من عقيدة وقناعة، لم أكن أبدا إنسانا مكتملا".

ويرفض محمد الانتقاد الذي يوجه له من بعض السكان الأصليين بأنه تخلى عن طريقة حياته التقليدية، ويعتقد أن ثقافة السكان الأصليين دمرها الاحتلال). انتهى [157]

و{صبغةَ الله} هنا منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره إلزموا واتبعوا صبغة الله، وقال الأخفش: هي بدل من قوله تعالى: {مِلَّةَ إِبْراهِيمَ}؛ قال أبو جعفر النحاس: وهو قول حسن لأن أمر الله جلّ وعزّ ونهيه ودلائله مخالطة للمعقول كما يخالط الصبغ الثوب. قلتُ: وفيه وصلٌ حسن بين سياق الآيات؛ أي نتبع ملة إبراهيم التي هي صبغة الله وفطرته التي خلق عليها الناس؛ فإنها إيمان القلوب، وزينة النفوس للمؤمنين؛ كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ. وهذه الزينة للأرواح بفطرة الله النقية هي منحى دلالي لطيف لانتقاء اللفظ " صبغة".

وقيل: سمى الدين صبغةً؛ لأنه يظهرُ أثرُ الدين على المتديِّنِ كما يظهرُ أثر الصّبغ على الثوب، فيكون الدين شعارا ودثارا، وشكلا ومضمونا، وعقيدة قلبٍ يجاريها أثر في الأعمال والأخلاق.

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى أن صبغة الإيمان الجامع الذي اختاره الله تعالى دينا للعالمين هي أحسن صبغة وأبهاها حساً ومعنىً، وطهارةً للباطن والظاهر؛ ولذا قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} استفهام غرضه الانكار والنفى أي لَا صبغة أفضل من صبغة الله تعالى؛ لأنها الحق؛ وإنَّما يدرك جمال صبغة الله تعالى، وتزيينها للقلوب والنفوس الذين يوقنون بالحق، ولذلك قال تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} خاضعون له لَا لسواه؛ ولذا قدم " له " على " عابدون " إذ التقديم للاختصاص فلا نعبد سواه ولا نؤمن بغيره.

****

157 عندما وصل الإسلام إلى أستراليا- جاناك روجر بي بي سي 26 يونيو/ حزيران 2014
http://www.bbc.com/arabic/artandculture/2014/06/140625_australia_islam_influence
وفي الحقيقة دعك من التلفيق الذي حاوله بعض العلماء بجعل هذه الآثار الواضحة للإسلام في سكان استراليا الأصليين هي نتاج زيارات أهل مكاسارو الاندونيسية المتكررة لأستراليا في زمن سابق فهذا ليس عليه دليل أنه سبب هذه الطقوس الإسلامية، فتنبه.

قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (**139**)}

معنى الآية: قل يا محمَّد لهؤلاءِ اليهودِ والنصارى: أتحاجُّوننا في اللَّه، أي: أتجادلونَنَا في دِينِهِ، والقُرْب منه، والحُظْوة لديه سُبْحانه، والرب واحدٌ، وكلٌّ مجازًى بعمله، ثم وبَّخهم بقوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}، أي: ولم تخلصوا أنتم، فكيف تدَّعون ما نَحْن أولى به منْكُمْ. انتهى [158]

قرأ زيد بن ثابت (أتحاجونَّا) بإدغام النون. والمعنى: أتجادلوننا في شأن اللَّه واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل اللَّه على أحدٍ لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوّة منا {وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ} نشترك جميعا في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، لا يختص به عجمى دون عربى إذا كان أهلا للكرامة. [159]

{وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ} يعنى أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالا يعتبرها اللَّه في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك.

ثم قال {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} فجاء بما هو سبب الكرامة، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان. [160]

قال الفخر الرازي: أَمَّا قَوْلُهُ: {وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ} فَفِيهِ وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَعْلَمُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَبِمَنْ يَصْلُحُ لِلرِّسَالَةِ وَبِمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهَا، فَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَى رَبِّكُمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَا نِسْبَةَ لَكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالْعُبُودِيَّةِ، وَهَذِهِ النِّسْبَةُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَلِمَ تُرَجِّحُونَ أَنْفُسَكُمْ عَلَيْنَا، بَلِ التَّرْجِيحُ مِنْ جَانِبِنَا لِأَنَّا مُخْلِصُونَ لَهُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَلَسْتُمْ كَذَلِكَ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} وَهَذَا التأويل أقرب. انتهى [161]

---

158 **تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 325)**

159 **جاء في تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 76): اخْتَلَفُوا فِي تِلْكَ الْمُحَاجَّةِ وَذَكَرُوا وُجُوهًا:**

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَوْلَهُمْ إِنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ وَالنُّبُوَّةِ لِتَقَدُّمِ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ وَالْمَعْنَى: أَتُجَادِلُونَنَا فِي أن الله اصطفى رسول مِنَ الْعَرَبِ لَا مِنْكُمْ وَتَقُولُونَ: لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ لَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، وَتَرَوْنَكُمْ أَحَقَّ بِالنُّبُوَّةِ مِنَّا

. وَثَانِيهَا: قَوْلُهُمْ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْإِيمَانِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَوْثَانَ.

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُمْ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ وَقَوْلُهُمْ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى [الْبَقَرَةِ: 111] وَقَوْلُهُمْ: كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا [البقرة: 135] عَنِ الْحَسَنِ.

وَرَابِعُهَا: أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ أَيْ: أَتُحَاجُّونَنَا فِي دِينِ اللَّهِ.

160 **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 197)**

161 **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 76)**

ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء: الإقرار بالباري-عز وجل-، والعمل له والإخلاص في ذلك قال: قل لهم إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله-عز وجل-وفى العمل له ونحن قد حصل لنا الإخلاص في ذلك من دونكم، فإن قيل: ومن أين أن الإخلاص حصل للمسلمين دونهم، وهل هذا إلا مجرد الدعوى؟

قيل: قد أحالهم على التأمل، وذلك ظاهرٌ بالاستقراء والتدبر، فإن الأصول الاعتقادية هي ما ذكر الله-عز وجل- في قوله: {...وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: **136**]. وإذا تأملنا حالة الإقرار بالله تعالي فقد أخلص المسلمون فيما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث، وما ادعوه على جبريل أنه عدو لهم وما ادعاه اليهود على إبراهيم، حيث زعموا أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً، ونسبوا إليه لوطاً من الفجور ببنيه في حال سكره، وادعى النصارى في ألوهية عيسى- عليه السلام- وإنكارهم بعض ما في التوراة والإنجيل، وما ذكروه من البعث حيث قالوا {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} وادعت النصارى أنه لا بعث، وإنما ينال الثواب والعقاب الأرواح، فإذن قول المسلمين {ونحن له مخلصون} ظاهر ...[162]

****

قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (**140**)}.

قال الطبري-ما ملخصه: "أمْ تَقولون" ب"التاء". أى: قل يا محمد -للقائلين لَك من اليهود والنصارى: "كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا"-: أتجادلوننا في الله، أم تقولون إن إبراهيم...؟ [163]

بمعنى: أيّ هذين الأمرين تفعلون؟ أتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى منا وأهدى منا سبيلا -وأمرنا وأمركم ما وصفنا -ببرهانٍ من الله تعالى، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أمْ تزعمون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ، ومن سَمَّى الله، كانوا هُودًا أو نصارَى على ملتكم، فيصحّ للناس بَهتُكم وكذبكم، لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه. [164]

---

162 تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 325)

163 فيكون ذلك معطوفًا على قوله تعالى: "أتحاجوننا في الله". وتكون "أم" متصلة. أي تكون (أم) معادلة للهمزة في: (أَتُحَاجُونَنا) بمعنى أىّ الأمرين تأتون: ألمحاجة في حكمة الله أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، ويحتمل أن تكون (أم) منقطعة لاستئناف الاستفهام بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار أيضا. وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم «أم يقولون» بالياء من أسفل، و(أمْ) على هذه القراءة لا تكون إلا منقطعة، ذكره الطبري والزمخشري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بمقطوعة لأنك إذا قلت أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنى أيكون هذا أم هذا؟ وقد فصَّل ابن عطية الأندلسي في ذلك فانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 216).

164 تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 122) باختصار وتصرف

قال الزجاج: كَأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُم: بأيِّ الحُجتَين تَتَعَلَّقُون فِي أمْرِنَا؟ أ بالتوحِيد فنحن موحِّدون، أم باتباع دين الأنبياءِ فنحن مُتَّبِعون. ا.هـ [165]

وفي هذا من مطالبتهم بالبرهان على ما يدعونه من الكذب ما يقصم ظهورهم ويلزمهم بالرجوع إلى الحق إن كانوا يعقلون ولذلك جاء التوبيخ الشديد في قوله تعالى: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}، تأويله: أن النبي الذي أتانا ب (الآيات) المعجزات وأتاكم بها -أعلمكم، وأعلمنا أن الإِسلام دين هُؤلاءِ الأنبياءِ، ولكنكم كذبتم وجادلتم بالباطل. فليس المقصود قطعا هنا صورة السؤال ولكن ما وراءه من الغضب الرباني على أولئك الكَذَبة الهالكين.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى التهديد الصريح لأولئك الذين يعلمون الحق من علماء اليهود ثم هم يماطلون ويكتمون الشهادة لهذا الدين، فقد علموا أن رسالة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- حق، وإنما كفروا حسداً - كما قال الله عزَّ وجلَّ - وطلبا لدوام رياستهم وكسبهم، لأنهم كانوا يتكسبون بإِقامتهم على دينهم، أو هم يكتمون الشهادة أن إبراهيم وبنيه كانوا على دين التوحيد مسلمين ولم يكونوا هودا أو نصارى؛ يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} والمعنى: وليس الله يترك أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه يحصيها عليكم، فيجازيكم بها في الآخرة، أو يعاقبكم بها في الدنيا.

****

165 معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 217)

قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)}.

كرَّر هذه الآية لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يُجازَون بكسبهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر فأنتم أحرى، ولا يغني أحدٌ عن أحدٍ شيئا إن لم يكن على توحيد الله وطاعته؛ فوجب التأكيد والتكرير، ولأن ذكرهم بفضيحةٍ أخرى من فضائح فكرهم تستوجب معنى غير المعنى الأول الذي ذكرت فيه الآية.

قال الراغب الأصفهاني ما معناه:

أعيدت هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمه في الناس صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم في متحرياتهم لا سيما في أمور دينهم، ولهذا حكى عن الكفار قولهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}، فأكَّد الله تعالى القول بذلك تنبيها أن الأمر سواء أكانوا كما قلتم- وكذبتم- أو لم يكونوا على نحو ما قال: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، وقوله: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}، وقوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه.[166]

****

---

166 تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 327) بتصرف.

تفسير الآيات من (142-152).

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) } [البقرة: **142 - 153**]

******

يختلج في النفس من هذه الآيات حراكٌ فكريٌ عنيف؛ حيث تبرز وبصورةٍ صارخةٍ تلك (المفاصلة) والمباينة الكبرى بين معسكر المؤمنين ودولتهم الحنيفية، وبين معسكر أهل الكتاب وادعاءاتهم الكاذبة ومنكراتهم؛ تلك الأفكار والأفعال التي أسقطتهم من أوج تكريمهم بوراثة أنبياء الله-سبحانه-إلى حضيض الكفر والشرك والضلال.

وهي الأسباب عينها التي انتقلت بقبلة الإسلام-وللمرة الأولى-وبطريقةٍ سريعةٍ حاسمةٍ من أيديهم إلى بيت الله الحرام.

وقد جاء ذلك تتويجا لدعاءٍ خفيٍّ حيٍّ من قلب محمد-صلى الله عليه وسلم، وكذلك جاء تحويل القبلة تثبيتا للمؤمنين، وبناءً لمنهجهم المستقل في حمل راية الحنيفية الإبراهيمية، وبناء دولة الإسلام ترفرف أعلامها على قبلته الجديدة/ العتيقة؛ جديدةٌ بانتقالها من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وعتيقةٌ على قدر عظمة البيت العتيق.

هنا يقف التاريخ الإسلامي ليؤكد أن اليهود والنصارى لم يعودوا أهلا لحمل راية الإسلام الحق بسبب تحريفهم، وافترائهم على دين الله، وكفرهم بآخر رسل الله تعالى.

وهنا يجئ التكريم الإلهي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-ومعه التكليف الشاق بحمل راية دين الله سبحانه، والمسئولية عن قبلته الأبدية والنهائية.

وهنا أيضا الأمر بالصبر على الحرب الإعلامية الرخيصة التي سيشنها الحاقدون-وقد قدَّم الله تعالى لها، وبيَّن للمؤمنين كيف يُرد كيدها إلى نحور الحاسدين-وكيف الثبات على حمل راية هذا الدين والقيادة في ظلال منهجه.

إنها النقلة التاريخية التي ترد على كل افتراءٍ أنَّ رسالة النبى محمد-صلى الله عليه وسلم-رسالة المقتبِس من اليهودية أو النصرانية، أو أن أمته هى الأمة التابعة، وهذا الدرس المتين للمؤمنين الواعين الشامخين بأننا أمةٌ وسطٌ بين الأمم، وأن منهجنا وطريقنا هو المنهج الأقوم والطريق الأسدّ، وأننا المتبوعون لا التابعين، فإن شكَّ في ذلك شاكٌّ فهو لضعف إيمانه وفساد بصيرته.

*****

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ...}

هذا المقطع الشريف من الآيات فيه تذكيرٌ بالنعمة، وتأكيد للسير، وتفصيل في الطريق.

فلم يأت الحديث عن القبلة إلا بعد كل المقدمات اللازمة له. وهذا يدلنا على أهمية قضية القبلة في حياة الأمة. لقد سُبق بمقدمةٍ تعمق الثقة بالبيت وبناته، وسُبِق ذلك بمقدمة تسلب الثقة عن نوعٍ من المشوشين، وسبق ذلك ما يعمق الالتزام بطاعة الله واتباع هداه، وسبق ذلك بالأمر بالعبادة، وسبق ذلك ما يعرف به السفهاء من أهل النفاق وما يعرف به المتقون. وذلك كله ليأتي المقطع في مكانه، مُفصِّلا قضيةً جديدة سبقتها كل تلك تمهيداتها. [167]

فأما سبب نزول الآيات:

فقد روى الْبُخَارِيُّ في صحيحه: بسنده، عَنِ الْبَرَاءِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ستَّة عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ (أي ناحية وتجاه) الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا (أي إلى الكعبة بعد تحويل القبلة) صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ. فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ (هو عباد بن بشر رضي الله عنه وقيل غيره)، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ (أي أحلف) لَقَدْ صليتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَل مَكَّةَ، فداروُا كَمَا هُمْ قَبِلَ الْبَيْتِ (أي لم يقطعوا الصلاة بل داروا على ما هم عليه وأتموا صلاتهم). وكانت اليهود أعجبهم إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس (أي: اعجبهم زمان كان يصلي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، وأهل الكتاب (أى والنصارى كذلك) لأنه كان قبلتهم، فإعجابهم لموافقة قبلة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قبلتهم)، فلما ولى وجهته قبل البيت أنكروا ذلك (لم يعجبهم وطعنوا فيه). وَكَانَ الذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالًا قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} قال البخاري: يعني صلاتكم. انتهى. [168]

إذن-كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة يستقبل في صلاته الصخرة التي في بيت المقدس، كما كان يفعل أنبياء بني إسرائيل قبله، ولكنه كان يحب استقبال الكعبة، ويتمنى لو أن الله حول القبلة إليها، ولذلك كان يجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس، فيقف جنوبي الكعبة مستقبلا الشمال، فتكون الكعبة والصخرة في جهة واحدة، وتابع المسلمون نبيهم في ذلك. ولما هاجر الرسول إلى المدينة تعذر عليه الجمع بين القبلتين، فصلى مستقبلا بيت المقدس، وبقي على ذلك ستة عشر شهرا. ذكره ابن عباس والجمهور. [169]

---

167 الأساس في التفسير (1/ 298) بتصرف يسير.

168 صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان رقم 40 تحقيق وتعليق مصطفى البغا (بين القوسين الدائرين)، وكذلك رواه مسلم في الصلاة باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة رقم 525.

169 وبيان ذلك أن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إليها للصلاة وهو بمكة، فقال بن عباس وغيره: كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس.

قال ابن كثير: وذكر غير واحد من المفسِّرين؛ أن تحويل القبلة نزل على رسول الله، وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك في (مسجد بني سلمة): فسُمي (مسجد القبلتين)، وَأَمَّا أَهْلُ (قُبَاء) فَلَمْ يَبْلُغْهُمُ الْخَبَرُ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: "بَيْنَمَا النَّاسُ بِقُبَاءَ فِي صَلَاةِ الصبح إذا جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُنْزِل عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ وَقَدْ أُمر أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ". [170]

قلتُ-جامعه: ومن جميل تصاريف العلماء أنَّ أهل السنة استدلوا على (حجية خبر الواحد) بهذا الحديث وأمثاله، إذ فيه ان المسلمين امتثلوا أمراً هو من جلائل الأمور في دينهم بخبر أحدهم ولم يتطلبوا لذلك تواترا كما يحلو للمتحذلقين من أهل البدع التشنج في أخذ الدين من أخبار الآحاد الصحيحة. [171]

وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس.

وقال آخرون: كان يصلي إلى الكعبة فلما تحول إلى المدينة استقبل بيت المقدس، وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين.

والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث بن عباس.

وكان تحويل القبلة في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن بن عباس. انظر فتح الباري لابن حجر (1/ 96،97)

170 مختصر تفسير ابن كثير لمحمد على الصابوني (1/ 135)

171 أحكام القرآن للكيا الهراسي (1/ 20). وجاء في بحث ماتع بعنوان حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام – للباحثة فرحانة بنت علي شويتة (ص: 61) نتائج مهمة وهي: –

أولا: أن الخلاف في إفادة خبر الآحاد العلم أو الظن خلافٌ لفظيٌ؛ لأن الذين يقولون إن خبر الآحاد يفيد الظن يقولون بوجوب العمل به فكيف يتصور العمل بدون علم؟ فالعمل فرع تصور العلم.

ثانياً: أن تخصيص الاحتجاج بأخبار الآحاد في الأحكام دون العقائد تخصيص بدون مخصص ولا أصل له يعتمد عليه ولا سند له.

ثالثاً: أن الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقائد يؤكد وحدة الاحتجاج بالسنة، كما يؤكد استمرار منهج السلف في عدم التفريق بين ما رواه الواحد والاثنان وما رواه الجماعة في العقيدة والشريعة سواء بسواء.

رابعاً: لا يظن ظان أن الأصوليين كلّهم رفضوا الاحتجاج بخبر الآحاد في العقائد؛ بل من الأصوليين المنصفين من ذهبوا إلى الاحتجاج بخبر الآحاد في العقائد.

خامساً: حجية أخبار الآحاد ثابتة على الأحكام كافة.

سادساً: أن خبر الواحد العدل الصحيح لا يقوم على شيء، ولا يعارض بآراء الناس ولا يجوز أن يرد بما اشترطه الناس من شروط ليست في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولاهي مما أجمع عليه علماء الحديث.

سابعاً: منهج الصحابة والتابعين وأئمة السنة بعدهم الاحتجاج بالأحاديث في أمور الدين دون تمييز بين متواترها وآحادها.

ومن العلماء مَن توسع في ذلك فاستدل بهذا الحديث وهذه الواقعة على صحة الإخبار بوقوع النسخ بخبر الواحد.

أقول: وفي استدلاله نظر؛ إذ النسخ يرفع العمل بحكم شرعيٍ متقدمٍ جملةً، فلا يبقى من العمل به شيء، وهو بهذه المثابة إهمالٌ وتعطيل لنصٍ قرآني أو حكمٍ شرعيٍ ثبت بطريق القطع فوجب أن يكون تعطيل العمل به ثابت بطريق القطع أيضاً.

أما استدلالهم بهذا الحديث ففيه حلف الصحابي على صلاته مع النبي -صلوات الله عليه-تجاه المسجد الحرام، وامتثل الناس لفعله -صلوات الله عليه-وهو بين ظهرانيهم، وأما وقوع النسخ للقبلة فقد جاء به القرآن صريحا مؤكدا.

قال العلامة المباركفوري: وفي هذه الأيام-في شعبان سنة 2 هـ/ فبراير 624 م-أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة. [172]

(وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس -وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى -سببا في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومَن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقا على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم! وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم -يقلب وجهه في السماء متجها إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشي ء، تأدباً مع الله، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه.

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول -صلى الله عليه وسلم...

عندئذ انطلقت أبواق يهود -وقد عز عليهم أن يتحول محمد -صلى الله عليه وسلم -والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم -انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم.

قالوا لهم: إن كان التوجه -فيما مضى -إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة وإن كانت حقا فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها.

---

172 الرحيق المختوم (ص: 183)

وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر -أو للآيات -لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمدا لا يتلقى الوحي من الله! وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع، منذ قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها» -وقد استغرق مقطعين كاملين في الجزء الأول -ومن مراجعة هذا المقطع في هذا الجزء أيضا. ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلا عند استعراض النص القرآني). [173]

وأما عن تحليل الآيات:

{سيقول} السين هنا تفيد المستقبل. [174]

والسفهاء: جمع سفيه؛ وهو خفيف العقل، والأحمق والجاهل.

وأصله في اللغة من قولهم: ثوب سفيه أي خفيف النسج.

(وقال: {السفهاء} ولم يقل: سيقولون، إظهاراً للوصف الذي استخفهم إلى هذا القول الظاهر عواره وخطأه لأهل الأديان كافةً. والسفيه الذي يعمل بغير دليلٍ، إما بأن لا يلتفت إلى أى دليلٍ بل يتبع هواه، أو يرى غير الدليل دليلاً). [175]

قال ابن حجر العسقلاني: والمراد بالسفهاء الكفار، وأهل النفاق، واليهود؛ أما الكفار من قريشٍ فقالوا: لما حولت القبلة رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، فإنه علم أننا على الحق.

وأما أهل النفاق فقالوا: إن كان أولا على الحق، فالذي انتقل إليه باطل، وكذلك بالعكس.

وأما اليهود فقالوا: خالف قِبلة الأنبياء، ولو كان نبيا لما خالف. [176]

فالألف واللام في **{السفهاء}** هي للعموم أي سيقول كل سفيهٍ في كل زمانٍ يقول ما قال السفهاء قبله، لأن الجمع فيها محلى باللام، وهو يفيد العموم فيدخل فيه الكل، والتخصيص بالبعض لا يدعو إليه داعٍ.

قال الألوسي-رحمه الله-:

---

[173]() في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله، ج 1 ، ص : 126

174السين حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال وينزل منه منزلة الجزء فلذا لم تعمل فيه. وذهب البصريون إلى أن مدة الاستقبال معه أضيق منها مع سوف وعبارة المعربين: حرف تنفيس ومعناها حرف توسع لأنها نقلت المضارع من الزمن الضيق –وهو الحال –إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال. انتهى من الإتقان في علوم القرآن (2/ 233)

175 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (2/ 201) باختصار.

176 انظر فتح الباري لابن حجر (8/ 171)

وتقديم الله-سبحانه-الإخبار وإعلام المؤمنين (بأن السفهاء سيقولون ما قالوه) هو لتوطين نفوس المؤمنين به؛ فإن مفاجأة المكروه أشد إيلاما، والعلم به قبل الوقوع أبعدُ من الاضطراب حال وقوعه فجاةً، وكذلك فيه إعداد الجواب عن سؤالهم واستنكارهم السفيه؛ والجواب المعد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وفي المثل-قبل الرمي يُراش السهم، وكذلك ليكون وقوعُ ذلك بعد الإخبار به معجزة لِسيدنا محمد-صلى الله تعالى عليه وسلم-وأن إخباره بالغيب هو عن الله –تعالى-لا غيره.

وقال القفال: إن الآية نزلت بعد تحويل القبلة، وإن لفظ سَيَقُولُ مرادٌ منه الماضي، وهذا كما يقول الرجل إذا عمل عملا فطعن فيه بعض أعدائه: أنا أعلم أنهم سيطعنون في-كأنه يريد أنه إذا ذُكر مرةً فيذكرونه مراتٍ أخرى. واحتج عليه بما في رواية أبي إسحاق وعبيد بن حميد، وأبي حاتم زيادة في حديث البراء-رضى الله عنه-السابق: فأنزل الله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهاءُ... إلخ الآية}. [177]

قلتُ: وليس فيه دليلٌ على أن الآية نزلت بعد قولهم يستوجب حمل "السين" في {سيقول} التي تفيد المستقبل على خلاف دلالتها والتعسف في توجيهها كما فعله القفال -رحمه الله. [178]

والبخاري-رحمه الله-لم يظهر في روايته أنَّ قولهم هذا هو سبب النزول، بل ما يفيد أنه تحويل القبلة هو السبب، فيكون تحويل القبلة وقع ثم جاءت الآيات تخبر بقولهم قبل أن يتفشى أو يظهروه، وأما رواية مَن ذكر القفال بنزول الآيات بعد قولهم فتحتاج إلى بحثٍ ولا أراها تقطع في ذلك.

وَالْإِخْبَارُ عَنْ أَقْوَالِهِمُ الْمُسْتَقْبَلَةِ لَيْسَ بِعَزِيزٍ فِي الْقُرْآنِ، وه من إعجازه بإخباره بغيب نفوسهم، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا}، وقوله سبحانه: {... فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رؤوسهم} (الْإِسْرَاءِ: 51).

والخلاصة أن في إخبار الله تعالى بقولهم هذا قبل وقوعه رحمةٌ، وتعليم، وتلقين الحجةِ للمؤمنين، وكذلك إعجازٌ قرآنيٌ عظيمٌ يكسر حُجُب التاريخ والزمن ليخبر بقولهم قبل كونه ومع ذلك يقولون ويقولون...

وقوله تعالى: **{مِنَ النَّاسِ}**، والمراد منهم جنس القوم، وفائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلوما هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء فإذا قُسِّم نوع الإنسان أصنافا كان هؤلاء صنف السفهاء فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة، والمعنى أن كل من

---

177 انظر تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 402) بتصرف واختصار.

178 قال السيوطي في الإتقان (2/ 233): وذكر بعضهم أنها قد تأتي للاستمرار لا للاستقبال، كقوله تعالى: {ستجدون آخرين} الآية، {سيقول السفهاء } الآية، لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم: {ما ولاهم} فجاءت السين إعلاما بالاستمرار لا للاستقبال.

قال ابن هشام: وهذا لا يعرفه النحويون بل الاستمرار مستفاد من المضارع والسين باقية على الاستقبال إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل.انتهى

صدر منه هذا القول هو سفيه سواء كان القائل اليهود أو المشركين من أهل مكة تصريحاً بذمهم وتعميماً لكل من مالأهم على ذلك.

{مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} هذا قولهم، والمعنى ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن قبلتهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتها أول الإسلام؛ وهي «بيت المقدس». [179]

وجاء المقول بلفظ الغيبة إشارةً إلى أنّهم قالوا ذلك فيما بينهم ولم يباشروا به المؤمنين بوجهٍ، وهذا مُرجِّحٌ لأن تكون المقالة من المنافقين.

{قُل للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} أى ليس استقبالهما لذاتهما فيسأل عن سبب التخلف عنه وإنما ذلك حكم شرعي لا اختيار له فيه بوجه، وفيه دليل على أن لحكم الشرعي إذا لم تظهر لنا علته فالأصلُ فيه التعبد.

(أَيِ الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كله لله. فإن الشَّأْنَ كُلَّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَلَوْ وَجَّهَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مراتٍ إِلَى جهات متعددة فنحن عبيده، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وأُمته عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ توجههم إلى الكعبة أَشْرَفَ بُيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: **{قُل للَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صراط مُّسْتَقِيمٍ}.**

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: «إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمْعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ آمين». (رواه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعاً). [180]

والحقيقة أنَّ في قوله تعالى: **{يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صراط مُّسْتَقِيمٍ}** إشارةً وتعريضاً لطيفاً بأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم وحادوا عن صراط الله تعالى إلى أهواءهم.

---

179 القِبلة: الوجهة، وهي الفعلة من المقابلة، والعرب تقول: ماله قِبلة ولا دِبرة، إذا لم يهتد لجهة أمره، وأصل القبلة في اللغة: الحالة التي يقابل الشيء غيره عليها، كالجلسة للحال التي يجلس عليها، إلا أنها الآن صارت كالعلم للجهة التي تستقبل في الصلاة. انظر التفسير البسيط (3/ 368)

180 راجع مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (1/ 135).

وجاء في تفسير الماتريدي: قل يا مُحَمَّد: لله المشرق والمغرب والأمكنة كلها والنواحي، يأمر بالتوجه إلى أي ناحية شاء شرقًا وغربًا، فالطاعة له في الائتمار لأمره، والقبول لدعائه، لا للتوجه نحو الشرق أو نحو الغرب لِهَوى هووا ولتمنٍّ تمنوا؛ لأن اليهود جعلوا قبلتهم المغرب اتباعًا لهواهم، لا اتباعًا لأمر أمروا به.

وكذلك النصارى اتخذوا المشرق قبلة لهوى أنفسهم؛ فأخبر الله تعالى المؤمنين أنهم يأتمرون بالله حيث ما أمروا توجهوا نحوه.

انظر تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (1/ 582)

وقال بعض أهل المعاني: أن فيه أيضاً تنزلاً للخصم المجادل؛ فكأنه يُقال له: إن الله هو أعلم بمَن معه الحق، وليس ذلك قدحا في يقين المسلمين في دينهم، وإنما هو مِن آداب المناظرة التي غايتها الهداية للحق والدعوة إليه؛ وليس التعالي على الناس، كما في قوله تعالى: **{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** (سبأ: **24**)، وهذا ومثله من آداب القرآن اللطيفة للمتدبرين.

قال الشيخ أبو زهرة-رحمه الله: (وإنه بلا شك كان ثَمَّة ناسخٌ ومنسوخ، وقد كان المنسوخ هو الصلاة إلى بيت المقدس، والناسخ هو الصلاة متجها إلى الكعبة، ثم إلى بيت الله الحرام). ا.هـ [181]

والآية هنا نسخت حكما ولم تنسخ آيةً أخرى، فدل ذلك على معنى ما ذهبتُ إليه-آنفا-في تأويل الآية الكريمة: **{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** (البقرة: **106**) أنه بمعنى: ما ننسخ من حكم آيةٍ أو ننسها نأتِ بخير منها في الحكم أو مثلها، وأن المفاضلة بين الأحكام في أزمانها المخصوصة لها لا بين الآيات ذاتها. [182]

لقد كان تحوّل النبيّ والمسلمين بقبلتهم في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، حدثا اتخذه اليهود ذريعة للتشويش على المسلمين، وإدخال البلبلة والاضطراب على معتقدهم، فكانوا يرصدون كل حدثٍ يقع في محيط المسلمين، ليقعوا منه على سلاحٍ مسمومٍ، يعملونه في المعركة التي يخوضونها ضد الإسلام والمسلمين.

وحين أمر الله نبيه أن يتحول بالمسلمين إلى المسجد الحرام في الصلاة وجدها اليهود فرصةً سانحة للعمل، فأذاعوا أن محمدا إنما فعل ذلك على حساب عقيدته، للخلاف الذي بينه وبينهم، وأن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء جميعا، فكيف استباح محمد لنفسه أن يخرج على شريعة الأنبياء وهو الذي يدعو إلى الإيمان بهم جميعا؟ فإذا كان دينه من عند الله، فهذا الذي فعله هو إبطال لهذا الدين، ومعالنة صريحة بالخروج على أحكامه، وأما إذا كان ما يدعو إليه من دينٍ هو من عمله، فإن له أن يغيّر فيه ويبدّل كيف يشاء، لكن على ألا يتحكك بالأديان السماوية، وألا يعقد صلة بينه وبين الأنبياء!

بمثل هذه التخرصات كان يلقى اليهود المسلمين، على ألسنة المنافقين ومَن في قلوبهم مرض، وقد أثاروا بهذه المقولات بلبلة واضطرابا! [183]

ومن ثَمَّ جاء الوحى القرآني يشبع هذا الموضع حقه من التأمل والنظر ليطلع المؤمن البصير على بواطن الأمور وخوافيها ويعلم كيف أنَّ المتربصين بهذا الدين يتحينون الفرص للانقضاض عليه، ثم ينتقل النص الحكيم إلى تعليم المؤمنين طرق الحِجاج القاطعة التي تقضي على حروب العدو الإعلامية وترد كيده.

---

181 زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة-رحمه الله(1/ 434)

182 راجع هذا الموضع مشكورا في الجزء الثالث من سلسلتنا.

183التفسير القرآني للقرآن (1/ 164)

*****

أمة الوسط.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)} [البقرة: **143**]

{كذلك} أي كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أمة وسطا. [184]

الكاف مضافة إلى الإشارة لذلك التكريم بحمل راية الدين الحنيف ورده إلى فطرته النقية التي فطر الله تعالى عليها دينه وأحياها إبراهيم عليه السلام.

وهي ذات الإشارة إلى استبعاد الذين حرفوا دين الله من حمل الراية واحتسابهم في خانة التطرف في الدين إفراطا وتفريطا كما قال تعالى مخاطبا أولئك المنحرفين **{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}** (المائدة: **77**) والمعنى: لا تجاوزوا الحد، والغلو: هو الإفراط والاعتداء. ثم قال: **{وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا ...}** وهم الرؤساء من أهل الكتاب، يعني: لا تتّبعوا شهواتهم، لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان.

ولذلك قال تعالى: **{وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** ...

والوسط في الأصل اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب، وكذلك شُبِّه به كل ما وقع بين طرفين إفراطٍ وتفريط؛ كالجود بين السرف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم جُعِل عبارةً عن المختار من كل شيء حتى قيل: فلان من أوسطهم نسباً. قال الزجاج: أي: من خيارهم، والعرب تصف الفاضل النسب بأنه من أوسط قومه، على التمثيل، فتمثل القبيلة بالوادي والقاع، فخير الوادي وسطه، فيقال: هذا من وسط قومه، ومن وسط الوادي، أي: من خير مكان فيه. ا.هـ

و(الوسط) الخيار والأعلى من الشيء، حيث يُنظَر أن الوسط محفوظٌ والجوانب والأطراف يسرع إليها الخلل.

فالوسطية في الحقيقة وصفٌ ثابتٌ لعقيدة وشريعة وأخلاق الإسلام بأنها أفضل وأرقى ما يمكن أنْ يكون من نهجٍ أتتْ به السماء، فالوسطية تحديد دقيقٌ لمنهج الإسلام وطريقته في تناوله لكافة شئون الحياة وقضاياها. وذلك أنَّ الإسلام تميز عن سائر الديانات قبله بأنه الدين الخاتَم والمخاطب لكل الناس على الأرض بما يستقبل من شؤونهم جميعا وتقلبات حياتهم إلى يوم القيامة، فلزم أن يكون أكثر المناهج والشرائع مرونةً وشمولاً وتكيفاً ليلائم كل الناس وكل الأفكار والثقافات ويعالج كل الأمراض وفساد الفطرة الإنسانية إلى يوم القيامة تحت كل الظروف، ولذلك فهو الوسط.

---

184 تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 219)

يقول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **"إِنِّي لم أُبْعَث باليهوديَّة ولا بالنَّصرانية، ولكني بُعِثْتُ بالحَنِيفِية السَّمحَةِ"** (من حديث أبي أمامة رضى الله عنه). [185]

ومن حديث ابن عباس -رضي الله عنه -قيل: يا رسول الله! أيُّ الأديان أَحَبُّ إلى الله؟ قال: "الحَنِيفِيَّةُ السَّمحَةُ". أَي الشَّرِيعَة المائلة عَن كل دين بَاطِل فَهِيَ حنيفية فِي التَّوْحِيد سَمْحَة فِي الْعَمَل.

وما أرى تفسيراً أعمق ولا أسدَّ في تفسير الوسطية الإسلامية من هاتين الكلمتين البلغتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم: (إنما بعثت بالحنيفية السمحة)؛ الحنيفية في العقيدة والفكر والمنهج، والسمحة في العمل والتشريع والحركة.

يقول صاحب الظلال-رحمه الله: [186]

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

«أُمَّةً وَسَطاً»في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ... ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التنظيم والتنسيق، لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان. ولكن مزاج من هذا وذاك.

---

[185]() رواه أحمد (36/ 623 رقم 22291)، والطبراني في "الكبير" (8/ 216 رقم 7868)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (2/ 430 رقم 1218)، وابن عساكر في "الأربعون في الحث على الجهاد" (77 رقم 15) وإسناده ضعيف؛ فيه: علي بن يزيد الألهاني، ومعان بن رفاعة. لكن الحديث له شواهد يرتقي بها إلى الحسن. ولذلك ذكره الألباني –رحمه الله– في "الصحيحة" (6/ 2 / 1022 رقم 2924).

[186]() فى ظلال القرآن(1/238) .

«أُمَّةً وَسَطاً» في الارتباطات والعلاقات، لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

«أُمَّةً وَسَطاً» في المكان في سُرَّة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا، وتشهد على الناس جميعا وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أُمَّةً وَسَطاً» في الزمان، تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصبغاتٍ شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها، وذلك دورها، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقوامة تبعاتها، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى، ليتأكد خلوصها لله وتجردها، واستعدادها للقيادة الراشدة. انتهى

هذا على مستوى الحنيفية (وهي الميل الحكيم عن انحرافات الجميع إلى صراط الله المستقيم)، وهي تمثل اختصاص هذه الأمة بالكمال والشمولية والرحمة والعدل في منهجها الفكري والعقدي والعملي.

وعلاقة ذلك واضحة بمسألة تحويل القبلة المسوقة في الآيات؛ التي تمثل اتخاذ المؤمنين بأمر ربهم طريقا جديدا بوجهةٍ جديدة غير طريق (المغضوب عليهم أو الضالين) الذين تركوا منهج السماء وحرفوه فضلوا، فميز الله المؤمنين عنهم بوجهةٍ غير وجهتهم وأعرق منها وأعظم (قبلة بيت الله الحرام)، وتمايز المؤمنين أيضا بمنهجهم الوسط بمعنى الأعدل والأفضل بين الديانات كلها.

*****

وأما على مستوى المعنى المكمل للوسطية وهو السماحة فيمثل الطريق الذي يتخذه المسلم مع هدايات منهج السماء فيكون بين أمرين:

أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له. هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق} [المائدة: **77**] .

والغلو نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعا. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرا، أو نحو ذلك عمدا.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار. كقيام الليل كله. وسرد الصيام الدهر أجمع. بدون صوم أيام النهي. والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا. واستعينوا بالغدوة والروحة. وشيء من الدلجة» يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال صلى الله عليه وسلم «ليصل أحدكم نشاطه. فإذا فتر فليرقد» رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هلك المتنطعون -قالها ثلاثا -وهم المتعمقون المتشددون».

وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا». انتهى [187]

****

قال تعالى: **{وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** أي خياراً وعدولاً؛ أصحابَ علمٍ وعمل. ولا يخلو زمان منهم لما في الحديث الصحيح: " **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك** "، وما دام القرآن موجوداً فهم موجودون، لقوله تعالى: **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}** (الإسراء: **9**)

---

187 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 464)

، ونزول البلاء ليس دليلاً على عدم وجود الخيار، فإن الأنبياء كانوا موجودين مع حصول الخسف والمسخ بأممهم، ولما في الحديث: " **أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث** "، فالبلاء والفساد يوجد في أي زمانٍ ويكون أيضا الصالحون ولا تنافي.

*****

ثم قال تعالى: **{لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}**

يفسرها عند المفسرين الحديث الشريف عن أبي سعيد-رضى الله عنه-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يُدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغتَ ما أرسِلت به؟ فيقول: نعم. فيقال لقومه: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا ممن نذير! فيُقال له: من يعلم ذاك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فهو قوله: {وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا}**. رواه البخاري والنسائي والترمذي وغيرهم.

قال الطبري-رحمه الله: فمعنى ذلك: وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطًا عُدولا لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورسُلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلَّغت ما أُمرَت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي. (188)

قال أهل البلاغة قدَّم -سبحانه-ذكر الشهادة في أول الآية: **{لتكونوا شهداء على الناس}** لبيان تعديل الله تعالى لهم وقبوله سبحانه وتعالى لشهادتنا، بينما أخَّرها بعد ذلك في قوله تعالى: **{ويكون الرسول عليكم شهيدا}** للدلالة على اختصاصنا بشهادة رسول الله –صلى الله عليه وسلم-علينا، **وما في ذلك من التشريف، وكذلك الاحتراس** لذلك الحِمل الثقيل في افتخار رسول الله بنا أو غضبه منا بأعمالنا، فرسول الله –صلوات الله عليه- كما انه يشهد بتزكيتنا، فهو رقيبٌ على أعمالنا كذلك؛ يعلمه ربه تعالى بما غيرنا وبدلنا من دينه بعده. كما جاء في الحديث الخطير-الذي رواه الشيخان واللفظ لمسلم-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا».

قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ»** فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ (أي سود لم يخالط لونها لون آخر) **أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟»**. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

---

188 تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 145)

قَالَ: " **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ** (أي أمامهم أتقدمهم) **عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ** **(أي ليبْعَدن) رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ** (أي يُدفَع ويُطرَد) **الْبَعِيرُ الضَّالّ؛ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا** (معناه بعدا بعدا لهم، والمكان السحيق البعيد.). انتهى

أقول: وفي هذا بعض تفصيل بحث علماء المعاني حيث قالوا: (فهلا قيل: لكم شهيداً) مكان " عليكم"؛ يعني أن "شهد عليه" أكثر ما تستعمل فيما فيه مضرة، كما أن"شهد له" فيما فيه منفعة، وأجيب: أن الشهيد هنا تضمن معنى الرقيب، فكان تعديته بـ "على".

ويرى الطيبي-رحمه الله وغيره: أن ذلك من تمام الشهادة بالعدالة للمسلمين حيث كانت الشهادة بعد رقابةٍ وخبرٍ لعدالتهم، ولم تكن عن تسامعٍ ومحض ثقةٍ في المشهود له [189]

******

وقد استنبط علماء الأصول حجية الإجماع من هذه الآية لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة فإذا اجتمع جماعة من العدول على شيءٍ وشهدوا به لزم قبوله، ويعضده قوله تعالى: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** [النساء: **115**].

قال السعدي-رحمه الله: وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة، حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: {وَسَطًا} فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: {ولتكونوا شهداء على الناس} يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومةٌ في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك. [190]

*****

---

189 انظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (3/ 133)

190 تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 71)

قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}

لقد كان تحويل القبلة أولا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها الآية ههنا:

«وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ». فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم؛ فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه - فترةً - إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر ، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد ..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول -صلى الله عليه وسلم. (191)

وفي تحليل الآية:

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا} وهي استقبال بيت المقدس في أول الأمر وتكون (كنت) على الماضي على وجهها، أو تحويل القبلة لتكون البيت الحرام في الآخر؛ وتكون(كنت) بمعنى (أنت)... {إِلا لِنَعْلَمَ} أي: علما يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالمٌ بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم، لا يُعَلَّق عليه ثوابا ولا عقابا، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا حصلت أعمالهم، ترتب عليها الثواب والعقاب، فمعنى الآية: شرعنا تلك القبلة لنميز ونمتحن الناس...

قال الزمخشري-رحمه الله: فإن قلتَ: كيف قال: (لِنَعْلَمَ) ولم يزل سبحانه عالماً بذلك؟

قلتُ: معناه: لنعلمه علماً يتعلق به الجزاء؛ وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً، ونحوه: **{وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}** (آل عمران: **142**).

وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته؛ لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده.

---

[191]() في ظلال القرآن ، ج 1 ، ص : 127

وقيل: معناه: لنميز (مَن يتبع أمر الله ممن يعصيه)، كما قال الله تعالى: **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ}** (الأنفال: **37**)، فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم به يقع التمييز .

(قلت-جامعه: وذكره الطبري عن ابن عباس، وحكى الطبري أيضا أن معنى لِنَعْلَمَ لنرى). انتهى [192]

وقوله تعالى: **{وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها...}** الآية، قال قتادة والسدي وعطاء وغيرهم: القبلة هنا بيت المقدس. والمعنى لم نجعلها حين أمرناك بها أولا إلا فتنة لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما يألفون مسجد مكة، أو من اليهود على ما قال الضحاك من أن الأحبار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء، فإن صليت إليه اتبعناك، فأمره الله بالصلاة إليه امتحانا لهم فلم يؤمنوا.

وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، و(كنت) بمعنى (أنت) كقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: **110**) بمعنى أنتم، أي وما جعلناها وصرفناك إليها إلا فتنة، وروي في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حُوِّل إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناسا ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام.

وقوله تعالى: **{يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ}** المنقلب على عقبيه عبارةٌ عن المرتد الراجع عما كان فيه من إيمانٍ أو شغلٍ أو غير ذلك، والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر، وهي مشية الحيوان الفازع من شيءٍ قد قرب منه. [193]

قال الإمام الراغب الأصفهاني في تفسيره ما مختصره: فإن قيل: كيف يُتصوَّر حقيقة انقلاب الإنسان على عقبيه؟ وكان من جوابه: أن الله تعالى أنشأ الأديان، فما زال يتمّمها شيئاً فشيئاً حتى كمَّلها بنبينا صلوات الله عليه كما قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (المائدة: **3**)، فمن أنعم عليه بأن أوجده بعد بعثته وأدرك تلك السعادة، ثم رغب عنه مائلاً إلى ما قبله من الشرائع المنسوخة فقد انقلب على عقبيه.انتهى

---

192 وتحقيقه ما ذكره الزجاج: أن الله عز وجل يعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبع قبل وقوعه، وذلك العلم لا يوجب مجازاة في ثواب ولا عقاب، ولكن المعنى: ليعلم ذلك منهم شهادة، فيقع عليهم بذلك العلم اسم المطيعين واسم العاصين، فيتعين ثوابهم على قدر عملهم، وتكون معلومة في حال وقوع الفعل منهم شهادة، كقوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) [التغابن: 18]، فعلمه به قبل وقوعه غيب، وعلمه به حال وقوعه شهادة، وهذا يبين كل ما في القرآن مثله. انظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (3/ 137).

ولابن عطية الأندلسي رأى بعيد ينقل الكلام إلى المجاز يقول فيه: ومعنى قوله تعالى: لِنَعْلَمَ أي ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخالصته، وهذا شائع في كلام العرب كما تقول: فتح عمر العراق وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل. انتهى انظر تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 220)

193 تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 219).

فهذه الحالة من الانتكاس الذي يزري بصاحبه ويجعله يفر ذليلا خائرا يخشى النور لظلامٍ في قلبه هو مَفادُ ودلالة تلك العبارة الموجعة {يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ}.

وتأمل دلالة هذا العمق في قضية اتباع السنة في التصريح الخطير في قوله تعالى: {...لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ...} فهذه لام التعليل لهذا الامتحان الخطير لتمييز أتباع الرسول من غيرهم، وهما فريقان لا ثالث لهما، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

قال تعالى: **{وَإِنْ كَانَتْ لكبيرةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}** أي: هذه القضية في صرف المسلمين عن القبلة واتباع أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-وفعله وسنته وهديه.

والمعنى: إنَّ هذه القضية {لَكَبِيرَةٌ} أي: شاقةً عسيرةٌ {إلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم لهم وبسنته فيهم، فأذعنوا للأمر فزادهم هدىً. (194)

****

قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}

وذلك أنّ حُيَيُّ بنُ أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس أكانت هدىً أم ضلالةً؟ فإن كانت هدى فقد تحولتم عنها وان كانت ضلالة لقد دنتم الله بها فإن من مات منكم عليها لقد مات على الضلالة؟

فقال المسلمون: إنّما الهدى ما أمر الله تعالى به والضلالة ما نهى الله عنه.

قالوا: فما شهادتكم على مَن مات منكم على قبلتنا؟ وكان مات قبل أن تحوّل القبلة؟

فانطلقت عشائرهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف إخواننا الّذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: {وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ} أي صلاتكم إلى بيت المقدس. (195)

---

194 و(إنْ) هنا هي المخففة من (إنَّ) الثقيلة يدل على ذلك لام التأكيد اللاحقة بخبرها (التي يسمونها في النحو المُزَحْلقة). قال الزجاج: وهذه اللام دخلت على " إنْ " لأن اللام إذا لم تدخل مع إنْ الخفيفة كان الكلام جُحْداً (أى نفياً) فلولا " اللام " كان المعنى " ما كانت كبيرة " فإذا جاءَت إن واللام فمعناه التوكيد للقصة، واللام تدخل في الخبر. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 220).

[195]() هكذا حكاه الثعلبي في تفسيره بغير إسناد.

ويؤيده ما ذهب إليه البخاري -رحمه الله-في صحيحه مستدلاً على شمول الإيمان معنى العمل فقال: بابٌ الصلاةُ من الإيمان وقول الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} [البقرة: **143**] يعني صلاتكم عند البيت، ثم ساق حديث البراء حين نُسِخَت القبلةُ، وفيه: قال زهير: حدثنا أبو إسحاق، عن البراء في حديثه هذا: أنه مات على القبلة قبل أنْ تُحَوَّل رجالٌ وقتلوا، فلم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} [البقرة: **143**]. انتهى

ومن نكت العقيدة

إن هذه الآية أقطع الحجج للجهمية والمرجئة في قولهم: إن الفرائض والأعمال لا تسمى إيمانًا. وقولهم خلاف نص التنزيل؛ لأن الله سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيمانًا، ولا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت فى صلاتهم إلى بيت المقدس، ومثل هذه الآية قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [الأنفال: **2**، **3**] لأن الذي يسمى مؤمنا بعمله لشىء يوجب أن يسمى ذلك الشىء إيمانًا.

ومثله أيضًا قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [النور: **62**]، فسماهم مؤمنين بإيمانهم بالله ورسوله، وأن لا يذهبوا إذا كانوا مع نبيهم حتى يستأذنوه، واستئذانهم له عملٌ مفترض عليهم سُمُّوا به مؤمنين كما سُمُّوا بإيمانهم بالله ورسوله. (196)

قال أهل السنة: والإيمانُ مراتبٌ بعضها فوق بعضٍ، فليس الناقص فيها كالكامل؛ قال الله عز وجل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}؛ أي إنما المؤمن حق الإيمان مَن كانت هذه صفته؛ ولذلك قال {أولئك هم المؤمنون حقا}.

ومثل هذه الآية في القرآن كثير، وكذلك قوله-صلى الله عليه وسلم:" المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم" والمقصود إنما هو المؤمن المسلم حقا، ومن هذا قوله-صلى الله عليه وسلم:" أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا". ومعلومٌ أنه لا يكون هذا أكملُ في الإيمان حتى يكون غيره أنقص منه.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم:" أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله".

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا صلاة له ولا دين لمن لا أمانة له" كل ذلك يدل على أنه ليس بإيمانٍ كامل، وليس نفى الإيمان بالكلية، وأن بعض الإيمان أوثق عروةً وأكمل من بعضٍ، ونظيره كما قال-عليه الصلاة والسلام: "ليس المسكين بالطوَّاف عليكم... الحديث" يريد ليس الطواف بالمسكين حقا لأن هناك

---

196 شرح صحيح البخارى لابن بطال (1/ 97)

من هو أشدُّ مسكنةً منه، وهو الذي لا يسأل الناس ويتعفف. وفي الأثر:" مَن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنح لله فقد استكمل الإيمان".

ومن الدلائل على أن الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص كما قالت الجماعة والجمهور قول الله عز وجل : {وما كان الله ليضيع إيمانكم} لم يختلف المفسرون أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيمانا، وأما من السنة فكثير جدا ....[197]

فعقيدة السلف الصالح وأهل السنة وجمهور العلماء أن العمل ركنٌ ركينٌ في الإيمان، فتصديق القلب ونطق اللسان وانقياد الجوارح هى أركان الإيمان. ولا يُتصور إيمانٌ يخلو من العمل كله. كما أنَّ هناك من الأعمال ما ينافي أصل الإيمان، بحيث يكون فعله كفراً وتركه هو الإيمان لا محالة كالاستهزاء بالله ودينه وشرعه...

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ}

وهذا ختام مباركٌ لهذه الآية يومىء إلى حكمة الله تعالى في أحكامه، ويبشر المؤمنين بإحاطتهم برعايته وكنفه، فتغيير حكمٍ إلى حكمٍ آخر هو من رحمة الله تعالى بالمؤمنين يضع مواقيت أحكامه على وِفق الخير والمصلحة، وهذه هي الرأفة الربانية التي ترق وتدق حتى ربما تخفى على الناس. وهو تعالى يعظم من قدر مَن أطاع ولا يضيع من عمله شيئا وهذه هي الرحمة.

الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ: مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى. وَقِيلَ: الرَّأْفَةُ أَشَدُّ الرَّحْمَةِ. والذي أراه أنَّ الرأفة أرق في معناها وأخفى من الرحمة، فهى ما بطن من الرحمة.

****

197 التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (9/ 244) بتصرف يسير

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...}

هذا بيانٌ لمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه. هذا الذي يقرره القرآن من مراعاة الرب عز وجل لخاطر نبيه ورغبته، فرسول الله كان حين دخل المدينة يصلي إلى المسجد الأقصى ويمنعه حياؤه وأدبه مع ربه أنْ يطلب إليه الصلاة إلى الكعبة وهى أحب إليه، فكان عليه الصلاة والسلام يقلّب نظره في السماء، والله يعلم ما في قلبه الشريف، فكان أنْ شرَّفه الله وكرَّمه وصرّح بأنَّ من أسباب تحويل القبلة هي مراعاة قلب عبده وخليله، مع ما علمه الله من المصالح في ذلك.

وذلك أبلغ ما يكون من التكريم والتشريف حتى إن عائشة-عليها السلام-تقول في مثل هذا الموضع: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك". [198]

ولم يكن هواه-عليه السلام-قطُّ إلا في مرضاة الله تعالى حتى أشفق الله سبحانه من شدة حرصه على طاعته وحرصه على نشر التوحيد فقال له: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: 6]

من فرط شفقته-صلى الله عليه وسلم-داخَلَه الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله-سبحانه-عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر كأنه قال له: لم كل هذا؟ أتقتل نفسك حسرةً وتأسفا عليهم

ليس في امتناعهم أثر، ولا في الدّين من ذلك ضرر. فلا عليك من ذلك. [199]

وقال له تعالى في الآية الأخرى تشبهها: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3].

---

[198]() رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

ومعنى الحديث: أن الله سبحانه وتعالى خص نبيه من بين سائر المؤمنين بأن أي امرأة وهبت نفسها له فله أن ينكحها. فعند نزول الآية المذكورة قالت عائشة: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. ومعناه كما قال ابن حجر: (أي ما أرى الله إلا موجداً لما تريد بلا تأخير، منزلا لما تحب وتختار. وقال القرطبي: هذا قول أبرزه الدلال والغيرة، وهو من نوع قولها: ما أحمدكما ولا أحمد إلا الله. وإضافة الهوى إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يحمل على ظاهره لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يفعل بالهوى، ولو قالت إلى مرضاتك لكان أليق، ولكن الغيرة يغتفر لأجلها إطلاق مثل ذلك.

وهذا الحديث دليل على عفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم شهوانيته، لأن الله أباح له أي امرأة تهب نفسها له، وجاءه كثير من النساء وعرضن أنفسهن عليه وردهن، فقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له. قال ابن حجر في الفتح: وإسناده حسن، والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له، لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها). انتهى.

[199]() لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 377) مع زيادة.

يقول ا/ سيد قطب في الظلال (234/1): وفي مطلع هذه الآيات نجد تعبيرا مصورا لحالة النبي -صلى الله عليه وسلم -: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» ...

وهو يشي بتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبلةٍ غير القبلة التي كان عليها. بعد ما كثر لجاج اليهود وحجاجهم ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس. فكان -صلى الله عليه وسلم -يقلب وجهه في السماء، ولا يصرح بدعاءٍ، تأدبا مع ربه، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا، أو أن يقدم بين يديه شيئا.

ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه. والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود: «فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها» ...

ثم يعين له هذه القبلة التي علم -سبحانه -أنه يرضاها: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» ...

قبلة له ولأمته. من معه منها ومن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها : «وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

من كل اتجاهٍ، في أنحاء الأرض جميعا؛ قبلةً واحدة تجمع هذه الأمة وتوحِّد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها؛ قبلةً واحدة، تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها. فتحس أنها جسمٌ واحدٌ، وكيانٌ واحد، تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهجٍ واحد؛ منهجٍ ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلةٍ واحدة.

وهكذا وحَّد الله هذه الأمة. وحَّدها في إلهها ورسولها ودينها وقبلتها. وحَّدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات. ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدةٍ من هذه القواعد كلها ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها.

إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلا والسياج والحظيرة! انتهى

*****

ومن مباحث اللغة في الآية: {قَدْ نَرى} أى ربما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية (أى نراك كثيرا). [200]

---

[200]() وقال أبو حيان « في تفسيره البحر المحيط (1/ 427) » :

قال السكندري رحمه اللَّه: وهذا من المواضع التي تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه قوله تعالى: {رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أنْ لو كانوا مؤمنين} والمراد كثرة مودتهم للإسلام في يوم القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك قوله تعالى: {وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته يقيني مؤكد، ومع ذلك يكفرون به. [201]

وَمَعْنَى {تَقَلُّبَ وَجْهِكَ}: تَحَوُّلَ وَجْهِكَ إِلَى السماء، قاله قطرب.

وقال الزَّجَّاجُ: تَقَلُّبَ عَيْنَيْكَ فِي النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

(قلتُ-جامعه: وعبَّر عن تقلب البصر بتقلب الوجه بيانا لكمال عبوديته-صلى الله عليه وسلم-الذي أسلم وجهه لله تعالى في كل شيءٍ حتى ما يخطر له من خاطرٍ إلا رفع وجهه لله ربه.

فكمال عبوديته-صلى الله عليه وسلم-لربه استجلبت كمال رضا الله سبحانه عنه حتى أرضاه.

فقال له: **{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}** ووعده بمزيد الرضا فقال له: **{ولسوفَ يعطيكَ ربُّك فترضَى}**.

وربما وجَّه أهل السنة قوله **{تقلب وجهك في السماء}** فاستدلوا به على علو الله تعالى فوق سماواته فوق عرشه). [202]

وَقَوْلُهُ: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ} هُوَ إِمَّا مِنَ الْوِلَايَةِ: أَيْ فَلَنُعْطِيَنَّكَ ذَلِكَ (من قولهم أوليت فلاناً نِعَما: أى أعطيته).

بل التكثير مستفادٌ من لفظ التقلّب، ومَن نظر مرة أو ردد بصره مرتين أو ثلاثا لا يُقال: إنه قلَّب بصره، فلا يقال قلّب إلا حيث الترديد كثيرٌ. و (نرى) هنا بمعنى الماضي، وقد ذكر بعض النحاة أن (قد) تقلب المضارع ماضيا، ومنه ما هنا، ومنه قوله تعالى:

{قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ} [النور: 64]، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ} [الحجر: 97]، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ} [الأحزاب: 18]

والمعنى قد رأينا إلخ. انتهى

إذن (قد) حرف يأتي في اللغة العربية يسبق الأفعال. فإذا انضم مع الفعل الماضي فهو يعني التأكيد، وإذا كان مع الفعل المضارع فهو يعني التردد والشك. فيقولون: قد مضيتُ ومعناه أؤكد أني مضيتُ، ويقولون: قد أمضي ومعناه: ربما أمضي لست متأكدا. ولكن العرب احيانا حينما تريد ان تعبر عن تكرار حالٍ وتردده تأتي بقد مع الفعل المضارع كما في هذه الآية. وهذا من توسع العرب في بلاغتها.

[201]() تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 201) مع حاشية أحمد السكندري.

[202]() قال عبد الكريم القشيري:

حفظ- صلوات الله عليه- الآداب حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه، فلاحظ السماء لأنها طريق جبريل عليه السّلام، فأنزل الله عزّ وجل: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» أي علمنا سؤلك عمّا لم تفصح عنه بلسان الدعاء، فلقد غيّرنا القبلة لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب. كلّ العبيد يجتهدون فى طلب رضائى وأنا أطلب رضاك. انتهى لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 134)

أَوْ مِنَ التَّوَلِّي: أَيْ فَلَنَجْعَلَنَّكَ مُتَوَلِّيًا إِلَى جِهَتِهَا، وَهَذَا أَوْلَى بالمقصود لِقَوْلِهِ تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}. (وتأمل؛ فهذا من باب ترجيح السياق للمعنى)

وَالْمُرَادُ بِالشَّطْرِ هُنَا: النَّاحِيَةُ وَالْجِهَةُ، وَهُوَ منصوب لأنه ظرف مكان. [203]

ترضاها: أى تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته (كما قال النسفي). وهذا التعبير فيه من إكرام الله لرسوله ما لا يخفى.

*****

{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: 144]

و**{شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ}** أى نحوه وقبله وتلقاؤه، وفي ذكر المسجد الحرام الذي هو محيط الكعبة دون الكعبة مع أنها القبلة لا المسجد على ما جاء مصرّحا به في الأحاديث إشارة إلى أنه يكفي للبعيد محاذاة جهة القبلة، قاله الألوسي.

{وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} هذا تصريحٌ بعموم الحكم المستفاد من قوله **{فَوَلِّ وَجْهَكَ}.**

والفائدة من ذكره مع أن خطاب النبي -صلّى الله عليه وسلّم-خطاب لأمته الاهتمام بشأن قبلة الكعبة، ودفع توهّم أنّ الكعبة قبلة المدينة وحدها، لأنّ الأمر بالصرف كان فيها، فربما فهم أن قبلة بيت المقدس لا تزال باقية. فدفعا لهذا الإيهام كان التصريح بعموم الحكم في عموم الأمكنة: **{وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}.** [204]

لطيفةٌ فقهية

واتفق علماء الإسلام على أن **استقبال الكعبة** أي التوجه إليها **شرط من شروط صحة الصلاة** المفروضة والنافلة **إلا لضرورةٍ في الفريضة كالقتال، والمريض لا يجد من يوجهه إلى جهة القبلة.**

أو لرخصةٍ في النافلة للمسافر إذا كان راكبا على دابة، أو في سفينة لا يستقر بها.

---

[203]() راجع فتح القدير للشوكاني (1/ 177) مع تصرف. ومن معاني الشَّطْرِ في اللغة العربية: النِّصْفُ، وَمِنْهُ «الطّهور شَطْرُ الْإِيمَانِ» ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَنْتَرَةَ: إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا ... شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصُلِ.
قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَبَاهُ مِنْ سَادَاتِ عَبْسٍ وَأُمَّهُ أَمَةٌ، وَيَرِدُ بِمَعْنَى الْبَعْضِ مُطْلَقًا. وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمُرَادَ بِشَطْرِ الْمَسْجِدِ هُنَا: ناحية الْكَعْبَة.

[204]() تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: 41)

فأما الذي هو في المسجد الحرام ففرض **عليه استقبال عين الكعبة** من أحد جوانبها، ومَن كان بمكة في موضع يعاين منه الكعبة فعليه التوجه إلى جهة الكعبة التي يعاينها.

فإذا طال الصف من أحد جوانب الكعبة وجب على من كان من أهل الصف غير مقابل لركن من أركان الكعبة أن يستدير بحيث يصلون دائرين بالكعبة صفًّا وراء صفٍّ بالاستدارة.

وأما الذي تغيب ذات الكعبة عن بصره فعليه الاجتهاد بأن يتوخى أن يستقبل جهتها.

فمن العلماء من قال يتوخى المصلي جهة مصادفة عين الكعبة بحيث لو فرض خط بينه وبين الكعبة لوجد وجهه قبالة جدارها، وهذا شاقٌّ يعسر تحققه إلا بطريق إرصاد علم الهيئة ويُعبَّر عن هذا **باستقبال العين وباستقبال السمت**، وهو قول بعض المالكية ونُقل عن الشافعي.

ومن العلماء من قال: يتوخى المصلي أن يستقبل جهة أقرب ما بينه وبين الكعبة بحيث لو مشى باستقامة لوصل حول الكعبة ويعبر عن هذا **باستقبال الجهة أي جهة الكعبة** وهذا قول أكثر المالكية، وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وهو من التيسير ورفع الحرج.

ومن كان بالمدينة يستدل بموضع صلاة النبيء -صلى الله عليه وسلم-في مسجده لأن الله أذن لرسوله بالصلاة فيه، وروى ابن القاسم عن مالك أن جبريل هو الذي أقام للنبيء صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده.

ومن أخطأ القبلة أو نسي الاستقبال حتى فرغ من صلاته لا يجب عليه إعادة صلاته عند مالك وأبي حنيفة وأحمد، إلا أن مالكا استحب له أن يعيدها ما لم يخرج الوقت ولم ير ذلك أبو حنيفة وأحمد.

وهذا بناء على أن فرض المكلف هو الاجتهاد في استقبال الجهة.

وأما الشافعي فأوجب عليه الإعادة أبداً بناءً على أنه يرى أن فرض المكلف هو إصابة سمت الكعبة. انتهى (205)

****

---

(205) نقلا عن التحرير والتنوير (2/ 13).

مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: {فول وجهك شطر المسجد الحرام} فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره. انتهى من تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 461)

قال تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)}

قال ابن كثير: أي واليهود -الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس -يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: {وما الله بغافل عما يعملون}. أى أنَّ الله يحسب عليهم عنادهم في معرفة الحق وحربه مع يقينهم فيه ليجازيهم يوم القيامة بكفرهم.

******

قال تعالى: {**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)**}.

أذن الله سبحانه له وللمؤمنين أنْ يولوا وجوهم ناحية المسجد الحرام، وأمرهم أنْ يتحرَوا جهته في صلاتهم. [206]

وقد كانت القبلة الأولى ناحية المسجد الأقصى بياناً لمكانته عند المسلمين، فهو مسرى رسول الله-صلى الله عليه وسلم. وكذلك لأجل توثيق صلة رسول الله بالأنبياء قبله وأنَّ رسالتهم واحدة، ولأجل قطع عذر المشركين من اليهود والنصارى باستمالتهم لهذا الدين حتى لا يبقى لهم عذرٌ يقولون جاء الإسلام لتحدينا وخلافنا، بل جاء ليجمعكم ويجمع المسلمين على كلمةٍ سواءٍ ألا يعبدوا إلا الله.

فلما تركوا أمر ربهم وأنكروا ما عرفوه يقينا من أحقية دين الإسلام أعرض الله تعالى وأمر المسلمين أنْ يتجهوا إلى القبلة الإبراهيمية بيانا للمفاصلة التامة بين توحيد إبراهيم عليه السلام ودينه وقبلته، وبين ما صنعه اليهود والنصارى من الدين الذي حرفوه.

فكان تحويل القبلة في هذا التوقيت ليعلم الله مَن يؤمن بالله وشرعه وحكمته ومَن ينقلب على عقبيه لأدنى شبهةٍ ألقاها اليهود الحاقدون.

هنا كانت المفاصلة والمفارقة والتمايز الحقيقي بين دين الله عز وجل الحق وبين اليهود والنصارى، وهو ما نراه ضمنياً في أول سورة الإسراء.

(يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، **فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمةٍ إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم**). [207]

---

[206]() **وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت، فقال مجاهد: لقول اليهود ما علم محمد دينه حتى اتبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبلة إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع والسدي: وليستألف العرب لمحبتها في الكعبة. انتهى من تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 221)**

[207]() **الرحيق المختوم (ص: 128)**

(ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم، التي هي تعبيرٌ ظاهرٌ عن مشاعرَ وعقائد باطنة.

كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء.

ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات. وإنما كان نظرةً أعمق إلى ما وراء الشكليات. كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة. وهذه البواعث هي التي تفرق قوما عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصورا عن تصور، وضميرا عن ضمير، وخلقا عن خلق، واتجاها في الحياة كلها عن اتجاهٍ.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه -قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم».

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -وقد خرج على جماعة فقاموا له: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا».

فهو نهيٌ عن تشبهٍ في مظهرٍ أو لباس. ونهى عن تشبهٍ في حركة أو سلوك. ونهى عن تشبه في قول أو أدب.

ثم هو نهيٌ عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض. نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أي قومٍ آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية فينبغي لها أن تستمد تقاليدها -كما تستمد عقيدتها -من المصدر الذي اختارها للقيادة. والمسلمون هم الأعلون. وهم الأمة الوسط. وهم خير أمة أخرجت للناس. فمن أين إذن يستمدون تصور هم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟

إن لم يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه لا ليأخذوا منه!

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفقٍ في التصور، وأقومَ منهجٍ في الحياة.

فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه.

وما كان تعصبا أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أي أساسٍ آخر، وعلى منهجه هو لا على أي منهجٍ آخر، وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى.

فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله، ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج الله، والتردي في مهاوي الجاهلية ليس متعصبا، أو هو متعصبٌ؛ ولكن للخير والحق والصلاح!

والأمة المسلمة التي تتجه إلى قبلةٍ مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه.

إن القبلة ليست مجرد مكانٍ أو جهة تتجه إليها الأمة في الصلاة.

فالمكان أو الجهة ليس سوى رمزٍ؛ رمزٍ للتميز والاختصاص. تميز الاعتقاد، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.

والأمة المسلمة -اليوم -بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعا، وبين شتى الأهداف الجاهلية التي تستهدفها الأرض جميعا، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعا، وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعا...

الأمة المسلمة اليوم في حاجةٍ إلى التميز بشخصيةٍ خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة، والتميز بتصورٍ خاص للوجود والحياة، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور، والتميز برايةٍ خاصة تحمل اسم الله وحده، فتُعرَف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها.

إن هذه العقيدة منهجُ حياةٍ كامل. وهذا المنهج هو الذي يميز الأمةَ المُستخلَفةَ الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلَّفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله.

وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان، وفي الأهداف والاهتمامات، وفي الراية والعلامة.

وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خُلقت له، وأُخرجت للناس من أجله. وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغِمار، مُبهَمةُ الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت لها من أزياءٍ ودعواتٍ وأعلام)! [208]

(ثم إنه سبحانه بعثه بدين الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم في صلاتهم ووصفه بأنه صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم من اليهود وأمثالهم، ولا الضالين من النصارى وأمثالهم.

جماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملا، أو لا يتبعونه قولا ولا عملا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سَنَن

---

[208]() الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن (228/1 وما بعدها) بتصرف واختصار.

مَن كان قبلكم حذو القُذَّة [209] بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه ". قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: " فمن».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-عن النبي -صلى الله عليه وسلم-قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبرا بشبر، وذراعا بذراع ". فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: ومَن الناس إلا أولئك؟».

فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاةٌ لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاةٌ لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارا عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: " أنه قال «لا تزال طائفةٌ من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة».

وأخبر صلى الله عليه وسلم: «أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة [210]، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته» [211].

---

(209) القذة: بالضم: ريشة السهم. وقوله: "حذو القذة بالقذة". كناية عن التشابه والتتابع، ويضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان لسان العرب (4 / 503) قذذ.

210 صحيح لغيره. جاء ذلك في حديث أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلي الله عليه وعلى آله وسلم قال: "إن الله لا يجمع أمتي – أو قال: أمة محمد صلي الله عليه وعلى آله وسلم – على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار". أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة الحديث رقم (2167) ، (4 / 466) ، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه"، وللحديث شواهد في مستدرك الحاكم (1 / 115 – 116) ؛ والسنة لابن أبي عاصم، الأحاديث رقم (80، 82، 83، 84، 85) ، (ص 39، 41، 42) ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير وزاد فيه: "ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار"، وقال: "حديث حسن" الجامع الصغير (1 / 278) رقم (1818) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (1844) ، وله شاهد أيضا في المسند (5 / 145) ، عن أبي ذر ومنه: "فإن الله عز وجل لن يجمع أمتي إلا على هدى"، وفي سنن الدارمي (1 / 29) في المقدمة، باب ما أعطى النبي صلي الله عليه وعلى آله وسلم من الفضل وفيه: "ولا يجمعهم على ضلالة". نصا من تحقيق الشيخ ناصر العقل على كتاب اقتضاء الصراط المستقيم.

211 صحيح الإسناد. قال العلامة البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (1/ 5): هَذَا إِسْنَاد صَحِيح عن أبي عنبة الخولاني رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم رِجَاله كلهم ثِقَات وَقد توبع هِشَام عَلَيْهِ وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه من طَرِيق الْهَيْثَم بن خَارجه عَن الْجراح بِهِ. قلت: وكذا رواه أحمد في مسند أبي عنبة الخولاني، ورواه البخاري في الكنى (61)، عن الهيثم به. وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني (5/ 571) برقم (2442).

فعُلِم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضا، وقوم منحرفون إلى شعبةٍ من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضا، بل قد يكون الانحراف كفرا، وقد يكون فسقا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا. انتهى [212]

وقد مضى بنا قوله تعالى: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...}** [البقرة: 109]

إنها إذن شخصية المسلم التي تتميز عن الآخر؛ بل تكون النموذج والقدوة في العلم والعمل والخلق والسلوك.

إنها القبلة المنفردة لإحياء توحيد إبراهيم -عليه السلام -بعدما خانه أحفاد بنيه من اليهود والنصارى.

يجب أن يدرك كل مسلم ذلك ويضعه نصب عينيه ويسر على هداه مستعليا بعقيدته، وفخورا بشريعته، وعزيزا بمنهجه.

فمَن لا يدرك قيمة النور بين يديه لا يُتَصَوَّر منه أن يهزم الظلام.

إنها (الهُوَيَّة) التي تتحدث عنها الآيات. ذلك التمايز الفعلي والواقعي بيننا وبينهم. وإنها للدعوة الخبيثة التي يقترفها بعض الجهلاء أو المأجورين حين يلغون الفوارق بين الحق والباطل، بين أهل الجنة وأهل النيران، وحين يخلطون بين المعاملة والاعتقاد؛ حيث أمرنا الإسلام أن نقسط في معاملة الآخر ولم يأمرنا أن نلين في أمر عقيدتنا واختلافنا معه حتى لا تضيع القضية.

فماذا يبقى من دينك إن اعترفتَ أنك وهم سواء، أو شككتَ لحظةً في أنك على الحق وإلى الجنة وأنهم إن ماتوا على ذلك على الباطل وإلى النار. إنها -إذن-دعوة مبطَّنة للكفر.

يقول الله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}.

(إنهم لن يقتنعوا بدليلٍ، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه

فهم في عناد يقوده الهوى، وتؤرثه المصلحة، ويحدوه الغرض.

212شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله تعالى–(اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 74-79) باختصار.

وإن كثيرا من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة .. وهذا وهم. إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذي لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل. عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة. يحاربونه وجها لوجه، ويحاربونه من وراء ستار. ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله مَن يحاربه لهم تحت أي ستار. وهم دائما عند قول الله تعالى لنبيه الكريم: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن النبي -صلى الله عليه وسلم -وموقفه الطبيعي: «وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ»

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول -صلى الله عليه وسلم -تجاه هذا الأمر. وفيه إيحاء قوي للأمة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلةً غير قبلةِ رسولها التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه، ولن ترفع رايةً غير رايتها التي تنسبها إلى ربها ولن تتبع منهجا إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة...). [213]

(والمراد بالقبلة هنا الدين والملّة، وموقف أهل الكتاب من النبىّ وما جاء به موقف عنادىّ، فهم منه على خلافٍ، لا يردّهم عنه أيُّ برهانٍ، ولا تنفعهم معه أيَّةُ حجةٍ، ولو جاءهم النبىُّ بكل آيةٍ قاهرة ما آمنوا له، ولا اجتمعوا إليه.

ثم هم فيما بينهم مختلفون، لا يلتقي بعضهم ببعض، ولا يستقيم بعضهم على طريق بعض!

وفى قوله تعالى: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» استبعادٌ أن يميل النبىّ إلى جانبهم، لأنهم إنما يتبعون أهواءهم، ويميلون مع مُفتَرَياتهم! [214]

والخطابُ هنا هو لرسول الله على المجاز فلا يُتَصَوَّر منه ذلك، وإنما هو للأمة المحمدية على الحقيقة كمثل المعلم الذي يتوعد أنجب تلاميذه لا ليهدده وإنما انتهاراً لسواه ممَّن هم أقل منه.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير ، وهذا الجزم في التعبير.

---

[213]() **في ظلال القرآن 1/ 245،246.**

[214]() **التفسير القرآني للقرآن (1/ 170) عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ)- دار الفكر العربي – القاهرة**

وفي هذا الخطاب توجيهٌ وتأكيد لمعنىً ذكرته الآياتُ آنفا في سورة البقرة فيه التَّيْئيسُ من رضا اليهود والنصارى الكامل عن المسلمين حتى يدعوا دينهم وفيه الدعوة للتمسك الفخور بما نحن عليه من الحق بلا أى تنازلٍ او ميوعة....

وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: 49، 50].

****

{يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 146 -148]

(ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.

فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي -صلى اللّه عليه وسلم -ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب. وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئا في أمر دينهم، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين.

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي -صلى اللّه عليه وسلم -بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»). [215]

قال الرازي: قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} وإن كان عاما بحسب اللفظ لكنه مختص بالعلماء منهم، والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}، والجمع العظيم من الناس الذي علموا شيئا استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة.

يقصد-رحمه الله-الرد على من ينكر من جهلاء أهل الكتاب معرفته برسول الله-صلى الله عليه وسلم-وكيف وصفهم القرآن بمعرفته التامة.

قال: والضمير في قوله: {يعرفونه} إلى ماذا يرجع؟ ذكروا فيه وجوها.

أحدها: أنه عائدٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس. أي يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم. [216]

عن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولِمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي وأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبل عمر رأسه.

وجاز الإضمار وإنْ لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته معلوم بغير إعلامٍ...

---

[215]() في ظلال القرآن 247/1

[216]() ورجَّح فخر الدين الرازي هذا القول لأسبابٍ ذكرها في تفسيره.

أخبر المؤمنين بحاله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية فقال: اعلموا يا معشر المؤمنين أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمدا وما جاء به وصدقه ودعوته وقبلته لا يشكون فيه كما لا يشكون في أبنائهم... وهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ} (الْأَعْرَافِ: 157) وَقَالَ عيسى عليه السلام: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصَّفِ: 6]. (217)

قال ابن عطية الأندلسي: وخصَّ الأبناء دون الأنفس وهي ألصقُ (قال: أبناءهم ولم يقل: أنفسهم)، لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهةٌ لا يعرف فيها نفسه (في أول عامٍ من عمره لا يكاد يميز نفسه في المرآة)، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه، والمراد هنا معرفة الوجه وتمييزه لا معرفة حقيقة النسب. (218)

وكما قال الزمخشري: أن ذلك يفيد المبالغة وحسن الاستعارة. وخص الأبناء الذكور لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق.

قلتُ-متأمله: وأرى أنَّ قوله {أبناءهم} من باب جمع التغليب الذي يشمل الذكور والإناث، فلا يحتاج حينئذٍ لتوجيه الرازي رحمه الله.

قالوا: وربما كان الضمير في قوله: {يعرفونه} راجعٌ إلى أمر القبلة.

أي: علماء أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة ونسخها كما يعرفون أبناءهم. وهو قول ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد وابن جريج.

قال الطبري (ولم يذكر سوى هذا المعنى): يعرف هؤلاء الأحبارُ من اليهود، والعلماءُ من النصارى أنَّ البيتَ الحرام قبلتُهم وقبلة إبراهيم وقبلةُ الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءَهم. (219)

قلتُ: وقد راعى الطبري رحمه الله ظاهر السياق أكثر من تأويله. وكان من عادته أن يوجه المعنى وفقا لقوانين داخلية في النص القرآني منها قرينة السياق. فتأمل.

---

[217]() انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 204)، وتفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 110)

[218]() تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 223)

[219]() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 187) وربما لم ينقل غيره ابن جرير الطبري لأن خبر عبد الله ابن سلام مع عمر إنما نقله محمد بن السائب الكلبي وهو متروك عند المحدثين. وللفائدة قال فيه ابن الجوزي في كتابه الضعفاء والمتروكون: مُحَمَّد بن السَّائِب بن بشير أَبُو النَّضر الْكَلْبِيّ الْكُوفِي قَالَ زَائِدَة وَلَيْث وَسليمَان التَّيْمِيّ هُوَ كَذَّاب وَقَالَ السَّعْدِيّ كَذَّاب سَاقِط وَقَالَ يحيى لَيْسَ بِشَيْء كَذَّاب سَاقِط وَقَالَ النَّسَائِيّ وَعلي بن الْجُنَيْد وَالدَّارَقُطْنِيّ مَتْرُوك الحَدِيث وَقَالَ ابْن حبَان وضوح الْكَذِب فِيهِ أظهر من ان يحتاح إِلَى الإغراق فِي وَصفه روى عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس التَّفْسِير وَأَبُو صَالح لم ير ابْن عَبَّاس وَلَا سمع مِنْهُ و لَا يحل الِاحْتِجَاج بِهِ.

قال الله تعالى: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} وذكر ذلك عن فَرِيقٍ (أى جماعةٍ فقط) مِنْهُمْ استثناءً لمن آمن منهم وهم الذين لا يكتمون الحق، أو لجهالهم الذين يقال فيهم: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ). والأول أولى لأنه قال {وهم يعلمون} أى عالمين بالحق ولأن سياق الخطاب كان لأحباهم وعلمائهم.

وتأمل دقة القرآن وإنصافه. فكما يُقال: آفة الأحكام التعميم.

قال القشيري في اللطائف: حملتهم مُسْتَكِنَّات الحسد على مكابرة ما علموه بالاضطرار، فكذلك المغلوب فى ظلمات نفسه، ألقى جلباب الحياء فلم ينجع فيه ملام، ولم يردعه عن انهماكه كلام. (220)

قال تعالى: **{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}** يُحتمل أن يكون الحق خبر لمبتدأٍ محذوف (أى هو الحق من ربك) والمعنى حينئذٍ: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك.

أو مبتدأ خبره (مِنْ رَبِّكَ) على معنى الحق من اللَّه لا من غيره. يعنى أن الحق ما ثبت أنه من اللَّه كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من اللَّه كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل. (221)

{فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} الشاكِّين في كتمانهم الحق مع علمهم، أو في أنه من ربك. (أفاده الزمخشري).

قلتُ-متأمله: كثر تفسير (الممترين) خطأً بالشاكِّين. فالحديث عن المراء حديث عن جدال ونهى الرسول عن المراء والامتراء في بعض المواضع هو نهى عن الجدال وحسم لمادته في أمورٍ شدَّد الله تعال على أنها من الثوابت التي لا تصلح لجدالٍ؛ فأصل الإيمان بها موجودٌ حتى في قلوب المشركين والمنكرين كما قال تعالى: **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)}** (النمل: 14).

ولذلك النهى عن المرية فيها هو نهىٌ عن التردد الذي يمثله اللين وجلسات الجدال؛ بل الصدع بالحق بكل قوةٍ، وهو حثٌّ قرآني وتجديدٌ لهِمَّة الرسول يفهمه أهل التربية في كل زمان.

وأما حين يحتج أحدهم بأنَّ وصف الشك ورد في كتاب الله مخاطبا رسوله حين قال تعالى في أكثر من آية {فلا تكن من الممترين} قلنا هو تجاهل للغة القرآن، واستعماله لدلالات الكلمات، فمعنى "الامتراء" هنا هو المحاجة والجدال للدفاع عن شئٍ فيه مرية إما لنصرة حق أو لنصرة باطل.

قال الراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ): **المِرْيَةُ: التّردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشّكّ.** قال تعالى: {وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} (الحج/ 55)، {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ} (هود/ 109)، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ

---

[220]() لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 135)

[221]() راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 205) بتصرف. وذلك هو تأثير الإعراب والتركيب النحوي- الذي قصده عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن النظم- في توجيه المعاني.

لِقائِهِ} (السجدة/ 23)، {أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ} (فصلت/ 54). والامتراء والمُمَارَاة: المحاجّة فيما فيه مرية. قال تعالى: {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم/ 34) أى يجادلون، {بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ} (الحجر/ 63)، {أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى}(النجم/ 12)أى أتجادلونه فيما يرى ، {فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً}(الكهف/ 22) أى لا تجادل .انتهى.(222)

فالواجب حينئذٍ التعمق في دلالات وخصوصية استعمالات لغة القرآن وليس مجرد الحل السطحي لمعاني الألفاظ، وهنا تكمن أجمل وأغنى لحظات التدبر لكلام الله سبحانه.

يقول الأستاذ سيد قطب-رحمه الله هنا كلاماً نفيسا:

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم -ما امترى يوما ولا شك. وحينما قال له ربه في آية أخرى: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ». قال: «لا أشك ولا أسأل»

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه -صلى الله عليه وسلم -يحمل إيحاء قويا إلى من وراءه من المسلمين.

سواء منهم من كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم، ومن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم.

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ونحن -في بلاهة منقطعة النظير -نروح نستفتي المستشرقين -من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار -في أمر ديننا، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا، وسيرة أوائلنا ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير.

إن هذا القرآن قرآننا. قرآن الأمة المسلمة. وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره.

وأهل الكتاب هم أهل الكتاب، والكفار هم الكفار. والدين هو الدين! (223)

*****

222 المفردات في غريب القرآن (ص: 766)

223() في ظلال القرآن 248/1.

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}

قال تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} ...

ليست كلمةً عاديةً وإنما هي كلمةٌ تُكتَبُ بماء الذهب في صدور المؤمنين، فعلى مستوى البلاغة تُضْرَبُ وتُرْسَلُ مثلاً لفصاحتها ورطانتها ورصانتها. وعلى مستوى الدلالة والمعنى فهى شعار أهل الإيمان في الفصل والفراق التام بين الحق والباطل، وحيثيات ذلك الصراع الطويل بين أهل الحق وأهل الضلال... {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}.

وبهذا يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل. يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات. مع تذكر أن مرجعهم إلى الله، وأن الله قدير على كل شي ء، لا يعجزه أمر، ولا يفوته شيء.

إنه الجد الذي تصغر إلى جواره الأقاويل والأباطيل.

وفي الآية تقريرٌ لطبيعة ما يرى من اختلاف الناس في اتجاهاتهم، فلكل وجهته التي يتجه إليها، وعلى المسلمين أن لا يبالوا كثيرا بهذه المشاهد المختلفة وليس عليهم إلّا أن يتسابقوا في عمل الخير ويسبقوا إليها معتقدين أنهم راجعون إلى الله وهو القادر على الإتيان بهم من أي مكان كانوا فيه ليوفيهم جزاء أعمالهم.

(يعني بقوله تعالى ذكره: "ولكلّ"، ولكل أهل ملة، فحذف واكتفى بدلالة الكلام عليه

عن ابن عباس قال: يعني بذلك أهلَ الأديان، فيقول: لكلٍّ قبلةٌ يرضَونها، ووجهُ الله تبارك وتعالى حيثُ تَوَجَّه المؤمنون. وذلك أن الله تعالى ذكره قال: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [سورة البقرة: 115].

(قلتُ: فلله درُّه من تكريمٍ للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم)

وأما "الوِجهة"، فإنها مصدر مثل "القِعدة" "المِشية"، من "التوجّه". وتأويلها: مُتوَجِّهٌ، يتوجَّه إليه بوَجهه في صلاته، ومعنى "التوْلية" هاهنا الإقبال، وكذلك يقال: "ولَّيت عنه"، إذا أدبرت عنه. ثم يقال: "ولَّيت إليه"، بمعنى أقبلت إليه مولِّيًا عن غيره. (224)

---

[224]() من تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 192) مختصرا.

والمعنى: ولكل أهل ملةٍ ودينٍ توجه يتوجهونه ويرضونه لأنفسهم في الصلاة وفي العقيدة وفي التشريع وفي المعاملات. كما قال تعالى: **{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** [المائدة: 48]

وعند القرطبي: الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما "شرعة ومنهاجا" سنةً وسبيلا. ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه، روي معنى ذلك عن قتادة. وقال مجاهد: الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام، وقد نسخ به كل ما سواه. (225)

وكان بعضهم يفسر الآية بمعنى آخر، وهو أن (لكلّ) شخص منّا وجهة من وجوه الخير، والله أقامه فيها، فواحد مجاهد وآخر صائم وآخر عالم وآخر حاج وآخر كثير الصدقة. ودليله قوله تعالى بعدها: {فاستبقوا الخيرات ...}. (226)

وليس بظاهرٍ فيما يبدو لي والله أعلم.

وفي الضمير «هو» قولان: أحدها: أنه يرجع إلى الله تعالى، فالمعنى: الله مولّيها إياهم، أي: أمرهم بالتوجه إليها.

والثاني: أنه يرجع إلى المتولي، فالمعنى: هو موليها نفسه، فيكون «هو» ضمير كلٍ.

والجمهور يقرءون: «مولّيها»، وقرأ ابن عامر، والوليد عن يعقوب: «هو مُوَلَّاها» بألف بعد اللام. أى يوليه الله إياها. وهذه القراءة تُرجِّح كون الضمير" هو" يعود على المتولي نفسه. فهى من باب تفسير القرآن بالقرآن، واستعمال القرائن الداخلية في النص لتوجيهه. فتأمل.

ويرى الاستاذ سيد قطب من وراء تلكم الآية معنى عجيبا يشير إلى عظمة الإسلام وشموليته وتغطيته لجانبي الروح والجسد، لكلا الجانبين الغيبي المستور في النفوس والمادي المحسوس على أرض الواقع. فالنفس البشرية تتوق إلى ترجمة شعورها واعتقاداتها وتصوراتها إلى شعائر وتعبدات ومناسك.

وهو ما تجده متكاملا في العبادات الإسلامية التي تجمع بين الاتجاه القلبي والاتجاه المادي ناحية القبلة والحركات.

لذلك جاء أمر القبلة ليكون ترجمةً عمليةً جسديةً تتخذها الجوارح لاتجاه القلب نحو شيءٍ محسوسٍ خصنا وميزنا الله تعالى به... (227)

---

225 تفسير القرطبي (6/ 211)

226() تفسير ابن عرفة (2/ 463) وكذا أفاده الراغب الأصفهاني في تفسيره.

227() راجع في ظلال القرآن (1/229– 234).

فكما يقول ا/ سيد قطب نصاً: في كل حركةٍ عبادةٌ وفي كل عبادةٍ حركةٌ.

يقول: فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان في التوجه إلى الله تعالى ....

فهذا التميز تلبيةً للشعور بالامتياز والتفرد كما أنه بدوره ينشىء شعورا بالامتياز والتفرد. [228]

****

[228]() المصدر السابق (234/1).

يقول تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)}.

لا مِراءَ مع أهل الكتاب، ولا التفاتَ إلى ما يرجف به المنافقون في شأن القبلة وتحول المسلمين إلى البيت الحرام، وإذن فالمسجد الحرام هو قبلتك أيها النبي، تتجه إليه أينما كنت، في الحضر أو في السفر، فذلك الأمر هو الحق المنزل إليك من ربّك، الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. [229]

*****

يعود السياق فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويـع التعقيب.

وقد كرر سبحانه هذا الأمر ثلاث مرات تأكيدا لأهمية هذا الموضوع حتى تنقطع حجة أهل الكتاب والمشركين ومن تبعهم من المنافقين، الا الذين ظلموا منهم فلن ينقطع جدالهم وضلالهم. وسيظل اليهود يقولون: ما تحوّل الى الكعبة الا حباً لبلده، ولو كان على حق للزم قبلة الأنبياء الذي قبله. ويقول المشركون: رجع الى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا. ويقول المنافقين: انه متردد مضطرب لا يثبت على قبلة. لا تبالوا بمثل هؤلاء، فان مطاعنهم لا تضركم، واخشوني ولا تخالفوا أمري. بذلك أتم نعمتي عليكم، لعلكم تهتدون. [230]

(ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديدا في كل مرة. في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه

إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول -صلى الله عليه وسلم -بعد تقلب وجهه في السماء وضراعته الصامتة إلى ربه.

وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه يوافق الرغبة والضراعة.

وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس، والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة.) [231]

******

قال تعالى: {**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)**}

---

[229]() التفسير القرآني للقرآن (1/ 172)

[230]() تيسير التفسير للقطان (1/ 79، بترقيم الشاملة آليا)

[231]() في ظلال القرآن 249/1.

قد ورد في الآيات الأمر بتولية الرسول والمؤمنين وجوههم شطر المسجد الحرام، وهو تكرار تطلّبه المقام فكان من مقتضيات الحال التي يوجبها الكلام البليغ الرفيع، ومن مقتضيات الحال إسكات السفهاء وقطع الطريق عليهم ورفع معنويات المؤمنين حيت تأثر بعضهم بما أثاره اليهود والمنافقون والمشركون حول تحويل القبلة. [232]

كما تقول للرجل: ءأنت قلتَ كذا وكذا؟ فيرد مؤكد قلته وأقوله مرةً ومرةً ومرةً.

وكلمة (الناس) هنا مقصودٌ بها المنافقون واليهود والمشركون، فالألف واللام للعهد. وهى مثل قوله عليه السلام في الصحيحين: " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله". فالمقصود بها المشركون اللذين حاربوه وجابهوا دعوته بالعناد وصد الناس عنها.

{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلا الذين ظلموا منهم} فإنهم لعنادهم ولَدَدِهم (شدة خصومتهم وفجورهم) لا يرجعون إلى الحق الذي يعرفونه؛ بل يكون لهم عليكم مجرد كلام هو مادة الحجة لا حجة حقيقية تستحق النقاش، وذلك بما دل عليه وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله، ويكون الاستثناء على هذا منقطعاً بمعنى: (لئلا يحتجَّ أحدٌ عليكم لكنْ الذين ظلموا يقولون أو يظهرون فجوراً ولدداً في ذلك كلاماً يسمونه حجة. (أفاده البقاعي في نظم الدرر).

«فَلا تَخْشَوْهُمْ .. وَاخْشَوْنِي»

فلا سلطان لهم عليكم، ولا يملكون شيئا من أمركم، ولا ينبغي أن تهتموا فتميلوا عما جاء كم من عندي، فأنا الذي أستحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة. ومع التهوين من شأن الذين ظلموا، والتحذير من بأس الله، يجيء التذكير بنعمة الله، والإطماع في إتمامها على الأمة المسلمة، حين تستجيب وتستقيم:

{وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

(وهو تذكيرٌ موحٍ، وإطماعٌ دافع، وتلويحٌ بفضلٍ عظيمٍ بعد فضلٍ عظيم.

ولقد كانت النعمة التي يذكرهم بها حاضرة بين أيديهم، يدركونها في أنفسهم، ويدركونها في حياتهم، ويدركونها في مجتمعهم وموقفهم في الأرض ومكانهم في الوجود.

كانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية بظلامها ورجسها وجهالتها، ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى نور الإيمان وطهارته ومعرفته. فهم يجدون في أنفسهم أثر النعمة جديدا واضحا عميقا.

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية قبائل متناحرة، ذات أهداف صغيرة واهتمامات محدودة.

---

[232]() أيسر التفاسير للجزائري (1/ 131)

ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى الوحدة تحت راية العقيدة، وإلى القوة والمنعة، وإلى الغايات الرفيعة والاهتمامات الكبيرة التي تتعلق بشأن البشرية كلها لا بشأن ثأر في قبيلة! فهم يجدون أثر النعمة من حولهم كما وجدوه في أنفسهم.

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية في مجتمعٍ هابطٍ دَنِس مشوش التصورات مضطرب القيم.

ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى مجتمع الإسلام النظيف الرفيع، الواضح التصور والاعتقاد، المستقيم القيم والموازين.

فهم يجدون أثر النعمة في حياتهم العامة كما وجدوه في قلوبهم وفي مكانهم من الأمم حولهم.) [233]

****

[233]() في ظلال القرآن 249/1.

نعمةٌ وتذكيرٌ.

قال تعالى: {كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} (البقرة 151، 152)

(والذي يلفت النظر هنا، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل. دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت، رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مُستحدَثا إنما هو قديم وأنَّ قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم، وأنَّ نعمة الله عليهم سابغةٌ.

فهي نعمة الله التي وعدها خليله-إبراهيم-وعاهده عليها منذ ذلك التاريـخ البعيد.

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم الإسلامية هي إحدى الآلاء المطَّرِدَة فيكم، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم) [(234)]

ومن مباحث اللغة:

(الكاف) حرفٌ يستعمل أحيانا في تشبيه شخصاً بشخصٍ، أو شيئاً بشيءٍ، أو حالةٍ بحالةٍ. فتقول محمد كمحمودٍ في الخلق، أو الصبر كالشكر في الفضل، أوكتب محمد المقال كما تأمله. فشبه حاله في الكتابة كحاله في التأمل.

وهذه الآية من النوع الأخير، واختلف العلماء لأي شيءٍ تعود الكاف. [(235)]

---

[234]() نفس المصدر 252/1.

[235]() الكاف حرفٌ من حروف المعاني = التي لها معاني في ذاتها[= كلمة وظيفيَّة]، وَتَكون جَارةً لما بعدها، وَغير جَارة، ولها معانٍ:

1 –حرف جرّ يفيد التَّشبيه "تصرّف كما يجب–هو كالحديد صلابة– {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} ".

2 –حرف جرّ زائد، يفيد التوكيد "أنا كباحث أقرّ هذا الرأي– {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: التقدير: ليس شيء مثله".

3 –حرف جرّ يفيد التعليل " {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ}: لهدايته إيَّاكم".

فقالوا: هى متعلقةٌ بما قبلها.

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "كما أرسلنا فيكم رسولا"، ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملتكم الحنيفية، وأهديَكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دَعوتَه التي دعاني بها ومسألتَه التي سألنيها فقال: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [سورة البقرة: 128] ، كما جعلت لكُم دعوته التي دعاني بها، ومسألته التي سألنيها فقال: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [سورة البقرة: 129] ، فابتعثت منكم رَسولي الذي سألني إبراهيمُ خليلي وابنُهُ إسماعيل، أنْ أبعثه من ذرّيتهما. [236]

قلتُ-متأمله: وهو جيد في تقرير المناسبة بين الآيات وربطها في خط منطقيٍ واحدٍ متسق.

أو قيل: تعود على قوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} أي ولأتم نعمتي عليكم في الدنيا بحصول الشرف، وفي الآخرة بالفوز بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم. (ذكره الفخر الرازي)

قلتُ: وهى من باب الوعد بالنصر وإتمام النعمة على المسلمين.

واختار (الزجَّاجُ) أن تكون (كَمَا) متعلقة بقوله عزَّ وجلّ: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ). أي فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكُمْ رسولا...الآية. [237] ورده الطبري في نقاشٍ لغوي ونحوي جيدٍ ثم قال: وهذا القولُ وإن كان مذهبًا من المذاهب، فليس بالأسهل الأفصح في كلام العرب. والذي هو أولى بكتاب الله عز وجل أن يوجَّه إليه من اللغات، الأفصح الأعرفُ من كلام العرب، دون الأنكر الأجهل من منطقها. هذا، مع بعد وجهه من المفهوم في التأويل. [238]

*****

{كما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ...}.

---

4 -حرف جرّ بمعنى (على) يفيد الاستعلاء "كن كما أنت: كن على الحال الذي أنت عليه".

5 -حرف خطاب يلحق اسمَ الإشارة مثل (ذاك، ذلك، تلك) والضمير المنفصل مثل (إيّاكَ، إيّاكِ)، وبعض أسماء الأفعال مثل (رويدك) "رويدك يا عمر-{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} - {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ".

6-ضمير مَنْصُوب أَو مجرور نَحْو {مَا وَدعك رَبك} فالكاف الأولى في محل نصب مفعول به، والثانية في محل خفض مضاف إليه.

انظر معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1887) والمعجم الوسيط (2/ 771)

[236]() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 208)

[237]() معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 227)

[238]() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 209)

(فهو- إذن- التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الرسول الأخير منكم، وقد كانت اليهود تستفتح به عليكم يقولون يخرج نبى فتبعه ونقتلكم قتل عادٍ وإرم!

يقول الله تعالى: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا»

فما يتلوه عليكم هو الحق. والإيحاء هنا هو الإشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله. وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته.

فمَن هم هؤلاء الناس؟ مَن هم وما هم حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته، ويتحدث إليهم بقوله العظيم، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة؟

مَن هم وما هم لولا أن الله يتفضل؟ ولولا أن فضل الله يفيض؟

قال تعالى: «وَيُزَكِّيكُمْ»

ولولا الله ما زكي منهم من أحد، ولا تطهر ولا ارتفع. ولكنه أرسل رسوله -صلى الله عليه وسلم -يطهرهم.

يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، ورجس الفلسفات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره.

ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة.

والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديما وحديثا يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزري بإنسانية الإنسان، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة، وهي أنظف كثيرا مما يهبط إليه الناس بدون الإيمان!

ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب، وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة.

ويطهر حياتهم من الظلم والبغي.

وينشر العدل النظيف الصريح، الذي لم تستمتع به البشرية كما استمتعت في ظل الإسلام وحكم الإسلام ومنهج الإسلام.

{...وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}

وكان هذا القرآن -مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن -هو مادة التوجيه والتعليم. وكان مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم -الذي يُتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن -هو الجامعة الكبرى التي تخرج فيها ذلك الجيل الذي قاد البشرية... وما يزال هذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان، لو رجعت الأمة المسلمة إلى

هذا المعين، ولو آمنت حقا بهذا القرآن، ولو جعلته منهجا للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان! (239)

الذكر والشكر وجذورهما في قضية الإيمان.

{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152]

أمرٌ وجزاءٌ، أو شرطٌ ونتيجةٌ {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} ... يقول لعباده سبحانه-وهو الغني عنهم المتفضل عليهم بكل شيءٍ-: اذكروني فأذكركم، أو إنْ تذكروني أذكركم.

وأيُّ خَلْقٍ هذا الذي يستحق أنْ يبادله الله تعالى ذكراً بذكرٍ؟ بل أى شرفٍ وأى كرامةٍ على الله أنْ يكون لك في ربك نصيبٌ إنْ ذكرتَهُ ذكركَ برحمته وبره وثوابه وحبه؟!

وقال بعض العلماء: لما خَصَّ الله هذه الأمة بفضلٍ على بني إسرائيل، قال لبني إسرائيل: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، فأمرهم بتذكر نعمته المُشعِرة بغفلتهم وجحودهم. وقال لهذه الأمة مُكَرِّماً: {فاذكروني}، مشرِّفاً لهم بذكر ذاته الشريفة بلا واسطةٍ، رفعاً لهم عن طلب النعمة إلى طلب المُنعِم.

"قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ -أَوْ قَالَ: فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ -وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ أُهَرْوِلُ". (240)

ذكروا في شرحه:

قوله: (إن ذكرتني في نفسك) أي سرا وإخلاصا وتجنبا للرياء (ذكرتك في نفسي) أي أُسِرُّ بثوابك على قدر إخلاصك، وأتولى بنفسي إثابتك لا أتركه لأحدٍ من خلقي فهو وارد على منهج المشاكلة.

أو المعنى: إنْ خلوتَ بذكري أخليتُ سرك عن سوايَ، وإن أخفيت ذكرك إجلالا لي أخفيتكَ في غيبي فلا ينالك مكروهٌ.

وقوله: (وإن ذكرتني في ملأ) افتخارا بي وإجلالا لي بين خلقي (ذكرتك في ملأٍ خيرٍ منهم) أي ملأ الملائكة المقربين مباهاةً بكَ وإعظاما لقدرك.

وخيرية الملائكة من جهة أن حالتهم واحدة في الطاعة أما المؤمنون فهم بين طاعة ومعصيةٍ، وهِمةٍ وفترة، وجد وتقصير. والملأ الذي عنده سبحانه لا يعصون الله بحالٍ. وقد تمسك بهذا الحديث مَن فضل الملائكة

239() في ظلال القرآن 254/1 بتصرف يسير.

240() حديثٌ قدسي صحيح رواه الإمام أحمد في المسند والإمام البخاري في الصحيح عن أنس رضى الله عنه.

على البشر. وقوله: (وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول) يعني من دنا إلي وقرب مني بالاجتهاد والإخلاص في طاعتي قرَّبته بالهداية والتوفيق. وإن زاد زدتُ.

وقربُهُ –سبحانه-من خلقه أقسام ثلاثة:

قرب العامة وهو قرب العلم {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19]. وقرب الخاصة وهو قرب الرحمة {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186]، {نَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56]. وقرب خاصة الخاصة وهو قرب الحفظ والرعاية {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سبأ: 50] انتهى [241]

قلتُ وهي نفس أقسام معية الله تعالى. والله أعلم

وقد فسر قتادة-رحمه الله-وهو أحد رواة هذا الحديث تقرب الله تعالى إلى العبد بالمغفرة والرحمة. [242]

قال القرطبي-رحمه الله: وَأَصْلُ الذِّكْرِ التَّنَبُّهُ بِالْقَلْبِ لِلْمَذْكُورِ وَالتَّيَقُّظُ لَهُ. وَسُمِّيَ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ ذِكْرًا لِأَنَّهُ دَلَالَةٌ عَلَى الذِّكْرِ الْقَلْبِيِّ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَ إِطْلَاقُ الذِّكْرِ عَلَى الْقَوْلِ اللِّسَانِيِّ صَارَ هُوَ السَّابِقَ لِلْفَهْمِ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: اذْكُرُونِي بِالطَّاعَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ وَالْمَغْفِرَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وقال أيضا: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ وَإِنْ أَقَلَّ صَلَاتَهُ وَصَوْمَهُ وَصَنِيعَهُ لِلْخَيْرِ وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ وَإِنْ كَثَّرَ صَلَاتَهُ وَصَوْمَهُ وَصَنِيعَهُ لِلْخَيْرِ)، ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادَ فِي" أَحْكَامِ الْقُرْآنِ" لَهُ. انتهى [243]

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب.

---

[241]() فيض القدير للعلامة المناوي (4/ 495) باختصار وتصرف.

قال النووي–رحمه الله–: وهذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره.

قال: ومعناه من تقرب إلى بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زادت، فإن أتاني يمشي أتيته هرولة، أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه. والله أعلم.

242() وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ–رحمه الله–: {اذْكُرُونِي} بِطَاعَتِي {أَذْكُرْكُمْ} بِمَغْفِرَتِي، ورَحْمَتِي. راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 464)

[243]() تفسير القرطبي (2/ 171)

وذكر الله ليس لفظا باللسان وحسب، إنما هو انفعال القلب وشوقه، والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثرا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية الله وحده من وراء كل حركةٍ وكل فعلٍ وكل طاعة ...

ولذلك روى ابن كثيرٍ في إشارة لطيفةٍ لهذا المعنى **عن مَكْحُولٍ الْأَزْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ-رضى الله عنهما-: أَرَأَيْتَ قَاتِلَ النَّفْسِ، وَشَارِبَ الْخَمْرِ وَالسَّارِقَ وَالزَّانِي يَذْكُرُ اللَّهَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}؟**

قَالَ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ هَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ بِاللعنةِ حَتَّى يَسْكُتَ.

إن ادعاء الذكر واللهج به بلسانٍ زلقٍ على قلبٍ غافلٍ تملأه المعاصي هو استهزاءٌ من هذا المدعي يستوجب اللعنة التي ذكرها ابن عمرٍ رضى الله عنهما.

والذكر بهذا المعنى لفظٌ واسعٌ يشمل ذكر القلب وتقلبه في نعيم العبودية والإخلاص واللجأ إلى الله تعالى، وذكر اللسان الذي يرطب بتقديس الله ودعائه وحمده، وذكر الجوارح التي تنقاد إلى أمر الله تعالى طاعةً وبذلاً في سبيله.

الذكر معنىً كبيرٌ من معاني الارتباط بالله تعالى توحيداً واتجاهاً وركوناً إليه سبحانه.

قال ابن القيم رحمه الله:

(وَالذِّكْرُ مَنْشُورُ الْوِلَايَةِ الَّذِي مِنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ الَّذِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الْأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُورًا، وَهُوَ سِلَاحُهُمُ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، وَمَاؤُهُمُ الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ الْتِهَابَ الطَّرِيقِ وَدَوَاءُ أَسْقَامِهِمِ الَّذِي مَتَى فَارَقَهُمُ انْتَكَسَتْ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ، وَالسَّبَبُ الْوَاصِلُ وَالْعَلَاقَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوِينَا بِذِكْرِكُمْ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ.

بِهِ يَسْتَدْفِعُونَ الْآفَاتِ وَيَسْتَكْشِفُونَ الْكُرُبَاتِ وَتَهُونُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْمُصِيبَاتُ، إِذَا أَظَلَّهُمُ الْبَلَاءُ فَإِلَيْهِ مَلْجَؤُهُمْ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النَّوَازِلُ فَإِلَيْهِ مَفْزَعُهُمْ. فَهُوَ رِيَاضُ جَنَّتِهِمُ الَّتِي فِيهَا يَتَقَلَّبُونَ ورؤوس أَمْوَالِ سَعَادَتِهِمُ الَّتِي بِهَا يَتَّجِرُونَ. يَدَعُ الْقَلْبَ الْحَزِينَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا، وَيُوصِّلُ الذَّاكِرَ إِلَى الْمَذْكُورِ، بَلْ يَدَعُ الذَّاكِرَ مَذْكُورًا.

وَفِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنَ الْجَوَارِحِ عُبُودِيَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ، بَلْ هُمْ مَأْمُورُونَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ: قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ. فَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ قِيعَانٌ وَهُوَ غِرَاسُهَا، فَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ بُورٌ وَخَرَابٌ وَهُوَ عِمَارَتُهَا وَأَسَاسُهَا.

وَهُوَ جَلَاءُ الْقُلُوبِ وَصِقَالُهَا وَدَوَاؤُهَا إِذَا غَشِيَهَا اعْتِلَالُهَا، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الذَّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا: ازْدَادَ الْمَذْكُورَ مَحَبَّةً إِلَى لِقَائِهِ وَاشْتِيَاقًا، وَإِذَا وَاطَأَ فِي ذِكْرِهِ قَلْبُهُ لِلِسَانِهِ: نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ وَحَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ وَكَانَ لَهُ عِوَضًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَهُوَ بَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الْمَفْتُوحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْلِقْهُ الْعَبْدُ بِغَفْلَتِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فِي الصَّلَاةِ وَفِي الذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْبَابَ مُغْلَقٌ). [244]

وفي الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُمِرَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يُبَلِّغَهُنَّ وَيُعَلِّمَهُنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ،...وفيه قال عليه السلام: وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذِكْرِ اللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ فَارًّا مِنَ الْعَدُوِّ وَهُمْ يَطْلُبُونَهُ حَتَّى لَجَأَ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَفْلَتَ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ لَا يُحْرِزُ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ». [245]

(وفي الموطأ) قال مالك-رحمه الله-بسنده: «قال معاذ بن جبل: مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

(وفيه أيضا) قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ لَكُمْ، أَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ. [246] **والوَرِقُ هو الفِضَّة.**

(وفيه) قال عيسى بن مريم صلى اللّه على نبينا وعليه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من اللّه تعالى» رواه مالك بلاغاً. [247]

وفي الحديث (المُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".

وروى أَبُو الدَّرْدَاءِ مرفوعا وموقوفا: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ، وَالْعَالِمُ، وَالْمُتَعَلِّمُ فِي الْخَيْرِ شَرِيكَانِ، وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ» [248]

---

[244]() انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 395).

[245]() قال الشيخ الألباني (صحيح) ... روا أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وغيرهم عن الحارث ابن الحارث الأشعري.انظر صحيح الجامع 1725، صحيح الترغيب 553، المشكاة 3694.

[246]() صحيح. رَوَاهُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ إِلَّا أَنَّ مَالِكًا وَقفه على أبي الدَّرْدَاء، وصححه الشيخ الألباني في تحقيق المشكاة 2269. وتخريج الترغيب 1493. وصحيح الجامع 2629. وصحيح الترمذي 3377، وصحيح ابن ماجة (2790).

[247]() موطأ مالك ت الأعظمي (1/ ، 294،295، 264)

[248]() (حسن- السلسلة الصحيحة 2797) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ

رَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). [249]

وَخُرِّجَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ). [250]

كان هذا غيضاً من فيض الأحاديث التي تبين عظمة الذكر وأهميته في حياة المؤمن الذي يسير في الحياة كلها محاطا برعاية ربه يذكره في كل حينٍ يستعين به على ما ألمَّ به من خيرٍ او شرٍ ويسير على نور توفيقه الصادر من تفضله تعالى بذكر عباده الذاكرين له. [251]

ذكرُ الله تعالى هو رؤيته قبل كل حركةٍ وقبل كل فعلٍ. لأن عكس الذاكر الناسي الغافل الذي يتصرف وكأنه لا ربَّ له ولا إله يوجهه يأمره وينهاه.

وهذا بعينه أول الكفر؛ كفرٌ لنعم الله تعالى التي أنعم بها على عبده فصار يستعملها في مخالفة أمره.

لذلك عقَّب السياق الأمر بالذكر بأمر الشكر، ثم ألمح أنَّ النكوص عن الذكر والشكر هو في الحقيقة كفرٌ أو حتى أول الكفر.

******

«وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ».

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ، وَوَعَدَ عباده عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ، فَقَالَ: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إِبْرَاهِيمَ: 7].

والشكر لله درجاتٌ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته. وتنتهي بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن، وفي كل لفظة لسان، وفي كل خفقة قلب، وفي كل خطرة جنان.

والنهي عن الكفر هنا إلماعٌ إلى الغاية التي ينتهي إليها التقصير في الذكر والشكر وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهي إليها هذا الخط التعيس! والعياذ بالله!

249() (صحيح) [رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم] عن عبد الله بن بسر.وصححه الألباني في صحيح الجامع 7700، وتخريج الكلم الطيب 3، صحيح الترغيب 227/2.

250() رواه ابن ماجه –واللفظ له– وابن حبان في "صحيحه". وصححه الألباني وقال صحيح لغيره . ((التعليق الرغيب)) (2/ 227).

251() ويكفي كثيرا مراجعة كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية الكلم الطيب، والوابل الصيب عليه لتلميذه ابن قيم الجوزية عليهما سحائب الرحمة.

والشكرُ هو انفعالُ القلبِ واللسانِ والجوارح اعترافاً بتفضل الله الكريم بكل النعم ظاهرةً وباطنةً، كبُرتْ أو دَقَّتْ.

هذا الانفعال يشبه ظهور أثر النعمة على المُنْعَم عليه.

(قَالَ الْفَرَّاءُ يُقَالُ: شَكَرْتُكَ وَشَكَرْتُ لَكَ، وَنَصَحْتُكَ وَنَصَحْتُ لَكَ، وَالْفَصِيحُ الْأَوَّلُ. وَالشُّكْرُ مَعْرِفَةُ الْإِحْسَانِ وَالتَّحَدُّثُ بِهِ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الظُّهُورُ). [252]

(يُقال شكرت الناقة إذا ظهر عليها السِمَن من أثر العلَف)

(فإن قيل: ما الفرق بين شكرتُ لزيدٍ، وشكرت زيداً؟

قيل: شكرت له هو أن يعتبر إحسانه الصادر عنه فيثنى عليه بذلك.

وشكرته: إذا لم تلتفت إلى فعله، بل تجاوزت إلى ذكر ذاته دون اعتبار أفعاله، فهو أبلغ من شكرت له، إذ قد يكون للإنسان فعل في الظاهر محمودٌ، ثم لا يكون ذلك الإنسان على الإطلاق محموداً.

(فجعل شكرتُهُ بمعنى حمدته، وفرَّق بينها وبين شكرتُ له)

وإنما قال تعالى: (واشكروا لي)، ولم يقل: (واشكروني) علماً بقصورهم عن إدراكه بل عن إدراك كل نعمه كما قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له.

وشكر الله عز وجل-أصعبُ عبادةٍ وأشرفها، ولهذا قيل: غايةُ شكرِ الله الاعترافُ بالعجز عن وفاء شكره، فكلُّ نعمةٍ يمكن شكرها، فإن شكرها نعمةٌ منه، لأن ذكرها وشكرها هو بتوفيقه، وإن العبد-حينئذٍ-مُحتاجٌ أن يشكر نعمته الثانية بالشكر كشكره للأولى، وهدا يؤدي إلى مالا يتناهَى شكراً بشكرٍ، فلهذا قيل: لا يقدر عبدٌ على شكر الله تعالى.

قلتُ: ولهذا المعنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخْطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفسك». رَوَاهُ مُسلم.

ولصعوبة الشكر قال: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}، فذكر ذلك بلفظِ القلة تنبيهاً على شرف هذه المنزلة وصعوبتها ...) [253]

وأيُّ شيءٍ أبلغ في وصف عظمة هذه الخُلَّةِ من أنَّ صاحبها يرضى الله تعالى عنه بشكره أكلةً وشَرْبة ماء!

---

[252]() تفسير القرطبي (2/ 172)

[253]() مستفاد من تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 344) بتصرف.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ مَكْحُولٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: 8]، قَالَ: بَارِدُ الشَّرَابِ، وَظِلُّ الْمَسَاكِينِ، وَشِبَعُ الْبُطُونِ، وَاعْتِدَالُ الْخَلْقِ.

يومئ إلى نعمٍ كثيرةٍ ربنا يستقلها الناس وهم مسؤولون عن شكرها لا ريب.

فالشكر للمؤمن منهج حياة. وكما حققنا في أول تفسير هذه السورة المباركة أنَّ من أهم مقاصد ومحاور سورة البقرة هى بناء الأمة المسلمة على منهجٍ قويمٍ وأساساتٍ متينة.

والذكر والشكر من أساسيات ارتباط المؤمن بنقائه الروحي الذي يعد أساسا لانطلاقه في الحياة.

(وَيُقَالُ: الشُّكْرُ عَلَى وَجْهَيْنِ: شُكْرٌ عَامٌّ، وَشُكْرٌ خَاصٌّ.

فَأَمَّا الشُّكْرُ الْعَامُّ فَهُوَ الْحَمْدُ بِاللِّسَانِ، وَأَنْ يَعْتَرِفَ بِالنِّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا الشُّكْرُ الْخَاصُّ، فَالْحَمْدُ بِاللِّسَانِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِالْقَلْبِ، وَالْخِدْمَةُ بِالْأَرْكَانِ، وَحِفْظُ اللِّسَانِ، وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ عَمَّا لَا يَحِلُّ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: الشُّكْرُ الْعَمَلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} [سبأ: 13] يَعْنِي اعْمَلُوا عَمَلًا تُؤَدُّونَ بِهِ شُكْرًا.

وتَمَامُ الشُّكْرِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَوَّلُهَا: إِذَا أَعْطَاكَ اللَّهُ شَيْئًا، فتعرف الَّذِي أَعْطَاكَ فَتَحْمَدُهُ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ تَرْضَى بِمَا أَعْطَاكَ.

وَالثَّالِثُ: مَا دَامَ مَنْفَعَةُ ذَلِكَ الشَّيْءِ مَعَكَ، وَقُوَّتُهُ فِي جَسَدِكَ لَا تَعْصِهِ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ: **«خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ شَاكِرًا صَابِرًا، إِحْدَاهُمَا أَنْ يَنْظُرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَيَقْتَدِي بِهِ، وَيَنْظُرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَيَحْمَدَ اللَّهَ».** [254]

---

[254]() تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: 448). والحديث الأخيرعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شاكراً: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا. وَمَنْ

(ومَنْزِلَةُ الشُّكْرِ مِنْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ. وَهِيَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرِّضَا وَزِيَادَةٌ. فَالرِّضَا مُنْدَرِجٌ فِي الشُّكْرِ. إِذْ يَسْتَحِيلُ وُجُودُ الشُّكْرِ بِدُونِهِ.

وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ -كَمَا تَقَدَّمَ -وَالْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفُ شُكْرٌ. وَنِصْفُ صَبْرٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

وَنَهَى عَنْ ضِدِّهِ، وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ. وَوَصَفَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ. وَجَعَلَهُ غَايَةَ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ. وَوَعَدَ أَهْلَهُ بِأَحْسَنِ جَزَائِهِ.

وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ. وَحَارِسًا وَحَافِظًا لِنِعْمَتِهِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِآيَاتِهِ. وَاشْتَقَّ لَهُمُ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الشَّكُورُ وَهُوَ يُوَصِلُ الشَّاكِرَ إِلَى مَشْكُورِهِ بَلْ يُعِيدُ الشَّاكِرَ مَشْكُورًا.

وَهُوَ غَايَةُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ. وَأَهْلُهُ هُمُ الْقَلِيلُ مِنْ عِبَادِهِ...

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 17]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7] وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: 5]

وَسَمَّى نَفْسَهُ شَاكِرًا وَشَكُورًا وَسَمَّى الشَّاكِرِينَ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمْ مِنْ وَصْفِهِ. وَسَمَّاهُمْ بِاسْمِهِ. وَحَسْبُكَ بِهَذَا مَحَبَّةً لِلشَّاكِرِينَ وَفَضْلًا.

نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَأَسِفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا ". رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وقال حديث غريب أراه يضعفه.

وقال الألباني في (السلسلة الضعيفة 633): لا أصل له بهذا اللفظ. ويغني عن هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: " انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ". رواه مسلم والترمذي وصححه، وهو عند البخاري (10 / 270) نحوه.

وَإِعَادَتُهُ لِلشَّاكِرِ مَشْكُورًا. كَقَوْلِهِ: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: 22] وَرِضَا الرَّبِّ عَنْ عَبْدِهِ بِهِ. كَقَوْلِهِ: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7] وَقِلَّةُ أَهْلِهِ فِي الْعَالَمِينَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ خَوَاصُّهُ. كَقَوْلِهِ: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَّهُ قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ. فَقِيلَ لَهُ: تَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» .

«وَقَالَ لِمُعَاذٍ وَاللَّهِ يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: **اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: **اللَّهُمَّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ. وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ. وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ بِي. وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي. وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ. رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا لَكَ ذَكَّارًا لَكَ رَهَّابًا لَكَ مُطَاوِعًا لَكَ مُخْبِتًا إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي. وَاغْسِلْ حَوْبَتِي. وَأَجِبْ دَعْوَتِي. وَثَبِّتْ حُجَّتِي. وَاهْدِ قَلْبِي. وَسَدِّدْ لِسَانِي. وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**».

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ. وَحُبُّهُ لَهُ. وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ. وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا. وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ.

فَهَذِهِ الْخَمْسُ: هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ. وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا. فَمَتَى عُدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةٌ: اخْتَلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قَاعِدَةٌ.

وَكُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الشُّكْرِ وَحْدَهُ، فَكَلَامُهُ إِلَيْهَا يَرْجِعُ. وَعَلَيْهَا يَدُورُ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ -وَقَدْ سَأَلَهُ سَرِيٌّ عَنِ الشُّكْرِ، وَهُوَ صَبِيٌّ- **الشُّكْرُ: أَنْ لَا يُسْتَعَانَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.** فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ مُجَالَسَتِكَ.

وَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 7] فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ. فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ.

وَقِيلَ: مَنْ كَتَمَ النِّعْمَةَ فَقَدْ كَفَرَهَا. وَمَنْ أَظْهَرَهَا وَنَشَرَهَا فَقَدْ شَكَرَهَا.

وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».**

وَفِي هَذَا قِيلَ:

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكْرِيَ صَامِتٌ ... عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرَّكَ نَاطِقُ

وَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا ... إِنِّي إِذًا لِنَدَى الْكَرِيمِ لَسَارِقُ.... (255)

الصبر واليقين.

قال الله تعالى:

{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)}

الآيات (153-157)

بَنَت الآيات -في رأيي- بناءا منطقيا عجيباً متسقا، فعقب هذه الحملة القرآنية المنظمة لتشييد الشخصية المسلمة التي يقع على عاتقها حمل راية التوحيد والإصلاح إلى يوم القيامة، تلك الحملة التي أكدت على تمايز وجهة المؤمنين ومنهجهم وسبيلهم إلى الله، ومخالفتهم لنهج أهل الزيغ والضلال؛ في حديثٍ- فصَّلناه في الآيات السابقة- عن القبلة وعمقها المعنوي في حياة الأمة ...

بعد تلك الحملة يجيء التجهيز والتمهيد لمشاقِّ حمل راية الحق والدفاع عنها، فتجيء الإشارة اللطيفة العميقة للحرب الضروس الممتدة على أهل الحق، ومن ثَمَّ تجهيزهم بعُدَّة الصبر والصلاة، وتحمل الجهاد في سبيل دعوتهم التي لن تعدم عدوا من المشركين والكفار والمنافقين والظالمين، ولكن العاقبة دائما للصابرين الصامدين على الحق.. ويجيء هنا الاتساق القرآني مع مضمون سورة العصر في وصف المؤمنين بأنهم الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

*****

تحليل الآيات.

قال الله سبحانه وتعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)}.

{يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ} وصفَهم بالإيمان مدحاً لهم على تلقيهم ما آتاهم ربهم من شرف حمل الراية بالقبول والطاعة عقب فتنة تحويل القبلة، وتنشيطاً لهم وحثاً على مراعاة ما يعقُبه من الأمر، فالإيمان ليس طريقاً

[255]() راجع مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 232) فإن به كلاما رائعا.

مفروشا بالورود، وليس ادعاءً بلا تمحيص، ولذلك قال لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم {استعينوا} في كل شيءٍ، والاستعانة بالله هي طلب المعونة من الله القدير الخبير سبحانه، وهى من علامات صحة التوحيد، وقوة الإيمان، والاستعانة هنا وسيلتها {بالصبر} أرشد تعالى المؤمنين، إثر الأمر بذكر الله تعالى وبالشكر في الآية قبلها، بالاستعانة بالصبر والصلاة. لأن العبد إما أن يكون في نعمةٍ فيشكر عليها. أو في نقمة فيصبر عليها. كما جاء في الحديث صحيح:" عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيرا له. وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيرا له". (رواه مسلم وأحمد).

وبيّن تعالى أن أجود ما يُستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله، الصبر والصلاة، وفي الحديث الصحيح:" أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا حزبه أمر صلّى". وحزبه أي أهمه وشغله. (رواه أحمد).

وحث على الصلاة وهي المقتضية للخشوع والداعية إلي ترك الفحشاء قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}. وهي أمُّ العبادات ومِعراجُ المؤمنين ومناجاةُ ربِّ العالمين. [256]

فالصلاة تقوي المؤمن على الصبر والشكر والطاعة وتشحن طاقته الإيمانية النورانية بفيوض مناجاة الرحمن - عز وجل. ولذلك لما أراد الرب تبارك وتعالى شد أزر حبيبه محمدا في تحمل مشاق الدعوة أرشده إلى الصلاة فقال له ربه: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} (العلق: 19) [257]. وقد سمعتُ عاقلاً يصف السجود يقول: ما أروع أن تناجي الأرض فتسمعك السماء.

ثم قال تعالى بياناً لقيمة الصبر وحثّاً عليه: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} فوعدهم الله سبحانه صحبته إياهم تنبيهاً على قرب فيضه وتوفيقه، كما قال تعالى لنبيه وقد كان أعظم الصابرين: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} تنبيهاً أنه سبحانه يراعي أهل الصبر بالعناية والهداية.

وختم الآية الكريمة بهذا الوعد الرباني العظيم {إِنَّ الله مَعَ الصابرين} ولم يقل (إن الله مع المصلين) لأن الصبر من حيث هو شاقٌّ احتيج إلى البُشْرَى عليه بهذا الوعد، أما الصلاة فأمرها عظيم لا يخفى، وهى عند المؤمنين قُرَّة العين وراحة القلوب، فلم يحتج لتخصيصها كما في الصبر؛ وقد قالوا الصبر من الصبَّار لمرارتهما على القلوب.

****

قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} (154/البقرة)

---

(256) وربما فسرها بعضهم هنا بمعناها في اللغة وهو الدعاء، ولكن تفسيرها بالصلاة التي هي العبادة العظيمة المعروفة أعم وأقوى وأدعى للمقام.

(257) أي لا يخوفنَّك أحدٌ بسطوة أو بجمعٍ أو بأى شيءٍ ما دمت في حضرة مناجاة ربك، فلا تطعه حين ينهاك عن حضرة ربك في الصلاة، واسجد فكلما سجدت اقتربت.

(الواو) إما متعلقةٌ بما قبلها فيكون المعنى في حَثِّ المؤمنين على الاستعانة بالصبر والصلاة والاعتقاد في حياة الشهداء ونعيمهم. أو تكون للابتداء لتُنشأ خطاً جديداً في مضمون الآيات. والأول عندي أقرب.

وفي سياقٍ مختلفٍ جاءت البشرى بحياة الشهداء أكثر تفصيلاً في سورة آل عمران في قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)}.

ولعل ما كان سبباً في اختلاف زاوية تناول المعنى هنا هو اختلاف السياق. ففي سورة البقرة الأمر فيه إعداد لقلوب المؤمنين لاحتمال معنى الشهادة، ولم يكن فيه الحديث عن موقفٍ واقعٍ بالفعل يقتضي التفصيل. أما في سورة آل عمران فقد كان الحديث عن غزوة أُحد بكل دروسها وآلام المؤمنين فيها، فكان التناول أكثر اتساعاً وأكثر ترطيبا لقلوب المؤمنين بمعنى الشهادة. وقد قيل إن آيات سورة البقرة هنا أتت في خضم دروس غزوة بدر وفي شهدائها نزلت. ولا أسلم بذلك فالدلالات فيها عامةٌ ولا إشارة فيها لهذه الغزوة العظيمة المشارُ إلى بعض دروسها ببعض تفصيلٍ في سورة الأنفال. هذا من حيث السياق.

{ولا تقولوا} النهى هنا على حقيقته نزل في الذين يقولون في شهداء المسلمين أنهم ماتوا، تصحيحاً للمفاهيم وضبطاً للحقائق. فالذين باعوا أنفسهم في سبيل الله اشتروا حياةً لا تنقطع عند ربهم في ثوابٍ أبديٍ عظيم. ويفيد هذه الدلالة حرف الإضراب (بل) الذي يصحح ما قبله ويثبت ما بعده، والجملة الاسمية القوية التي حُذف مبتدأها لوضوحه {بل أحياءٌ} أى (هم أحياءٌ) {ولكن لا تشعرون}.

فحقيقةُ حياةِ الشهداء أقوى من أن تدركها حيواتنا المحدودة او إدراكاتُنا العاجزةُ، حياتهم أكمل من حياتنا وأرقى، وهذه من الغيبيات التي يقتضي الإيمان بالله تعالى وكلامه التصديق بها. [258]

فعَن أبي سليمان الأَعْمَشِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ- أى ابن مسعود رضى الله عنه - عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمرَان: 169)، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: " أَرْوَاحُهُمْ كَطَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي أَيِّهَا شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذِ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلاعَةً، فَقَالَ: سَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَقَالُوا: يَا رَبُّ، كَيْفَ

([258]) وقد نُقل عن بعضهم حمل الكلام على المجاز لا حقيقة الوصف بالحياة. قالوا معنى الأموات أي لا تقولوا هم أموات في دينهم، بل قولوا إنهم أحْياءٌ في دينهم. وقال أَصحاب هذا القول: دليلنا والله أعلم – قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}. فجعل المهتدي حياً وانَّه حين كان على الضلالة كان ميتاً، قال الزجاج: والقول الأول (الذي فيه وصفهم بالحياة حقيقةً) أشبه بالدين وأَلْصقُ بالتفسير. معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 230). قلتُ: وتكلف المجاز في مثل هذه الغيبيات ممجوج من العقول المؤمنة فلا يعزب عن قدرة الله تعالى شيء حتى ننكره ونأوله بعقولنا التي لم تدرك حتى الآن حقيقة الحياة التي نحياها فضلا عن تصور حياة البرزخ أو ما بعدها. وقد رأينا بعض مَن فقد الإيمان والأخلاق يتمازح ويستهزئ ويتشدَّق إنكاراً لأحاديث الشهادة وفضل الشهداء، وهو على مقربةٍ من الكفر بكبيرة الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

نَسْأَلُكَ وَنَحْنُ نَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ فِي أَيِّهَا شِئْنَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَلَّا يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: نَسْأَلُكَ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا إِلَى أَجْسَادِنَا فِي الدُّنْيَا، نُقْتَلُ فِي سَبِيلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا هَذَا تُرِكُوا ". يطلبون العودة للدنيا والقتل في سبيل الله لما يرون من كرامته على الله – تعالى-وعظيم منزلته وثوابه.

قال أبو محمد البغوي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ به. انتهى[259]

قلتُ: وفي هذه الآية إشارةٌ لطيفةٌ إلى اعتقاد أهل السنة بثبوت نعيم القبر وعذابه، فالحياة المذكورة فيها للشهداء الظاهر فيها أنها حياة البرزخ. ومثله اثباتاً لعذاب القبر ما روى اللالكائي بسنده: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: " أَرْوَاحُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ سُودٍ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ دَارُكُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {النارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} (غافر: 46) ".[260]

والتعبير بقوله: {لمن يُقتَل في سبيل الله} تعبيرٌ دقيقٌ يصف معنى الشهادة التي تستوجب هذه الحياة الراقية. إنها الموت (في سبيل الله). فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ". (رواه أحمد والشيخان والسياق له في المسند).

وصح عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في فضل الشهادة في سبيل الله أنه قال: «للشهيدِ عند الله خصالٌ:

1- يغفرُ له في أول دفعةٍ من دمه. 2- ويُرى مقعده من الجنة.

3- ويُحلى حلية الإيمان. 4- ويُزوجُ (اثنتين وسبعين زوجة) من الحور العين.

5- ويجارُ من عذاب القبر. 6- ويأمن من الفزع الأكبر.

---

259 شرح السنة للبغوي (10/ 364)

260 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (6/ 1222). قال الإمام الطبري في تفسيره ت شاكر (3/ 216):

إنّ الذي خَصّ اللهُ به الشهداءَ في ذلك، وأفادَ المؤمنين بخبرِه عنهم تعالى ذكره، إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في بَرْزَخِهم قَبل بعثهم، ومنعَّمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يُطعمها الله أحدًا غيرَهم في برزخه قبل بعثه. فذلك هو الفضيلة التي فضَّلهم بها وخصهم بها من غيرهم من المؤمنين الذين توسع قبورهم ويرون منازلهم من الجنة ولا يدخلونها قبل يوم الحساب.

7- ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها. 8 - ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته». [261]

*****

يقول تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)}

(الواو) يسمونها الموطئة للقسم، أى تفيد معناه، فهو قسمٌ من الله تعالى بابتلاء المؤمنين لتمحيص إيمانهم وإظهار قوته وثباته. فمادة البلاء والابتلاء هى في الأصل اللغوي لمعنى الاختبار الذي فائدته إظهار ما خفي. [262]

أمر الله تعالى بالاستعانة بالصبر وأخبر أنه مع الصابرين، ثم اقتضت الآية بعدها من فضل الشهداء ما يقوي الصبر عليهم ويخفف المصيبة، ثم جاء بعد ذلك من هذه الأمور التي تُتَلقَّى بالصبر أشياءٌ تعلِّم الناس أن الدنيا دار بلاءٍ ومحن، أي فلا ينكروا فراق الإخوان والقرابة، ثم وعد الصابرين أجرا عظيما... [263]

قال الطبري: وهذا إخبار من الله تعالى ذكره أتباعَ رَسوله صلى الله عليه وسلم، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم. ووَعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} (البقرة: 214)، وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن عباس وغيرُه قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دارُ بلاء، وأنه مُبْتَليهم فيها، وأمرَهم بالصبر وبَشّرهم فقال: "وبشر الصابرين"، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصَفوته، لتطيب أنفسهم...كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رَسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. [264]

---

[261] رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه وابن عساكر. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح ". قال الألباني رحمه الله: وإسناده شامي صحيح. راجع السلسلة الصحيحة ح رقم 3213 –ص 647 م7 –ط مكتبة المعارف الرياض.

([262]) قال الطبري:

وأصل"البلاء" في كلام العرب –الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر. لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه: (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الأعراف: 168]، يقول: اختبرناهم، وكما قال جل ذكره: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) [الأنبياء: 35]. ثم تسمي العرب الخير"بلاء" والشر"بلاء". غير أن الأكثر في الشر أن يقال:"بلوته أبلوه بلاء"، وفي الخير:"أبليته أبليه إبلاء وبلاء"، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 49)

([263]) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 227)

([264]) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 219)

وامتحان المؤمنين في قوة إيمانهم وعقيدتهم لنبذ الضعف منهم أمرٌ لابد منه كما قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت: 2، 3)

والتعبير بقوله سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيءٍ} ينسحب على كافة الابتلاءات المذكورة في الآية، وفيه من لطف الله تعالى ورحمته بعباده، فما جعل الابتلاء إلا {بشيءٍ} يسيرٍ يلطف الله فيه ويقوي المتوكلين عليه من الصبر فيه. كما قال الزمخشري معناه: بِشَيْءٍ قليلٍ من كلِّ واحدٍ من هذه البلايا وطرفٍ منه، ليعلمهم أنَّ كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسان وإن كبُر فهو أقل من بلاءٍ أكبر منه، وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حالٍ لا تفارقهم وإنما وعدهم ذلك قبل حدوثه ليوطِّنوا عليه نفوسهم فيَخِفَّ عليهم.[265]

قال القفال -رحمه الله: أما الخوف الشديد فقد حصل لأصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عند مكاشفتهم العرب بسبب الدين، فكانوا لا يأمنون قصدهم إياهم واجتماعهم عليهم، وقد كان من الخوف في وقعة الأحزاب ما كان، قال الله تعالى: {هنالك ابتُلِي المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالا شديدا} (الأحزاب: 11). وأما الجوع فقد أصابهم في أول مهاجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة لقلة أموالهم، حتى أنه عليه السلام كان يشد الحجر على بطنه، وروى أبو الهيثم بن التيهان أنه عليه السلام لما خرج التقى مع أبي بكر قال: ما أخرجك؟ قال: الجوع. قال:" أخرجني ما أخرجك".

وأما النقص في الأموال والأنفس فقد يحصل ذلك عند محاربة العدو بأن ينفق الإنسان ماله في الاستعداد للجهاد وقد يقتل، فهناك يحصل النقص في المال والنفس، وقال الله تعالى: {وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم} (التوبة: 41). وقد يحصل الجوع في السفر الجهاد عند فناء الزاد قال الله تعالى: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله} (التوبة: 120). وقد يكون النقص في النفس بموت بعض الإخوان والأقارب، وأما نقص الثمرات فقد يكون بالجدب، وقد يكون بترك عمارة الضياع للاشتغال بجهاد الأعداء، وقد يكون ذلك بالإنفاق على من كان يرد على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من الوفود. انتهى [266]

قال الزجَّاج بما معناه: وإنما جعل الله هذا الابتلاءَ لأنه أدْعى لمن جاءَ بعد الصحابة، ومَن عاصرهم ولم يتمكن الإيمان في صدره إلى اتباعهم لأنهم يعلمون أنه لا يصبر على هذه الأشياءِ إلا مَن قد وضح له الحقُّ وبانَ له البرهان، - وجمع اللَّه عزَّ وجلَّ - بهذا للدلالة على الصبر، وأعظَمَ الثوابَ للصابرين فقال عزَّ وجلَّ:(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).انتهى [267]

---

265 انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 207) بتصرف.

(266) انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 129-130)بتصرف واختصار.

(267) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 231)

وإن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعا منه في المال وسعة الرزق فإذا اختبره تعالى بنزول هذه المحن فعند ذلك يتميز المنافقون عن المؤمنين {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (الأنفال: 37).

ولقد أرانا الله تعالى في جيل الصحابة الكرام آياتٍ عِجابٍ في الصبر على الشدائد في سبيل الله تعالى، ورفع قيمة الإيمان والتحمل لأعلى المراتب، راجع لذلك ما حكاه صاحب كتاب " حياة الصحابة" من الروايات العطرة لهذا الجيل القرآني العظيم.

روى الترمذي عن مصعب ابن سعد، عن أبيه قال: (يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بَلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فيُبْتَلى الرجلُ على حَسَبِ دينه، فإن كان دينه صُلْبًا أشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتُلى على حسبه، فما يَبْرح البلاءُ بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئةٌ). قال الترمذي: هذا الحديث حسن صحيح.

وفي البخاري عن عَائِشَةَ قالت: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْوَجَعُ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم). وفيه عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ قال: رأَيْتُ النَّبِي عليه السلام في مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ (أي يمرض) وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: (أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ).

قال العلامة أبو الحسن ابن بطال: خص الله أنبياءه الأوجاع والمصائب لما خصهم به من قوة اليقين وشدة الصبر والاحتساب ليكمل لهم الثواب ويتم لهم الأجر. وذكر عبد الرزاق من حديث أبى سعيد الخدري: (أن رجلا وضع يده على النبي فقال: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنا معشر الأنبياء يُضاعَف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء ليُبْتَلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيجوبها، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء). [268]

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال: لقد رَأَيْت رَسُول الله يظل الْيَوْم يلتوي مَا يجد دقلا يمْلَأ بِهِ بَطْنه. ويلتوي: أى يتثنى من الْجُوع. والدقل من التَّمْر: أردؤه.

قال ابن الجوزي -رحمه الله-: وَإِنَّمَا جرى هَذَا على رَسُول الله لثَلَاثَة أَشْيَاء:

أَحدهَا: أَن الْبلَاء يلصق بالأقوياء، وَمِنْه قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام: " نَحن معاشر الْأَنْبِيَاء أَشد النَّاس بلَاء، ثمَّ الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه ".

---

[268]) شرح صحيح البخارى لابن بطال (9/ 374)

وَالثَّانِي: ليتأسى بِهِ الْفُقَرَاء فيطيب عيشهم، وَلِهَذَا الْمَعْنى أُمِر النَّاس بالتجرد عَن الْمخيط عِنْد الْإِحْرَام لِئَلَّا ينكسر قلب الْفَقِير.

وَالثَّالِث: ليَكُون ذَلِك أقوى دَلِيل على صدقه فِيمَا جَاءَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا الصدْق لطلب الدُّنْيَا، فصبره على الْفقر من أقوى أَدِلَّة صدقه. (269)

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} هكذا أُطلِقت البشرى بغيرِ تحديدٍ ولا حصرٍ؛ واعلم أنَّ أصلَ البشرى هنا من الله تعالى، والمبلِّغ لها هو رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهي مكتوبة في كتاب الله تعالى إلى يوم يلقونه. فأي تشريفٍ وأي تكريم؟!

وكما قال في الآية الأخرى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر: 10) قال فيها العلامة ابن عطية الأندلسي: وهذا يحتمل معنيين:-

أحدهما: أن الصابر يُوفَّى أجرَه ثم لا يُحاسَب عن نعيم ولا يُتابَع بذنوب، فيقع الصَّابِرُونَ في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبيُّ -عليه السلام- أنها تدخل الجنة دون حسابٍ في قوله: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حسابٍ... » الحديثَ.

والمعنى الثاني: أنَّ أجور الصابرين توفَّى بغير حصر ولا عد، بل جُزافا، وهذه استعارةٌ للكثرة التي لا تحصى...

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسرين حتى قال قتادة: ليس ثمَّ (لهم) مكيالٌ ولا ميزان، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت: {وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ} (البقرة: 261) قال النبي عليه السلام: اللهم زد أمتي فنزلت بعد ذلك: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً} (البقرة: 245) ، فقال: اللهم زد أمتي حتى أنزلت: {إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ} فقال: رضيت يا رب. انتهى(270)

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)}.

وصفٌ كاشفٌ لأهل الصبر واليقين؛ إنهم على أصلٍ راسخٍ في عقيدتهم يوقنون أنهم مِلْك لله تعالى، وأن جريان الأقدار فيهم تأكيداً لتصرف الملِك سبحانه في ملكه وله في كل حُكْمٍ حكمة، فهذا قولهم {إِنَّا لِلَّهِ}. يعني إقرارهم بالعبودية في تلك الحالة بتفويض الأمور إليه والرضا بقضائه فيما يبتليهم به وأنه لا يقضي إلا بالحق كما قال تعالى:

{وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} « سورة غافر آية 20» .

---

(269) كشف المشكل من حديث الصحيحين (1/ 149)

270 تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (4/ 524) باختصار يسير.

وهم على يقينٍ كذلك من موعود الله للصابرين، وفضيلة الصبر لله، لأنهم راجعون إليه فيجازيهم على صبرهم خير الجزاء وهذا قولهم : (وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ).

انطلق حالهم في الصبر من علمهم وعقيدتهم فثنَّى لهم ربهم البشرى بعد البشرى.. { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ} أي ثناءٌ وقربٌ ورحمةٌ ، {وَرَحْمَةٌ} بعد رحمةٍ، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} حصر الهداية فيهم، لأن إيمانهم ويقينهم في أحلك الظروف، وأشد اللحظات هو أكبر امتحانٍ لإيمانهم وقد نجحوا فيه بإذن ربهم.

ففي صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى». أي أول وقوع المصيبة الذي يَصدِم القلبَ فجأة.

وفي الحديث الي رواه مسلم وأبو داود، والترمذي قالت أم سلمة رضى الله عنها: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «إذا أصابتْ أحدَكم مصيبة، فليقل: إنا لله، وإنَّا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي، فأْجُرني بها، وأبْدِلْني خيراً منها، فلما احتُضِرَ أبو سلمةَ، قال: اللهم اخلُفني في أهلي خيراً مني، فلما قُبِضَ قالتْ أمُّ سلمةَ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، عند الله أحتسبُ مصيبتي فأْجُرني فيها»

وعند مالكٍ في الموطأ قالتْ أم سلمةَ: فلما تُوُفِّي أبو سلمةَ قلتُ ذلك، ثم قلتُ: وَمَنْ خَيْر من أبي سلمة؟ فأعقبها اللهُ رسولَه-صلى الله عليه وسلم، فتزوَّجها».

وروى أبو هريرة -رضي الله عنه -: يرفعه إلى النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-قال: «يقول الله عز وجل: من أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ، فصبر واحتسب، لم أرض له ثواباً دون الجنةِ». أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في ذهاب البصر، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال.

وللعلامة ابن قيم الجوزية كتابٌ ماتع أسماه " عدة الصابرين" راجعه مشكورا تجد ما يرطب قلوب الصابرين.

بصيرةٌ في الصبر.

في قوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)}.

قال العلماء: الصَّبر فى اللغة: الحَبْس والكفّ فى ضيق، ومنه قيل: فلانٌ صُبِرَ: إِذا أُمسِك وحُبِس للقتل. قال تعالى: {واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي} (الكهف) ، أَى احبس نفسك معهم.

فالصَّبر: حبس النَّفس عن الجزع والسّخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، أى حبسها عن التقصير في الطاعة أو التمادي مع شهوتها بالباطل.

قال الشاعر: الصّبر مثلُ اسمه مُرٌّ مَذاقته ... لكنْ عواقبُهُ أَحلَى من العسلِ.

ثم قسموا الصبر إلى: صبرٍ على ترك المحارم والمآثم؛ وهو قريبٌ من الورع والتقوى، وصبرٍ على فعل الطاعات والقربات؛ وهو نوع شكرٍ لله تعالى على نعمه. وأما الصبر الثالث: وهو الصبر على المصائب والنوائب. وربما كان أقلها لأنه من مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: " إنما الصبر عند المصيبة الأولى".

جاء في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (3/ 371) للفيروز آبادي: -

قال بعض المشايخ (أظنه يقصد العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية): وكان صبر يوسف عن طاعة امرأَة العزيز أَكمل من صبره على إِلقاءِ إِخْوته إِيّاه في الجُبّ، وبيعهم إِيّاه، وتفريقهم بينه وبين أَبيه، فإِنَّ هذه أُمور جرَت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصّبر. وأَمّا صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربةٌ للنَّفس، ولا سيّما مع أَسبابٍ تقوّى معها داعية الموافقة؛ فإِنّه كان شابًّا، وداعية الشابّ إِليها قوَّته؛ وكان عَزَبًا ليس له ما يعوّضه ويَرُدّ شهوته؛ وغريبًا، والغريب لا يستحى فى بلدِ غُربته ممّا يستحى منه بين أَصحابه وأَهلِه؛ ويحسبونه مملوكًا، والمملوك ليس وازعهُ كوازع الحرّ؛ والمرأَة جميلة وذات مَنْصِب، وقد غاب الرّقيب، وهى الدّاعية له إِلى نفسها، والحريصة على ذلك أَشدّ الحرص، ومع ذلك توعّدته بالسجن إِن لم يفعل. فمع هذه الدّواعى كلّها صبر اختيارًا، وإِيثارًا لما عند الله. وأَين هذا من صبره فى الجُبّ على ما ليس من كسبه؟!

قال الإِمام أَحمد - رحمه الله -: ذَكر الله تعالى الصّبرَ فى القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا، وهو واجب بإِجماع الأُمّة. وهو نصف الإِيمان؛ فإِنَّ الإِيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصف شُكر.

وهو في القرآن على ستَّة عشر نوعا:

الأَوّل: الأَمر به نحو قوله تعالى: {يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استعينوا بالصبر والصلاة}، وقوله تعالى: {اصبروا وَصَابِرُواْ}، وقوله تعالى: {واصبروا إِنَّ الله مَعَ الصابرين}، {واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله}.

الثاني: النَّهى عن ضدّه كقوله: {فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}، وقولهِ: {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار}، فإِن تَوْلية الأَدبار ترك الصّبر والمصابرة.

الثالث: الثَّناء على أَهله كقوله: {الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار}، وقوله: {والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولائك الذين صَدَقُواْ وأولائك هُمُ المتقون}. وهو كثير النَّظائر فى التنزيل.

الرّابع: إِيجاب معية الله للصابرين التى تتضَمّن حفظهم ونصرهم وتأْييدهم، كقوله: {واصبروا إِنَّ الله مَعَ الصابرين}.

الخامس: إِيجاب محبّته لهم، كقوله: {والله يُحِبُّ الصابرين}.

السّادس: إِخباره بأَنَّ الصبر خير لهم، كقوله: {وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}، وقوله: {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

السّابع: إِيجابه الجزاء لهم بأَحسن ما كانوا يعملون.

الثامن: إِيجابه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

التاسع: إِطلاق البُشرَى لأَهل الصّبر، كقوله: {وَبَشِّرِ الصابرين}.

قال الفيروز آبادي: ثمّ الصّبر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أَنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأَوّل: الاستعانة به، ورؤية أَنَّه هو المصبِّر، وأَنَّ صبر العبد بربّه لا بنفسه، كما قال تعالى: {واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله}، يعنى إِنْ لم يُصَبِّرك هو لم تصبر.

والثَّانى: أَن يكون الباعث على الصّبر محبّة الله وإِرادة وجهه، والتقرّب إِليه، لا إِظهار قوّة النفْس، والاستحماد إِلى الخلق، وغير ذلك من الأَغراض.

والثالث: دوران العبد الذي مع الأَحكام الدينيّة صابرًا نفسه معها، سائرًا بسَيرها، مقيمًا بإِقامتها، يتوجّه معها أَينما توجّهت ركائبها، وينزل حيث استقلَّت مضاربُها. فهذا معنى كونه صابرًا مع الله، قد جعل نفسه وَقْفا على أَوامره ومحابّه. وهو أَشدّ أَنواع الصّبر وأَصعبها. وهو صبر الصدّيقين.

والصّبر على الطَّلب عنوان الظَّفر، وفى المِحَن عنوان الفَرَج.

وفى كتاب الأَدب للبخاريّ: سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإيمان فقال: "الصّبر والسّماحة". (قال الألباني فيه حديث قوي بمجموع طرقه، وضعَّفه غيره).

وهذا من أجمع الكلام، وأعظمه برهانًا، وأوعاه لمقامات الإيمان من أوّلها إلى آخرها؛ فإن النَّفس يراد منها شيئان: بذل ما أُمِرَت به وإعطاؤه، فالحامل عليه السّماحة؛ وتركُ ما نُهيَتْ عنه والبعد عنه، فالحامل عليه الصّبر. وقد أضمر الله سبحانه فى كتابه بالصّبر الجميل الذي لا شكوى معه، والصّفح الجميل الَّذى لا عِتاب معه، والهجرِ الجميل الذي لا أذى معه.

وقال ابن عُيَيْنَة فى قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ}: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤوسا.

واعلم أنَّ الشكوى إلى الله عزَّ وجلّ لا تُنافى الصّبر؛ فإنَّ يعقوب - عليه السلام - وَعَد بالصّبر الجميل، والنبىّ إذا وَعَدَ لا يُخلف، ثمّ قال: {إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله}، وكذلك أيّوب عليه السّلام أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا مع قوله: {مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين}، وإنَّمَا ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله؛ كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقةً وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لا يرحمك! ثمّ أنشده:

وإذا اعْتَرَتْكَ بليّةٌ فاصبِر لها ... صَبْرَ الكريم فإنَّه بك أَرحمُ.

وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنّما ... تشكو الرّحيم إلى الَّذى لا يرحمُ.

معية الله-سبحانه-العامة والخاصة.

في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة/153)

يقول علماء أهل السنة أن المعية إذا أُطلقت في القرآن فلها اعتباران:

معيةٌ عامةٌ للناس جميعاً ومعناها علم الله المحيط بكل ما خلق ورعايته وتدبيره. كما في قوله تعالى: { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد: 4) ، وكما في قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المجادلة: 7).

ومعيةٌ من الله تعالى خاصةٌ بعباده المصطفَين وعباده المؤمنين، ومعناها العناية والرعاية والولاية ورفع مكانتهم وجبر خواطرهم والانتصار لهم. كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (البقرة: 194)، {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: 46)، {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل: 128).

من بلاغة الآيات المتشابهة.

نلاحظ أنَّ الآية التي شابهت هذه الآية من سورة البقرة: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (البقرة: 45) اختلفت في تذييلها مع اختلافها في المستهل مع هذه الآية فقد خاطبت هنا الذين

آمنوا من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة: 153).

والفرق كما بيَّنه بعض المحققين أنَّ الآية الأولى (البقرة: 45) نزلت في مخاطبة اليهود، وفيها إشارة توبيخٍ لقلة إيمانهم وضعف يقينهم وخشوعهم، فكان تذييلها مُشعِراً بذلك؛ كأنه قيل لهم، استعينوا بالصبر والصلاة ولا يستطيع ذلك إلا أهل الخشوع منكم وهم القلة. أما الآية الثانية (البقرة: 153) ففي أولها تقريظ الأمة المحمدية التي توجه لها الخطاب ثم في آخرها الوعد والبشرى على صبرهم. ففرق ما بين الخطابين بعيدٌ وجمالية الدلالة القرآنية مُدهِشة.

إثبات عذاب القبر.

في قوله تَعَالَى: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ}.

قال العلامة الجصاص: فِيهِ إخْبَارٌ بِإِحْيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الشُّهَدَاءَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ سَيُحْيَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا مراده لما قال {ولكن لا تشعرون} لأنه إخْبَارٌ بِفَقْدِ عِلْمِنَا بِحَيَاتِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ الْحَيَاةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ شَعَرُوا بِهِ وَعَرَفُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ.

فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ الْحَيَاةُ الْحَادِثَةُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَإِذَا جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ أُحْيُوا فِي قُبُورِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ مُنَعَّمُونَ فِيهَا جَازَ أَنْ يَحْيَا الْكُفَّارُ فِي قبورهم ليعذَّبوا.

وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ. انتهى [271]

*****

---

[271] أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 115)

الصفا والمروة.

يقول الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (البقرة: 158)

قيل في ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه لما ذُكر الصبرُ والحث عليه أردفه بذكر شيءٍ من العبادات التي تحتاج إلى الصبر وهى الحج والعمرة.

أقول: إن السياق في سورة البقرة ما زال في وضع لبِنات البناء العقائدي والتشريعي لهذه الأمة الناشئة، فالحديث عن تفرد الراية في موضوع القبلة وما فيه من تشريعات القبلة وفتنتها، ثم الحديث عن تفرد هذه الأمة برسولها وكتابها، ثم التنويه بتبِعات حمل الراية مما يحتاج للصبر والجهاد، جىء هنا بتوكيد هذا التفرد لقبلة المسلمين وأنَّ ما شاب معالمها من الشركيات لا يصنع حرجاً في الارتباط بها وبمعانيها لهذه الأمة. إنه التفرد الكامل في الراية والمنهج.

ولعل النقاش حول تأويل هذه الآية يوضح الأمر أكثر.

يقول تعالى: وإنما عنى الله تعالى ذكره بقوله: "إنّ الصفا والمروة" [272]، في هذا الموضع: الجبلين المعروفين بهذين الاسمين في الحرم. "منْ شَعائر الله [273] "، يعني: من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده مَعلمًا ومَشعَرًا يعبدونه عندها.

وإنما أعلم اللهُ تعالى عباده أنَّ السعي بينهما من مَشاعر الحج التي سنَّها لهم، وأمرَ بها خليله إبراهيمَ -صلى الله عليه وسلم، إذ سَأله أن يُريه مناسك الحج. وذلك وإن كان مَخرجُه مَخرجَ الخبر، فإنه مرادٌ به الأمر. لأن الله تعالى ذكره قد أمر نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم-باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، فقال له: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} (سورة النحل: 123)، فعليهم العمل بذلك، على ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} يعني: إن الطوافَ بهما من معالم الله،"فمن حَج البيتَ أو اعتمر" فلا يتخوَّفنَّ الطواف بهما، فإن أهل الشرك كانوا يطوفون بهما كفرًا، وأنتم تَطوفون بهما إيمانًا، وتصديقًا لرسولي، وطاعةً لأمري، فلا جُناح عليكم في الطواف بهما. و "الجُناح"، الإثم. [274]

(272) الصفا من الحجارة الاملس، والمروة الحجارة الصغيرة.

(273) والشعائر هنا جمع شعيرة: وهي البدنة المهداة إلى البيت، وسميت بذلك لأنه يؤثر فيها بالعلامات. وإشعار البدن: إدماؤها بطعن أو رمي أو حديدة حتى تدمي.

(274) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 226) باختصار.

هنا يأتي الإشكال في تأويل الآية حيث أثبتت مشروعية السعي بين الصفا والمروة وأكدت أنها من الحج والعمرة بقوله تعالى: {من شعائر الله}، ثم نفت الحرج عمَّن يطَّوف بهما بقوله: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} بما ظاهره الإباحة بعد التحريم. ووقع هذا الإشكال موقعه عند بعضهم حتى عند أحد كبار التابعين. وحلته الصديقة عائشة بما عندها من علمٍ جميلٍ بالقرآن العظيم وملابسات الخطاب القرآني.

فقد كَانَ السَّبَبُ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ عَائِشَةَ-رضى الله عنها-سُؤَالُ مَنْ كَانَ لَا يَطُوفُ بِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِأَجْلِ إِهْلَالِهِ (أي حجه) لِمَنَاةَ (الصنم الذي يعبدونه حينها).

وَعَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ-رضى الله عنهما-وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِسُؤَالِ مَنْ كَانَ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا الْأَصْنَامُ، فَتَجَنَّبَ النَّاسُ الطَّوَافَ بِهِمَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ سُؤَالَ الْفَرِيقَيْنِ. [275]

قال البخاري في صحيحه: بَابُ وُجُوبِ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَجُعِلَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.

ثم روى -بسنده-عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ عُرْوَةُ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} (البقرة: 158)، فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لاَ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ.

قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ [276] كَانَتْ: لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ [277] لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ [278]

الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ [279]، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} (البقرة: 158). الآيَةَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ [280] رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا» ....

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «فَأَسْمَعُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا:

([275])أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (1/ 116)

([276])(= أى فسرتَها عليه من الإباحة وأنه لا حرج في ترك السعي بينهما)

([277])(= يحجون)

([278])(= هو صنمٌ كانوا يعبدونه وكل ما يُعبد من دون الله طاغوت وطاغية)

([279])(= هو موضعٌ قريب من الجُحفة)

([280])(= أى شرع)

فِي الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْجَاهِلِيَّةِ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَالَّذِينَ يَطُوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا فِي الإِسْلاَمِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ، بَعْدَ مَا ذَكَرَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ». (281)

قال ابن العربي المالكي في تَحْقِيقُ هَذَا الْحَدِيثِ وَتَفْهِيمُهُ: اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: لَا جُنَاحَ عَلَيْك أَنْ تَفْعَلَ، إبَاحَةٌ لِلْفِعْلِ، وَقَوْلَهُ: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْك أَلَّا تَفْعَلَ) إبَاحَةٌ لِتَرْكِ الْفِعْلِ؛ فَلَمَّا سَمِعَ عُرْوَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} (البقرة: 158) قَالَ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الطَّوَافِ جَائِزٌ، ثُمَّ رَأَى الشَّرِيعَةَ مُطْبِقَةً عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ لَا رُخْصَةَ فِي تَرْكِهِ، فَطَلَبَ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمُتَعَارِضَيْنِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: لَيْسَ قَوْله تَعَالَى: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} (البقرة: 158) دَلِيلًا عَلَى تَرْكِ الطَّوَافِ؛ إنَّمَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى تَرْكِهِ لَوْ كَانَ: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَطَّوَّفَ).

فَلَمْ يَأْتِ هَذَا اللَّفْظُ لِإِبَاحَةِ تَرْكِ الطَّوَافِ، وَلَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ لِإِفَادَةِ إبَاحَةِ الطَّوَافِ لِمَنْ كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنْهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لِمَنْ كَانَ يَطُوفُ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَصْدًا لِلْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ؛ فَأَعْلَمَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الطَّوَافَ لَيْسَ بِمَحْظُورٍ إذَا لَمْ يَقْصِدْ الطَّائِفُ قَصْدًا بَاطِلًا.

فَأَدَّتْ الْآيَةُ إبَاحَةَ الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، ورفع الْحَرَجِ الَّذي كَانَ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} (البقرة: 158) أَيْ مِنْ مَعَالِمِ الْحَجِّ وَمَنَاسِكِهِ وَمَشْرُوعَاتِهِ، لَا مِنْ مَوَاضِعِ الْكُفْرِ، وَمَوْضُوعَاتِهِ؛ فَمَنْ جَاءَ الْبَيْتَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا فَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ الطَّوَافِ بِهِمَا. (282)

فالآية بهذا الاعتبار هي رفعٌ لشبهةٍ في قلوب المؤمنين تجاه السعي بين الصفا والمروة، وإثباتٌ أنه من شعائر الحج، ومنكِرهُ منكِرٌ لشعيرةٍ لا شكَّ فيها من عند الله.

وأما قوله تعالى: {وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا} فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: ومن تطوع بالسعي بين الصفا والمروة، وهذا قول مَنْ أسقط وجوب السعي. والثاني: ومن تطوع بالزيادة على الواجب، وهذا قول من أوجب السعي. والثالث: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد أداء فرضهما.

{فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} شاكر للعمل عليم بالقصد (283)

****

---

(281) صحيح البخاري (2/ 158).

(282)أحكام القرآن ط العلمية (1/ 70)

(283)تفسير الماوردي = النكت والعيون (1/ 213)

مسألةٌ فقهية: حكم السعي بين الصفا والمروة.

وإنما الاختلاف الواقع بين العلماء في حكمه من الحج والعمرة وليس في كونه من الشعائر:

(أ) فذهب ابن عمر، وجابر، وعائشة من الصحابة رضي الله عنهم، ومالك، والشافعي، وأحمد -في إحدى الروايتين عنه -إلى أن السعي (ركن) من أركان الحج.

بحيث لو ترك الحاج السعي بين الصفا والمروة، بطل حجه ولا يجبر بدم، ولا غيره.

عن عائشة -رضى الله عنها-قالت: "طاف رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وطاف المسلمون؛ فكانت سُنّة، فلعمري ما أتمّ الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة" (رواه مسلم).

وعن حبيبة بنت أبي تِجْرَاة قالت: "دخلتْ على دار أبي حسين نسوةٌ من قريش، ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يطوف بين الصفا والمروة وهو يسعى، يدور به إزاره من شدة السعي، وهو يقول لأصحابه: اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" (رواه أحمد وصححه الألباني بمجموع طرقه كما في الإرواء).

وقد رجَّح البخاري (وجوبه) بترجمته في الصحيح قبل الحديث الذي ذكرناه آنفاً عن عائشة-رضي الله عنها-.

(ب) وذهب أبو حنيفة، والثوري، والحسن: إلى أنه واجب، وليس بركن [284]، لا يبطل الحج أو العمرة بتركه، وأنه إذا تركه وجب عليه دمٌ.

ورجح صاحب المغني -ابن قدامة-رحمه الله-هذا الرأي فقال:

1 -وهو أولى، لان دليل من أوجبه، دل على مطلق الوجوب، لاعلى كونه لا يتم الواجب إلا به.

2 -وقول عائشة رضي الله عنها في ذلك مُعارَض بقول من خالفها من الصحابة.

3 -وحديث بنت أبي تجرأة، قال ابن المنذر يرويه عبد الله بن المؤمل، وقد تكلموا في حديثه. وهو يدل على أنه مكتوب، وهو الواجب.

4 -وأما الآية فإنها نزلت لما تحرج ناس من السعي في الاسلام، لما كانوا يطوفون بينهما في الجاهلية، لأجل صنمين، كانا على الصفا والمروة.

---

(284) **الفرق بين الركن والواجب عند الأحناف أن الركن يساوي الفرض الذي يبطل العمل بتركه ولا يُجبَر. وأما الواجب فهو أقل من الفرض. وهو ما ثبت بدليل فيه شبهةٌ ويسمى فرضاً عملياً. بمعنى أنه يعامل معاملة الفرائض في العمل. فيُأثَم بتركه. ولا يبطل العمل بتركه.**

(ج) وذهب ابن عباس، وأنس، وابن الزبير، وابن سيرين، ورواية عن أحمد: أنه سنة، لا يجب بتركه شئ.
وَمُعَوَّلُ مَنْ نَفَى وُجُوبَهُ وَرُكْنِيَّتَهُ أمران:

أحدهما: قوله تعالى: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} ورفع الجناح من أحكام المباحات دون الواجبات.

والثاني: أن ابن عباس وابن مسعود قَرَء: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن لاَّ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}. بزيادة "لا" التي تدل على إباحة ترك السعي بينهما.

قلتُ: وليس في قوله: {فَلاَ جُنَاحَ} دليل على إباحته دون وجوبه؛ لخروجه على سببٍ أفضتُ فيه آنفاً. وأما قراءة ابن مسعود، وابن عباس: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن لاَّ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} فقراءةٌ شاذةٌ، فلا حجة فيها على سقوط فرض السعي بينهما. وكذلك لأن (لا) هنا -عند بعض النحاة -صلةٌ في الكلام إذ تقدمها جَحْد، مثل قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} (الأعراف: 12) بمعنى ما منعك أن تسجد، وكما قال الشاعر:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم ... والطيبان أبو بكر ولا عُمَرُ. (أي وعمر).

ويكون عندي-والله أعلم-الرأي الأخير أضعف الآراء في حكم السعي بين الصفا والمروة. وللوجهين الأوليين وجاهةٌ وقبولٌ، وأرجح الأخذ بالأول (بأنه ركنٌ) والاتساع بالفتوى بالرأى الثاني (بالوجوب وجبره بالدم) من باب التيسير.

مسألة في أصول التفسير: دور القرائن الخارجية (مثل علم أسباب النزول) في توجيه النص القرآني.

عند وقوفنا عند قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ... الآية 158/البقرة}

نقف أمام نصٍ انفتح على قرينةٍ خارجية لتوجيه تأويله. فالمفاتيح الدلالية من داخل النص لم تمكنَّا من توجيهه، وكان لابد من قرينةٍ خارجيةٍ تمثلت في سبب النزول، وقرينة الحال للمخاطَبين بالنص القرآني، وملابساته وقت نزوله. وهنا يقف النص نفسه مطالبا بالتدخل لتوجيهه.

يقول العلامة السيوطي عند حديثه عن علم أسباب النزول [285]:

زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَ هَذَا الْفَنِّ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى التَّارِيخِ وَأَخْطَأَ فِي ذَلِكَ بَلْ لَهُ فَوَائِدُ مِنْهَا مَعْرِفَةُ وَجْهِ الْحِكْمَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى تَشْرِيعِ الْحُكْمِ... وَمِنْهَا: الْوُقُوفُ عَلَى الْمَعْنَى وَإِزَالَةُ الْإِشْكَالِ قَالَ الْوَاحِدِيُّ: لَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا.

وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدُ: بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ.

---

(285)الإتقان في علوم القرآن (1/ 107)

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ: مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ.

-وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا} الآية، وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحٌ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ حِينَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ وَأَرَوْهُ أَنَّهُمْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ. أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ.

وَحُكِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَعَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ: الْخَمْرُ مُبَاحَةٌ وَيَحْتَجَّانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} الآية وَلَوْ عَلِمَا سَبَبَ نُزُولِهَا لَمْ يَقُولَا ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَمَّا حُرِّمَتِ الْخَمْرُ: كَيْفَ بِمَنْ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَاتُوا وَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ رِجْسٌ؟ فَنَزَلَتْ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

-وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} فَقَدْ أَشْكَلَ مَعْنَى هَذَا الشَّرْطِ عَلَى بَعْضِ الْأَئِمَّةِ حَتَّى قَالَ الظَّاهِرِيَّةُ بِأَنَّ الْآيِسَةَ لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ تُرَتَّبْ. وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ سَبَبَ النُّزُولِ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي عِدَدِ النِّسَاءِ قَالُوا قَدْ بَقِيَ عَدَدٌ مِنْ عِدَدِ النِّسَاءِ لَمْ يُذْكَرْنَ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ فَنَزَلَتْ. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أُبَيٍّ. فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ خِطَابٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ مَا حُكْمُهُنَّ فِي الْعِدَّةِ وَارْتَابَ: هَلْ عَلَيْهِنَّ عِدَّةٌ أَوْ لَا؟ وَهَلْ عِدَّتُهُنَّ كَاللَّاتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ لَا؟ فَمَعْنَى {إِنِ ارْتَبْتُمْ} إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ حُكْمُهُنَّ وَجَهِلْتُمْ كَيْفَ يعتدون فَهَذَا حُكْمُهُنَّ.

-وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} فَإِنَّا لَوْ تُرِكْنَا وَمَدْلُولَ اللَّفْظِ لَاقْتَضَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ سَفَرًا وَلَا حَضَرًا وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ فَلَمَّا عُرِفَ سبب نزولها علم أَنَّهَا فِي نَافِلَةِ السَّفَرِ أَوْ فِيمَنْ صَلَّى بِالِاجْتِهَادِ وَبَانَ لَهُ الْخَطَأُ عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ.

-وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} الآية فَإِنَّ ظَاهِرَ لَفْظِهَا لَا يَقْتَضِي أَنَّ السَّعْيَ فَرْضٌ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَدَمِ فَرْضِيَّتِهِ تَمَسُّكًا بِذَلِكَ وَقَدْ رَدَّتْ عَائِشَةُ عَلَى عُرْوَةَ فِي فَهْمِهِ ذَلِكَ بِسَبَبِ نُزُولِهَا وَهُوَ أَنَّ الصَّحَابَةَ تَأَثَّمُوا مِنَ السَّعْيِ بَيْنَهُمَا لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَنَزَلَتْ.... إلخ كلامه رحمه الله تعالى. [286]

*****

(286)وبفضل الله تعالى لي حديثٌ طويل النفس عن آليات فهم وتوجيه معاني القرآن العظيم في كتابٍ أعده منذ زمنٍ عن تدبر القرآن العظيم من خلال نظرةٍ شموليةٍ من داخل النص وخارجه.

كتمان العلم والحق وجزاؤه.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)} [البقرة: 159، 160]

مستويات الخطاب القرآني

من جماليات الخطاب القرآني أنه خطابٌ متعددُ المستويات، فلربما بان لمخصوصٍ منه توجهٌ كما يظهر للعموم توجهٌ آخرٌ في وقت نزوله، ثم ينثني له الزمن فيكون لقومٍ آخرين على خصوصٍ فيهم وعلى عمومٍ-أيضاً-ما يخاطبهم به من المعاني. وبذلك فالخطابُ القرآني متجددٌ دائماً لا يحده الزمان، بل تتسع دلالاته لتمتد في الزمان والأحداث على تجددها ما يلائمها بلا تنطُّعٍ في التوجيه، ولا ترددٍ في إنزال القرآن على ما يتجدد من الواقع. وكذلك يعبر علماء القرآن عن هذا ببحث (العِبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب) والتحقيق في المسألة أن العبرة بكليهما على اجتماعٍ وعلى تفريقٍ؛ في تفصيلٍ يطول به الكلام، ويكفينا منه الآن الإشارةُ. وهذه نقطةٌ مفيدةٌ جداً في تناول النص الحكيم يجب أن يتوخاها الدارسون.

وبالمثال هنا: فهذا خطابٌ ربما جاء لأهل الكتاب الذين يعلمون أنَّ محمدا -صلى الله عليه وسلم-وما جاء به هو الحق المذكور عندهم ثم ينكرون ويكتمون ويكذبون؛ فجاء الخطاب القرآني تبكيتا لهم على كتمانهم الحق. ثم يتسع ذات الخطاب ليشمل كل من عرف الحق وأنكره وكتمه ولو في نفسه في زمن الرسالة الأول من المنافقين والمشركين، ثم يتسع الخطاب ليخاطب أهل العلم على مر العصور بالوعيد لأجل كتمان الحق والعلم وعدم بثه لما يستحقه من الظهور والدعوة إليه. فتأمل-رحمك الله-كيف اتسع الخطاب القرآني في مستوياته ليتسع المعنى والعِبرة، والنموذج الإصلاحي لينثني له الزمن.

فهذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، فإن حكمها عامٌ لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} الدالات على الحق المظهرات له، {وَالْهُدَى} وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا الناس ما مَنّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه كما قال: { مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ}[287]

[وقد كَانَ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ يَكْتُمُونَ بَعْضَ مَا فِي كُتُبِهِمْ بِعَدَمِ ذِكْرِ نُصُوصِهِ لِلنَّاسِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ أَوِ السُّؤَالِ عَنْهُ كَالْبِشَارَاتِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصِفَاتِهِ وَكَحُكْمِ رَجْمِ الزَّانِي الَّذِي وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَيَكْتُمُونَ بَعْضَهُ بِتَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ بِالتَّرْجَمَةِ أَوِ النُّطْقِ أَوْ حَمْلِهِ عَلَى غَيْرِ مَعَانِيهِ بِالتَّأْوِيلِ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ (كَمَا فَعَلُوا بِلَفْظِ الْفَارقْلِيطِ) فَفَضَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي سَجَّلَتْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَمْثَالِهِمُ اللَّعْنَةَ الْعَامَّةَ الدَّائِمَةَ.

[287] انظر تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 77)

فهَذِهِ الْآيَةُ عَوْدٌ إِلَى أَصْلِ السِّيَاقِ وَهُوَ مُعَادَاةُ النَّبِيِّ وَمُعَانَدَتُهُ مِنَ الْكُفَّارِ عَامَّةً وَمِنَ الْيَهُودِ خَاصَّةً، وَالْكَلَامُ فِي الْقِبْلَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي مَعْرِضِ جُحُودِهِمْ وَعَدَائِهِمْ أَيْضًا، وَجَاءَ فِيهِ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَاكَ وَعِيدَ هَؤُلَاءِ الْكَاتِمِينَ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْكِتْمَانِ وَرَدَ مَوْرِدَ الِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ، وَتَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيذَائِهِمْ، ثُمَّ عَادَ هُنَا فَذَكَرَهُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْكَارِهِمْ أَخْبَارَ أَنْبِيَائِهِمْ عَنْهُ وَبِشَارَتِهِمْ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَعْلِهِمْ ذَلِكَ حُجَّةً سَلْبِيَّةً عَلَى إِنْكَارِ نُبُوَّتِهِ ؛ إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَلَمْ يُبَشِّرُوا بِأَنْ سَيُبْعَثَ نَبِيٌّ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَمْ يَجِئْ بَيَانٌ فِي كُتُبِهِمْ عَنْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالتَّأْوِيلِ بَلْ كَتَمُوا مَا فِي الْكِتَابِ مِنَ الْهُدَى وَالْإِرْشَادِ بِضُرُوبِ التَّأْوِيلِ أَيْضًا حَتَّى أَفْسَدُوا الدِّينَ وَانْحَرَفُوا بِالنَّاسِ عَنْ صِرَاطِهِ، وَذَكَرَ جَزَاءَهُمْ فَقَالَ: (أُولَئِكَ) أَيِ: الَّذِينَ كَتَمُوا الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَحُرِمُوا النُّورَ السَّابِقَ وَالنُّورَ اللَّاحِقَ، أَوِ الَّذِينَ شَأْنُهُمْ هَذَا الْكِتْمَانُ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ (يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) أَمَّا لَعْنُ اللهِ لَهُمْ فَهُوَ حِرْمَانُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا لَعْنُ اللَّاعِنِينَ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ لَعْنُهُمْ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ بِفِعْلَتِهِمْ هَذِهِ مَوْضِعُ لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ الْآتِي ذِكْرُهُمْ فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) عَنِ الْكِتْمَانِ (وَأَصْلَحُوا) عَمَلَهُمْ بِالْأَخْذِ بِتِلْكَ الْبَيِّنَاتِ عَنِ النَّبِيِّ وَدِينِهِ وَالْهُدَى الَّذِي جَاءَ بِهِ (وَبَيَّنُوا) مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ أَوْ بَيَّنُوا إِصْلَاحَهُمْ، وَجَاهَرُوا بِعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ وَأَظْهَرُوهُ لِلنَّاسِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ وَلَكِنَّهُ يَكْتُمُ عَمَلَهُ وَيُسِرُّهُ مُوَافَقَةً لِلنَّاسِ فِيمَا هُمْ فِيهِ لِئَلَّا يَعِيبُوهُ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ وَإِيثَارِ الْخَلْقِ عَلَى الْحَقِّ ؛ لِذَلِكَ اشْتَرَطَ فِي تَوْبَتِهِمْ إِظْهَارَ إِصْلَاحِهِمْ وَالْمُجَاهَرَةَ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ لِيَكُونُوا حُجَّةً عَلَى الْمُنْكِرِينَ، وَقُدْوَةً صَالِحَةً لِضُعَفَاءِ التَّائِبِينَ.

(فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ) أَيْ: أَرْجِعُ وَأَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ بَعْدَ الْحِرْمَانِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِاللَّعْنَةِ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ محمد عبده-رحمه الله-:

وَهَذَا مِنْ أَلْطَفِ أَنْوَاعِ التَّأْدِيبِ الْإِلَهِيِّ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ بَلْ أَسْنَدَ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ فِعْلَ التَّوْبَةِ الَّذِي أَسْنَدَهُ إِلَيْهِمْ، وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَأْنِيسِهِمْ وَتَرْغِيبِهِمْ أَنْ قَالَ: (وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) يَصِفُ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ بِكَثْرَةِ الرُّجُوعِ وَالتَّوْبَةِ، لِلْإِيذَانِ بِالتَّكْرَارِ، كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ وَتَابَ، حَتَّى لَا يَيْئَسَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِذَا هُوَ عَادَ إِلَى ذَنْبِهِ. فَأَيُّ تَرْغِيبٍ فِي ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا وَأَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْهُ لِمَنْ يَشْعُرُ وَيَعْقِلُ؟

ثُمَّ إِنَّ الْعِبْرَةَ فِي الْآيَةِ هِيَ أَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا خَاصًّا، فَكُلُّ مَنْ يَكْتُمُ آيَاتِ اللهِ وَهِدَايَتَهُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِهَذِهِ اللَّعْنَةِ. [288]

([288]) تفسير المنار (2/ 40) باختصار.

حكم اللعن العام منه والمعين.

و (اللعن) الطرد والإبعاد عن الخير، هذا من الله تعالى.

ومن الخلق: السبّ، والشتم، والدعاء على الملعون، ومشاقّته، ومخالفته، مع السخط عليه، والبراءة منه. والمراد بقوله: {اللَّاعِنُونَ} كلّ من يصح منه لعنٌ، من الملائكة والصالحين. وعلى ظاهر هذه الآية فإنه يجوز لعن الذين أجاز القرآن لعنهم على العموم لا على وجه التعيين، فمثلا يلعن المؤمنُ الذين يكتمون البينات – كما في الآية-ولا يلعن أشخاصاً بعينهم. وعلى هذا حمل المحققون التوفيق بين إجازة اللعن العام الذي في بعض الآيات كما في قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [البقرة: 162]، وبين الأحاديث الصحاح في وصف المؤمن بقوله عليه الصلاة والسلام: «**ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء**» [289]

والإسلام منهجٌ إصلاحيٌ يعنَى دائماً بقضية إصلاح الأفكار والعقائد والأفعال، ولا يتصاغر ليقع في الأشخاص وهكذا يعلم المسلمين أنَّ قضيتنا في محاربة الفاسد في الأفكار والأفعال وليست قضيتنا مع الأشخاص لأنهم مقصودون بالإصلاح وإن أجرموا.

فلَعْن الفعل لا يدل على لعن الفاعل؛ وإن كان فهو لعنٌ عامٌ يُصلِح ولا ينفِّر.

والمؤمن حين ينزِّه نفسه عن اللعن والشتم وغيره إنما يحكي عن أخلاقه وإن كان مَن نزَّه نفسه عنه يستحق كل قبيح.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل –رحمه الله-لأبيه كما في الأحكام السلطانية وغيرها: "ما تقول في يزيد -الذي استباح المدينة، وأهان الصحابة، وقتل بعضهم تكلم فيه بكلامٍ شديدٍ جداً-قال له عبد الله: "لماذا لا تلعنه؟ قال: وهل رأيت أباك لعاناً؟ .

ولهذا جاء النهي عن اللعن حتى في حق إبليس، يقول صلى الله عليه وسلم: (لا تلعنوا الشيطان واستعيذوا بالله منه؛ لأنكم إذا لعنتموه تعاظم في نفسه) يعني: أنه صار خطيراً عليهم حتى ناصبوه العداء باللعان.

وأما (لعن اليهود والنصارى **غير المعينين (أي على الجملة)** فهو إجماعٌ سواءٌ أكان لهم ذمةٌ أم لم يكن لجحودهم الحق وعداوتهم الدين وأهله.

واختلفوا في لعن المعين منهم **والجمهور على المنع** لأن حاله عند الوفاة لا تعلم، وقد شرط الله في ذلك الوفاة على الكفر بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} (البقرة/ 161)، وأما ما روي أنه -عليه الصلاة والسلام-لعن قوماً بأعيانهم من الكفار إنما كان ذلك لعلمه بمآلهم.

([289])أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) والترمذي في (جامعه)، والبخاري في الأدب المفرد. بأسانيد صحاح.

ويباحُ لعن كل مَن جاهر بالمعاصي على العموم كمدمن الخمر وأكلة الربا والظلمة والسراق والمصورين والزناة، ومن يتشبه من النساء بالرجال وعكسه إلى غير ذلك مما ورد في الحديث لعنه.

لأنه -عليه الصلاة والسلام-قال: "لعن الله السارق يسرق البيضةَ فتُقطَع فيها يده" (رواه البخاري وسلم).

وأما لعن العاصي المعيَّن فادعى ابن العربي: أنه لا يجوز لعنه اتفاقاً للحديث الصحيح أنه -عليه الصلاة والسلام-أتي بشارب مراراً فقال بعض من حضر: "لعنه الله ما أكثر ما يؤتَى به. فقال -عليه الصلاة والسلام-: لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم". [290] فجعل له حرمة الأخوة، وهذا يوجب الشفقة.

وأما القرطبي: فحكى خلافاً فيه في "جامعه" [291] قال: وإنما قال -عليه الصلاة والسلام-: "لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم" في حق هذا الرجل بعد إقامة الحد عليه، ومن أقيم عليه حد الله فلا ينبغي لعنه، ومن لم يُقَم عليه فلعنه جائز، سواء سُمِي أو عُيِّن أم لا، لأنه -عليه الصلاة والسلام- لا يلعن إلَّا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للعنة، وإذا تاب منها وأقلع وطهَّره الحد فلا لعنة تتوجه عليه، ومن هذا قوله -عليه الصلاة والسلام-: " إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب" (رواه البخاري ومسلم)، فدل هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللعن إنما يكونا قبل أخذ الحد وقبل التوبة.

فائدة: حكى أبو جعفر النحاس عن بعض العلماء أنه قال: إذا لعن الإنسان مَن لا يستحق اللعن، فليبادر بقوله إلَّا أن يكون لا يستحق. [292]

فرض بيان العلم وتحريم كتمانه.

وهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي أَرَادَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: " لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا".

قال القرطبي: وَتَحْقِيقُ الْآيَةِ هُوَ: أَنَّ الْعَالِمَ إِذَا قَصَدَ كِتْمَانَ الْعِلْمِ عَصَى، وَإِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ لَمْ يَلْزَمْهُ التَّبْلِيغُ إِذَا عُرِفَ أَنَّهُ مَعَ غَيْرِهِ. وَأَمَّا مَنْ سُئِلَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ التَّبْلِيغُ. انتهى كلامه.

قال الشيخ العلامة محمد عبده-رحمه الله-هنا كلاما نفيساً:

([290]) البخاري (6777، 6781)، وأبو داود (4477) في الحدود، باب: الحد في الخمر، ومطولاً (4478)، والنسائي في "الكبرى"، وكما في التحفة (10/ 474)، وابن حبان (5730)، وأحمد (2/ 299، 300)، والبيهقي (8/ 312)، والبغوي (2607).

([291])الجامع لأحكام القرآن (2/ 189).

([292]) انظر لهذه الفوائد الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن (4/ 508)

إِنَّ الْعِبْرَةَ فِي الْآيَةِ هِيَ أَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا خَاصًّا، فَكُلُّ مَنْ يَكْتُمُ آيَاتِ اللهِ وَهِدَايَتَهُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِهَذِهِ اللَّعْنَةِ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَعِيدُ وَأَشْبَاهُهُ حُجَّةً عَلَى الَّذِينَ لَبِسُوا لِبَاسَ الدِّينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَانْتَحَلُوا الرِّيَاسَةَ لِأَنْفُسِهِمْ بِعِلْمِهِ، حَاوَلُوا التَّحَيُّلَ مِنْهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْكِتْمَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا سُئِلَ الْعَالِمُ عَنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى فَكَتَمَهُ.

وَأَخَذُوا مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ قَاعِدَةً؛ هِيَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ نَشْرُ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَدَعْوَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ وَبَيَانُهُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُجِيبَ إِذَا سُئِلَ عَمَّا يَعْلَمُهُ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عَالِمٌ غَيْرُهُ، وَإِلَّا كَانَ لَهُ أَنْ يُحِيلَ عَلَى غَيْرِهِ.

وَقَدْ رَدَّهَا أَهْلُ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ فَقَالُوا:

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعِيدِ عَلَى الْكِتْمَانِ، بَلْ أَمَرَ بِبَيَانِ هُدَاهُ لِلنَّاسِ، وَبِالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْعَدَ مَنْ يَتْرُكُ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ، وَذَكَرَ لَهُمُ الْعِبَرَ فِيمَا حَكَاهُ عَنِ الَّذِينَ قَصَّرُوا فِيهَا مِنْ قَبْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} (آل عمران: 187) إِلَخْ...

وَقَوْلِهِ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} -إِلَى قَوْلِهِ فِي الْمُتَفَرِّقِينَ عَنِ الْحَقِّ – {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (آل عمران: 104، 105).

وَقَوْلِهِ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ فِي عِصْيَانِهِمُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ لَعْنَتِهِمْ {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} (المائدة: 78، 79) إِلَخْ.

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا لِتَرْكِهِمُ التَّنَاهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

نَعَمْ ؛ إِنَّ هَذَا فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَلَكِنْ لَا يَكْفِي فِي كُلِّ قُطْرٍ وَاحِدٌ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَلِنَهْيِهِمْ وَأَمْرِهِمْ تَأْثِيرٌ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} (آل عمران: 104) إِلَخْ.

قال: وَمَا وَرَدَ مِنْ تَدَافُعِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي الْفَتْوَى فَإِنَّمَا هُوَ فِي الْوَقَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلنَّاسِ، لَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى مَقَاصِدِ الدِّينِ الثَّابِتَةِ بِالنُّصُوصِ وَسِيَاجِهَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَذَهَبَ بَعْضُ المؤولين مَذْهَبًا آخَرَ هُوَ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ مَخْصُوصٌ بِالْكَافِرِينَ، فَتَارِكُ الْمُؤْمِنِ فَرِيضَةً مِنَ الْفَرَائِضِ كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَحِقُّ

بِهِ وَعِيدَ الْكَافِرِينَ فَيُلْحِقُهُ بِالْكُفَّارِ. وَهَذَا كَلَامٌ قَدْ أَلِفَتْهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَكِنَّهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى اللهِ فِي الْآخِرَةِ وَعَلَى كِتَابِهِ فِي الدُّنْيَا يَظْهَرُ أَنَّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ، وَإِذَا بَحَثْتَ فِيهِ يَظْهَرُ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَرَى حُرُمَاتِ اللهِ تُنْتَهَكُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَدِينَ اللهِ يُدَاسُ جِهَارًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَرَى الْبِدَعَ تَمْحُو السُّنَنَ، وَالضَّلَالَ يَغْشَى الْهُدَى، وَلَا يَنْبِضُ لَهُ عِرْقٌ وَلَا يَنْفَعِلُ لَهُ وِجْدَانٌ، وَلَا يَنْدَفِعُ لِنُصْرَتِهِ بِيَدٍ وَلَا بِلِسَانٍ، هُوَ هَذَا الَّذِي إِذَا قِيلَ لَهُ إِنَّ فُلَانًا يُرِيدُ أَنْ يُصَادِرَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ رِزْقِكَ

أَوْ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْكَ عِنْدَ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ، تَجِيشُ فِي صَدْرِهِ الْمَرَاجِلُ وَيَضْطَرِبُ بَالُهُ وَيَتَأَلَّمُ قَلْبُهُ، وَرُبَّمَا تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ مَضْجَعِهِ، وَهَجَرَ الرُّقَادُ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَيُعْمِلُ الْفِكْرَ فِي اسْتِنْبَاطِ الْحِيَلِ وَإِحْكَامِ التَّدْبِيرِ لِمُدَافَعَةِ ذَلِكَ الْخَصْمِ أَوِ الْإِيقَاعِ بِهِ، فَهَلْ يَكُونُ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ مِثْلِ هَذَا قِيمَتُهُ؟

وَهَلْ يُصَدَّقُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ تَمَكَّنَ مَنْ قَلْبِهِ، وَالْبُرْهَانَ عَلَيْهِ قَدْ حَكَمَ عَقْلَهُ، وَالْإِذْعَانَ إِلَيْهِ قَدْ ثَلَّجَ صَدْرَهُ؟

سْهُلُ عَلَى مَنْ نَظَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْعَقَائِدِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى أَسَاسِ الْجَدَلِ أَنْ يُجَادِلَ نَفْسَهُ وَيَغُشَّهَا بِمَا يُسَلِّيهَا بِهِ مِنَ الْأَمَانِي الَّتِي يُسَمِّيهَا إِيمَانًا، وَلَكِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهَا فَنَاقَشَهَا الْحِسَابَ وَرَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ لَعَلِمَ أَنَّهُ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَنَّهُ يَعْبُدُ شَهْوَتَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَنَّ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي سَرَدَهَا الْكِتَابُ سَرْدًا، وَأَحْصَاهَا عَدًّا - وَأَظْهَرُهَا بَذْلُ الْمَالِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ وَتَأْيِيدِ الْحَقِّ - كُلُّهَا بَرِيئَةٌ مِنْهُ، وَأَنَّ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ كُلَّهَا رَاسِخَةٌ فِيهِ.

فَلْيُحَاسِبِ امْرُؤٌ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ لَعَلَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ وَهُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. [293]

قلتُ: وفي ذلك يقول عبد الله بن المبارك-رحمه الله-:

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ .... وأحبارُ سَوْءٍ ورهبانُها.

وباعُوا النفوسَ ولم يَرْبَحُوا ...ولم تغْلُ فِي البَيْعِ أثْمَانُهَا.

لقدْ رتعَ القومُ في جِيفَةٍ ....يَبِينُ لذِي العَقْلِ إنْتَانُهَا.

حرمانُ العلمِ مَن لا يستحقه أو يفسد به واجبٌ.

قال العلامةُ الراغب:

وليس ذلك (أي الحث على بيان الهدى والعلم) بمنافٍ منع حقائق الحكمة عمن لا يستحقها، فإن ذلك دعاء له أن يترشح لقبولها وحسن سماعها وحفظها لئلا يستعين بها في طريق الشر، فليس العلم بأهون على الله-عز وجل- من المال الذي هو عَرَض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وقد منع أن يمكن منه السفيه الذي لا يحسن مراعاته، فقال: **{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}.** [294]

ومنه: قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ. [295]

([293]) نقله تلميذه محمد رشيد رضا في تفسير المنار (2/ 42)

([294])تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 356)

(295) هو عند مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع عن ابن مسعود موقوفاً: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. بإسناد مرسل أو منقطع. وهو صحيح.

وَقَالَ علي بن أبي طالبٍ -رضى الله عنه-: (حَدِّثِ النَّاسَ بِمَا يَفْهَمُونَ أَتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ). [296]

وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى بَعْضِ الْعُلُومِ، كَعِلْمِ الْكَلَامِ أَوْ مَا لَا يَسْتَوِي فِي فَهْمِهِ جَمِيعُ الْعَوَامِّ، فَحُكْمُ الْعَالِمِ أَنْ يُحَدِّثَ بِمَا يُفْهَمُ عَنْهُ، وَيُنْزِلَ كُلَّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَتَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ تَعْلِيمُ الْمُبْتَدِعِ الْجِدَالَ وَالْحِجَاجَ لِيُجَادِلَ بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ.

وَلَا يُعَلِّمُ الْخَصْمَ عَلَى خَصْمِهِ حُجَّةً يَقْطَعُ بِهَا مَالَهُ.

وَلَا السُّلْطَانُ تَأْوِيلًا يَتَطَرَّقُ بِهِ إِلَى مَكَارِهِ الرَّعِيَّةِ.

وَلَا يَنْشُرُ العلماءُ الرُّخَصَ فِي السُّفَهَاءِ فَيَجْعَلُوا ذَلِكَ طَرِيقًا إِلَى ارْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (لَا تَمْنَعُوا الْحِكْمَةَ أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ وَلَا تَضَعُوهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا). ولا يصح مرفوعاً.

ومثله ما رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (لَا تُعَلِّقُوا الدُّرَّ فِي أَعْنَاقِ الْخَنَازِيرِ)؛ يُرِيدُ تَعْلِيمَ الْفِقْهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ.

وَقَدْ قَالَ سَحْنُونٌ: إِنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: **(مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ).** إِنَّمَا جَاءَ فِي الشَّهَادَةِ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَالصَّحِيحُ خِلَافُهُ، لِأَنَّ فِي الْحَدِيثِ (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ) وَلَمْ يَقُلْ عَنْ شَهَادَةٍ، وَالْبَقَاءُ عَلَى الظَّاهِرِ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْهِ مَا يُزِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [297]

مَن احتج بالآية على قبول خبر الواحد، وعدم جواز اخذ الأجرة على التعليم.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ...

---

(296) وهو من أفراد البخاري عَن أبي الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلَة قَالَ: سَمِعت علياً يَقُول: حدثوا النَّاس بِمَا يعْرفُونَ، أتحبون أَن يكذب الله وَرَسُوله. رواه في كتاب العلم، باب من خص قوماً دون قوم في العلم، ذكره البخاري تعليقاً في أول الباب ثم عقبه بالإسناد. ولم يصح في المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وانظر " المقاصد الحسنة " للسخاوي صفحة 93.

(297) انظر تفسير القرطبي (2/ 184).

يقولون: إن الله تعالى أوجب على العلماء بيان أحكام الحق والهدى للناس، وجعلهم الطريق إلى معرفة الدين، وبذلك فقد أوجب العمل على مَن بلغه الدين عن طريقهم، وإنْ لم يبلغوا مبلغ التواتر. فدلَّ ذلك على قبول خبرهم.

فإذا اعترض معترضٌ وقال: إنما القصد أنْ يكثروا الرواية للأحكام حتى تتواتر في نقلها، قلنا له: هَذَا غَلَطٌ لِأَنَّهُمْ مَا نُهُوا عَنِ الْكِتْمَانِ إلَّا وَهُمْ مِمَّنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الْكِتْمَانُ وَمَنْ جَازَ مِنْهُمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الْكِتْمَانِ جَازَ مِنْهُمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الْوَضْعِ وَالِافْتِرَاءِ فَلَا يَكُونُ خَبَرُهُمْ مُوجِبًا لِلْعِلْمِ.

وحجية خبر الواحد وإفادته للعلم مُقَرَّرَةٌ تمامَ التقريرِ في كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" للعلامة ابن حزمٍ رحمه الله. وهو من أعمدة كتب الأصول.

وكذا احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى التَّعْلِيمِ لِأَنَّ الْآيَةَ لَمَّا دَلَّتْ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ كَانَ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَيْهِ أَخْذًا لِلْأُجْرَةِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَهو غَيْرُ جَائِزٍ. (298)

*****

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)} **(البقرة 141-142)**

قلتُ: لما ذكر الله تعالى الذين يكتمون العلم والحق والهدى من اليهود وأشباههم من علماء السوء وذكر استحقاقهم لِلَّعن، ثم استثنى منهم أهل التوبة الذين يصلحون بنشر الحق بمقدار ما أفسدوا. ذكر أنَّه لم يعد هناك عذرٌ أمام كلِّ مَن بَلَغَه الحقُّ فكفر به ودسَّ قلبه وعقله ولم يرفع به رأساً.

فهؤلاء الذين بلغتهم الدعوة من اليهود وغيرهم وجحدوها واستيقنتها أنفسُهم استحقوا بفعلهم هذا الطردَ الأبدي من رحمة الله تعالى، ودعاء الملائكة عليهم بالويل والثَبور، وكراهية المؤمنين لهم.

فكما خَصَّ الخطاب من قبل علماء السوء عمَّ هنا كل مَن بلغه الحق ونكس عنه.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} فلم يكتفوا بكفرهم بل أصروا عليه إلى الممات، وفي الآية دلالة لطيفةٌ على رحمة الله تعالى بفتح باب التوبة، فدليل الخطاب أنه من لم يمت على الكفر خرج من اللعنة والوعيد، لأن الواو هنا للحال. {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}

هنا نكتةٌ لطيفةٌ: (إن قيل: كيف يلعنه الناس أجمعون، وأهل دينه لا يلعنونه؟ قلنا الجواب عنه من وجوه.

---

(298) انظر أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 124)، وانظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 141).

أحدها: أن أهل دينه يلعنونه في الآخرة، لقوله تعالى: ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا [العنكبوت: 25].

وثانيها: قال قتادة والربيع: أراد بالناس أجمعين المؤمنين، كأنه لم يعتد بغيرهم وحكم بأن المؤمنين هم الناس لا غير.

وثالثها: أن كل أحد يلعن الجاهل والظالم لأن قبح ذلك مقرر في العقول، فإذا كان هو في نفسه جاهلا أو ظالما وإن كان لا يعلم هو من نفسه كونه كذلك، كانت لعنته على الجاهل والظالم تتناول نفسه عن السدي.

ورابعها: أن يحمل وقوع اللعن على استحقاق اللعن، وحينئذ يعم ذلك). [299]

قال تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} أي ما كثين فيها، والضمير إما أن يعود على اللعنة؛ بمعنى ماكثين في اللعنة ملازمين لها، أو يعود على نار جهنم **إلا أنها أُضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا** ولأنها المعهود الذهني من الخطاب بدلالة ما بعدها من قوله تعالى: {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ} لأنهم لم يكتفوا بجحود الحق بل حاربوه أشد المحاربة، فكان الجزاء من جنس العمل عذابٌ بلا هوادة، ولا يُحسب خيرٌ أفادوه الإنسانية فيخفف عنهم، {وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } أي ولا يؤخَّرون عن عذابهم بعد الموت، فعذابهم يبدأ من دخولهم القبر، وقيل: معناه لا ينظر الله إليهم، وضعفه غيرُ واحدٍ من أصحاب العربية لأن النظر بمعنى البصر يتعدى ب"إلى "غالبا.

فرجح معنى "يُنظَرون" أي يؤجَّلون. قال الرازي: بخلاف حكم الدنيا فإنهم يُمهَلون فيها إلى آجالٍ قدَّرها الله تعالى، وفي الآخرة لا مُهلةَ البتة، فإذا استمهلوا لا يُمهَلون، وإذا استغاثوا لا يُغاثون وإذا استعتبوا لا يُعتَبون، وقيل لهم {إخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: 108] نعوذ بالله من ذلك.

قال: والحاصل أن هذه الصفات الثلاثة التي ذكرها الله تعالى للعقاب في هذه الآية دلت على يأس الكافر من الانقطاع والتخفيف والتأخير. [300]

قلتُ: جزاءً وفاقا بما حاربوا الحق من بعد عرفوه كمعرفتهم أبناءَهم. اللهم ثبتنا على الحق والدين.

*****

---

[299] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 143)

[300] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 144)

استطرادٌ إلى قضية التوحيد.

قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)} **[البقرة: 163، 164]**

في الآيات استطرادٌ بديعٌ فيه تقرير وحدة الخالق المعبود. وكذلك تقرير وحدة الآمر المطاع سبحانه.

يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز: **لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها، فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا والمروة كان من شأنه أن يلقي في روع حديثي العهد بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ولا سيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءة للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها؛ فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد، وألا نترك هذه الخلجات النفسية دون دفع وإبعاد** [301]، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجوههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفتين بأركانها، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة، كل أولئك لا يَقصد به الإسلامُ توجيهَ القلوب إلى هذه الأحجار والآثار؛ تزلفًا بعبادتها أو رجاءً لرحمتها أو طلبًا لشفاعتها، **وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظان بركته التي تنزلت فيها على عباده الصالحين** من قبل، ثم تجديد ذكرى أولئك الصالحين في النفوس، وتمكين محبتهم في القلوب، باقتفاء آثارهم، والتأسي بحركاتهم وسكناتهم، **حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها، وحتى تنتظم منها أمةٌ واحدة تدور حول محورٍ واحد، وتتجه إلى مقصدٍ واحد هو أعلى المقاصد وأسماها {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** أتدرون من هو ... ؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروة، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم، ولكنه **{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة ...انتهى [302]

ثم انتقل السياق إلى الارتقاء بخلجات المؤمن وتأملاته لآفاقٍ مفتوحةٍ ترى الكون من عين مؤمنةٍ تبحث عن الله في آثار عظمته وجمال وجلال وحكمة خلقه. إنه ربط قضية التوحيد بدليلها ليرتفع المؤمن من الالتزام الشعائري في الدين إلى الالتزام الروحي والعقلي بالديّان سبحانه لتعود القضية قولا واحد في قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}؛ فبرحمانيته (الرحمن سبحانه) العامة خلق الإنسان وهيأ له الكون بحكمة بالغةٍ، وبرحيميته (الرحيم تعالى ذكره) هداه إلى التأمل في عظمة الخلق ليعرف الخالق، وهدى المؤمنين هدايةً خاصةً للإيمان بالله وبآياته.

---

[301]( ) وهو ما يصل الحديث بنفى الجناح عن الطواف بين الصفا والمرة الذي سبق أن أفاض السياق فيه، فتأمل مشكورا.

[302](النبأ العظيم (ص: 243)

{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} قال أرباب العربية أنَّ لفظ " إله" من ألِهَ إلاهةً أي عبد عبادةً، والإله هو كل معبودٍ بحقٍ أو بباطل. أما لفظ الجلالة "الله" فلا يُطلق إلا على المعبود بحقٍ سبحانه، وهو ما حدا بالخليل والشافعي وغيرهما أن ينكرا أن يكون مشتقا من لفظ الإله مع الحذف والإدغام كما بينا في تفسير الفاتحة.

ولا يهمنا كثيراً المبحث اللغوي هنا فإن الدلالة من الآية لها وجهةٌ أخرى حيث جاءت تعقيباً بعد ذكر الشعائر لتزكية معنى المقصد الأول من حركة المؤمن في عبادته وفي حياته وفي فكره إنه التوجه نحو الله الواحد الرحمن الرحيم بلا أي التفاتٍ لأى شيءٍ سواه سبحانه، الذي خلق وبرأ وقدَّر وهدى.

وأما اسمه سبحانه "الواحد" فله ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى: أحدها: أنه لا ثاني له فهو نفي للعدد، والآخر: أنه لا شريك له، والثالث: أنه لا يتبعض ولا ينقسم. [303]

قال العلامة ابن جزي رحمه الله : واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات الأولى: توحيد عامة المسلمين وهو الذي يعصم النفس من الهلك في الدنيا، وينجي من الخلود في النار في الآخرة وهو نفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، والأشباه والأضداد. الدرجة الثانية: توحيد الخاصة، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق المكاشفة لا بطريق الاستدلال الحاصل لكل مؤمن، وإنما مقام الخاص في التوحيد يغني في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده واطراح جميع الخلق، فلا يرجو إلّا الله، ولا يخاف أحدا سواه إذ ليس يرى فاعلا إلّا إياه ويرى جميع الخلق في قبضة القهر ليس بيدهم شيء من الأمر، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب، والدرجة الثالثة ألّا يرى في الوجود إلّا الله وحده فيغيب عن النظر إلى المخلوقات، حتى كأنها عنده معدومة. وهذا الذي تسميه الصوفية مقام الفناء بمعنى الغيبة عن الخلق حتى أنه قد يفنى عن نفسه، وعن توحيده: أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-على أقسام الفناء في اصطلاح السالكين:

أنه يراد به ثلاثة معان أحدها محمود والثاني منقوص والثالث إلحاد.

فالأول: أن يفنى بعبادته عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبمحبته عن محبة ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه وهذه حقيقة التوحيد الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب وهذا حال الأنبياء وأتباعهم والفناء عن عبادة السِّوى يُقارنه البقاء بعبادته تعالى فهذا الفناء يقارنه البقاء وهو حقيقة قول لا إله إلا الله.

---

[303] تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 104)

وأما النوع الثاني: وهو الفناء عن شهود السوى ويسمى الاصطلام ومنه الفناء في توحيد الربوبية وهو أن يغيب بمشهوده عن شهوده وبمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته فيفنى بالمعروف عن المعرفة والعارف.

وهذه الحال ليست واجبة ولا مستحبة وليست حال الأنبياء ولا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ولا أكابر المشايخ الصالحين ولكن هو حالٌ يعْرِض لطائفةٍ من السالكين كما يُذْكر عن أبي يزيد البسطامي-رحمه الله-وعن غيره أنه قال في هذا المشهد سبحاني أو ما في الجبَّة إلا الله ونحو ذلك.

... لكن بكل حال ليس العبد مأمورًا بالمقام في هذه الحال وهي تُحمد من جهة انجذاب القلب إلى ربه ومن جهة توجُّهه إليه وتألُّهه إيَّاه ويسميها بعضُ الناس الجمع الأول...

وهذا المقام مما حققه الجُنيد رضي الله عنه وأمثاله من أئمة أهل الطريق الذين يُقتدى بهم الذين يلاحظون الأمرَ والنهي كالشيخ عبد القادر ونحوه من المتأخرين ...أي على كلِّ وليٍّ لله أن يتبع الأمر والنهي الإلهي النبوي الشرعي المحمدي ويحكِّم على نفسه الكتاب والسنة ولا يخرج عن ذلك لا لذوقٍ يخالفه أو وجدٍ أو حالٍ أو مشهد أو غير ذلك بل يزن أذواقه ومواجيده وأحواله وحقائقه بالكتاب والسنة......

وأصحاب هذا المشهد قد ينتقل أحدهم من هذا إلى الوحدة ولهذا يقولون السالك يشهد أولاً طاعة ومعصية ثم يشهد طاعةً بلا معصية ثم لا يشهد لا طاعة ولا معصية.

وقد يقول بعضهم يكون أولاً فقيرًا ثم يصير نبيًّا ثم يصير إلهًا وحينئذ يدخلون إلى النوع الثالث من الفناء وهو فناء المُلْحِدين الذين يقولون الوجود واحد كابن عَرَبِي وابن سَبْعين وابن الفارض والقُوْنَوي والتِّلِمْساني وأمثالهم ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق وربما جعلوه حالاً فيه ومذهبهم دائر بين الاتحاد والحلول ولكن قد لا يرضون لفظ الاتحاد بل يقولون الوحدة لأن الاتحاد يكون بين شيئين وهم يقولون الوجود واحد لا تعدد فيه.. [304]

قال القشيري طيب الله ثراه:

شرّف عباده المؤمنين غاية التشريف بقوله {وإلهكم}. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامة من يعدّه من خاصّ الخواص أن يقول له: عبدي، وذلك (أي قوله: وإلهكم) أتمّ من هذا (أي قوله: عبدي) بكثير لأن قوله: «وَإِلَهُكُمْ»: وإضافة نعته أتمّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علّة، وكونك له عبد يعوّض كل نقصك وآفتك.

واسمه تعالى: «الواحد» أى مَن لا مِثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا قديم يؤانسه.

لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده.

---

[304]() الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (ص: 101)

أحديُّ الحق، صمدىّ العين، ديمومّى البقاء، أبدىّ العز، أزلىّ الذات.

واحدٌ في عز سنائه، فرد في جلال بهائه، وِتر في جبروت كبريائه، قديمٌ فى سلطان عزّه، مجيد في جمال ملكوته. انتهى [305]

وللمؤمن أن يرتقي بنظره متأملا في خلق الله تعالى الدال على وحدانيته وعظمته.

فمن رحمانية الله أن (تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته، وأمارات وجوده، وسمات ربوبيته التي هى أقسام أفعاله. ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهين تلطفت عن العبارة، ووجوه من الدلالات تدقّ عن الإشارة، فما من عينٍ من العدم محصولة-من شخص أو طلل، أو رسم أو أثر، أو سماء أو فضاء، أو هواء أو ماء، أو شمس أو قمر، أو قطر أو مطر، أو رمل أو حجر، أو نجم أو شجر-إلا وهو على الوحدانية دليل، ولمن يقصد وجوده سبيل) [306]

ففي قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ} أي إلى قوله: {لَآيَاتٍ لقومٍ يعقلون} ثمانية أشياءٍ في كل شيء منها آياتٌ وآياتٌ تنوء بحملها مجلدات الشروح والعلوم:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ...تدل على أنه الواحدُ.
و(إن) حرف توكيد لمَن أراد أن يستيقن عن تأملٍ وتعقلٍ، فالإيمان في الإسلام بصيرةٌ وتفكر، وليس كما وصف كبير قساوسة الغرب " باسكال" الإيمان المسيحي بأنه إيمانٌ أعمى يفسده التأمل والمجادلة.

ففي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب التي تحاول فهمها علوم الفيزياء والجيولوجيا والأحياء وغيرها ما يدعو القارئ في صفحة الكون للإيمان بخالقٍ عظيمٍ لهذا الكون الكبير البديع. **وهكذا قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}(ق: 6 - 7)**

وأفرد الأرض ولم يجمعها في دقةٍ إعجازيةٍ خطيرة لأن الأرض كوكب متفرد بعوامل ملاءمته لحياة البشر بما يجعلها واحدة، والسماوات كل ما عدا الأرض ويحيط بها وهى كثيرة.
قوله {واختلاف الليل والنهار} أى بالذهاب والمجيء.

قال الراغب في تفسيره: أن يخلف كل واحد منهما الأخر، كقوله عز وجل: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً}، وقوله: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} وقوله: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} انتهى.

وتأمل تعبير الاختلاف هذا الذي يعبر عن حالة من التعاقب والخُلْف المستمر. ففي مكانٍ يكون ليلا وفي ذات الوقت في مكانٍ آخر يكون نهارا، وذلك لأن الأرض بيضاوية وتتعرض للشمس من جانب واحد، فما

---

[305]( ) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 143)

[306]( ) المرجع السابق (1/ 144)

كان منها في ناحية الشمس فهو نهار، وما كان في الناحية الأخرى فهو ليل. وقدم الليل على النهار لأن الظلمة في الكون هي الأصل، وإنما يشرق النهار بحبس آشعة ضوء الشمس في الجانب المواجه لها بواسطة الغلاف الجوي، أما في خارج الأرض فهو ظلام وليل دائم.
قوله: {وَالْفُلْكِ} والفُلْك: السفينة المدورة. يستعمل مفرداً وجمعاً بوزن واحد والتغاير بالوصف، يقال فلك مشحونة وفلك مشحونات.
قوله: {الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} أي يسيرها الله بالريح مقبلة ومدبرة، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ} (الشورى: 32). أى كالجبال.

وفي هذا إشارةٌ إلى قوانين الفيزياء والطفو وعلوم الملاحة وكل تطور بلغ به الإنسان بهداية ربه أن يسير في عباب البحر المتلاطم لا يرى سوى الماء من كل ناحية ويهتدي في طريقه ويقضي حوائجه {بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ} سفرا ونقلا وتجارةً وسياحة ومتعةً بإذن الله وحفظه.

قوله: {وما أنزل الله من السماء مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ} فيه الإشارة إلى علوم الطقس والمناخ وعجائب تكون السحاب والمطر ونزوله بإذن الله {فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ} أي أظهر ما فيها من النضارة والبهجة كأنما هى حيةٌ نابضةٌ تشير إلى الرب الخلاق العظيم. قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (فصلت: 39). استدل في هذه الآية بقدرته تعالى على إحياء موات الأرض وما يدرسه العلماء في علوم النبات على إحيائه تعالى الموتى وحسابهم، فاستدل بمعلومٍ على مجهولٍ، في جدلٍ وعقلانيةٍ بسيطةٍ مدهشة.

قوله تعالى: {وبثَّ فيها من دل دابة} أى نشر في الأرض المخلوقات بكل تنوعها وعجائب خلقها في إبداعٍ يجعل علماء الحيوان والأحياء يقفون مشدوهين كل يوم أمام اكتشافهم لما يجهلون من عجائب ومجهول المخلوقات لديهم حتى إن أكثرهم علما لا يدعي أنه عرف أكثر من 10% من المخلوقات على الأرض.

قال الراغب في تفسيره: والبث إظهار ما كان خفياً عن الحاسة.

والدبيب أصله حكاية صوت المشي، ثم قيل: دب إذا مشى. والدابة ما كان يمشي، وهو كل حيوان.

قوله: {وتصريف الرياح} والتصريف: صرف الشيء من وجه إلى وجه، والمعنى حكم الله تعالى وحكمته في حركة الرياح وفوائدها في حفظ حياة البشر بما لا تكفيه المجلدات.

وقد جعل بعض المحققين ذكر الرياح بالجمع لمعنى النفع فيها، بينما ذكر القرآن الريح بالإفراد إذا أراد التعذيب بها. وفي الأمر بحثٌ.

وقوله: {وَالسَّحَابِ المسخَّر} تقييد للسحاب بأنه مسخر أى يسير بأمر الله وِفق حساباتٍ ومتغيراتٍ شتى لا يمكن ضبها كاملة، ولكم حاول البشر التحكم في السحاب ولم يفلحوا.
كل ذلك يقسم الله تعالى إنَّ فيه {لآيات لقومٍ يعقلون}. فالعقل في الإسلام مطية الإيمان، يستعمله

المنصفون ليستيقنوا، ويستعمله المؤمنون ليزدادوا إيمانا، أما المعاندون فيهملونه فيزدادوا كفرا ويصيرون كالأنعام، بل أضل سبيلا.

قال تعالى في أولئك الهالكين: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} (الفرقان - 44)

جاء في التفسير الوسيط في هذا الآية لاتصالها بما نحن فيه من هداية الآيات:

و " أم " هنا: هي المنقطعة، وهى تجمع فى معناها بين الإضراب الانتقالي، والاستفهام الإنكاري.

أى : بل أتحسب أن أكثر هؤلاء الكافرين يسمعون ما ترشدهم إليه سماع تدبر وتعقل ، أو يعقلون ما تأمرهم به أو تنههم عنه بافتتاح بصيرة ، وباستعداد لقبول الحق . .

كلا إنهم ليسوا كذلك، لاستيلاء الجحود والحسد على قلوبهم.

وقال -سبحانه -(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ . . .) لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، ولكن المكابرة والمعاندة ومتابعة الهوى . . . حالت بينها وبين الدخول فيه ، واتباع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله -سبحانه -: (إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) ذم لهم على عدم انتفاعهم بالهداية التى أرسلها الله - تعالى - إليهم .

أى : هؤلاء المشركون ليسوا إلى كالأنعام فى عدم الانتفاع بما يقرع قلوبهم وأسماعهم من توجيهات حكيمة ، بل هم أضل سبيلا من الأنعام : لأن الأنعام تناقد لصاحبها الذى يحسن إليها ، أما هؤلاء فقد قابلوا نعم الله بالكفر والجحود .

قال صاحب الكشاف: فإن قلتَ: ما معنى ذكر الأكثر؟

قلتُ: كان فيهم من لا يصده عن الإسلام إلى داء واحد، وهو حب الرياسة، وكفى به داء عضالا .

فإن قلتَ: كيف جُعِلوا أضل من الأنعام؟

قلتُ: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم ، من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك . انتهى.

****

حقيقة الإيمان، و مشهد الخذلان.

يقول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)} **[البقرة: 165 - 167]**

انتقالٌ لطيفٌ لتمثيل قضية الإيمان بشتى حدودها في نفوس المؤمنين؛ أولئك الذين قررنا ابتداءاً أن سورة البقرة في سياقها العام تبني دولة الإيمان في نفوسهم. ولأن القرآن العظيم وفي هذه السورة بخصوصها ذكر أنه" هدى للمتقين" فكان مُتقَناً جدا في موضعه أن ينتقل من قضية التوحيد -في صميم حملة تصحيح المفاهيم والشعائر-إلى دعم ركيزة التوحيد والاستدلال عليه، ثم إلى فهم جوهر التوحيد والإيمان في النفوس وبيان أثره في قلوب المؤمنين وحركاتهم واتجاهاتهم ومواقفهم وحتى شعورهم الداخلي.

فحين يخبرنا كتاب الله أنه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} **يبين أن هذا الأمر يخالف أصل الإيمان في القلب، فالإيمان لا يكون ادعاءً، ولا محض تعبدات يقوم بها الجسد، ولا أقوال يخالفها موالاة أعداء الله وحبهم وحب طريقتهم، لأن الحقيقة الكبرى التي قررها القرآن هنا:** {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}. **ويبينها من صحيح السنة:** "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ». [307]

وفي " المسند " عن معاذ بن أنس الجهني أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن أفضل الإيمان، فقال: أن تحب لله وتبغض لله وتُعمِل لسانك في ذكر الله ". وفيه -أيضا -عن عمرو بن الجموح، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله، وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله ".

وفيه: عن البراء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله وتبغض في الله.

وخرج الإمام أحمد، وأبو داود عن أبي ذر، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " أفضل الأعمال: الحب في الله والبغض في الله".

يقول شيخ الإسلام في رسالة "العبودية": وَإِنَّمَا عبد الله من يرضيه مَا يُرْضِي الله ويسخطه مَا يسْخط الله، وَيُحب مَا أحبه الله وَرَسُوله وَيبغض مَا أبغضه الله وَرَسُوله، ويوالي أَوْلِيَاء الله ويعادي أعدَاء الله

---

[307] حسن بالشواهد والمتابعات كما قال الألباني: فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل. والله أعلم. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (4/ 307)

تَعَالَى وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتكْمل الْإِيمَان كَمَا فِي الحَدِيث: " من أحب لله وَأبْغض لله وَأعْطى لله وَمنع لله فقد اسْتكْمل الْإِيمَان ".[308]

وقال العلامة ابن رجب [309] رحمه الله:

يجبُ على المؤمن محبةُ الله ومحبةُ من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان مِنْ علامات وجود حلاوة الإيمان أنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، ويُحرمُ موالاةُ أعداءِ الله. ومن يكرهه الله عموماً، وقد سبق ذلك في موضع آخر، وبهذا يكونُ الدِّينُ كلُّه لله.

ومن كان حُبُّه وبُغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب، فيجب عليه التَّوبةُ من ذلك، والرُّجوع إلى اتِّباع ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم -من تقديم محبة الله ورسوله، وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفوس ومراداتها كلها.

قال وُهيب بنُ الورد: بلغنا -والله أعلم -أنَّ موسى -عليه السلام -، قال: يا ربِّ أوصني؟ قال: أوصيك بي، قالها ثلاثاً حتى قال في الآخرة: أوصيك بي ألا يعرض لك أمرٌ إلا آثرت فيه محبتي على ما سواها، فمن لم يفعل ذلك لم أُزكِّه ولم أرحمه. [310] انتهى

فالإيمان في الحقيقة معنى شامل لإقرار القلب وحركته في الاتجاه إلى الله تعالى، تلك الحركة التي تُتَرجَم عملياً إلى حركة اللسان والجوارح في نصرة هذا الدين، ورفع راية منهجه في النفس والأهل وبين الناس.

وإن الجدل في تعريف الإيمان واقتصاره على الإقرار أو تعديه لجانب الفعل والعمل لهو حديثٌ عقيمٌ يفترض خطأً الانفصال بين القلب وحركته وبين الجوارح والأفعال، وكونها انعكاساً له وكونه محركاً لها.

فلا يتصور عاقلٌ أن يكون للقلب اتجاهٌ وللعمل اتجاهٌ آخرٌ إلا استثناءً أو قهرا ولا يدوم أبداً، فالعمل ترجمان رغبات القلوب، وعلى ذلك فلابد ممن يدعي حب الله تعالى والإيمان به أن يبين معنى هذا الحب في فعله وتركه لله تعالى.

تعصي الإله وأنت تزعمُ حبَّهُ.... هذا لعمري في القياسِ بديعُ.

لو كنتَ تصدُقَ حبه لأطعتَهُ.... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ.

قال الحافظ ابن حجر:

---

308 أخرجه: أبو داود (4681) عن أبي أمامة الباهلي، به مرفوعاً، وهو صحيح.

309 جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل (3/ 1152)

310 أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " 8/141 – 142. وأخرجه: أحمد في " الزهد ": 59 عن كعب بن علقمة.

لأن من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فقد صار حبه كله له، ويلزم من ذلك أن يكون بغضه لله وموالاته له ومعاداته له، وأن لا تبقى له بقية من نفسه وهواه، وذلك يستلزم محبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، وكذلك من الأشخاص، ويلزم من ذلك معاملتهم بمقتضى الحب والبغض، فمن أحبه الله أكرمه وعامله بالعدل والفضل، ومن أبغضه لله أهانه بالعدل، ولهذا وصف الله المحبين له بأنهم {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [المائدة: 54] . وكان من دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يبلغني إلى حبك ".

فلا تتم محبة الله ورسوله إلا بمحبة أوليائه وموالاتهم وبغض أعدائه ومعاداتهم. وسئل بعض العارفين: بما تنال المحبة؟ قال: بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، وأصله الموافقة. (311)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خلَقَك".

****

تحليل الآية

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ....} الآية واتصالها في الخط المنطقي مع الآيات نقول هذه الآية وردت لاستعظام ما وقع من بعض بني آدم من الكفر بعد ثبوت البراهين القطعية، كأن الله يقول: أعجبوا لكفر بعض العبيد مع ثبوت الأدلة على وحدانيته تعالى في الآية السابقة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ...} [الْبَقَرَة: 164].(أفاده الصاوي على الجلالين).

قوله: {يتخذ مِن دُونِ اللَّهِ} هي في الأصل ظرف مكان للمكان الأدنى، يقال: جلس فلان في مكان دون مكان زيد يعني أدنى منه، ثم أُطلق (دون) وأريد به معنى (غير). وأرى أن هناك نكتة في اختيار (دون) وعدم اختيار(غير) للتعبير هنا؛ فالدلالة صارخة أنَّ أولئك المغبونون قد استبدلوا بالله العظيم غيره ممن هم دونه، بل لا مقارنة بينهم وبين الله تعالى مما جعل اتخاذهم لهم (أندادا) أى أقراناً وأشباها هو طعنٌ في عقولهم وبصيرتهم.

يقول العلامة عباس محمود العقاد: العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتُقدَّر بها الحسنات والسيئات؛ فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات....

وجاء الإسلام في جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد،

---

[311]() فتح الباري لابن رجب (1/ 56)

صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية؛ فكان تصحيحه لكلٍّ من هاتين الفكرتين — في جانب النقص منها — أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحي من عند ....إلخ كلامه (312)

والحقيقة أن دقة استخدام الألفاظ في هذه الآية بديع في دلالاته؛ فتأمل معي (يتخذ) و(دون) لتجد الأولى تدل على أن هذا هو تزيين عقول القوم الفاسدة التي عدلت عن ربها لتصنع له في قلوبها الخربة أندادا، والثانية تدل على أنهم اختاروا الأدنى وتركوا الأعلى {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} أي: يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له.

و (الأنداد) هي: إمّا الأوثان التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا منها النفع والضرّ، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور وقرّبوا لها القرابين. وإمّا الرؤساء لذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لا سيما في الأوامر والنواهي. ورجح هذا، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [البقرة: 166] وذلك لا يليق إلّا بمن اتخذ الرجال أندادا وأمثالا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من المشركين لأندادهم، لأنّ أولئك أشركوا في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلّها لله، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه، ولأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زمانا ثم يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه، كما أكلت باهلة إلهها من حيس، عام المجاعة. (313)

{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}.

أشد حبا لله، حبا مطلقا من كل موازنة، ومن كل قيد. أشد حبا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه.

والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق. فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب. (314)

وَلِحُبِّهِمْ لِلَّهِ وَتَمَامِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ، وَتَوْقِيرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، بَلْ يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ.

ومن حبهم لله أحبوا أولياء الله تعالى، لتنشأ تلك الرابطة المتينة بين المؤمنين، وتقام دولة الإيمان والحب في أرض الله تعالى.

312() عباس محمود العقاد في كتابه الرائع (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) ص 30 وما بعدها، ط هنداوي

313() تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 461)

314() فى ظلال القرآن . سيد قطب . الشاملة موافقا للمطبوع (1/ 154)

ثم يأتي على النقيض مشهدٌ مروعٌ نابضٌ بالحياةِ لدولة الظلم والكفران التي وإن اجتمعت أفرادها على المصالح المادية الفانية والرغبات المريضة، فإنها سرعان ما تنقضي في الدنيا وتملأ القلوبَ الضغائنُ، وإلا ففي الآخرة يتبرأون من بعضهم البعض يوم لا مادة ولا مصالح ولا طغيان، يوم الملك لله فقط.

{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166)} [البقرة: 165،166]، {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: 67]

إنها لحظة انكشاف الحقائق وزوال الباطل والزور والوهم.. إنهم يقفون جميعا في قلب الحدث الذي بلَّغته أنبياء الله ورسله ووصفته كتبه المُنَزَّلة؛ حينئذٍ لا مناص من صرخةٍ مدويةٍ تنكشف عن خذلانٍ عظيمٍ لنفوسٍ لم تحسب لذلك اليوم حساباً، ولم ترَ الله تعالى في شيءٍ من حركات حياتها الدنيا لتقف أمام قوة الله المتفردة بالأمر حيث لا قوةَ ولا شفاعةَ ولا نصير من دون الله {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)} [غافر: 16].

وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلا على وقاية تابعيها. وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب.

{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} وفي قراءةٍ {ولو ترى} قرأها نافع وابن عامر «ترى» بالتاء من فوق، أي يا محمد أو أيها التالي لكتاب الله المؤمن بالحساب.

والمعنى في (يرى الذين ظلموا) بالياء (من أسفل) كما قرأ بها (حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم وابن كثير) أي يعلمون (كما أفاده المبرِّد والأخفش)، أو تأويله: ولو يرى في الدنيا الذين ظلموا حالهم في الآخرة إذ يرون العذاب لعلموا أن القوة لله جميعا.

. {إذ} حرف يفيد استحضار الموقف مشهداً لبصائر المؤمنين {يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} يعاينون حقيقة ما أخبرت به الرسل والكتب المنزلة من الله بالنذير والوعيد للظلم والظالمين، يعلمون ويقرون ساعتها أن ما ملكوه في دار الفناء، واستغلوه أسوأ استغلال ليس القوة الحقيقة، فالقوة لله جميعا في دارٍ سرمديةٍ لا نهاية للعذاب فيها، الذي وصفته الآية بأنه عذابٌ شديدٌ.

هنا يبدأ التخبط والشتات والخذلان {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}.. تخذلهم شياطين الإنس الذين اتبعوهم في الدنيا وكانوا عصيهم وأيديهم التي مارسوا بها أفحش الظلم... يتبرأون منهم، يقولون لهم: ما أرغمناكم على اتباعنا، ولكن خفة عقولكم، وطمعكم، ودناءة طموحاتكم جعلت منكم عبيدا مخلصين، ولا حاجة لنا بكم اليوم {وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} أي المواصل والمودات. فجميعهم سيذوقون العذاب، ولا يوجد ما يتلقون به. انقطعت بهم كل وسيلةٍ للنجاة وكل رابطٍ دنيءٍ ربطهم في الدنيا. والسبب في الأصل هو الحبل، قَالَ الْهَرَوِيّ: يُقَال للطريق الْموصل إِلَى الشَّيْء سَبَب، وللحبل سَبَب، وللباب، وَلكُل

شَيْء يتَوَصَّل بِهِ إِلَى شَيْء سَبَب. وَمِنْه قَوْله (صلى الله عَلَيْهِ وَسلم) :(كل سَبَب يَنْقَطِع إِلَّا سببي) أَي وصلتي (أي باتباع سنته وشرعه). [315]

قال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كما تبرأوا منا}..

هذه الحسرة التي تنضح من قلوب الأتباع الذين أفنوا حياتهم خدمةً للظلم والظالمين.. يودون لو أنَّ لهم عودةً فيستطيعون أن يتبرأوا من أولئك الذين أغووهم بالظلم ثم تركوهم عند الحساب... {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ}.. ما تبقى لهم سوى الحسرات.. ليست حسرةً واحدةً وإنما حسراتٍ تتوالى وتخلد معهم في عذابٍ مقيم.. {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}. لأنه يومَ لا تنفع الندامة ولا تُقبَل توبة.

تذييلٌ يؤكد نهاية الظالمين الأبدية بحيث لا تشملهم الرحمة الإلهية التي حرموا الناس منها في الدنيا.

وفي هذه الآية الدلالةُ على تكذيب الله الزاعمين أن عَذابَ الله أهلَ النار من أهل الكفر مُنقضٍ، وأنه إلى نهاية، ثم هو بعدَ ذلك فانٍ. لأن الله تعالى ذكره أخبرَ عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غيرُ خارجين من النار، بغير استثناء منه وَقتًا دون وقت. فذلك إلى غير حدّ ولا نهاية. (قاله الطبري)

ولهذا الموقف الشديد والمشهد الخطير تفصيلٌ أكثر حدةً في سورة سبأ، يقول تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سَبَأٍ: 31-33]

وقال أبو جعفر الطبري-رحمه الله-:

والمعنى: وقال أتباع الرجال -الذين كانوا اتخذوهم أندادًا من دون الله يطيعونهم في معصية الله، ويَعصُون ربَّهم في طاعتهم، إذ يرون عَذابَ الله في الآخرة-:"لو أن لنا كرة". يعني "بالكرة"، الرجعةَ إلى الدنيا، من قول القائل: "كررَت على القوم أكُرَّ كرًا"، و"الكرَّة" المرة الواحدة، وذلك إذا حمل عليهم راجعًا عليهم بعد الانصراف عنهم (يُقال: كَرَّةٌ بعد فَرَّة).

وقوله: "فنتبرأ منهم" منصوبٌ، لأنه جواب للتمني ب"الفاء". لأن القوم تمنوا رجعةً إلى الدنيا ليتبرأوا من الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، كما تبرأ منهم رؤساؤهم الذين كانوا في الدنيا، المتبوعون فيها على

315() مشارق الأنوار على صحاح الآثار (2/ 202) للقاضي عياض.

الكفر بالله، إذْ عاينوا عَظيم النازل بهم من عذاب الله، فقالوا: يا ليت لنا كرّة إلى الدنيا فنتبرأ منهم، و (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [سورة الأنعام: 27].

ومعنى قوله: "كذلك يُريهمُ الله أعمالهم"، أي كما أراهم العذابَ الذي ذكره في قوله: "ورأوا العذاب"، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، فكذلك يُريهم أيضًا أعمالهم الخبيثة التي استحقوا بها العقوبة من الله "حسرات عليهم" يعني: نَدامات. وقيل: إن "الحسرة" أشد الندامة.

ثم ذكر الطبري بإسنادٍ صححه الشيخ شاكر في تحقيقه على تفسير الطبري حديثا موقوفا على عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه وله حكم المرفوع لأنه مما لا يُقال بالظن قال فيه: فليس نَفْسٌ إلا وهي تنظر إلى بَيْتٍ في الجنة وبَيتٍ في النار، وهو يومُ الحسرة. قال: فيرى أهلُ النار الذين في الجنة، فيقال لهم: لو عَملتم! فتأخذهم الحسرة. قال: فيرى أهلُ الجنة البيتَ الذي في النار، فيقال: لولا أن منَّ الله عليكم!

وقال آخرون (ورجَّحه الطبري): كذلك يُريهم الله أعمالهم السيئة حسرات عليهم، لم عَملوها؟ وهلا عملوا بغيرها مما يُرضي الله تعالى ذكره؟

قال ابن زيد في قوله: "أعمالهم حسرات عليهم" قال، أوليس أعمالهم الخبيثةُ التي أدخلهم الله بها النار؟ فجعلها حسراتٍ عليهم. قال: وجعل أعمالَ أهل الجنة لهم، وقرأ قول الله: (بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [سورة الحاقة: 24]. [316]

******

أثر الإيمان

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)} [البقرة: 168، 169]

انتقالٌ لطيفٌ في منهج التربية الإيمانية من أجل بناء دولة الإيمان بين المسلمين؛ انتقالٌ من بناء حقائق الإيمان في القلوب توحيداً لله وحباً وطاعةً وولاءاً إلى تشييد منهج السماء على الأرض.

وقد يُقال أنه خطاب للناس كافةً ... اعلم أنه تعالى لما بين التوحيد ودلائله، وما للموحدين من الثواب وأتبعه بذكر الشرك ومن يتخذ من دون الله أندادا، ويتبع رؤساء الكفرة أتبع ذلك بذكر إنعامه على الفريقين وإحسانه إليهم وأن معصية من عصاه وكفر من كفر به لم تؤثر في قطع إحسانه ونعمه عنهم. [317]

---

[316]() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 293) باختصار.

317() تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 185)

فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالا من الله طيبا، أي: مُسْتَطابا في نفسه غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل (=أشياء كانوا يحرموها) ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله تعالى: إن كل ما أمنحه عبادي فهو لهم حلال" وفيه: "وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم [318] عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم" .

عن عطاء، عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم: {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا} فقام سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال. "يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به". [319]

قوله : {حلالا طيبا} يقول اللغويون: الحلال من حَلِّ العقدة وهو فكَّها. وحَلَّ بالمكان أي حل أحماله ومكث فيه. وحلَّ الدين، أي حل عقد المطالبة به وصار يلزم سداده. وحل من إحرامه أي حل ما عقده على نفسه بالإحرام مما لا يجوز له فعله فجاز. وتحلة اليمين: ما تنحل به عقدة اليمين. واتساع معناه ليعني ما حُلَّت عنه عقدة الحظر وصار في حيز المباح شرعاً.

الطيب عند الإمام مالك: هو الحلال نفسه، فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ، وهو عند الشافعي: المُسْتلَذ، غير القذر والخبيث، وهو ما تستطيبه الشهوة المستقيمة والعقول الصحيحة.

ولذلك يمنع في مذهبه أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث، ومما يؤيد ما ذهب إليه أن المُقدَّم في الفاظ القرآن هو التأسيس بمعنى إفادة جديد للمعنى لا التأكيد، وكذلك قوله تعالى: { ...وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ... الآية} [الأعراف: 157]

قال الراغب:

والحلال أعم من الطيب، والحرام أعم من الخبيثة فقد يكون حراما مالا يكون خبيثاً في نفسه بالعقل كتحريم ما يقسم بالأزلام، واستعمال الذهب والفضة، ولبس الحرير على الذكور، وجمع بين الحلال والطيب في الآية ليفيد أن ما استطابه الطبع أباحه الشرع، وأن ما يزينه الشيطان لبعض الناس ليس بالطبع الصحيح طيباً، كعادة المخنث. [320]

318() قال في "النهاية": فاجتالتهم، أي: بالجيم، أي: استخفتهم فجالوا معهم في الضلال.

319() انظر تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 478)

320() تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 365) بتصرف يسير .

ونقل صاحب البحر المحيط في التفسير (2/ 100):

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ {طَيِّبًا}: طَاهِرًا مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ.

قلتُ: وقد ذكرت في القرآن {حلال طيبا} أربع مرات: البقرة/168، المائدة/88، الأنفال/69، النحل/114.

قال ابن عطية في تفسيره "المحرر": وخُطُواتِ جمع خطوة وهي ما بين القدمين في المشي. [321]

قَالَ مَعْنَاهُ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ كِنَايَةٌ عَنْ تَرْكِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَعَنِ اتِّبَاعِ مَا سَنَّ مِنَ الْمَعَاصِي. يُقَالُ: اتَّبَعَ زَيْدٌ خُطُوَاتِ عَمْرٍو وَوَطِئَ على عقبيه، إذا سَلَكَ مَسْلَكَهُ فِي أَحْوَالِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خُطُوَاتُهُ أَعْمَالُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: خَطَايَاهُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: طَاعَتُهُ. وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: النُّذُورُ فِي الْمَعَاصِي. وَقِيلَ: مَا يَنْقُلُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ، حَتَّى يَسْتَوْعِبُوا جَمِيعَ الْمَعَاصِي، مَأْخُوذٌ مِنْ خَطْوِ الْقَدَمِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ وَابْنُ قُتَيْبَةَ: طُرُقَهُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ. وَقِيل: آثَارُهُ، وَقَالَ عَطَاءٌ: زَلَّاتُهُ، **وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى صَدَرَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ. وَالْمَعْنَى بِهَا كُلِّهَا النَّهْيُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَبَاحَ لَهُمُ الْأَكْلَ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، نَهَاهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَعَنِ التَّخَطِّي إِلَى أَكْلِ الْحَرَامِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي إِلَى الْمَرْءِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشُّبْهَةِ، فَيُزَيِّنُ بِذَلِكَ مَا لَا يَحِلُّ، فَزَجَرَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَالشَّيْطَانُ هَنَا إِبْلِيسُ.** [322]

وَقَالَ السَّجَاوَنْدِيُّ: حَلَالًا مُطْلَقَ الشَّرْعِ، طَيِّبًا مُسْتَلَذَّ الطَّبْعِ.

وَقَالَ فِي الْمُنْتَخَبِ مَا مُلَخَّصُهُ: الْحَلَالُ: الَّذِي انْحَلَّتْ عَنْهُ عُقْدَةُ الْخَطَرِ، إِمَّا لِكَوْنِهِ حَرَامًا لِجِنْسِهِ كَالْمَيْتَةِ، وَإِمَّا لَا لِجِنْسِهِ كَمِلْكِ الْغَيْرِ، إِذْ لَمْ يُأْذَنْ فِي أَكْلِهِ. وَالطَّيِّبُ لُغَةً الطَّاهِرُ، وَالْحَلَّالُ يُوصَفُ بِأَنَّهُ طَيِّبٌ، كَمَا أَنَّ الْحَرَامَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَبِيثٌ، وَالْأَصْلُ فِي الطِّيبِ مَا يُسْتَلَذُّ، وَوُصِفَ بِهِ الطَّاهِرُ وَالْحَلَالُ عَلَى جِهَةِ التَّشْبِيهِ، لِأَنَّ النَّجِسَ تَكْرَهُهُ النَّفْسُ، وَالْحَرَامَ لَا يُسْتَلَذُّ، لِأَنَّ الشَّرْعَ مَنَعَ مِنْهُ. انْتَهَى.

وَالثَّابِتُ فِي اللُّغَةِ: أَنَّ الطَّيِّبَ هُوَ الطَّاهِرُ مِنَ الدَّنَسِ. قَالَ:

وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ ... يُصْلِحُ الآبر زرع المؤتبر.

طيبوا الْبَاءَةِ سَهْلٌ وَلَهُمْ ... سُبُلٌ إِنْ شِئْتَ فِي وَحْشٍ وَعِر.

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْحَلَالُ الطَّيِّبُ: هُوَ مَا لَا يسأل عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:الْحَلَالُ الَّذِي لَا تَبِعَةَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَلَا وَبَالَ فِي الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: الْحَلَالُ مَا يُجَوِّزُهُ الْمُفْتِي، وَالطَّيِّبُ مَا يَشْهَدُ لَهُ الْقَلْبُ بِالْحِلِّ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْحَظْرُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ مِلْكُ اللَّهِ تَعَالَى، فلابد مِنْ إِذْنِهِ فِيمَا يُتَنَاوَلُ مِنْهَا، وَمَا عَدَا مَا لَمْ يَأْذَنْ فِيهِ يَبْقَى عَلَى الْحَظْرِ.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ الْحِلِّ وَالطِّيبِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ مَأْذُونٌ فِي أَكْلِهِ. أَمَّا تَمَلُّكُهُ وَالتَّصَدُّقُ بِهِ، أَوِ ادِّخَارُهُ، أَوْ سَائِرُ الِانْتِفَاعَاتِ بِهِ غَيْرَ الْأَكْلِ، فَلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ. فَإِمَّا أَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ بِنَصٍّ آخَرَ، أَوْ إِجْمَاعٍ عِنْدَ مَنْ لَا يَرَى الْقِيَاسَ، أَوْ بِالْقِيَاسِ عَلَى الْأَكْلِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِالْقِيَاسِ.

321() وجاء في البحر المحيط في التفسير (2/ 98): الْخُطْوَةُ، بِضَمِّ الْخَاءِ: مَا بَيْنَ قَدَمَيِ الْمَاشِي مِنَ الْأَرْضِ، وَالْخَطْوَةُ، بِفَتْحِهَا: الْمَرَّةُ مِنَ الْمَصْدَرِ. يقال: خطا يخطو خَطْوًا: مَشَى. وَيُقَالُ: هُوَ وَاسِعُ الْخَطْوِ. فَالْخُطْوَةُ بِالضَّمِّ، عِبَارَةٌ عَنِ الْمَسَافَةِ الَّتِي يَخْطُو فِيهَا، كَالْغُرْفَةِ وَالْقُبْضَةِ، وَهُمَا عِبَارَتَانِ عَنِ الشَّيْءِ الْمَغْرُوفِ وَالْمَقْبُوضِ.

322() البحر المحيط في التفسير (2/ 101)

واللفظ وإن كان جمعا (خطوات) الشيطان فالنهى عن اتباع أي خطوة له؛ النهى-إذن-عن أدنى معصية تجر لأختها. وقد قال العلماء الربانيّون: إن من علامات قبول الطاعةِ الطاعةُ تليها، وأن من علامات الارتكاس بالمعصية المعصية على إثرها. نعوذ بالله من الارتكاس.

قال الراغب: كقوله: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ}، وقد تقدم أن لا فرق بين أن يقال " اتبع فلان الهوى " وبين " اتبع الشهوة أو الشيطان أو الحياة الدنيا في أن المقصد بجميع ذلك متابعة ما يصد عن سبيل الله-عز وجل. انتهى

وقوله: {إنه لكم عدو مبين} عداوته لا تخفى على ذي بصيرة، وفيه من رحمة الله تعالى بنا تنفيرٌ عنه وتحذير من الشيطان الرجيم، كما قال: {إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} [فاطر: 6] وقال تعالى: {أفتتخذونه وذريته أولياءَ من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلا} [الكهف: 50].

قال تعالى مبيناً عداوة الشيطان: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)}

لأن العدو قد يأمر بالخير (ولو على سبيل المكر والحيلة) وهذا العدو لا يأمر إلا بالشر... (قاله ابن عرفة)

وأورد الزمخشري على هذا قوله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} يقول كيف يتسلط عليهم فيأمرهم مع هذه الآية؟

وأجاب عن ذلك بأنَّه شبّه تزيينه وبعثه على الشّر بالأمر وقبول العباد وساوسه بامتثال الأمر.

قال ابن عرفة: أو يُجاب بأن تلك مقيدة بالسّلطان وهو الحجة (والإجبار على قبول وساوسه). أو تم تقييد المعنى بلفظ (عبادي)، فعباد الرحمن لا يتسلط عليهم الشيطان ولا تقوم له عليهم حجة ولذلك أضافهم الله إليه إضافة تشريف. (323)

والسوء والفحشاء هي كل قبيح من نحو الزنا، والسرقة، والسكر، والقتل، والخيانة، والكذب والحسد والجهل... وتباينت أقوال المفسرين في المراد بالسوء والفحشاء فقيل إن السوء صغائر الذنوب والفحشاء كبارها، وقيل الفحشاء ما كان فيه الحد الشرعي والسوء ما لم يكن.. والتحقيق أنه سبحانه نبَّه أن الشيطان يريد من ابن السقوط في الشرك وكبار الخطايا؛ فإن كان وإلا رضى بصغار الذنوب أملا أن تجر لكبارها.. فلا ييأس منا ولا ييأس المؤمن من رحمة الله وقبول توبته، ويؤيده ما روى النسائي في سننه الكبرى والصغرى- بسند صحيح- واللفظ لابن أبي شيبة عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقُهُ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَدَعُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ:

323() انظر تفسير ابن عرفة (2/ 498) بتصرف

تُهَاجِرُ وَتَدَعُ مَوْلِدَكَ فَتَكُونُ كَالْفَرَسِ فِي طُولِهِ (أي وحيدا)؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَتُقْتَلُ فَتَتَزَوَّجُ امْرَأَتُكَ وَتَقْسِمُ مِيرَاثَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ (أي خالف الشيطان) ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ إِنْ قُتِلَ أَوْ مَاتَ غَرَقًا أَوْ حَرْقًا فَأَكَلَهُ السَّبُعُ». (324)

قال تعالى: { ... وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)}

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: هُوَ قَوْلُهُمْ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ. انْتَهَى.

وقيل ذلك لما حرمه المشركون على أنفسهم من الوصيلة والحام وغيره مما اخترعوه وليس من الدين.
وقيل لما اخترعوه من العقائد الباطلة فجعل التقول على الله تعالى في العقائد بما لا برهان ولا نقل فيه من عمل الشيطان وأمره، وبذلك انتظم كل البدع في العقائد.

قال العلامة الراغب: إن قيل: إن كان التقول على الله عز وجل بما لا يعلم من عمل

الشيطان، فكيف يصح الحكم بغالب الظن في كثير من الأحكام، فإن عامة فروع الفقه مبنية علي غلبة الظن؟

قيل الرد: أولاً: فرَّق العلماء بين الأحكام العلمية وبين الأحكام العملية. وقالوا: كل ما كان من الأحكام العلمية، وهي التي لا عمل لها كالإيمان بالله وملائكة وكتبه ورسله، فإنه لا يجوز إن يحكم فيه أحدٌ ألا بالعلم المصون عن الشوائب.

وما كان من الأحكام العملية فأصولها كذلك محفوظة بالعلم اليقيني.

وأما فروعها: فيجور الحكم فيها لغلبة الظن لتفسيح صاحب الشرع لنا في ذلك، فصار حكمنا فليه من هذا الوجه حكماً بالعلم، لأنه إذا قال لنا: إذا غلب في ظنك أن القبلة في هذا الجانب، فصلِّ إليه، وإذا شهد عندك شاهدان مزكَّيَان فاحكم بشهادتهما صرنا

عالمين بأن هذا الحكم واجب علينا في الظاهر، وهذه المسألة قد أحكمت في أصول الفقه. (325)

قلتُ: راجع المقدمة الأولى في أول كتاب "الموافقات" للإمام الشاطبي ستجد ما يشفيك.

324() وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه، وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَأَبُو يعلى الْموصِلِي وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أول الْجِهَاد وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْجِهَاد.

325() تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 366)

ذم التقليد ودعوة إلى العقل.

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} (البقرة/70)

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذا قِيلَ لَهُمُ} يَعْنِي كُفَّارَ الْعَرَبِ. ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ. ورجَّح الطَّبَرِيُّ أن: الضَّمِيرُ فِي" لَهُمُ" عَائِدٌ عَلَى النَّاسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:" يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا".

وقوله تَعَالَى: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} أَيْ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ. قال الطبري: أي اعملوا بما أنزل الله في كتابه على رسوله، فأحِلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، واجعلوه لكم إمامًا تأتمون به، وقائدًا تَتبعون أحكامه.

{قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا} ... **أَلْفَيْنَا: وَجَدْنَا.**

قال الطبري: فمعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء الكفار: كلوا مما أحلّ الله لكم، ودَعوا خُطوات الشيطان وطريقه، واعملوا بما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه -استكبروا عن الإذعان للحقّ وقالوا: بل نأتم بآبائنا فنتَّبع ما وجدناهم عليه، من تحليل ما كانوا يُحلُّون، وتحريم ما كانوا يحرّمون.

{أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولا يهتدون}.

والألف في قوله أَوَلَوْ للاستفهام الاستنكاري، وإنما جعلت همزة الاستفهام للتوبيخ، لأنها تقتضي الإقرار بشيء يكون الإقرار به فضيحة. والواو لعطف جملة كلام على جملة، لأن غاية الفساد في العقل أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون (أفاده الرازي وابن عطية).

يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمرُكم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم مصيبون حقًّا، ولا مدركون رشدًا؟ وإنما يَتّبع المتبعُ ذا المعرفة بالشيء المستعملَ له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه -فيما هو به جاهل-إلا من لا عقل له ولا تمييز. [326]

وفي الالتفات من ضمير المخاطَب إلى ضمير الغائب تحقير وذم كأنه يقول انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يفعلون؟!

قال الراغب: **ذمهم الله بأنهم أبطلوا ما خص الله به الإنسان من الفكر والروية وركزه فيه من المعارف، وذلك أن الله تعالى ميز الإنسان بالفكر ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد والصدق من الكذب في المقال**

326() انظر تفسير القرطبي (2/ 210) وتفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 305) بتصرف.

وروى ابن اسحق كما في سيرةِ ابن هشام: عن ابن عباس قال: دَعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهودَ من أهل الكتاب إلى الإسلام ورَغَّبهم فيه، وحذرهم عقاب الله ونقمته، فقال له رَافع بن خارجة، ومَالك بن عوف: بل نَتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإنهم كانوا أعلم وخيرًا منا! فأنزل الله في ذلك من قولهما "وإذا قيلَ لهُم اتبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بَل نتّبع ما ألفينا عَليه آباءنا... الآية}.

والجميل من القبيح في الفعال لم يتحر الحق والصدق الجميل، ويتجنب أضدادها، وجعل له من نور العقل ما يستغنى به فيدله على معرفة مطلوبه، فلما حث الناس على تناول الحلال الطيب، ونهاهم من متابعة الشيطان بين حال الكفار في تركهم الرشاد واتباعهم الآباء والأجداد، ليحذر من الاقتداء بهم تاركين استعمال الفكر الذي هو صورة الإنسان وحقيقته. [327]

حكم التقليد في الدين على عجالةٍ.

قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد، ونظيرها: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا} الآية. وهذه الآية والتي قبلها مرتبطة بما قبلهما، وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة، فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رسوله وأمر به في دينه، فالضمير في" لهم" عائد عليهم في الآيتين جميعا.

(1) تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل، واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية. وهذا هو التقليد المذموم في الباطل.

أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين، وعصمة من عِصَم المسلمين يلجأ إليها الجاهل الذي لا يمتلك الأدوات اللازمة للاجتهاد وفهم نصوص الشريعة من الكتاب والسنة.

واختلف العلماء في جوازه في مسائل الأصول على ما يأتي، وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيحٌ.

- التقليد عند العلماء حقيقته قبولُ قولٍ بلا حجة، وعلى هذا فمن قبل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظرٍ في معجزته يكون مقلدا، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا.

ويكون بعد قناعته بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام باجتهاد عقله وتأمل دلائل الحق وأماراته التي يحضنا القرآن العظيم على تتبعها ويرفع الله إيمان المؤمنين بتأملها؛ يكون بذلك متَّبعاً وليس مقلدا، وهو فرقٌ لطيفٌ بين التقليد والاتباع يتحاشاه أهل البدع المعاصرة من العلمانية وغيرهم، فتأمل أنَّ الله أمر الناس جميعاً بتأمل دلائل الحق ليعلموه علم تعقلٍ ويقين. هذا في العقيدة وأصول الدين. [328]

327() تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 367)

328() قَالَ ابْنُ دِرْبَاسٍ: وَقَدْ أَكْثَرَ أَهْلُ الزَّيْغِ الْقَوْلَ عَلَى مَنْ تَمَسْكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّهُمْ مُقَلِّدُونَ. وَهَذَا خَطَأٌ مِنْهُمْ، بَلْ هُوَ بِهِمْ أَلْيَقُ وَبِمَذَاهِبِهِمْ أَخْلَقُ، إِذْ قَبِلُوا قَوْلَ سَادَاتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكَانُوا دَاخِلِينَ فِيمَنْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:" رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا".

وَقَوْلِهِ:" إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ". ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ:" قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ "، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ" فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ " الْآيَةَ.

ثم أمر الذين يملكون أدوات الاجتهاد أو بعضها فقط بإعمال أدواتهم لفهم نصوص الشريعة، ومن لم يملك منهم أن يبحث عن العلماء الأمناء على شرع الله تعالى ويسألهم كما قال سبحانه: {واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.

وَالتقليد فِي اللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنْ قِلَادَةِ الْبَعِيرِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: قَلَّدْتُ الْبَعِيرَ إِذَا جَعَلْتَ فِي عُنُقِهِ حَبْلًا يُقَادُ بِهِ، فَكَأَنَّ الْمُقَلِّدَ يَجْعَلُ أَمْرَهُ كُلَّهُ لِمَنْ يَقُودُهُ حَيْثُ شَاءَ.

قال القرطبي: التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا في الأصول ولا في الفروع، وهو قول جمهور العقلاء والعلماء.

- فَرْضُ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَا يَشْتَغِلُ بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْ أُصُولِهَا لِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَنْ يَقْصِدَ أَعْلَمَ مَنْ فِي زَمَانِهِ وَبَلَدِهِ فَيَسْأَلُهُ عَنْ نَازِلَتِهِ فَيَمْتَثِلُ فيها فتواه، لقوله تعالى: {فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وَعَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ في البحث عن أَعْلَمِ أَهْلِ وَقْتِهِ، حَتَّى يَقَعَ عَلَيْهِ الِاتِّفَاقُ مِنَ الْأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ.

وَعَلَى الْعَالِمِ أَيْضًا فَرْضُ أَنْ يُقَلِّدَ عَالِمًا مِثْلَهُ فِي نَازِلَةٍ خَفِيَ عَلَيْهِ فِيهَا وَجْهُ الدَّلِيلِ وَالنَّظَرِ، وَأَرَادَ أَنْ يُجَدِّدَ الْفِكْرَ فِيهَا وَالنَّظَرَ حَتَّى يَقِفَ عَلَى الْمَطْلُوبِ، فَضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ ذَلِكَ، وَخَافَ عَلَى الْعِبَادَةِ أَنْ تَفُوتَ، أَوْ عَلَى

فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْهُدَى فِيمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَلَيْسَ قَوْلُ أَهْلِ الْأَثَرِ فِي عَقَائِدِهِمْ: إِنَّا وَجَدْنَا أَئِمَّتَنَا وَآبَاءَنَا وَالنَّاسَ عَلَى الْأَخْذِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الْأُمَّةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: {إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا وأَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا} بِسَبِيلٍ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ نَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى التَّنْزِيلِ وَإِلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، وَأُولَئِكَ نَسَبُوا إِفْكَهُمْ إِلَى أَهْلِ الْأَبَاطِيلِ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ فِي التَّضْلِيلِ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَثْنَى عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ:" إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ ".

فَلَمَّا كَانَ آبَاؤُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْبِيَاءَ مُتَّبِعِينَ لِلْوَحْيِ وَهُوَ الدِّينُ الْخَالِصُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ، كَانَ اتِّبَاعُهُ آبَاءَهُ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ.

وَلَمْ يَجِئْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ذِكْرَ الْأَعْرَاضِ وَتَعَلُّقَهَا بِالْجَوَاهِرِ وَانْقِلَابَهَا فِيهَا (يقصد عقائد المعتزلة مدعي العقل والتمنطق في الدين)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لَا هُدَى فِيهَا وَلَا رُشْدَ فِي وَاضِعِيهَا.

قَالَ ابْنُ الْحَصَّارِ:

وَإِنَّمَا ظَهَرَ التَّلَفُّظُ بِهَا فِي زَمَنِ الْمَأْمُونِ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ لَمَّا تُرْجِمَتْ كُتُبُ الْأَوَائِلِ وَظَهَرَ فِيهَا اخْتِلَافُهُمْ فِي قِدَمِ الْعَالَمِ وَحُدُوثِهِ. وَاخْتِلَافُهُمْ فِي الْجَوْهَرِ وَثُبُوتِهِ، وَالْعَرَضِ وَمَاهِيَّتِهِ، فَسَارَعَ الْمُبْتَدِعُونَ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ إِلَى حِفْظِ تِلْكَ الِاصْطِلَاحَاتِ، وَقَصَدُوا بِهَا الْإِغْرَابَ (أي التنطع والأخذ بالغريب) عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِدْخَالَ الشُّبَهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ.

فَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ ظَهَرَتِ الْبِدْعَةُ، وَصَارَتْ لِلْمُبْتَدِعَةِ شِيعَةٌ، وَالْتَبَسَ الْأَمْرُ عَلَى السُّلْطَانِ، حَتَّى قَالَ الْأَمِيرُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَجَبَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَضُرِبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ- رضى الله عنه- على ذلك فصبر وأقام الحق بصبره.

وَكَانَ مَنْ دَرَجَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُعْرِضِينَ عَنْ شُبَهِ الْمُلْحِدِينَ، لَمْ يَنْظُرُوا فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ، عَلَى ذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ. . راجع تفسير القرطبي 211/2.

الْحُكْمِ أَنْ يَذْهَبَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْمُجْتَهِدُ الْآخَرُ صَحَابِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ.

- قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ فِي الْعَقَائِدِ.

وَذَكَرَ فِيهِ غَيْرُهُ خِلَافًا كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ وَأَبِي عُمَرَ وَعُثْمَانَ بْنِ عِيسَى بْنِ دِرْبَاسٍ الشَّافِعِيِّ.

قَالَ ابْنُ دِرْبَاسٍ فِي كِتَابِ "الِانْتِصَارِ" لَهُ: وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ خَطَأٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ}.

فَذَمَّهُمْ بِتَقْلِيدِهِمْ آبَاءَهُمْ وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ الرُّسُلِ، كَصَنِيعِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي تَقْلِيدِهِمْ كُبَرَاءَهُمْ وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دِينِهِ، وَلِأَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ تَعَلُّمُ أَمْرِ التَّوْحِيدِ وَالْقَطْعُ بِهِ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاللَّهُ يهدي من يريد.[329]

---

329) تفسير القرطبي (2/ 211)

مثل الذين كفروا وتركهم العقل.

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} **(171/البقرة)**

(اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ إِلَى إتباع مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَرَكُوا النَّظَرَ وَالتَّدَبُّرَ، وَركنوا إِلَى التَّقْلِيدِ، وَقَالُوا: {بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا} ضَرَبَ الله لَهُمْ هَذَا الْمَثَلَ تَنْبِيهًا لِلسَّامِعِينَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ بِسَبَبِ تَرْكِ الْإِصْغَاءِ، وَقِلَّةِ الِاهْتِمَامِ بِالدِّينِ، فَصَيَّرَهُمْ بمنزلة الْأَنْعَامِ، وَمِثْلُ هَذَا الْمَثَلِ يَزِيدُ السَّامِعَ مَعْرِفَةً بِأَحْوَالِ الْكُفَّارِ، وَيُحَقِّرُ إِلَى الْكَافِرِ نَفْسَهُ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ، فَيَكُونُ كَسْرًا لِقَلْبِهِ، وَتَضْيِيقًا لِصَدْرِهِ، حَيْثُ صَيَّرَهُ كَالْبَهِيمَةِ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ التمثيل نِهَايَةُ الزَّجْرِ وَالرَّدْعِ لِمَنْ يَسْمَعُهُ عَنْ أَنْ يَسْلُكَ مثل طريقة أولئك الحمقى في التقليد) [330] **.**

وإنما يستسهل أولئك المقلدون التقليد لأن فيه إرضاءً لشهواتهم وتملصاً من تكاليف العدل والخير التي يقتضيها دين الله الحق، فهم في تواطئهم مع شهواتهم وترك التعقل والبحث عن الحقيقة بمنزلة الحيوان الأعجم الذي تحركه فقط الغرائز والشهوات، ولكن الحيوان مخلوق على هذه الهيئة لا يستطيع كبتها، فما عذر الإنسان وقد ميزه الله بالعقل والروح، فهم قطعاً أضلُّ من الحيوان وعيهم كل ذمٍّ، وهكذا كلُّ مَن قلَّد شهواته أمرَه كما قال سبحانه: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)}. [331]

(إنَّ مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم.

فلهذا كانوا صُمًّا لا يسمعون الحق سماعَ فهمٍ وقبول، عُمْيَاً لا ينظرون نظرَ اعتبارٍ، بُكْماً فلا ينطقون بما فيه خيرٌ لهم.) [332] **.**

---

330 (مفاتح الغيب للرازى ، ج5ص 189 دار إحياء التراث العربي بيروت)

331() [الفرقان: 43].

332 (تيسير الكريم الرحمن للسعدي ج1ص81 مؤسسة الرسالة) بتصرف يسير.

(وفى قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً» تصوير ٌكاشفٌ لحال هؤلاء الذي لبسوا الكفر تقليدا ومتابعة وإرثا، فجمدوا على ما هم فيه، وأبوا أن يتحولوا عنه، ولو زُلْزِلت الأرض بهم.

إنهم-وهذا شأنهم-لا يستمعون لداعٍ، ولا يستجيبون لمنادٍ، فلا تختلف حالهم كثيرا عن حال الحيوان الأعجم الهائم على وجهه، يهتف الراعي به: أن أقبل، أو اتجه يمينا أو يسارا، أو ما أشبه ذلك، فلا تُتَرَجم هذه المعاني في سمعه غيرَ أنها أصواتٌ هائمةٌ، لا معقولَ لها عنده، فتسقط الكلمات على أذنه كما تسقط الحجارة على الحجر!

«صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ» فلقد سُدّت عليهم منافذ العلم، وأُغلقت دون عقولهم أبواب المعرفة.

وفى قوله تعالى: «يَنْعِقُ» إشارة إلى أن الكلمات التي يهتف بها الهاتف إلى هذا الحيوان هى بالنسبة إليه نعيق، ولهذا عبّر عنها بما هى صائرةٌ إليه، لا بما كانت عليه عند منطِقُها من فم قائلها!) [333]

فالذي يخرج من فم الداعي لهم دعاءٌ إلى الخير والعلم والحق، والذي يصل إلى وجدان أولئك نعيقٌ وصوتٌ لا يفقهون منه شيئا إلا محض الدعاء والنداء لا المعاني الشريفة للخير والحق ولذلك فهم في عدم إعمال نعمة الله عليهم بجوارحهم صم وبكم وعمي.

كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [334]

والفرق أنَّ الحيوان الأعجم مجبولٌ على ما هو فيه ولكن المنتمي لفئة البشر ما عذره في عدم انتفاعه بما خلقه الله فيه من القدرات.

وصدق الشاعر المتنبي إذ يقول:

وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ.... إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ.

دراسة بلاغية ولغوية.

(1) جاء في لسان العرب لابن منظور:
النَّعِيقُ هو دعاءُ الراعي الشاءَ. يُقالُ انْعِقْ بضأْنك أَي ادْعُها.

قال الأخطل: انْعِقْ بضَأْنك يا جَرِيرُ فإنّما... مَنَّتْكَ نفسُك في الخَلاء ضلالاً.

---

333 التفسير القرآنى للقرآن ج1ص189.

334) [الأعراف: 179].

ونَعَق الراعي بالغنم يَنْعِقُ بالكسر نَعْقاً ونُعاقاً ونَعِيقاً ونَعَقاناً: أى صاح بها وزجرها. يكون ذلك في الضأن والمعز.

وفي الحديث أنه قال-صلى الله عليه وسلم-لنساء عثمان بن مظعون لما مات:" ابْكِين وإيّاكنَّ ونَعيقَ الشيطان"؛ يعني الصياح والنَّوْح، وأضافه إلى الشيطان لأنه الحامل عليه.

وقوله تعالى: {ومَثَل الذين كفروا كمَثَل الذي يَنْعِقُ بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً}.

قال الفراء: أضاف المَثَل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي ولم يقل كالغنم. والمعنى والله أعلم مَثَل الذين كفروا كالبهائم التي لا تَفْقَهُ ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فأضاف التشبيه إلى الراعي والمعنى في المَرْعِيّ.

قال: ومثله في الكلام قولهم: فلانٌ يخافك كخوف الأسد، يقصدون: كخوفِهِ الأسدَ لأَن الأَسد معروف أنه المَخُوف. انتهى.

(2) و(لِلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرُوا وُجُوهًا:

الوجه الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ الْأَخْفَشِ وَالزَّجَّاجِ وَابْنِ قُتَيْبَةَ، قالوا: وَمَثَلُ مَنْ يَدْعُو الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى الْحَقِّ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ، فَصَارَ النَّاعِقُ الَّذِي هُوَ الرَّاعِي بمنزل الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَسَائِرُ الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَصَارَ الْكُفَّارُ بِمَنْزِلَةِ الْغَنَمِ الْمَنْعُوقِ بِهَا. وَوَجْهُ التَّشْبِيهِ أَنَّ الْبَهِيمَةَ تَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا تَفْهَمُ الْمُرَادَ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ كَانُوا يَسْمَعُونَ صَوْتَ الرَّسُولِ وَأَلْفَاظَهُ، وَمَا كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِهَا وَبِمَعَانِيهَا.

وهو المقبول عندي لدلالة السياق عليه إذ انتقل من ذم التقليد في الباطل إلى ذم الكفار الذين لا ينتفعون بما نزل إليهم من الحق والعلم، فكانوا أليق بوصفهم كالأنعام كما ذُكر في آياتٍ أخرى ذكرتُها آنفاً. وكذلك الدلالة على وصفهم بما لا يسمع من الانعام بالقرينة اللفظية من وصفهم على سبيل الذم بأنهم {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فهم لا يعقلون}. فرجح عندي بكلا القرينتين السياق والقرينة اللفظية، وهذه المنهجية في التأويل والترجيح أسميتها (قراءة القرآن من الداخل) وأفردتها بالتصنيف.

الوجه الثَّانِي: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي دعاتهم آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَوْثَانِ كمثل الناعق فِي دُعَائِهِ مَا لَا يَسْمَعُ كَالْغَنَمِ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ الْكَلَامِ كَالْبَهَائِمُ التي لَا تَفْهَمُ؛ فَشَبَّهَ الْأَصْنَامَ فِي أَنَّهَا لَا تَفْهَمُ بِهَذِهِ الْبَهَائِمِ.

فَإِذَا كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ هاهنا الْمَحْذُوفَ هُوَ الْمَدْعُوُّ، وَفِي الْقَوْلِ الَّذِي قَبْلَهُ الْمَحْذُوفُ هُوَ الدَّاعِي.

قال الفخر الرازي: وَفِيهِ سُؤَالٌ! وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: {إِلَّا دُعاءً وَنِداءً} لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا.... [335]

---

335 (في مفاتيح الغيب ج5ص 189،190).

قلتُ: ويخالف السياق كذلك كما قدمتُ.

(3) وقَوْلَهُ: {إِلَّا دُعاءً وَنِداءً} يسميه البلاغيون (استثناء مفرَّغ).
بمعنى أنهم لا يسمعون ولكن بمعنى خاص، إذ أنهم يسمعون فقط الدعاء والنداء، فنفى معنى السماع إنما هو لنفى سماع الفهم والعقل لا لمطلق السماع.

(4) هناك في هذه الآية فنٌ من فنون البديع يسمى في علوم البلاغة ب"الاحتباك".
وهو من بديع الأساليب البيانية التي استخدمها القرآن كثيرا؛ فأوجز وأعجز.

والتقدير هنا في الآية: {وَمَثَلُ} الرسول الذي يدعو {الَّذِينَ كَفَرُوا} أو مثل الذين كفروا في عدم سماعهم دعوة الحق والعقل {كَمَثَلِ} الراعي {الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ} من البهائم والضأن {إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً} يسمعه ولا يفقه منه شيئاً

قال القاضي أبو محمد: فذكر بعض هذه الجملة وترك البعض، ودل المذكور على المحذوف وهذه نهاية الإيجاز [336].

والاحتباك عند علماء البلاغة؛ ما هو؟

الاحتباك: هو أن يُحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.

ومأخذ هذه التسمية من الحَبْك، وهو الشدّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب هو سدّ ما بين خيوطه من الفُرج وشدّه وإحكامه إحكاماً يمنع عنه الخلل، مع الحسن والرونق. [337]

---

336 (تفسير ابن عطية ج1ص 238 دار الكتب العلمية ببيروت).

337() راجع الاتقان في علوم القرآن للسيوطي. وقال فيه من أمثلته:

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ [البقرة: 171]؛ الآية، التقدير: ومَثَلُ الأنبياء والكفار كمثل الذي ينعق، والذي ينعق به، فحذف من الأوَّل الأنبياء؛ لدلالة "الذي ينعق" عليه، ومن الثاني الذي ينعق به؛ لدلالة "الذين كفروا" عليه.

وقولِه: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ [النمل: 12] التقدير: تَدْخُلْ غير بيضاء، وأخرِجْها تخرجْ بيضاء، فحذف من الأول "غير بيضاء"، ومن الثاني "وأخرِجها".

وقال الزركشيُّ: هو أن يَجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلٍ واحد منهما مُقابِلُه؛ لدلالة الآخر عليه؛ كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: 35]؛ التقدير: "إن افتريتُه فعليَّ إجرامي، وأنتم بُرَآء منه، وعليكم إجرامُكم، وأنا بريءٌ مما تجرمون".

وقوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب: 24] التقدير: "ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم، أو يتوب عليهم فلا يعذِّبهم".

وبيان أخذ هذه التسمية من حَبْكِ الثوب أن مواضع الحذف من الكلام شُبّهت بالفُرَج بين الخيوط، فلمّا أدركها المتدبّر البصير بصياغة الكلام، الماهر بإحكام روابطه، وأدرك مقابلاتها، تنبّه إلى ملء الفُرَج بأمثال مقابلاتها، كما يفعل الحائك حينما يُجري حبكاً محكماً في الثوب الذي ينسجه.

ومثال على ذلك من قول الله عزّ وجلّ: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} (آل عمران: 13).

حيث نلاحظ في الآية الكريمة حذفاً من الأوائل لدلالة ما في الأواخر، وحذفاً من الأواخر لدلالة ما في الأوائل، وهذا من بدائع القرآن وإيجازه الرائع.

إن إبراز المحاذيف يتطلّب منا أن نقول: " قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ " مُؤْمِنَةٌ " تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ " فِئَة " أُخْرَى كَافِرَةٌ " تقاتل في سبيل الطاغوت " يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ "

فتحقّق الاحتباك بدلالة ما في الأوائل على المحذوف من الأواخر، ودلالة ما في الأواخر على المحذوف من الأوائل.

(5) ولك أن تجعل هذا من (الاستعارة التمثيلية) أو (التشبيه المركب) الذي هو تشبيه حالةٍ بمجملها بحالةٍ أخرى بمجملها من غير تفصيل، فحالة النبي مع الذين كفروا، كحالة الراعي مع البهائم والأنعام في عدم فقههم وانتفاعهم، فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرد، الذي هو الدعاء والنداء.

ولك أن تجعله من التشبيه المُفَرَّق الذي يشبه كل مفردةٍ في الصورة بنظيرتها في الصورة الأخرى... فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاءهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الصوت الذي ينعق به الداعي عليها، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق. وهكذا.

(6) وفيه اشارة لأهل الصفاء:

قال ابن عجيبة الصوفي :(الإشارة فيه: إذا تمكن الهوى من القلوب عَزَّ دواؤه وشقّ علاجه، وعظم على الأطباء عناؤه، فالمنهمكون في الغفلة لا ينفَع فيهم التذكير، ولا ينجح فيهم التخويف والتحذير، فالواعظ لهم كالناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، قد أعماهم الهوى، وأصمهم عن سماع أسباب الهدي. قال البوصيري:

(وخالف النفس والشيطان واعصهما... إنَّ الهَوَى مَا تَولَّى يُصْمِ أو يَصِمِ).

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ ﴾ [البقرة: 222]؛ أيْ: حتَّى يَطْهُرن من الدَّم، ويتطهَّرن بالماء، فإذا طَهُرن وتطهَّرن فأْتُوهن.

وقوله: ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: 102]؛ أيْ: عملاً صالِحًا بسيِّئ، وآخر سيِّئًا بصالح.

فلا يُقلع الهوى من قلوبهم إلا بسابق العناية، أو هبوب ريـح الهداية، فتثير في قلوبهم خوفاً مُزْعِجاً، أو شوقاً مُقْلِقًا، أو نُوراً خارقاً وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.) [338] انتهى.

****

أحكام...

قال تعالى:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176) لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) }

[البقرة: 172 -177]

---

338 (في البحر المديد ج1ص201 نشره حسن عباس زكى القاهرة).

السياق الموضوعي للآيات.

إنها الحلاوة في ذلك الانتقال اللطيف من تقرير حقائق التوحيد في النفوس إلى بيان الأحكام العملية التي تبين جانباً آخر من عظمة وجمال هذا الدين الذي يحرم الضار الخبيث ويبيح النافع الطيب؛ إنه جانب التشريعات الذي ينتقل من الجانب النظري للدين المتمثل في العقيدة إلى الجانب العملي المتمثل في الأحكام.

فإن هذه الخطوة كانت أساسًا وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية، لتكون توجيهًا للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يتلقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام. ذلك أن المرء إذا عرف له سيدًا واحدًا وأسلم وجهه إليه وجب ألا يتحرك إلا عن أمره ولا يأخذ التشريع إلا من يده. ومن كانت له أربابٌ متفرقون، وتنازعت فيه شركاءُ متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع فأصابه النَصَب والهلكة. فأمرٌ للآباء والعشيرة، وأمرٌ للعرف والعوائد الموروثة والمستحدثة، وأمرٌ للسادة والكبراء، وأمرٌ للشياطين والأهواء. وهو ما رسمته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 29] (339)

فكانت ("الخطوة التالية" تقرير وحدة الآمر المطاع:

وهي ركن عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أن لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر. وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر غيره، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}.

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية.

"فبدأها" بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملاءمتها للفطرة، إذ إنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء كلها رجس خبيث، وأحل لهم ما وراء

339() يقول تعالى ذكره: مثل الله مثلا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شَتَّى، ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبُد إلا الله الواحد، يقول تعالى ذكره: ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء. يقول: هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه ومِلْكه فيه، ورجلا مسلما لرجل، يقول: ورجلا خُلُوصا لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله، لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (21/ 283)

ذلك أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تنقلب مباحات مرفوعًا عنها الحرج {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وناهيك بهذا الأسلوب تليينًا للقلوب وحملًا لها على الخضوع لأمر هذا الرب الرؤوف بعباده. أفمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث أحق أن يطاع، أم من {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من {لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}.

"ثم ختمها" بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامه ممن يكتم أمره ونهيه ويبدلهما بغير ما أمر ونهى ويأخذ على ذلك الرشا والسحت {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل في وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة.

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سينتقل إليها الحديث عما قريب، فذكره ها هنا يعد شعارًا بقرب الشروع في المقصد الجديد، ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالًا تاريخيًّا وثيقًا بعقيدة التوحيد التي هو بصددها، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنيين وكتابيين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب الشرك في التشريع بعد الشرك في العبادة. فجعلوا يحرمون من الحرث والأنعام حلالها، ويحلون حرامها، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يهلون بها لغير الله -يهتفون بأسماء آلهتهم-ويستحلون طعمتها بذلك، فجمعوا فيها بين مقاصد ثلاث: المعصية، والبدعة، والشرك الأكبر.

كأن باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو من أول باب فتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله، ولذلك كان هو أول باب سده القرآن بعد الشرك الأكبر. فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تاليًا لذكر العقائد حتى في السور المكية كسورة الأنعام (340)

، والأعراف، ويونس، والنحل، وغيرها.

ومما زاد موقعه هنا حسنًا أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلًا لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم.

340() اقرأ في سورة الأنعام سبعًا وعشرين آية أولها قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} الآيات [136- 153] ، وفي سورة الأعراف قوله: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} [الآيتين: 31، 32] ، وقوله: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى} [الآية: 169] وفي سورة يونس قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} [الآيتين 59، 60] وفي سورة النحل قوله: {وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [الآية: 95] ، وقوله: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ} [الآيتين: 115، 116] .

ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعد المعاندين {الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}؟ أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم من غيره. كما يتميز بالشهادة والصلاة: "من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله"[341].

على أن بدعة التحريم بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة، بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كادت تصيبهم عدوى الأمم قبلهم، إذ هموا أن يترهبوا، ويحرموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره، لا تحريمًا لما أحل الله منها، بل زهادة فيها وحملًا للنفس على الصبر عنها بضرب من النذر أو اليمين أو العزيمة المصممة. فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابه إغلاقًا، حتى لا يكون مدرجة لما وراءه. ونبههم أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحل لهم؛ قيامًا فيه بشريعة الشكر، كما نزلوا على حكمه فيما حرم عليهم قيامًا فيه بشريعة الصبر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}. [342]

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولواحقه توطئةً لخطاب المؤمنين خاصة به وبما يستلوه من الأحكام، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان تمهيداً لما تلاه من خطاب بني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلبًا وقالبًا. هل ترى أحسن من هذا النسق المتقابل المتعادل؟

والآن؛ وقد أخذت النفس أهبتها لتلقي سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطا السياق إليها الخطوة التالية. وهي إجمال الشرائع الدينية، وترى فيها عجائبَ من بديع التناسق:

- {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ....} .

يقول: إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات -تلك المسألة التي أشغلت بال المخالفين والمؤالفين نقدًا وردًّا-ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر، بل هي شعبةٌ واحدة من جملة الشُعَب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها؛ نظريةٍ وعمليةٍ، في معاملة المخلوق، وعبادة الخالق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فليشغل المؤمنون الصادقون.

---

341) رواه البخاري عن أنس بن مالك ك/ الصلاة، ب/ فضل استقبال القبلة يستقبل بأطراف رجليه "378". ورواه مسلم عن البراء ك/ الأضاحي، ب/ وقتها "3626 ".

342) إن السياق هنا يمزج مزجا لطيفا بين أوجه التوحيد المختلفة التي لا تنفك عن بعضها البعض في توحيد الله تعالى ربا وخالقا، وتوحيده في الإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، وتوحيده بالعبادة والطاعة، وتوحيده بمصدرية التشريع والتحليل والتحريم. ويستدل في ذلك كله بأساليب منطقية ما يؤيد وجها يؤيد الوجه الآخر بالضرورة فتأمل كلام الشيخ دراز هنا تعي ما أقصد.

- ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يُقْبِل عليها دفعةً واحدة، بل يتدرج إليها في رفقٍ ولين، فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان ولشرائع الإسلام {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ}.

- وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا، فتراه هنا يجمع بين "الإيمان بالله واليوم الآخر" وختم ب "الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين"؛ ذلك لأن من هذه الوسائط تُعرف الأحكام الشرعية، وعنها تؤخذ، فأتى بها تاليةً لتتصل بها الأحكام العملية؛ ولذلك راعى الترتيب فيما بينها أيضاً. فصدَّر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثنَّى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثلَّث بالنبيين وهم متلقو الوحي وبلغوه لنا وعنهم تؤخَذ الشرائع.) (343)

فتأمل دقة الترتيب ومنطقيته على طول خطٍ سياقي منضبط متصل يسلم بعضه إلى بعضٍ في عظمةٍ بديعةٍ للمتلقي المتدبِّر.

التفسير التحليل للآيات.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)}.

تمهيدٌ لطيف قبل البدء في التفاصيل الدقيقة للتشريع الإسلامي.

وهو إجمالٌ فيه مغزى التشريع ووضع إطاره العام... إنه يحِلُّ الطيبات ويحرم الخبائث. وهذا عند المؤمن الذي يتلقى منهج حياته فقط من الله تعالى؛ وهو معنى توحيد الله بالعبادة؛ هذا عنده من دلائل رحمة الله تعالى الذي يستحق الشكر كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

قوله تعالى: {الذين آمنوا} الخطاب هنا للمؤمنين الذين أخلصوا وجوههم ناحية السماء ينتظرون منهج النور ليضيء حياتهم.

لطيفةٌ ذكرها البقاعي قال:

وفي مورد هذين الخطابين {يا أيها الناس} و{يا أيها الذين آمنوا} بيان أن كلمة {للناس} تقع على سِنٍّ من أسنان القلوب وكلمة {الذين آمنوا} تقع على سنٍ فوقه، وليس يقع على عمومٍ يشمل جميع الأسنان القلبية، فتوهم ذلك من أقفال القلوب التي تمنع تدبر القرآن.

وذلك لأن خطاب القرآن يتوجه لكل أصحاب سن على حسب سن قلوبهم، لا يصلح خطاب كل سن إلا له يتقاصر عنه من دونه ولا يحتاج إليه من فوقه.

---

343) راجع الكتاب الماتع : النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز من (ص: 244) وما بعدها بتصرف يسير.

وهي أسنان متعددة: سن الإنسان ثم سن الناس، ثم سن الذين آمنوا، ثم سن الذين يؤمنون، ثم سن المؤمنين، ثم سن المؤمنين حقاً، ثم سن المحسنين؛ هذه أسنان سبعة خطاباتها مترتبة بعضها فوق بعض، ومن وراء ذلك أسنانٌ فوقها من سن الموقنين وما وراء ذلك إلى أحوال أثناء هذه الأسنان من حال الذين أسلموا والمسلمين ومن يوصف بالعقل والذكر والفكر والسماع وغير ذلك من الأوصاف التي تلازم تلك الأسنان في رتب متراقية لا يشمل أدناها أعلاها ولا ينهض أدناها لرتبة خطاب أعلاها إلى ما وراء ذلك من خصوص خطاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيه بما لا يليق إلا به وبمن هو منه، وفي انتظام تفصيل هذه الرتب جامعة لما يقع من معناه في سائر القرآن - انتهى. (344)

قوله تعالى: {كلوا} كما قال القرطبي: الْمُرَادُ بِالْأَكْلِ الِانْتِفَاعُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوه. وهو استعمالٌ قرآني شائع مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} أيْ: يُعاملون به فَنَبَّه بالأكل على غيره {لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة: 275]. وكذا قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: 10]. والمعنى هنا الاكتساب والانفاق والانتفاع وغيره الذي يجب أن يتحرى فيه المؤمن الحلال. فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ" يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" وَقَالَ:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ).

قال الفخر الرازي: واعلم أنَّ الأكل قد يكون واجباً، وذلك عند دفع الضرر عن النَّفس، وقد يكون مندوباً، وذلك عند امتناع الضيف من الأكل، لحثه على أخذ ضيافته من باب حسن الضيافة ولو كنت صائماً ولو كان الضيف صائماً أيضاً ، وقد يكون مباحاً، إذا خلا عن هذه العوارض، فلا جرم كان مسمَّى الأكل مباحاً، وإذا كان كذلك، كان قوله في هذا الموضع «كُلُوا» لا يفيد الإيجاب، والنَّدب، بل الإباحة، ومفعول «كُلُوا» محذوفٌ، أي: «كُلُوا رِزْقَكُمْ حَالَ كَوْنِهِ بَعْضَ طيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ». انتهى بتصرف

قوله تعالى: {من طيبات ما رزقناكم} من للتبعيض؛ أمرهم أن يتحروا الطيبات من الرزق، أي الحلال الطيب دون الحرام الخبيث.

قوله تعالى: {واشكروا لله} أَمْرٌ، وليس بإباحةٍ، لتعليقه على معنى إخلاص العبادة لله تعالى، فيجب اعتقاده سبحانه مستحقّاً التعظيم والشكر بمعرفة النعمة، وإظهار الشُّكْر باللِّسان، وإظهاره بالأفعال.

وكما يقول العارفون في معنى الشكر: ألا تستعمل نعم الله في معصيته. فهو سبحانه الذي رزق ثم هدى لأحسن وأقوم المناهج في إدارة الحياة وضبطها على نورٍ رباني لا يضاهيه منهجٌ في صلاحيته وملاءمته

---

344) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (2/ 337)

للبشر في كل زمانٍ. ومعرفة الطيبات وتحريها من معرفة المنهج والتوفيق للسير عليه، وهى من لطائف النعم التي تستحق الشكر كل لحظةٍ، فتأمل.

وفي حديث استفتاح الصلاة في صحيح مسلم من دعاء سيدنا رسول الله عن على رضى الله عنه: "…. وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ…"

قال القُشَيْرِيُّ: قال أهل العلْمِ بالأصول: نِعَمُ اللَّهِ تعالى على ضربَيْن: نعمةُ نَفْعٍ، ونعمةُ دَفْعٍ، فنعمةُ النفْعِ: ما أعطاهم، ونعمةُ الدفع: ما زوى عنهم ومنعهم. وليس كلّ إنعامه سبحانه انتظام أسبابِ الدنيا، والتمكُّنَ منها، بل ألطافُ اللَّه تعالى فيما زوى عنهم من الدُّنْيَا أكثرُ. وإن قرب العبد من الربِّ تعالى على حسب تباعُدِهِ من الدنيا. انتهى من «التَّحْبِير».

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابهِ المسمى ب «بهجة المجالس» . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ على عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ، فَعَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ شُكْرَهَا، وَمَا عَلَمَ اللَّهُ مِنْ عَبْدٍ نَدَامَةً على ذَنْبٍ إلاَّ غَفَرَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَلْبَسُ الثَّوْبَ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ، فَمَا يَبْلُغُ رُكْبَتَيْهِ حتى يُغْفَرَ لَهُ». [345]

قوله تعالى: {إن كنتم إياه تعبدون} والمعنى إن صح أنكم تخصونه بالعبادة. فعلامة تحقيق الإيمان في القلوب هو اتباع المنهج وتحري الحلال وشكر الله عز وجل.

*****

تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر عليه غير الله تعالى.

قال تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة/173)

(بيّن تعالى ما حرّمه عليهم من الخبائث المستكرهة، التي تنفر منها الطباع السليمة، أو ممّا فيه ضرر واضح للبدن، فذكر تعالى أنه إنما حرّم عليهم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر الخبائث، كما حرّم عليهم كل ذبيحة ذبحت للأصنام أو لآلهتهم المزعومة، وكلّ ما ذُكر عليه اسم غير الله، لكنّ إذا اضطر الإنسان، وألجأته الحاجة إلى أكل شيء من هذه المحرمات، غير باعٍ بأكله ما حرم الله عليه، فليس عليه ذنب أو مخالفة ولا متجاوز قدر الضرورة، لأن الله غفور رحيم، يغفر للمضطر ما صدر عن غير إرادة، رحيم بالعباد لا يشرع لهم ما فيه الضيق والحرج). [346]

345() نقلاً عن تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 356)

346() روائع البيان للصابوني.

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: لا تُحرموا على أنفسكم ما لم أحرمه عليكم أيها المؤمنون بالله وبرسوله منَ البحائر والسوائب ونحو ذلك مما يحرمه الكفار، بَل كلوا ذلك، فإني لم أحرم عليكم غير الميتة والدم ولحم الخنزير، ومَا أهلّ به لغيري. [347]

وهذا إشارةٌ إلى دلالة أسلوب القصر في " إنما"، والتي توجهها هنا قرينة الحال، فالحديث عن تحريم ما لم يحرمه الله، وتوحيد مصدر التشريع الموازي لتوحيد الألوهية يوجِّه القصر الذي تفيده أداة " إنما"، وإنْ لا فالمحرَّمات أشياء زيادةٌ على هذه المذكورة هنا كما قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ... الآية } [المائدة: 3].

******

قَالَ أَبو بَكْرٍ الجصاص في الأحكام:

الْمَيْتَةُ فِي الشَّرْعِ: اسْم الحيوان الْمَيِّتِ غَيْرِ الْمُذَكَّى ، وَقَدْ يَكُونُ مَيْتَةً بِأَنْ يَمُوتَ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ لِآدَمِيٍّ فِيهِ وَقَدْ يَكُونُ مَيْتَةً لِسَبَبِ فِعْلِ آدَمِيٍّ إذَا لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ الذَّكَاةِ الْمُبِيحَةِ لَهُ وَسَنُبَيِّنُ شَرَائِطَ الذَّكَاةِ فِي مَوْضِعِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى في آية المائدة.

وَقوله: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ} دليلٌ عَلَى تَأْكِيدِ حُكْمِ التَّحْرِيمِ، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ سَائِرَ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ. وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا (الأحناف) لَا يَجُوزُ الِانْتِفَاعُ بِالْمَيْتَةِ عَلَى وَجْهٍ، وَلَا يُطْعِمُهَا الْكِلَابَ وَالْجَوَارِحَ لِأَنَّ ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنْ الِانْتِفَاعِ بِهَا، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْمَيْتَةَ تَحْرِيمًا مُطْلَقًا مُعَلَّقًا بِعَيْنِهَا مُؤَكَّدًا بِهِ حُكْمَ الْحَظْرِ فَلَا يَجُوزُ الِانْتِفَاعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا إلَّا أَنْ يُخَصَّ شَيْءٌ مِنْهَا بِدَلِيلٍ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ. [348]

347() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 317)

348() واقتضى عموم تحريم الميتة المنع من دبغ جلدها، لولا الخبر المخصّص(قلتُ: حيث روى مالك بسنده عن عبد الله بن عباس أنه قال: «مر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بشاة ميتة كان أعطاها مولاة لميمونة زوج النبي صلّى الله عليه وسلم فقال: أفلا انتفعتم بجلدها؟ فقالوا: يا رسول الله، انها ميتة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: إنما حرم أكلها»، ورواه البخاري في الزكاة، ومسلم وشرح النووي (كتاب الحيض)، وفي رواية لمسلم: إذا دبغ الإهاب فقد طهر).

واقتضى ظاهر الآية أيضا تحريم الانتفاع بدهن الميتة، وروى فيه محمد ابن إسحاق، عن عطاء، عن جابر قال: لما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلم مكة أتاه أصحاب الصليب الذين يجمعون الأوداك فقالوا: يا رسول الله، إنا نجمع هذه الأوداك (= الأوداك: جمع ودك وهو دسم اللحم) وهي من الميتة وغيرها، وإنما هي للأدم والسفن، فقال صلّى الله عليه وسلم:« لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها» (= رواه ابن ماجة)، فبين رسول الله صلّى الله عليه وسلم: أن الله تعالى إذا حرم شيئا حرمه على الإطلاق، ودخل تحته تحريم البيع.. وذكر عن عطاء أنه قال: يدهن بشحوم الميتة ظهور السفن، وهذا قول شاذ.(قلتُ- جامعه: **ولعل حجته أن الآية إنما هي في تحريم الأكل، بدليل سابقها، وأن حديث شاة ميمونة يعارض حديث جابر، فوجب أن يرجح، لأنه موافق لظاهر التنزيل)**. انتهى أحكام القرآن للكيا الهراسي الشافعي (1/ 38) بتصرف يسير للشرح.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم تَخْصِيصُ مَيْتَةِ السَّمَكِ وَالْجَرَادِ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِالْإِبَاحَةِ.

فَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْجَرَادُ وَالسَّمَكُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالطِّحَالُ وَالْكَبِدُ).

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ فِي قِصَّةِ جَيْشِ الْخَبَطِ: (أَنَّ الْبَحْرَ أَلْقَى إلَيْهِمْ حُوتًا فَأَكَلُوا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ ثُمَّ لَمَّا رَجَعُوا أَخْبَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لهم: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ تُطْعِمُونِي)

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي إبَاحَةِ السَّمَكِ غَيْرِ الطَّافِي (قلتُ: والطافي من الحوت جوّزه مالك وغيره ومنعه العراقيون) وَفِي الْجَرَادِ (قلتُ: وفي الميت دون قتله من الجراد خلاف، منعه مالك وجمهور أصحابه وجوزه ابن نافع وابن عبد الحكم. والخلاف من مسائل الفروع في كتب الفقه).

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ عَلَى تَخْصِيصِ عُمُومِ آيَةِ تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ}.

وبقول النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرَقِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْبَحْرِ : (هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ). (349)

قال الزمخشري: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة. ألا ترى أنّ القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دما، لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولاعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث-وإن أكل لحما في الحقيقة، قال اللَّه تعالى: {لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا}. (350)

وقد ذهب أبو حنيفة إلى تحريم الجنين الذي ذبحت أمّه وخرج ميتا استنادا إلى أنّه ميتة، وحرمت الآية الميتة، وقد خالفه في ذلك صاحباه والشافعيّ وأحمد، وذهبوا إلى حله، لأنه مذكى بذكاة أمه.
وذهب مالك إلى أنه إن تمّ خلقه ونبت شعره، أكل، وإلا لم يؤكل.
والحجة لهم ما ورد من قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ذكاة الجنين ذكاة أمه»
وهو يفيد أن ذكاة أمه تنسحب عليه.
وقد قال من ينتصر لأبي حنيفة: إنّ الحديث كما يحتمل ما ذهبتم إليه، يحتمل معنى آخر، هو: أن ذكاته كذكاة أمه، فيكون على حدّ قوله:
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... ولكنّ عظم السّاق منك دقيق
وإذا احتمل ذلك فلا يخصّص الآية.
ويبعد هذا ويؤيد رأى الجمهور أنّ الحديث ورد في سياق سؤالٍ فكان فتوى قاطعة، وإليه ذهب فقه الحديث،

349() أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 132)

350() تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 215)

فقد ورد عن أبي سعيد، أنه صلّى الله عليه وسلّم سئل عن الجنين يخرج ميتا، فقال: «إن شئتم فكلوه، إنّ ذكاته ذكاة أمّه». (351)

*****

قوله تعالى: {والدَّمَ} يراد به المسفوح كما قيَّدتْه الآية الأخرى، وحمل العلماء المطلق على المقيد: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 145].

قال ابن عرفة: الدّمُ المسفوح نجس بإجماع، وكذلك الذي يخرجه الجزار من منحر الشاة بعد سلخها والدّم الذي يبقى في العروق طاهر (بإجماع، وأمّا ما انتشر من العروق على اللحم ففيه قولان والمشهور أنه طاهر) كذا قال اللّخمي وغيره. (352)

وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لولا أن الله قال: {أَوْ دَماً مَسْفُوحاً} لتتبّع الناس ما في العروق. قلتُ-جامعه: والحقيقة أن تتبع ذلك ذلك مما يروث الحرج في الدين، فالحمد لله رب العالمين.

ومن لطائف العربية قولهم في المثل: (لم يُحْرَم من فُصِد له) فجرى ذلك مثلا لمن نال بعض المقصد، أي: لم يحرم القِرَى (واجب الضيافة) من فُصِدت له الراحلة فحظي بدمها. وقال يعقوب: تأويل هذا أنّ الرجل كان يضيف الرجل في شدّة الزمان، فلا يكون عنده ما يقريه، ويشحّ أن ينحر راحلته، فيفصدها، فإذا خرج الدم سخّنه للضيف إلى أن يجمد ويقوى فيطعمه إيّاه. (353) وهو من الدم المسفوح الذي حرَّمه الإسلام.

******

قوله تعالى: {وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ} ويدخل شحمه وبقية أجزائه في حكم لحمه: إمّا تغليبا أو لأنّ اللحم يشمل ذلك لغة، لأنه ما لحم بين أخفى ما في الحيوان من وسط عظمه، وما انتهى إليه ظاهره من سطح جلده. وعرف غلبة استعماله على رطبه الأحمر. وهو هنا على أصله في اللغة. وإمّا بطريق القياس على رأي، لأنّه إذا حرّم لحمه الذي هو المقصود بالأكل-وهو أطيب ما فيه-كان غيره من أجزائه أولى بالتحريم. (354)

---

351) رواه أبو داود في السنن (3/ 18) ، في كتاب الأضاحي، باب ما جاء في ذكاة الجنين حديث رقم (2827) ، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 60) ، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في ذكاة الجنين حديث رقم (1476).

352) تفسير ابن عرفة (2/ 506) بتصرف

353) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 474)

354) المرجع السابق (475/1)

فإن قلتَ: هلا قيل: إنما حرم عليكم لحم الميتة كما قال: لحم الخنزير؟ قلتُ: الجواب عن ذلك أن الخنزير غيرُ مقدورٍ عليه إلا بالاصطياد، والاصطياد فيه في غالب أمره إنما يكون للحمه، فعلق بما هو المقصود فيه غالبا بخلاف الميتة فإن النفوس تفر منها وتكره لحمها فالمحرم جميعها. (355)

قوله تعالى: :{ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ}، فإنه لمّا حرّم ما يضرّ الجسم ويؤذي النفس، حرّم ما يضر القلب ويؤذي التوحيد في النفس، فكان التحريم في الأول للرجس المادي ثم انتقل لتحريم الرجس المعنوي فقال:{ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ} أي: ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له.

قال القاسمي: وأصل (الإهلال) رفع الصوت أي: رفع به الصوت للصنم ونحوه، وذلك كقول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزّى.

وذكر القرطبيّ عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري أنّه سئل عن امرأة عملت عرسا للعبها، فنحرت فيه جزورا، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم. وذكر أيضا عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عمّا يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم.

والقصد سدّ ما كان مظنّة للشرك.

قال النوويّ في (شرح مسلم): فإن قصد الذابح-مع ذلك-تعظيم المذبوح له، وكان غير الله تعالى-والعبادة له، كان ذلك كفرا. فإن كان الذابح قبل ذلك مسلما، صار بالذبح مرتدّا.(356)

وروى البخاريّ «في كتاب الذبائح والصيد» عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن قوما قالوا للنبي صلّى الله عليه وسلّم: إن قوما يأتوننا باللحم، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوه. قالت عائشة: وكانوا حديثي عهد بكفر.انتهى

فكأنّ المحرَّم ليس ما لم يُعْلَم (أو خفي علينا) أن اسم الله ذكر عليه بل الذي عُلِم أنّ غير اسم الله قد أعلن عليه، وهو ما دلَّ عليه ظاهر الآية {وما أهل لغير الله به} والإهلال إعلان.

---

355) تفسير ابن عرفة (2/ 506)

356) **ذكر ذلك في الكلام على حديث عليّ رضي الله عنه: لعن الله من ذبح لغير الله.** أخرجه مسلم في: الأضاحيّ، حديث 43 ونصه: عن أبي الطفيل، عمر بن واثلة قال: كنت عند عليّ بن أبي طالب، فأتاه رجل فقال: ما كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسرّ إليك؟ قال فغضب وقال: ما كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسرّ إليّ شيئا يكتمه الناس. غير أنه قد حدثني بكلمات أربع. قال فقال: ما هن، يا أمير المؤمنين؟ قال: قال «لعن الله من لعن والده. ولعن الله من ذبح لغير الله. ولعن الله من آوى محدثا. ولعن الله من غيّر منار الأرض»

وروي عن عليّ رضي الله عنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلّون لغير الله فلا تأكلوا، وإذا لم تسمعوهم فكلوا، فإن الله قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون. (357)

وفيه خلافٌ وهو: أهذا يشمل ذبائح النصارى التي ذكروا عليها اسم المسيح فتكون محرمة، أم لا يشملها فلا تكون محرمة، بل هو خاص بما ذكر عليه اسم الأصنام؟

بالرأى الأول قال أبو حنيفة وأبو يوسف، ومحمد، وزفر، والشافعي، ومالك، ونُقِل عنه الكراهة.

وبالثاني قال عطاء، ومكحول، والحسن والشعبي، وسعيد بن المسيّب، وأشهب من المالكية.
وسبب اختلافهم: أنه وردت هذه الآية، ووردت الآية: {وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ} [المائدة: 5]
وكلاهما يصح أن تخصّص الأخرى، فيصح أن يكون المعنى: وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ما لم يذكر اسم غير الله عليه، بدليل: {وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ}.

ويصحّ أن يقال: {وما أهل به لغير الله} إلا ما كان من أهل الكتاب. بدليل قوله: {وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ}.

فمن ذهب إلى الأول حرّم ذبيحة الكتابي إذا ذكر عليها اسم المسيح، ومن ذهب إلى الثاني أجازها، ويمكن أن يرجّح الثاني بأن الآية نزلت في تحريم ما كان تذبحه العرب لأوثانها، وتكون في معنى قوله: {وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [المائدة: 3]. انتهى (358)

وقد ذكر الفقهاء أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله ولو مع اسم الله فهو محرم، وعد منه الأستاذ محمد عبده-رحمه الله-ما يجري في الأرياف كثيرا من قولهم عند الذبح -لا سيما ذبح المنذور -بسم الله، الله أكبر، يا سيد، يدعون السيد البدوي أن يلتفت إليهم ويتقبل النذر ويقضي حاجة صاحبه.

(قال) وكيفما أولته فهو محرم، ومثل ذكر السيد ذكر الرسول أو المسيح ؛ إذ لا يجوز أن يذكر عند الذبح غير اسم المنعم بالبهيمة المبيح لها، فهي تذبح وتؤكل باسمه لا يشاركه في ذلك سواه، ولا يتقرب بها إلى من عداه ممن لم يخلق ولم ينعم. (359)

******

357() تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 476) بتصرف يسير.
358() نقلا عن دكتور علي السايح في تفسير آيات الأحكام.
359() تفسير المنار (2/ 80)

قوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

فيه ضبطٌ للقدر الذي يقف عنده المضطر حين يدعوه الاضطرار إلى تناول شيء من هذه المحرّمات، فلا يفتعل الاضطرار، ولا يركب الأمور التي يعلم أنها ستدخله مداخل الاضطرار وهو قادر على ركوب غيرها فإذا دخل منطقة الاضطرار من غير بغى، فلا ينال من هذه المحرمات إلا القدر الذي يمسك عليه حياته، من غير العدوان ومجاوزة الحدّ. (360)

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام وتبقى معه الحياة دون ما فيه حصول الشبع لأن الإباحة للاضطرار فتقدر بقدر ما تندفع الضرورة.

وفيه حفظٌ لأصلٍ في الشريعة الإسلامية:

أولهما: أنَّ شرع الله تعالى بُنى على التيسير كما يأتي في قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185]، وغيرها من الآيات الكثيرة، والسنة وتحليل مقاصد الشريعة التي تدل قطعياً على أن الإسلام مناطه التيسير، ودفع الحرج عن الناس، والرحمة أصل كل شرائعه.

ولذلك جاءت القاعدة الفقهية (الضرورات تبيح المحظورات) فيصير المحظور في حال الضرورة التي تهدد (الدين أو النفس أو العقل أو العِرض أو المال = وهى المقاصد التي حفظتها الشريعة في استقراءٍ عام لأحكامها)؛ يصير المحظور مباحاً بشرط عدم القصد إلى اصطناع حالة الضرورة للتحايل على الشرع، وهو المقصود بقوله تعالى: {غير باغٍ} وكذلك عدم تجاوز مقدار ما يحفظ المقصد، وهو المقصود بقوله تعالى: {ولا عادٍ}. وهذا ما قرره علماء الفقه بقولهم في القاعدة: (الضرورات تُقدَّر بقدرها) بلا تحايلٍ، ولا تجاوز في استباحة ما حرمه الله.

فالذي انقطع في صحراء قاحلة أو سجنٌ وأرغم ولم يجد غير الميتة أو لحم الخنزير، أبيح له حفظا لحياته أن يأكل فقط ما يقيمه حتى ينجو بلا تجاوز، وكذلك من قطعه العطش ولم يجد غير الخمر... وهكذا.

وهذا يؤكد صفة " الواقعية" و" القابلية للتنفيذ" التي اختصتا بها شريعة الإسلام وجعلتها صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، ولك البشرية، وتحت كل الظروف.

فليست الشريعة الغراء مثالية أو بعيدة عن طبيعة البشر واحتياجاتهم وضروراتهم، ولا تأمر بما لا يُستطاع، بل هي المرنة التي تراعي الظروف والطوارئ.

---

360) التفسير القرآني للقرآن (1/ 190)

ولذلك عقَّب الآية بما يدل على إتاحة الرخصة للمضطر بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} أي لمن أخذ بالرخصة حال الضرورة بغير تجاوز، ثم أردفها باسمه العظيم {رحيم} أي في تشريعه للناس وعلمه باحتياجاتهم وظروفهم.

دقائقٌ ولطائف.

(1) قال الشيخ محمد عبده:
ومن مباحث البلاغة في الآية أن ذكر (غفور) له فيها نكتة دقيقة لا تظهر إلا لصاحب الذوق الصحيح في اللغة، فقد يُقال: إن ذكر وصف الرحيم ينبئ بأن هذا التشريع والتخفيف بالرخصة من آثار الرحمة الإلهية، وأما الغفور فإنما يناسب أن يذكر في مقام العفو عن الزلات والتوبة عن السيئات. والجواب عن هذا أن ما ذكر في تحديد الاضطرار دقيق جدا، ومرجعه إلى اجتهاد المضطر، ويصعب على من خارت قواه من الجوع أن يعرف القدر الذي يمسك الرمق ويقي من الهلاك بالتدقيق وأن يقف عنده، والصادق الإيمان يخشى أن يقع في وصف الباغي والعادي بغير اختياره، فالله تعالى يبشره بأن الخطأ المتوقع في الاجتهاد في ذلك مغفور له ما لم يتعمد تجاوز الحدود. والله أعلم. [361]

(2) فسر السيوطي في (الجلالين) -نهجا على تأويل بعض المفسرين-كلمة (باغٍ) بالخارج على المسلمين، و (عادٍ) بالمعتدي عليهم بقطع الطريق؛ (قال): ويلحق بهم كل عاص بسفره كالآبق والمكاس، وعليه الشافعي.
قال الأستاذ محمد عبده: ولا خلاف بين المسلمين في أن العاصي كغيره يحرم عليه إلقاء نفسه في التهلكة، ويجب عليه توقي الضرر، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا. فكيف لا تتناوله إباحة الرخص؟!

ثم إن المناسب للسياق أن تحدد الضرورة التي تجيز أكل المحرَّم، وتفسير الباغي والعادي بما ذكرنا هو المحدِّد لها، وهو موافق للُّغة [362] كقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: {ما نبغي} -أي ما نريد-وفي الحديث الصحيح (يا باغي الخير هلم) أي طالب الخير، وفي التنزيل {ولا تعد عيناك عنهم} (الكهف/ 28) أي: لا تتجاوزهم إلى غيرهم.

فالكلام في تحديد الضرورة وتمام بيان حكم ما يحل ويحرم من الأكل، لا في السياسة وعقوبة الخارجين على الدولة والمؤذين للأمة.

361() تفسير المنار (2/ 81)

362() بَغَيْتُهُ أبْغيهِ بُغاء وبُغًى وبُغْيَةً، بضَمِّهِنَّ، وبِغْيَةً، بالكسر: طَلَبْتُهُ، كابْتَغَيْتُهُ وتَبَغَّيْتُهُ واسْتَبْغَيْتُهُ. والباغِي: الطَّالِبُ. وعَدا عليه عَدْواً وعُدُوًّا وعَداءً وعُدْواناً، بالضم والكسر، وعُدْوَى، بالضم: ظَلَمَهُ، كَتَعَدَّى واعْتَدَى وأعْدَى، وهو مَعْدُوٌّ ومَعْدِيٌّ عليه. انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: 1309، 1263)

وإنما كان هذا التحديد لازما لئلا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار إذا هو وُكِّل إليهم بلا حد ولا قيد، فيزعم هذا أنه مضطر وليس بمضطر، ويذهب ذلك بشهوته إلى ما وراء حد الضرورة، فعُلِم من قوله: {غير باغٍ ولا عادٍ} كيف تُقَدَّر الضرورة بقدرها، والأحكام عامة يخاطب بها كل مكلف لا يصح استثناء أحد إلّا بنصٍ صريحٍ من الله سبحانه أو رسوله. [363]

(3) **المذكور في الآية ليس في الحقيقة من باب الرخصة** [364] **وإن بدا ظاهر الآية كذلك. ولكنه بانضمامه إلى الآية الأخرى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة: 195) ومقاصد الشريعة التي استنبطها العلماء الربانيون بحفظ النفس يصير (عزيمةً)** [365] **بحيث لو ترك المضطر الذي يخشى الهلاك أكل لحم الخنزير والميتة صار عاصيا آثما. وللأمر تفصيلٌ عميق في أصول الفقه، وانظر موافقات الشاطبي.**

(4) **نجد في عظمة التشريع الإسلامي تحريم ما يضر الإنسان ويودي بحياته، فعلاوة على كونه تعبدا لله الخالق الآمر؛ فيه حفظ للإنسان وفعل ما فيه مصلحته التي يعملها البارئ سبحانه، فتأمل.**

---

363) تفسير المنار (2/ 80)

364) الرُّخْصَة: هِيَ لُغَةً عبارَة عَن التَّوسعَة واليسر والسهو.

وَشَرِيعَةً: اسْم لما يُغير من الْأَمر الأَصْلِيّ لأمرٍ عَارض إِلَى يسر وَتَخْفِيف، كَصَلَاة السّفر لقَوْله تَعَالَى: {إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْض فَلَيْسَ عَلَيْكُم جنَاح أَن تقصرُوا} ....

ثمَّ الرُّخْصَة نوعان:

الأول: مَا يظْهر التغاير فِي حكمه مَعَ بَقَاء وصف الْفِعْل وَهُوَ الْحُرْمَة.

أَي: يرْتَفع الحكم وَهُوَ الْمُؤَاخَذَة مَعَ بَقَاء الْفِعْل محرما كإجراء كلمة الْكفْر على اللِّسَان فِي حَالَة الْإِكْرَاه مَعَ اطمئنان الْقلب بِالْإِيمَان، وَإِتْلَاف مَال الْغَيْر بِغَيْر إِذْنه فِي حَالَة الْإِكْرَاه والمخمصة، وكإفطار صَوْم رَمَضَان بِالْإِكْرَاهِ يُرَخَّص لَهُ الْإِقْدَام فِي هَذِه الْمَوَاضِع مَعَ بَقَاء حُرْمَة الْفِعْل، حَتَّى لَو امْتنع وبذل نَفسه تَعْظِيمًا لنهي الله فَقتل أَو مَاتَ جوعا يُثَاب على ذَلِك بِبَقَاء وصف الْفِعْل مُحرَّمًا.

الثاني: مَا يظْهر التَّغْيِير فِي الحكم وَفِي وصف الْفِعْل أَيْضا، وَهُوَ أَن لَا يبْقى الْفِعْل محرَّما كشرب الْخمر وَتَنَاول الْميتَة فِي حَال الْإِكْرَاه أَو المخمصة للآية التي أباحت ذلك ورفعت الحرج عن الفعل بنصها {فمن اضطر غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه} (البقرة/173)، فَفِي هَذَا النَّوْع ارْتَفَعت الْحُرْمَة والمؤاخذة جَمِيعًا حَتَّى لَو امْتنع فَقتل أَو مَاتَ جوعا يُؤَاخذ بِهِ.

والرخص لَا يُقَاس عَلَيْهَا، وَإِذا شاعت قد يُقَاس عَلَيْهَا كَمَا تقرر فِي الْأُصُول.

راجع الكليات للكفوي (ص: 472) بتصرف

365) الْعَزِيمَة فِي أَحْكَام الشَّرْع مَا هُوَ مَشْرُوع مِنْهَا ابْتِدَاء من غير أَن يكون مُتَّصِلا بأمر عَارِض.. انظر أصول السرخسي (1/ 117).

وربما تكون الحكمة في تحريم ما ذكر في الآية: **أما الميتة** فلأنها قذرة نتنة، ولما فيها من ضرر، لأنها إمّا أن تكون قد ماتت لمرض قد أفسد تركيبها. وجعلها لا تصلح للبقاء. وإما لسبب طارئ.

فأما الأولى: فقد خبث لحمها. وتلوث بجراثيم المرض، فيخاف من عدواها ونقل مرضها إلى آكليها. وأما الثانية: فلأنّ الموت الفجائي يقتضي بقاء المواد الضارّة في جسمها.

ولذلك يوجب الاسلام ذبح الحيوان بطريقة معينة (= ذكاة الحيوان أو تذكيته) للتخلص من دمة، لما في الدم من مكروبات وجراثيم لذلك كانت حكمة الاسلام في تحريم أكل الميتة لما يحويه جسدها من هذه الجراثيم والميكروبات التي أتاح لها موت الجسد الانتشار فيه وتشكيل خطورة بالغة جراء أكلها.

وأمّا الدم المسفوح، فماذا يقول العلماء عن الدم؟ يحمل الدم سموماً، وفضلاتٍ كثيرة، ومركباتٍ ضارة، ذلك لأن إحدى وظائفه هي نقل فضلات الجسم وسمومه إلى أجهزة الإخراج ليتم التخلص منها، وأهم المواد التي يحويها الدم هي البولينا (اليوريا) وهي المُخرَجات النهائية الناتجة عن تقويض البروتينات.

فإذا ما تناول الإنسان كمياتٍ من الدم، فإن هذه المركبات تمتص في الجسم مرةً أخرى بدلا من إخراجها، ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافةً إلى المركبات التي تنتج عن هضم الدم ذاته، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة اليوريا وتكوين مركبات نوشادر حمضية في الدم، وبالتالي إلى حدوث اعتلالٍ دماغي ينتهي بالغيبوبة، وهذا ما يحدث أيضاً نتيجة بلع الانسان لكميات كبيرة من دمه، نتيجة نزف من المرىء أو المعدة او الأمعاء.

وكذلك يعتبر الدم وسطاً ملائماً جداً، لنمو أنواع كثيرةٍ من الجراثيم القاتلة، وقد استفيد من هذه الخاصة في صنع مزارع الجراثيم من الدم.

هذا ما يقوله العلماء حول الدم حينما حرّمه الله عزَّ وجل، حرَّمه لحكمةٍ بالغةٍ.

وأما لحم الخنزير، فلأن غذاءه من القاذورات والنجاسات، وهو حيوان دنئ الخصال فينجس لذلك... ولأن فيه ضررا، فقد استكشف الأطباء أنّ لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك، ويظهر أيضا أن المتغذي من لحم الخنزير قد يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزير فيه كثير من الطباع الخبيثة.

يحمل جسم حيوان الخنزير مما يحمله من الأمراض الفتاكة طفيليات تعيش فى أمعائه وفى عضلاته مثل الدودة الشريطية التي تعيش على هيئة أكياس مثل دودة """" التريخينا """" ويبلغ طولها داخل الكيس من (2) الى (3) أمتار إذا انفصل منها جزء اكتمل ليصنع كيسا ودودةً كاملةً ليكمل دورته المميتة، وهى موجودة أيضا داخل عضلات حيوان الخنزير.

وعندما تصل الأكياس الموجودة في لحم الخنزير الى معدة الانسان ويتم الهضم تنطلق اليرقات فتخترق جدار المعدة لتصل الى الدورة الدموية، وعن طريقها تصل الى جزاء من الجسم وأخطرها طبعا المخ ثم القلب والكبد والرئتين، وهى حينئذٍ مميتة. فالأكياس التي تصل الى العضلات تنمو وتعمل اكياسا ينشأ عنها آلاما روماتيزمية مبرحة في العضلات المصابة من الإنسان مثل اللسان والحنجرة وعضلات الصدر بين الاضلاع

والحجاب الحاجز والفكين والاذرع والأرجل وعضلات جدار البطن ويصاحب هذه الالام تورم واحتباسا للماء في الوجه وازدياد في عدد كرات الدم البيضاء وخصوصا الايزونوفيلية .

وقد تكون اعراض التسمم الناشىء أثناء فترة تكيس اليرقات شديدة (anaphylaxis =) مع ظهور اعراض في الجهاز التنفسي أو غيبوبة اذا كان عدد اليرقات في الرئتين كبير...والذى يستوجب التفكير في حكمة الخالق سبحانه في تحريم لحم الخنزير أن هذه الأكياس لا يُعرف لها علاجٌ شافي حتى الآن، فمضادات الديدان المعروفة تسبب موت الدودة في طور نشاطها داخل الأعضاء المهمة مما يؤدي إلى انفجارها ودمار العضو أو صنع تلف قاتل داخل الكبد او القلب أو الرئتين . (366)

366() – علة تحريم لحم الخنزير.

بيّن الله تبارك وتعالى العلّة في تحريم لحوم الخنزير في قوله تعالى: (فَإِنَّهُ رِجْسٌ)؛ أي أنه نجس، وهو ضار ومؤذٍ ونتن، وهذه العلة تُعتبر علةً ذاتيّةً؛ فهي قائمة لا تنفكّ أبداً عن لحم الخنزير.

وهذا يوضح أن العلّة في التحريم ليست علّةً عارضةً أو علّةً مُكتسبةً. فالعلة العارضة، كأكل الخنزير للقاذورات والقمامة والنفايات، يحدث في بعض الدول دون غيرها؛ لأن الدول في الغرب يُطعمون الخنزير الأعلاف الطيبة، ويُربّونها في حظائر صحيّة ونظيفة ومُغلقة ومُكيّفة، وعندها تنتفي العلة العارضة.

وكذلك العلة في كون الخنزير رجس أيضاً ليست مُكتسبةً؛ فلا تزول بزوال سببها، كإصابة الخنزير ببعض الأمراض، مثل الأمراض الطُفيليّة، والأمراض البكتيريّة، والأمراض الفيروسيّة؛ لأنّ هذه الأمراض مُكتسبة ويُمكن السيطرة عليها سواءً بالعلاج بالمُضادّات الحيويّة التي تُستخدم ضدّ مُسبّبات الأمراض السابقة، أو باستخدام اللّقاحات الوقائيّة، وهي شائعة الآن وتُستخدَم بشكل واسع، وبهذا كلّه تنتفي العلل المُكتَسبة ولا تكون عللاً صالحةً للتّحريم.

بانتفاء العلة العارضة وانتفاء العلّة المُكتسَبة ينتفي الحكم، وفي ذلك تكذيب لكلام الله تعالى الذي يتلوهُ المسلمون إلى قيام الساعة، وتبقى العلة الذاتيّة هي العلّة التي لا تنفك أبداً عن لحم الخنزير، وهي كونه نجساً في ذاته، وضارّاً ذاتيّاً، ومُؤذياً لمن يأكله أو يتعامل معه؛ بالتربية أو يتعامل مع لحمه جزارةً وأكلاً، فالعلة في كون الخنزير رجس هي الأصل في الحكم الشرعيّ وبقائه.

- **أضرار لحم الخنزير والفرق بين لحم الخنزير واللحم الحلال.**

يحتوي لحم الخنزير على الدهون بكميّة كبيرة، ويمتاز بأن الدهن فيه يدخل ضمن الخلايا العضليّة، كما تتواجد خارج خلاياه في الأنسجة الضامّة، بينما لحوم الأنعام تنفصل فيها الدهون عن النسيج العضليّ ولا تتموضع الدهون في باقي. وقد أثبتت الدراسات العلميّة أن الإنسان حينما يتناول دهون الحيوانات التي تأكل العشب فإن دهون الحيوانات آكلة العشب تُستَحلب في أمعاء الإنسان وتُمتَص وتتحوّل إلى دهون إنسانيّة، أمّا حينما يأكل لحوم الحيوانات التي تفترس وتأكل اللحوم فإن استحلاب دهونها يكون عسيراً في أمعاء الإنسان، ويتمّ امتصاص جُزيئات مادّة الغليسريدات الثلاثيّة الموجودة في دهن الخنزير كما هي إلى الأمعاء دون أن تتحول أو تترسّب في أنسجة جسم الإنسان، فتبقى كدهون حيوانيّة أو خنزيريّة.

ومن المُثير للدّهشة ملاحظة د.هانس هايترش التي يقول فيها إن الذين يأكلون شحوم الخنزير من أيّ منطقة من جسم الخنزير فإنّها تترسّب عند الإنسان في نفس المنطقة ذاتها عند الإنسان الآكل للحم الخنزير، وهكذا وجد د.هانس أنّ النّساء اللواتيّ يأكلن فخذ لحم الخنزير يُشاهد بكل وضوح لديهن تشوّه في الفخذين والإليتين، والكولسترول الناتج عن تحلّل لحم الخنزير في

جسم الإنسان يظهر في دمه على شكل كولسترول جزئيّ؛ أي أنّه كولسترول كبير الذرّة، ممّا يُؤدّي ارتفاع الضغط الدمويّ بكثرة، ويُؤدّي كذلك إلى تصلُّب الشرايين، وهما عاملان من عوامل الخطورة التي تُعتَبر تمهيداً لاحتشاء عضلة القلب.

وقد توصل البروفيسور **Roff** إلى أنّ الكولسترول الموجود في الخلايا السرطانيّة الجوّالة يُشابه الكولسترول الذي يتشكّل عند تناول لحم الخنزير، ويُعتَبر لحم الخنزير لحماً غنيّاً بالمُركّبات التي تحتوي على نسبة عالية من الكبريت، ممّا يُؤثّر على قابليّة امتصاص الأنسجة الضامّة للماء، فتُصبح الأنسجة الضامّة كالإسفنج وتكتسب شكلاً كيسيّاً واسعاً، ممّا يُؤدّي إلى تراكم بعض المواد المُخاطيّة في الأوتار وفي الأربطة والغضاريف، ويُؤدّي ذلك إلى ارتخائها، ممّا يُهيّئ للإصابة بالالتهابات، وخاصة الالتهاب المعروف بالتهاب المفاصل التنكسيّ؛ وهو يُصيب المَفاصل بين الفقرات خاصّةً، ويُؤدّي كذلك إلى تنكّس في العظام.

والأنسجة المُحتوية على الكبريت تُصاب بالتعفّن والتخمّر، وتنتج عنها روائح كريهة تفوح بسبب انطلاق غاز كبريت الهيدروجين، وحتى الآنية المُحتوية على لحم الخنزير، وبالرغم من أنّها ربما تكون مُحكمة السدّ إلا أنّه يتوجّب إخراجها من الغرفة بعد أيام بسبب الروائح الكريهة.

وبالمقارنة مع اللحوم الأخرى تم إخضاعها لنفس التجربة، وُجِدَ أن لحم البقر مثلاً كان أبطأ تعفُّناً بشكل ملحوظ من التعفّن الكبير والسريع الذي يُصيب لحم الخنزير، ولم تنطلق من لحم البقر تلك الرّوائح النّتنة التي تنطلق وتفوح من لحم الخنزير.

ويحتوي لحم الخنزير كذلك على نسبة تُعتَبر نسبةً عاليةً من هرمونات النموّ ذات تأثير أكيد تُؤهّب وتُمهّد للإصابة بخامة النّهايات، وكذلك لها تأثير في زيادة نموّ دهون البطن (الكرش)، وكذلك زيادة مُعدلات النموّ خاصّةً الأنسجة المُهيّئة للنموّ والتطوّر السرطانيّ.

- وعن الأمراض التي يُسبّبها لحم الخنزير الخنزير.

يختصّ مُنفرداً بنقل 27 مرضاً وبائيّاً إلى الإنسان، وصحيح أن بعض الحيوانات تُشاركه في نقل بقية الأمراض، لكن الخنزير يبقى المَخزن والمَصدر الرئيسيّ لنقل هذه الأمراض.

ويمكن أن تنتقل هذه الأوبئة من الخنزير إلى الإنسان بعدّة طرق:

يمكن أن تنتقل عن طريق مُخالطة الخنزير أثناء تربيته أو أثناء التّعامل مع مُنتجاته، وهذه الأمراض والأوبئة تُصيب في أغلبها المهنيّين الذين يعملون مع الخنزير أو يتعاملون مع لحم الخنزير، وهم عمال الزّرائب والمجازر وكذلك البيطريّون. يمكن أن تنتقل هذه الأوبئة والأمراض عن طريق تلوّث الطّعام وتلوث الشّراب بفضلات الخنزير، ومن هذه الأمراض الديدان والشّعيرات الحلزونية وغيرها.

يمكن أن تنتقل هذه الأوبئة والأمراض عن طريق تناول لحم الخنزير ومُنتجاته، وهذا يُؤكّد ما توصّل إليه العلماء؛ وهو أنّ الحظر المفروض على المسلمين بألا يُلامسوا لحم الخنزير أو يأكلوه ليس بحاجة إلى تبرير بعد كل هذه الأمراض التي تُصيب الإنسان نتيجة تعامله مع الخنزير، سواء كمهنة أو تناول لحمه.

المراجع :

- مجموعة من طلاب العلم (19-8-2001)، "العلة في تحريم أكل لحم الخنزير"، إسلام ويب، اطّلع عليه بتاريخ 14-3-2017.

- أ.د/ حنفي محمود مدبولي (من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا 1432هـ -2011م)، "الإعجاز العلمي في تحريم لحم الخنزير"، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، اطّلع عليه بتاريخ 24-2-2017م ص307 وما بعدها.

كتمان العلم جريمةٌ الجرائم.

قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)}

هذه الآيات متصلة بما قبلها على كلا الوجهين السابقين، فإذا كان الكلام لا يزال في محاجة اليهود وأمثالهم فالأمر ظاهر، وإذا قلنا: إن الكلام قد دخل في سرد الأحكام تكون مقررة لحكم منها، وهو ظاهر أيضا، فقد تقدم أن قوله تعالى: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض) تقرير لحكم في الأكل على خلاف ما عليه أهل الملل، وبينا ما كان عليه أهل الكتاب والمشركون في الأكل، ونقض القرآن لما وضعوه لأنفسهم من أوهاق الأحكام، وإباحة الطيبات للناس بشرط أن يشكروه عليها، وعلى هذا تكون الآيات جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرم الله، ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك، فيدخل فيه اليهود والنصارى ومن حذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه، سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أوصاف النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الأكل والتقشف وغير ذلك من الأحكام التي كانوا يكتمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك كما قال تعالى: (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) (الانعام/ 91) وفي حكمهم كلُّ من يبدي بعض العلم ويكتم بعضه لمنفعته لا لإظهار الحق وتأييده، فالعبرة بعموم اللفظ وإن خُصَّ بالسبب علماء اليهود هنا وهذا هو ما عبر عنه بقوله: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا) أي: الذين يخفون شيئا مما أنزل الله من كتابه فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه، أو يخفون معناه عنهم بتأويله أو تحريفه أو وضع غيره في موضعه برأيهم واجتهادهم، كما فعل علماء اليهود في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبي-صلى الله عليه وسلم-أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في كتاب (الحدود).

أولئك الخاسرون يأخذون بما يكتمونه ثمنا قليلا من متاع الدنيا الفاني كالرِشوة، والجُعْل [367]

على الفتاوى الباطلة، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى-كما يزعمون ليخدعوا الجهلاء من العوام.

والتعبير ب(يشترون) فيه من الدلالة والإيحاء العميق بتلك الصفقة الخاسرة التي تجشمها أولئك الفاسدون، فهم باعوا علمهم الذي مَنَّ الله به عليهم والذي يجب أن يكون سبيلهم وسبيل غيرهم ممن

- موقع الإسلام سؤال وجواب (9-4-2004)، "تصراني يسأل عن سبب تحريم لحم الخنزير"، الإسلام سؤال وجواب، اطّلع عليه بتاريخ 14-3-2017.

367() الجعل (بضم فسكون) والجعالة (مثلثة الجيم) : أجر مشروط يجعل للقائل أو الفاعل شيئًا. وله في الفقه بابٌ لأحكامه.

يثق فيهم ويستفتيهم في أمور دينهم إلى النعيم الأبدي، باعوه بثمنٍ بخسٍ عبر عنه القرآن بأنه قليل مهما بلغ.. فهو قليلٌ في مقابل ما خسروه، وهو قليلٌ لأنه زائلٌ، وهو قليل لأنهم زائلون عنه.

والتنكير في قوله تعالى: {ثمنا قليلا} يفيد التحقير لهذه الصفقة البائسة، فحتى بمنطق المادية والصفقات هم خاسرون خسرانا بيّناً، ولهذا ترى عظمة التعبير الموحي في هذه الآية التي تكتمل بصورةٍ بلاغيةٍ خطيرةٍ يرسمها المجاز في قوله تعالى: { أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ} فهم يأكلون السحت الذي يودي بهم إلى النار فكأنهم يأكلون النار [368]

، أو أن الحديث على حقيقته يوم القيامة حين يأكلون النار في جهنم كما في قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: 29]، وإن كان التعبير على المجاز أليق في بلاغته بهذا الموضع.

وذُكِرت البطون في أكلهم المؤدي إلى النار دلالةً على حقيقة الأكل، إذ قد يستعمل مجازا في مثل: أكل فلان أرضي ونحوه، وفي ذكر البطن أيضا تنبيه على مذمتهم بأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له، وعلى دناءتهم بطاعة بطونهم. وربما لأن العُرف اللغوي أن يُقال لمبتلعي الحقوق من الظالمين أنهم يملئون بطونهم من الحرام، فناسب ذلك ذكر أنها النار التي تملأ هذه البطون في الآخرة كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: 10]، والتعبير موحٍ ومنسجمٌ غاية الانسجام في موضعه بعد أحكام الأكل في الآيات السوابق.

وأما قوله: {ولا يُكلِّمهمُ الله يَومَ القيامة}، يقول: ولا يكلمهم بما يحبون ويشتهون، فأما بما يسُوءهم ويكرَهون، فإنه سيكلمهم. لأنه قد أخبر تعالى ذكره أنه يقول لهم -إذا قالوا: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} الآيتين [سورة المؤمنون: 107-108] وفيها إيحاءٌ بليغٌ بغضب الله-سبحانه-عليهم وإزالة الرضى عنهم، فتكون هذه الآية بمنزلة قولك: فلانٌ لا يكلمه السلطان ولا يلتفت إليه. وأنت إنما تعبر عن انحطاط منزلته لديه واحتقار قدره عنده.

وأما قوله: {ولا يُزكِّيهم}، فإنه يعني: ولا يطهِّرهم من دَنس ذنوبهم وكفرهم، فإنهم لما تركوا ما أراد الله منهم من تزكية الناس بعلمهم الذي علمهم الله تعالى؛ رفع الله عنهم تزكيته جزاءً بفعلهم الخبيث.

{ولهم عذاب أليم}، يعني: مُوجع مؤلم. فهذه أربعة أشياء خوَّف الله بها الذين يكتمون الحق وهم يعلمون لينالوا عَرَضاً خبيثاً من الدنيا الدنيئة.

****

368() قال الإمام الطبري: كما قال تعالى ذكره: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) [سورة النساء: 10] معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم. فاستغنى بذكر"النار" وفهم السامعين معنى الكلام، عن ذكر"ما يوردهم، أو يدخلهم". تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 329)

قوله تعالى: {أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)}

يعود الإيحاء قوياً في اتجاه تصوير تلك الصفقة الخاسرة التي تولاها تجار الدين الذين يأكلون الدنيا بالدين، ويخونون علمهم، يتملقون الناس من أجل ملء بطونهم، وينافقون الحكام من أجل الحظوة عندهم {أولئك} بضمير البعيد للتحقير {الذين اشتروا الضلالة} أي الحيدة عن الحق والنجاة؛ استبدلوها ب{الهدى} فتركوه خلف ظهروهم، والباء تدخل على المتروك المُستبدَل.

وكذلك استبدلوا {العذاب} ب{المغفرة} قال الطبري: أخذوا ما يوجب لهم عذاب الله يوم القيامة، وتركوا ما يُوجب لهم غفرانه ورضْوَانه. فاستغنى بذكر "العذاب" و"المغفرة"، من ذكر السبب الذي يُوجبهما، لفهم سامعي ذلك لمعناه والمراد منه. انتهى. وهو من باب الإيجاز البليغ.

{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)} فما أجرأهم على العمل الذي يقرِّبُهم إلى النار. قاله قتادة. أو المعنى فما أجرأهم على النار.

وقيل المعنى: فما أعجب توهمهم صبرهم على النار، ولا يستطيع أن يصبر على عذابها أحد. وهو تعجيبٌ للمؤمنين، أي هم أهل أن تعجبوا منهم من جرأتهم في باطلهم، وتماديهم في فعل ما يدخلهم جهنم، ولا أحد يصبر عليها. كما قال تعالى ذكره: (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) [سورة عبس: 17]، تعجيبًا من كفره بالذي خَلقه وسَوَّى خلقه.

وقيل: هذا استفهام. والمعنى ما هذا الذي صبَّرهم على النار حتى جَرأهم فعملوا بهذا؟

والمعنى متقارب في أن أولئك المُبعَدِين اختلت موازين عقولهم فارتكبوا ما يصليهم عذاباً لا يحتملونه وهم الذين علموا ودرسوا فسبحان مَن أضلهم على علمٍ. نسأل الله الهداية.

****

ثم انتقلت الآيات إلى بيان الحجة عليهم، وأنهم لم يكن لهم عذرٌ في ترك الحق والعدول عنه إلى الباطل والضلال فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)}.

والمعنى كما قال المحققون: ذَلِكَ الْعَذَابُ حَاصِلٌ لَهُمْ بِكِتْمَانِ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ الْمَصْحُوبِ بِالْحَقِّ، أَوِ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَهُ الله ينطق بِالْحَقِّ.

فإن الله تعالى نزَّل الكتاب أي التوراة والإنجيل – على قول بعض المفسرين، أو الكتب السماوية كلها ومنها القرآن على أنها لجنس كتب الله تعالى-على قول آخرين... نزل الله كتبه بالحق الواضح الذي لا جدال فيه، وفيها نعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وصفته وعقاب المؤمنين به وعقاب الكافرين، وفيها منهاج الهدى الذي ينصلح به حال الناس ودنياهم، ويكسبون نجاتهم في الآخرة، ولكن خالف واختلف العلماء المُضِلُّون في الكتاب، وإن أولئك الضالون المضللون في نزاعٍ واختلافٍ بعيد؛ أى فِي مُعَادَاةٍ وَتَنَافُرٍ

يكفر بعضهم بعضا إلى يوم القيامة، لِأَنَّ الِاخْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّبَاغُضِ وَالتَّبَايُنِ، كَمَا أَنَّ الِائْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّحَابِّ وَالِاجْتِمَاعِ. (369)

قال العلامة الألوسي: تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 442)

قوله تعالى:{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ} أي في جنسه- بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعض- أو في التوراة، ومعنى اخْتَلَفُوا تخلفوا عن سلوك طريق الحق فيها، أو جعلوا ما بدلوه خلفا عما فيها- أو في القرآن- واختلافهم فيه قول بعضهم: إنه سحر، وبعضهم إنه شعر، وبعضهم إنه أساطير الأولين.

وصلٌ وتذكير.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ نِدَاءَ النَّاسِ ثَانِيًا، وَأَمْرَهُمْ بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَنَهْيَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، وَذِكْرَ خُطُوَاتِهِ، كَأَنَّهُمْ يَقْتَفُونَ آثاره، ويطؤون عَقِبَهُ.

فَكُلَّمَا خَطَا خُطْوَةً، وَضَعُوا أَقْدَامَهُمْ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ مُبَالَغَةٌ فِي اتِّبَاعِهِ. ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْعَدُوُّ الْمُظْهِرُ لِعَدَاوَتِهِ. ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ الْعَدَاوَةِ حَتَّى ذَكَرَ أَنَّهُ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعَاصِي. وَلَمَّا كَانَ لَهُمْ مَتْبُوعًا وَهُمْ تَابَعُوهُ، نَاسَبَ ذِكْرُ الْأَمْرِ، إِذْ هُمْ مُمْتَثِلُونَ مَا زَيَّنَ لَهُمْ وَوَسْوَسَ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا بِهِ أَمْرَهُمْ، وَهُوَ أَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَهُ عَنِ اللَّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ شِدَّةَ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَاقْتِفَاءَ اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ مَسْلُوبِي الْعَقْلِ وَالْهِدَايَةِ، لَكَانُوا مُتَّبِعِيهِمْ، مُبَالَغَةً فِي التَّقْلِيدِ الْبَحْتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَجَرْيًا لِخَلَفِهِمْ عَلَى سَلَفِ سُنَنِهِمْ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا اسْتِدْلَالٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مَثَلَ الْكُفَّارِ وَدَاعِيهِمْ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، مَثَلُ النَّاعِقِ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى، الَّتِي هِيَ مَانِعَةٌ مِنْ وُصُولِ الْعُلُومِ إِلَى الْإِنْسَانِ، فَلِذَلِكَ خَتَمَ بِقَوْلِهِ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، لِأَنَّ طرق العقل والعلم منسدة عَلَيْهِمْ. ثُمَّ نَادَى الْمُؤْمِنِينَ نِدَاءً خَاصًّا، وَأَمَرَهُمْ بِالْأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبِ وَبِالشُّكْرِ لِلَّهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَشْيَاءَ مِمَّا حَرَّمَ، وَأَبَاحَ الْأَكْلَ مِنْهَا حَالَ الِاضْطِرَارِ، وَشَرَطَ فِي تَنَاوُلِ ذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ الْمُضْطَرُّ بَاغِيًا وَلَا عَادِيًا. وَلَمَّا أَحَلَّ أَكْلَ الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ مَا حَرَّمَ هُنَا، ذَكَرَ أَحْوَالَ مَنْ كتم ما أنزل الله وَاشْتَرَى بِهِ النَّزْرَ الْيَسِيرَ، لِتَعْتَبِرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِحَالِ مَنْ كَتَمَ الْعِلْمَ وَبَاعَهُ بِأَخَسِّ ثَمَنٍ، إِذْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ إِلَّا النَّارَ، أَيْ مَا يُوجِبُ أَكْلَهُ النَّارَ. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ حِينَ يُكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ تَكْلِيمَ

369() قال صاحب البحر المحيط في التفسير (2/ 127):

قوله تعالى: {لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ}: تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ إِمَّا مَأْخُوذٌ مِنْ كَوْنِ هَذَا يَصِيرُ فِي شِقٍّ وَهَذَا فِي شِقٍّ، أَوْ مِنْ كَوْنِ هَذَا يَشُقُّ عَلَى صَاحِبِهِ. وَكَنَّى بِالشِّقَاقِ عَنِ الْعَدَاوَةِ، وَوَصَفَ الشِّقَاقَ بِالْبُعْدِ، إِمَّا لِكَوْنِهِ بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ، أَوْ لِكَوْنِهِ بَعِيدًا عَنِ الْأُلْفَةِ. أَوْ كَنَّى بِهِ عَنِ الطُّولِ، أَيْ فِي مُعَادَاةٍ طَوِيلَةٍ لَا تَنْقَطِعُ. وَهَذَا الِاخْتِلَافُ هُوَ سَبَبُ اعْتِقَادِ كُلِّ طَائِفَةٍ أَنَّ كِتَابَهَا هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ غَيْرَهُ افْتِرَاءٌ، وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ. كُتُبُ اللَّهِ يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا. انتهى.

رَحْمَةٍ وَإِحْسَانٍ. وَذَكَرَ أَنَّهُمْ مَعَ انْتِفَاءِ التَّعْلِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الرُّتَبِ للمرؤوس مِنَ الرَّئِيسِ، حَيْثُ أَهَّلَهُ لِمُنَاجَاتِهِ وَمُحَادَثَتِهِ، وَانْتِفَاءُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ لَهُمُ الْعَذَابُ الْمُؤْلِمُ. ثُمَّ بَالَغَ فِي ذَمِّهِمْ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ آثَرُوا الضَّلَالَ عَلَى الْهُدَى، وَالْعَذَابَ عَلَى النَّعِيمِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بِصَدَدِ أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْ جَلَدِهِمْ عَلَى النَّارِ، وَأَنَّ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ هُوَ بِسَبَبِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ فَخَالَفُوهُ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ هُمْ فِي مُعَادَاةٍ لا تنقطع. [370]

*****

370() البحر المحيط في التفسير (2/ 127)

جوامع البر.

قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (البقرة/177)

إنها من الآيات الجوامع...

فبعد تمهيد نفوس المؤمنين بإحاطتها بالشعائر والقبلة التي تضمن تمايزهم عن غيرهم ليعلموا أنهم على أعتاب طريقٍ طويل من حمل راية التصحيح للعقائد والعبادات، جاء دور التشريع الذي يرمي أول ما يرمي إلى ضبط مصدرية التلقي ليكون المصدر في التحليل والتحريم-فقط-الله تعالى...بعد ذلك يأتي دور ضبط (بوصلة) اتجاه الدين وتصحيح المعنى العام للإسلام في النفوس، فالإسلام ليس مجرد الشعائر، ولا الاتجاه إلى القبلة، ولكنَّ المعنى الأهم والخط العام الثابت في هذا الدين هو (البِرّ)؛ إنه الأساس الأخلاقي والتهذيبي الشامل للإسلام الذي رسم أطره سيدنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حين قال: " بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (وفي رواية حسن الأخلاق، بضم الحاء وفتحها)، وفي رواية أحمد: " لأتمم صالح الأخلاق". (371)

هكذا بطريق الحصر " إنما" التي تفيد حصر رسالته صلى الله عليه في بناء مجتمعٍ أخلاقي على ضفاف نورٍ رباني. وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ والدين وَالْفَضْلُ وَالْمُرُوءَةُ وَالْإِحْسَانُ وَالْعَدْلُ فَبِذَلِكَ بُعِثَ لِيُتَمِّمَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ لِلْبِرِّ وَالْفَضْلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

ولذا تكررت الأحاديث في مدح حُسن الخلق في غير موضع، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق". (372)

وقوله: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا". (373)

---

(371) قال ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (24/ 333):
وَهَذَا الْحَدِيثُ يَتَّصِلُ مِنْ طُرُقٍ صِحَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(372)رواه أحمد في المسند"2/ 291و392" والترمذي "2004"في البر والصلة، والحاكم في المستدرك "4/ 324"وصححه، ووافقه الذهبي. وابن ماجه رقم "4246"في الزهد، وابن حبان رقم "476"من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وإسناده حسن.

(373)رواه أحمد في المسند" 2/ 250" وأبو داود رقم "4682"في السنة، والترمذي رقم" 1162" في الرضاع، والبغوي في شرح السنة رقم"3495"من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

وقوله: "إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم، القائم". (374)

ولا عجب، فالعبادة في جانبها الباطن وأثرها في شخصية المسلم يجب أن تؤدي به إلى البر.

قال صاحب "الصحاح":

البِرُّ: خلاف العُقوقِ، (أي الإحسان والخير) والمَبَرَّةُ مثْله. تقول: بَرِرْتُ والدي بالكسر، أَبَرُّهُ بِرّاً، فأنا بَرٌّ به وبارٌّ. وجمع البَرَّ أَبْرارٌ، وجمع البار البررة. وفلان يبر خالقه ويَتَبَرَّرُهُ، أي يطيعه. والأمُّ بَرَّةٌ بولدها. وبَرَّ فلانٌ في يمينه، أي صَدَقَ. وبَرَّ حَجُّهُ، وبُرَّ حجه، وبر الله حجه، بِرّاً، بالكسر في هذا كلِّه. وتَبارُّوا: تفاعَلوا من البِرِّ. (375)

وقد عرف معنى البر قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكِ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) رواه مسلم. (376)

قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة. وهذه الامور هي مجامع حسن الخلق.

ومعنى (حاك في صدرك) أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبا. (377)

---

(374)رواه أحمد في المسند "6/ 90و94"، وأبو داود رقم "4798"في الأدب، والحاكم" 1/ 60" من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو حديث صحيح.

375 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 588)

(376)وعن وابصة بن معبد رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "جئت تسأل عن البر؟ "، قلت: نعم. قال: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". قال النووي في الأربعين: حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدرامي بإسناد حسن.

(377) شرح النووي على مسلم (16/ 111).

قال العلامة ابن دقيق العيد:

يعني: أن حسن الخلق أعظم خصال البر كما قال: "الحج عرفة" 1 أما البر فهو الذي يبر فاعله ويلحقه بالأبرار وهم المطيعون لله عز وجل. والمراد بحسن الخلق الإنصاف في المعاملة والرفق في المحاولة والعدل في الأحكام والبذل في الإحسان وغير ذلك من صفات المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى فقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} (سورة الأنفال: الآية 2 –4).

وقال تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ}. إلى قوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة التوبة: الآية 112)

وقال: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}. إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} (سورة المؤمنون: الآية 1 – 10).

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً} (سورة الفرقان: الآية 63). إلى آخر السورة.

******

اختلف علماء التفسير: هَلْ هذا الخطاب عَامٌّ، أو خاصٌّ؟

فقال قتادةُ، ومقاتلُ بْنُ حَيَّان: لمَّا شددوا أهل الكتاب بالثبات على التوجُّه نحو بيْت المَقْدِس، قال تعالى: {لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ} هذه الطريقة، {ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله}.

وقال مجاهدٌ وعطاءٌ والضَّحَّاك -رضِيَ الله عنهم -: المرادُ مخاطبةُ المؤمنين، لَمَّا ظنُّوا هذا الكلام.

وقال بعضُهُم: هو خطابٌ للكلّ؛ لأنَّه لما حُوِّلت القبلةُ، حَصَلَ للمؤمنينَ الاغتباطُ بهذه القِبْلة، وحَصَلَ منْهم التشديدُ في هذه القِبْلَة؛ حتَّى ظنُّوا أنَّه الغرضُ الأكْبَر في الدِّين، فبعثهم الله تعالى بهذا الخِطَاب استيفاءَ جميع الطاعات والعبادات، ولَيْسَ البرَّ بأنْ تولُّوا وجوهَكُم شَرْقاً وغرباً، وإِنَّمَا البِرُّ كَيْتَ، وكَيْتَ، وكَيْتَ، فكأنَّه تبارك وتعالى قال: ليْس البرُّ المطلوبُ هو أمْرَ القِبْلة، بل البِرُّ المطلوبُ هذه الخصالُ الَّتي عدَّدتُّها. [378]

قلتُ: وهذا الذي أرجّحهُ، وإن كنت أميل أنَّ الخطاب للمؤمنين أولاً، ومُعرِّضاً باليهود ضمنيا.

قال القفَّال: والذي عندَنا أنَّه إشارةٌ إلى السُّفَهاء الذين طَعَنُوا في المُسْلِمين، وقالُوا: ما ولاَّهم عن قبلتهم الَّتي كانُوا علَيْها؟ مع أنَّ اليَهُود كانُوا يستَقْبلون المَغْرب، والنَّصارَى كانُوا يستقْبِلُون المَشْرِق، فقال الله تعالى: إنَّ صَفَةَ البِرّ لا تحصُلُ باستقبالِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، بل البرُّ يحصُلُ بأُمُر.

منها: الإيمانُ بالله، وأهْلُ الكتابِ أخَلُّوا بذلك، فَأَمَّا اليهود، فلقولهم بالتَّجْسِيم، ولقَوْلِهم بأنَّ عُزَيْراً ابْنُ اللهِ، وأمَّا النصارَى فلقولهم: المَسِيحُ ابْنُ الله، واليهودُ وصَفُوا الله تعالى بالبُخْل.

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميعها علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

ولا يظن ظان أن حسن الخلق عبارة عن لين الجانب وترك الفواحش والمعاصي فقط وأن من فعل ذلك فقد هذب خلقه بل حسن الخلق ما ذكرناه من صفات المؤمنين والتخلق بأخلاقهم.

ومن حسن الخلق احتمال الأذى فقد ورد في الصحيحين: "أن أعرابياً جذب برد النبي صلى الله عليه وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك وأمر له بعطاء".

وقوله: "والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس" يعني: هو الشيء الذي يورث نفرة في القلب وهذا أصل يتمسك به لمعرفة الإثم من البر: إن الإثم ما يحوك في الصدر ويكره صاحبه أن يطلع عليه الناس، والمراد بالناس والله أعلم أماثلهم ووجوههم لا غوغاؤهم، فهذا هو الإثم فيتركه والله أعلم. انتهى من شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: 94)

378() اللباب في علوم الكتاب (3/ 193)

وثانيها: الإيمانُ باليَوْم الآخِر، واليهود أخلُّوا بذلك، وقالوا: {لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [البقرة: 80] والنصارى أنْكَرُوا المعادَ الجِسْمانِيَّ، وكلُّ ذلك تكذيبٌ باليوم الآخر.

وثالثها: الإيمانُ بالمَلاَئكة، واليهودُ أخلُّوا بذلك؛ حيْثُ أظْهَرُوا عداوة جِبْرِيلَ.

ورابعها: الإيمانُ بكُتُب الله تعالى، واليهودُ أخلُّوا بذلك، لأن مع قيام الدَّلائل على أنَّ القرآنَ كتابُ الله تعالى رَدُّوه ولم يقْبلُوه؛ قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة: 85].

وخامسها: الإيمانُ بِالنَّبِيِّين، واليَهُود أخلُّوا بذلك؛ حيث قتلوا الأنْبياءَ؛ على ما قال تعالى: {وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق} [البقرة: 61] وطَعَنُوا في نبوَّة محمَّد -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وسادسها: بَذْلُ الأمْوَالِ علَى وَفْقِ أمْرِ الله تعالى، واليهود أخلُّوا بذلك؛ لأنَّهم يُلْقُون الشُّبُهات؛ لِطَلَب المَال القَليلِ قال تبارك وتعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}.

وسابعها: إقَامة الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، واليهودُ كانوا يمنَعُون النَّاسَ منها.

وثامنها: الوفَاءُ بالعَهْد، واليهودُ نَقَضُوا العَهْد؛ قال تبارك وتعالى: {وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [البقرة: 40].

وتاسعها: قوله: {فِي البأساء والضراء وَحِينَ البأس} والمرادُ بذلك المحافظةُ على الجهادِ، واليهودُ أخلُّوا بذلك؛ حيْثُ كانُوا في غاية الخَوْف، والجبْنِ؛ قال تعالى: {لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى} [الحشر: 14]. [379]

فالأمر إذن فيه تعريضٌ بذكر أولئك المارقين من أجل بناء دولة الإيمان على أساسٍ متينٍ من تصحيحِ أوضاعِ الديانات التي ضلَّت قبل أن تأتي الرسالةُ المحمدية.

والآية -بعدُ-جامعةٌ للكمالات الانسانية صريحا أو ضمنا دالة على صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وهذا منصبُ الأبرارِ، وأما الصديقون المقربون فمزيد فضلهم مبنى على الفضل والاجتباء؛ ذلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ-.

من حيث اللغة والقراءات وشبهةٌ مردودةٌ:

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}

379() نقلا عن اللباب في علوم الكتاب لابن عادل(3/ 193)

(ليس) في النحو من أخوات كان؛ الأفعال الناسخة. وقدَّر بعضُ القُرَّاء المصدرَ في (أن تولوا) أنه اسمها في محل رفع، والخبر مُقدَّم منصوب (البرَّ) بفتح الراء، فيكون تقديره (ليس توليتُكم... البرَّ)، وهذه قراءة حمزة وحفص.

وقرأ الباقي برفع (البرُّ) على أنها اسم (ليس)، فالتقدير (ليس البرُّ توليتَكم...)، والقراءتان متواترتان حسنتان. (380)

{قِبَلَ} أي اتجاه وهى ظرف مكان.

وقَوْله تَعَالَى: {ولكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} وقرأ نافع وابن عامر-«ولكنْ» -بالتخفيف.

قِيلَ إِنَّ فِيهِ حَذْفًا وَمَعْنَاهُ: إِنَّ الْبِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ، ورجَّحه سيبويه وغيره من أهل اللغة.

وَقِيلَ المحذوف هو (ولكنَّ ذو البر مَن آمن بالله...) قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ... وغيرهما، أو التقدير (ولكن الْبَارَّ مَنْ آمَنَ بِاَللَّه) من باب وضع المصدر مكان الفاعل، كما في القرآن {الآية... إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً} (سورة الملك: 30) أَيْ غَائِرًا، وَهَذَا اخْتِيَارُ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: لَوْ كُنْتُ مِمَّنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَقَرَأْتُ" وَلَكِنَّ الْبَرَّ" بِفَتْحِ الْبَاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ} فَقِيلَ: يَكُونُ" الْمُوفُونَ" عَطْفًا عَلَى دلالة" مَنْ"، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَكِنَّ الْبِرَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُوفُونَ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ.

" وَالصَّابِرِينَ" نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، أي وأخص الصابرين بالذكر. وَالْعَرَبُ تَنْصِبُ عَلَى الْمَدْحِ وَعَلَى الذَّمِّ كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِفْرَادَ الْمَمْدُوحِ وَالْمَذْمُومِ وَلَا يُتْبِعُونَهُ أَوَّلَ الْكَلَامِ، وَيَنْصِبُونَهُ. فَأَمَّا الْمَدْحُ فَقَوْلُهُ: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ} (النساء: 162).

وَأَمَّا الذَّمُّ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا} (الأحزاب: 61) الآية.

وَهَكَذَا قَالَ فِي سورة النساء: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ} (النساء: 162).

قال بعد ذلك العلامة القرطبي رحمه الله: وَهَذَا طريقٌ واسعٌ بيّنٌ فِي النُّعُوتِ، لَا مَطْعَنَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ، مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقَالَ بَعْضُ مَنْ تَعَسَّفَ فِي كَلَامِهِ: إِنَّ هَذَا غَلَطٌ مِنَ الْكُتَّابِ حِينَ كَتَبُوا مُصْحَفَ الْإِمَامِ، قَالَ: وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ نَظَرَ فِي الْمُصْحَفِ فَقَالَ: أَرَى فِيهِ لَحْنًا وَسَتُقِيمُهُ الْعَرَبُ بِأَلْسِنَتِهَا. وَالْجَوَابُ مَا ذَكَرْنَاهُ. (381)

---

(380) راجع التبيان في إعراب القرآن (1/ 143) وتفسير القرطبي (2/ 237).

(381)تفسير القرطبي (2/ 240)

قلتُ-جامعه: هذا القول من أخبث ما وضع الوضَّاعون على عثمان رضى الله عنه، وقد أنكر العلماء صحة نسبته إليه. على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه الصحابة في جمعه وكتابته، ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التي جمع القرآن فيها عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التي عرض فيها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-القرآن على جبريل عليه السلام!

وهل يظن ظانٌّ أن عثمان -رضى الله عنه-وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى في المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله ويتركه ويقول: ستقيمه العرب بألسنتها؟!

وقد كتب عدة مصاحف وليس فيها اختلاف أصلا إلا فيما هو من وجوه القراءات،

وكيف يقول ذلك في حضرة الصحابة ولا يقفون في وجهه ويردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته؟!

وإذا لم يُقِمْه هو-رضى الله عنه-ومن باشر جمع القرآن وهم مَن هم، فكيف يقيمه غيرهم؟!

وممن أنكر نسبة هذا القول إلى عثمان القرطبي، والزمخشري، وأبو حيان، والألوسي في سورة" النساء" عند قوله تعالى:" وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ" آية 162.

وإن المتقن للسان العرب وبلاغتهم والمتذوق لأساليبهم ليعرف أن القرآن جاء على أعلى ما يكون من فصاحتهم، ويتردد فيه فقط الذين غلبت قلوبهم العُجمة فسبقت إلى ألسنتهم.

ولعلماء النحو واللغة في تفسير كل المواضع المشتبه فيها مذاهب توافق بلاغة اللغة. كما أنّ القرآن باعتراف أهل البلاغة الذين نزل فيهم القرآن فاق كل بلاغتهم، فلا وجه أن يعترض علمٌ حادث بعدهم مُستَنبَطٌ من ملاحظة بلاغتهم في الحكم على القرآن الذي هو أعلى. وهو ما يعبر عنه العلماء أنَّ (القرآن حاكمٌ على اللغة وليس محكوما عليه).

وآثرت الرد على هذه الشبهة التي يثيرها بعض الزنادقة وأعداء الدين، مع أنَّ أحد المستشرقين المنصفين أنفسهم يقول: (إن أدق عملية نقل وأكثرها امانة حدثت في التاريخ هي جمع القرآن الكريم). اللهم اجعلنا ممن يشفع القرآن فيهم.

المعاني وفقه الآية.

قال علماؤنا: هذه آيةٌ عظيمةٌ من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة:

الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار، والملائكة، والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله، والنبيين، وإنفاق المال فيما يظهر من الواجب والمندوب،

ووصل القرابة والرحم، ومراعاة اليتيم وعدم إهماله، والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل، والصدقة في حال السؤال، وفك الرقاب، والمحافظة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر في الشدائد. وكل قاعدةٍ من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب. [382]

يقول الله سبحانه: {...وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}؛ في مستهل الآية نفى ثم ههنا استدراك؛ بمعنى أن البر ليس في الاتباع الشكلي للقبلة وأداء الشعائر، إنما حقيقته في استكانة القلب إلى معاني الدين الصافية، وهو تحقيق لمعاني الإيمان بالله تعالى البارئ للحياة، والإيمان بالحياة الأخرى ركنٌ منطقي بعد الإيمان بخالق الحياة ذلك أنَّ منها يتبلور مفهوم ارتباط السير في الحياة الدنيا بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى، وهو مفهومٌ مهمٌ لمراجعة النفس قبل الإساءة والإفساد؛ فكل فعلٍ له حسابٌ دقيقٌ وفق هبة المسؤولية التي وهبها الله تعالى البشر.

ثم يأتي الإيمان بالملائكة تلك المخلوقات النورانية التي تمثل الرسل الإلهية لمجموعة منتقاة من البشر (الأنبياء والمرسلين) تبلغ منهجا محفوظا في الكتب السماوية يبين طريقة السير في الحياة على نورٍ ربانيٍّ حتى لا يظلم الإنسان نفسه بجهله وقلة خبرته في فهم الحياة...

فكان الإيمان بهذه المنظومة المنطقية عن تأملٍ وتعقل، ثم ترجمة تلك المعاني عملاً بالمنهج يزرع الحياة لتزهر صحراؤها بخضار الإيمان. وذلك حتى لا يكون الإيمان مجرد ادعاء حبيس القلوب. حينئذٍ يتحول الإيمان منهجاً للحياة عن اقتناعٍ وفهمٍ، لا عن إملاءٍ أعمى وتسلطٍ كهنوتيٍ بغيض.

ولأن المال هو مقصدٌ دنيويٌ جاثمٌ على العقول والقلوب لا ينفك عنه أحد، جاء الاختبار الأول لمعنى الإيمان في القلوب، وكذلك جاء نشر التراحم والتكافل في المجتمع المسلم من أجل بناء دولة السماء على الأرض؛ جاء الاختبار هنا بإنفاق المال في الخيرات ولذلك قال تعالى:

{وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ} ... يَعْنِي أَنَّ الْبَارَّ مَنْ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ.

قال العلماء في معنى {على حبه} إِنَّهُ يَعْنِي حُبَّ الْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}.** وَقِيلَ: إِنَّهُ يَعْنِي حُبَّ الْإِيتَاءِ وَأَنْ لَا يَكُونَ مُتَسَخِّطًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ عَلَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{لْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي...} وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ جَمِيعَ هَذِهِ الْوُجُوهِ.**

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ حُبَّ الْمَالَ **وَهُوَ**

---

(382)تفسير القرطبي (2/ 241) بتصرف

مَا روى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – **بأسانيد جيدة مرفوعا-** قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ فَقَالَ: **(أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ؛ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ)**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –موقوفا- فِي قوله تعالى: {وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ} قَالَ: أَنْ تُؤْتِيَهُ وَأَنْتَ صَحِيحٌ تَأْمَلُ الْعَيْشَ وَتَخْشَى الْفَقْرِ. (383)

قلتُ- جامعه: ومثل هذه الآية في قوله تعالى: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)}** وهنا يرجح توجيه أنه على حب الله تعالى من أجل تصريح اللحاق في الآية بعدها بذلك المعنى: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9)}** (الإنسان: 8 – 10)

مسألة فقهية اجتماعية حول الحقوق المالية على الأغنياء في الإسلام.

وهنا مسألةٌ فقهيةٌ للمتأملين يطرحها الجصاص وغيره، وعنه ننقل: يجيب عن سؤال هل المقصود هنا في {وآتى المال} الزكاة الواجبة أو الصدقة والتطوع؟

وقَوْله تَعَالَى: {وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى} يَحْتَمِلُ بِهِ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ (الزكاة)، وَأَنْ يُرِيدَ بِهِ التَّطَوُّعَ.

يقول: وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا الْوَاجِبَةُ وَإِنَّمَا فِيهَا حَثٌّ على الصدقة ووعد بالثواب عليها.

وذلك لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا أَنَّهَا مِنْ الْبِرِّ وَهَذَا لَفْظٌ يَنْطَوِي عَلَى الْفَرْضِ وَالنَّفْلِ إلَّا أَنَّ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ وَنَسَقِ التِّلَاوَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الزَّكَاةَ لقوله تعالى بعدها: {وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ} فَلَمَّا عَطَفَ الزَّكَاةَ عَلَيْهَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الزَّكَاةَ بِالصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهَا.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَرَادَ بِهِ حُقُوقًا وَاجِبَةً فِي الْمَالِ سِوَى الزَّكَاةِ نَحْوَ وُجُوبِ صِلَةِ الرَّحِمِ إذَا وَجَدَ رحمه ذَا ضُرٍّ شَدِيدٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ مَنْ قَدْ أَجْهَدَهُ الْجُوعُ حَتَّى يُخَافَ عَلَيْهِ التَّلَفُ فَيَلْزَمَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ.

---

(383)راجع أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 162)

وَقَدْ رَوَى شَرِيكٌ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ"،** وَتَلَا قَوْله تَعَالَى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} الْآيَةَ. (384)

قلتُ: وهو حديثٌ ضعيفٌ.

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى الله عليه وسلم- أَنَّهُ ذَكَرَ الْإِبِلَ فَقَالَ:**" إنَّ فِيهَا حَقًّا.** فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ **فَقَالَ: "إطْرَاقُ فَحْلِهَا وَإِعَارَةُ ذَلُولِهَا وَمِنْحَةُ سَمِينِهَا"**. رواه مسلم في الصحيح، وغيره (385) .
وطرق الفحل الناقة يطرقها طرقًا وطروقًا: قعا عليها وضربها. وإطراق الفحل: إعارته للضِّراب لإخصاب أنثى الحيوان.

فَذَكَرَ فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ وَبَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ تَأْوِيلُ قَوْله تَعَالَى [لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ] الْآيَةَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ مَا يَلْزَمُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى ذَوِي الْمَحَارِمِ الْفُقَرَاءِ، وَيَحْكُمُ بِهِ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ لِوَالِدَيْهِ وَذَوِي مَحَارِمِهِ إذَا كانوا فقراء عاجز بن عَنْ الْكَسْبِ.

---

(384) حديث ضعيف والصحيح أنه من قول الشعبي. والله أعلم.. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (9/ 370) يقول الألباني رحمه الله: أخرجه الترمذي (1/ 128)، والدارمي (1/ 385)، وابن عدي (193/ 1) عن جمع، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس مرفوعاً. وقال الترمذي:
"إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور؛ يضعف. وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي قوله، وهو أصح". ميمون ضعيف؛ كما أفاده الترمذي، وجزم به في "التقريب".
وشريك – وهو ابن عبد الله القاضي –؛ سيىء الحفظ.

(385)حديث صحيح. انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (5/ 346) للألباني رحمه الله يقول: أخرجه مسلم (74/3) والنسائي (1/339-340) والدارمي (1/379-380) من طريق عبد الملك بن أبي سليمان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أقعد لها يوم القيامة بقاع قرقر تطؤه ذات الظلف بظلفها، وتنطحه ذات القرن بقرنها ليس فيها يومئذ جماء ولا مكسورة القرن.
قلنا يا رسول الله وما حقها؟ قال: إطراق فحلها، وإعارة دلوها، ومنيحتها، وحلبها على الماء وحمل عليها في سبيل الله.
ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعا أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه، ويقال هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل " ثم أخرجه مسلم والدارمي وأحمد (321/3) من طريق بن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصاري يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فذكره نحوه.
وأخرجه أبو داود (1661) بنحوه ولم يسق لفظه بتمامه.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ مَا يَلْزَمُهُ مِنْ إطعامِ الْجَائِعِ الْمُضْطَرِّ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ حَقًّا مَنْدُوبًا إلَيْهِ لَا وَاجِبًا، إذْ لَيْسَ قَوْلُهُ فِي الْمَالِ حَقٌّ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ إذْ مِنْ الْحُقُوقِ مَا هُوَ نَدْبٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ فَرْضٌ.

قلتُ-متأمله الفقير: وقد صرح القرآن العظيم بنوعين من الحقوق المالية أحدها الحق المعلوم المحسوب للزكاة، والثاني الحق المندوب إليه وهو متروك لظروف صاحبه ومقدار إيمانه وإحسانه.

ففي النوع الأول قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24، 25]، وفي الثاني قال: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: 19]، وفرّق بينهما بالتخصيص والبيان للحق في الأول بأنه (معلوم)، فتأمل رحمك الله.

قال الجصاص-رحمه الله: -بسنده -عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ**). [386]

فَإِنْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَائِرُ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ مَنْسُوخَةٌ بِالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ مَرْفُوعًا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَهَالَةِ رَاوِيهِ فَإِنَّ حَدِيثَ عَلِيٍّ-رضى الله عنه-حَسَنُ السَّنَدِ، وَهُوَ يُوجِبُ أَيْضًا إثْبَاتَ نَسْخِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي كَانَتْ وَاجِبَةً بِالزَّكَاةِ.

وَذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ، فَيُعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ مَا قَالَهُ عَلِيٌّ هُوَ بِتَوْقِيفٍ مِنْ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلم إيَّاهُ عَلَيْهِ.

وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ مِنْ الصَّدَقَاتِ صَدَقَاتٍ قَدْ كَانَتْ وَاجِبَةً ابْتِدَاءً بِأَسْبَابٍ تَقْتَضِي لُزُومَ إخْرَاجِهَا ثُمَّ نُسِخَتْ بِالزَّكَاةِ نَحْوَ قَوْله تَعَالَى: {وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ}.

قلتُ-متأمله: على رأى مَن يرى نسخ هذه الآية بآية المواريث.

قال الجصاص: وَنَحْوَ مَا رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ} أَنَّهُ مَنْسُوخٌ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ.

---

(386) أخرجه الدَّارَقُطْنِي فِي الصيد والذبائح، ثُمَّ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنه فِي الْأُضْحِيَّةِ عَنْ الْمُسَيِّبِ بْنِ شَرِيكٍ عَنْ عُتْبَةَ بْنِ الْيَقْظَانِ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ، وَنَسَخَ صَوْمُ رَمَضَانَ كُلَّ صَوْمٍ، وَنَسَخَ غُسْلُ الْجَنَابَةِ كُلَّ غُسْلٍ، وَنَسَخَتْ الْأَضَاحِيُّ كُلَّ ذَبِيحٍ"، انْتَهَى. وَضَعَّفَاهُ، قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: الْمُسَيِّبُ بْنُ شَرِيكٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ الْيَقْظَانِ مَتْرُوكَانِ، انْتَهَى.

وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ فِي أَوَاخِرِ النِّكَاحِ مَوْقُوفًا عَلَى عَلِيٍّ.

راجع نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي– جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (المتوفى: 762هـ) (4/ 208)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ فِي قَوْله تَعَالَى [وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ] أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ وَأَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ عِنْدَ الْقَوْمِ غَيْرُ الزَّكَاةِ

فَيَكُونُ الْمَنْسُوخُ بِالزَّكَاةِ مِثْلَ هَذِهِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِي الْمَالِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْنَا مِنْ الْحُقُوقِ الَّتِي تَلْزَمُ مِنْ نَحْوِ الْإِنْفَاقِ عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ التَّكَسُّبِ، وَمَا يَلْزَمُ مِنْ إطْعَامِ الْمُضْطَرِّ فَإِنَّ هَذِهِ فُرُوضٌ لَازِمَةٌ ثَابِتَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ بِالزَّكَاةِ.

وَأَمَّا الْحُقُوقُ الَّتِي تَجِبُ بِأَسْبَابٍ مِنْ قِبَلِ الْعَبْدِ نَحْوَ الْكَفَّارَاتِ وَالنُّذُورِ فَلَا خِلَافَ أَنَّ الزَّكَاة لَمْ تَنْسَخْهَا. انتهى كلام الجصاص رحمه الله. [387]

والخلاصة بعد هذا النقاش العلمي الدسم أن الإسلام في عظمته التشريعية ومن أجل بناء دولة الإيمان لم يغفل الأمن الاجتماعي كحجر زاوية في بناء الدولة، بل إنه فرض التكافل الاجتماعي كوسيلة لتأمين المجتمع ضد الحقد والانهيار، فأوجب الإسلام حقوقا مالية على الأغنياء تُرَدُّ على الفقراء وقسم هذه الحقوق بين الواجب الفرض، وبين المندوب المستحب.

فجعل الزكاة، وكذلك إطعام الموشك على الهلاك، والقريب، وإعانة المضطر، وحقوق التراحم، والكفارات والنذور من الواجبات في مال الله الذي رزقه العباد.

كما في قوله عليه الصلاة والسلام: **«لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ»**.

وجعل الصدقات وجبر خواطر الناس فيما زاد عن الزكاة والواجبات من المندوب إليها التي ترفع الإيمان في قلوب الأسخياء الجياد وتنشر المبرة والخير والمحبة والطمأنينة في ربوع المجتمع المسلم.

وتالله أننا دفعنا المجتمع لهاويةٍ سحيقةٍ يومَ أنْ بخل الغني بحق الله في ماله، وتوزعت القساوة في المجتمع بين فقيرٍ حاقدٍ ناقمٍ، وبين غنيٍ جاحدٍ غليظ القلب ضعيف اليقين.

وما أجمل ما قاله الحكماء: إذا رأيتَ فقيرا معدما طال به الفقر والعوز، فاعلم أن هناك غنياً بخل بحق الله فيه فسرقه في بطنه.

ولذلك يقول رسولنا الكريم-كما في صحيح مسلم وغيره-: **" ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أُقْعِد لها يوم القيامة بقاعٍ قرقرٍ تطؤه ذات الظلف بظلفها، وتنطحه ذات القرن بقرنها ليس فيها يومئذ جماء ولا مكسورة القرن.** [388]

---

(387)انظر أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي بدءا من (1/ 162)، بتصرف يسير وتعليقات.

(388) قال العلماء يقصد أن عذابه أن ينكفئ على أرض ملساء مستوية (= قاع قرقر) تمر عليه الإبل والبقر والغنم التي منع حقها بأظلافها تمزقه تروح وتجيء، ثم تنطحه إلى أن تقوم الساعة.

قال صلى الله عليه وسلم: ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعا أقرع [389] **يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه، ويُقال هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل "** [390] الحديث.

ويا له من مشهدٍ قويٍ مؤثّرٍ في عذاب أولئك الذين استأثروا برزق الله عليهم ولم يؤدوا حقه.

قال صاحب المنار:

ومشروعية البذل لهذه الأصناف من غير مال الزكاة لا تتقيد بزمن، ولا بامتلاك نصاب محدود، ولا بكون المبذول مقدارا معينا بالنسبة إلى ما يملك ككونه عشرا أو ربع العشر أو عشر العشر مثلا، وإنما هو أمر مطلق بالإحسان موكول إلى أريحية المعطي وحالة المعطى.

ووقاية الإنسان المحترم من الهلاك والتلف واجبة على من قدر عليها، وما زاد على ذلك فلا تقدير له. وقد أغفل أكثر الناس هذه الحقوق العامة التي حث عليها الكتاب العزيز لما فيها من الحياة الاشتراكية المعتدلة الشريفة، فلا يكادون يبذلون شيئا لهؤلاء المحتاجين إلا القليل النادر لبعض السائلين، وهم في هذا الزمان أقل الناس استحقاقا ؛ لأنهم اتخذوا السؤال حرفة وأكثرهم واجدون، ولو أقاموها لكان حال المسلمين في معايشهم خيرا من سائر الأمم، ولكان هذا من أسباب دخول الناس في الإسلام، وتفضيله على جميع ما يتصور الباحثون من مذاهب الاشتراكيين والماليين. [391]

نعود للآية.

قال تعالى: {ذوي القربى} وقدَّم ذوي القربى لأنهم أحقُّ وألصق بقلب المرء، وأقرب في النظر إليه وأولى بترقيق قلوبهم. قال عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة. وعلى ذي رحمك اثنتان لأنها صدقة و صِلَة» [392]

---

(389) الشجاع الأقرع هو الثعبان أو الحية القوية التي تقف على ذيلها مبارزةً

(390) أي أدخل يده في فم الحية تقضمها حين لا يستطيع الفرار منها.

391() تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا(2/ 94)

(392)حديث صحيح. أخرجه النسائي والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والدارمي كلهم من حديث سلمان بن عامر بلفظ «الصدقة على المسكين حسنة...» الترمذي. وفي الباب عن ابن طلحة وأبى أمامة.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح».** (393) **والكاشح الذي يضمر لك العداوة.** وذلك لأنها حينئذ تكون علامةً على إخلاصها لله، وكذلك ربما ترقق قلبه. كما قال الشاعر:

أحسِنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ.... فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ.

{واليتامى} أى الذين فقدوا آباءهم صغاراً. قال الزمخشري: **وأطلق ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى والمراد الفقراء منهم لعدم الالتباس.** يقصد أنها مُقيَّدة بقرينة الحال.

قال: و**{المساكين}:** جمع مسكين وهو الدائم السكون إلى الناس، لأنه لا شيء له، كالمسكير: للدائم السكر. (394)

قال الفخر: إِنَّ الْمَسَاكِينَ أَهْلُ الْحَاجَةِ، ثُمَّ هُمْ ضَرْبَانِ مِنْهُمْ مَنْ يَكُفُّ عَنِ السؤال وهو المراد هاهنا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْأَلُ وَيَنْبَسِطُ وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: وَالسَّائِلِينَ وَإِنَّمَا فَرَّقَ تَعَالَى بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ يَظْهَرُ عَلَى الْمِسْكِينِ الْمَسْكَنَةُ مِمَّا يَظْهَرُ مِنْ حَالِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ السَّائِلُ لِأَنَّهُ بِمَسْأَلَتِهِ يَعْرِفُ فَقْرَهُ وَحَاجَتَهُ. (395)

{وَابْنَ السَّبِيلِ} هو المسافر المنقطع. وجُعل ابنا للسبيل لملازمته له، كما يقال للص القاطع: ابن الطريق. وقيل: هو الضيف، لأنّ السبيل يظهره للمقيمين.

قال الرازي: وَالْأَوَّلُ أشبهُ، لأن السبيل لِلطَّرِيقِ وَجُعِلَ الْمُسَافِرُ ابْنًا لَهُ لِلُزُومِهِ إِيَّاهُ كَمَا يُقَالُ لِطَيْرِ الْمَاءِ: ابْنُ الْمَاءِ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَتْ عَلَيْهِ السُّنُونَ: ابْنُ الْأَيَّامِ. وَلِلشُّجْعَانِ: بَنُو الْحَرْبِ. وَلِلنَّاسِ: بَنُو الزَّمَانِ. انتهى

{وَالسَّائِلِينَ} الذين اضطُّروا فسألوا الطعام.

{وَفِي الرِّقابِ} وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. وقيل في ابتياع الرقاب وإعتاقها. وقيل في فك الأسارى. وفي تطبيقاتها العملية المحبوسين لدينٍ عليهم كما قرر ذلك الفقهاء المعاصرون.

قال الرازي رحمه الله: لَكِنْ مَا الْحِكْمَةُ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ؟

---

(393)حديث حسن. قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق والحاكم والبيهقي والطبراني من رواية ابن عيينة عن الزهري. عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة. ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال من رواية ابراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة. وأخرجه من طريق عقيل عن الزهري مرسلا. لم يذكر أبا هريرة ورواه أحمد من رواية سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عن حكيم بن حزام ورواه أيضاً هو وإسحاق والطبراني من طريق الحجاج بن أرطاة عنه عن حكيم بن بشير عن أبى أيوب. فهذه الطرق كلها تدور على الزهري، مع اختلاف عليه، وأحفظهم سفيان بن عنبسة، وعقيل أحفظ منه. وروايته أشبه بالصواب.»

(394)تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 219)

(395)تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 217)

قُلْنَا: أَنَّهُ تَعَالَى قَدَّمَ الْأَوْلَى فَالْأَوْلَى.

لِأَنَّ الْفَقِيرَ إِذَا كَانَ قَرِيبًا فَهُوَ أَوْلَى بِالصَّدَقَةِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَكُونُ ذَلِكَ جَامِعًا بَيْنَ الصِّلَةِ وَالصَّدَقَةِ، وَلِأَنَّ الْقَرَابَةَ مِنْ أَوْكَدِ الْوُجُوهِ فِي صَرْفِ الْمَالِ إِلَيْهِ حتى جعله القرآن مستحقا للوثية من التركة عَلَى مَا قَالَ تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...} [آل عمران: 180] الْآيَةَ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوَصِيَّةُ قَدْ صَارَتْ مَنْسُوخَةً إِلَّا عِنْدَ بَعْضِهِمْ، فَلِهَذِهِ الْوُجُوهِ قَدَّمَ ذَا الْقُرْبَى، ثُمَّ أَتْبَعَهُ تَعَالَى بِالْيَتَامَى، لِأَنَّ الصَّغِيرَ الْفَقِيرَ الَّذِي لَا وَالِدَ لَهُ وَلَا كَاسِبَ فَهُوَ مُنْقَطِعُ الْحِيلَةِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ تَعَالَى بِذِكْرِ الْمَسَاكِينِ لِأَنَّ الْحَاجَةَ قَدْ تَشْتَدُّ بِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ ابْنَ السَّبِيلِ إِذْ قَدْ تَشْتَدُّ حَاجَتُهُ عِنْدَ اشْتِدَادِ رَغْبَتِهِ إِلَى أَهْلِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ السَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ لِأَنَّ حَاجَتَهُمَا دُونَ حَاجَةِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. (396)

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا} أي وهم الموفون خبرا عن مبتدأ محذوفٍ معطوفٍ (= منسوقٍ) على معنى {من آمن...}. واعلم أنّ هذا العهد إمَّا أن يكون بين العبد وبين الله تعالى؛ كاليمين والنَّذر، وما أشبهه، أو بينه وبن رسول الله؛ كالبيعة؛ من القيام بالنُّصرة والمجاهدة، والمظاهرة، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، او بينه وبين النَّاس، وقد يكون ذلك واجباً، مثل: ما يلتزمه في عقود المعاوضات من التَّسليم والتَّسلُّم، والشرائط التي يلتزمها في السَّلم، والرَّهن وغيره، وقد يكون مندوباً؛ مثل: الوفاء بالعهد في بذل الماء، والإخلاص في المناصرة. **فقوله {والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} يتناول كل هذه الأقسام؛ فلا تقتصر الآية على بعضها، وهذا هو الذي عبر عنه المفسِّرون، فقالوا: هم الذين إذا وعدوا، أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا، وفَّوا، وإذا قالوا، صدقوا، وإذا ائتمنوا، أدَّوا.**

{وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ} الْبَأْسَاءُ: الشِّدَّةُ وَالْفَقْرُ. وَالضَّرَّاءُ: الْمَرَضُ وَالزَّمَانَةُ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ. (397)

والصابرين منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره وأخص، أو أمدح، **كما فصَّلنا من لغة العرب وعرفهم في بلاغتهم، (ولما كان الصَّبر من وجه مبدأ الفضائل، ومن وجه: جامعاً للفضائل؛ إذ لا فضيلة إلا وللصَّبر فيها أثر بليغ -غيَّر إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد)؛ وهذا كلام حسن قاله الراغب رحمه الله.**

{وَحِينَ الْبَأْسِ} منصوب بالصَّابِرِينَ، أي: الذين صَبَرُوا وقْتَ الشِّدَّة، والبأْسُ: شدَّة القتال خاصَّة، بؤس الرَّجل، أي: شجع. قال ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهما -: يريد القتال في سبيل الله. (398)

---

(396) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 216) بتصرف

397() والمشهور لغةً أنَّهما اسمان مشتقَّان من البؤس والضُّرَّ. يقال بَئُس يبْأَس، إذا افتقر؛ قال الشاعر:

وَلَمْ يَكُ في بُؤْسٍ إِذَا بَاتَ لَيْلَةً ... يُنَاغِي غَزَالاً سَاجِيَ الطَّرْفِ أَكْحَلاَ.

398() وأصل البأس في اللغة: الشِّدَّة؛ يقال: لا بأس عليك في هذا، أي: لا شدَّة و {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} (الأعراف: 165) أي: شديد، ثم يسمَّى الحرب بأساً، لما فيه من الشِّدَّة، والعذاب يسمَّى بأساً؛ لشدَّته، قال تبارك وتعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} (غافر: 84) {فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ} (الأنبياء: 12]) {فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا} (غافر: 29).

قَوْلُهُ تَعَالَى: {أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وَصَفَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالتَّقْوَى فِي أُمُورِهِمْ وَالْوَفَاءِ بِهَا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا جَادِّينَ فِي الدِّينِ، وَهَذَا غاية الثناء أنهم صَدَقُوا في القول والفعل والعزيمة.

اللهم اجعلنا من أهل الصدق والبر.

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أول آيات الجنايات.

قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)}** (البقرة 178،179)

انتقل الحديث عن البر الذي هو الترجمة العملية لمعنى الإسلام في الصدور، وهذه الترجمة لحقيقة البر تمثل نواةً مهمةً للدور الذي يمثله القرآن كدستور وعقد اجتماعي يبني مجتمعاً سماوياً حقيقياً قابلاً للتنفيذ على أرض الواقع... وبعد هذا التمهيد والتهيئة لتلقي شرع السماء انتقل الحديث في رشاقةٍ قرآنيةٍ أسلوبيةٍ عجيبةٍ إلى بيان أول تشريعات علاج الجرائم في المجتمع الرباني الجديد ؛ أو يا نسميه آيات الحدود المفصلة في المصحف الشريف.

هنا نتحدث عن استبدال تشريع السماء المنصِف الرحيم، بتشريع الغاب الذي ملأ مجتمعاً جاهلياً [399] حتى صارت فيه الحروب التي استمرت في بلاد العرب مئات السنين وحصدت مئات الأرواح بسبب العادات وأحكام القبيلة الجائرة.

والسؤال لماذا الحديث هنا عن القَصَاص؟

لأن الإسلام حينما جعل أمهات منهجه التشريعي في مقاصده الخمسة: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العِرض، وحفظ العقل ، وحفظ المال. ولما كانت هذه هي مقاصد تشريع الإسلام التي استقرأها واستنبطها العلماء، وقد بدأ السياق القرآني بحفظ الدين في آية البر انتقل إلى حفظ النفوس وتأكيد حرمتها بتشريعاته العادلة في القصاص في الدماء...وهذا كله يسير مع محور سورة البقرة الأساسي في تكوين شخصية المسلم في الدولة الإسلامية الناشئة في مدينة رسول الله ﷺ أو ما اصطلحنا عليه في بداية تدبرنا هذا بأنه (بناء دولة الإيمان) في المدينة بعد طور بناء (أمة الإيمان) في مكة، والدولة لابد لها من أحكام تضبط ذلك المجتمع بعد اتساع رقعته واشتداد عوده.

القصاص بين الشرع الرباني و تقنين البشر.

بعد أن أرسى الوحي أسس الدستور الإسلامي في أمة الإسلام كان لابد أن يهيمن المنهج الإسلامي وتبدأ القوانين العملية. فالقرآن منهج حياة، والإسلام عقيدةٌ وشريعةٌ، وهذا ما جذب له عداء الذين يريدون أن يهيمنوا على مقدرات الناس ويستعبدوهم لمصالحهم الخاصة، لأن الإسلام بما يضعه من تشريعات تضمن العدل والمساواة في الحقوق والواجبات يناقض شرع البشر الذي وُضع نظرا لمصالح فئةٍ معينة فيه- باعتراف مفكري الغرب أنفسهم- ولا يراعي جميع فئات الناس إما جهلا وعدم إحاطةٍ بمصالح الناس جميعا، وإما عمداً لأن مَن يحكمون يمررون القوانين بما يخدم سلطانهم ومصالحهم، أو يراعون الحاجات الإنسانية من جانبٍ واحدٍ قاصرٍ لا يتم به مقصود القانون من إقامة العدل، ومنع الظلم والجور .

---

399) تسمى الباء هنا باء الاستبدال أو العوض، وتدخل غالبًا على المتروك، مثاله قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ}.

والقوانين الوضعية تراعي في أكثر مراميها ادعاءً للأحقية؛ فإنها تراعي حرية الفرد وحقوقه دون النظر البعيد أو الثاقب للأثر الجمعي لتصرفات الفرد على المجتمع. واقرأ معي إذا تشاء ما يقوله شراح القانون الجنائي المصري عن تجريم هتك الأعراض : (رأى المشرِّع أن المصلحة الاجتماعية عدم تجريم كافة أفعال المساس بها ؛ وإنما فقط الأفعال التي تمثل اعتداءً على الحرية الجنسية للفرد ، فضمان هذه الحرية أمرٌ لازم لوجود الناس في المجتمع وحفظ النظام الطبيعي للحياة (ولا أصبر أن أقول أي نظامٍ طبيعي يقصدون؛ هل هو نظام التسافد الحيواني كما تفعل الحيوانات، وتختلط الأنساب ويُلقى أولاد الزنا في الطرقات؟!) ؛ يقولون: لذا عاقب القانون على (المساس بالحرية الجنسية) المشكّلة في :

أ - حالة استعمال الإكراه ، ويتحقق ذلك في جريمة اغتصاب الإناث وهتك العرض بالقوة أو التهديد ؛ حيث تنص المادة 267 على أنه : (من واقَع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة) .

كما تنص أيضا المادة 268 على أنه : (كل من هتك عرض إنسان بالقوة أو بالتهديد أو شرع في ذلك يعاقب بالأشغال الشاقة من ثلاث سنين إلى سبع) .

ب - حالة التغرير بصغير السن أو حديث الخبرة ، ويتحقق ذلك في جريمة هتك العرض بغير قوة أو تهديد ،**أما ممارسة الحرية الجنسية في غير الحدود التي لا ينهى عنها القانون كهتك العرض بالرضا لمن بلغ ثمانية عشر عاماً فهو لا يعاقب عليه القانون.**

[راجع لذلك الوسيط في قانون العقوبات ، د أحمد فتحي سرور ، القسم الخاص].

ويتضح من هذا الشرح الذي يكشف عن منهج المشرِّع الوضعي وسياسته الجنائية فيما يتعلق بحماية العِرض : أن المصلحة المعتبرة في الحماية هنا هي (الحرية الجنسية) وليست طبيعة العلاقة الجنسية وشكلها ، فليس للقانون أن يتدخل إلا عندما يشكل فعل الجاني اعتداءاً على حق الحرية الجنسية ؛ فهو لا يحمي شرف المجني عليه ولا اعتباره ولا حياءه ، وإنما هو يحمي حريته في ألا يمارس الوطء الجنسي إلا بإرادته ، فإذا مارسه بهذه الإرادة في أي شكل فليس ثمة مصلحة معتبرة متطلبة للحماية .

وقد عَرَضَ القانون المصري لجرائم العِرْض في الباب الرابع من قانون العقوبات تحت عنوان : (هتك العرض وإفساد الأخلاق) ، وذلك في المواد (267حتى 279) وهي من المواد التي يمكن وصفها بأنها ترجمة شبه حرفية لمثيلاتها الفرنسية .

وفيما يتعلق بتحديد (كنه الفعل المؤثَّم) فقد بان أنه ليس الزنا ، وإنما هو شيء آخر يتمثل في الاعتداء على حق الإنسان في ألا يزني إلا بإرادته ، أما الزنا وفق تعريفه في شرع الله تعالى فليس مما يُشكِّل في عرف القانون الوضعي الفرنسي والمصري جريمة تستحق العقاب .

ولذلك فحين تعرض المادة (273) وما بعدها من قانون العقوبات لزنا الأزواج ، فإنها لا تعاقب أيّاً منهما بسبب إتيانه لفاحشة من الكبائر التي نهى الله تعالى عنها ، وإنما هي تؤثم اعتداء الجاني على الرابطة الزوجية ، ولذلك يجري نص المادة (273) من قانون العقوبات على أنه : (لا تجوز محاكمة الزانية إلا بناءً على دعوى زوجها ، إلا أنه إذا زنى الزوج في المسكن المقيم فيه مع زوجته لا تُسمَع دعواه عليها) .

ومن ذلك : أن الزوج هو صاحب الحق الوحيد في تحريك العقوبة في مواجهة زوجته ، فإن عفا عنها بعد بلوغ الأمر للسلطة ولو بعد صدور الحكم سقطت عنها العقوبة ، حيث تقضي المادة 274 بأن : (المرأة المتزوجة التي ثبت زناها يُحكَم عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنتين ، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن الزوج الزاني في مسكن الزوجية لا يستطيع أن يحرك الدعوى في مواجهة زوجته الزانية ؛ إذ إنه باعتدائه على الرابطة الزوجية يكون قد أسقط حقه في طلب العقاب على اعتدائها على ذات الرابطة .

ومن ناحية ثالثة جديرة بالعجب فإن الرجل الزوج لا يعاقب على الزنا إلا إذا كان زناه في منزل الزوجية وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجة ، وفقاً لنص المادة (277) من قانون العقوبات التي تنص على أن : (كل زوج زنى في منزل الزوجية وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجة يجازى بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر)

وأعظِم بها من عقوبة !

العقوبات الجنائية الوضعية المقدرة للزنا :

أ - عقوبة الزوجة الزانية : سبق أن ذكرنا نص المادة (274) من قانون العقوبات التي تقول : (المرأة المتزوجة التي ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين ، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت) .

وينزل حكم هذا النص (الفرنسي) المصري بعقوبة الزنا للمحصن من القتل (الإعدام) رمياً بالحجارة وفقاً لما هو مقرر في شريعة الإسلام كحد لله تعالى لا يملك الإمام تخفيفه أو العفو عنه ، إلى عقوبة الحبس اليسير لمدة سنتين قابلتين للإلغاء برضاء الزوج معاشرة زوجته، ويا له من تشجيع لكل زانيةٍ وزانٍ على جريمةٍ يستطيع أقل المحامين خبرةً أن يخرجها منها بأيسر مئونةٍ.

ب - عقوبة الزوج الزاني : كما حددت المادة 277 عقوبة الزاني بأن (كل زوج زنى في منزل الزوجية وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجة يجازى بالحبس مدة لا تزيد عن ستة أشهر) .

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن المشرع الفرنسي ومن بعده مقلده المصري يجعل من الزنا بمعناه الشرعي (أي الإيلاج الكامل) في حالة المادتين (274-277) جنحة لا تزيد مدة الحبس فيها عن سنتين ، بينما يعاقب على أي استطالة لجسم المجني عليه بعقوبة الجناية التي يمكن أن تصل إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، اعتداداً بالمصلحة المعتبرة فيها (وهي حق الحرية الجنسية) ، وراجع المواد 267وما بعدها حتى 279 من قانون العقوبات .

وأما ممارسة الفجور والدعارة على وجه الاعتياد فقد عاقب عليها ما يسمى بقانون مكافحة الدعارة (القانون رقم (10) لسنة 1961م) في مادته التاسعة : بالحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ولا تزيد على ثلاث سنوات ، أو الغرامة التي لا تقل عن خمسة وعشرين جنيهاً ولا تزيد على ثلاثمائة جنيهاً ، أو كليهما .[400]

ومن التخريجات الغريبة والتطبيقات التي تنشأ عن القانون الجنائي المصري في هذا الصدد، حالة ما إذا فاجأ الزوج زوجته وشريكها، فحاول قتلهما فقتلته الزوجة أو شريكها، فلا عقوبة على فعلهما لاعتبار ذلك دفاعاً شرعياً عن النفس؛ ثم إنه بعد ذلك لا عقوبة على جريمة الزنا التي اقترفاها إذ فد مات الزوج صاحب الحق في الدعوى ضدهما. ولو حدث أن قتل الزوج زوجته سقط بذلك حقه في الدعوى ضد شريكهما، لأن حظ الشريك مرتبط بحظ الزوجة الزانية فيستفيد مما كان يفيدها. وقد ماتت فالشريك يعتبر بريئاً إذ لا عقوبة عليه إلا إذا حكم على الزوجة، وهذا غير متيسر لموتها.

---

400 مجلة البيان (**160**/ **70**)– العلمانية في قفص الاتهام –الغزو العلماني للتشريع وأثره على المجتمع (دراسة حالة)– المحامي/ صبحي صالح موسى.

كذلك القانون لا يعاقب على جريمة الفسق ولا على تلك الجريمة النكراء الشنعاء: جريمة اللواط متى توفر الرضا إذا كان سنَّ الفتى أو الفتاة أكثر من ست عشرة سنة. فكأن القانون يشجع ذلك بعدم وضع الحظر عليه، بل أكثر من هذا فإنه يقف موقفاً غريباً بالنسبة للقاصر إذا جاوز السادسة عشرة فإنه يبيح له أن يجني ويبيح الجناية عليه. . . . بلا قيد، بينما لا يبيح له الزواج أو التصرفات المدنية إلا برضا وليه أو وصيه حسب الظروف...

هذا بعض من كل من الأمثلة الدالة على فُجر القانون والمشجعة لضروب المنكر_قد يقال إن روح القوانين الحديثة أن تتجه نحو الحرص على عدم التعرض بالعقاب للجرائم الأخلاقية إلا في حدود معينة، فلم يعاقب على الرذائل والآثام لذاتها؛ بل لما يترتب عليها من الضرر للأفراد أو للمصلحة العامة. ولكن الرد على هذا سهل يسير وهو: أنه ما من جريمة أخلاقية إلا أصاب الغير ضررها بالذات أو بالواسطة حالاً أو مستقبلاً، وذلك بانتشار الرذيلة الذي يتبعه تأثر الوسط وفقدانه حيويته؛ والذي يتبعه حتماً كنتيجة مباشرة إنهيارُ البيئة الإجتماعية وتفشي الأمراض الخبيثة بينها وازدياد الأدواء المختلفة الجسمانية والاجتماعية... [401]

وهذا مثالٌ واحدٌ على عفن التصور البشري للتشريع وفساده، فالتشريع الوضعي كما قررت ابتداءً هو تشريع أعور لا يرى إلا بزاويةٍ واحدةٍ ويفسد أكثر مما يصلح، ويأتي بعض البيان عن بيان مزايا تشريع الإسلام للقصاص بعد والتي يتبين منها شمول نظرة الإسلام لكل زوايا الأحداث التي تلاقي الإنسان في حياته مع شموله لكل تلك الأحداث ما وقع وما يُستجَد منها.

(والمقصود أن شريعة الإسلام جاءت مضامينها وتعاليمها شاملةً لكل مناحي الحياة، وجميعِ شؤون الخَلْق الدنيوية والأخروية، فهي ليست تشريعات مُنزويةً في ركن ضيق ومقصورةً عليه، تتولى علاجه دون غيره، كلا، بل إنها تملِك منظومة متكاملة لكل ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة، وكما أنها نظمت علاقة الناس بربهم كذلك نظمت علائقهم ببعضهم البعض؛ من اقتصاد، وسياسة، واجتماع، وقضاء، وجنايات، وتعليم، وحرب، وسلام، وعلاقتَهم بالبيئة وما خلَق الله فيها من كائنات.. وغير هذا من الجوانب الكثيرة التي لها صلة بانتظام الحياة في هذا الكون.

قد روَّج العلمانيون - متابعين في هذا معلِّميهم من المستشرقين والمنصِّرين ومَن سَلَك مسلكهم ولَفَّ لفَّهم - أن الإسلام لا يملِك سوى نظامٍ رُوحيٍّ مقصورٍ على تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فقط، فهو محصور في إطار القفص الصدري للإنسان، وإن تجاوزه فلا يَزيد - في زعمهم - عن جدران المساجد وبيوت العبادة، هم يروجون لهذا، وهكذا يريدون.. وكذلك يتمنَّوْن.

والحق أن مَن شَمَّ رائحة العلم ورائحة التجرد معًا، لَيَربَأُ بنفسه عن الترويج لمثل هذا الباطل والزُّور.

إن هذا الترويج يمكن أن ينطبق على غيرِ الإسلام؛ كالنصرانية الموجودة الآن مثلًا، التي تقول أناجيلها: "أعطُوا ما لِقيْصر لِقَيْصر، وما لله لله". وتنسب إلى المسيح عليه السلام أنه قال: "مَمْلكتي ليستْ مِن هذا العالم"). [402]

---

(401) راجع كتابي (الأنس والحبور في تأمل سورة النور) وفيه مزيد بيان بإذن الله تعالى.

(402)شمولية الشريعة الإسلامية- مقال على شبكة الألوكة لل أ.د. إسماعيل علي محمد- رابط الموضوع:

https://www.alukah.net/culture/0/113479/#ixzz6r3lRX3Gr

أما الإسلام ومحمد ﷺ فمملكته في الأرض والسماء لأنه لا فائدة إن اقتصر الدين على الأمور الروحية وترك الإنسان يهيم في غيابات الجهل والظلم والفساد والشهوات بلا ضابط ولا رابط.

يقول الأستاذ الفضيل "عبدالكريم زيدان": مِن المعروف أن الشريعة الإسلامية نظام شامل لجميع شؤون الحياة؛ فهي ترسم للإنسان سبيل الإيمان، وتبين له أصول العقيدة، وتنظم صلته بربه، وتأمُرُه بتزكية نفسه، وتحكم علاقاته مع غيره، وهكذا لا يخرج عن حُكم الشريعة أيُّ شيء. (403)

وإن المحاولات التي تولى كبرها واضعو القوانين في بلاد المسلمين بناءً على القوانين البشرية التي ثبت عوارها وجورها وقصر نظرها؛ هذه المحاولات هي ببساطة إنكار لصلاحية الإسلام ومنهج الله تعالى في تدبر أمر هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى، وهو أعلم به وبمصالحه، ولذلك ليس كبيرا أن صرَّح القرآن بأن هذا هو الكفر بعينه، ولم يقل هو كفرٌ ولكن قال عمن فعل ذلك هم الكافرون والفاسقون والظالمون كما في سورة التوبة.

وتدبر معي ما قال الله تعالى:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) ﴾ [المائدة: 50].

يقول ابن كثير- رحمه الله : وقوله تعالى: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم اليَساق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: {أفحكم الجاهلية يبغون} أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. {ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: بسنده، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "أبغض الناس إلى الله- عز وجل- مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئٍ بغير حقٍ ليريق دمه". وروى البخاري، عن أبي اليمان بإسناده نحوه. انتهى. (404)

---

(403) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د.عبد الكريم زيدان، ص50.

404) تفسير ابن كثير ت سلامة (3/ 127) باختصار.

(وقد ذكر المفسرون أن القصاص على القتل كان مُحَتَّما عند اليهود (كما في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج والعشرين من التثنية)، وأن الدية كانت محتمة عند النصارى، وأن القرآن جاء وسطا يفرض القصاص إذا أصر عليه أولياء المقتول، ويجيز الدية إذا عفوا...

وإذا نظرنا في أعمال الأولين والآخرين وشرائعهم في القتل نجد القرآن وَسَطا حقيقيا لا بين ما نُقِل عن اليهود والنصارى فقط؛ بل بين مجموع آراء البشر من أهل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، فقد كانت العرب تتحكم في ذلك على قدر قوة القبائل وضعفها، (كما بيَّنّا)...

ولكن يوجد في الناس ولا سيما أهل القوانين في زماننا هذا من ينكر المعاقبة بالقتل، ويقولون إنه من القسوة وحب الانتقام في البشر، ويرون أن المجرم الذي يسفك الدم يجب أن تكون عقوبتُه تربيةً لا انتقاما، وذلك يكون بما دون القتل، ويشددون النكير على من يحكم بالقتل إذا لم تثبت الجريمة على القاتل بالإقرار، بأن ثبتت بالقرائن أو بشهادة شهود يجوز عليهم الكذب، ويرون أن الحكومة إذا علَّمت الناس التراحم في العقوبات فذلك أحسن تربية لهم، ومنهم من يقول إن المجرمين لا يكونون إلا مرضى العقول فالواجب أن يوضعوا في مستشفيات الأمراض العقلية ويعالجوا فيها إلى أن يبرئوا.

وإذا دققنا النظر في أقوال هؤلاء نرى أنهم يريدون أن يشرِّعوا أحكاما خاصةً بقومٍ تعلموا وتربوا على الطرق الحديثة وسِيسُوا بالنظام والحكم حتى لا سبيل لأولياء المقتول أن يثأروا له من القاتل ولا أن يسفكوا لأجله دماءً بريئة، وحتى يُؤمَن من استمرار العداوة والبغضاء بين بيوت القاتلين وبيوت المقتولين.

وكذلك وجدت عندهم جميع وسائل التربية والمعالجة.

تلك الأحكام التي يريدونها هي أحكام خاصة تليق بقومٍ هذا حالهم لا أحكاما عامة لجميع البشر، في البدو والحضر.

[ولا يوجد في الحقيقة حتى بين أغنى حضارات الأرض المادية أناساً هذا سمتهم وحالهم وتربيتهم حتى يُقام فيهم هذا الشرع المتراخي، فطبيعة البشرية على العموم أنها لا ترتدع بمثل هذه الأحكام المتراخية، وخصوصا في حالة إزهاق الأرواح بأبشع الطرق والتي لا يرد نيران قلوب أولياء المقتول إلا أن يروا القاتل يذوق كأس القتل الذي أذاقه للمقتول بأقذر السبل].

ومع هذا نرى كثيرا من الناس - حتى المنتسبين إلى الإسلام - يغترون بآرائهم ويرونها شُبْهةً على الإسلام.

وأما النافذ البصيرة العارف بمصالح الأمم الذي يزن الأمور العامة بميزان المصلحة العامة لا بميزان الوجدان الشخصي الخاص بنفسه أو ببلده فإنه يرى أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذي يربي الأمم والشعوب والقبائل كلها، وأن تركه بالمرة يغري الأشقياء بالجراءة على سفك الدماء، وأن الخوف من الحبس والأشغال الشاقة إذا أمكن أن يكون مانعا من الإقدام على الانتقام بالقتل في البلاد التي غلب على أهلها التراحم أو الترف والانغماس في النعيم كبعض بلاد أوربا فإنه لا يكون كذلك في كل البلاد وكل الشعوب، بل إن من الناس في هذه البلاد وفي غيرها من يحبِّب إليه الجرائمَ أو يسهِّلها عليه كون عقوبتها السجن الذي يراه خيرا من بيته أحيانا... ولا يبعد على المجرم من هؤلاء أن يقتل لأن عقاب القتل في هذه السجون - وإن ثبت عليه - أهون من عيشته الشقية، فما القول في أهل البوادي أصحاب الثارات التي لا تموت؟

فقتلُ القاتل هو الذي يربي الناس في كل زمانٍ ومكان، ويمنعهم من القتل... وقد تقع في كل البلاد صورٌ من جرائم القتل يكون فيها الحكم بقتل القاتل ضارا وتركه لا مفسدة فيه، كأن يقتل الإنسان أخاه أو أحد أقاربه لشيءٍ عارضٍ دفعه إلى ذلك، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت، وإذا قُتِل يفقدون بقتله المعين والظهير، بل قد يكون في قتل القاتل أحيانا مفاسد ومضار وإن كان أجنبيا من المقتول، ويكون الخير لأولياء المقتول عدم قتله لدفع المفسدة، أو لأن الدية أنفع لهم، فأمثال هذه الصور توجب ألا يكون الحكم بقتل القاتل حتما لازما في كل حال، بل يكون هو الأصل، ويكون تركه جائزا برضاء أولياء المقتول وعفوهم، فإذا ارتقت عاطفة الرحمة في شعبٍ أو قبيل أو بلد إلى أن صار أولياء المقتول منهم يستنكرون القتل ويرون العفو أفضل وأنفع فذلك إليهم، والشريعة لا تمنعهم منه بل ترغِّبهم فيه، **وهذا الإصلاح الكامل في القصاص هو ما جاء به القرآن، وما كان ليرتقي إليه بنفسه علم الإنسان...** [405]

تفسير الآية.

قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)}**

(في هذه الآيات أُعيد الخطاب ب **{يا أيها الذين آمنوا}** لأن هذا صنفٌ من التشريع لأحكام ذات بالٍ في صلاح المجتمع الإسلامي واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعةً ذات استقلالٍ بنفسها ومدنيتها، فإن هاته الآيات كانت من أول ما أنزل بالمدينة عام الهجرة كما ذكره المفسرون في سبب نزولها.

تلك أحكام متتابعة من إصلاح أحوال الأفراد وأحوال المجتمع، وابتُدِئ بأحكام القصاص، لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، وقد أفرط العرب في إضاعة هذا الأصل، يعلم ذلك من له إلمامٌ بتاريخهم وآدابهم وأحوالهم، فقد بلغ بهم تطرفهم في ذلك إلى وَشْك الفناء لو طال ذلك فلم يتداركهم الله - تعالى- بنعمة الإسلام فيه ، فكانوا يُغِير بعضهم على بعضٍ لغَنِيمةِ أنعامه وعبيده ونسائه، فيدافع المُغَار عليه وتتلف النفوس بين الفريقين، ثم ينشأ عن ذلك طلب الثارات، فيسعى كل من قُتِل له قتيلٌ في قتل قاتل وليه، وإن أعوزه ذلك قتل به غيره من واحدٍ كُفْءٍ له، أو عدد يراهم لا يوازونه ويسمون ذلك **بالتكايل في الدم**؛ أي كأن دمُ الشريف يُكَال بدماءٍ كثيرة فربما قدَّروه باثنين أو بعشرةٍ أو بمائة، وهكذا يدور الأمر ويتزايد تزايدا فاحشا حتى يصير تفانيا (أخذ في إفناء بعضهم البعض) كما قال زهير:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَ مَا ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ.

وينتقل الأمر من قبيلةٍ إلى قبيلةٍ بالولاء والنسب والحِلْف والنُّصْرة، حتى صارت الإِحَن فاشيةٌ، فتخاذلوا بينهم واستنصر بعض القبائل على بعض فوجد الفرس والروم مدخلا إلى التفرقة بينهم فحكموهم وأرهبوهم، وإلى هذا الإشارة والله أعلم بقوله تعالى:

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (آل عمران: 103)، أي كنتم أعداء بأسباب الغارات والحروب فألَّف بينكم بكلمة الإسلام، وكنتم على

[405] تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (2/99- 101) بتصرف يسير.

وشك الهلاك فأنقذكم منه فضرب مثلا للهلاك العاجل الذي لا يبقي شيئا بحفرة النار ، فالقائم على حافتها ليس بينه وبين الهلاك إلا أقل حركة. انتهى [406]
ولذلك كانت التشريعات التي سنها القرآن العظيم ليست فقط في وجهتها العامة لإصلاح المجتمعات جميعا على نور الإسلام، ولكن أيضا لجمع كلمة العرب وتحريرهم من أنفسهم التي سولت لهم معاداة بعضهم البعض وتنبه العدو لذلك والتحكم فيهم بذلك، فشرع الله يحرر القلوب والعقول والأبدان لو يفقهون.

وقال العلماء في سبب نزول هذه الآيات أقوالاً:

أحدها : أن سبب نزولها إزالة الأحكام التي كانت ثابتة قبل مبعث محمد ﷺ ، وذلك لأن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط ، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط ، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل ، وأخرى يوجبون الدية لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل واحدٍ من هذين الحُكْمين:
إما التعدي في القتل فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى ، فالأشراف كانوا يقولون : لنقتلنَّ بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم ، وبالرجل منا الرجلين منهم ، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم ، وربما زادوا على ذلك على ما يروى أن واحداً قتل إنساناً من الأشراف ، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول ، وقالوا : ماذا تريد؟ فقال إحدى ثلاث قالوا: وما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملئون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا إلى جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً.
وإما الظلم في أمر الدية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أوجب رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية.
وقال السُدِّيُّ: إن قريظة والنضير- من قبائل يهود- كانوا مع تدينهم بالكتاب سلكوا طريقة العرب في التعدي) [407]

وقيل: نزلت بسبب قتال وقع بين قبيلتين من الأنصار، وقيل: من غيرهم فقتل هؤلاء من هؤلاء رجالا وعبيدا ونساء، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلح بينهم ويقاصهم بعضهم ببعض بالديات على استواء الأحرار بالأحرار والنساء بالنساء والعبيد بالعبيد. وأيَّده ابن تيمية- رحمه الله- في فتاواه.
وعلى هذا فالآية تعم تصحيح التشريعات في ذلك الجو الظالم الذي ملأ الأفق بتمييزٍ عنصريٍ اجتماعيٍ بغيض.
ولكننا في النهاية نقف بالآية عند القاعدة المستفيضة في علوم القرآن: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، وعموم مضمون الآية في سياق التشريع الجنائي في القرآن.

---

[406] التحرير والتنوير (2/ 134)

[407] تفسير الرازي (3/ 59، بترقيم الشاملة آليا)

تحليل الآيات.

قوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ}، معناها هنا فُرِض عليكم. فَمَعْنَى ذلك أَنَّهُ حَقٌّ لَازِمٌ لِلْأُمَّةِ لَا مَحِيدَ عَنِ الْأَخْذِ بِهِ. كقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصيامُ}.. وأصله: أنَّ مَن أراد إحكام شيء والاستيثاق منه كَتَبَه؛ لئلا ينساه، فقيل في كل مفروضٍ واجبٍ: كُتِب، بمعنى: أُحكِم فرضُهُ.[408]

وضَمِيرُ {عَلَيْكُمْ} لِمَجْمُوعِ الْأُمَّةِ عَلَى الْجُمْلَةِ، ولِمَنْ تَوَجَّهَ لَهُ حَقُّ الْقِصَاصِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ الْقِصَاصُ، لِأَنَّ وَلِيَّ الدَّمِ لَهُ الْعَفْوُ عَنْ دَمِ وَلِيِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ...}.[409] . فالخطاب إما أن يكوت للأمة جميعا بتنفيذ حدود الله وشرعه، ويأثموا لو تركوه جميعهم، وربما يكون الخطاب لأولياء الأمور أن ينفذوا حكم الله في جريمة القتل بالقصاص.

قال الراغب: فإن قيل: على من يتوجه هذا الوجوب؟ قيل على الناس كافة، فمِنْهم مَنْ يلزمه تسليم النفس، وهو القاتل، ومنهم من يلزمه استيفاؤه، وهو الإمام إذا طلبه الولي، ومنهم من يلزمه المعاونة والرضى، ومنهم من يلزمه أن لا يتعدى، بل يقتص أو يأخذ الدية، والقصد بالآية منع التعدي، فإن أهل الجاهلية كانوا يتعدون في القتل، وربما لا يرضى أحدهم إذا قُتِل عبدُهم إلا بقتل حرٍ من قبيلة قاتله وإن كان عبدا مثله. اه كلامه. [410]

النقطة الأولى: { كتب عليكم القصاص } فما معنى الفرض هنا؟ وما معنى القصاص؟

فإن قال قائل: أفرضٌ على وليّ القتيل القصاصُ من قاتل وَليّه؟ بمعنى هل تنص الآية نصاً لا خلاف فيه أن القود [411]- وهو أن يُقتَل القاتلُ كما قتل، هل هذا القود هو الفرض على ولى القتيل ولا سبيل سواه؟

قيل: لا، ولكنه مباحٌ له ذلك القود، أو العفو بغير أخذ الدية ، أو العفو وأخذُ الدية.

فإن قال قائل: ولكن كيف وفي الآية : "كُتِب عليكم القصاص"؟ أي فُرِض عليكم ، فما معنى الفرض هنا؟

فمعناه: أنَّ الولي فُرِض عليه الوقوف عند قتل قاتل وليّه وترك التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى وتقتل بقتيلها الرجل والرجال من قوم قاتله، وأن الحكام وأولي الأمر فرضٌ عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وليس القصاص بلِزام إنما اللزام أن لا يتجاوز القصاص إلى الاعتداء، فأما إذا وقع الرضى بدون أخذ القاتل من ديةٍ أو عفوٍ فذاك مباحٌ لقوله: "فَمن عُفي لهُ من أخيه شيء". [412]

---

408) وقيل: أصلُه: ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، ومن هذا قوله: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} (المجادلة: 21)، أي: قَضى الله ذُلك، وفَرَغَ منه، وحَكَم به، ومثله قوله: {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ} (الحشر: 3)، أي: حكم بإخراجهم من دورهم، وقوله: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} (التوبة: 51)، وقوله: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ} (آل عمران: 154)، كل هذا من القضاء.
ويكون (كتب) بمعنى: جعل، كقوله: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} (المجادلة: 22)، وقوله: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة: 83) وقوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} (الأعراف: 156). انتهى راجع التفسير البسيط (3/ 529).
وقال الراغب: ويعبر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم، بالكتابة، ووجه ذلك: أن الشيء يراد، ثم يقال، ثم يكتب، فالإرادة مبدأ، والكتابة منتهى، ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى.

409) التحرير والتنوير (2/ 135)

(410) نقلا عن البحر المحيط في التفسير (2/ 144) بتصرف يسير.

(411)جاءت من معنى أن ولى الأمر يقوده لولى الدم ليأخذ حقه.

(412) راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 244)، وتفسير الإمام الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 357).

وقد قيل: إن معنى القصاص في هذه الآية، مقاصَّة ديات بعض القتلى من الفريقين بديات مقابلهم من الآخرين، الرجال بالرجال، والنساء بالنساء والعبيد بالعبيد؛ لما وقع بين قبيلتين تقاتلتا على عهد رسول الله ﷺ فجاء الحكم بينهم بهذه الآية، وهو ترجيح ابن تيمية- رحمه الله، ويدخل في معنى الآية ولا يوجِّه عموم معناها.

وهنا يأتي دور التحليل والدرس اللغوي في توجيه هذا المعنى . فالقصُّ في اللغة يطلق في أكثر استعمالاته على معنيين: القطع، وتتبع الأثر. يُقال: قصَّ الثوب والشَّعر أي قطعه، ويقال: قص الأثرَ أي تتبعه. [413]

يقول المحققون من أهل التفسير أن معنى القصاص في هذا الموضع هو المماثلة والمساواة في الدماء وليس مجرد القتل بالقتل[414]، وأصله من قولهم: قصصت أثره، إذا تتبعته، ومنه قوله تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} (القصص: 11) أي اتبعي أثره، ومنه استخرج أهل الشريعة معنى القصاص في الجراح، لأن المجني عليه يتتبع ما عُمِلَ به فَيَعْمَلُ مثله في الجاني، قالوا: والقِصَاص والمُقاصَصَة مصدر من الفعل (قاصَصَ) لأنه المفاعلة والفِعال من الفعل فاعل ، مثل: المقاتلة والقتال من الفعل قاتل. وهو بين طرفين يقتضي المماثلة والمساواة في الفعل. وهذا هو التحليل اللغوي الصرفي للكلمة.

تقول العرب: (تَقاصَّ القومُ) أى قاصَّ كلُّ واحدٍ منهم صاحِبَه في حِسابٍ وغيرِه. ويعنون أنه قطع كلُ واحدٍ منهم ما كان له من ديْنٍ عند صاحبه من أموالٍ عنده، وأمثال ذلك.

وقال الأزهري: أصل القَصّ: القطع. يُقال: قَصَصتُ ما بينهما، أي: قطعت. قال الأزهري: والقِصَاص في الجِرَاح مأخوذٌ من هذا، وهو أن يُجْرحَ مثلَ ما جَرَح، أو يُقْتل مثل ما قتل، والقول الأول أقوى أى أنه مأخوذٌ من تتبع الأثر ؛ لأن القصاص والمقاصصة في غير الجراح، يقال: قَاصَّه في الحساب وغيره: إذا أخذ الشيء مكان غيره.

وقال الليث: القصاص والتَّقَاصّ في الجراحات والحقوق شيءٌ بشيء.

فالقصاص حيث يجب تجب فيه المساواة، وهذا يؤكدُ أنَ القولَ في اشتقاق القِصَاص في اللغة إنما هو من التتبع، لا من القطع كما قاله الأزهري؛ لأنه لو كان من القطع لوجب القصاص حتى لا يسعنا تركه. [415]

وليس معنى الآية أن قتل القاتل واجبٌ علينا حتى لا يسعنا تركه، ولكن معناه: أن اعتبار المماثلة بين القتلى فرضٌ علينا، فالفَرْضِية ترجع إلى اعتبار المماثلة بين الدماء، لا إلى نفس القتل، وهو سياق الآية كما سنبين بإذن الله.

فأفاد قوله تعالى: {كتب عليكم القصاص في القتلى...} حقَّ المؤاخذة في الجنايات، فلا يذهب حقُّ قتيلٍ باطلا ولا يُقتَل غيرُ القاتلِ باطلا، وذلك إبطال لما كانوا عليه في الجاهلية ...[416]

---

[413] راجع لذلك الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 1051)

[414] قال الفراء في كتاب المصادر: قاصَصْته قَصَصا، وأَقْصَصْتُه: إذا أقدته من أخيه إِقْصَاصًا، ويقال: قَصَصْتُ أثره قَصصًا وقَصًّا، وقَصصْتُ عليه الحديثَ قَصَصًا، قال الله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} (يوسف: 3). فكأنه من تتبع الأحداث لروايتها.

وقال في قَصِّ الأثر: {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} (الكهف: 64)، أي عاد يتتبعان أثر طريقهما.

راجع الواحدي-رحمه الله في التفسير البسيط (3/ 530).

(415)انظر التفسير البسيط (3/ 530).

[416] انظر التحرير والتنوير لابن عاشور (2/ 135). وانظر التفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي (1/ 368)

النقطة الثانية: { الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأنثى بالأنثى}.. دلالة المنطوق والمفهوم.

في أصول الفقه: الْمَنْطُوق هُوَ الْأَمر الَّذِي يفهمه المتلقي من صريح اللفظ لا يتعداه.

ومِن أوضح الأمثلة عليه: ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فتبيَّنوا ﴾ [الحجرات: 6]، فقد دلَّت بمَنطوقها على وجوب التثبُّت في خبر الواحد إذا كان فاسقًا، ودلَّت بالمفهوم (المخالف) على أنه إذا كان عدلًا فإن خبره يُقبَل بدون تبيُّن وتثبُّت.

والْمَفْهُوم هُوَ المعنى الَّذِي يُفْهَمه المتلقي من القَوْل فِي غير مَحل النُّطْق أي ما يدل عليه الكلام خارج صريح لفظه وبطريقٍ غير مباشر، كما في قوله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة: 197]، يدلُّ بمفهوم المخالفة على أنه في غير هذه الأشهُر المعلومات لا يمكن الحج.

ثمَّ الْمَفْهُوم من الكلام قد يكون (مَفْهُوم الْمُوَافقَة)، وَقد يكون (مَفْهُوم الْمُخَالفَة)، أما مَفْهُوم الْمُخَالفَة فَكَمَا ذكرنَا وَهُوَ الَّذِي يكون وصف منطوقه يُخَالف وصف المسكوت عنه الذي نفهمه.

وَمَفْهُوم الْمُوَافقَة مَا يكون وصف المسكوت عنه يُوَافق وصف منطوقه، وَقد يكون أولى بذلك الْوَصْف الَّذِي هُوَ مقصود الحكم وَمُقْتَضى الْحِكْمَة، وَيُسمى فحوى الْخطاب ولحن الْخطاب وَمِنْه: {فَلَا تقل لَهما أُفٍّ}.

فالمعنى أنه ما دام التأفف للوالدين منهيٌ عنه، فما فوقه من الإساءة حرامٌ (من باب أوْلى).

ويرى الإمام الشافعي وغيره أن مفهوم الموافقة يعد كالنص في قوته لأنه يستمد قوته من حكمة النص ومآله، بينما اختلفوا في قبول مفهوم المخالفة وعلَّق الكثير من علماء الأصول قبوله بشروطٍ ذكروها في كتب أصول الفقه، وأنكر الإمام أبو حنيفة وأصحابه حجيته.

وقوله تعالى: { الحر بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى}.

فإن قال قائلٌ: فإنه تعالى ذكره قال: "كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحر بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى"، فما معنى استعمال منطوق الآية وظاهره في تقييد قتل الحر بالحر، والأنثى بالأنثى، بحيث لو قتل عبدٌ حراً ، أو قتل حرٌ عبدا فلا قصاص، أو قتل ذكرٌ أنثى لا نقتص منه؟

والحق أنَّ هذا الحصر على الأصناف المذكورة لا يُعمَل به هكذا على إطلاقه، فإجماع الأمة على قتل الذكر إذا قتل أنثى، وقتل العبد إذا قتل حراً يخالف منطوق الآية في ظاهره، فما هو التحقيق في المسألة؟

والمسلك الأول في تحقيق الآية.

يقول الطبري: بل لنا أن نقتص للحر من العبد، وللأنثى من الذكر بقول الله تعالى ذكره: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} (سورة الإسراء: 33)، وبالنقل المستفيض عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**المسلمون تتكافأ دماؤهم**). [417]

ويقول الخطابي: معناه أن أحرار المسلمين دماؤهم متكافئة في وجوب القصاص والقود لبعضهم من بعض لا يفضل منهم شريف على وضيع. فإذا كان المقتول وضيعا وجب القصاص على قاتله. إن كان شريفا لم يسقط

[417] رواه أحمد في المسند: 6797، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - وهو عبد الله بن عمرو بن العاص: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم". ورواه أبو داود مطولا ، ورواه بنحوه أيضًا ابن ماجه.

القود عنه شرفه، وإن كان القتيل شريفا لم يقتص له إلاّ من قاتله حسب... فأبطل الإسلام حكم الجاهلية وجعل المسلمين على التكافؤ في دمائهم. [418]

ويؤيده قوله تعالى في الآية: {في القتلى}، ولفظ «في» للسببية، أى: فرضٌ عليكم القصاص بسبب القتلى. كما في قوله ﷺ «دخلت امرأة النار في هرة» أى بسببها.

قال الشافعي-رضى الله عنه- ما ملخصه:

ولَمْ أَعْلَمْ مُخَالِفًا فِي أَنْ يُقْتَلَ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ. وهو دَلِيلُ أَنْ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ غَيْرَ خَاصَّةٍ لَمْ يُقْتَلْ ذَكَرٌ بِأُنْثَى. فدلَّ أنَّ الآية خاصةٌ في نزولها وَكَانَ بَدْءُ ذَلِكَ فِي حَيَّيْنِ -مِنْ الْعَرَبِ- اقْتَتَلُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِقَلِيلٍ وَكَانَ لِأَحَدِ الْحَيَّيْنِ فَضْلٌ عَلَى الْآخَرِ: فَأَقْسَمُوا بِاَللَّهِ لَيَقْتُلُنَّ بِالْأُنْثَى الذَّكَرَ، وَبِالْعَبْدِ مِنْهُمْ الْحُرَّ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: رَضُوا وَسَلَّمُوا. لِأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- إنَّمَا أَلْزَمَ كُلَّ مُذْنِبٍ ذَنْبَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ جُرْمَ أَحَدٍ عَلَى غَيْرِهِ، فَقَالَ: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ): إذَا كَانَ -وَاَللَّهُ أَعْلَمُ- قَاتِلًا لَهُ (وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ): إذَا كَانَ قَاتِلًا لَهُ (وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى) إذَا كَانَتْ قَاتِلَةً لَهَا. لَا أَنْ يُقْتَلَ بِأَحَدٍ مِمَّنْ لَمْ يَقْتُلْهُ لِفَضْلِ الْمَقْتُولِ عَلَى الْقَاتِلِ. وَقَدْ جَاءَ عَنْ النَّبِيِّ (ﷺ): «أَعْدَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَنْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِه». [419]

وَجُمْلَةُ: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى} بَيَانٌ وَتَفْصِيلٌ لِجُمْلَةِ {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى} وَتَقْدِيرِ المعنى: الْحُرُّ يَقْتَصُّ منه أَوْ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ إِلَخْ... فكأن السياق المنطقي للآية أن يقال: كتب عليكم القصاص الذي هو المساواة في الدماء، فلو قتل حرٌّ حراً أُخِذ به لا فرق بين شريفٍ وضعيفٍ في ذلك كما كنتم تصنعون، وكذلك العبد يؤخَذُ بالعبد، والأنثى تؤخذ بالأنثى على أصل التكافؤ بين المسلمين في الدماء، وعلى سبيل البيان وليس معناه ألا يؤخذ الذكر بالأنثى. وقد أجمع علماء الإسلام على أنَّ هذا المنطوق والظاهر في الآية معمول به فلم يقل أحدٌ إنه لا يُقتَل حُرٌّ بِحُرٍّ ، ولا تُقتَل أنثى بأنثى، ولم يعملوا بمفهوم المخالفة في الآية بحيث ينفي أن يؤخذ الرجل بالمرأة إذا قتلها ، فهذا المفهوم غير مرادٍ بالأدلة الصريحة من الكتاب والسنة.

ففي «الموطأ» «قال الإمام مالك: أَحسَنُ ما سمعت في تأويل هذه الآية ،في قول الله تبارك وتعالى: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالعَبْدُ بِالْعَبْدِ} فهؤلاء الذكور، {والأنثى بالأنثى} أن القصاص يكون بين الإناث كهيئته بين الذكور، والمرأة الحرة تُقْتَلُ بالمرأة الحرة كما يقْتَلُ الحر بالحر، والأمة تقتل بالأمة كما يقتل العبد بالعبد، والقصاص يكون بين النساء ، كما يكون بين الرجال، والقصاص أيضا يكون بين الرجال والنساء، وذلك أن الله تبارك وتعالى قال في كتابه: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} فذكر الله تبارك وتعالى: أن النفس بالنفس، فنفس المرأة الحرة بنفس الرجل الحر، وَجُرْحُهَا بِجُرْحِهِ. ». [420]

والخلاصة أنَّ هذا التحقيق جعل آية القصاص في سورة البقرة مؤسسة لمبدأ المساواة بين المسلمين في الدماء إبطالاً لعادات الجاهلية أنهم إذا قُتل فيهم الشريف أخذوا فيه أرواحا كثيرةً لشرفه جورا واعتداءً، وإذا قُتل فيهم الضعيف تركوا دمه، فجعل بعض المحققين الآية بمعنى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : " المسلمون تتكافأ دماؤهم"، وجعل التفصيل فيها { الحر بالحر والعبد بالعبد...} بيانا لمعنى تكافؤ دماء

---

(418)معالم السنن (2/ 313)

[419]) انظر أحكام القرآن للشافعي - جمع البيهقي (1/ 271) بتلخيص.

420)موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري (2/ 250)

المسلمين. ثم أخذ بنصوص القرآن الأخرى والسنة في بيان الأحكام التي سكتت عنها الآية، وجعلها نابذةً للأخذ بمفهوم المخالفة في الآية الذي ينفي أن يؤخذ الذكر بالأنثى والعبد بالحر، ولذلك عبر بعضهم عن ذلك بأنَّ مفهوم الآية منسوخ، والحق أنه لا معنى لوجود النسخ في هذا الموضع، فمن المعروف بين الأصوليين أن مفهوم المخالفة- وإن أخذوا به- لا يقوى على معارضة أدلةً أقوى منه من الكتاب والسنة، والله تعالى في آية سورة المائدة يقول: { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}، وكذلك الحديث الذي ذكرناه آنفاً .

ويثمر البحث هنا عن رأى الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة الذين يرون معنى آية سورة البقرة خاص بإنشاء مبدأ تكافؤ نفوس المؤمنين ومساواتها خلافا للجاهلية وهى خاصةٌ في موضعها وسبب نزولها على المعنى العام للتكافؤ والمساواة في القصاص ثم يفسرون معنى القصاص بالسنة، فلا يقتلون الحر بالعبد قصاصا، ويرون آية سورة المائدة عامةً في مبدأ القصاص فيؤخذ منها قتل الذكر بالأنثى إذا قتلها.

المسلك الثاني في تحقيق الآية.

هو ما يراه أبو حنيفة وجماعة من الفقهاء في العلاقة بين آيتي البقرة والمائدة، وأنَّ كلاهما يؤخذ منها الأحكام في موضعها.

والإشكالية هنا في قوله تعالى: {يأيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} [البقرة: 178]، فكتب الله تعالى القِصاصَ على المؤمنينَ في القتلى، ثم بيَّنَ ذلك القصاصَ والمساواةَ، فقال: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة: 178]، فدلَّ الخِطاب بمفهوم الموافقة (من باب أولى) على أن العبدَ يُقْتَلُ بالحرِّ، وأن الأنثى تُقتلُ بالذَّكرِ؛ لأنه إذا قُتل الحرُّ بالحُرِّ، فأولى أن يقتل به العبدُ، وإذا قُتِلتِ الأنثى بالأنثى، فأولى أن تُقْتَل بالذَّكرِ، ولكن تخصيص هذه الأفرادَ الثلاثةَ، وهي الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، يدلُّ بطريقِ (المَفهوم المخالف) على أنَّ الحُرَّ لا يُقتلُ بالعبد، وأن الذَّكَرَ لا يُقتل بالأنثى، ولكنَّ عمومَ آيَةِ المائدةِ تقتضي أن يقتلا بهما، فهل نَقْضي بالمَفْهومِ على العمومِ؟ أو نقضي بالعمومِ ويُتْرَكَ المفهومُ؟ هذا محلُّ نظرِ المجتهِد، فحينئذ يَفْزَع المجتهدُ إلى دلائلِ السنَّةِ والقياسِ والأصولِ والتَّرجيحاتِ عند التعارض. [421]

فيذهب أبو عبيد- فيما نقله عن ابن عباس- إلى أن الآية التي في المائدة : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } [المائدة: 45] ليست بناسخة للتي في البقرة : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة: 178] ولا هي خلافها ، ولكنهما جميعاً محكمتان إلا أنه رأى أن التي في المائدة كالمفسرة والمُبَيِّنة للتي في البقرة ؛ لأن أَنْفُسَ الأحرار متساويةٌ فيما بينهم، يُقْتَلُ الحُرُّ بالحُرِّ، والأنثى بالأنثى بآيةِ البقرةِ وآيةِ المائدةِ، ويقتلُ الرجلُ بالمرأةِ والمرأةُ بالرَّجلِ بآيةِ المائدة. [422]

ومذهب أبي حنيفة أن الحر يُقتَل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود، وهو مروي عن علي، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والحكم، وقال البخاري، وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه: ويُقتَل السيد بعبده؛ لعموم حديث الحسن عن

---

(421)تيسير البيان لأحكام القرآن (1/ 206)

(422)انظر: [انظر الناسخ والمنسوخ : 139] و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (1/ 2/ 230).

سمرة: "من قتل عبده قتلناه، ومن جذعه جذعناه، ومن خصاه خصيناه". [423]، واستدلوا أيضًا بقوله - صلى الله عليه وسلم -: "المسلمونَ تَتكافَأُ دِماؤُهُمْ".

(قلتُ- الباحث: وهو رأيٌ وجيهٌ وقويٌّ إذا استند إلى عموم آية سورة المائدة، ولكن في اشتقاقه من آية البقرة مقالٌ طويل).

وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يُقتَل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعةٌ لو قُتِل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته. ونفى مالك والشافعي وأحمد القصاص من الحر للعبد استنادا لعمل الخلفاء الراشدين وسكوت الصحابة، وهذا مذهب أبى بكر وعمر وعلى- في رواية عنه- وزيد بن ثابت، وكذلك استنادا لآثارٍ مروية، وقياسا على انتفاء القصاص من الحر في إصابة أطراف العبد فالنفس أولى بالحفظ. والقصاص من العبد لقتله الحر ثابت عندهما بالفحوى (دليل الخطاب أو من باب أولى)، والقصاص من الذكر لقتل الأنثى ثابت بلحن الخطاب (أي بمفهوم الموافقة بمعنى أنه إذا كان دم المرأة معصومٌ ونص الشارع على قتل المرأة بها، فهو كذلك معصومٌ إذا قتلها رجلٌ فيُقتل بها، فلا يكون معصومٌ تارةً وغير معصومٍ تارة أخرى).

وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يُقتَل بالكافر، كما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يقتل مسلم بكافر" (صحيح البخاري) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يُقتَل به لعموم آية المائدة.[424]

ويرد الجمهور على مذهب أبي حنيفة بأن الله قد فرّق بين الأجناس (الأحرار والعبيد) في آية البقرة وجعل القصاص بالتساوي بين كل جنسٍ منهم ، وفرّق بين الحرية والعبودية ، وبين المسلم والكافر في الحدود، فلم يوجب على من قذف كافراً وعبداً ما أوجبه على من قذف حراً ومسلماً ، والحدود يُرَدُّ بعضها إلى بعض .

وقد ناقض الحنفية أنفسهم أيضاً فزعموا : أنهم يقتلون الحر والمسلم بالعبد والكافر لعموم آية سورة المائدة { أن النفس بالنفس} ، ولا يفقؤون عينه بعينه ، وكذلك سائر الجراح وذلك في نسق آية المائدة ذاتها ، فزعموا أن النفس تساوي النفس ، واليد لا تساوي اليد ، فإن كانوا أرادوا الجسم فالمساواة ظاهرة بينهما ، وإن أرادوا الجنس فالجنسان مختلفان (أي بين الحر والعبد) ، وقد قال الله عز وجل { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } [المائدة: 45] والعبد لا يتصدق عندهم (في مذهبهم) ؛ لأن الحق لسيده ، والكافر لا تُكفِّر عنه صدقته ، فقد خالفوا ظاهر الآية وباطنها.[425]

وعن أتباع الإمام أبي حنيفة: أن قوله تعالى: { كتب عليكم القصاص فِي الْقَتْلى} هو نهاية الكلام وهو غَيْرُ مُفْتَقِرٍ وقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} جاء بعد ذلك وقد ثبت عموم المساواة بقوله: : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى} لأن القصاص الذي هو مراعاة المماثلة في القتلى عام وخصوص آخر الآية {الْحُرُّ بِالْحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ} لا يبطل عموم أولها، ولذلك قالوا يُقتَل الحرُّ بالعبد.

---

(423)رواه أبو داود (4515)، كتاب: الديات، باب: من قتل عبده أو مثَّل به، أيقاد منه؟، والنسائي (4736)، كتاب: القسامة، باب: القود من السيد للمولى، والترمذي (1414)، كتاب: الديات، باب: الرجل يقتل عبده، وابن ماجه (2663)، كتاب: الديات، باب: هل يقتل الحر بالعبد؟ عن سمرة بن جندب، وعندهم "عبده" بدل "عبداً".

[424]) راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 490)، التحرير والتنوير (2/ 140) وشرح صحيح البخارى لابن بطال (8/ 499).

(425) انظر [فتح الباري: 246/12، 260] . وراجع كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي الفضل بكر بن محمد بن العلاء القشيري.

قال الجصاص الحنفي: أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ اُقْتُصِرَ عَلَيْهِ لَكَانَ مَعْنَاهُ مَفْهُومًا مِنْ لَفْظِهِ وَاقْتَضَى ظَاهِرُهُ وُجُوبَ الْقِصَاصِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْقَتْلَى.

ويُرَدُّ على هذا أنه لا فائدة في التفصيل لو لم يكن مقصودا وأن الكلام بأواخره فالخاص يخصص العام لا محالة، وأنه لا محيص من اعتبار كونه تفصيلا وبيانا لأول الآية. [426]

قلتُ: والحق أن الحنفية أغفلوا بنية النص تماماً، لأنه إن نظرت إلى صدر الآية وتوهمتَ أنه مكتفٍ بنفسه، ترى ما بعده مفتقراً إليه، فلا يستقيم بناء قوله تعالى: {الحر بالحر والعبد بالعبد.... إلخ} إلا على البناء على صدر الآية قبلها لبيان موضوع هذا الحكم ابتداءً. فالسياق البنيوي مستقيم في ارتباط الآية بعضها ببعضٍ.

ثم وجدتُ ما قاله الكيا الهراسي الشافعي [427]:

ظن ظانُّون أن أول الكلام تامٌ في نفسه، وأن الخصوص بعده في قوله: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ) لا يمنع من التعلق بعموم أوله، وهذا غلط منهم، لأن الثاني ليس مستقلا دون البناء على الأول، إذ قول القائل: «الحر بالحر والعبد بالعبد» لا يفيد حكم القصاص إلا على وجه البناء على الأول، فإن الثاني ليس الأول، وتقديره: كتب عليكم القصاص وهو الحر بالحر قصاصا، والعبد بالعبد قصاصا، فوجب بناء الكلام عليه. انتهى.

وأما ثمرة هذه النقطة في تأويل الآية ما استدل به الأحناف أنَّ كون الحرِّ يُقتَل بالعبد والرجل بالمرأة فهذا يؤخذ من لفظ القصاص { كتب عليكم القصاص} ولا يعارضه مفهوم التفصيل { الحر بالحر والعبد بالعبد...} عندهم.

المسلك الثالث، وهو ما أرجحه.

وقال بعض المحققين: أن قوله تعالى { الحر بالحر} هو المقصود به مَن هو في (جنس الحرية) شمل (النوعين) الذكر والأنثى، أي يقتص للحر من حر مثله سواء في ذلك الذكر والأنثى، {والعبد بالعبد} شمل جنس العبيد الذكر والأنثى كذلك، { والأنثى بالأنثى} هو حكم جنس الأنثى، وخُصَّت الأنثى احترازاً بالخطاب لئلا يتوهم متوهمٌ أن صيغة التذكير في قوله: {الحر بالحر والعبد بالعبد} مُرادٌ بها خصوص الذكور، بل القصاص أيضاً بين الإناث، ولم يفصِّل (الحرة بالحرة، والأَمَة بالأمة) لفهم ذلك من التفصيل قبلها، إيجازاً بليغاً.

قيل: اللام في { الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى} لا تدل على الحصر، بل تدل على مشروعية القصاص بين المذكور، ألا ترى أن عموم: والأنثى بالأنثى تقتضي قصاص الحرة بالرقيقة؟ فلو كان قوله: الحر بالحر، والعبد بالعبد مانعا من ذلك لتصادم العمومان. [428] (أي عموم أن يقاص من الحر بالحر، والعبد بالعبد، وعموم أن تقاص أي أنثى من أي أنثى حتى الأنثى الحرة بالرقيقة، وهما متعارضان، فعلمنا بذلك أن اللام ليست بمعنى الحصر، ولكن بمعنى الجنس).

قال القاضي إسماعيل بن اسحق في كتابه "أحكام القرآن" : وهذه الآية نزلت في قبائل من العرب كانوا يتقاتلون فإذا كان فيهم العدد والمنعة فقُتل منهم امرأة قالوا : لا يُقتل بها إلا رجلاً ، وإذا قَتلوا رجلاً قالوا : لا نعطي به إلا امرأة أو عبداً ، يستضعفون من دونهم . وبالسند روى عن الشعبي قال نزلت في قبيلتين من قبائل

---

[426] راجع مشكورا أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 164).و التحرير والتنوير (2/ 138).

[427] علي بن محمد بن علي، المعروف بالكيا الهراسي (المتوفى: 504هـ) في كتابه أحكام القرآن (1/ 42).

(428) انظر البحر المحيط في التفسير (2/ 145)

العرب اقتتلتا ، فقالوا : نقتل بعبدنا فلان ، ونقتل بأمتنا فلانة بنت فلان ، فأنزل الله تبارك وتعالى : **{ الحر بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى}**الآية. انتهى.

(فقوله تعالى: {كُتِب عليكم القِصاص في القتلى } يتحمل معنى الجزاء على القتل بالقتل للقاتل، وتتحمل معنى التعادل والتماثل في ذلك الجزاء بما هو كالعِوض له والمِثل، وتتحمل معنى أنه لا يُقتَل غير القاتل ممن لا اشتراك له في قتل القتيل.

فأفاد قوله: {كُتِب عليكم القِصاص في القتلى } حق المؤاخذة بين المؤمنين في قتل القتلى فلا يذهب حقُّ قتيلٍ باطلا، ولا يُقتَل غير القاتل باطلا، وذلك إبطال لما كانوا عليه في الجاهلية من إهمال دم الوضيع إذا قتله الشريفُ، وإهمال حقِّ الضعيف إذا قتله القويُّ الذي يُخْشَى قومُه، ومن تحكُّمِهم بطلب قتل غير القاتل إذا قتل أحدٌ رجلا شريفا يطلبون قتلَ رجلٍ شريف مثله بحيث لا يقتلون القاتل إلا إذا كان يساوي المقتول في الشرف والمجد ، ويعتبرون قيمة الدماء متفاوتة بحسب تفاوت السؤدد والشرف، ويسمون ذلك التفاوت تكايلا من الكيل.

وقد ثبت بهذه الآية شرع القصاص في قتل العمد، وحكمة ذلك ردع أهل العدوان عند الإقدام على قتل الأنفس إذا علموا أن جزاءهم القتل، فإن الحياة أعز شيء على الإنسان فلا يعادل عقوبة القتل في الردع أي عقوبة أخرى، ومن حكمة ذلك تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم قال تعالى: **{وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً}** [الإسراء: 33] أي لئلا يتصدى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم لأن ذلك يفضي إلى صورة الحرب بين رهطين فيكثر فيه إتلاف الأنفس كما تقدم في الكلام على صدر الآية، ويأتي عند قوله تعالى: {ولكم في القصاص حياة} [البقرة: 179] .[429]

وهنا يمكن تلخيص معنى الآية أنها يُقصَد بها أحد المعنيين ، إما قولنا : من أن لا يُتَعَدَّى بالقصاص غيرَ القاتل والجاني ، فيؤخذ بالأنثى الذكر ، وبالعبد الحر ، وإما القول الآخر : وهو أن تكون الآية نزلت في قوم بأعيانهم خاصة أمر النبي ﷺ أن يجعل ديات قتلاهم قصاصاً بعضها من بعض . [430]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذين القولين ورجح الثاني منهما ، وهو أن المراد بالقصاص هنا مقاصة الديات بعضها ببعض في قوم بعينهم وقعت بينهم الفتنة . [431]

وقد تمسك الإمام القرطبي بمنطوق الآية ورأى أن مفهومها غير مُراد حيث قال أنها: جَاءَتْ مُبَيِّنَةً لِحُكْمِ النَّوْعِ إِذَا قَتَلَ نَوْعَهُ فَبَيَّنَتْ حُكْمَ الحر إذا قتل حرا، والعبد إذا قتل عبدا، والأنثى إذا قتلت أنثى، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَحَدِ النَّوْعَيْنِ إِذَا قَتَلَ الْآخَرَ، فَالْآيَةُ مُحْكَمَةٌ وَفِيهَا إِجْمَالٌ يُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ} [الْمَائِدَة: 45] الْآيَة انتهى.

وعلى هذا الوجه فالتقييد{الْحُرُّ بِالْحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأنثى بالأنثى} جاء لبيان عدم التفاضل في أفراد النوع، ولا مفهوم له فيما عدا ذلك من تفاضل الأنواع إثباتا ولا نفيا، فلا دلالة في الآية على ألا يقتل حر بعبد ولا أنثى

---

(429)التحرير والتنوير (2/ 136)

(430)[تفسير ابن جرير : 106/2] .

(431) انظر مجموع الفتاوى : 73/14، 74

بذكر ولا على عكس ذلك، وإن دليل المساواة بين الأنثى والذكر وعدم المساواة بين العبد والحر عند من نفى المساواة مُسْتَنْبَط من أدلة أخرى.

قال ابن عاشور:

ولأجل هذا الإشكال سألت العلامة الجد الوزير رحمه الله عن وجه مجيء هذه المقابلة المشعرة بألا يقتص من صنف إلا لقتل مماثله في الصفة فترك لي ورقة بخطه فيها ما يأتي:

الظاهر والله تعالى أعلم أن الآية {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...} (المائدة: 45) نزلت إعلاما بالحكم في بني إسرائيل تأنيسا وتمهيدا لحكم الشريعة الإسلامية، ولذلك تضمنت إناطة الحكم بلفظ النفس المتناول للذكر والأنثى الحر والعبد الصغير والكبير، ولم تتضمن حكما للعبيد ولا للإناث، وصدرت بقوله:{وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها}.

والآية الثانية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} (البقرة: 178) صُدِّرَتْ بِقَوْلِهِ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} وناط الحكم فيها بالحرية المتناولة للأصناف كلها ثم ذكر حكم العبيد والإناث ردا على من يزعم أنه لا يقتص لهم، وخَصَّص الأنثى بالأنثى للدلالة على أن عدمها معصوم، وذلك لأنه إذا اقتص لها من الأنثى ولم يقتص لها من الذكر صار الدم معصوما تارةً (أي بينها وبين الأنثى تقتلها)غير معصوم تارةً أخرى (إذا قتلها ذكرٌ)، وهو غير واردٌ أصلاً. والظاهر أن القيد هنا خرج مخرج الغالب، فإن الجاري في العرف أن الأنثى لا تقتل إلا أنثى، إذ لا يتقاتل الرجال والنساء في العادة، فذكر الأنثى بالأنثى خرج على اعتبار الغالب.

يعني أن الآية لم يُقصد منها إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من ترك القصاص لشرف أو لقلة اكتراث، فقصدت التسوية بقوله الحر بالحر والعبد بالعبد أي لا فضل لحر شريف على حر ضعيف ولا لعبيد السادة على عبيد العامة وقصدت من ذكر الأنثى إبطال ما كان عليه الجاهلية من عدم الاعتداد بجناية الأنثى واعتبارها غير مؤاخذة بجناياتها.

والخلاصة أن الآية في سورة البقرة لا يلتئم منها معنى سليم من الإشكال إلا معنى إرادة التسوية بين الأصناف لقصد إبطال عوائد الجاهلية. انتهى [432]

وأحسن ما قرأت في تفسير هذه الآية وأجمعه قول العلامة السعدي رحمه الله:

يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم {الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول، إذا طلب القصاص ويمكنُّه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية، ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بيَّن تفصيل ذلك فقال: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر، {وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى} والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله: "الأنثى بالأنثى "مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله:

---

[432] التحرير والتنوير (2/ 139) بتصرف يسير.

{الْقِصَاصُ} ما يدل على أنه ليس من العدل، أن يقتل الوالد بولده، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدا من الولد له.

وخرج من العموم أيضا، الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكرا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر، لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل {بِالْمَعْرُوفِ} من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه.

وعلى القاتل {أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} من غير مطل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق، بالأداء بالإحسان .

وفي قوله: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ} ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانا.

وفي قوله: {أَخِيهِ} دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوما منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ} أي: [ص:85] بعد العفو {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه، فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئا له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} أي: تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكَّر "الحياة "لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يحب من عباده، أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.

وقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين. (433)

الدية والعفو وبناء مجتمع التسامح.

قال تعالى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}

عن ابن عباس: {فمن عفي له من أخيه شيء} يقول: فمن تُرِكَ له من أخيه شيء (434)

وأصل العفو في اللغة: الترك...ومعناه هنا إما ترك القصاص أو ترك القصاص والدية....

ولفظ **{من أخيه}** يوحي بترقيق القلوب بالتذكير بأخوة النسب لآدم، ونسب الدين وذلك لتمهيد قلوبهم لقبول العفو والأداء بإحسان والاتباع بالمعروف. واشتق منها العلماء الرد على الخوارج، حيث لم يرفع صفة أخوة الإسلام عن القاتل حتى مع ارتكابه كبيرة القتل.

ولفظ **{شيء}** اسم للنكرة. و**{من}** للتقليل، تقديرها (فمن تُرك أو عُفى له من أخيه شيئاً من العفو...)،

واستدلوا بها أنه إذا رضي بالدية بعضُ أولياء الدم دون بعضٍ، أُخذت الدية، وحُفظت نفس القاتل.

وجاء التعبير بلفظ (شيء) منكرا لإفادة التقليل. أى: فمن عفى له من أخيه ما يسمى شيئا من العفو والتجاوز ولو أقل قليل، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية، وذلك بأن يعفو بعض أولياء الدم، لأن القصاص لا يتجزأ.

وفي ذلك تحبيبٌ من الشارع الحكيم لولى الدم، في العفو وفي قبول الدية، إذ العفو أقرب إلى صفاء القلوب، وتجميع النفوس على الإخاء والتعاطف والتسامح. وفيه- أيضا- إبطالٌ لما كان عليه أهل الجاهلية من التعيير من قبول أخذ الصلح في قتل العمد، وعدَّهم ذلك لونا من بيع دم المقتول بثمنٍ بخس. قال بعضهم يحرِّض قومه على الثأر.

فلا تأخذوا عقْلا من القومِ إننى ... أرى العارَ يبقى والمعاقلُ تذهبُ.

يقول لا تأخذوا دية (يسمونها عقلا لأنهم كانوا يأخذون دياتهم من الإبل) من القوم إنني أرى العار يظل والمال يذهب.

وقال شاعرٌ آخر يذْكر قوما لم يقبلوا الصلح عن قتيلٍ لهم:

فلو أنَّ حيّاً يَقْبل المالَ فِديةً ... لسُقْنا لهم سَيِّبا من المال مُفْعَما.

ولكنْ أَبَى قومٌ أُصيب أخوهمُ ... رضا العارِ فاختاروا على اللبنِ الدما.

أي أنهم اختاروا الدم والقتال على أن يأخذوا إبلا على سبيل الدية تنتج لهم لبنا.

قال تعالى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}

يُرِيدُ فَمَنْ عَفَا عَنِ الدَّمِ، فَلْيَتَّبِعْ بِالدِّيَةِ اتِّبَاعًا بِالْمَعْرُوفِ، أَيْ: يُطَالِبُ مُطَالَبَةً جَمِيلَةً، لَا يُرْهِقُ الْمَطْلُوبَ، وَلْيُؤَدِّ الْمُطَالَبُ الْمَطْلُوبَ، أَدَاءً بِإِحْسَانٍ، لَا مَطْلَ فِيهِ وَلَا دِفَاعَ عَنِ الْوَقْتِ.

---

(433)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 84).

(434

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَزَّ: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} يَعْنِي تَخْفِيفًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مطالبين به في شرعهم، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِوَلِيٍّ إِلَّا أَنْ يَقْتَصَّ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَزَّ: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ} أَيْ: بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ فَقَتَلَ. {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. قَالُوا: يُقْتَلُ وَلَا تُؤْخَذُ مِنْهُ الدِّيَةُ. [435]

وهو أشبه بالمعنى، وذلك لوصف العذاب الأليم ومن أجل حفظ أصل وروح التشريع في الآية...

واختلف الفقهاء فيمن قَتَلَ بعد أخذ الدية، فقال مالك والشافعي، وكثير من العلماء هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة، وقال آخرون عذابه أن يُقتَل ولا يمكِّن الحاكمُ الوليَ من العفو.

وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام.

أقول: وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع في تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة. إذ جعل القصاص حقا لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم في ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل.

وجعل الدية عوضا عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم، وهذا عين الرحمة واليسر.

وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن في حياتها إذ العدالة هي التي تكسر شره النفوس، وتغسل غِلَّ الصدور، وتردع الجاني عن التمادي في الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصا عادلا.

والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتوادد بعد التعادي، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو. فلله هذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته.

ومن البلاغة وجميل الدلالة أيضا أنْ صُدِّرت الآية بخطاب {الَّذِينَ آمَنُوا} تقويةً لداعية إنفاذ حكم القصاص الذي شرعه الخبير بنفوس خلقه، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التي شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس، ولسد أبواب الفتن التي تحل عُرا الألفة والمودة بينهم.

وقد وجَّه- سبحانه- الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم لإشعارهم بأن عليهم جانبا من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التي شرعها الله.

وإذا لم يقيموها بالطريقة التي بيَّنتْها شريعته، ولإشعارهم كذلك بأنهم مُطالَبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل. وذلك بتسليم الجاني إلى المكلفين بحفظ الأمن، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.

ومن بلاغة القرآن في صياغة أحكامه ما ذكره العلامة محمد عبد الله دراز في كتابه الرائع (النبأ العظيم):

وانظر الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}.

وترقيق العاطفة بين الواترين أصحاب الجناية والموتورين المجني عليهم في قوله: {أَخِيهِ} وقوله: {بِالْمَعْرُوفِ} وقوله: {بِإِحْسَانٍ}.

والامتنان في قوله: {تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ}. والتهديد في ختام الآية.

ثم انظر في أي شأنٍ يتكلم؟ أليس في فريضة مفصَّلة وفي مسألةٍ دموية؟ وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار، ففي أي كتابٍ من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟ بل في أي لسانٍ تجد هذا المِزاج العجيب؟ تالله لو أن أحدًا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه، لجاء بالأضداد المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رُقعًا ممزعة. انتهى.

---

[435] تأويل مختلف الحديث (ص: 107)

مسألة: تؤخَذ الدية من قاتل العمد بشرط رضاه أم بغير هذا الشرط؟

اختلف العلماء في أخذ الدية من قاتل العمد، فقالت طائفة: ولى المقتول له الاختيار؛ إن شاء اقتص، وإن شاء أخذ الدية، وإن لم يرضَ القاتل. رُوى هذا عن سعيد بن المسيب وعطاء والحسن، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال الليث والأوزاعي، والشافعي وأحمد، وإسحاق وأبو ثور.

وقال آخرون: ليس لولى المقتول عمدًا إلا القصاص، ولا يأخذ الدية إلا أن يرضى القاتل، رواه ابن القاسم عن مالك، وهو المشهور عنه، وبه قال الثورى والكوفيون.

وحجة القول الأول: قوله تعالى: {فمن عفى له من أخيه شيء} (البقرة: 178) أى ترك له دمه، ورضى منه بالدية {فاتباع بالمعروف} (البقرة: 178) ، أى فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف فى المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء بإحسان{ ذلك تخفيف من ربكم} (البقرة: 178) ومعناه: أن مَن كان قبلنا لم يفرض عليهم غير النفس بالنفس كما قال تعالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس} (المائدة: 45) فتفضل الله على هذه الأمة بالتخفيف والدية إذا رضى بها ولىُّ الدم. واحتجوا أيضًا بقوله (ﷺ) : (مَنْ قُتِلَ لهُ قَتيلٌ فهوَ بخيرِ النَّظَريْنِ ، إمّا أنْ يُقادَ ، وإمّا أنْ يُفدَي) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهذا نصٌ قاطع في أنه جعل أخذ الدية أو القود إلى أولياء الدم. ومعنى الحديث: أن الذي يُقتل ظلماً فإن أولياءه بالخيار، إما أن يأخذوا بالدية وإما أن يقتلوا القاتل، إلا إذا عفوا عفواً مطلقاً بدون دية وبدون قصاص. وأيضًا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه، لأن عليه فرضًا إحياء نفسه، وقد قال تعالى: {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا} (النساء: 29).

وحجة أهل المقالة الثانية: الحديث الذي في صحيح مسلم والبخاري- واللفظ له- قال:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ، أَنَّ أَنَسًا، حَدَّثَهُمْ: أَنَّ الرُّبَيِّعَ وَهِيَ ابْنَةُ النَّضْرِ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ (ثنية= مفرد ثنايا وهي مقدم الأسنان) ، فَطَلَبُوا الأَرْشَ (أي أهل الجارية طلبوا الأرش وهو دية الجراحة أو الأطراف). ، وَطَلَبُوا العَفْوَ (أي أنساً- رضى الله عنه- وقومه طلبوا من أهل الجارية النزول عن حقهم وعدم أخذ الدية أو غيرها)، فَأَبَوْا (أهل الجارية)، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهُمْ بِالقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ القِصَاصُ» (حكم كتاب الله تعالى القصاص وهو أن تكسر السن مقابل السن)، فَرَضِيَ القَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ (أى لصدَّقه وحقق رغبته لما يعلم من صدقه وإخلاصه)» زَادَ الفَزَارِيُّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، فَرَضِيَ القَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ.

قال الطحاوي الحنفي ما ملخصه: فلما حكم رسول الله -ﷺ- بالقصاص، ولم يخير المجني عليها بين القصاص وأخذ الدية؛ ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وسنة رسوله في العمد هو القصاص؛ ولم يجعل للمجني عليه الخيار بين القصاص والعفو [436] ، ووجب أن يعطف عليه حديث أبى هريرة، ويجعل قول رسول الله -ﷺ- فيهما فهو بالخيار بين أن يعفو، أو يقتص، أو يأخذ الدية على الرضا من الجاني بغُرْم الدية حتى تتفق معانى الآثار.

---

[436] بناء على ما سيق في الهامش السابق سقط استدلال الطحاوي كله. وبقيت أدلة القول الأول قويةً لا تجد ردا مع اعتمادها على نص الآية.

قال: وأما قولهم: إن عليه فرضًا إحياء نفسه، فإنا رأيناهم قد أجمعوا أن الولي لو قال للقاتل: قد رضيت أن آخذ دارك هذه على ألا أقتلك؛ أن الواجب على القاتل فيما بينه وبين الله تسليم ذلك وحقن دم نفسه، فإن أبى لم يجبره عليها، ولم يؤخذ منه كرهًا، ويُدفَع إلى الولي، فكذلك الدية لا يُجْبَر عليها، ولا تؤخَذ منه كرهًا. (437)

قلتُ- جامعه: وما ثبت عندي هو ضعف استدلال الطحاوي- رحمه الله- على مذهبه و يكون الحديث الذي احتج به فيه الحجة على مخالفته لنص الحديث أن أولياء الجارية المعتَدى عليها رفضوا الأرش ورفضوا العفو فصار الأمر إلى القصاص، وليس الأمر بحكم رسول الله ابتداءً- كما توهم، وقد نص الحديث على قبولهم الأرش بعدُ باختيارهم، فثبت لهم الخيار وسقط استدلال الطحاوي كله. وبقيت أدلة القول الأول قويةً لا تجد ردا مع اعتمادها على نص الآية.

******

"ولكم في القصاص حياةٌ".

يقول الله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}** (البقرة: 179) .

1- بدأ الله تعالى الآية بقوله {وَلَكُمْ} (البقرة: 179)، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان، وتلتمس في كمالها نظام النفس، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة؛ فإذا لم يكن هذا متحققًا في الناس فلا حياة في القصاص، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية: القتل أنفى للقتل، أي اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحدًا، فهذا هو الذي يبقيكم أحياء وينفي عنكم القتل؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة.

2- قال: {فِي الْقِصَاصِ} (البقرة: 179) ولم يقل في القتل، فقيده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومؤاخذة، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قل أو كثر.

3- تفيد هذه الكلمة "القصاص" بصيغتها "صيغة المفاعلة" ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالًا؛ لأن الاقتصاص شريعة الفرد، والقصاص شريعة المجتمع.

4- من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله -تعالى- سمى بها قتل القاتل، فلم يسمه قتلًا كما فعلت الكلمة العربية؛ لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء، فنزه -سبحانه- العدل الشرعي حتى عن شبهه بلفظ الجريمة؛ وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير.

5- ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شرًّا من قتل المقتول؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة، على حين أن أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله؛ فعبرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة.

---

(437) شرح صحيح البخارى لابن بطال (8/ 506)

6- ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك؛ فهي بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها؛ وبذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة؛ فالآية بلفظة القصاص تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها، والمثل بلفظة القتل يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها.

7- ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس.

8- جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة؛ إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها.

9- جاءت كلمة "حياة" منونة، لتدل على أن ههنا ليست بعينها مقيدة باصطلاح معين؛ فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية، وقد يكون فيه حياة سياسية، وقد تكون الحياة أدبية، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة.

10- إن لفظ "حياة" هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير "بنفي القتل"؛ لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة، أي ترك الروح في الجسم، فلا يحتمل شيئًا من المعاني السامية، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة "بنفي القتل" تعبير غليظ عامي يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير، كالذي يقول لك: إن الحرارة هي نفي البرودة.

11- جعل نتيجة القتل حياة تعبير من أعجب ما في الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالًا، بل يتحول إلى تعبير علمي يسمو إلى الغاية من الدقة، كأنه يقول بلسان العلم: في نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة.

12- فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله: {يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} (البقرة: 179) [438]

فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه؛ إذ هو موجه للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني اللب، ولكنه في حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذًا في التركيب العصبي، أو وراثة محتومة، أو حالة نفسية قاهرة، إلى ما يجري هذا المجرى؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة؛ لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب، وهي تحول القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللب والبصيرة، وفلسفة اللب هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا.

[438] (من وحي القلم) للأديب البارع مصطفى صادق الرافعي رزقه الله الجنة (3/ 364) وهو بحث بديع يرد فيه الرافعي على أحد السفهاء الذي ادعى أن كلمة العرب (القتل أنْفَى للقتل). وانظر مثل ذلك كتبه العلامة السيوطي في كتابه الماتع (الاتقان في علوم القرآن).

13- وانتهت الآية بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: 179)، وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن: يا أولي الألباب، إنه برهان الحياة في حكمة القصاص تسوقه لكم، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد.

وبعد فإذا كان في الآية الكريمة -على ما رأيت- ثلاث عشرة وجهًا من وجوه البيان المعجز، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية (القتل أنفى أو أوقى للقتل) ثلاث عشرة مرة. [439]

وفي قوله: **{يا أُولِي الْأَلْبابِ}** تنبيهٌ بحرف النداء على التأمل في حكمة القصاص.

والْأَلْبابِ: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام، أو العقل الذكي الذي يستبين الحقائق بسرعة وفطنة، ويستخرج لطائف المعاني من مكانها ببراعة وحسن تصرف.

وخص النداء بأولى الألباب مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة ويقدرون حكم التشريع قدرها.

وفي هذا النداء تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع في تثبيت دعائم الأمن، يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة، ولا يزال الناس يشاهدون في كل عصر ما يثيره القتل في صدور أولياء القتلى من أحقاد طاغية، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتمادت بهم في تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد. انتهى [440]

يقول العلامة ابن قيم الجوزية في معنى تذييل الآية: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** (البقرة: 179): فَلَوْلَا الْقِصَاصُ لَفَسَدَ الْعَالَمُ، وَأَهْلَكَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ابْتِدَاءً وَاسْتِيفَاءً، فَكَانَ فِي الْقِصَاصِ دَفْعًا لِمَفْسَدَةِ التَّجَرُّؤِ عَلَى الدِّمَاءِ بِالْجِنَايَةِ وَبِالِاسْتِيفَاءِ.

وَقَدْ قَالَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا: " الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ ".

وَبِسَفْكِ الدِّمَاءِ تُحْقَنُ الدِّمَاءُ؛ فَلَمْ تُغْسَلْ النَّجَاسَةُ بِالنَّجَاسَةِ، بَلْ الْجِنَايَةُ نَجَاسَةٌ وَالْقِصَاصُ طُهْرَةٌ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مَوْتِ الْقَاتِلِ وَمَنْ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ، فَمَوْتُهُ بِالسَّيْفِ أَنْفَعُ لَهُ فِي عَاجِلَتِهِ وَآجِلَتِهِ، وَالْمَوْتُ بِهِ أَسْرَعُ الْمَوْتَاتِ وَأَوْحَاهَا وَأَقَلُّهَا أَلَمًا، فَمَوْتُهُ بِهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ وَلِأَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ وَلِعُمُومِ النَّاسِ. انتهى. [441]

---

(440)من التفسير الوسيط لسيد طنطاوي.

(441)إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 79)

الوصية والميراث... وهل وقع النسخ فيها؟

قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة 180).

حكم الوصية: فرضٌ أو ندبٌ أو مباح؟

وقوله- تعالى-: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ} وجب عليكم، أو شُرِعَ لكم، ونُدب لكم. ومنها نأتي إلى حكم الإيصاء والوصية.

يقول الإمام أبو الليث السمرقندي: وقال بعضهم: الوصية واجبة على كل مسلم، لأن الله تعالى قال: كُتِبَ عَلَيْكُمْ، أي فرض عليكم الوصية. وروي عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا حَقُّ امرئ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَةً وَعِنْدَهُ مَالٌ يُوَصِي بِهِ، إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَه». هو في الصحيحين بنحوه.[442]

وقال بعضهم: هي مباحة وليست بواجبة. وقد رُوي عن الشعبي أنه قال: الوصية ليست بواجبة فمن شاء أوصى ومن شاء لم يوصِ. وقال إبراهيم النخعي: مات رسول الله ﷺ ولم يوص، وقد أوصى أبو بكر- رضي الله عنه- فإن أوصى فحسن، وإن لم يوص فليس عليه شيء.

وقال بعضهم- وفصَّل: إن كان عليه حجٌ أو كفارةُ أيِّ شيءٍ من الكفارات فالوصية واجبة، وإن لم يكن عليه شيء من الواجبات فهو بالخيار إن شاء أوصى وإن شاء لم يوص. وبهذا القول نأخذ.[443]

وقوله: «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ»، فليس المراد منه معاينة الموت، لأن في ذلك الوقت يكون عاجزا عن الإيصاء وربما المراد حضور أمارة الموت، وهو المرض المخوف وذلك ظاهر في اللغة، يُقال فيمن يُخشى عليه الموت: إنه قد حضره الموت، كما يقال لمن قارب البلد إنه قد وصل، وقد فُسِّر بحضور أسبابه، وظهور أماراته، من نحو العلل المخوفة والهرم البالغ. وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبَّب، ومن ذلك قول شاعرهم:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مطيَّتَهُ ... سائلْ بنى أسدٍ ما هذه الصوتُ.

وقلْ لهم بادروا بالعذرِ والتمسوا ... قولا يبرئكم إني أنا الموتُ.

يقصد أنه سبب هلاكهم لا أنه الموت على الحقيقة.

قلتُ: ربما اعترِض على الشاهد هنا أنه من الشاعر على سبيل المبالغة، فيكون في مكانه مجازاً وليس من ظاهر اللغة، ويُقال إن المصير إلى نص الآية من معنى حضور الموت أولى. ولكنَّ يُرَدَّ بأن العدول عنه إلى الظاهر الذي قررناه بالقرينة المعنوية والعقلية أولى. لأن الذي يحضره الموت حقيقةً لا يستطيع الإيصاء فتبين أن المقصود حضور مقدماته التي هي كحضوره.[444]

---

(442) عَن مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله ﷺ قَالَ: مَا حق امرئٍ مُسلم لَهُ شيءٌ يُوصي فِيهِ، يبيت لَيْلَتَيْنِ إِلَّا ووصيته مكتوبةٌ عِنْده. أخرجه البُخَارِيّ من هَذِه الطَّرِيق هَكَذَا، وَأخرجه تَعْلِيقا فَقَالَ: تَابعه مُحَمَّد بن مُسلم عَن ابْن عمر عَن النَّبِي ﷺ.

وَأخرجه مُسلم من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن سَالم عَن أَبِيه بِنَحْوِهِ، إِلَّا أَنه قَالَ:

" يبيت ثَلَاث ليالٍ "، قَالَ ابْن عمر: مَا مرت عَليّ لَيْلَة مُنْذُ سَمِعت رَسُول الله ﷺ قَالَ ذَلِك إِلَّا وَعِنْدِي وصيتي. انظر الجمع بين الصحيحين (2/ 267)

(443) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (المتوفى: 373هـ- تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 120)

(444)القرينة المعنوية: وهي التي يحكم بدلالتها المعنى وصحته. نحو قوله تعالى: (وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصبا) الكهف 79 أي كل سفينة صالحة، ولولا هذا التقدير لا يصح المعنى. فإن عيبها الذي صنعه الخضر- في القصة القرآنية- لا يخرجها عن كونها سفينة.

أَمَّا قَوْلُهُ: {إِنْ تَرَكَ خَيْراً} هل هو المال القليل أو الكثير؟

فالخير في القرآن على وجوه، أحدها: المال كقوله تعالى: {إِنْ تَرَكَ خَيْراً}، وقوله: {مآ أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ} (البقرة: 215) ، {وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ} (البقرة: 272) أي المال.

والثاني: الإيمان كقوله تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً } (الأنفال: 23) أي إيماناً، وكقوله تعالى: {وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً}(هود: 31) .

والثالث: الفضل والأفضل كقوله تعالى: {وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} (المؤمنون: 109 و 118) .

والرابع: العافية كقوله: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ} (الأنعام: 17)، { وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ} (يونس: 107) .

والخامس: الأجر كقوله:{ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ} (الحج: 36) أي أجر. [445]

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الخير في هذه الآية هو الْمَالُ. وإذا عرفت فإن هاهنا قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فِي الآية لَا فَرْقَ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ من المال، وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ، فَالْوَصِيَّةُ وَاجِبَةٌ فِي الْكُلِّ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِوَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْوَصِيَّةَ فِيمَا إِذَا تَرَكَ خَيْرًا، وَالْمَالُ الْقَلِيلُ خَيْرٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْمَعْقُولُ، أَمَّا الْقُرْآنُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {رب إني لما أنزلت إلى لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (الْقَصَصِ: 24) فلا يمكن حمل دعاوه على طلب المال الكثير وإنما قصد أنه محتاج لأى مال أو خير، وَأَمَّا الْمَعْقُولُ فَهُوَ أَنَّ الْخَيْرَ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَالْمَالُ الْقَلِيلُ كَذَلِكَ فَيَكُونُ خَيْرًا.

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اعْتَبَرَ أَحْكَامَ الْمَوَارِيثِ فِيمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ قَلَّ أَمْ كَثُرَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً} (النِّسَاءِ: 7) فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الْوَصِيَّةِ. قلتُ: وفي هذه الحجة نظر.

ورجحه الإمام ابن جرير الطبري لأنه ظاهر اللفظ، وقال: وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: "كُتبَ عَليكم إذا حَضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا الوصية" ما قال الزهري. لأن قليلَ المال وكثيره يقع عليه "خيرٌ"، ولم يحدّ الله ذلك بحدٍّ، ولا خصَّ منه شيئًا فيجوز أن يحال ظاهر إلى باطن. انتهى.

قلتُ: وهو كما ترى ترجيح من جانب اللغة وليس من جانب مقصود اللفظ في نص الآية؛ أي المعنى الإضافي الذي تكتسبه الألفاظ في سياق الآية والترتيب المنطقي...

قال ابن العربي (في أحكام القرآن): وذكر المفسرون و أهل الأحكام أقوالًا كلها دعاوى لا برهان عليها ، والصحيح أن الحكم لم يختلف ولا يختلف بقلة المال وكثرته ، بل يوصي من القليل قليلاً ، ومن الكثير كثيراً ، وحيث ورد ذكر المال في القرآن فهو يسمى بالخير ، وكذلك في الحديث .انتهى

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّ لَفْظَ الْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْتَصٌّ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ أَنَّ مَنْ تَرَكَ دِرْهَمًا لَا يُقَالُ: إِنَّهُ تَرَكَ خَيْرًا، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو مَالٍ، فَإِنَّمَا يُرَادُ تَعْظِيمُ مَالِهِ وَمُجَاوَزَتُهُ حَدَّ أَهْلِ الْحَاجَةِ، وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْمَالِ قَدْ يَقَعُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى كُلِّ مَا يَتَمَوَّلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ.

ونحو قوله : { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} النساء 36 ، فإنه لا يصح عطف (بالوالدين) على (ولا تشركوا به شيئا) . لأن المعنى لا يصح ، فلابد من تقدير ما يقتضيه المعنى نحو (وأحسنوا بالوالدين) أو (أوصيكم بالوالدين) .

[445] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 119)

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: فُلَانٌ فِي نِعْمَةٍ، وَفِي رَفَاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ. فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ تَكْثِيرُ النِّعْمَةِ، وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يَنْفَكُّ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَهَذَا بَابٌ مِنَ الْمَجَازِ مَشْهُورٌ وَهُوَ نَفْيُ الِاسْمِ عَنِ الشَّيْءِ لِنَقْصِهِ، كَمَا قَدْ رُوِيَ مِنْ قَوْلِهِ: «لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ» أي لا صلاة كاملة.

وَقَوْلِهِ: «لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ من بات شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ» أي لا يكتمل إيمانه. وَنَحْوِ هَذَا.

ولَوْ كَانَتِ الْوَصِيَّةُ وَاجِبَةً فِي كُلِّ مَا تُرِكَ، سَوَاءٌ كَانَ قَلِيلًا، أَوْ كَثِيرًا، لَمَا كَانَ التَّقْيِيدُ بِقَوْلِهِ: {إِنْ تَرَكَ خَيْراً} كَلَامًا مُفِيدًا، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا بُدَّ وَأَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا مَا، قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، فيصير القيد بالمال ولو قلَّ لا معنى له، وحاشا القرآن عن ذلك. [446]

قلتُ- الباحث: وفي هذه الحجة الأخيرة غنىً عما سبقها، لأنها ترجح تأويل الخير بالمال الكثير أو ما جاوز حد القلة بقرينتين، الأولى القرينة المعنوية العقلية، والثانية قرينة السياق. وبهذا التأويل جرى فهم السلف الصالح، فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى مَوْلًى لَهُمْ فِي الْمَوْتِ، وَلَهُ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ المولى: أَوَلَا أُوصِي، قَالَ رضى الله عنه: لَا ،إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ تَرَكَ خَيْراً}، وَلَيْسَ لَكَ كَثِيرُ مَالٍ،

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -أَنَّ رَجُلًا قال لها: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوصِيَ، قَالَتْ: كَمْ مَالُكَ؟ قَالَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، قَالَتْ: كَمْ عِيَالُكَ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ قَالَتْ: قَالَ اللَّهُ: { إِنْ تَرَكَ خَيْراً} وَإِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يَسِيرٌ فَاتْرُكْهُ لِعِيَالِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ.

والصحيح عندي: أَنَّ المال الذي تجب فيه الوصية غير مقدَّر بمقدارٍ معين. بل يختلف ذلك بِاخْتِلَافِ حَالِ الرِّجَالِ، لِأَنَّ بِمِقْدَارٍ مِنَ الْمَالِ يُوصَفُ الْمَرْءُ بِأَنَّهُ غَنِيٌّ، وَبِذَلِكَ الْقَدْرِ لَا يُوصَفُ غَيْرُهُ بِالْغِنَى لِأَجْلِ كَثْرَةِ الْعِيَالِ وَكَثْرَةِ النَّفَقَةِ. كما في فهم عائشة عليها السلام، الذي نقلته.

قال الراغب: إن المال كما يكون خيرا قد يكون شراً، لكن جعل الله تعالى ههنا خيراً تنبيهاً على أن الوصية يستحب في المال الطيب دون الخبيث والمغصوب، فإن ذلك يجب رده إلي أربابه. [447] وهو منه نظرٌ دقيقٌ- رحمه الله.

ومن بديع بلاغة القرآن التفريق الدقيق بين استخدام حرفيْ الشرط (إذا) و(إنْ) في جملةٍ واحدةٍ. فعلماء اللغة وجدوا باستقراء لغة العرب أنَّ (إذا) حرف شرطٍ يُستعمل في معنى التحقيق، بينما(إنْ) حرف شرطٍ يفيد الشك والاحتمال، ونجد هنا استعمال (إذا) مع حضور الموت وهو مُحقَّقٌ واقعٌ لا محالةَ في حق كل حى، واستعمال (إنْ) التي تفيد الاحتمال مع وجود المال، وقد لا يترك المرء حال موته مالاً...حقاً إنه قرآنٌ عربيٌ بليغٌ دقيق.

******

من فقه الآية.

قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: "كُتب عليكم"، فُرض عليكم، أيها المؤمنون، الوصية {إذا حضر أحدكم الموتُ إن تَرَك خَيرًا} والخير: المال- للوالدين والأقربين الذين لا يرثونه، {بالمعروف}: وهو مَا أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمّد الموصي ظُلم وَرَثته {حقًّا على المتقين} يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به.

والدلالة على ذلك قول الله تعالى ذكره: {كُتبَ عليكم إذا حَضر أحدكم الموتُ إن تَرَك خيرًا الوصيَّةُ للوالدين والأقربين}، فأعلم أنه قد كتبه علينا وفرَضه، كما قال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} سورة البقرة: 183)، ولا خلاف

[446] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 231)

[447] تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 382)

بين الجميع أن تارك الصيام وهو عليه قادر، مضيع بتركه فرضًا لله عليه. فكذلك هو بترك الوصية لوالديه وأقربيه ولهُ ما يوصي لهم فيه، مُضِيعٌ فَرْضَ الله عز وجل.

فإن قال: فإنك قد علمت أن جماعة من أهل العلم قالوا: الوصيةُ للوالدين والأقربين منسوخةٌ بآية الميراث؟

قيل له: وخالفهم جماعةٌ غيرهم فقالوا: هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجب التسليم لها، إذ كان غير مستحيل اجتماعُ حكمُ هذه الآية وحكمُ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحةٍ، بغير مدافعةِ حُكْمِ إحداهما حُكمَ الأخرى - وكان الناسخ والمنسوخ هما المعنيان اللذان لا يجوز اجتماع حكمهما على صحةٍ في حالةٍ واحدةٍ، لنفي أحدهما صَاحبه.. انتهى [448]

قال القرطبي في تفسيره: اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة أو محكمة، فقيل: هي محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبديْن، وفي القرابة غير الورثة، قاله الضحاك وطاوس والحسن، واختاره الطبري. وعن الزهري أن الوصية واجبةٌ فيما قل أو كثر. وقال ابن المنذر: أجمع كل من يُحفَظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة. ا.هـ.

وقيل : بل هي منسوخة. قال ابن عباس والحسن أيضا وقتادة: الآيةُ عامةٌ، وتقرَّر الحكمُ بها بُرْهةً من الدهر، ونُسِخ منها كل من كان يرث بآية الفرائض. وقد قيل: إن آية الفرائض (المواريث في سورة النساء) لم تستقل بنسخها بل بضميمةٍ أخرى، وهي قوله عليه السلام: (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه، فلا وصيةَ لوارثٍ). رواه أبو أمامة، وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. وهو عند أبي داود.

وجاء في معالم السنن للإمام الخطابي (4/ 85):

قوله: " أُعْطِى كل ذي حق حقه" إشارة إلى آية المواريث وكانت الوصية قبل نزول الآية واجبة للأقربين وهو قوله تعالى {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ...} (البقرة: 180) ثم نسخت بآية الميراث.

وإنما تبطل الوصية للوارث في قول أكثر أهل العلم من أجل حقوق سائر الورثة، فإذا أجازوها (أي الورثة) جازت كما إذا أجازوا الزيادة على الثلث للأجنبي جاز. وذهب بعضهم إلى أن الوصية للوارث لا تجوز بحالٍ، وإن أجازها سائر الورثة لأن المنع منها إنما هو حقُّ الشرع فلو جوزناها لكنا قد استعملنا الحكم المنسوخ وذلك غير جائز كما أن الوصية للقاتل غير جائزة وإن أجازها الورثة. انتهى.

وفي البخاري: عن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَنَسَخَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ.

قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز. قال ابن المنذر: وقد روى عن النبي (ﷺ) مثل ما اتُفِق عليه من ذلك، فعن أبي أمامة الباهلي يقول: (خطبنا النبي -ﷺ- فى حجة الوداع فقال: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث..) وذكر الحديث. [449]

---

[448] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 384) باختصار.

[449] نقلا عن شرح صحيح البخارى لابن بطال (8/ 152)

فعلى رأى بعض العلماء كان نسخ هذه الآية- في سورة البقرة- في حق الوارث بالسنة الثابتة لا بآية المواريث، ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المال عن المورث بالوصية، وبالميراث إن لم يوصِ، أو ما بقي بعد الوصية ، لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع.

وذلك كما قال صاحب الكشاف: وقيل: الآيةُ لم تُنسَخ، والوارث يُجمَع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين. ا.هـ.

وليس في إيجاب الميراث للورثة ما ينافي جواز الوصية لهم، لإمكان أن يجتمع الحقان للورثة بالطريقين، وإنما ينسخ الشيء ما ينافيه، والله تعالى لما جعل الميراث بعد الوصية فمن الذي يمنع من أن يعطي الوارث قسطه من الوصية، ثم يعطى الميراث بعدها؟.ا.هـ. [450]

وقوله تعالى: {بِالْمَعْرُوفِ} أي بالعدل، وهو ألا يوصى للغنى ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث.[451]

قال القرطبي: والشافعي وإن كان منع من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء.

ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحادا لكن قد انضم إليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث. فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسنة، وأنها مستند المجمعين. والله أعلم. ا.هـ.

قلتُ- الباحث: وأولى من دعوى النسخ أن يُقال أن السنة ممثلةً في حديث " لا وصية لوارث" إنما جاءت بيانا وتخصيصاً لمعنى الآيتين كليهما (آية الوصية في سورة البقرة، وآية المواريث في سورة النساء)، ولم تأتي بمعنى النسخ، وخصوصا أن معنى النسخ عند السلف ربما تعدى إلى وصف البيان والتخصيص وغيره- كما أسلفنا في تفسيرنا هذا- فنجد أن آية الوصية تم تخصيصها بمَن لا يرث ، وآية المواريث بيَّنت مَن يرث، وماذا يرث. فلا تعارض بإذن الله- بين الآيات أو بينها والسنة. والجمع بينهم جميعا بالعمل –بالتأكيد- مقدمٌ على ما سواه.

وقد حمل ابن كثير ماروي عن طاوس وغيره من القول بالنسخ على أنه ليس نسخاً بالمعنى الاصطلاحي المتأخر للنسخ ، حيث قال : ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر ؛ لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت ، فأما من يقول : إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء . (انظر تفسير ابن كثير).

ونقل القرطبي مما يؤيد هذا : قال ابن عباس والحسن: نُسِخَت الوصية للوالدين بالفرض في سورة" النساء" وثبتت للأقربين الذين لا يرثون. وهو مذهب الشافعي وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم.

وفي البخاري عن ابن عباس قال: كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

---

(450) أحكام القرآن للكيا الهراسي (1/ 58)

451) راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 224)

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد: الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندبا، ونحو هذا قول مالك رحمه الله، وذكره النحاس عن الشعبي والنخعي. انتهى.[452]

أقول – الباحث: فأما نسخ الآية بالحديث الشريف الوارد ههنا فإن فيه نظر، فالحديث هنا حديث آحاد ظني الثبوت، حتى وإن انضم إليه الإجماع فلا يقوى أن يوقف العمل بآيةٍ من كتاب الله تعالى قطعية الدلالة، وَهَذَا قَوْلُ كُلِّ مَنْ لَا يُجِيزُ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ وَقَدْ قَالَ لَا يُنْسَخُ الْقُرْآنُ إِلَّا بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ وَأَكْثَرِ الْمَالِكِيِّينَ وَدَاوُدَ وَسَمَّوُا السُّنَّةَ بَيَانًا لَا نَسْخًا.

وَأَمَّا الْكُوفِيُّونَ الَّذِينَ يُجِيزُونَ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ وَقَالُوا كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تعالى، ولهم في ذلك استدلالات لكلا الفريقين ليس هذا موضعها، وأدين لله بالرأى الأول.

ثم إن ادعاء الإجماع على نسخ الوصية الواردة في الآية مطلقاً بآية المواريث ههنا ساقط لما يأتي من خلاف السلف في فهم الآية كما نقلنا، وفي العمل بها جميعها أو ببعضها، وإن ثبت الإجماع على تخصيص الورثة بآية المواريث فصحيحٌ.

ثم إذا بقى البحث بين الآيتين فالتوفيق أولى خصوصا إذا لم ينقل النسخ بنص صريح يبين تاريخ العمل بكل منهما، ثم إن التعارض بين الآيتين (آية الوصية) و (آية المواريث) ليس تعارضا تاما من كل الوجوه فلا يحتِّم الصيرورة فيه إلى دعوى النسخ، وكذا الجمع بين الآيتين بالتوفيق يثبت العمل بكل منهما، والعمل بكليهما هو المُقدَّم على ترك إحداهما، وهو المتعين ابتداءً ما لم يثبت النسخ بطريقٍ صريحٍ، فتأمل.

وقول ابن عباس والحسن: "نُسِخت الوصية للوالدين بالفرض في سورة" النساء" وثبتت للأقربين الذين لا يرثون". فهو رفع الحكم عن بعض أفراد العموم، فهذا هو التخصيص بعينه.

قال الراغب الأصفهاني: قال بعض الناس: لا نسخ فيها، لأن معنى {كُتِب} ؛كقوله: أُرِيد وشُرِع، وما يُراد ويُشرع قد يكون ندباً وإيجاباً، وقوله: {الوصية للوالدين} والأمر للوالدين وإنْ اقتضى عموماً فإنه مخصوص بقوله-عليه السلام- " لا وصية لوارث "، فصار ذلك للوالدين الكافرين أو المملوكين والأقارب الذين ليسوا بورثة.) انتهى [453]

وممن رجح أن الآية محكمة ابن جرير في تفسيره . قال –رحمه الله : فكلّ من حضرته منيَّته وعنده مالٌ قلّ ذلك أو كثر، فواجبٌ عليه أن يوصي منه لمن لا يرثه من آبائه وأمهاته وأقربائه الذين لا يرثونه بمعروف، كما قال الله جل ذكره وأمرَ به. انتهى [454]

قال أهل العلم: ويكون هذا مع مراعاة النظر للورثة لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص : (إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً (أي فقراء) يتكففون (أي يمدون أكفهم إليهم يسألونهم) الناس) (رواه البخاري ومسلم). فقد أشار عليه رسول الله ﷺ في عياله بما أشار به ، وأخبره بجواز الحكم في الثلث ، وعلى هذا عامة الفقهاء : أن له أن يوصي بالثلث فما دون منها قل أم كثر ،ويؤمر مع ذلك بحسن النظر لورثته إذا كان الخير قليلاً .

---

[452] تفسير القرطبي (2/ 262)

[453] تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 383)

([454])تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 396)

قال ابن قدامة- رحمه الله-(في المغني) : والذي يقوى عندي أنه متى كان المتروك لا يفضل عن غنى الورثة فلا تُستَحَب الوصية ؛ لأن النبي ﷺ علل المنع من الوصية بقوله : (أن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة) ؛ ولأن إعطاء القريب المحتاج خير من إعطاء الأجنبي ، فمتى لم يبلغ الميراث غناهم كان تركه لهم كعطيتهم إياه ، فيكون ذلك أفضل من الوصية به لغيرهم ، فعند هذا يختلف الحال باختلاف الورثة في كثرتهم وقلتهم وغناهم وحاجتهم فلا يتقيد بقدر من المال والله أعلم .

وقال الحافظ ابن حجر(في فتح الباري): ويحتمل أن يكون قوله ﷺ : (والثلث كثير) مسوقاً لبيان الجواز بالثلث ، وأن الأوْلى أن ينقص عنه ولا يزيد عليه؛ وهو ما يبتدره الفهم ، ويحتمل أن يكون لبيان أن التصدق بالثلث هو الأكمل أي كثير أجره ، ويحتمل أن يكون معناه : كثير غير قليل .انتهى

وقد كان أبو بكر وعلي – رضي الله عنهما – يختاران الوصية بأقل من الثلث ، وإذا كان المال قليلاً بقي على الورثة ؛ لأن المواريث فريضة والوصية تطوع ، وثواب الفريضة أعظم من ثواب التطوع ، والله أعلم.

الوفاء بالوصية...

قال تعالى : { فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)} (البقرة 182،181).

قال الله سبحانه وتعالى: {فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ}.

يعني تعالى ذكره بذلك: فمن غيَّر ما أوصَى به الموصِي -من وصيته بالمعروف لوالديه أو أقربيه الذين لا يرثونه- بعد ما سمع الوصية، فإنما إثم التبديل على من بَدَّل وصيته، وَالْمَيِّتُ بَرِيءٌ مِنْهُ، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، لِمَا أَوْصَى بِهِ الْمُوصِي، {عَلِيمٌ}: بِتَبْدِيلِ الْمُبَدِّلِ أَوْ سَمِيعٌ لِوَصِيَّتِهِ عَلِيمٌ بنيّته. (455)

قال أهل المعاني: إِنَّ الْهَاءَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ **{فَمَنْ بَدَّلَهُ}** عَائِدَةٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَجَائِزٌ فِيهَا التَّذْكِيرُ لِأَنَّ الْوَصِيَّةَ وَالْإِيصَاءَ وَاحِدٌ في المعنى. وَأَمَّا الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ **{إِثْمُهُ}** فَإِنَّمَا هِيَ عَائِدَةٌ عَلَى التَّبْدِيلِ .

وَقَوْلُهُ **{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ}** يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الشَّاهِدَ عَلَى الْوَصِيَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ زَجْرَهُ عَنْ التَّبْدِيلِ عَلَى نَحْوِ قَوْله تَعَالَى **{ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها}** وَهو مَأْمُورٌ بِأَدَاءِ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلَا تَبْدِيلٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ الْوَصِيَّ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِإِمْضَائِهَا وَالْمَالِكُ لِتَنْفِيذِهَا ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ مُرَادًا بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ فِيهِ وِلَايَةً وَتَصَرُّفًا إذَا رُفِعَ إلَيْهِ فَيَكُونُ مَأْمُورًا بِإِمْضَائِهَا وَتَنْفِيذِهَا عَلَى الْحَقِّ وَالصِّدْقِ . وَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عُمُومًا فِي سَائِرِ النَّاسِ إذْ لَا مَدْخَلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا تَصَرُّفَ لَهُمْ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ **{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَه}** يقول العلامة الجصاص : قَدْ اقْتَضَى جَوَازَ تَنْفِيذِ الْوَصِيِّ مَا سَمِعَهُ من وصية الموصى كان عليها شهودا أو لم تَكُنْ .

وَهُوَ أَصْلٌ فِي كُلِّ مَنْ سَمِعَ شيئا فجائز له إمْضَاؤُهُ عِنْدَ الْإِمْكَانِ عَلَى مُقْتَضَاهُ وَمُوجِبِهِ مِنْ غَيْرِ حُكْمِ حَاكِمٍ وَلَا شَهَادَةِ شُهُودٍ . فَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَيِّتَ مَتَى أَقَرَّ بِدَيْنٍ لرجل بعينه عند الوصي فَجَائِزٌ لَهُ أَنْ يَقْضِيَهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمِ وَارِثٍ وَلَا حَاكِمٍ وَلَا غَيْرِهِ لِأَنَّ فِي تَرْكِهِ ذَلِكَ بَعْدَ السَّمَاعِ تَبْدِيلًا لِوَصِيَّةِ الْمُوصِي. (456)

ويدل على أن الفرض يسقط عن الموصي بنفس الوصية وإن إثم التبديل لا يلحقه.

---

(455) من تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير البغوي.

(456)(أنظر الجصاص في أحكام القرآن).

ويدل أيضا على أن من كان عليه دين وأوصى بقضائه أنه قد سلم من تبعته في الآخرة، وإن ترك الوصِي والوارث قضاءه لا تلحق الموصِي تبعته. [457]

****

وأما قوله تعالى: { فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)}

الجَنَفُ : هو الحَيْف والخطأ فيضع الشيء في غير موضعه في غير تعمدٍ ، والإثم : هو تعمد الظلم والميل، والمقصود أن يحيف في الوصية فيوصي بأكثر من الثلث ، أو يقر في ماله بإقرار يزيل به عن الورثة حقاً ، فأمر المُوصي بالعدل في الوصية ، وأمر الموصَى إليه بوعظه وأن يأخذه بالإصلاح فيما يوصِي إليه ، هذه الألفاظ معاني ما روي عن طاوس ، وعطاء ، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

وذهب ابن جرير إلى أن المقصود بالإصلاح في هذه الآية هو وعظ الموصي ممن حضره بألا يميل في وصيته قبل موته ؛ لأن خوف الجنف والإثم من المُوْصِي إنما هو كائنٌ قبل وقوع الجنف والإثم . [458]

وفيه يقول البغوي: قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَنْ خافَ}، أَيْ: عَلِمَ، ومثله قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ} (الْبَقَرَةِ: 229) ، أَيْ: عَلِمْتُمْ.

ويمكن أن يقال بأنَّ من خاف أي : توقع أو علم جوراً من الموصي فإنه يصلح ، وهذا الصلح يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي بأن يأمره بالعروف ، أو بعده بأن يصلح بين الورثة أو بأن يلغي الوصية .

(قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهَا أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا حَضَرَ مَرِيضًا وَهُوَ يُوصِي فَرَآهُ يَمِيلُ إِمَّا بِتَقْصِيرٍ أَوْ إِسْرَافٍ أَوْ وَضْعِ الْوَصِيَّةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْعَدْلِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الْجَنَفِ، فَيَنْظُرُ للموصَى له والورثة.

وقال الآخرون: إِنَّهُ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ إِذَا أَخْطَأَ الْمَيِّتُ فِي وَصِيَّتِهِ أَوْ جَارَ مُتَعَمِّدًا فَلَا حَرَجَ عَلَى وَلِيِّهِ أَوْ وَصِيِّهِ أَوْ وَالِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُصْلِحَ بَعْدَ مَوْتِهِ بَيْنَ وَرَثَتِهِ وَبَيْنَ الْمُوصَى لَهُمْ، وَيَرُدَّ الْوَصِيَّةَ إِلَى الْعَدْلِ وَالْحَقِّ . [459]

قلتُ- الباحث: ولعل هذه الآية فيها تقييد دقيق لمفهوم الآية التي قبلها فربما فهم الْأَوْلِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ أنهم يُمْضُونَ وَصِيَّةَ الْمَيِّتِ بَعْدَ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ} (البقرة: 181) الْآيَةَ، وَإِنِ اسْتَغْرَقَ ذلك الْمَالَ كُلَّهُ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْوَرَثَةِ شَيْءٌ، فجاء قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً ...} الْآيَةَ ليبين أن الأمر مقيد بأن تكون الوصية لا جور فيها ولا حيف يجاوز حقوق الورثة. فتبين بذلك دقة القرآن العظيم في بيان أحكامه، فقَّهَنا الله والمؤمنين في كتابه.

وقوله تعالى : {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} فيه قال ابن عباس- رضي الله عنه- وقتادة والربيع: أي لا يلحقه إثم المبدِّل المذكور قبلها، وإن كان في فعله تبديلٌ ما، ولا بد، لكنه تبديلٌ لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى). [460]

---

(457) أحكام القرآن للكيا الهراسي (1/ 60)

(458) [انظر تفسيره : 2/125] .

(459) تفسير البغوي - إحياء التراث (1/ 213)

(460) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 249) باختصار.

****

أول آيات تشريع الصيام.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)} (البقرة: 183 - 185)

مناسبة هذه الآيات ما قبلها:

قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه أخبر تعالى: أولا: بكتب القصاص وهو: إتلاف النفوس، وهو من أشق التكاليف، فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل، ثم أخبر ثانيا بكتب الوصية وهو: إخراج المال الذي هو عديل الروح، ثم انتقل ثالثا إلى كتب الصيام، وهو: منهك للبدن، مضعف له، مانعٌ وقاطع ما ألفه الإنسان من الغذاء والشرب والجماع بالنهار، فابتداء بالأشق ثم بالأشق بعده، ثم بالشاق فبهذا الانتقال اللطيف في التكاليف جاء ترتيب الآيات فيما كتبه الله على عباده ، وكان فيما قبل ذلك قد ذكر أركان الإسلام ثلاثة: الإيمان، والصلاة، والزكاة، فأتى بهذا الركن الرابع، وهو: الصوم. انتهى بتصرف [461]

وهذا هو النداء الخامس ب{ يأيها الَّذِينَ آمَنُوا} في سورة البقرة بعد النداء الكريم في الآيات (104، 153، 172، 178) والذي يُعْنَى في أول ما يعنى ببناء شخصية المسلمين في عهدهم الجديد في المدينة المُنوَّرة بنبينا ﷺ.

وهو فصلٌ جديد يبدأ فيه تشريع الصيام؛ تلك العبادة العظيمة في الإسلام التي تنقِّي الروح والجسد وتقرِّب العبد إلى ربه سبحانه. وقد بدأ تشريع الصيام كما هو اليوم- إيجابا في شهر رمضان من كل عام- في السنة الثانية من الهجرة، ويظهر أن هذه الآية هي الآية العمدة والأُولى في تشريعه. فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ صَامَ تِسْعَ رَمَضَانَاتٍ، وَفُرِضَ أَوَّلًا عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُطْعِمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، ثُمَّ نُقِلَ مِنْ ذَلِكَ التَّخْيِيرِ إِلَى تَحَتُّمِ الصَّوْمِ، وَجُعِلَ الْإِطْعَامُ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْمَرْأَةِ إِذَا لَمْ يُطِيقَا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُمَا يُفْطِرَانِ وَيُطْعِمَانِ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، وَرُخِّصَ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ أَنْ يُفْطِرَا وَيَقْضِيَا، وَلِلْحَامِلِ وَالْمُرْضِعِ إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا كَذَلِكَ، وإِنْ خَافَتَا عَلَى وَلَدَيْهِمَا كذلك.

فَاللَّهُ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَيْنَا فَرْضَ الصِّيَامِ بِهَذِهِ الآية لِأَنَّ قَوْلَهُ {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} مَعْنَاهُ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}، وَقَوْلِهِ {إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً} يعنى فرضا مُوَقَّتا.

واعْلَمْ أَنَّ الصِّيَامَ مَصْدَرُ صَامَ كَالْقِيَامِ مصدر (قام)، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الْإِمْسَاكُ عَنِ الشَّيْءِ وَالتَّرْكُ لَهُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلصَّمْتِ: صَوْمٌ لِأَنَّهُ إِمْسَاكٌ عَنِ الْكَلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً}(مَرْيَمَ: 26) أي نذرت الصمت.

---

(461) البحر المحيط في التفسير (2/ 177)

هَذَا هُوَ مَعْنَى الصَّوْمِ فِي اللُّغَةِ، وَفِي الشَّرِيعَةِ هُوَ الْإِمْسَاكُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ حَالَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ صَائِمًا مَعَ اقْتِرَانِ النِّيَّةِ. (462)

وفي معنى المقارنة في قوله {كما كتب على الذين من قبلكم} قولان:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى أَصْلِ إِيجَابِ الصَّوْمِ، يَعْنِي هَذِهِ الْعِبَادَةَ كَانَتْ مَكْتُوبَةً وَاجِبَةً عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى عَهْدِكُمْ، مَا أَخْلَى اللَّهُ أُمَّةً مِنْ إِيجَابِهَا عَلَيْهِمْ لَا يَفْرِضُهَا عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ. وَفَائِدَةُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ شَاقَّةٌ، وَالشَّيْءُ الشَّاقُّ إِذَا عَمَّ سَهُلَ تحمله. فشبَّه تشريع الصيام في أمة محمد بتشريعه في كل أمم الأنبياء قبله، من حيث المبدأ.

قال ابن الجوزي : والتشبيه راجعٌ إلى نفس الصوم لا إلى صفته ، ولا إلى عدده ، والمعنى : كتب عليكم أن تصوموا كما كتب عليهم ، وأما صفة الصوم وعدده فمعلوم من وجوه أخر لا من نفس الآية ، وهذا المعنى مروي عن ابن أبي ليلى ، وقد أشار إليه السدي ، والزجاج ، والقاضي أبو يعلى ، وما رأيت مفسراً يميل إلى التحقيق إلا وقد أومأ إليه ، وهو الصحيح ، وما ذكره المفسرون فإنه شرح حال صوم المتقدمين ، وكيف كتب عليهم لا أنه تفسير للآية ، وعلى هذا البيان لا تكون الآية منسوخة أصلاً . (463)

فلا يُقال أن صيام رمضان نسخ هذه الآية لأن فيها فرض الصيام كما كان في الأمم من قبلنا فتم نسخه بصيام شهر رمضان. وهو من الباب الذي توسع فيه بعضُ مصنفي علوم القرآن في النسخ بغير تحقيق أو أدلةٍ صريحة على النسخ، فتأمل.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ التَّشْبِيهَ يَعُودُ إِلَى وَقْتِ الصَّوْمِ وَإِلَى قَدْرِهِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّ تَشْبِيهَ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ يَقْتَضِي اسْتِوَاءَهُمَا فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وليس إِنَّهُ يَقْتَضِي دائما الِاسْتِوَاءَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ.

وقيل إن اليهود والنصارى فُرض عليهم الصيام كما فرض علينا بنفس المقدار والكيفية إلا أنهم بدَّلوا، وروى عن السلف في ذلك كلامٌ ليس هذا موضعه أو موضع نفيه وإثباته. (464)

يقول القاضي أبو بكر القشيري في أحكام القرآن:

فإن قال قائل فهل كُتب شـــهر رمضـــان على من كان قبلنا ؟ قيل له : قد يجوز أن يكون ذلك قد كُتب على إبراهيم صلوات الله عليه ، ألا ترى إلى قوله :{ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين } (سورة الحج 78) وقد يجوز ألا يكون كتب على إبراهيم ولا على غيره شـــهر رمضـــان ، ولكن كتب عليهم صـــيام ثم قيل لنا : { كتب عليكم الصـيام } كما فرض على الذين من قبلكم أياماً معدودات وليسـت بعينها ، ثم جعل الله الأيام التي علينا شـهر رمضـان ، ألا تراه جل جلاله قال : { إن مثل عيسىـ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب } (آل عمران/59) ولم يخلق عيسى من تراب وكان التشبيه في قوله : {كن فيكون} دون خلقه من تراب . انتهى

قال أبو حيان: وحكمة التشبيه أن الصوم عبادة شاقة، فإذا ذكر أنه كان مفروضا على من تقدم من الأمم سهلت هذه العبادة.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فَاعْلَمْ أَنَّ تَفْسِيرَ (لَعَلَّ) فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، قد اضطرَب كلام العلماء فيها، وذلك لاستحالة تَوَقُّع وتَرقُّب الشيء غير الموثوق بحصوله ووقوعه في حَقِّه تعالى؛ لأنَّ علمَه مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، وهذا

---

(462) انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 239)

(463) انظر نواسخ القرآن : 202 ، وانظر في هذه المسألة تفسير الشيخ ابن عثيمين : 316/2 .

(464) راجع مشكورا تفسير الرازي (5/ 240).

هو معنى (لعل) في اللغة. وحاول بعضهم الخروج من هذا المعنى فقالوا: كل (لعل) في كلام الله تعالى هي للتحقيق لا للتوقع. وهذه في الحقيقة مجازفةٍ ينقصها الاستقراء لمعاني الآيات.

فمثلا لا يستقيم ذلك في قوله - عزَّ وجلَّ :- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ (هود: 12)؛ لأنَّ ترْكَ بعض ما يوحى إلى النبيِّ - ﷺ - غيرُ ممكنٍ عقلاً وشرعًا؛ لكونه معصومًا، وقوله - جلَّ جلاله - لموسى وهارون - عليهما وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام - حين أرسَلهما إلى فرعون :﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه: 44)؛ لأنَّه لَم يحصل من فرعون تذكُّرٌ فمعنى لعل هنا للتعليل أى (ليتذكر).

وأنا أرى نَّ (لَعَلَّ) قد جاءَت في مواضع متعددةٍ من كلام الله - تعالى - وتنوَّعت معانيها تَمَشِّيًا مع سياق الآيات الكريمة، فمن معانيها وهو الأشهر: التوقُّع، وهو: الترجي والاشفاق من حدوث شيء، ومن معانيها التعليل، ومن معانيها الاستفهام. وهذه أكثر معانيها استعمالا في القرآن. فلا ضيرَ إنْ حُمِلَت في بعض الآيات على معنًى من المعاني المذكورة لها دون غيره، متى اقتضى السياقُ القرآني ذلك.

على أنَّا نسترشد بقول سيبويه: إنَّ معنى (لعلَّ) في القرآن الكريم هو الترجِّي أو الإشفاق باعتبار حال المخاطبين، فهما متعلقان بهم؛ لأنَّ الأصل ألاَّ تخرج الكلمةُ عن معناها بالكلية، فـ(لعلَّ) منه تعالى حملٌ لنا على أن نترجى أو نشفقَ، وحَثٌّ لنا على ذلك، كما أنَّ (أو) المفيدة للشك إذا وقعَت في كلامه تعالى، كانت للتشكيك أو الإبهام على السامع، لا للشكِّ، تعالى الله عن ذلك.

وعلى هذا يمكننا أن نأوِّل قوله تعالى { لعلكم تتقون} أي يُراد لكم التقوى، فأرجوها لأنفسكم وقدِّروا أسبابها. فالصيام الذي هو مجرد الامتناع عن الطعام والشراب والنكاح لا تحصل معه التقوى حتى يدع المسلم اللغو والمعاصي كبيرها وصغيرها كما روى البخاري: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه».

قال العلماء في معناه: هو كناية عن عدم القبول، كما يقول المغضب لمن رد عليه شيئًا طلبه منه فلم يقم به: لا حاجة لي بكذا. فالمراد رد الصوم المتلبس بالزور وقبول السالم منه، وقريب من هذا قوله تعالى: **{لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ}** (الحج من الآية:37)، فإن معناه: لن يُصيب رضاه الذي ينشأ عنه القبول.

وقال البيضاوي: ليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة، فإذا لم يحصل ذلك لا ينظر الله إليه نظر القبول، فقوله: «ليس لله حاجة» مجاز عن عدم القبول، والله أعلم".

وعنْ أَبِي هُرَيرَةَ -أيضا- قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: إذا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحدِكُمْ، فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صائمٌ متفقٌ عَلَيْهِ.

فالتقوى هي الثمرة المرجوة من الصيام في حق المسلم، وهذا معنى { لعلكم تتقون}. كما قال جابر: (إذا صمتَ فليصم سمعُك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء). وفي الحديث: "ما صام مَنْ ظلَّ يأكل لحوم الناس". فالصائم يصون صومه؛ يصون جوارحه عن كل ما حرم الله تعالى.

جاء في زاد المعاد [465]:

---

(465)زاد المعاد في هدي خير العباد (2/ 27) لابن قيم الجوزية

(الْمَقْصُودُ مِنَ الصِّيَامِ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَفِطَامَهَا عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ، وَتَعْدِيلَ قُوَّتِهَا الشَّهْوَانِيَّةِ، لِتَسْتَعِدَّ لِطَلَبِ مَا فِيهِ غَايَةُ سَعَادَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَقَبُولِ مَا تَزْكُو بِهِ مِمَّا فِيهِ حَيَاتُهَا الْأَبَدِيَّةُ، وَيَكْسِرُ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ مِنْ حِدَّتِهَا وَسَوْرَتِهَا، وَيُذَكِّرُهَا بِحَالِ الْأَكْبَادِ الْجَائِعَةِ مِنَ الْمَسَاكِينِ.

وَتُضَيَّقُ مَجَارِي الشَّيْطَانِ مِنَ الْعَبْدِ بِتَضْيِيقِ مَجَارِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَتُحْبَسُ قُوَى الْأَعْضَاءِ عَنِ اسْتِرْسَالِهَا لِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ فِيمَا يَضُرُّهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَيُسَكِّنُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهَا وَكُلَّ قُوَّةٍ عَنْ جِمَاحِهِ وَتُلْجَمُ بِلِجَامِهِ، فَهُوَ لِجَامُ الْمُتَّقِينَ، وَجُنَّةُ الْمُحَارِبِينَ، وَرِيَاضَةُ الْأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ الصَّائِمَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ تَرْكُ مَحْبُوبَاتِ النَّفْسِ وَتَلَذُّذَاتِهَا إِيثَارًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَهُوَ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، وَالْعِبَادُ قَدْ يَطَّلِعُونَ مِنْهُ عَلَى تَرْكِ الْمُفْطِرَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ تَرَكَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَشَرٌ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الصَّوْمِ.

(قلتُ: وهو معنى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي" .رواه البخاري ومسلم واللفظ له، وفي رواية البخاري: « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم....". وقد قال الله تعالى : {إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغيرِ حِسابٍ }. قال الأوزاعي : " ليس يوزن لهم ولا يُكال ، إنما يغرف غرفاً ").

وَلِلصَّوْمِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ وَالْقُوَى الْبَاطِنَةِ، وَحِمْيَتِهَا عَنِ التَّخْلِيطِ الْجَالِبِ لَهَا الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ الَّتِي إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا أَفْسَدَتْهَا، وَاسْتِفْرَاغِ الْمَوَادِّ الرَّدِيئَةِ الْمَانِعَةِ لَهَا مِنْ صِحَّتِهَا، فَالصَّوْمُ يَحْفَظُ عَلَى الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ صِحَّتَهَا، وَيُعِيدُ إِلَيْهَا مَا اسْتَلَبَتْهُ مِنْهَا أَيْدِي الشَّهَوَاتِ، فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى التَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {.... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الآيَةَ (البقرة: 183) .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ».

وَأَمَرَ مَنِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ شَهْوَةُ النِّكَاحِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ بِالصِّيَامِ، وَجَعَلَهُ وِجَاءَ هَذِهِ الشَّهْوَةِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَصَالِحَ الصَّوْمِ لَمَّا كَانَتْ مَشْهُودَةً بِالْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ، شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَحِمْيَةً لَهُمْ وَجُنَّةً.

وَكَانَ هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ أَكْمَلَ الْهَدْيِ، وَأَعْظَمَ تَحْصِيلٍ لِلْمَقْصُودِ، وَأَسْهَلَهُ عَلَى النُّفُوسِ.

وَلَمَّا كَانَ فَطْمُ النُّفُوسِ عَنْ مَأْلُوفَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا مِنْ أَشَقِّ الْأُمُورِ وَأَصْعَبِهَا، تَأَخَّرَ فَرْضُهُ إِلَى وَسَطِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، لَمَّا تَوَطَّنَتِ النُّفُوسُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ، وَأَلِفَتْ أَوَامِرَ الْقُرْآنِ، فَنُقِلَتْ إِلَيْهِ بِالتَّدْرِيجِ.). انتهى.

****

قال تعالى: { أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)}

وفِي انْتِصَابِ لفظ {أَيَّاماً} قولان: الْأَوَّلُ: نُصِبَ عَلَى أنه ظَرْفُ زمان، كَأَنَّهُ قِيلَ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ فِي أَيَّامٍ. وهو قول الزجاج.

والثاني: نُصِبَ على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره (أن تصوموا) أياما معدودات، دلَّ عليه الوجوب في قوله { كتب عليكم الصيام}، وهو رأى الطبري .

وقوله تعالى: { أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ}

أَيْ: مُعَيَّنَاتٍ بِعَدَدٍ مَعْلُومٍ. قال أبو حيان: ووصفها بقوله: {معدودات}، تسهيلا على المُكَلَّف بأن هذه الأيام يحصرها العد ليست بالكثيرة التي تفوت العد، ولهذا وقع الاستعمال بالمعدود كناية على القلائل، كقوله: {في أيام معدودات} (سورة البقرة: 203) ،وقوله: { لن تمسنا النار إلا أياما معدودة } (سورة البقرة: 80)،وقوله: { وشروه بثمن بخس دراهم معدودة } (سورة يوسف: 20).

وأكثر المحققين والمفسرين على أن { أياما معدودات } هي شهر رمضان.

قال العلماء : احتج مَنْ قال أنها غير رمضان بقوله صلى الله عليه وسلم: «صوم رمضان نسخ كلَّ صوم» (وهو حديث مُخْتَلف فيه)، فدل على أن صوما آخر كان قبله، ولأنه تعالى ذكر المريض والمسافر في هذه الآية ثم ذكر حكمها في الآية الآتية بعده، فإن كان هذا الصوم هو صوم رمضان لكان هذا تكريرا، ولأن قوله تعالى: **{وعلى اللذين يطيقونه فدية}** يدل على التخيير، وصوم رمضان واجب على التعيين، فكان المقصود غيره.

ثم ردوا هذه الحجج فقالوا: وأكثر المحققين على أن المراد بالأيام المعدودات: شهر رمضان، لأن قوله: **{كُتب عليكم الصيام}** يحتمل يوما ويومين وأكثر، ثم بيَّنه بقوله: **{شهر رمضان}**، وإذا أمكن حمله على رمضان فلا وجهَ لحَمْلِه على غيره، وإثبات النسخ.

وأما الخبر- إن صحَّ- فيمكن أن يُحْمَل على نسخ كل صومٍ وجب في الشرائع المتقدمة، أو يكون ناسخا لصيامٍ وجب لهذه الأمة.

وأما ما ذُكِر من التكرار فيحتمل أن يكون لبيان إفطار المسافر والمريض في رمضان في الحكم، بخلاف التخيير في المقيم، فإنه يجب عليهما القضاء، فلما نُسِخ عن المقيم الصحيح وألزم الصوم- على القول بنسخ الآية- كان من الجائز أن نظن أن حكم الصوم، لما انتقل من التخيير إلى التضييق، يعم الكل حتى يكون المريض والمسافر فيه بمنزلة المقيم من حيث وجوب الصوم، وهنا بيَّن أن حال المريض والمسافر في رخصة الإفطار ووجوب القضاء كحالهما أولا في الآية الأولى، فهذه فائدة الإعادة. [466]

ولِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ زِيَادَةٌ لَا يَدُلُّ السياق القرآني عَلَيْهَا فَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِها. [467] ولم يرد ما يدل على وجوب صيامٍ كان على المسلمين قبل فرض صيام رمضان من الكتاب أو الآثار .

قال ابن جرير : فمن ادعى أن صوماً كان قد لزم المسلمين غير صوم شهر رمضان الذين هم مجمعون على وجوب فرض صومه ، ثم نسخ ذلك سئل البرهان على ذلك من خبر تقوم به حجة ، إذ كان لا يعلم ذلك إلا بخبرٍ يقطع العذر ، وإذ كان الأمر في ذلك على ما وصفنا للذي بيَّنا، فتأويل الآية : {كتب عليكم الصيام ... أياماً معدودات... الآية } هي شهر رمضان. [468]

****

---

(466)راجع البحر المحيط في التفسير (2/ 180)

(467) راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 241).

(468)[انظر تفسير الطبري : 130/2، 132]

قوله تعالى: { فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً}.

ظاهره مطلق المرض بحيث يصدق عليه الاسم؛ فكل مرضٍ هو مبيح للفطر وإن كان يسيرا، وبه قال ابن سيرين وعطاء والبخاري- رحمهم الله. ولمعظم الفقهاء تقييدات مضطربة لا يدل عليها كتاب ولا سنة. (أفاده الشوكاني)

وقَالَ الْجُمْهُورُ: هُوَ المرض الَّذِي يُؤْلِمُ، وَيُؤْذِي، وَيُخشى من زيادته وضرره.

وَسُمِعَ مِنْ لَفْظِ مَالِكٍ: أَنَّهُ الْمَرَضُ الَّذِي يَشُقُّ عَلَى الْمَرْءِ وَيَبْلُغُ بِهِ التَّلَفَ إِذَا صَامَ، وَقَالَ مَرَّةً: شِدَّةُ الْمَرَضِ وَالزِّيَادَةِ فِيهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ، وَالنَّخَعِيُّ: إِذَا لَمْ يَقْدِرْ مِنَ الْمَرَضِ عَلَى الصِّيَامِ أَفْطَرَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يُفْطِرُ إِلَّا مَنْ دَعَتْهُ ضَرُورَةُ الْمَرَضِ إِلَيْهِ، وَمَتَى احْتَمَلَ الصَّوْمُ مَعَ الْمَرَضِ لَمْ يُفْطِرْ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إِنْ خَافَ إِنْ تَزْدَادَ عَيْنُهُ وَجَعًا أَوْ حُمًّى شَدِيدَةً أَفْطَرَ. (469)

قلتُ- الباحث: وليس في الآية أي قيد للمرض يمكن أن نعرف منه المرض الذي يبيح الفطر سوى أنه مطلق المرض، فهو ظاهر الآية وإليه المصير، والله أعلم.

وعلى التحقيق في فقه الآية واستقراء أصول الشريعة فإن لِلْمَرِيضِ حالاتان:

الأولى: إن كان يُخشَى عليه من صومه الهلاك، أو كَانَ لَا يُطِيقُ الصَّوْمَ وصومه عليه فيه ضررٌ محقَّق كَانَ الْإِفْطَارُ في حقه عَزِيمَةً وواجباً شرعي من أجل قاعدة حفظ النفس وهى من كبريات مقاصد الشريعة، لقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: 29]، ولقوله تعالى في قاعدة رفع الحرج: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } (الحج: 78)، ولقول سيدنا رسول الله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار". ويأثم إن أتم صومه. وبهذا أفتى سيدنا رسول الله ﷺ للرجل الذي سقط من الإعياء وكان صائما فقال: "ليس من البر الصيام في السفر".

والثانية: إِنْ كَانَ يُطِيقُ الصيام مَعَ تَضَرُّرٍ وَمَشَقَّةٍ كَانَ الإفطار في حقه رُخْصَةً له أن يأخذ بها على مطلق المقصود بالمرض كما بيَّنَّا، وَبِهَذَا قَالَ جُمْهُورُ العلماء، جمعاً مع قوله تعالى: { وأنْ تصوموا خيرٌ لكم} لمن يقدر على الصيام مع مرضه بلا مشقةٍ أو ضرر. (470)

---

(469) انظر البحر المحيط في التفسير (2/ 183)

(470) ولكن ما الفرق بين الرخصة والعزيمة؟

وهى من المصطلحات التي يستعملها علماء أصول الفقه ولكن لها استخدام كثيرٌ في تفسير الآيات هنا، فوجب فهمها، وكما يقول الأصوليون: (ما لا يتم به الواجب إلا به فهو واجب).

أولاً: الرخصة: والرخصة في اللغة: التسهيل في الأمر والتيسير.

واختلف الأصوليون في تعريف الرخصة في اصطلاحهم، ويمكن أن تعرّف الرخصة بأنَّها: (مَا شُرِع مِن الأحكام لِعذر خلاف حكْم سابق ؛ مع قيام السبب المُحَرِّم).

• (ما شُرِع مِن الأحكام): كالجنس في التعريف، يشمل الرخصة والعزيمة..

• (لعذرٍ): القيد الأول، خرج به العزيمة، وهي: ما شُرع مِن الأحكام ابتداءً بغير عذر، نحو: إقامة الصلاة كاملةً بغير قصر..

وَقَوْلُهُ تعالى: {أو على سَفَرٍ }

ظاهره أيضا مطلق السفر زماناً وقصداً .ولا يكون إلا بعد الخروج للسفر لا لقاصد السفر. ففي ظاهر الآية ومنطوقها لا فرق بين مسافرٍ لطاعةٍ ومسافرٍ لمعصية، ولا ما يحدد مدة السفر ومسافته إلا ما يُعرف بأنه سفر، وكذلك لا يشترط ظاهر الآية المشقة في السفر من عدمه، إلا ذكر مطلق السفر مبيحا للفطر.

(ومن نُكَت التعبير القرآني هنا في قوله تعالى: {أو على سفر}، أنه فيه إشعارٌ بالاستيلاء على السفر لما فيه من الاختيار للمسافر، بخلاف المرض، فإنه يأخذ الإنسان من غير اختيار، فهو قهري، بخلاف السفر فكأن السفر مركوب الإنسان يستعلي عليه، ولذلك يقال: فلان على طريق، وراكب طريق إشعارا بالاختيار، وأن الإنسان مستولٍ على السفر مختارٌ لركوب الطريق فيه). [471]

واخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي السَّفَرِ الْمُبِيحِ لِلْإِفْطَارِ فَقِيلَ: مَسَافَةُ قَصْرِ الصَّلَاةِ، وَالْخِلَافُ فِي قَدْرِهَا مَعْرُوفٌ، وَبِهِ قَالَ الْجُمْهُورُ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ بِمَقَادِيرَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ مُسَمَّى السَّفَرِ فَهُوَ الَّذِي يُبَاحُ عِنْدَهُ الْفِطْرُ، وَهَكَذَا مَا صَدَقَ عَلَيْهِ مُسَمَّى الْمَرَضِ فَهُوَ الَّذِي يُبَاحُ عِنْدَهُ الْفِطْرُ. [472]

• (خلاف حكْمٍ سابق): القيد الثاني، خرج به ما ثبت على وفْق الحكْم السابق ؛ فإنه لا يكون رخصةً بل عزيمة، نحو: الصوم في الحضر، فإنَّه موافق لِلأمر بالصيام في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولكن عدم الصيام (خلاف الحكم الثابت) لعلة السفر هو الرخصة..

• (مع قيام السبب المُحَرّم): القيد ثالث، خرج به ما رُفِع فيه سبب التحريم كالنسخ الذي يلغي الحكم الأول، فتحريم الفطر قائم، ولكن جاءت الرخصة فأباحته للمسافر مثلا.

ثانياً: العزيمة: • والعزيمة في اللغة: مصدر " عزم على الشيء "، و" عزمه عزماً " عقد ضميره على فعله. وهى الصبر والجد. والعزم: القصد.. والعزيمة: ما عزمت عليه، وتُطلَق على الفريضة، والجمع: عزائم وفي الحديث: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُه ".

عرَّفَ الأصوليونَ العزيمة بتعريفاتٍ عدة، أذكر منها ما يلي: منها لِلإمام الشاطبي الذي عرَّفها بأنَّها: (ما شُرِع مِن الأحكام الكلية ابتداءً). ومنها للإمام ابن قدامة الذي عرَّفها بأنَّها: (الحكْم الثابت مِن غير مخالَفة دليلٍ شرعيٍّ).وعلى ضوء ما سبق يمكن تعريف العزيمة بأنَّها:

(الحكم الشرعي الثابت بدليل لم يعارض بدليلٍ شرعيٍّ آخَر).

• (الحكم): كالجنس في التعريف، يشمل الأحكام الشرعية وغيرها.

• (الشرعي): قيْد أول، خرج به الحكم العقليّ والعرفي.

• (الثابت بدليل): قيْد ثان، لأنَّ الحكْم الشرعيّ لابُدَّ لَهُ مِن دليل، وهو يشمل الرخصة والعزيمة.

• (لم يُعارَض بدليل شرعي آخَر): قيد ثالث، خرج به الرخصة ؛ لأنها حكْم ثابت بدليل على خلاف حكْم سابق لِعذر. فما بقي على أصل حكمه الأول من غير طروء ما يخففه لعذر كان العزيمة، وما جاء على خلاف أصل تشريعه مخففا لعذر فهو الرخصة. فالصيام في السفر هو العزيمة، وهو على أصل تشريع الصيام، والرخصة فيه هو الفطر.

راجع مشكورا (مقالات في الرخصة والعزيمة (1)- د. عمر بن محمد عمر عبدالرحمن- مقال على شبكة اللوكة على شبكة الانترنت. رابط الموضوع:

https://www.alukah.net/sharia/0/105241/#ixzz6mRB0MPKq

(471)البحر المحيط في التفسير (2/ 184)

(472)فتح القدير للشوكاني (1/ 207).

و اختلف العلماء في غرض السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد. ويتصل بهذين سفر صلة الرحم وطلب المعاش الضروري. أما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع من الفطر والإجازة والقول بالجواز أرجح. وأما سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح، قاله ابن عطية. [473]

وأما كون الفطر للمسافر رخصة إلا أن يُخشَى التلف أو الضعف عن القتال فعزيمة فمداره على الأحاديث الصحاح منها قوله ﷺ: "إن شئت فصم وإن شئت فأفطر" لما سأله بن عمرو الأسلمي عن الصوم في السفر، وهو في الصحيحين من حديث عائشة.

وفي الصحيحين من حديث أنس: "كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَعِب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم".

وأخرج مسلم -رحمه الله تعالى- وغيره عن حمزة بن عمرو الأسلمي -رضي الله عنه- أنه قال: "يا رسول الله أجد مني قوةً على الصوم فهل عليَّ جُناح فقال: هي رخصةٌ من الله فمَنْ أخذها فحَسَنٌ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه".

وفي الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ في سَفْرَةٍ فرأى زحاما ورجلا قد ظُلِّل عليه، فقال: ما هذا؟! فقالوا: صائمٌ. فقال: "ليس من البر الصيام في السفر" .

وأخرج مسلم رحمه الله تعالى وأحمد وأبو داود من حديث أبي سعيد قال: "سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيامٌ. قال: فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ: "إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطرُ أقوى لكم، فكانت رخصةٌ، فمنا مَن صام ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلا آخر ، فقال: إنكم مُصبِّحون عدوَكم والفطر أقوى لكم، فأفطروا فكانت عزيمةٌ. ثم لقد رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله ﷺ في السفر".

وقد ذهب إلى كون الصوم رخصة في السفر الجمهور.

وقد رُوى عن بعض الظاهرية، وهو مَحْكِي عن أبي هريرة والإمامية أن الفطر في السفر واجبٌ، وأن الصوم لا يُجزئ، وكذا المسافر والمرضع والحبلى لما أخرجه أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي من حديث أنس بن مالك الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم، وشطر الصلاة، وعن الحبلي والمرضع الصوم". [474] ويأتي الرد على رأيهم قريبا.

وفي حكم الفطر للجهاد. يقول العلامة ابن قيم الجوزية:

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِالْفِطْرِ إِذَا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ لِيَتَقَوَّوْا عَلَى قِتَالِهِ.

فَلَوِ اتَّفَقَ مِثْلُ هَذَا فِي الْحَضَرِ وَكَانَ فِي الْفِطْرِ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ فَهَلْ لَهُمُ الْفِطْرُ؟

فِيهِ قَوْلَانِ أَصَحُّهُمَا دَلِيلًا: أَنَّ لَهُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابن تيمية، وَبِهِ أَفْتَى الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمَّا لَقُوا الْعَدُوَّ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْفِطْرَ لِذَلِكَ أَوْلَى مِنَ الْفِطْرِ لِمُجَرَّدِ السَّفَرِ، بَلْ إِبَاحَةُ الْفِطْرِ لِلْمُسَافِرِ تَنْبِيهٌ عَلَى إِبَاحَتِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، فَإِنَّهَا أَحَقُّ بِجوَازِهِ، لِأَنَّ الْقُوَّةَ هُنَاكَ تَخْتَصُّ بِالْمُسَافِرِ، وَالْقُوَّةَ هُنَا لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَلِأَنَّ مَشَقَّةَ الْجِهَادِ

---

(473) تفسير القرطبي 2/ 273

(474) الشوكاني رحمه الله- الدراري المضية شرح الدرر البهية (2/ 175).

أَعْظَمُ مِنْ مَشَقَّةِ السَّفَرِ، وَلِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ الْحَاصِلَةَ بِالْفِطْرِ لِلْمُجَاهِدِ أَعْظَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ بِفِطْرِ الْمُسَافِرِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60] . وَالْفِطْرُ عِنْدَ اللِّقَاءِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فَسَّرَ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ. وَهُوَ لَا يَتِمُّ وَلَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُهُ إِلَّا بِمَا يُقَوِّي وَيُعِينُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرِ وَالْغِذَاءِ.

قلتُ- الباحث: إن ابن القيم رحمه الله قد تابع شيخه وعلَّل الأمر بالفطر للمسافر بالمشقة الحاصلة من السفر، وحفظ قوة المسافر، وهو ما لم تذكره الآية صريحةً، ثم قاس على ذلك باجتماع العلة جواز فطر المجاهد، وكان الأولى به اللجوء للنص في ترخيص رسول الله ﷺ للصحابة الفطر للجهاد وهو ما ذكره بعد، وكان أولى به البدء به لأنه الدليل المتفق عليه، وهو دليل منفصل عن السفر للأمر بالفطر للمجاهد حتى في الحضر كما قال- رحمه الله:

لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلصَّحَابَةِ لَمَّا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ». وَكَانَتْ رُخْصَةً ثُمَّ نَزَلُوا مَنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ فَأَفْطِرُوا» فَكَانَتْ عَزْمَةً فَأَفْطَرْنَا ، فَعَلَّلَ بِدُنُوِّهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي يَلْقَوْنَ بِهَا الْعَدُوَّ، وَهَذَا سَبَبٌ آخَرُ غَيْرُ السَّفَرِ، وَالسَّفَرُ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي تَعْلِيلِهِ وَلَا أَشَارَ إِلَيْهِ، فَالتَّعْلِيلُ بِهِ اعْتِبَارًا لِمَا أَلْغَاهُ الشَّارِعُ فِي هَذَا الْفِطْرِ الْخَاصِّ، وَإِلْغَاءُ وَصْفِ الْقُوَّةِ الَّتِي يُقَاوَمُ بِهَا الْعَدُوُّ، وَاعْتِبَارُ السَّفَرِ الْمُجَرَّدِ إِلْغَاءٌ لِمَا اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ وَعَلَّلَ بِهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ. فَتَنْبِيهُ الشَّارِعِ وَحِكْمَتُهُ يَقْتَضِي أَنَّ الْفِطْرَ لِأَجْلِ الْجِهَادِ أَوْلَى مِنْهُ لِمُجَرَّدِ السَّفَرِ، فَكَيْفَ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْعِلَّةِ وَنَبَّهَ عَلَيْهَا وَصَرَّحَ بِحُكْمِهَا، وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُفْطِرُوا لِأَجْلِهَا. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: «سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: (إِنَّهُ يَوْمُ قِتَالٍ فَأَفْطِرُوا)». فَعَلَّلَ بِالْقِتَالِ وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ بِالْفِطْرِ بِحَرْفِ الْفَاءِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَفْهَمُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ أَنَّ الْفِطْرَ لِأَجْلِ الْقِتَالِ.

وَأَمَّا إِذَا تَجَرَّدَ السَّفَرُ عَنِ الْجِهَادِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي الْفِطْرِ: «هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» .

وَسَافَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ فِي أَعْظَمِ الْغَزَوَاتِ وَأَجَلِّهَا فِي غَزَاةِ بَدْرٍ وَفِي غَزَاةِ الْفَتْحِ.

قَالَ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ غَزْوَتَيْنِ، يَوْمَ بَدْرٍ وَالْفَتْحِ، فَأَفْطَرْنَا فِيهِمَا» .انتهى.[475]

وهل الصيام في السفر أفضل أم الفطر؟

وهنا أثبت ملخص بحثٍ بديعٍ للإمام أبو عمر ابن عبد البر في هذه المسألة قد جمع فيه، وحقَّق فأوعى:

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ «فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ».

هَذَا حَدِيثٌ مُتَّصِلٌ صَحِيحٌ ، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ مِنْهَا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَحَدِيثُ أَنَسٍ هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَفِيهِ مِنَ الْفِقْهِ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ:

---

[475] زاد المعاد في هدي خير العباد (2/ 50)

مِنْهَا رَدُّ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الصَّائِمَ فِي رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ لَا يُجْزِئُهُ كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ بِذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ صَامَ فِي السَّفَرِ قضى في الحضر.

وروى عن عبد الرحمان بْنِ عَوْفٍ أَنَّ الصَّائِمَ فِي السَّفَرِ كَالْمُفْطِرِ.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَالْحَسَنِ أَنَّهُمَا قَالَا: إِنَّ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ عَزْمَةٌ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهَا.

وَحَدِيثُ هَذَا الْبَابِ يَرُدُّ هَذِهِ الْأَقَاوِيلَ وَيُبْطِلُهَا كُلَّهَا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خُذْ بِيُسْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْهُ إِبَاحَةٌ لِلصَّوْمِ وَالْفِطْرِ لِلْمُسَافِرِ خِلَافَ الْقَوْلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا عَنْهُ.

وَعَلَى إِبَاحَةِ الصَّوْمِ والفطر للمسافر جماعةُ العلماء وأئمة الْفِقْهِ بِجَمِيعِ الْأَمْصَارِ إِلَّا مَا ذَكَرْتُ لَكَ عَمَّنْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ، وَلَا حُجَّةَ فِي أَحَدٍ مَعَ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ؛ هَذَا إِنْ ثَبَتَ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ أَنَّهُ صَامَ فِي السَّفَرِ وَأَنَّهُ لَمْ يَعِبْ عَلَى مَنْ أَفْطَرَ وَلَا عَلَى مَنْ صَامَ فَثَبَتَتْ حُجَّتُهُ وَلَزِمَ التَّسْلِيمُ لَهُ.

وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْأَفْضَلِ مِنَ الْفِطْرِ فِي السَّفَرِ أَوِ الصَّوْمِ فِيهِ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ فَرُوِّينَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ صَاحِبَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمَا قَالَا: الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ.

وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ لِأَنَّهُمَا قَالَا :الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ أَحَبُّ إِلَيْنَا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، فَاسْتَدْلَلْنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَحْسِنُوهُ إِلَّا أَنَّهُ أَفْضَلُ عِنْدَهُمْ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَنِ اتَّبَعَهُ هُوَ مُخَيَّرٌ وَلَمْ يُفَضِّلْ أيا من الصوم أو الفطر، وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عُلَيَّةَ،... وَهُوَ ظَاهِرُ حَدِيثِ أَنَسٍ هَذَا.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ الرُّخْصَةُ أَفْضَلُ وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالشَّعْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمُجَاهِدٌ وقتادة وَالْأَوْزَاعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ كُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إِنَّ الْفِطْرَ أَفْضَلُ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}.**

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ وُجُوهٍ إِنْ شَاءَ صَامَ وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَهُوَ الثَّابِتُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ وَحَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ . فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدْ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّفَرِ فَمَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

وكَانَ حُذَيْفَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيُّ وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ- من التابعين- لَا يَصُومُونَ فِي السَّفَرِ .

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ وَأَبُو وَائِلٍ- من التابعين أيضا- يَصُومُونَ فِي السَّفَرِ.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَكْرَهُ الصِّيَامَ فِي السَّفَرِ.

وعَنْ طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ بِرُخْصَةِ الْفِطْرِ فِي السَّفَرِ التَّيْسِيرَ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ فَلْيَصُمْ، وَمنْ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ الْفِطْرُ فَلْيُفْطِرْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مِمَّنْ يَمِيلُ إِلَى قَوْلِ أَهْلِ الظَّاهِرِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **" لَيْسَ الْبَرُّ أَوْ لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ ".** وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْبِرِّ فَهُوَ مِنَ الْإِثْمِ، وَاسْتُدِلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ لَا يُجْزِئُ؟

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ خَرَجَ لَفْظُهُ عَلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ وَهُوَ رَجُلٌ رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ صَائِمٌ قَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ ذَلِكَ الْقَوْلَ (قلتُ: يقصد ابن عبد البر -رحمه الله- أن

الحديث خرج مخرج الفتوى الخاصة في شخوصها وظروفها وحادثتها، وليس الأمر العام من الفقه الذي تُقاس عليه المسألة جميعها، ولكنَّ القاعدة الأصولية أنَّ العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب تضعف هذا المخرج، فصورة الحادثة والسبب داخلةٌ في المراد من اللفظ، ويظل عمومه حاكما على أشباهه. وأعني هنا الذين لا يقوون على الصيام في السفر، فيكون الصيام في حقهم ليس من البر، ويبقى ما فهمه ابن عبد البر قاضياً على الذين يتحملون الصوم في السفر، فالصيام والفطر في حقهم سواء. انتهى) .

قال –رحمه الله: أَيْ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ وَاللَّهُ قَدْ رَخَّصَ لَهُ فِي الْفِطْرِ . وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ صَوْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي السَّفَرِ ، وَلَوْ كَانَ الصَّوْمُ إِثْمًا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

قال-بسنده- عن جَابِرِ ابن عبد الله -رضى الله عنه- قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ تَبُوكَ لَيَسِيرُ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى إِذَا هُوَ بِجَمَاعَةٍ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ: "مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ؟ ". فَقَالُوا: رَجُلٌ صَامَ فَجَهَدَهُ الصَّوْمُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ ".

وَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ ﷺ: " لَيْسَ الْبِرَّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ" أَيْ لَيْسَ هُوَ أَبَرُّ الْبِرِّ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْإِفْطَارُ أَبَرَّ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِي حَجٍّ أَوْ جِهَادٍ لِيَقْوَى عَلَيْهِ. وَقَدْ يَكُونُ الْفِطْرُ فِي السَّفَرِ الْمُبَاحِ بِرًّا لِأَنَّ اللَّهَ أَبَاحَهُ.

وَنَظِيرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهِ ﷺ قَوْلُهُ: " لَيْسَ الْمِسْكِينَ الطَّوَّافُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ".

قِيلَ: فَمَنِ الْمِسْكِينُ؟ قَالَ: " الَّذِي لَا يَسْأَلُ، وَلَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ".

قال ابن عبد البر: وَمَعْلُومٌ أَنَّ الطَّوَّافَ مِسْكِينٌ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ غَيْرَ تَطْوَافِهِ.

وَقَدْ قَالَ ﷺ: " رُدُّوا الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِكُرَاعٍ مُحْرَقٍ، وَرُدُّوا السَّائِلَ لَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ".

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... الآية" . وَأَجْمَعُوا أَنَّ الطَّوَّافَ مِنْهُمْ...

فَعُلِمَ أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ عَلَيْكُمْ مَعْنَاهُ : لَيْسَ السَّائِلُ بِأَشَدِّ النَّاسِ مَسْكَنَةً، لِأَنَّ الْمُتَعَفِّفَ الَّذِي لَا يسئل النَّاسَ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ أَشَدُّ مَسْكَنَةً مِنْهُ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لَيْسَ الْبِرَّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ مَعْنَاهُ : لَيْسَ الْبِرُّ كُلُّهُ فِي الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؛ لِأَنَّ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ بِرٌّ أَيْضًا لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَأْخُذَ بِرُخْصَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَأَمَّا مَنِ احْتَجَّ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**} وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ عَزْمَةٌ فَلَا دَلِيلَ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ظاهر الكلام وسياقه إنا يَدُلُّ عَلَى الرُّخْصَةِ وَالتَّخْيِيرِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}.

وَدَلِيلٌ آخَرُ وَهُوَ إِجْمَاعُهُمْ أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ فَصَامَ وَأَتَمَّ يَوْمَهُ أَنَّ ذَلِكَ مُجْزِئٌ عَنْهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ رُخْصَةٌ لَهُ، وَالْمُسَافِرُ فِي التِّلَاوَةِ وَفِي الْمَعْنَى مِثْلُهُ، وَالْكَلَامُ فِي هَذَا أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُحْتَاجَ فِيهِ إِلَى إِكْثَارٍ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وبسنده- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ لَا يَجِدُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ؛ يَرَوْنَ أَنَّهُ مَنْ وَجَدَ قُوَّةً فَصَامَ أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَمَنْ وَجَدَ ضَعْفًا فَأَفْطَرَ فَكَذَلِكَ حَسَنٌ جَمِيلٌ .

وبسنده- عن أبي سعيد- رضى الله عنه- أيضا وفيه: فَصَامَ صَائِمُونَ وَأَفْطَرَ مُفْطِرُونَ فَلَمْ يَعِبْ عَلَى هَؤُلَاءِ وَلَمْ يَعِبْ عَلَى هَؤُلَاءِ .

قَالَ أَبُو عُمَرَ: هَذَا مَعْنًى حَسَنٌ لِأَنَّهُ أَضَافَ الْإِبَاحَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَعِبْ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَهُوَ مِنْ أَصَحِّ إِسْنَادٍ جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

وبسنده - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: آذَنَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرَّحِيلِ عَامَ الْفَتْحِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ رَمَضَانَ، فَخَرَجْنَا صُوَّامًا حَتَّى بَلَغْنَا الْكَدِيدَ، فَأَمَرَنَا بِالْفِطْرِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ مِنْهُمُ الصَّائِمُ وَمِنْهُمُ الْمُفْطِرُ ؛ حَتَّى بَلَغْنَا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَآذَنَنَا بِلِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَأَمَرَنَا بِالْفِطْرِ، فَأَفْطَرْنَا جَمِيعًا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا. (476)

قلتُ- الباحث-: ومما يؤيد رأى العلامة ابن عبد البر هنا ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه -واللفظ لمُسْلِم- عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ فِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ. فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ». وَفِي لَفْظِ لمُسْلِمٍ «إِنِّي رَجُلٌ أَسْرُدُ الصَّوْمَ هل أَصُومُ فِي السَّفَرِ: قَالَ: صُمْ إِنْ شِئْتَ وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ».

وكم يجوز للمسافر أن يفطر؟

جاء في نيل الأوطار (4/ 272) ما ملخصه :

(باب جواز الفطر للمسافر إذا دخل بلدا ولم ينوِ إقامةً)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَزَا غَزْوَةَ الْفَتْحِ فِي رَمَضَانَ وَصَامَ، حَتَّى إذَا بَلَغَ الْكَدِيدَ الْمَاءُ الَّذِي بَيْنَ قُدَيْدٍ وَعُسْفَانَ، فَلَمْ يَزَلْ مُفْطِرًا حَتَّى انْسَلَخَ الشَّهْرُ» . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَوَجْهُ الْحُجَّةِ مِنْهُ أَنَّ الْفَتْحَ كَانَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ، هَكَذَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ) .

قال الشوكاني –رحمه الله-: والحديث يدل على أن المسافر إذا أقام ببلد متردداً (أي لم ينوِ الإقامة بها) جاز له أن يفطر مدة تلك الإقامة كما يجوز له أن يقصر، ... وهكذا يقال في الإفطار: الأصل في المقيم أن لا يفطر لزوال مشقة السفر عنه إلا بدليلٍ يدل على جوازه له، وقد دلَّ الدليل على أن مَن كان مقيما ببلدٍ وفي عزمه السفر يفطر مثل المدة التي أفطرها – ﷺ - بمكة وهي عشرة أيام أو أحد عشر على اختلاف الروايات، فيقتصر على ذلك ولا يجوز الزيادة عليه إلا بدليل. (477)

---

(476) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (2/ 167-173) باختصار وتصرف يسير.

(477) ومثله- عند الشوكاني- يقال في قصر الصلاة للمسافر. قال في نيل الأوطار (3/ 251):

وذهب أبو حنيفة وأصحابه والإمام يحيى وهو مروي عن الشافعي إلى أنه يقصر أبدا، لأن الأصل السفر، ولما ذكره المصنف عن ابن عمر قالوا: وما روي من قصره - صلى الله عليه وسلم - في مكة وتبوك دليل لهم لا عليهم، لأنه - صلى الله عليه وسلم - قصر مدة إقامته، ولا دليل على التمام فيما بعد تلك المدة.

ويؤيد ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن عباس: «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقام بحنين أربعين يوما يقصر الصلاة» ولكنه قال: تفرد به الحسن بن عمارة وهو غير محتج به.

وروي عن ابن عمر وأنس: أنه يتم بعد أربعة أيام. والحق أن الأصل في المقيم الإتمام، لأن القصر لم يشرعه الشارع إلا للمسافر، والمقيم غير مسافر، فلولا ما ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - من قصره بمكة وتبوك مع الإقامة لكان المتعين هو الإتمام، فلا ينتقل عن ذلك الأصل إلا بدليل، وقد دل الدليل على القصر مع التردد إلى عشرين يوما كما في حديث جابر، ولم يصح أنه - صلى الله عليه وسلم - قصر في الإقامة أكثر من ذلك فيقتصر على هذا المقدار، ولا شك أن قصره - صلى الله عليه وسلم - في تلك المدة لا ينفي القصر فيما زاد عليها، ولكن ملاحظة الأصل المذكور هي القاضية بذلك.

وقوله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}

والعِدَّةُ: بمعنى المعدود. ومعلومٌ أنها عدة الأيام التي فاتته وأفطر فيها. وقوله تعالى: "من أيام أخر"، يعني: من أيام أخرى غير أيام مرضه أو سفره التي أفطرها.

والجمهور على أن في الكلام محذوفاً تقديره **{فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أو على سفر}** (فأفطر فالواجب عدةٌ من أيام أخر). وَعليه اتَّفَقَتِ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى جَوَازِ الصَّوْمِ لِلْمُسَافِرِ، وَأَنَّهُ لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ إِذَا صَامَ.

وأهل فقه الظاهر يرون أنْ لا حذفَ في الآية، وأنَّ فرض المريض والمسافر هو عِدَّةٌ من أيامٍ أُخر (وليس الصوم وقت المرض والسفر) وأنه لو صام في سفر أو مرض لم يُجْزِئْه فيجب القضاء. ورُوي ذلك عن قوم من الصحابة وعن داود الظاهري وابن حزم، وَنُقِلَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: أن الصَّائِمُ فِي السَّفَرِ كَالْمُفْطِرِ فِي الْحَضَرِ، يرون أن الفرض في السفر هو الفطر.

وصيام سيدنا رسول الله ﷺ في السفر والمرض قد ثَبَتَ بِالْخَبَرِ الْمُسْتَفِيضِ ويرد ذلك الرأي. وَرَوَى ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَسَلَمَةُ بْنُ الْمُحَبَّقِ، وَأَبُو سَعِيدٍ، وَجَابِرٌ، وَأَنَسٌ، وَابْنُ عَبَّاسٍ عَنْهُ إِبَاحَةَ الصَّوْمِ وَالْفِطْرِ فِي السَّفَرِ، بِقَوْلِهِ لِحَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ وَقَدْ قَالَ: أَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ».

وَنَقَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ- المفسر الأندلسي- عَنْ عُمَرُ، وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضى الله عنهم: أَنَّ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ عَزِيمَةٌ.

وَفَرَّقَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ بَيْنَ الْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ فَقَالَ مَا نَصُّهُ: وَيَجِبُ عَلَى مَنْ سَافَرَ -وَلَوْ عَاصِيًا -مِيلًا فَصَاعِدًا الْفِطْرُ إِذَا فَارَقَ الْبُيُوتَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَلْيُفْطِرِ الْمَرِيضُ وَيَقْضِي بَعْدُ، ويُكرَه صومُه ويجزى عنه، وَحُجَجُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كلها فِي كُتُبِ الْفِقْهِ.

وهل يجب التتابع في قضاء الفائت من الصيام؟

ظاهر الآية يقتضي عدد ما فاته فلو فاته الشهر وكان تاماً أو ناقصاً قضاه كما فاته، وأنه لا يتعين التتابع، وذلك لأن ظاهر تنكير لفظ (أيام) وجمعها (أخر) هو التخيير بين التتابع وعدمه. وَبِهِ قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَمُجَاهِدٍ وَعُرْوَةَ: وجوب التتابع ، وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: فَعِدَّةٌ مِنْ {أَيَّامٍ أُخَرَ مُتَتَابِعَاتٍ}.

وهل يجب القضاء على الفور أم على التراخي؟

وَظَاهِرُ الْآيَةِ: أَنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ الزَّمَانُ، بَلْ تُسْتَحَبُّ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْقَضَاءِ.

فإن قيل: المعتبر صدق اسم المسافر على المقيم المتردد، وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: " إنا قومٌ سَفَر " فصدق عليه هذا الاسم، ومن صدق عليه هذا الاسم قصر، لأن المعتبر هو السفر لانضباطه لا المشقة لعدم انضباطها، فيجاب عنه أولا: بأن في الحديث المقال المتقدم، وثانيا بأنه يعلم بالضرورة أن المقيم المتردد غير مسافر حال الإقامة، فإطلاق اسم المسافر عليه مجاز باعتبار ما كان عليه أو ما سيكون عليه. انتهى.

وَقَالَ دَاوُدُ: يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ ثَانِيَ شَوَّالٍ، فَلَوْ لَمْ يَصُمْهُ ثُمَّ مَاتَ أَثِمَ، وَهُوَ مَحْجُوجٌ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَبِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ، إِلَّا فِي شَعْبَانَ- أي المقبل قبل رمضان التالي- لِشُغْلٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وأنه لو أخَّر حتى دخل رمضانُ آخرُ لا يجب عليه إلا قضاء ما فاته. وَيَصُومُ الثَّانِي. وروى أنه يفدي مع القضاء ولا دليل عليه من ظاهر الآية والحديث المذكور عن عائشة. (478)

ما جاء في صيام الشيخ والشيخة والحامل والمرضع.

وفي هذه الآية بحثٌ جميل وسجالٌ فقهي طويل بين العلماء يدل على عظمة علوم الشريعة وعلوها في استخدام النقل والعقل.
قوله : **{ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ }**، { يُطِيقُونَهُ } أي يقدرون عليه، من الفعل (طاق كذا وأطاقه يطيقه طاقةً وإطاقة). والطَّاقَةُ، وَالطَّوْقُ: الْقُدْرَةُ وَالِاسْتِطَاعَةُ، وَيُقَالُ: طَاقَ وَأَطَاقَ كَذَا، أَيِ: اسْتَطَاعَهُ وَقَدَرَ عليه. وإنّ قراءة كافة القراء: "وعلى الذين يُطِيقُونَه"، وعلى ذلك خطوطُ مصاحفهم.
ثم اختلف علماء التفسير والفقه في معناها على ثلاثة أوجه:-

الوجه الأول في الآية:

أنَّ هذه الآية منسوخةٌ بجملتها وقد كان ذلك في أول ما فُرِض الصوم.
قَالَ معَاذ: كَانَ فِي ابْتِدَاء الْأَمر: من شَاءَ صَامَ وَمن شَاءَ أفطر وَأطْعم عَن كل يَوْم مِسْكينا حَتَّى نزلت الْآيَة الَّتِي بعْدهَا{ شهر رمضان....فَمَنْ شَهِدَ مِنْكم الشَّهْر فليصمه}، فنسختها. وحديثه هذا كما قال الحافظ في الفتح (اختُلِف في إسناده اختلافا كثيرا).
وعند البخاري: قَالَ ابن عُمَرَ وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ- رضى الله عنهما- نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: { شهر رمضان....فَمَنْ شَهِدَ مِنْكم الشَّهْر فليصمه}..(479)

---

(478)راجع تفسير النهر الماد (2/ 186)، و البحر المحيط في التفسير (2/ 185). لأبي حيان الأندلسي كلاهما.

(479)قال الحافظ ابن حجر: (وَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ (يَعْنِي رواية سلمة وبن عمر وبن أَبِي لَيْلَى) عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ{ وَعَلَى الَّذِينَ يطيقونه فدية} منسوخٌ، وخالف في ذلك بن عَبَّاسٍ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ لَكِنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بالشيخ الكبير ونحوه...

وإذا تقرر أن الإفطار والإطعام كان رخصةً ثم نُسِخ لزِم أن يصير الصيام حتما واجبا، فكيف يلتئم مع قوله تعالى في نفس الآية: {وأنْ تصوموا خيرٌ لكم}، والخيرية لا تدل على الوجوب بل المشاركة في أصل الخير؟!

أجاب الكرماني: بأن المعنى: فالصومُ خيرٌ من التطوع بالفدية، والتطوع بها كان سنةً ، ولا يكون شيءٌ خيرا من السنة إلا الواجب، (فالصوم صار فيها واجباً).

كذا قال ولا يخفى بُعْدَه، وتكلفه. (قلتُ: لأنه طبَّق اصطلاحات أصول الفقه الحادثة على القرآن، ولا تمضي هذه الاصطلاحات على لغة القرآن، وإنما هي للاسترشاد في الاستنباط لا غير...).

قال ابن حجر: ودعوى الوجوب في خصوص الصيام في هذه الآية ليست بظاهرةٍ بل هو واجبٌ مُخَيَّر مَن شاء صام ومَن شاء أفطر وأطعم فنصَّت الآية على أن الصوم أفضل، وكون بعض الواجب المخير أفضل من بعض لا إشكال فيه. انتهى. فتح الباري لشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني رحمه الله (4/ 188) بتصرف يسير.

قلتُ- الباحث: وبذلك الاعتراض والإيراد يميل الحافظ ابن حجر إلى القول بأن الآية محكمة غير منسوخة أو منسوخة بنسخ خاص كما سيأتي.

ورجَّحه ابن جرير الطبري وقال: وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال :{ وعلى الذين يطيقونه} منسوخ بقول الله تعالى ذكره : { ... فمن شهد منكم الشهر فليصمه} ؛ لأن الهاء التي في قوله : { يطيقونه} من ذكر الصيام ، ومعناه : وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن من كان مطيقاً من الرجال الأصحاء غير المسافرين صوم شهر فغير جائز له الإفطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين ، كان معلوما أن الآية منسوخة ، هذا مع ما يؤيد هذا القول من الأخبار التي ذكرناها آنفا عن معاذ بن جبل وابن عمر وسلمة بن الأكوع من أنهم كانوا بعد نزول هذه الآية على عهد رسول الله ﷺ في صوم شهر رمضان بالخيار بين صومه وسقوط الفدية عنهم وبين الإفطار والافتداء من إفطاره بإطعام مسكين لكل يوم ، وأنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت : { ... فمن شهد منكم الشهر فليصمه} فألزموا فرض صومه ، وبطل الخيار والفدية . انتهى[480]

وهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَمَكْحُولِ الدِّمَشْقِيُّ وَرَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ وَبِهِ قَالَ أَبُو ثور وَرِوَايَةٌ عَنْ قَتَادَةَ. [481]

وأصحاب القول بأن الآية منسوخة يرون أن الآية مَنْسُوخَةٌ جُمْلَةً فِي الشَّيْخِ وَفِي غَيْرِهِ.

وَمِنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَوْ بَعْضِهِمْ أَنَّ النَّاسَ لَا يَخْلُونَ مِنْ إِقَامَةٍ أَوْ سَفَرٍ ، وَمِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضٍ.

فَالصَّحِيحُ الْمُقِيمُ غَيْرُ مُخَيَّرٍ لِأَنَّ الصَّوْمَ كَانَ عَلَيْهِ فَرْضًا وَاجِبًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ وَإِقَامَتِهِ بِبَلَدِهِ.

وَالْمُسَافِرُ يُخَيَّرُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ حُكْمِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَإِنْ أَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَلَا فِدْيَةَ.

وَالْمَرِيضُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يرجى برؤه وصحته، فهذا إِنْ صَحَّ قَضَى مَا عَلَيْهِ عِدَّةً مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

وَإِنْ لَمْ يُرجى لَهُ رجوع صِحَّةٍ وَلَا قُوَّة كَالشَّيْخِ وَالْعَجُوزِ اللَّذَيْنِ قَدِ انْقَطَعَتْ قوتهما فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِمَا مِنْ فِدْيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

إِلَّا أَنَّ مَالِكًا يَسْتَحِبُّ للشيخ الذي لا يَقْدِرُ عَلَى الصِّيَامِ إِذَا قَدَرَ عَلَى الْفِدْيَةِ بِالطَّعَامِ أَنْ يُطْعِمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا لِمِسْكِينٍ مِنْ قُوتِهِ وَلَا يَرَى ذَلِكَ عَلَيْهِ وَاجِبًا عَلَيْهِ.

وأما الحامل والمرضع على هذا القول فغير داخلاتٍ في لفظ الآية كما رجَّح ابن جرير الطبري في تفسيره.

(والآية تدل على أنه لمّا أوجب الله - تبارك وتعالى- في الآية المحكمة { فمن شهد منكم الشهر فليصمه}- على كل من شهد الشهر أن يصومه ، وأوجب على من كان مريضاً أو مسافراً فأفطر: القضاء ، والحبلُ مرض من الأمراض، والمرض : كل ضعف حلَّ في البدن ، وفتور حتى يمنع من الصوم، وإذا كان إفطار الحبلى من أجل نفسها ومرضها وعجزها، فعليها القضاء ولا إطعام عليها ؛ إلا أن تكون قوية على الصوم وإنما تخاف على ولدها ، وإفطارها من أجل غيرها فهذه تقضي وتطعم.

وأما المرضع فإفطارها من أجل ولدها. فإذا كانت المرضع قوية على الصيام وإنما تخاف إن صامت أن ينقطع درُّها (لبنها) ويضر ذلك بولدها فإنها تفطر وتطعم وتقضي إذا كانت تقوى على الصوم ، [482]

قلتُ- الباحث: وأحسب مالك- رضى الله عنه- ومن نحا رأيه ذهب إلى الإطعام في هذا الموضع بالنظر إلى قول الله سبحانه { وعلى الذين يطيقونه فدية}، وذهب في القضاء بالنظر إلى قوله :{ فعدة من أيام أخر}؛ فقد

---

(480)[جامع البيان : 139/2، 140] .

(481)راجع الاستذكار لابن عبد البر (3/ 361)

(482) راجع أحكام القرآن لأبي الفضل القشيري، وأحكام القرآن للجهضمي.

جمع بين البدلين للاحتياط لما لم يجد حكم المرضع والحامل في ظاهر الآية. وفي تأويل الآية على ما أوَّلها به ابن عباس- رضى الله عنه- مندوحةٌ عن ذلك. والحديث الذي رواه أهل السنن- ويأتي لاحقا- صريح في إلحاق الحامل بالمسافر في القضاء.

والوجه الثاني:

فيه قال سعيد ابن جبير: " كانت الفدية للشيخ الكبير والعجوز إذا أفطرا وهما يطيقان الصوم فعليهما الفدية، ثم نسختها الآية التي بعدها قوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشهر فَلْيَصُمْهُ} ، فنسخت الإطعام عن الكبيرَيْن إذا كانا يطيقان الصوم وأوجب عليهما الصوم، وثبت للشيخ والعجوز الفدية إذا كانا لا يطيقان الصوم، وللحبلى والمرضع إذا خافتا. وكذلك قال عكرمة والربيع. (483)

وذهب إِلَى هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ أَنَسُ بن مالك وبن عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَعِكْرِمَةُ. وَشُرَيْحٌ كَانَ يُطْعِمُ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يَصُومُ كَفِعْلِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَبِهَذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَبُو الزِّنَادِ وبن شِهَابٍ فِي رِوَايَةٍ. (484)

فيكون ذلك الحكم الذي كان للشيخ الكبير والشيخة والحامل والمرضع الذين لا يطيقون الصيام وهو لهم ضارٌ قبلَ النسخ ثابتًا في حقهم ومنسوخا في حق من يطيق الصيام. فهذا القول يرى أن النسخ يقع على حالة (الإطاقة) للصيام، فإذا لم يطيقوا ثبت الحكم في حقهم، ولم يُنسَخ.

ويؤيد هذا تفضيل الصيام على الإفطار في قوله تعالى: { وأنْ تصوموا خيرٌ لكم} فهو لا يقع أبداً على الكبير والحامل والمرضع الذين يُخشى عليهم من مشقة الصوم، فالفطر في حقهم أفضل. ولذلك الفهم الدقيق قال مَن قال بأن النسخ وقع على الذين يجوز أن يقع عليهم الأمر بالصيام وهم الأصحاء المقيمين، وقد ثبت ذلك باستقراء أصول الشريعة والسياق المنطقي للآيات وهم بنص الآية { الذين يُطِيقون} أي يقدرون على الصيام بغير ضرر، وثبت الحكم لمَن لا يطيق.

قال ابن الجوزي : ويدل على ما قلنا – يعني من القول بنسخ الآية – قوله تعالى في تمام الآية : {وأن تصوموا خير لكم} وغيرُ جائز أن يعود هذا الكلام إلى المرضى والمسافرين ، ولا إلى الشيخ الكبير ، ولا إلى الحامل والمرضع إذا خافتا على الولد ؛ لأن الفطر في حق هؤلاء أفضل من الصوم من جهةِ أنهم قد نُهُوا أن يعرضوا أنفسهم للتلف ، وإنما عاد الكلام إلى الأصحاء المقيمين خُيِّروا بين الصوم والإطعام ، فانكشف بما أوضحنا أن الآية منسوخة . (485). فقد نُسخ الحكم على بعض أفراده وبقى على آخرين. وهذا بعينه هو (التخصيص) وهو في علم الأصول قصر العام في بعض أفراده ، أو إخراج بعض مَنْ تناولهم الخطاب عنه(486) والخطاب بالتخيير هنا بين الصوم والفدية تناول الجميع مِمَنْ يطيقون الصيام، ثم جاء الأمر بالصيام، فصار مخصوصا منه مَن لا

---

(483)الهداية الى بلوغ النهاية- أبو محمد مكي بن أبي طالب (1/ 594). وقول عكرمة رواه ابن جرير في تفسيره ، وابن حزم في المحلى، وذكره ابن الجوزي في نواسخ القرآن .

(484) راجع الاستذكار لابن عبد البر (3/ 362)

(485)[نواسخ القرآن : 214] .

(486) انظر شرح مختصر ابن الحاجب، والمحصول في أصول الفقه.

يطيق الصيام في الآية الأولى: { وعلى الذين يطيقونه}. فكل مَن طاق الصَّوْمَ فَلَا مَشَقَّةَ تَضُرُّ بِهِ فَالصَّوْمُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ.

وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُطِقِ الصَّوْمَ إِلَّا بِجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ مُضِرَّةٍ بِهِ فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ لِقَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ – في الآية ذاتها: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (الْبَقَرَةِ 185).

وما رُوي عن ابن عباس في هذه الروايات من القول بنسخ هذه الآية ربما لا يُقْصَد به النسخ في اصطلاح المتأخرين ، وإنما يقصد التخصيص ، قال القرطبي -في تفسيره - بعد ذكره للقولين عن ابن عباس : فقد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة ، وأنها محكمة في حق من ذكر ، والقول الأول (أي ما ثبت عنه من القول بنسخها) صحيح أيضاً ، إلا أنه يحتمل أن يكون النسخ هناك بمعنى التخصيص ، فكثيراً ما يُطلق المتقدمون النسخ بمعناه . انتهى

وما ثبت عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قرأ هذه الآية (فديةُ طعامِ مساكين) وقال : هي منسوخة [487] يقصد منسوخةٌ في حق مَن يطيق الصيام ولا مشقة تؤدي للحرج في حقه.

قال الطحاوي- في (شرح مشكل الآثار) : أفلا ترى أن ابن عباس قد أخبر في هذا الحديث أن المُرَخَّص له في الإطعام ، وترك الصيام هو الذي لا تُرجى له القوة على الصيام في المستأنَف ، فأما من كان تُرجى له القوة على الصيام في المستأنَف فإنه لم يكن عنده كذلك . ا.هـ.

فعنه -رضى الله عنه - قَالَ: «رُخِّصَ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ أَنْ يُفْطِرَ وَيُطْعِمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ» رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَاهُ. وصححه أكثر العلماء. [488]

وعند أبي داود أن ابن عباس- رضى الله عنه- قال: كانت رخصةً للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا، والحبلى والمرضع إذا خافتا يعني على أولادهما أفطرتا وأطعمتا، وأخرجه البزار كذلك، وزاد في آخره: وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى: أنت بمنزلة الذي لا يطيقه فعليك الفداء ولا قضاء عليك، وصحح الدارقطني إسناده. [489]

قال الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله - : والحقيقة أنه بالنظر إلى الآية ليس فيها دلالة على ما فسره ابن عباس – رضي الله عنهما - ؛ لأن الآية في الذين يطيقون الصوم ، وهذا واضح أنهم قادرون على الصوم ، وهم مخيرون بين الصوم والفدية ، وهذا أول ما نزل وجوب الصوم ، كان الناس مُخيَّرين إن شاءوا صاموا ، وإن شاءوا أفطروا وأطعموا ، وهذا ما ثبت في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع ﷺ ، لكنَّ تأويل ابن عباس – رضي الله عنهما – يدل على عمق فقهه ؛ لأن وجه الدلالة من الآية أن الله جعل الفدية عديلاً للصوم لمن قدِر وأراد ألا يصوم (أي قبل أن تُنسَخَ) ، (ثم نُسخت في حق مَن قدر، فلم يبقَ له إلا الصيام)، فإذا لم يقدر بقي عديله وهو الفدية ، وهذا في الحقيقة يدل على غور فقهه ﷺ ، وإلا فالإنسان إذا قرأ هذه الآية فليس فيها تعرض لمن

---

(487) رواه ابن حزم في المحلى ، وقد رُويت عن ابن عباس من طرق ، فرواها أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ، والطحاوي في أحكام القرآن ، وابن جرير في تفسيره .

(488) رواه ابن جرير في تفسيره ، والبيهقي في سننه باب الشيخ الكبير لا يطيق الصوم ، كلاهما من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وروي من طريق عطاء ومجاهد عن ابن عباس.

(489)نيل الأوطار (4/ 275)

لا يطيق ، بل فيها لمَن يطيق ، هذا وجه الدلالة ، فصار العاجز عجزاً لا يرجى زواله الواجب عليه الإطعام عن كل يوم مسكيناً . انتهى [490]

وقال ابن عمر : في الحبلى أنها تفطر وتطعم [491].

وقد كان أنس بن مالك ضعُف عن الصيام قبل موته عاماً أو عامين فكان يجمع نحواً من ثلاثمائة مسكين فيطعمهم [492]

يقول ابن عبد البر ناصرا لرأى المالكية أنَّ الآية منسوخةٌ جميعها: وَالصَّحِيحُ فِي النَّظَرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّ الْفِدْيَةَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ عَلَى مَنْ لَا يُطِيقُ الصِّيَامَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوجِبِ الصِّيَامَ عَلَى مَنْ لَا يُطِيقُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يُوجِبْ فَرْضًا إِلَّا عَلَى مَنْ أَطَاقَهُ وَالْعَاجِزُ عَنِ الصَّوْمِ كَالْعَاجِزِ عَنِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ لا يُكلَّفه.

وَأَمَّا الْفِدْيَةُ فَلَمْ تَجِبْ على من لم يستطع الصيام بالكتاب؛ وقد اختلفوا على تأويلها فيه ، وَلم تجب بالسُنَّة ، وَلَا بِالْإِجْمَاعِ فِي ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنْ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَالْفَرَائِضُ لَا تَجِبُ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

والروايات في ذلك عن بن عباس مختلفة ، وَحَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ طَعَامُهُ عَنْ نَفْسِهِ تَبَرُّعًا وَتَطَوُّعًا وَهُوَ الظَّاهِرُ فِي الْأَخْبَارِ عَنْهُ فِي ذلك. انتهى. [493]

قلتُ- الباحث: وكلام ابن عبد البر رحمه الله- فيه نظرٌ كثيرٌ، فإن إيجاب الفدية على الكبير والذي لا يطيق الصيام واردٌ بتأويلها على أنها محكمةٌ أو نُسخت في حق من يقدر على الصيام فقط وبقيت محكمة في حق الشيخ والشيخة، ولا ينفي اجتهاده اجتهادَ غيره كما في القاعدة الفقهية المعروفة. وقد بيَّنا أدلة ما رجحناه في القول الثاني. وبالله التوفيق.

وأما الوجه الثالث:

أنه لم يُنسخ ذلك ولا شيء منه، وهو حكم مثبتٌ ، وقالوا: إنما تأويله: وعلى الذين يطيقونه إذا مَرضوا وكبروا فعجزوا من الكبر عن الصوم، {فدية طعام مسكين}. وَهُوَ مَعْنَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (يُطِيقُونَهُ) يَعْنِي بِمَشَقَّةٍ من

---

(490) [انظر الشرح الممتع على زاد المستقنع : 334/6] مع تصرف يسير للإيضاح بين المعقوفتين .

(491) الروايات عن ابن عمر في هذا الباب مختلفة ، فقد روي عنه الفطر والإطعام دون ذكر القضاء وعدمه رواه الإمام مالك في الموطأ كتاب الصيام ، وعبدالرزاق في مصنفه باب الحامل والمرضع .

وروي عنه الأمر بالقضاء مع الإطعام ، رواه عبدالرزاق في مصنفه باب الحامل والمرضع ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وابن جرير في تفسيره ، وابن حزم في المحلى من طريق إسماعيل بن إسحاق .

وروي عنه الفطر والإطعام وعدم القضاء ، رواه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ، والطحاوي في أحكام القرآن ، والدارقطني في سننه باب طلوع الشمس بعد الإفطار من كتاب الصيام ، والبيهقي في سننه باب الحامل والمرضع من كتاب الصيام .

(492) رواه البخاري معلقاً في صحيحه كتاب التفسير سورة البقرة باب قوله : أياماً معدودات ، والإمام مالك في الموطأ بلاغاً كتاب الصيام ، ووصله عبدالرزاق في مصنفه باب الشيخ الكبير.

قال ابن عبدالبر : اختلف عن أنس في صفة إطعامه ، فروي عنه مد لكل مسكين ، وروي عنه نصف صاع ، وروي عنه أنه كان يجمعهم فيطعمهم فربما جمع ثلاثمائة مسكين فأطعمهم وجبة واحدة ، وربما أطعم ثلاثين مسكيناً كل ليلة من رمضان يتطوع بذلك ، وكان يصنع لهم الجفان من الخبز واللحم . [الاستذكار : 213/10] .

(493)الاستذكار لابن عبد البر (367/3)

الإطاقة وهى آخر الجهد وأشقه، قيل: الطاقة: اسم لما يقدر الإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء. [494]
وَهُوَ بِمَعْنَى قراءة ابن عباس (يُطَوَّقُونَهُ) أَيْ يَتَكَلَّفُونَهُ ولا يطيقونه إلا بمشقة. وربما كانت قراءة تفسيرية وروى عنه قال يفسرها: هم الذين يتكلَّفونه ولا يطيقونه ، إنها في الشيخ والشيخة إذا عجزا عن الصيام [495]
وقرأ ذلك آخرون: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ"، وقالوا: إنه الشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذان قد كبرا عن الصوم، فهما يكلفان الصوم ولا يطيقانه، فلهما أن يفطرا ويطعما مكانَ كلّ يوم أفطراه مسكينًا.
وقالوا: الآية ثابتة الحكم منذ أنزلت، لم تنسخ، وأنكروا قول من قال: إنها منسوخة.
عن السدي قال: "وَعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين"، قال: أما الذين يطيقونه، فالرجل كان يطيقه وقد صام قَبل ذلك، ثم يعرض له الوَجع أو العطش أو المرض الطويل، أو المرأة المرضعُ لا تستطيع أن تصوم، فإن أولئك عليهم مكانَ كل يوم إطعام مسكين، فإن أطعم مسكينًا فهو خيرٌ له، ومن تكلف الصيام فصامه فهو خيرٌ له.
وعن ابن عباس قال: إذا خَافت الحاملُ على نفسها، والمرضع على ولدها في رمضان، قال: يفطران ويطعمان مكانَ كل يوم مسكينًا، ولا يقضيان صومًا.
عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه رَأى أمَّ ولدٍ له حاملا أو مُرضعًا، فقال: أنت بمنزلة الذي لا يُطيقه، عليك أن تطعمي مكانَ كل يوم مسكينًا، ولا قَضَاء عليك. وعن نافع، عن ابن عمر، مثل قول ابن عباس في الحامل والمرضع. [496]
وهذا القول يعود في حاصله على القول الثاني بنسخ بعض الآية وبقائها محكمةً في حق الذين لا يقدرون على الصيام لِكِبَرٍ أو لحمل أو رضاع، ومَن لا يقدر على الصوم لعذرٍ يعرض له من عمل شاقٍ وغيره.
قال ابن عباس: " إذا خافت الحامل والمرضع أفطرتا وأطعمتا ولا تقضيان صوماً ". وجاء مثله في روايةٍ عن ابن عمر.

والتحقيق.

أنني أرى بعد التحقيق أنَّ الآية تحتمل الوجه الثاني أكثر من غيره، ولذلك لصعوبة دفع دعوى النسخ وقبول دعوى إحكام الآية وعدم نسخها بغير تحكم، وذلك لأن النص فيها صريحٌ عن ابن عمر وسلمة ابن الأكوع ومعاذ -رضى الله عنهم. هذه الأولى.

---

(494)عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (2/ 426)

(495) رواه ابن جرير في تفسيره : عن ابن عباس .

وقد روى هذه القراءة عن ابن عباس: وأنها في الشيخ والشيخة إذا عجزا عن الصيام ، البخاري في صحيحه : 1638/4 كتاب التفسير سورة البقرة باب قوله : أياماً معدودات ، والبيهقي في سننه : 271/4 باب الشيخ الكبير لا يطيق الصوم ويقدر على الكفارة يفطر ويفتدي .

(496)راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 425-433)

.

والحجة الثانية لأن الآية التي بعده جاءت بحكم تأسيسي في إيجاب صيام رمضان، وكررت حكم المريض والمسافر، والتكرار- عندي- لتأسيس حكمٍ وليس للتأكيد، فلو لم تكن الآية التي نحن بصددها منسوخة لكان الآية بعدها فيها تكرار غير مبرر لحكم المريض والمسافر- وهو ما أنزه القرآن عنه.

والثالثة: أن الحكم بنسخ جميع الآية مردودٌ من جهة النظر الدقيق، إذ لا يجيز الشرع تكليف الذين لا يطيقون الصيام وهو لهم ضار بالصوم، فصار نسخ جميع الآية وإلزامهم بالصوم لا يستقيم. وقد فصَّلتُهُ في موضعه.

والرابعة: أن قبول دعوى النسخ، وعدم تعميمها على جميع الآية يقتضي القول بنسخ الحكم عن بعض أفرادها، وهو القول الثاني، فتأمل.

وبعد تفرق الناس فى ناسخ هذه الآية ومنسوخها فإنها تقع على أربع منازل، لكل واحدة منهن حكم سوى حكم الأخرى:-

(فالفرقة الأولى منهم: وهم الأصحاء المقيمون ففرضهم الصيام لا يجزئهم غيره، لزمهم ذلك بالآية المحكمة، وهى قوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} (البقرة: 185) .

والثانية: وهم المسافرون والمرضى فهم مخيرون بين الإفطار والصيام، ثم عليهم القضاء بعد ذلك ولا إطعام عليهم، بقوله: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} (البقرة: 184) .

والثالثة: هم الذين لهم الرخصة فى الإطعام ولا قضاء عليهم، وهم الشيوخ الذين لا يطيقون الصيام.

والرابعة: هم الذين اختلف العلماء فيهم بين القضاء والإطعام.

وبكل ذلك قد جاء تأويل القرآن، وأفتت به الفقهاء.

فذهب القاسم، وسالم، وربيعة، ومكحول، ومالك، وأبو ثور إلى أن الشيخ إن استطاع الصوم صام، وإلا فليس عليه شىء لقوله تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَ}) (البقرة: 286) إلا أن مالكًا يستحب له الإطعام عن كل يوم مُدًّا، وحجة هذا القول أن الله تعالى، إنما أوجب الفدية قبل النسخ على المطيقين دون غيرهم، وخيرهم فيه بين أن يصوموا بقوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَة} ثم نُسِخ ذلك وألزمهم الصوم حتمًا، وسكت عمن لا يطيق فلم يذكره فى الآية، فصار فرض الصيام زائلاً عنهم كما زال فرض الزكاة والحج عن المعدمين الذين لا يجدون إليها سبيلاً.

وأبى ذلك أهل العراق، والثورى، وأوجبوا الفدية على الشيخ، وقالوا: إن الزكاة والحج لا يشبهان الصيام، لأن الكتاب والسنة فرق بينهما، وذلك أن الله تعالى، جعل من الصوم بدلا أوجبه على كل من حيل بينه وبين الصيام وهو الفدية، كما جعل التيمم بدلا من الطهور واجبًا على كل من أعوزه الماء، وكما جعل الإيماء بدلا من الركوع والسجود لمن لا يقدر عليهما، ولم يجعل من الزكاة والحج بدلا لمن لا يقدر عليهما، وإلى هذا ذهب الكوفيون، والأوزاعى، والشافعى.

وأما الفرقة الرابعة: فالحوامل والمراضع، وفيهن اختلف الناس قديمًا وحديثًا، فقال بعض العلماء: إذا ضعفن عن الصيام وخافت على نفسها وولدها أفطرت وأطعمت عن كل يوم مسكينًا، فإذا فطمت ولدها قضته، وهو قول مجاهد، وبه قال الشافعى وأحمد. (فجمعوا بين القضاء والفدية).

وقال آخرون: عليهما الإطعام ولا قضاء، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير. (وقد ألحقوهما بحكم الآية { وعلى الذين لا يطيقونه} على اعتبار أنها في حقهما محكمة غير منسوخة).

وقال آخرون: عليهما القضاء ولا إطعام عليهما، وجعلوهما بمنزلة المريض، وهو قول عطاء، والنخعى، والحسن، والزهرى، وربيعة، والأوزاعى، وأبى حنيفة، والثورى، وروى ابن عبد الحكم عن مالك مثله، وهو قول أشهب.

وبعضهم فرَّق بين الحبلى، والمرضع، فقال فى الحبلى: هى بمنزلة المريض تفطر وتقضى ولا إطعام عليها، والمرضع تفطر وتطعم وتقضى، هذا قول مالك فى المدونة، وهو قول الليث.

قال أبو عبيد: وكل هؤلاء إنما تأولوا قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ} فمن أوجب القضاء والإطعام معًا ذهب إلى أن الله حكم فى تارك الصوم من عذر بحكمين، فجعل الفدية فى آية والقضاء فى أخرى، فلما لم يجد ذكر الحامل والمرضع مسمىً فى واحدةٍ منهما جمعهما جميعًا عليهما احتياطًا لهما، وأخذًا بالثقة.

وأما الذين رأوا أن يطعما ولا يقضيا فإنهم أرادوا أنهما ليستا من السفر ولا من المرضى الذين فرضهم القضاء، ولكنهما ممن كُلِّف الصيام وطُوِّقَه (أي لا يطيقه إلا بمشقة وعنت) ، فهم من أهل الفدية لا يلزمهم سواها لقوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) (البقرة: 248) ، وهى قراءة ابن عباس وفتياه، وقد يجوز هذا القول على قراءة من قرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ } أى يطيقونه بجهدٍ ومشقة، ويكون معنى القراءتين واحدًا. قاله غير أبى عبيد.

وأما الذين أوجبوا عليهما القضاء بلا طعام ذهبوا إلى أن الحمل والرضاع علتان من العلل (فألحقهما بحكم المريض)، لأنه يخاف فيهما من التلف على الأنفس ما يخاف من المرض.

قال أبو عبيد: وقد وجدنا شاهدًا لهذا القول ودليلا عليه، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، قال: حدثنى أبو قلابة، عن أنس بن مالك قال: (أتيت النبى، عليه السلام، فى إبلٍ لجارٍ لى، أُخِذَتْ، فوافقتُهُ يأكل فدعانى إلى طعامه فقلتُ: إنى صائم، قال: ادنُ أخبرك عن ذلك، إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل والمرضع) [497] ، قال أبو عبيد: فقرن رسول الله الحامل والمرضع بالمسافر، وجعلهما معًا فى معنى واحد، فصار حكمهما كحكمه، وعلى المسافر القضاء لا يجمع معه غيره). [498]

****

ثم قال تعالى: {فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ} أي: فمن زاد فأطعم عن كل يومٍ أكثر من مسكين فهو خيرٌ وأجر. مُدَّخَرٌ له. قاله ابن عباس وغيره.

وعن مجاهد أن معناه: " فمن أطعم المسكين أكثر من مد، فهو أجر مدخر له، إنما عليه مد ".

وقال ابن شهاب: " معناه من صام مع الفدية فهو خير له في أخراه ". [499]

---

(497)[انظر الشرح المتمع : 362] . فقد روى الخمسة والحديث كما في سنن الترمذي قال- بسنده- وصححه الشيخ الألباني: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: أَغَارَتْ عَلَيْنَا خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدْتُهُ يَتَغَدَّى، فَقَالَ: «ادْنُ فَكُلْ» ، فَقُلْتُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ: ادْنُ أُحَدِّثْكَ عَنِ الصَّوْمِ، أَوِ الصِّيَامِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ المُسَافِرِ الصَّوْمَ، وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الحَامِلِ أَوِ المُرْضِعِ الصَّوْمَ أَوِ الصِّيَامَ "، وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِلَيْهِمَا أَوْ إِحْدَاهُمَا، فَيَا لَهْفَ نَفْسِي أَنْ لَا أَكُونَ طَعِمْتُ مِنْ طَعَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(498)شرح صحيح البخارى لابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)-(4/ 91-94).

(499)الهداية الى بلوغ النهاية (1/ 599)

قلتُ- الباحث: وقول ابن شهاب على أنَّ الآية منسوخةٌ بجملتها على القول الأول، وإلا فكيف يكون الصوم تطوعا لمن لا يقدر عليه.

ثم قال: {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} أي: والصيام خير لكم من أن تفطروا وتفتدوا.

قال السدي: " معناه: من تكلف الصيام فصام، فهو خير له من الفدية والإفطار ". [500]

وهذا قول مَن جعل الآية غير منسوخة. وأما مَن جعلها منسوخة فلم يقدر قوله (تكلف) فكان من يصوم خير ممن يفطر ويفدي ممن خُيروا بين الصيام والفدية.

وأرى أنَّه تذييلٌ عام لكل الآية التي بدأ فيها التشريع فكان الصوم للمسافر والمريض وكل مَن يطيق الصوم بغير ضرر عليه أفضل من الفطر، والله أعلم.

ثم قال: {إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: إن علمتم أنكم تقدرون على الصوم، فالصوم خير لكم. ويحتمل عندي أن الصوم أفضل إن بحثتم في فوائده وأدركتم من العلم ما تزيدون إيمانا بحكمة الله تعالى في تشريعاته.

******

---

(500)المصدر السابق (1/ 599)

شهر رمضان.

يقول تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (البقرة: 185- 187)

قال العلماء: (شهر رمضان) هو الشهر المبارك المعروف، وفي اللغة الشهر مشتق من الاشتهار لأنه مُشْتهِر لا يتعذر علمه على أحد يريده، ورمضان لزمه هذا الاسم من مدةٍ كان فيها في الرَمَض أو الرمْضاء وهو شدة الحر ، كما سُمِي شهر ربيع من مدة الربيع، وجمادى من مدة الجمود... وإعراب (شهرُ) هنا مرفوعاً في ثلاث أوجه:

الأول: أنه مبتدأ وخبره (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)..

الثاني: أنه بدل من (الصيام) في قوله تعالى: { كُتِب عليكم الصيامُ}، فالمعنى كتب عليكم الصيامُ شهرُ رمضان..

الثالث: أنه مبتدأ وخبره {الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، وهذا القول لمن قال إن الصِّيامُ في قوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ} (البقرة: 183) هي ثلاثة أيام وعاشوراء وقد نُسخ وشرع صيام رمضان، وهو قولٌ ضعيف كما حققناه.

الرابع: ويجوز أن يكون شهر مرفوعا على إضمار المبتدأ، والتقدير (المفترض عليكم صومه شهر رمضان) أو (ذلك شهر رمضان) أو (الصوم شهر رمضان) أو (الأيام المعدودات شهر رمضان). قال الأخفش: شهر رمضان بالرفع على تفسير الأيام، كأنه لما قال: أيَّاماً مَعْدُوداتٍ فسرها فقال: هي شهر رمضان.

- قَالَ تَعَالَى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} وَقَالَ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} .

اخْتلفَ العلماء فِي كَيْفِيَّةِ إِنْزَالِهِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: وَهُوَ الْأَصَحُّ الْأَشْهَرُ- وقد اقتصرنا على ذكره في المتن اقتصادا- أَنَّهُ نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا فِي عشرين سنة وثلاث وعشرين أو خمس وَعِشْرِينَ عَلَى حَسْبِ الْخِلَافِ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بمكة بعد البعثة.

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ في ليلة واحدة إلى السماء الدُّنْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ قَرَأَ: **{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} .**

وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَفِي آخِرِهِ: فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا أَحْدَثُوا شَيْئًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ جَوَابًا.

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال السيوطي في تلك الروايات: أَسَانِيدُهَا كُلُّهَا صَحِيحَةٌ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْهُ قَالَ أُنْزِلَ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً حَتَّى وُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَنَزَّلَهُ جبريل على محمد بِجَوَابِ كَلَامِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالِهِمْ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْ طَرِيقِ السُّدِّيِّ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي الْمُجَالِدِ عَنْ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَطِيَّةَ بْنَ الْأَسْوَدِ فَقَالَ: أَوْقَعَ فِي قَلْبِي الشَّكُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} وَقَوْلُهُ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وَهَذَا نَزَلَ فِي شَوَّالَ وفي ذي القعدة وفي ذي الْحِجَّةِ وَفِي الْمُحَرَّمِ وَصَفَرَ وَشَهْرِ رَبِيعٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّهُ أنزل في رمضان لَيْلَةِ الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَى مَوَاقِعِ النُّجُومِ رَسْلًا فِي الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ.

قَالَ أَبُو شَامَةَ: قَوْلُهُ: "رَسْلًا " أَيْ رِفْقًا وَعَلَى مَوَاقِعِ النُّجُومِ أَيْ عَلَى مثل مَسَاقِطِهَا يُرِيدُ: أُنْزِلَ فِي رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَى مَا وَقَعَ مُفَرَّقًا يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضًا عَلَى تُؤَدَةٍ وَرِفْقٍ.

وبعد ذكر القولين الثاني والثالث -تجدهما في الهامش- نقل السيوطي-رحمه الله- ترجيح الحافظ ابن حجر العسقلاني شَرْحِ الْبُخَارِيِّ قال: وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّحِيحُ الْمُعْتَمَدُ: قَالَ: وَالْمُعْتَمَدُ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ فِي رَمَضَانَ بِمَا يَنْزِلُ بِهِ عليه فِي طُولِ السَّنَةِ. انتهى [501]

- وقوله تعالى: **{هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}** نُصِبَ (هدى) على أنها حالٌ متعلقة بالقرآن.

---

(501)الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ نزل إلى السماء الدُّنْيَا فِي عِشْرِينَ لَيْلَةَ قَدْرٍ أو ثلاث وَعِشْرِينَ أَوْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا يُقَدِّرُ اللَّهُ إِنْزَالَهُ فِي كُلِّ السَّنَةِ ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا فِي جَمِيعِ السَّنَةِ. وَهَذَا الْقَوْلُ ذَكَرَهُ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ بَحْثًا فَقَالَ: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ يُنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدْرَ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى إِنْزَالِهِ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ اللَّوْحِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. ثُمَّ تَوَقَّفَ هَلْ هَذَا أَوْلَى أَوِ الْأَوَّلُ!.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا الَّذِي جَعَلَهُ احْتِمَالًا نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَحَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

قُلْتُ: وَمِمَّنْ قَالَ بِقَوْلِ مُقَاتِلٍ الْحَلِيمِيُّ وَالْمَاوَرْدِيُّ وَيُوَافِقُهُ قَوْلُ ابْنِ شِهَابٍ آخِرُ الْقُرْآنِ عَهْدًا بِالْعَرْشِ آيَةُ الدَّيْنِ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ ابْتُدِئَ إِنْزَالُهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَبِهِ قَالَ الشَّعْبِيُّ.

ثم قال السيوطي: قيل السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لننزله عليهم ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقا تشريفا للمنزل عليه ذكر ذلك أبو شامة في المرشد الوجيز.

وقال الحكيم الترمذي: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا تسليما منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظ بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن بعثته كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حد الدنيا ووضعت النبوة في قلب محمد وجاء جبريل بالرسالة ثم الوحي كأنه أراد تعالى أن يسلم هذه الرحمة التي كانت حظ هذه الأمة من الله إلى الأمة.

وقال السخاوي في جمال القراء: في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ولهذا المعنى أمر سبعين ألفا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام وإنساخهم إياه وتلاوتهم له.

قال: وفيه أيضا التسوية بين نبينا وبين موسى عليه السلام في إنزاله كتابه جملة والتفضيل لمحمد في إنزاله عليه منجما ليحفظه.

انظر الإتقان في علوم القرآن (1/ 146)

فهو أُنزل حالَ كونِه هدىً للناس، فالمعنى أن القرآن بجملته من محكمٍ ومتشابهٍ وناسخٍ ومنسوخٍ هو هدىً يعني رَشادًا لكل الناس إلى سبيل الحقّ وقَصْد المنهج. ثم شرَّف بالذكر والتخصيص البينات من القرآن (أي الآيات والأحكام البيِّنة) يعني: واضحاتٍ من البيان الدالّ على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه والمواعظ والمُحْكَم كله [502] فقال { **وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} ، والْفُرْقانِ المُفَرِّق بين الحق والباطل، قال أبو جعفر الطبري:

وأصل "الفُرْقان" عندنا: الفرْقُ بين الشيئين والفصل بينهما. وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل. فقد تبين بذلك أنّ القرآن سُمّي "فرقانًا"، لفصله -بحججه وأدلَّته وحدود فرائضه وسائر معاني حُكمه- بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بنصره المحقّ، وتخذيله المُبْطِل، حُكمًا وقضاءً. انتهى[503]

في فقه قوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}.

- **وقوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}**، أي من كان منكم صحيحا مقيماً ليس له عذرٌ يمنعه الصيام من كِبرٍ ووهنٍ أو حيضٍ أو نفاسٍ أو مشقةٍ تضره أو حملٍ أو رضاعٍ يُخشَى عليه الصيام وهَلَّ عليه الشهر، ولم يكن مريضاً ولا مسافراً فالفرض في حقه الصيام. وهذا لسياق الآيات والجمع بين أحكامها.

قال العلماء: وفي تأويله ثلاثة أقاويل:

أحدها: فمن شهد أول الشهر ، وهو مقيم فعليه صيامه إلى آخره ، وليس له أن يفطر في بقيته ، وهذا قول عليّ ، وابن عباس ، والسدي.

والثاني: فمن شهد منكم الشهر ، فليصم ما شهد منه وهو مقيم دون ما لم يشهده في السفر ، وهذا قول سعيد بن المسيب والحسن البصري.

والثالث: فمن شهد بالغاً عاقلاً مُكَلَّفاً فليصمه ، ولا يسقط صوم بقيته إذا جُن فيه ، وهذا قول أبي حنيفة ، وصاحبيه. [504]

---

(502) إشارةٌ إلى قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)} [آل عمران: 7].

وأما "الآيات المحكمات"، فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جُعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك.

ثم وصف جل ثناؤه: هؤلاء "الآيات المحكمات"، بأنهن: "هُنّ أمّ الكتاب" . يعني بذلك: أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.

وإنما سماهن "أمّ الكتاب"، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مَفزَع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامعَ معظم الشيء "أمًّا" له. فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر: "أمّهم"، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة: "أمها". انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (6/ 170)

واما قوله { وأخر متشابهات} أي مشتبهاتٍ لا يؤخذ معناها من مجرد لفظها ولكنْ قد يعلم العلماء مراد الله منها بالتأويل على منهج أهل الحق.

وأهل المعاني على (أن) المحكم ما قام بنفسه، وفهم في ظاهر لفظه، ولم يحتمل إلآ ذلك، والمتشابه ما احتاج إلى تأويل وتفسير واحتمل المعاني.

(503) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 99)

(504)تفسير الماوردي = النكت والعيون (1/ 240)

قلتُ- الباحث: وظاهر الآية يحتمل القول الأول ولكن يخالفه البيان والتفصيل الذي جاء في بقية الآية في حق المريض والمسافر، أما القول الثالث فيحتمله الكلام في باب الاستنباط الفقهي.

فائدة : قال الإمام ابن قدامة- رحمه الله- ما ملخصه:

(وإذا مضى من شعبان تسعة وعشرون يوما، طلبوا الهلال، فإن كانت السماء مصحية لم يصوموا ذلك اليوم) . وجملة ذلك أنه يستحب للناس ترائي الهلال ليلة الثلاثين من شعبان، وتطلبه ليحتاطوا بذلك لصيامهم، ويسلموا من الاختلاف. وقد روى الترمذي، عن أبي هريرة، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «أحصوا هلال شعبان لرمضان» فإذا رأوه وجب عليهم الصيام إجماعا، وإن لم يروه وكانت السماء مصحية، لم يكن لهم صيام ذلك اليوم، إلا أن يوافق صوما كانوا يصومونه، مثل من عادته صوم يوم وإفطار يوم، أو صوم يوم الخميس، أو صوم آخر يوم من الشهر، وشَبَهُ ذلك إذا وافق صومه، أو من صام قبل ذلك بأيام، فلا بأس بصومه لما روى أبو هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا يتقدمن أحدكم رمضان بصيام يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل يصوم صياما فليصمه» متفق عليه.

وقال عمار: من صام اليوم الذي يُشَكُّ فيه فقد عصى أبا القاسم صلّى الله عليه وسلّم.

وإذا رأى الهلال أهل بلدٍ، لزم جميع البلاد الصوم. وهذا قول الليث وبعض أصحاب الشافعي.

وقال بعضهم: إن كان بين البلدين مسافة قريبة لا تختلف المطالع لأجلها كبغداد والبصرة، لزم أهلهما الصوم برؤية الهلال في أحدهما، وإن كان بينهم بُعْدٌ، كالعراق والحجاز والشام، فلكلّ أهل بلد رؤيتهم، وروي عن عكرمة، أنه قال: لكل أهل بلد رؤيتهم. وهو مذهب القاسم وسالم، وإسحاق.

- قال ابن قدامة: وإن حال دون منظره غيمٌ أو قَتَرٌ وجب صيامه وقد أجزأ إذا كان من شهر رمضان.

اختلفت الرواية عن أحمد رحمه الله في هذه المسألة، فرُوي عنه مثل ما نقل الخرقي، اختارها أكثر شيوخ أصحابنا، وهو مذهب عمر، وابنه، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وأنس، ومعاوية، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر. وبه قال بكر بن عبد الله، وأبو عثمان النهدي وابن أبي مريم ومطرّف وميمون بن مهران، وطاوس ومجاهد وروي عنه أن الناس تبع للإمام، فإن صام صاموا، وإن أفطر أفطروا. وهذا قول الحسن، وابن سيرين، لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون، والأضحى يوم تضحون» . قيل معناه أن الصوم والفطر مع الجماعة.

وعن أحمد، رواية ثالثة: لا يجب صومه ولا يجزئه عن رمضان إن صامه. وهو قول أكثر أهل العلم، منهم أبو حنيفة ومالك والشافعي ومن تبعهم، لما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبّي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» رواه البخاري.

وعن ابن عمر، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم فاقدروا له ثلاثين» . رواه مسلم.

وقد صح أن النبي صلّى الله عليه وسلّم نهى عن صوم يوم الشك. متفق عليه. وهذا يوم شك.

ولأن الأصل بقاء شعبان، فلا ينتقل عنه الشك. ولنا ما روى نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنما الشهر تسع وعشرون، فلا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمّ عليكم فاقدروا له» .

قال نافع: كان عبد الله إذا مضى من شعبان تسعة وعشرون يوما، بعث من ينظر له الهلال، فإن رأى فذاك، وإن لم يرَ ولم يحُلْ دون منظره سحابٌ ولا قتر أصبح مفطرا، وإن حال دون منظره سحاب أو قتر أصبح صائما. رواه أبو داود.

ومعنى اقدروا له: أي ضيقوا له العدد من قوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ } أي ضيّق عليه. وقوله: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ} والتضييق له أن يجعل شعبان تسعة وعشرون يوما. وقد فسره ابن عمر بفعله، وهو راويه، وأعلم بمعناه. قال علي وأبو هريرة وعائشة: لأن أصوم يوما من شعبان، أحبّ إليّ من أن أفطر يوما من رمضان.

ولأن الصوم يُحْتاط له، ولذلك وجب الصوم بخبر واحد ولم يفطر إلا بشهادة اثنين.

فأما خبر أبي هريرة الذي احتجوا به، فإنه يرويه محمد بن زياد، وقد خالفه سعيد بن المسيب، فرواه عن أبي هريرة: «فإن غمّ عليكم فصوموا ثلاثين» . وروايته أولى بالتقديم، لإمامته، واشتهار عدالته وثقته، وموافقته لرأي أبي هريرة ومذهبه، ولخبر ابن عمر الذي رويناه، ورواية ابن عمر: «فاقدروا له ثلاثين» مخالفة للرواية الصحيحة المتفق عليها ولمذهب ابن عمر ورأيه. والنهي عن صوم يوم الشك محمولٌ على حال الصحو بدليل ما ذكرنا. انتهى. [505]

- قوله تعالى: **{ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}.**

قال ابن الجوزي وغيره: فإن قيل: ما الفائدة في إعادة المرض والسفر في هذه الآية، وقد تقدم ذلك في الآية قبلها؟ قيل: لأن في الآية المتقدمة منسوخاً، فأعاده لئلا يكون مقروناً بالمنسوخ. [506].

قلتُ- الباحث: بل فيه البيان المقترن بإجمال اللفظ في قوله تعالى: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}** فالعموم في الاسم الموصول (مَن) يقتضي للمتبادر من الذهن أنَّ كل الذين يشهدون الشهر وجب في حقهم الصيام، فجاء ببيان أن المريض والمسافر على حكم الاستثناء من ذلك. **{ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}** أي لهم أن يفطروا ويقضوا ما أفطروه بعدده بعد رمضان، وفيه إشارةٌ إلى حكم مَن سواهم من الشيخ الكبير والحامل والمرضع إذا شق عليهم الصيام من حكم الآية قبلها **{ وعلى الذين يطيقونه فديةٌ...}** على كلا القولين: إذا كان محكما أو نُسخ في حق القادرين على الصيام وبقي غير القادرين (غير المطيقين)، فيجوز لهم الإفطار- كما رجحناه هناك- والإشارة أيضا إلى ذلك بدليل فحوى الخطاب من تكملة الآية **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** قال أهل التفسير: يريد الله تعالى التيسير عليكم بالإفطار للمسافر والمريض ولا يريد التعسير بالصيام عليهما، وقد استند من قالوا الفطر أولى على هذا النص، والذي أراه أنه حكمٌ عامٌ في مسألة الصيام تحكمه المشقة والضرر للمسافر والمريض والكبير والمرضع والحامل، فقبول اليسر من الله تعالى في حقهم أفضل إذا علموا من أنفسهم عدم إطاقة الصيام كما في الآية قبلها. وعلى هذا تلتئم الآيات في سياقٍ واحدٍ متصلٍ يشد بعضه بعضاً.

- **قوله تعالى: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ}،** قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ولتكملوا» باسكان الكاف والميم مكسورة خفيفة { ولِتُكْمِلوا} من الفعل (أكمل). وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الكاف وتشديد الميم { ولِتُكَمِّلوا} من الفعل (كمَّل)، وذلك مثل: «وصّى» و «أوصى».

---

(505) راجع «المغني» 4/ 325. باختصار.

(506)زاد المسير في علم التفسير (1/ 143)

وفي المعنى قال ابن عباس: ولتكملوا عِدةَ ما أفطرتم أي تصوموا ما أفطرتم بعد رمضان بعدده.
وقال بعضهم: المراد به: لا تزيدوا على ما افترض عليكم من الصيام، كما فعلت النصارى، ولا تنقلوه عن زمانه كما نقلوه (أي فصار صيامهم خمسين يوما في غير رمضان).
قلتُ- الباحث: وهذا على رأى مضن قال إن الصيام فُرض بوصفه شهرا في رمضان على كل الأمم قبلنا، وهو ضعيفٌ في النظر والرواية كما قلنا آنفا.
(فإن قيل: ما وجه دخول الواو في قوله: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ}، وليس هناك ما يقع العطف عليه؟
فالجواب: أن هذه الواو عَطَفَت اللام التي بعدها على لامٍ محذوفة، والمعنى : (...ولا يريد بكم العسر، ليسعدكم، ولتكملوا العدة)، فحذفت اللام الأولى والفعل بعدها لوضوح معناها، ذكره ابن الأنباري. [507]
وقال الزجاج : واللام هنا معطوفة على المعنى (أى فعل الله ذلك ليسهل عليكم ولتكملوا العدة). [508]
ولعله يقصد - كما عند الزمخشري- (وَلِتُكْمِلُوا) معطوفا على فعل يدل على سبب مُقَدَّر، قال: والفعل محذوفٌ دلَّ عليه ما سبق نصه في الآية كأنه قيل (يردي الله بكم اليسر...لتعلموا ولتكملوا العدة) ، أو معطوف على اليسر، بنفس فعلها حُذِف للإيجاز كأنه قيل: يريد الله بكم اليسر، ويريد بكم لتكملوا العدة... [509] والمعنى (ويريد إكمال العدة) واللام مع الفعل مقدرة ب(أنْ)، كأن الكلام: ويريد لأن تكملوا، هذا قول البصريين، وإما مقدرة بفعلٍ تضمره الآية بعد ذلك، تقديره (ولتكملوا العدة رخَّص لكم هذه الرخصة)، وهذا قول بعض الكوفيين. [510]والله أعلم.
والذي عندي أنه التقدير من نفس السياق أولى وأقرب فيكون التقدير (ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدةٌ من أيامٍ أخر يريد الله بكم اليسر وشرعه لكم لتفطروا ولتكملوا العدة) .

- **وقوله تعالى: {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَداكُمْ}**، أَيْ: وَلِتَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ، كَمَا قَالَ: **{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}** (الْبَقَرَةِ: 200) وَقَالَ: **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}** (النِّسَاءِ: 103) ، **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** (الْجُمُعَةِ: 10) وَقَالَ: **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}** (ق: 39، 40) ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِاسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كُنَّا نَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِالتَّكْبِيرِ؛ وَلِهَذَا أَخَذَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَشْرُوعِيَّةَ التَّكْبِيرِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} حَتَّى ذَهَبَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيُّ الظَّاهِرِيُّ إِلَى وُجُوبِهِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ؛ لِظَاهِرِ الْأَمْرِ فِي الآية، وَفِي مقابلته مذهبُ أَبِي

---

(507) زاد المسير في علم التفسير (1/ 144)

(508)معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 254).

(509)تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 228)

(510)تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 255)

حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ -أَنَّهُ لَا يُشْرَعُ التَّكْبِيرُ فِي عِيدِ الْفِطْرِ. وَالْبَاقُونَ عَلَى اسْتِحْبَابِهِ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي تَفَاصِيلِ بَعْضِ الْفُرُوعِ بَيْنَهُمْ. [511]

فصل: في حكم التكبير في العيد.

قال ابن عباس: حقٌ على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال، أن يكبروا لله حتى يفرغوا من عيدهم.

فأما في عيد الفطر قال ابن الجوزي- رحمه الله: ومن السنة إظهار التكبير ليلة الفطر، وليلة النحر، وإذا غدوا إلى المصلَّى. واختلفت الرواية عن أحمد، رضي الله عنه، متى يُقْطَع التكبير في عيد الفطر، فنقل عنه حنبل: يقطع بعد فراغ الإمام من الخطبة. ونقل الأثرم: إذا جاء المصلَّى، قطع. قال القاضي أبو يعلى: يعني: إذا جاء المصلى وخرج الإمام .

وأما في عيد النحر (الأضحى) قال ابن قدامة -رحمه الله- [512]ما ملخصه:

ولا خلاف بين العلماء، رحمهم الله، في أن التكبير مشروع في عيد النحر واختلفوا في مدته، فذهب إمامنا، رضي الله عنه، إلى أنه من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر في آخر أيام التشريق، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وإليه ذهب الثوري، وابن عيينة وأبو يوسف ومحمد والشافعي في بعض أقواله.

وعن ابن مسعود أنه كان يكبر من غداة عرفة إلى العصر من يوم النحر. وإليه ذهب علقمة، والنخعي، وأبو حنيفة، لقوله: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} وهي العشر، وأجمعنا على أنه لا يُكبّر قبل يوم عرفة، فينبغي أن يكبر يوم عرفة ويوم النحر.

وعن ابن عمر وعمر بن عبد العزيز، أن التكبير من صلاة الظهر يوم النحر إلى الصبح من آخر أيام التشريق.

وبه قال مالك، والشافعي في المشهور عنه لأن الناس تبع للحاج، والحاجّ يقطعون التلبية مع أول حصاة.

ويكبرون مع الرمي، وإنما يرمون يوم النحر، فأول صلاة بعد الظهر وآخر صلاة يصلون بمنى الفجر من اليوم الثالث من أيام التشريق.

ولنا ما روى جابر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم صلى الصبح يوم عرفة وأقبل علينا، فقال: «الله أكبر، الله أكبر» . ومدّ التكبير إلى العصر من آخر أيام التشريق. أخرجه الدارقطني من طرق، وفي بعضها: «الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد» ولأنه إجماع الصحابة رضي الله عنهم، روي ذلك عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود.

رواه سعيد عن عمر وعلي وابن عباس وروى بإسناده عن عمير بن سعيد، أن عبد الله كان يكبر من صلاة الغداة يوم عرفة إلى العصر من يوم النحر، فأتانا علي بعده فكبّر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد.

قيل لأحمد، رحمه الله: بأي حديث تذهب، إلى أن التكبير من صلاة الفجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق؟ قال: بالإجماع، عمر، وعلي، وابن عباس وابن مسعود، رضي الله عنهم، ولأن الله تعالى قال: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ} وهي أيام التشريق، فيتعين الذكر في جميعها.

---

(511)تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 505)

(512) انظر «المغني» 3/ 287- 292.

- وصفة التكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد. وهذا قول عمر، وعلي، وابن مسعود. وبه قال الثوري وأبو حنيفة، وإسحاق، وابن المبارك، إلا أنه زاد: على ما هدانا. لقوله:**{ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.** انتهى.

****

في فقه عبادة الدعاء .

*** قوله تعالى: {وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)}.**

المسألة الأولى: في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها معنيان:

الأول: أنه تعالى لما قال بعد إيجاب فرض الصوم وبيان أحكامه: **{وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة: 185)** فأمر العبدَ بالتَّكبير الذي هو الذِّكر وأمره بالشكر، أعلم الله العبد أنه سبحانه بلُطفه ورحمته قريبٌ منه مُطَّلِع على ذكره وشُكره، فيسمع نداءَه ويجيبُ دعاءه.

الثاني: أنه أمره بالتَّكبير أولاً، ثم رغَّبه في الدعاء ثانياً تنبيهاً على أن الدعاء لا بُدَّ وأن يكون مسبُوقاً بالثناء الجميل على الرب تعالى؛ ألا ترى أن الخليل - عليه السَّلام - لمَّا أراد الدعاء قَدَّم أولاً الثناء؛ فقال: **{الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} (الشعراء: 78)** إلى قوله: **{والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين} (الشعراء: 82) فلما فرغ من هذا الثناء، شرع في الدُّعاء، فقال: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً} (الشعراء: 83) فكذا هاهنا.** (وقد علّم ربُّنا العبادَ أدب الدعاء ورغبهم فيه ، فالحمد لله رب العالمين). [513]

المسألة الثانية: ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوه:

أحدها أنه لما فرض عليهم الصِّيام، كما فُرض على الذين من قبلهم؛ وكانوا إذا ناموا، حُرِّم عليهم ما حرم على الصَّائم، فشَقَّ ذلك على بعضهم؛ حتَّى عصوا في ذلك التكليف، ثم نَدِمُوا وسألوا النبيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن توبتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة مُخبراً لهم بقبول توبتهم، وبنسخ ذلك التَّشديد؛ بسب دعائهم وتضرُّعهم، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ}** الآية(البقرة: 187) .

الثاني: قال ابن عبَّاس: إنَّ يهُود المدينة قالوا: يا محمَّد، كيف يسمع ربُّك دعاءنا، وأنت تزعم أنَّ بيننا وبينَ السَّماء مسيرة خمسمائة عامٍ، وأنَّ غِلَظَ كلِّ سماءٍ مثلُ ذلك؟ فنزلت الآية الكريمة

الثالث: قال الضَّحَّاك: إنَّ أعربيّاً سأل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: أرقيبٌ ربُّنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالى الآية.

الرابع: أنه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - كان في غزاة خيبر، وقد رفع أصحابُهُ أصواتهُم بالتكبير والتَّهليل والدُّعاء، فقال رسُولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اربعون على أنفسكم فإنَّما لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنَّما تدعون سمعياً قريباً وهُو معكم.

الخامس: قال قتادةُ وغيره: إنَّ الصحابة قالوا: كيف ندعُو ربنا، يا رَسُول الله، فنزلت الآية.

السادس: قال عطاءٌ وغيره: إن الصحابة سألوا في أي ساعة ندعوا ربنا فأنزل الله الآية.

السابع: قال الحسن: سأل أصحابُ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقالوا: أين رَبُّنا؟ فأنزل الله الآية. [514]

---

[513] انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 260)

[514] اللباب في علوم الكتاب (3/ 294)

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاة فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ وَادِيًا إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ. قَالَ: فَدَنَا مِنَّا فَقَالَ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَرْبعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فإنَّكم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الذِي تَدْعُونَ أقربُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُق رَاحِلَتِهِ. يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**". أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

المسألة الثالثة: في تفسير هذه الآية ولطائف معانيها:

يقول تعالى: **{وَإِذا}** على سبيل التحقيق، أي وسوف يسألونك عن الله تعالى كيف يدعونه ويخاطبونه ويتقربون إليه **{سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي}** ولم يقل عن دعائي او عن عبادتي؛ فلم يخصصها إذ جعل السؤال عاما عن معاملة الله سبحانه، ثم جاء الجواب مباشراً بغير واسطة، فلم يقل له (فقل) كما تجده في كثير من أجوبة أسئلتهم، ولكن دعاء الله تعالى ومعاملته جاءت بفاء التي تدل على عدم الترتيب والمباشرة يقول تعالى:**{ فإني}**
قال المحققون: إن الذين يسألون عن الجبال وعن اليتامى وعن المحيض وعن الأهلة ونحوها يجابون بالواسطة (فقل)، أما الذين يسألون عن الله سبحانه فإنه يرفع الوسائط بينه وبينهم، فلا حجابَ ولا واسطةَ حتى مِن أقرب المرسلين سيدنا محمد الكريم الأمين .

وفي هذا ما يشير إلى اسمه سبحانه " الودود" ومن معانيه أنه سبحانه يتقرب إلى عباده وهو غني عنهم.
يقول ابن القيم: لوْ لمْ يَكُنْ مِنْ تَحَبُّبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إلى عبادِهِ وإحسانِهِ إليهم وَبِرِّهِ بهم إلاَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ لهم ما في السَّمَاواتِ والأرضِ وما في الدنيا والآخرةِ، ثُمَّ أَهَّلَهُم وَكَرَّمَهم، وَأَرْسَلَ إليهمْ رُسُلَهُ وأَنْزَلَ عليهمْ كُتُبَهُ، وَشَرَعَ لهم شَرَائِعَهُ، وَأَذِنَ لهم في مُنَاجَاتِهِ كلَّ وقتٍ أرَادُوا، وَكَتَبَ لهم بكُلِّ حسنةٍ يَعْمَلُونَهَا عَشْرَ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وكَتَبَ لهم بالسيِّئَةِ واحدةً، فإنْ تَابُوا منها مَحَاهَا وأَثْبَتَ مكانَهَا حسنةً.
وإذا بَلَغَتْ ذُنُوبُ أحدِهِم عَنَانَ السماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرَهُ غَفَرَ لهُ، ولوْ لَقِيَهُ بِقُرَابِ الأرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيَهُ بالتوحيدِ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً لأَتَاهُ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَشَرَعَ لهم التوبةَ الهادمةَ للذنوبِ؛ فَوَفَّقَهُم لِفِعْلِهَا ثُمَّ قَبِلَهَا مِنْهُم.
فَإِنَّما الفضلُ كُلُّهُ والنعمةُ كُلُّهَا والإحسانُ كُلُّهُ منهُ أَوَّلاً وآخِراً، أَعْطَى عَبْدَهُ مالَهُ، وقالَ: تَقَرَّبْ بهذا إِلَيَّ أَقْبَلْهُ منكَ. فالعبدُ لهُ، والمالُ لهُ، والثوابُ منهُ، فهوَ المُعْطِي أَوَّلاً وآخِراً، فكيفَ لا يُحَبُّ مَنْ هذا شأنُهُ؟! وكيفَ لا يَسْتَحِي العبدُ أنْ يَصْرِفَ شَيْئاً منْ مَحَبَّتِهِ إلى غَيْرِهِ؟! ومَنْ أَوْلَى بالحمدِ والثناءِ والمَحَبَّةِ منهُ سبحانَهُ؟! ومَنْ أَوْلَى بالكَرَمِ والجُودِ والإحسانِ منهُ؟! [515] ومَن أولى بأن ندعوه ونستغيث به ونلجأ إليه من الله العلي الكريم؟ كما قال تعالى: : {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود:90] يحب خلقه ويرحمهم ويكلؤهم بعنايته وربوبيته في كل حين.
يقول الرب تبارك وتعالى: **{فَإِنِّي قَرِيبٌ}** وماذا يكون من النعمة أجمل من ربٍّ- مع عظمته وجلاله- قريبٍ؟ لا يحجبك عنه حاجب، ولا تحتاج لمناجاته إلى واسطةٍ أو توصيةٍ، ولا تحجز فيه موعدا، فإذا أراد العبد مناجاته، أو الطلب منه، أو الالتجاء إليه وجده أينما كان ووقتما كان.
ويقول ابن القيم في القصيدة النونية:
وهوَ الودودُ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّهُ *** أحبابُهُ والفضلُ لِلْمَنَّانِ.
وهوَ الذي جَعَلَ المَحَبَّةَ في قُلُو *** بِهِمُ وَجَازَاهُم بِحُبٍّ ثَانِ.

---

[515](طريق الهجرتين لابن القيم).

هذا هوَ الإحسانُ حَقًّا لا مُعًا *** وَضَةً ولا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ.
لكنْ يُحِبُّ شُكُورَهُم، وَشَكُورُهُم *** لا لاحْتِيَاجٍ منهُ للشُّكْرَانِ.

يقول ابن القيم في "الفوائد" : "ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوك بصنوف إنعامه ويتودد إليه بأنواع إحسانه مع غناه عنه.." . انتهى.

من أنت أيها العبد الفقير حتى يتقرَّب إليك أغنى الأغنياء؟! وماذا تساوي أنت أيها الذليل حتى يتودد إليك العزيز جلَّ في علاه؟!

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ» (صحيح مسلم).

عجبًا لك أيها العبد! ترفع حوائجك إلى مَنْ أغلق دونك بابَه وجعل دونها الحراس والحُجَّاب، وتنسى من بابهُ مفتوحٌ إلى يوم القيامة!

ومن عجائب ودَّهُ سبحانه: أن تسبق محبته للعباد محبتهم له. فالله هو الذي يبتدئ عباده بالمحبة ثم يوفقهم بفضله لمحبته، قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة من الآية:54].

يقول ابن الجوزي: "سبحان من سبقت محبته لأحبابه؛ فمدحهم على ما وهب لهم، واشترى منهم ما أعطاهم، وقدم المتأخر من أوصافهم لموضع إيثارهم، فباهى بهم في صومهم، وأحب خلوف أفواههم، يا لها من حالةٍ مصونةٍ! لا يقدر عليها كل طالب، ولا يبلغ كنه وصفها كل خاطب" . [516]

- يقول ربنا مبشراً الذين يلجئون إليه ويدعونه **{أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}** وحقيقة الدعاء هو استدعاء العبدُ ربَّه -سبحانه- العنايةَ واستمداده إياه المعونةَ.

ومن فضله -سبحانه- ونعمه على عباده أنْ قضى بالإجابة متى وُجِد الدعاء الصادق وهذا ما يفيده حرف الشرط (إذا) فكأنه وعْدٌ بالإجابة من الرب العلي جوابا لفعل الشرط (إذا دعاني). وهو كما يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه-: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ. وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ. فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ عَلِمْتُ أَنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ. ومثله قوله تعالى: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }** (غافر: 60) فجعل الدعاء عبادةً عظيمة والدليل أنه توعد الذين يستكبرون أن يدعوا ربهم، لأن الدعاء علامة على يقين العبد في فقره وفاقته إلى غنى ربه وكماله، وهو لُب العبادة وأساسها، ولذلك قال ﷺ: " الدعاء هو العبادة" لأن الدعاء والاستعانة بالله وحده من أهم أركان العبادة، كمثل قوله ﷺ واصفا الحج بأهم أركانه: " الحج عرفة".

وَقَالَ تَعَالَى - فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مِنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ» .

وفي هذا يقول القائل:

---

[516] صيد الخاطر لابن الجوزي.

لَوْ لَمْ تُرِدْ بَذْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ ... مِنْ جُودِ كَفِّكَ مَا عَوَّدْتَنِي الطَّلَبَا.

والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم إليه، وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قَالُوا أَتَشْكُو إِلَيْهِ ... مَا لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ.

فَقُلْتُ رَبِّي يَرْضَى ... ذُلَّ الْعَبِيدِ لَدَيْهِ.

فالدعاء الصادق الذي يُوَفَّق إليه العبد معه الإجابة بوعد الله تعالى الذي يقول **{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي}** قيل معناه: «فَلْيَدْعُونِي» وأى شرفٍ رفيعٍ لعبدٍ يناديه ربه العظيم سبحانه بالاستجابة بالدعاء وتكرم عليه -سبحانه- سَلَفاً الإجابة . وقال ابن عطية الأندلسي معناه: فليطلبوا أن أجيبهم، وهذا هو بابُ «استفعل» ، أي: طلب الشيء إلا ما شَذَّ مثل: استغنى اللَّهُ. وقال مجاهد وغيره: المعنى: فليجيبوني فيما دعوتهم إِلَيْه من الإيمان، أي: بالطاعة، والعملِ ، وهو بمعنى فليطيعوني. وقال أهل المعانى: الإجابة من العبد لله الطاعة، وإجابة الله لعبده إعطاؤه إياه مطلوبه، لأن إجابة كل شيء على وفق ما يليق به.

ويقول الفخر الرازي: إجابة العبد لله إن كانت إجابة بالقلب واللسان، فذاك هو الإيمان، وعلى هذا التقدير يكون قوله: فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي تكرارا محضا، وإن كانت إجابة العبد لله عبارة عن الطاعات كان الإيمان مقدما على الطاعات، وكان حق النظم أن يقول: فليؤمنوا بي وليستجيبوا لي، فلم جاء على العكس منه؟

وجوابه: أن الاستجابة عبارة عن الانقياد والاستسلام، والإيمان عبارة عن صفة القلب، وهذا يدل على أن العبد لا يصل إلى نور الإيمان وقوته إلا بتقدم الطاعات والعبادات. انتهى

{وَلْيُؤْمِنُوا بِي} أي يجمعوا بين الإيمان بالطاعة فهو أجدر بالإجابة، أو يوقنوا بالإجابة إذا هم دعوا كما في الحديث الشريف ويأتي جملة منه بإذن الله.

ومن أهم آداب الدعاء: الأدب مع الله وخشوع القلب وصدق الطلب، والاستقامة، واستجابة ما دعا الله إليه من الإيمان بالطاعة والعمل، فاستجابة الله للعبد كثيرا ما تكون مرتبطة باستجابة العبد لله فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، كما قال رسول الله ﷺ: "يا سعد اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة" .

{لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)} من الرشاد، أي ذلك أجدر أن يتبعوا سبيل الرشاد حتى يتصلون بربهم، فلا يسألون سواه، ولا يلجئون لغيره، ولا يستغيثون إلا هو ، وذلك عين التوحيد وأصله. فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كنتُ رَدِيفَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال لي: **يا غلام، احفظ الله يَحفظْك، احفظ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ- أو قال: أمَامَكَ - تَعَرَّف إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشدة، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعِنْ بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لَكَ، لم يَقدِرُوا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يَقْدِرُوا على ذلك، جَفَّتِ الأقلام، وطُوِيتِ الصحف، فإن استطعتَ أن تعمل لله بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، و أنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العُسْر يسراً، ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» .** [517]

---

(517)وهو حديث حسن بمجموع طرقه، بعضه عند أحمد، وبعضه عند الترمذي، وبعضه عند غيره وانظر " جامع العلوم والحكم " لابن رجب الحنبلي في حديث الباب، و " المقاصد الحسنة " للسخاوي، في حديث " لن يغلب عسر يسرين ".

المسألة الرابعة: في فضل الدعاء وأدبه .

وقال العلماء : إن الدعاء أهم مقامات العبودية، ويدل عليه أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها قوله: {ويسئلونك عن الروح} (الإسراء: 85)، {ويسئلونك عن الجبال} (طه: 105)، {ويسئلونك عن الساعة} (النازعات: 42) ، ومنها {يسئلونك ماذا ينفقون} (البقرة: 219)، {يسئلونك عن الشهر الحرام} (البقرة: 217)، {يسئلونك عن الخمر والميسر} (البقرة: 219) ، {يسئلونك عن اليتامى }(البقرة: 220) ، {ويسئلونك عن المحيض} (البقرة: 222)، {يسئلونك عن الأنفال} (الأنفال: 1)، { ويسئلونك عن ذي القرنين} (الكهف: 83)، {ويستنبئونك أحق هو} (يونس: 53) ، {يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة} (النساء: 176) ... وإذا عرفت هذا: فنقول هذه الأسئلة جاءت أجوبتها أن قال لمحمد ﷺ: {قلْ....} كذا وكذا، وفي صورةٍ واحدةٍ جاء الجواب بقوله: {فقل...} مع قوله تعالى: {يسئلونك عن الجبال}.

أما الصورة الوحيدة التي جاء الجواب فيها مباشرا بلا واسطة، وهي في هذه الآية قال: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب}، ولم يقل (قل) أو(فقل إني قريب) فتدل على تعظيم حال الدعاء كأنه سبحانه وتعالى يقول عبدي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك.

وقوله:{فإني قريب} يدل على أن الرب هو الذي يكون قريباً للعبد، ولم يقل: فالعبد مني قريب ، والقرب من الحق إلى العبد. ولأن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله فإنه لا يكون داعيا له فإذا فني عن جميع الأغيار صار مستغرقا في معرفة الله الواحد الأحد الحق، فلما ارتفعت الوسائط بالكلية، فلا جرم حصل القرب. وإنه ما دام يبقى العبد ملتفتا إلى غرض نفسه لم يكن قريبا من الله تعالى، ولأن ذلك لا يحصل بغير توفيق الله للعبد بتفريغ قلبه من الانشغال بسواه فصار مبدأ القرب من الله للعبد حتى يكون العبد منه قريب وكذا أتدبر قوله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } (الأعراف: 56) لأنه تعالى وفقهم للإحسان ابتداءً فكانت الرحمة بتوفيقهم للإحسان هي من قربتهم لرحمة الله تعالى فصارت هي القريبة للمحسنين لا هم.

قال تعالى: {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} (النساء: 32) ، وَقَالَ {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} (الفرقان: 77) ، وَقَالَ {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} (الأعراف: 55) ، وَقَالَ {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} (الأعراف: 56) .

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ. فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ» وَقَالَ «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ مِنْ فَضْلِهِ. وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ» .

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- قال: **«الدعاء هو العبادة» ثم قرأ {وقال ربُّكم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر: 60)** أخرجه الترمذي وأبو داود وهو صحيح.

وروى **أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «ليس شيء أكرمَ على الله من الدُّعاءِ»** أخرجه الترمذي، وهو حديث حسن، ورواه أيضاً أحمد، والبخاري في " الأدب المفرد "، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي" رواه أحمد في المسند بسند صحيح.

وفيه عن كَرِيمَةَ بِنْتِ الْخَشْخَاشِ الْمُزَنِيَّةِ، قَالَتْ: حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"قَالَ اللَّهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ".**

قال العلامة ابن كثير – رحمه الله-: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}** (النَّحْلِ: 128) ، وَكَقَوْلِهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: **{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}** (طَهَ: 46) . وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُخَيِّبُ دُعَاءَ دَاعٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. وَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ تعالى، كما قال الإمام أحمد – بسنده- عَنْ سَلْمَانَ -يَعْنِي الْفَارِسِيَّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَبْسُطَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ". (الله أكبر).**

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف بن عبد الله قال: تذاكرت: ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير: الصيام، والصلاة. وإذا هو في يد الله تعالى. وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله، فيعطيك. فإذا جماع الخير: الدعاء.

قال ابن رُشْدٍ: الدعاءُ عبادةٌ من العبادات التي يؤْجر فيها الأجر العظيم، أُجيبَتْ دعوته فيما دعا به، أو لم تُجَبْ.

ومن آداب الدعاء عدم العجلة يقول أحدهم دعوت فلم يستجب لي، ولو علم أن الدعاء فيه ثلاث طرق لاستجابته: إما أن يجاب بنفس طلبه في الدنيا، أو يجعله الله له في الآخرة يطلب به ما شاء، أو يصرف الله عنه من قدر السوء بمثل دعائه...لو علم ذلك لما تعجل وقال ما قال.

روى الإِمَامُ مَالِكٌ-بسنده -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ: **"يُسْتَجَاب لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجل، يَقُولُ: دعوتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي".** وهو في الصحيحين وهذا لفظ البخاري.

وروى مسلم- بسنده- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ".** قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الاستعجال؟ **قَالَ: "يقول: قد دعوتُ، وَقَدْ دَعَوتُ، فَلَمْ أَرَ يستجابُ لِي، فَيَسْتَحسر عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ".**

والدعاء إنما يُستجاب من قلبٍ ذاكرٍ غير غافل، وموقن بالإجابة.

وقال عليه السلام: «لا ينبغي أن يقول أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت ولكن يجزم فيقول: اللهم اغفر لي».

روى الإِمَامُ أَحْمَدُ-بسنده- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم قال: **"الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ".**

قال الغزالي في كتابه (الإحياء): قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا ، وقد قال الله تعالى {ادعوني أستجب لكم} قال: لأن قلوبكم ميتة. قيل: وما الذي أماتها؟

قال: ثمان خصال: عرفتم حق الله، فلم تقوموا به.

وقرأتم القرآن فلم تعملوا بحدوده.

وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته.

وقلتم نخشى الموت فلم تستعدوا له.

وقد قال تعالى {إن الشيطان لكم عدو} فواطأتموه على المعاصي.

وقلتم نخاف النار فأرهقتم أبدانكم فيها .

وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها.

وإذا قمتم من فرشكم رميتم بعيوبكم وراء ظهوركم، وقدمتم عيوب الناس أمامكم.

فأسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم؟!

قال ابن عطاء الله في «لطائف المنن» : وإذا أراد الله أن يعطِيَ عبداً شيئاً وهبه الاضطرار إِلَيْهِ فيه، فيطلبه بالِاضطرارِ، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبداً أمراً، منعه الاضطرَار إِلَيْه فيه، ثم منعه إياه، فلا يُخَافُ علَيْكَ أن تضطرَّ، وتطلب، فلا تعطى، بل يُخَافُ عليك أنْ تُحْرَمَ الاضطرارَ، فتحرم الطَّلَب، أو تَطْلُب بغير اضطرارٍ، فتحرم العطاء. انتهى.

قال ابن كثير: وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَى الدُّعَاءِ، مُتَخَلِّلَةً بَيْنَ أَحْكَامِ الصِّيَامِ، إِرْشَادٌ إِلَى الِاجْتِهَادِ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ إِكْمَالِ عِدّة الصيام، بَلْ وعندَ كُلِّ فِطْرٍ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ- بسنده- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم يقول: **"لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ"**. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِذْ أَفْطَرَ دَعَا أَهْلَهُ، وَوَلَدَهُ وَدَعَا.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَاجَهْ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **" ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حتى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين".**

المسألة الخامسة: في معنى السؤال عن الله تعالى.

قال فخر الدين الرازي في تفسيره: واعلم أن قوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} (البقرة: 186) يدل على أنهم سألوا النبي عليه السلام عن الله تعالى، فذلك السؤال إما أنه كان سؤالا عن ذات الله تعالى، أو عن صفاته، أو عن أفعاله، أما السؤال عن الذات فهو أن يسأل عن القرب والبعد بحسب الذات العلية.

وأما السؤال عن الصفات فهو أن يكون السائل سأل عن أنه تعالى: هل يسمع دعاءنا، فيكون السؤال واقعا على كونه تعالى سميعا، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالى كيف أَذِن في الدعاء، وهل أَذِن في الدعاء، وهل أَذِن في أن ندعوه بجميع الأسماء، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا، أو ما أذن بأن ندعوه على وجهٍ معين، كما قال تعالى: {ولا تجْهر بصلاتِكَ ولا تُخافِتْ بها...} (الإسراء: 110).

وأما السؤال عن الأفعال فهو أن يكون السائل سأل الله تعالى أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلى مطلوبنا، وهل يفعل ما نسأله عنه فقوله سبحانه: {وإذا سألك عبادي...} عني يحتمل كل هذه الوجوه...انتهى

وأما السؤال الوارد في الآية: فإنه جاء مجملا { سألك عبادي عني} فبينه الجواب بعده { فإني قريبٌ}، فما معنى القرب المذكور في الآية؟ قال أهل المعاني: يريد قربَه بالعلم، كما قال: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} (المجادلة: 7)، وقال: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} (الحديد: 4)، يريد بالعلم. فالله تعالى على عرشه فوق سماواته لا يعزب عن علمه شيءٌ، وليس المقصود وجوده في كل مكان كما ادعى ذلك الجهلاء.

(فعَن الضَّحَّاك بن مزاحم فِي قوله تعالى: {مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم} قَالَ هُوَ سبحانه على الْعَرْش، وَعلمه مَعَهم. قَالَ أَحْمد بن حنبل: هَذِه هى السُّنة .وأثر الضَّحَّاك إِسْنَاده لَا بَأْس بِهِ.

وقَالَ مَالك بن أنس: إن الله تَعَالَى فِي السَّمَاء وَعلمه فِي كل مَكَان لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَان. وهو أثرٌ صَحِيح.

عَن معدان قَالَ سَأَلت سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن قَوْله تعالى: {وَهُوَ مَعكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم} قَالَ علمه معكم.

وقيل لأبي عبد الله أَحْمد بن حَنْبَل: وَالله تَعَالَى فَوق السَّمَاء السَّابِعَة على عَرْشه بَائِن من خلقه وَقدرته وَعلمه بِكُل مَكَان ؟ قَالَ : نعم على عَرْشه لَا يَخْلُو شَيْء من علمه .وإِسْنَاده صَحِيح). [518]

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" أن ما نطق به الكتاب والسنة من قرب الرب من عابديه وداعيه هو مقيَّدٌ لا مطلَق لجميع الخلق، وذكر -رحمه الله- أن قرب الله ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال ذلك مَن قال مِن السلف، وهذا كقربه من عبده موسى- عليه السلام- لما كلَّمه من الشجرة. ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين في "شرحه للعقيدة الواسطية" ما خلاصته: اعلم أن من العلماء من قسم قرب الله إلى قسمين، كالمعية، وقال: القرب الذي مقتضاه الإحاطة قرب عام، والقرب الذي مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص، ومنهم من يقول. إن القرب خاص فقط، مقتض لإجابة الداعي وإثابة العابد، ولا ينقسم، مستدلين بهذه الآية، وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد". رواه مسلم، وهذا اختيار شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وقد أُورد على قولهما: قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}، وهاتان عامتان في المؤمن والكافر، وأجيب بأن القرب فيهما إنما هو للملائكة، ألا ترى أنه قال بعد الأولى: إذ يتلقى المتلقيان، وهما من الملائكة، وقال في الثانية: ولكن لا تبصرون، أي: لا تبصرون الملائكة وهم حاضرون لقبض الروح. انتهى.

وربما كانت الآية هنا على التأويل { فإني قريب أجيب...} أي فإني قريب بالإجابة والقدرة، أجيب إن شئت. ويعضده السياق والقرينة اللفظية في قوله { أجيب} التي توجه معنى القرب هنا.

ويرى الطبري أن معنى هذا التأويل: وإذا سألك عبادي عني: أي ساعة يدعونني؟ فإني منهم قريب في كل وقت، أجيب دعوة الداع إذا دعان. على معنى قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} (غافر: 60) ثم روى الطبري بسنده عن ابن جريج قال: زعم عطاء بن أبي رباح أنه بلغه: لما نزلت: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو! فنزلت: "وإذا سألك عبادي عَني فإني قريب... الآية" . وروى عن السدي: "وإذا سَألك عبادي عَني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دَعان"، قال: ليس من عَبد مؤمن يدعو الله إلا استجاب له، فإن كان الذي يدعو به هو له رزق في الدنيا أعطاه الله، وإن لم يكن له رزقًا في الدنيا ذَخره له إلى يوم القيامة، ودفع عنه به مكروهًا. [519]

المسألة السادسة: في فهم عبادة الدعاء وغلط الناس فيه.

في هذا المقام غلطت طائفةٌ من الناس ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة.

قالوا: فإن المطلوب إن كان قد قُدِّر، فلا بد من وصوله، دعا العبد أو لم يدعُ وإن لم يكن قد قدر، فلا سبيل إلى حصوله، دعا أو لم يدع.

---

[518] الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بَطَّة العكبري (المتوفى: 387هـ) (3/ 159)

[519] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 482)

ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله، والحث عليه وطلبه، قالوا: هو عبوديةٌ محضة. لا تأثير له في المطلوب ألبتة. وإنما تعبَّدنا به الله. وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء.
فهذه الطائفة محجوبةٌ عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبودية، وتعلق الشرع والقدر بها. فحجابها كثيف عن معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى في شرعه وأمره وقدره.
وجوابه، أن يُقال: بقي قسمٌ ثالث، لم تذكروه. وهو أنه قَدَر قدَّره الله تعالى بسببه. فإن وُجِد سببُه وُجِد ما رُتِّب عليه. وإن لم يوجد سببه لم يوجد.
ومن أسباب المطلوب: الدعاء والطلب اللذيْن إذا وُجِدا وُجِد ما رُتِّب عليهما. كما أن من أسباب الولد: الجماع. ومن أسباب الزرع: البذر. ونحو ذلك. وهذا القسم الثالث هو الحق. فلا موجب إلا مشيئة الله تعالى. وليس الدعاء أو غيره هاهنا إلا أسباب. وهو سبحانه الذي جعل السبب سببا. وهو الذي رتَّب على السبب حصول المُسبَّب. ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب. وإذا شاء منع سببية السبب، وقطع عنه اقتضاء أثره. وإذا شاء أقام له مانعا يمنعه عن اقتضاء أثره، مع بقاء قوته فيه. وإذا شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه.
فالأسباب طوع مشيئته سبحانه وقدرته، وتحت تصرفه وتدبيره. يقلبها كيف شاء.
وعن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- قال: **«لا يردُّ القَضاءَ إلا الدُّعاءُ، ولا يزيد في العُمُر إلا البِرُّ»** . أخرجه الترمذي وحسنه بعض أهل العلم.
وحديث ثوبان رضى الله عنه عند الحاكم وصححه: " لَا يرد الْقدر إِلَّا الدُّعَاء" قد أخرج مثله أَحْمد فِي «مُسْنده» وَابْن حبَان وَالْحَاكِم فِي «صَحِيحَيْهِمَا» من حَدِيث أبي الْجَعْد عَنهُ أَن رَسُول الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم - قَالَ: «إِن الرجل يحرم الرزق بالذنب يُصِيبهُ، وَلَا يرد الْقدر إِلَّا الدُّعَاء، وَلَا يزِيد فِي الْعُمر إِلَّا الْبر» ثمَّ قَالَ الْحَاكِم: هَذَا صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ. (وضعفه الألباني انظر حديث رقم: 3006 في ضعيف الجامع).
وَقَالَ ابْن حبَان: لم يرد بِهِ عُمُومه؛ لِأَن الذَّنب لَا يحرم الرزق الَّذِي رزق العَبْد، بل يكدر عَلَيْهِ صفاءه (إِذا فكَّر فِي تعقيب الْحَالة فِيهِ) ودوام الْمَرْء عَلَى الدُّعَاء يطيب لَهُ وُرُود الْقَضَاء ، فَكَأَنَّهُ رده لقلَّة حسه بألمه، وَالْبر يطيب الْعَيْش حَتَّى كَأَنَّهُ يُزَاد فِي عمره (لطيب) عيشه.
جاء في فيض القدير (3/ 541): (الدعاء يرد القضاء) يعني يهونه وييسر الأمر فيه ويرزق بسببه الداعي بالقضاء حتى يعده نعمة ذكره القاضي وأصله قول التوربشتي القضاء الأمر المقدر وفي تأويله وجهان: الأول: أن يراد بالقضاء ما يخافه العبد من نزول المكروه فإذا وفق للدعاء دفع الله عنه فيكون تسميته بالقضاء مجازا ويوضحه المصطفى صلى الله عليه وسلم في الرقية هي من قدر الله فقد أمر الله بالدعاء والتداوي مع علم الخلق بأن المقدور كائن الثاني: أن يراد به الحقيقة فيكون معنى رد الدعاء القضاء تهوينه حتى يكون القضاء النازل كأنه لم ينزل. انتهى
وعن عائشةَ- رضي اللَّه عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم: **«لاَ يُغْنِي حَذَرٌ مَنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ البَلاَءَ لَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ»** رواه الحاكم في «مستدركه» ، وقال: صحيحُ الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن فيه متروك فالحديث لا يصح ، وقوله «فَيَعْتَلِجَانِ» ، أي: يتصارعان.
والدعاء في كونه يرد قدر الله لأنه أيضاً من قدر الله، فمثله مثل الدواء في رد المرض وكلاهما مقدر من الله تعالى تعاطيه.

وَقد أخرج بن مَاجَهْ مِنْ طَرِيقِ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، هَلْ يَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ ﷺ: **" هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى".** قال ابن حجر: وَالْحَاصِلُ أَنَّ حُصُولَ الشِّفَاءِ بِالدَّوَاءِ إِنَّمَا هُوَ كَدَفْعِ الْجُوعِ بِالْأَكْلِ وَالْعَطَشِ بِالشُّرْبِ وَهُوَ يَنْجَعُ فِي ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ يَتَخَلَّفُ لِمَانِعٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [520]

قال الطيبي: "أي: هذه الأسباب، يعني كما أنَّ الله قدر الداء مثلاً، قدَّر زواله بالدَّواء، ومن تداوى ولم يبرأ، فاعلم أنه لم يُقدَّر أن يكون التداوي نافعًا في ذلك الدوَّاء، وإن اجتمع عليه الأطبَّاء. وقال التوربشتي: كأنَّ السائل عرف أنه من حق الإيمان أن يعتقد أنَّ المقدور كائن لا محالة، ووجد الشَّرع يرخص في الاسترقاء، ويأمر بالتداوي وبالاتقاء عن مواطن الهلكات، فأشكل عليه الأمر كما أشكل على الصحابة حين أخبروا أنَّ الكتاب يسبق على الرَّجل فيكون من أهل الجنة أو أهل النار ، فقالوا: "ففيم العَملَ؟ " فجاءهم الجواب " اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" وهو من القدر أيضا كما قال هنا لمن استشكل التداوي فبيَّنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "هي من قدر الله تعالى". [521]

وتأمل جوابَ عمر بن الخطاب لأبي عُبَيْدة - رضى الله عنهما- حين سأله وقد نكص عن دخول دمشق لما علم أن فيها الطاعون فقال أبو عبيدة: أتفر من قدر الله؟ **قال عمر: «نَعَمْ، نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله ... »** .

والدعاء كذلك إذا وفق الله العبد للدعاء واستجاب له، كان رفع سوء القضاء بتقدير الله تعالى للعبد الدعاء والإجابة.

وبهذا الطريق صحَّ القول بالتكاليف مع الاعتراف بإحاطة علم الله بالكل وجريان قضائه وقدره في الكل، ومثل هذا روى جبر رضى الله عنه أنَّ «رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» .

وفي " الصحيحين " عن عمرانَ بن حُصينٍ، قال: قال رجل:يا رسول الله، أيُعرَفُ أهلُ الجَنَّةِ مِنْ أهلِ النَّارِ؟ قالَ: (نَعَمْ) ، قالَ: فَلِمَ يعملُ العاملونَ؟ قال: (كلٌّ يعملُ لما خُلِقَ له، أو لما ييسر له).

وفي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، نَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} (الليل: 5) الْآيَتَيْنِ (اللَّيْلِ: 5) » .

قال ابن حجر:

وَحَاصِلُ السُّؤَالِ أَلَا نَتْرُكُ مَشَقَّةَ الْعَمَلِ فَإِنَّا سَنَصِيرُ إِلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْنَا؟!

وَحَاصِلُ الْجَوَابِ لَا مَشَقَّةَ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ.

---

[520] فتح الباري لابن حجر (10/ 136)

[521] قوت المغتذي على جامع الترمذي بتصرف (1/ 506)

قَالَ الطِّيبِيُّ الْجَوَابُ مِنَ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ مَنَعَهُمْ عَنْ تَرْكِ الْعَمَلِ وَأَمَرَهُمْ بِالْتِزَامِ مَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَزَجَرَهُمْ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ ؛ فَلَا يَجْعَلُوا الْعِبَادَةَ وَتَرْكَهَا سَبَبًا مُسْتَقِلًّا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ ِ بَلْ هِيَ عَلَامَاتٌ فَقَطْ. انتهى [522]

وقال الطبرى- في أروع ما قرأتُ: فى حديث علىّ- رضى الله عنه- أن الله لم يزل عالمًا بمن يطيعه فيدخله الجنة، وبمن يعصيه فيدخله النار، ولم يكن استحقاق من يستحق الجنة منهم بعلمه السابق فيهم، ولا استحقاقه النار لعلمه السابق فيهم، ولا اضطر أحدًا منهم علمه السابق إلى طاعة أو معصية، ولكنه تعالى نفذ علمه فيهم قبل أن يخلقهم، وما هم عاملون وإلى ما هم صائرون، إذ كان لا تخفى عليه خافية قبل أن يخلقهم، ولا بعد ما خلقهم، ولذلك قال تعالى في أهل الجنة يصف نعيمهم: { جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الواقعة: 24)، (السجدة: 17) . وكذلك قال فى أهل النار يصف عذابهم: { جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} (فصلت: 28) ، فأخبر أنه أثاب أهل طاعته جنته بطاعته، وجازى أهل معصيته النار بمعصيتهم إياه، ولم يخبرنا أنه أدخل من أدخل منهم النار والجنة لسابق علمه فيهم، ولكنه سبق فى علمه أن هذا من أهل السعادة والجنة وأنه يعمل بطاعته. وفى هذا أنه من أهل الشقاء وأنه يعمل بعمل أهل النار فيدخلها بمعصيته؛ فلذلك أمر تعالى ونهى؛ ليطيعه المطيع منهم فيستوجب بطاعته الجنة ويستحق العقاب منهم بمعصيته العاصى فيدخل بها النار، ولتتم حجة الله على خلقه. فإن قال قائل: فما معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) إن كان الأمر كما وصف من أن الذى سبق لأهل السعادة والشقاء لم يضطر واحدًا من الفريقين إلى الذى كان يعمل ويمهد لنفسه فى الدنيا ولم يجبره على ذلك؟ قيل: هو أن كل فريق من هذين مسهل له العمل الذى اختاره لنفسه، مزين ذلك له كما قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} (الحجرات: 7) الآية. وأما أهل الشقاء، فإنه زين لهم سوء أعمالهم لإيثارهم لها على الهدى كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) (النمل: 4) ، وكما قال تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) (فاطر: 8) ، وهذا يصحح ما قلناه من أن علم الله النافذ فى خلقه بما هم به عاملون، وكتابه الذى كتبه قبل خلقه إياهم بأعمالهم لم يضطر أحدًا منهم إلى عمله ذلك؛ بل هو أن المضطر إلى الشىء لا شك أنه مكره عليه، لا محب له؛ بل هو له كاره ومنه هارب، والكافر يقاتل دون كفره أهل الإيمان، والفاسق يناصب دون فسقه الأبرار؛ محاماة من هذا عن كفره الذى اختاره على الإيمان، وإيثارًا من هذا لفسقه على الطاعة، وكذلك المؤمن يبذل مهجته دون إيمانه، ويؤثر العناء والنصب دون ملاذه وشهواته حبًا لما هو له مختار من طاعة ربه على معاصيه، وأنى يكون مضطرًا إلى ما يعمله من كانت هذه صفاته؟ فبان أن معنى قوله: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) هو أن كل فريقى السعادة والشقاوة مسهل له العمل الذى اختاره، مزين ذلك له. انتهى [523]

وأما تعلل بعضهم بشبهة ما ثبت بشواهد العقل والأحاديث الصحيحة أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى، والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال رواية عن الله سبحانه وتعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»

---

(522)فتح الباري لابن حجر (11/ 497)

(523)نقلا عن شرح صحيح البخارى لابن بطال (10/ 303)

والجواب عن هذه الشبهة: أنه إذا كان مقصوده من الدعاء إظهار الذلة والمسكنة لله تعالى فهو من باب اليقين في الله الذي بيده مقادير كل شيء ولا ينافي ذلك الرضى بما قدره الله وقضاه، وذلك من أعظم مقامات العبودية، وإلا فلمن يلجأ العبد إذا أصابته المصيبة إلا الله سبحانه. والحديث المذكور هنا لا يثبت [524] وإن ثبت فالدعاء له وقته والذكر له وقته وكلاهما عبادتان عظيمتان لا تتضادان، كيف وكلاهما يدل على اتصال قلب العبد بربه سبحانه.

المسألة السابعة: في كيفية الاستجابة.

في الآية سؤال مشكل مشهور، وهو أنه تعالى قال: {ادعوني أستجبْ لكم} (غافر: 60) وقال في هذه الآية: {أجيب دعوة الداع إذا دعان} وكذلك في الآية الأخرى: { أمن يجيب المضطر إذا دعاه } (النمل: 62)، ثم إنا نرى الداعي يبالغ في الدعاء والتضرع فلا يُجاب فيما نرى.

والجواب: أن هذه الآية وإن كانت مُطْلَقة إلا أنه قد وردت آية أخرى مُقَيَّدة، وهو قوله تعالى: {بلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فيكْشِفُ ما تدعون إليهِ إن شاءَ }(الأنعام: 41)، ولا شك أن المطلق محمولٌ في معناه على المقيد، ثم تقرير المعنى فيه وجوهٌ:

أحدها: أن الداعي لا بد وأن يجد من دعائه عِوَضاً، إما إسعافا بطِلْبته التي لأجلها دعا وذلك إذا وافق القضاء، فإذا لم يساعده القضاء فإنه يُعْطَى سكينَّة في نفسه، وانشراحا في صدره، وصبرا يسْهُل معه احتمالُ البلاءِ الحاضر، وعلى كل حالٍ فلا يعْدِم فائدة، وهو نوعٌ من الاستجابة.

وثانيها: ما في المسند عن أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يعجِّل لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدّخرها لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا" قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: "اللَّهُ أَكْثَرُ "**. قال العلماء: يعني أكثرُ إجابة. وهو حديث صحيح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وهذا الخبر تمام البيان في الكشف عن هذا السؤال، لأنه تعالى قال: {ادعوني أستجب لكم}، ولم يقل: (أستجب لكم في الحال)، فإذا استجاب له ولو في الآخرة كان الوعد صدق.

وثالثها: أن قوله: {ادعوني أستجب لكم} يقتضي أن يكون الداعي عارفا بربه وإلا لم يكن داعيا له، بل لشيء مُتَخَيَّل لا وجود له ألبتة، فثبت أن الشرط الداعي أن يكون عارفا بربه ومن صفات الرب سبحانه أن لا يفعل إلا ما وافق قضاءه وقدره وعلمه وحكمته فإذا علم أن صفة الرب هكذا استحال منه أن يقول بقلبه وبعقله: يا رب أفعل الفعل الفلاني لا محالة، بل لا بد وأن يقول: أفعل هذا الفعل إن كان موافقا لقضائك وقدرك وحكمتك، وعند هذا يصير الدعاء الذي دلت الآية على ترتيب الإجابة عليه مشروطا بهذه الشرائط وعلى هذا التقدير زال الاشكال.

والوجه الرابع أن لفظ الدعاء والإجابة يحتمل معاني كثيرة :

---

(524)راجع الحديث رقم (1335) (3/ 506) ، والحديث رقم(4989) (10/ 745) من سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني رحمه الله .

أحدها: أن يكون الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله كقول العبد: يا الله الذي لا إله إلا أنت، وهذا إنما سمي دعاء لأنك عرفت الله تعالى ثم وحدته وأثنيت عليه، فهذا يسمى دعاء بهذا التأويل ولما سمي هذا المعنى دعاء سمي قبوله إجابة لتجانس اللفظ ومثله كثير وقال ابن الأنباري: {أجيب دعوة الداعي} هاهنا بمعنى أسمع لأن بين السماع وبين الإجابة نوع ملازمة، فلهذا السبب يقام كل واحد منهما مقام الآخر، فقولنا (سمع الله لمن حمده) أي أجاب الله فكذا هاهنا قوله: {أجيب دعوة الداع} أي أسمع تلك الدعوة، فإذا حملنا قوله تعالى: {ادعوني أستجب لكم} على هذا الوجه زال الإشكال.

وثاني المعاني التي يحتملها الدعاء والإجابة : أن يكون المراد من الدعاء التوبة عن الذنوب، وذلك لأن التائب يدعو الله تعالى عند التوبة، وإجابة الدعاء بهذا التفسير عبارة عن قبول التوبة، وعلى هذا الوجه أيضا لا إشكال، وثالثها: أن يكون المراد من الدعاء العبادة، قال عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة»، ومما يدل عليه قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (غافر: 60)، فظهر أن الدعاء هاهنا هو العبادة، وإذا ثبت هذا فإجابة الله تعالى للدعاء بهذا التفسير عبارة عن الوفاء بما ضمن للمطيعين من الثواب كما قال: {ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله} (الشورى: 26) وعلى هذا الوجه الإشكال زائل. فثبت أن الإشكال كله زائل والحمد لله.

وقال المعتزلة: أجيب دعوة الداع إذا دعان مختص بالمؤمنين الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (الأنعام: 82) وذلك لأن وصفنا الإنسان بأن الله تعالى قد أجاب دعوته، صفة مدح وتعظيم، ألا ترى أنا إذا أردنا المبالغة في تعظيم حال إنسان في الدين قلنا إنه مستجاب الدعوة وإذا كان هذا من أعظم المناصب في الدين، والفاسق واجب الإهانة في الدين، ثبت أن هذا الوصف لا يثبت إلا لمن لا يتلوث إيمانه بالفسق، بل الفاسق قد يفعل الله ما يطلبه إلا أن ذلك لا يسمى إجابة الدعوة.

قال الرازي: وفيه دقيقة أخرى وهي أنه تعالى لم يقل للعبد: أجب دعائي حتى أجيب دعاءك، لأنه لو قال ذلك لصار لدعائي، وهذا تنبيه على أن إجابة الله عبده فضل منه ابتداء، وأنه غير معلل بطاعة العبد، وأن إجابة الرب في هذا الباب إلى العبد متقدمة على اشتغال العبد بطاعة الرب، وهذا يدل على فساد ما نقلناه عن المعتزلة في المسألة. [525]

استئناف لأحكام الصيام والاعتكاف.

يقول تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } (الآية187)

المعنى الإجمالي للآيات:

---

[525] من تفسير فخر الدين الرازي باختصار يسير.

أي أبيح لكم أيها المؤمنون أن تجامعوا نساءكم في ليالي الصيام قبل النوم وبعد النوم ما لم يطلع الفجر. فأنتم سِتر لنسائكم وهن ستر لكم يسكن بعضكم إلى بعض. ولقد علم الله أنكم كنتم قد وقعتم في ضعف النفس عما كُلفتم به فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن وقد أبيح لكم ما استثقلتموه فلا إثم عليكم أن تباشروا نساءكم وتبتغوا الولد والعفاف وتأكلوا وتشربوا حتى يظهر بياضُ النهار من سواد الليل بطلوع الفجر، فإذا طلع الفجر فقد فُرِض عليكم الصيام والامتناع عن كل ذلك حتى مغيب الشمس، وحرامٌ عليكم أن تباشروا النساء أثناء الاعتكاف في المساجد. تلك الحدود من الحلال والحرام التي حدها الله فلا تنتهكوها، كذلك يمُنُّ الله على عباده ببيان آياته وأحكامه لعل ذلك يشحذ هممهم للتقوى .

سبب نزول قَوْلُهُ تَعَالَى:" أُحِلَّ لَكُمْ ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم".

وَلَفْظُ " أُحِلَّ" يَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ مُحَرَّمًا قَبْلَ ذَلِكَ ثُمَّ نُسِخَ. رَوَى أَبُو دَاوُدَ –بسنده- قَالَ: وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ فَأَرَادَ امْرَأَتَهُ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ نِمْتُ، فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُّ فَأَتَاهَا. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ طَعَامًا فَقَالُوا: حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا فَنَامَ، فَلَمَّا أصبحوا أنزلت هَذِهِ الْآيَةُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس ابن صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا- وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ يَعْمَلُ فِي النَّخِيلِ بِالنَّهَارِ وَكَانَ صَائِمًا- فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمُهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فلما رأته قالت: خيبة لك! فلما انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:" أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ" فَفَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ:" وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ".

وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:" عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ".

وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ- بسنده-: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ رَجَعَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ سَمَرَ عِنْدَهُ لَيْلَةً فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَدْ نَامَتْ فَأَرَادَهَا فَقَالَتْ لَهُ: قَدْ نِمْتَ، فَقَالَ لَهَا: مَا نِمْتُ، فَوَقَعَ بِهَا. وَصَنَعَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ مِثْلَهُ، فَغَدَا عُمَرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **أَعْتَذِرُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ، فَإِنَّ نَفْسِي زَيَّنَتْ لِي فَوَاقَعْتُ أَهْلِي، فَهَلْ تَجِدُ لِي مِنْ رُخْصَةٍ؟ فَقَالَ لِي: (لم تكن حقيقا يَا عُمَرَ) فَلَمَّا بَلَغَ بَيْتَهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَنْبَأَهُ بِعُذْرِهِ فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ.** [526]

قَوْلُهُ تَعَالَى:" فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ" كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ، أَيْ قَدْ أَحَلَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. وَسُمِّيَ الْوِقَاعُ مُبَاشَرَةً لِتَلَاصُقِ الْبَشَرَتَيْنِ فِيهِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:" وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَبَبَ الْآيَةِ جِمَاعُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا جُوعَ قَيْسٍ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ السَّبَبُ جُوعَ قَيْسٍ لَقَالَ: فَالْآنَ كُلُوا، ابْتَدَأَ بِهِ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ الذي نزلت الآية لأجله. [527]

والظاهر أنَّ الآية كانت على حكمٍ كان في الصيام في ابتداء فرضه ثم نسخته الآية الكريمة، وقيل هو مثالٌ على نسخ السنة بالكتاب لما لم يجدوا أصل ذلك الحكم منصوص عليه في القرآن، وأرى أنه ليس كذلك، فقد صح

---

[526] تفسير القرطبي (2/ 314)

[527] تفسير القرطبي (2/ 317)

عن رسول الله ﷺ أنه قال: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه" أي بيانا وتفصيلاً وحتى ابتداءً لتشريعٍ، فالحاصل أنه وحيٌ نسخ وحياً، والله أعلم.

حكم القُبلة وما شابهها غير الجماع في نهار رمضان.

والمباشرةُ التي أباحها الله بالليل، وحَرَّمها بالنهار، هي الجماع بالاتِّفاق.

واختلف العلماء فيما ما دون الجماع؛ كالقُبلة واللمس وغيره، وحاصل آرائهم على ثلاث مذاهب:

الإباحة مطلقاً. والكراهة مطلقا سدا للذريعة، والمذهب الثالث وهو الراجح فهو التفصيل.

وهو ترجيح كثير من المقتين ومن العلماء المعاضرين الشيخ ابن باز رحمه الله وغيره؛ قال: مَن قبَّل زوجته في الصيام فصومه صحيح، وهكذا لو لمسها أو نام معها كل ذلك لا يضر صومه؛ إذا لم يخرج من الرجل شيء، أما إذا خرج منه منيٌ يبطل الصوم، فإذا كان ما خرج قبلها ثم لمسها ولكن لم يخرج شيء فصومه صحيح، ولو أمذى لم يضره أيضاً على الصحيح، فالمذي لا يبطل الصوم، وهو الماء اللزج الذي يخرج على أثر الشهوة، على طرف الذكر وهو لا يبطل الصوم، وإنما يبطل الصوم بالمني وهو الماء الغليظ الذي يخرج دفقاً بلذةٍ بسبب الشهوة، وإذا كان يخشى خروج المنى لسرعة شهوته فينبغي له ترك التقبيل. انتهى.

واستدل المحققون بما في "الصحيحين" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **"كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَكَانَ أَمْلَكَكُمْ لأَرَبِهِ"**، وفي رواية عند أحمد ومسلم: **"كان يُقَبِّلُ في رمضانَ وَهُوَ صَائِمٌ"**. وعن أم سلمة: **"أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو صائم"** (متفق عليه).

فإن قيل: هذا خاصٌّ بالنبي صلى الله عليه وسلم لكونه يتحكم في شهوته، بخلاف غيره، فالجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص لغيره فيها؛ كما رواه مسلم عن عمر بن أبي سلمة: "أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُقَبل الصائم؟ فقال له: سل هذه، لأم سلمة، فأخبرته: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، فقال: يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له: أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له".

وروى عبد الرزاق والبيهقي عن رجل من الأنصار: أن رجلًا قبَّل امرأته وهو صائم، فوجد من ذلك وجْدًا شديدًا، فأرسل امرأته تسأل عن ذلك، فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها، فقالت أم سلمة: "إن رسول الله ﷺ كان يقبل وهو صائم، فرجعت المرأة إلى زوجها، فأخبرته، فزاده ذلك شرًّا، وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ يُحل الله لرسوله ما شاء، فرجعت المرأة إلى أم سلمة، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها، فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه المرأةِ ؟ فأخبرتْه أم سلمة، فقال: ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة: قد أخبرتُها، فذهبت إلى زوجها فأخبرتْه فزاده ذلك شرًّا، وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ يُحل الله لرسوله ما شاء، فغضب رسول الله ﷺ

ثم قال: والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده".

قال ابن بطال في "شرح البخاري": قال المهلَّب: وكل من رخص فى المباشرة للصائم، فإنما ذلك بشرط السلامة مما يُخاف عليه من دواعي اللذة والشهوة، ألا ترى قول عائشة عن النبى عليه السلام : **"وكان أملكُكم لإربه"**؛ ولهذا المعنى كرهها من كرهها. وروى حماد عن إبراهيم، عن الأسود: "أنه سأل عائشة عن المباشرة للصائم، فكرهتْها، فقلت: بلغنى أن النبي عليه السلام كان يباشر وهو صائم، فقالت: **أجل؛ إن رسول الله كان أملكَ لإربه من الناس أجمعين**". أي أقوى منكم في ضبط نفسه والأمن من الوقوع فيما يتولد عن المباشرة من

الإنزال أو ما تجر إليه من الجماع. والإِرَبُ هو الحاجة ويطلق على العضو. وهو لبيان أن علة كراهته هي فقط هي سد الذريعة من الوقوع في الجماع أو إنزال المنى في نهار رمضان، فإن أُمِنت فلا كراهة. وروى البخاري - تعليقا- : وقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَحْرُمُ عَلَيْهِ فَرْجُهَا».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: " هششت (أي نشطتُ) يوما، فقبلت وأنا صائم، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: صنعت اليوم أمرا عظيما، قبلت وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم؟ " قلت: لا بأس بذلك؟، قال: " ففيم (أي ففيم السؤال) ".

وأما حديث مَيْمُونَة بنت سعدٍ قَالَت: " سُئلَ رسولُ الله – ﷺ - عَن رجلٍ قبل امرأتهُ وهما صائِمانِ، قَالَ: قدْ أفطرَا ".أخرجهُ أحمدُ. فيه قَالَ الدارقطنيُّ: لَا يثبتُ، والضبيُّ غيرُ معروفٍ.

وقال ابن المنذر : رخَّص في القبلة عمر وابن عباس وأبو هريرة وعائشة، وعطاء، والشعبي، والحسن، وأحمد، وإسحاق.

وقال الإمام النووي: «تكره القبلة على من حركت شهوته وهو صائم، ولا تكره لغيره، لكن الأولى تركها، ولا فرق بين الشيخ والشاب في ذلك؛ فالاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال، فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوي كُرِهت، وإن لم تحركها لشيخ أو شاب ضعيف لم تكره، والأولى تركها».

وقال: «سواء قبل الخد أو الفم أو غيرهما، وهكذا المباشرة باليد والمعانقة لهما حكم القبلة، ثم الكراهة في حق من حركت شهوته».

من بديع لغة القرآن.

*{**الرفث**}: المقصود هنا الجماع، وأصله: قول الفحش، ثم يكنى به عن الجماع. وقال الراغب في (مفردات القرآن) : الرفث كلامٌ متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجُعِل كناية عن الجماع في قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}، تنبيها على جواز دعائهن إلى ذلك ومكالمتهن فيه، وعُدِي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء. انتهى

قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكني، فما ذكر الله في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما يعنى به الجماع (رواه الطبري وغيره). [528]

*{**هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ**} والتأويل أى هنّ ستر لكم عن الحرام. وأصلُ اللِّباس: ما يَلْبَسُه الإنسان مما يواري جَسَدَه، ثم المرأة تسمى لباسَ الرّجل، والرجل لباس المرأة؛ لانضمام جسد كل واحد منهما إلى جسد

(528) قال الزجاجي: قد تأملنا الألفاظ الواردة عن العرب، المستعملة في معنى الجماع، فما وجدنا فيها لفظةً وُضِعَتْ حقيقة في معنى الجماع حتى لا تستعمل في غيره، لكن الكلمة إذا كثر استعمالها في معنى ويكون موضوعها لمعنى آخر فإنها تصير حقيقةً فيما استعملت فيه كثيرًا، حتى إذا أطلق لم يعرف غير ذلك، كما تقول في المباضعة، فإن أصلها من البَضْع، وهو قَطْعُ اللحم، فإذا أطلق لم يعرف منه غير معنى الجماع، كما أن نفس قولنا: فَرْج كناية، فإذا أطلقوا الفرج لم يعرف منه غير هذا المعنى المقصود إليه.

وقالوا: بَاضَعَها كأنه باشر بُضْعَها، ولم يقولوا: فارجها، وصارت المباضعة كالحقيقة في معنى الجماع؛ لأنهم لا يستعملونها في غيره، ألا ترى أنهم يقولون: غَشِيَها وتَغَشَّاها، ووَطِئَها وتوطاها، وقربها، وبَطَنَها وتَبَطَّنَها، وكل هذه الألفاظ موضوعةٌ لغير هذا المعنى . انظر البحر المحيط في التفسير لابي حيان.

صاحبه، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، فلما كانا يتلابسان عند الجماع سمي كل واحد منهما لباسا للآخر. قال النابغة الجعدي:

إذا ما الضجيعُ ثنى جيدَها ... تثنّتْ فكانت عليه لباسا .

والعرب تسمى المرأة: اللباس، والفراش، والإزار، وأم العيال، والبيت.

وقيل: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ} أي: سكن لكم وأنتم سكن لهن، وهو قول ابن عباس في جميع الروايات ، وقول مجاهد وقتادة. وإنما جعل كل واحد منهما لصاحبه لباساً لأنه يسكن إليه، كما قال تعالى: {جَعَلَ لَكُمُ / اليل لِبَاساً} (الفرقان: 47) ، أي سكناً تسكنون فيه، فكذلك زوجة الرجل سكنه يسكن إليها كما قال تعالى: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الأعراف: 189) . فيكون كل واحد منهما لباساً لصاحبه لسكونه إليه.

والمعنى: أنكم تلابسونهن وتخالطونهن بالمساكنة، وهن كذلك، أي: قَلَّ ما يَصْبِرُ أحد الزوجين عن الآخر.

ويقال: إنما سُمِي الزوجان لباسًا؛ لسَتر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحلّ ، كما جاء في الخبر: "من تزوج فقد استكمل نصف دينه، أو نصف الإيمان" [529]

قلتُ: ويضعف عندي أن يكون المقصود من **{هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ}** الكناية عن الجماع وقد كنى عنه قبلها بالرفث، وإنما المعنى فيه الذي أذكره من الكناية على وجه تعليلٍ لطيفٍ في الآية وجميلٍ لمن تأمله. فالله سبحانه يقول بحِلِّ الجماع بين الزوجين ليل الصيام، ويعلل ذلك بأنه الرجل وامرأته لا يكادان يشعران بالدفء والستر إلا في أحضان بعضهما البعض ومن المشقة أن يبتعد الزوج عن زوجه طوال الشهر ليلا ونهارا ، فكان من الرب الكريم في الشهر الكريم الذي خلق الإنسان وأعلم بحاجاته ومشاعره أن يُحِلَّ له حضن زوجته في ليل رمضان. والتعبير اللطيف الجميل عن هذه العلاقة الجميلة التي باركها الرب تعالى ب(اللباس) هو تعبير فوق الرائع، فالمعاشرة تجعل كلا الزوجين ملائما لزوجه ملائمة اللباس لصاحبه لا يزيد فيصبح فضفاضا أو يقصر فيصير ضيقا، واللباس سترٌ، ودفءٌ، وزينةٌ، وجمالٌ، وكذلك الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها. فسبحان من تكلم بهذا القرآن العظيم.

(3) وقوله {تَخْتَانُونَ } أي تخونون. قال الزمخشري : الاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة. [530] . وقال ابن قتيبة : الخيانة أن يؤتمن الرجلُ على شيء فلا يؤدي الأمانةَ فيه ، وناقض العهدِ خائن؛ لأنه آمن بالعهد فغدره، ومنه قوله: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} (الأنفال: 58). أي: نقضا للعهد، ويقال لعاصي المسلمين: خائن؛ لأنه مؤتمن على دينه، ومنه قوله: {لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} (الأنفال: 27)، أي:

---

(529)رواه الطبراني في "الأوسط" عن أنس ، والأصفهاني في "الترغيب والترهيب"، والحاكم 2/ 161، وصححه، ولفظه عنده: "من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني". وضعفه ابن حجر في التلخيص 279، وقال ابن الجوزي في "العلل المتناهية" 2/ 612 (ط. دار الكتب العلمية): هذا حديث لا يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإنما يذكر عنه، وفيه آفات منها: يزيد الرقاشي، وهياج يعني ابن بسطام، ومالك بن سليمان. اهـ بتصرف. وينظر: "كشف الخفا" للعجلوني 2/ 239 برقم2432، "المقاصد الحسنة" للسخاوي ص 638 برقم1098 (ط. دار الكتاب العربي) وحسن الألباني الحديث بمجموع طرقه كما في "السلسلة الصحيحة"

(530) انظر الكشاف= تفسير الزمخشري.

بالمعاصي. [531]. وقال الراغب : والاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونوا أنفسكم؛ لأنه لم تكن منهم الخيانة، بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة. [532]

أقول: وفيه تكلفٌ من الراغب-رحمه الله- فسبب النزول يدل على وقوعهم في الجماع المحظور، وليس المراودة كما يقول. **وقوله تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}** أي: تخونونها بالمعصية، قال ابن عباس: يريد فيما ائتمنتكم عليه ، وخيانتهم: أنهم كانوا يباشرون ليالي الصيام.

وقوله تعالى: {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ} أمر إباحة ، والمباشرة: المجامعة؛ لتلاصق البشرتين وانضمامهما.

وقوله تعالى: {وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} أكثر المفسرين على أن المراد بهذا: الولد، أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

حكم صيام من أصبح جنباً .

وقوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} أمر إباحة حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود . رُوي في الصحيحين في تفسير هذا عن عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضى الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ} (البقرة: 187) عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلاَ يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ» [533].

قلتُ- الباحث: ولعل سبب الاشتباه في معناها على الصحابة -رغم أنَّ المجاز هنا عربيٌ مشهورٌ- هو ما تبينه رواية البخاري بعدها عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: " أُنْزِلَتْ: **{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ، مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ}** وَلَمْ يَنْزِلْ **{مِنَ الفَجْرِ}** (البقرة: 187) ، فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالخَيْطَ الأَسْوَدَ، وَلَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ: {مِنَ الفَجْرِ} فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ". وبهذا قال عامة أهل التفسير .

والعرب قد تكلمت بهذا اللفظ مجازاً في الليل والنهار، واختلفوا لم سميا خيطين؟ فقال الأكثرون: إنما يسمى خيطين عند اختلاط الضوء بالظلام والتفاف أحدهما بالآخر؛ شبها بخيطين بريمين، ومن هذا يقال: خَيّطَ الشيبُ رأسَه، إذا اختلط السواد بالبياض، ذكره أبو عبيد عن الأصمعي... وقال الزجاج: هما فجران، أحدهما: يبدو أسود معترضًا، وهو الخيط الأسود، والأبيض: الذي يطلع ساطعًا يملأ الأفق ، فعندهما الخيطان: هما الفجران، سميّا لامتدادهما، تشبيهًا بالخيطين. انتهى [534]

قلتُ: والفجر فجران: أحدهما: يسطع في السماء مستطيلا كذنب السرحان (الذئب) ولا ينتشر، وهو الفجر الكاذب، فذاك لا يحل الصلاة، ولا يحرم الطعام على الصائم. والثاني: هو المستطير الذي ينتشر ويأخذ الأفق، وهو الفجر الصادق الذي يحل الصلاة ويحرم الطعام على الصائم، وهو المعني بهذه الآية.

---

(531)انظر "تفسير غريب القرآن":

(532) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني.

(533)صحيح البخاري (3/ 28)

(534)التفسير البسيط (3/ 603-607)

ويؤيده ما روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لاَ يَمْنَعَنَّكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلاَلٍ»**، أَنَّ بِلاَلًا كَانَ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لاَ يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ»** ، قَالَ القَاسِمُ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَذَانِهِمَا إِلَّا أَنْ يَرْقَى ذَا وَيَنْزِلَ ذَا.

- وفي هذه الآية دليل على جواز الصوم لمن أصبح جنبًا، ووجه الدلالة من طريق الإشارة والاستلزام، وذلك أن الله -تباركَ وتعالى- أباحَ الجِماع إلى أن يتبين الخيطُ الأبيض من الخيطِ الأسود، ومعلوم أن من جامعَ قبلَ الفجرِ بلحظةٍ أنه لا يُدرِكُ فيها الاغتسال، وإنما يقعُ غسلُه بعدَ الفجر. [535] وهو من دقيق فقه العلماء رحمة الله عليهم.

وقد رُوى ذلكَ من فعلِ رسول الله - صلى الله عليه وسلم – رواه البخاري -رحمه الله- باب: الصائم يصبح جنبًا، **أَنَّ عَائِشَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ أَخْبَرَتَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ «يُدْرِكُهُ الفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ، وَيَصُومُ»**، وعند مسلم باب: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب) - وبذلك قال أكثرُ العلماء، واتفق عليه الفقهاءُ حتى صار إجماعًا، أو كالإجماعِ . وفيه خلاف من قول أبي هريرة ولكن رده العلماء، لأن رواية أزواج النبي ﷺ في هذا أوثق وأفقه.... [536]

جاء في "أحكام القرآن" لابن العربي: ففي ذلك عندى جواز طلوع الفجر عليه وهو جنب، وذلك جائز إجماعا، وقد كان وقع فيه بين الصحابة رضوان الله عليهم كلام، ثم استقر الأمر على أنه من أصبح جنبا فإن صومه صحيح، وبهذه الآية احتج ابن عباس عليه. انتهى

ويعني -رحمه الله- بالخلاف بين الصحابة ما روي عن أبي هريرة أنه قال: من أصبح جنبا فلا صوم له، واختلف في رجوعه عن قوله كما ذكره القرطبي في تفسيره.

قلتُ: ومما يؤيد رجوع أبي هريرة رضى الله عنه عن قوله إلى قول جمهور الصحابة ما رواه البخاري في صحيحه أنه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَال لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا وَلَوْلاَ مَرْوَانُ بن الحكم (والي المدينة حينها) أَقْسَمَ عَلَيَّ فِيهِ لَمْ أَذْكُرْهُ لَكَ، فَذَكَرَ قَوْلَ عَائِشَةَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ: فَقَالَ أبو هريرة: كَذَلِكَ حَدَّثَنِي الفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، **وَهُنَّ أَعْلَمُ**. وَقَالَ هَمَّامٌ، وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِالفِطْرِ . قال البخاري مرجحا رواية رجوع أبو هريرة إلى قول جمهور الصحابة: «وَالأَوَّلُ أَسْنَدُ». [537] وذلك بجانب قول أبي هريرة نفسه يرجح قول زوجات النبي ﷺ: وهن أعلم.

وفي الآية أيضا الإشارة إلى سنة تأخير السحور.

قال ابن كثير:

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحث على السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها. ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "تسحروا فإن في السحور بركة" .

---

(535)تيسير البيان لأحكام القرآن (1/ 264)

(536) انظر شرح النووي على مسلم باب الحديث المذكور في المتن و تيسير البيان لأحكام القرآن (1/ 265)

(537)صحيح البخاري (3/ 30)

وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر" .
وقال الإمام أحمد: بالسند- عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "السحور أكلُهُ بركة؛ فلا تدعوه، ولو أن أحدكم يجرع جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين" .
وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبها بالآكلين. ويستحب تأخيره إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور". (538)

حكم المواصلة في الصيام.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكما شرعيا، كما جاء في الصحيحين، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم" .
ويسن تعجيل الفطور كما يسن تأخير السحور لما ورد عن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر" أخرجاه في الصحيحين .
وقال الإمام أحمد- بالسند- عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقول الله، عز وجل: إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا".
وقال أحمد أيضا: بالسند- عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية، قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلةً، فمنعني بشير وقال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه. وقال: "يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا" .
وورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئا. قال الإمام أحمد: بسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تواصلوا". قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل. قال: "فإني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني". قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمنكِّل بهم.
قال ابن كثير: فقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويا لا حسيا، وإلا فلا يكون مواصلا مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:
لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد ...
وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى

---

(538)تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 513)

السحر". قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله. قال: "إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني، وساق يسقيني". أخرجاه في الصحيحين .

ذكر الاعتكاف وأحكامه.

- **وقوله تعالى: {ولا تُباشِروهن وأنتمْ عاكفون في المَساجِد}**

لما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست عامةً لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه **بقوله:** **{وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}** أي: وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى ، وانقطاعا إليه، ودلت الآية أن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد.
ويُستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.
وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف. [539]
عن ابن عباس- رضى الله عنه- قال: هذه الآية في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلا أو نهارا حتى يقضي اعتكافه.
قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفا في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يمكث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مُختَلَفٌ فيه.
ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.
وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها .
وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي صلى الله عليه وسلم وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها -وكان ذلك ليلا -فقام النبي صلى الله عليه وسلم ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا .
وفي رواية: تواريا-أي حياء من النبي صلى الله عليه وسلم لكون أهله معه ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: "على رسلكما إنها صفية بنت حيي" أي: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي: زوجتي. فقالا سبحان الله يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا" أو قال: "شرا".
قال الشافعي، رحمه الله: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها، لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقى لله أن يظنا بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا. والله أعلم.

---

[539] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 87) بتصرف

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة . [540]

وقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}.

أي محرّماته. أشار إلى الأحكام التي ذكرها في هذه الآية. وأما معنى الحد، فقالَ الليثُ: فَصْل ما بينَ كلِّ شَيْئين: حد، ومنتهى كل شيء حدُّه. قال الأزهري: ومن هذا: حدود الأرضين، وحدود الحرم. وحَدُّ الدار: ما يمنع غيرها أن يدخلَ فيها، وحدودُ الله: ما منع الله من مخالفتها.

قال الأزهري: حدود الله على ضربين.

ضربٌ منها: ما حُدَّ للناسِ في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحل وحرم، وأمر بالانتهاء إليها ، ونهى عن تعدّيها.

والضرب الثاني: عقوبات جعلت لمن تعداها كحد السارق وحد الزاني وحد القاذف، سميت حدودًا؛ لأنها تحدُّ، أي: تمنع من ارتكاب المعاصي التي جعلت عقوباتٍ فيها، وسميت الأولى حدودًا؛ لأنها نهايات أمر الله لا تُتَعَدَّى. وعلى ما ذكر الأزهري، وهو حسن صحيح، الضرب الأول سمي حدودًا؛ لأنها ممنوعة لا تؤتَى، كالأكل بعد الفجر في الصوم، والضرب الثاني: مانعٌ (من أن يؤتَى اللي يستوجبها من الجرائم)، والمصدر يُطلَق على المفعول والفاعل كثيرًا، كقوله عز وجل: {إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} (تبارك: 30) أي غائرا أو مغورا.

ويؤكد ما ذكرنا من المعنى في الحدود قوله تعالى: **{فَلَا تَقْرَبُوهَا}** أي: لا تأتوها فبيّن أنها ممنوعة. [541] وهى أبلغ من قوله: "فلا تفعلوها "لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها: {تلك حدود الله فلا تعتدوها} فينهى عن مجاوزتها.

{كذلك} أي: بيَّن الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح.

{يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون} فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سببا للتقوى. [542]

---

(540)تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 519)

(541)التفسير البسيط للواحدي (3/ 611)

(542)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 87)

تحريم أكل أموال الناس بالباطل.

قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (188)

نقلةٌ بديعةٌ.

ربما يظن الذي يقرأ هذه الآيات لأول مرة أن هناك نقلةً عجيبة من آيات الصيام ومحرماته ومباحاته وبين آية تحريم أكل أموال الناس بالباطل، فالآية السابقة في آخرها { **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**} ثم جاء العطف بحرف(الواو) **{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** فأى علاقة بينهما؟

إنها نقلةٌ بديعةٌ تبين لك كيف أن عمق الخطاب التربوي لأمة محمد ﷺ يستطيع القرآن فقط التعبير عنه في ألطف وأرق صورة. والمعنى الراقي في هذا الموضع يقول: إذا كان الحديث بدأ عن تشريع الصيام وهو طقس تعبدي راقٍ بين العبد وربه وفيه من القضايا التي تمت مناقشتها وقد حُدَّت الحدود لها في محرماته ورخصه ومباحاته، فإن الدين ليس طقوساً تعبديةً بين العبد وربه فحسب؛ بل الدين هو الحياة بكل ما تشتمل عليه من معاملاتٍ وحكوماتٍ وكلامٍ وخصامٍ، فكما أنكم- أيها المؤمنون- مطالبين أن تلتزموا بما حدَّه وفصَّله الله لكم في العبادات ، فأنتم مطالبين أيضا ألا تعتدوا حدوده في معاملاتكم مع الناس **{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** .

وذلك نهي عن أكل الأموال بغير الحق ويشمل ذلك كل وجوه الأكل الحرام مما تبيَّن عن طريق الكتاب أو السنة. والأكل الحرام يذهب بالبركة، ويرسخ في النفس درن الشرح والجشع، ويشيع بين الناس الكراهية والتحاسد والبغضاء، وينتزع من بين الأفراد كل بقية للمودة أو الثقة أو البركة.

وفي الآية تقرير أصل عظيم من أصول الشريعة، وهو تحريم أكل أموال الناس بالباطل. وهو أصلٌ كبير ينضوي تحته باب واسعٌ من أبواب الحكومات بين الناس، والمعاملات.

وأكل الأموال بالباطل له جهات كثيرة، وهي كالرشا والقمار والسرقة والتطفيف في الميزان والمكيال، وكذلك أثمان الخمور والخنازير وأجور النساء الزواني اللواتي يأتين الفاحشة، ثم أكل المهور وغيرها من الأموال عن غير طيب نفس أو الاحتكار والربا والغش والخداع في البيع والتعامل ...وغير ذلك من أصناف الأكل الحرام الذي يسحت البركة ويودي بالآكلين الظالمين إلى النار - وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: " **ومن نبت جسمه من حرام، فالنار أولى به** ".

ومن بديع تعبير القرآن هذا التصور الذي تقرره اللغة القرآنية ابتداءً في تعبيرٍ دقيقٍ لوظيفة الخطاب القرآني في تربية المجتمع المؤمن.

قال الإمام الطبري في بيان معنى الضمير في قوله تعالى: **{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ}** وكيف يأكل المرؤ مال نفسه؟ يعني تعالى ذكره بذلك؛ ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض بالباطل. فجعل تعالى ذكره بذلك آكلَ مال أخيه بالباطل، كالآكل مالَ نَفسه بالباطل.

ونَظيرُ ذلك قولهُ تعالى: **(وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)** (سورة الحجرات: 11) وقوله: **(وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)** (سورة النساء: 29) بمعنى: لا يلمزْ بعضكم بعضا، ولا يقتُلْ بعضكم بعضا لأن الله- تعالى - جعل المؤمنين إخوة، فقاتِل أخيه كقاتلِ نفسه، ولامزُه مثل لامز نفسه، وكذلك تفعل العرب تكني عن نفسها بأخواتها، وعن أخواتها

بأنفسها، فتقول: "أخي وأخوك ننظر أيُّنا أبطش؟". يعني: أنا وأنت نصْطرع، فننظر أيُّنا أشدّ - فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه.[543]

والمعنى: ولا تأخذوا أموالكم التي أموال غيركم، أضافها إليكم، لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم مال نفسه؛ ولأن أكله لمال غيره يجرِّئ غيره على أكل ماله عند القدرة. فكان الخطابُ القرآني -بذلك- خطابَ بناءٍ لأواصر المحبة والتماسك والمسؤولية في المجتمع المسلم.

(والمراد بالأكل مطلق الأخذ، والتعبير عن الأخذ بالأكل معروف في اللغة، تجوَّزوا فيه قبل نزول القرآن، ومنشؤه أن الأكل أعم الحاجات التي تُقصد من المال وأكثرها، وإن كان بعض الناس يفضل غير الأكل من الأهواء ينفق فيه المال، فإن هذا لا ينفي أن الحاجة إلى الأكل وتقويم البنية أعظم وأعم، وأكثر ما يستعمل أكل المال في مقام أخذه بالباطل، وقد يستعمل في غيره.[544]

قلتُ: ولما كان حبُّ المال وحبُّ أخذه وجمعه غريزةً لا تكاد تنعدم عند أحد، كانت مقارنتها بغريزة الأكل التي هي من أشد الغرائز الحيوانية في البشر منطقيا جداً، وكان أخذ المال كأكله، والتعبير بأكله هنا وفي مثله أبلغ.

وقوله تعالى: { بالباطل} هو بيان لنوع المنهِيِّ عنه من أكل الأموال، فما كان أكله بحقٍ كبيعٍ صحيحٍ، او هبةٍ، وما كان في معناه فليس مُحرَّما أكله، وإنما حرم الله أكل أموال الناس { بالباطل} أي بالحجج الباطلة، والغصب، والطغيان، والأيْمان الكاذبة والرِشوة، وما إلى ذلك.

(ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعةٍ أو عارية، أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضا، أخذها على وجه المعاوضة، بمعاوضة محرمة، كعقود الربا، والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عِوَض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة، ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا، لمن ليس له حقٌ منها، أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه، من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه، حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة، غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم، لا يبيح محرما، ولا يحلل حراما، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمُبْطِل راحةٌ، ولا شبهة، ولا استراحة.

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون آكلا لمال غيره، بالباطل والإثم، وهو عالمٌ بذلك. فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله.

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحِلّ له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: {وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}).[545]

وَرَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" **إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ**- أي أقوى لسانا في بيان حجته- **فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ**- أي لا أفتش عن القلوب

(543)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 548)

(544)تفسير المنار (2/ 157)

(545)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 88)

والله وحده يعلم المُحِقّ من المُبطِل- **فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ- فِي رِوَايَةٍ- فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا".** والتخيير فيها على معنى التهديد والوعيد، فليختر أن يحملها أو يدعها فإنه مُحاسَب على كل حال. [546]

وعن قتادة قوله: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام" وكان يقال: مَن مشى مع خصمه وهو له ظالم، فهو آثم حتى يرجع إلى الحق. واعلم يَا ابن آدم أن قَضاء القاضي لا يُحلّ لك حراما ولا يُحقّ لك باطلا وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرَى ويشهدُ به الشهود، والقاضي بَشر يخطئ ويصيب. واعلموا أنه من قد قُضي له بالباطل، فإن خصومته لم تنقض حتّى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبُطل للمحق، بأجود مما قُضي به للمبطل على المحقّ في الدنيا.

وقوله تعالى: {وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}

قال الإمام ابن جرير: وأصل "الإدلاء": إرسال الرجلِ الدلوَ في حبل متعلقا به في البئر. فقيل للمحتج لدعواه: "أدلَى بحجة كيت وكيت" إذا كان حجته التي يحتج بها سببا لدعواه ، هو به متعلقٌ في خصومته، كتعلق الدلو فيها بحبلها ، يقال فيهما جميعا: "أدلى فلان بحجته، فهو يُدلي بها إدلاء، وأدلى دلوه في البئر، فهو يدليها إدلاء". [547]

وقيل (وَتُدْلُوا بِها) وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. [548] ووجه التشبيه هنا أن الذي يُلقي بدلوه في البئر إنما فعل ذلك يرجو الماء، كالذي يلقي برشوة لحاكمٍ أو غيره يرجو منفعةً بحكمه له أو ميله إليه.

قال العلامة ابن عطية: وهذا القول يترجح لأن الحكام مَظِنَّة الرشوةِ إلا من عصم الله؛ وهو الأقل، وأيضا فإن اللفظتين متناسبتان، الإدلاء من ارسال الدلو، والرشوة من الرشاء (الحبل الذي يُربط بالدلو ينزل به البئر)، كأنها يمد بها لتُقْضَى الحاجةُ..

وقال الرازي: والإدلاء مأخوذ من إدلاء الدلو، وهو إرسالك إياها في البئر للاستقاء يقال. أدْلَيْتُ دلوي أُدْلِيها إدلاءً؛ قال تعالى: {فأدلى دلوه} (يوسف: 19) ، ثم جُعِل كل إلقاءِ قولٍ أو فعلٍ إدلاء، ومنه يُقال للمحتج: أدلى

---

[546] وعلى القول بهذا الحديث: " إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار" على القول به جمهور العلماء وأئمة الفقهاء. وهو عندهم نص في أن حُكْم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن، وسواء كان ذلك في الأموال والدماء والفروج، فما حَكَم به لا يحل حراما ولا يحرم حلالا خالف فيه باطن القضية ظاهرها الذي حكم به. إلا ما حُكي عن أبي حنيفة في الفروج (النكاح والطلاق)، وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجلٍ بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فإن تُطلَّق وفرجها يحل لمتزوجها- ممن يعلم أن القضية باطلة- بعد العدة، لأن قضاء القاضي – كما يرى- أحدث في ذلك التحليل والتحريم في الظاهر والباطن جميعا، ولولا ذلك ما حلت للأزواج. واحتج قياساً بحكم اللعان وقال: معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللعان الكاذب، الذي لو علِم الحاكم كذبها فيه لأقام عليها الحد ولم يفرق بينهما، فلم يدخل هذا في عموم قوله عليه السلام:" فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه" الحديث. راجع تفسير القرطبي (2/ 338).

وقد خالف أبي حنيفة في ذلك صاحباه ، ورد الجمهور ذلك بالقاعدة المجمع عليها، وهي أن الأبضاع (الفروج) أولى بالاحتياط من الأموال، فإن لم يتناولها النص بلفظه تناولها بعلته بالأولى. وفي عموم الآية والحديث حاكمٌ لا يرده قياس أبي حنيفة وخصوصا أنه قياس مع الفارق فاللعان حكمٌ لصورةٍ معينة تتعلق بحدٍ وليس بخصومة.

[547] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 550) بتصرف يسير.

[548] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 233)

بحجته، كأنه يرسلها ليصير إلى مراده كإدلاء المستقي الرشاء (الحبل) ليصل إلى مطلوبه من الماء، وفلان يُدْلي إلى الميت بقرابة أو رحم، إذا كان منتسبا إليه فيطلب الميراث بتلك النسبة، مثل طلب المستستقي بالدلو الماء.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه داخل في حكم النهي، والتقدير: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تدلوا إلى الحكام)، أي لا تلقوها رِشوةً إليهم لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالباطل. وفيه تشبيه الرشوة بالإدلاء من وجهين أحدهما: أن الرشوة رشاء الحاجة، فكما أن الدلو المملوء من الماء يصل من البعيد إلى القريب بواسطة الرشاء فالمقصود البعيد يصير قريبا بسبب الرشوة. والثاني: أن الحاكم بسبب أخذ الرشوة يمضي في ذلك الحكم من غير تثبت كمضي الدلو في الإرسال.[549]

قلتُ: والمعنى يحتمل حمله على الادلاء للحاكم بالحجج الباطلة التي تنطلي عليه فيحكم بالباطل، وهذا على معنى: (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم حالكم أنكم تدلون بها إلى الحكام أي أن تلقوا بأموال غيركم في الخصومة إلى الحكام وتحاجونهم بالباطل لتأكلوا طائفة من أموالهم)، كما قال الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ.

يعني: لا تنه عن خلق وأنتَ تأتي مثله. وتكون (الواو) هي للحال.

وتحتمل الآية أيضا {وتدلوا بها إلى الحكام}أي وتلقوا بها رشوةً لهم حتى يجوروا في حكمهم، فيكون قوله :"وتُدْلوا" موقعها الجزم عطفا على قوله: "ولا تأكلوا " والمعنى النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وكذلك النهي عن رشوة الحكام ليبسروا لهم ذلك. وقد ذُكر أن ذلك كذلك في قراءة (أُبَيٍّ بن كعب) بتكرير حرف النهي: "وَلا تدلوا بها إلى الحكام".

أقولُ: والأولى حمل المعنى على كل ذلك، لأنه نهى عام عن أكل أموال الناس بالباطل بأى طريقٍ كان.

وقال ابن الجوزي في مرجع ضمير الهاء في **قوله { وتدلوا بها}** أنها ترجع إلى الأموال، كأنه قال: لا تصانعوا ببعضها جَوَرَة الحكام. والثاني: أنها ترجع إلى الخصومة. أي ترفعوا الخصومة للحكام بالحجج والأيمان الباطلة وقوله تعالى: **{ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا }** أي بعضا وطائفةً من أموالهم **{مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ}** أي بالظلم والجور والطغيان **{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }** الواو للحال أي مع علمكم أنكم على باطلٍ وجورٍ.

وإن قيل: كيف أعاد ذكر الأكل فقال: وَلا تَأْكُلُوا لِتَأْكُلُوا؟ فالجواب: أنه وصل اللفظة الأولى بالباطل، والثانية بالإثم، فأعادها للزيادة في المعنى، ذكره ابن الأنباريّ.[550]

قال صاحب المنار: وفي الآية والحديث عبرة لوكلاء الدعاوى الذين يدعون بالمحامين، فلا يجوز لمن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل، ولا أن يستمر في محاولة إثباتها إذا ظهر له بطلانها في أثناء التقاضي. وإننا نراهم يعتمدون على تفننهم في القول ولحنهم في الخطاب.

وذكر الأستاذ محمد عبده في تفسير الآية ما عليه المسلمون في هذا العصر، ولا سيما في بلاد مصر، من كثرة التقاضي والخصام، والإدلاء إلى الحكام، حتى إن منهم من لا يطالب غريمه بحقه إلا بواسطة المحكمة، ولعله لو طالبه لما احتاج إلى التقاضي، ومنهم من يحاكم الآخر لمحض الانتقام والإيذاء وإن أضر بنفسه اهـ.

---

[549] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 280)، تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 260).

[550]. (راجع زاد المسير لابن الجوزي)

وكم من ثروة نفدت، وبيوت خربت، ونفوس أهينت، وجماعة فرقت، وما كان لذلك من سبب إلا الخصام، والإدلاء بالمال إلى الحكام، ولو تأدب هؤلاء الناس بآداب الكتاب الذي ينتسبون إليه لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم، ويمنع تقاطعهم وعقوقهم، ويحل فيهم التراحم والتلاحم، محل التزاحم والتلاحم، وإنك ترى من أدعيائهم من يزعم أنهم عن هدي الدين أغنياء، وقد عَمُوا عما أصابهم بتركه من المصائب، فهم بالفسق عنه يتنابذون ويتحاسدون، ويتنافدون ويتناقدون، ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون. [551]

يسألونك عن الأهلة...

(نرى هنا -وكما في سورة البقرة على عمومها- أحكاماً تتعلق بالتصور والاعتقاد، وأحكاماً تتعلق بالشعائر التعبدية، وأحكاماً تتعلق بالقتال.. كلها تتجمع في نطاق واحد، وكلها يعقب عليها تعقيبات تذكر بالله وتقواه.

في موضوع إتيان البيوت من ظهورها يجيء تعقيب يصحح معنى البر، وأنه ليس في الحركة الظاهرة إنما هو في التقوى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها، وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ..

وفي القتال بصفة عامة يوجههم إلى عدم الاعتداء، ويربط هذا بحب الله وكرهه. «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»

وفي القتال في الشهر الحرام يعقب بتقوى الله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

وفي الإنفاق يعقب بحب الله للمحسنين: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» ..

وفي التعقيب على بعض شعائر الحج يقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..

وفي التعقيب الآخر على بيان مواقيت الحج والنهي عن الرفث فيه والفسوق والجدال يقول: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ» ..

وحتى في توجيه الناس لذكر الله بعد الحج يجيء التعقيب: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» ..

وهكذا نجد هذه الأمور المتعددة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، ناشئاً من طبيعة هذا الدين، الذي لا تنفصل فيه الشعائر التعبدية، عن المشاعر القلبية، عن التشريعات التنظيمية، ولا يستقيم إلا بأن يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة، وشؤون القلب وشؤون العلاقات الاجتماعية والدولية، وإلا أن يشرف على الحياة كلها، فيصرفها وفق تصور واحد متكامل، ومنهج واحد متناسق، ونظام واحد شامل، وأداة واحدة هي هذا النظام الخاص الذي يقوم على شريعة الله في كافة الشؤون.

وهناك ظاهرة في هذه السورة تطالعنا منذ هذا القطاع. تطالعنا في صورة مواقف يسأل فيها المسلمون نبيهم- صلى الله عليه وسلم- عن شؤون شتى، هي الشؤون التي تصادفهم في حياتهم الجديدة، ويريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصورهم الجديد، ووفق نظامهم الجديد. وعن الظواهر التي تلفت حسهم الذي استيقظ تجاه الكون الذي يعيشون فيه..

فهم يسألون عن الأهلة.. ما شأنها؟ ما بال القمر يبدو هلالاً، ثم يكبر حتى يستدير بدراً، ثم يأخذ في التناقص حتى يرتد هلالاً، ثم يختفي ليظهر هلالاً من جديد؟

ويسألون ماذا ينفقون؟ من أي نوع من مالهم ينفقون؟ وأي قدر وأية نسبة مما يملكون؟

---

(551)تفسير المنار (2/ 161)

ويسألون عن القتال في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام. هل يجوز؟

ويسألون عن الخمر والميسر ما حكمهما؟ وقد كانوا أهل خمر في الجاهلية وأهل ميسر! ويسألون عن المحيض؟ وعلاقتهم بنسائهم في فترته. ثم يسألون عن أشياء في أخص علاقاتهم بأزواجهم، وأحيانا تسأل فيها الزوجات أنفسهن.

وقد وردت أسئلة أخرى في موضوعات متنوعة في سور أخرى من القرآن أيضاً..

وهذه الأسئلة ذات دلالات شتى:

فهي أولاً دليل على تفتح وحيوية ونمو في صور الحياة وعلاقاتها، وبروز أوضاع جديدة في المجتمع الذي جعل يأخذ شخصيته الخاصة، ويتعلق به الأفراد تعلقاً وثيقاً فلم يعودوا أولئك الأفراد المبعثرين، ولا تلك القبائل المتناثرة. إنما عادوا أمة لها كيان، ولها نظام، ولها وضع يشد الجميع إليه ويهم كل فرد فيه أن يعرف خطوطه وارتباطاته.. وهي حالة جديدة أنشأها الإسلام بتصوره ونظامه وقيادته على السواء.. حالة نمو اجتماعي وفكري وشعوري وإنساني بوجه عام.

وهي ثانياً دليل على يقظة الحس الديني، وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس، مما يجعل كل أحد يتحرج أن يأتي أمراً في حياته اليومية قبل أن يستوثق من رأي العقيدة الجديدة فيه، فلم تعد لهم مقررات سابقة في الحياة يرجعون إليها، وقد انخلعت قلوبهم من كل مألوفاتهم في الجاهلية، وفقدوا ثقتهم بها ووقفوا ينتظرون التعليمات الجديدة في كل أمر من أمور الحياة.. وهذه الحالة الشعورية هي الحالة التي ينشئها الإيمان الحق. عندئذ تتجرد النفس من كل مقرراتها السابقة وكل مألوفاتها، وتقف موقف الحذر من كل ما كانت تأتيه في جاهليتها، وتقوم على قدم الاستعداد لتلقي كل توجيه من العقيدة الجديدة، لتصوغ حياتها الجديدة على أساسها، مبرأة من كل شائبة. فإذا تلقت من العقيدة الجديدة توجيهاً يقر بعض جزئيات من مألوفها القديم تلقته جديداً مرتبطاً بالتصور الجديد. إذ ليس من الحتم أن يبطل النظام الجديد كل جزئية في النظام القديم ولكن من المهم أن ترتبط هذه الجزئيات بأصل التصور الجديد، فتصبح جزءاً منه، داخلاً في كيانه، متناسقاً مع بقية أجزائه.. كما صنع الإسلام بشعائر الحج التي استبقاها. فقد أصبحت تنبثق من التصور الإسلامي، وتقوم على قواعده، وأنبتت علاقتها بالتصورات الجاهلية نهائياً.

والدلالة الثالثة تؤخذ من تاريخ هذه الفترة وقيام اليهود في المدينة والمشركين في مكة بين الحين والحين بمحاولة التشكيك في قيمة النظم الإسلامية، وانتهاز كل فرصة للقيام بحملة مضللة على بعض التصرفات والأحداث- كما وقع في سرية عبد الله بن جحش وما قيل من اشتباكها في قتال مع المشركين في الأشهر الحرم- مما كان يستدعي بروز بعض الاستفهامات والإجابة عليها، بما يقطع الطريق على تلك المحاولات ويسكب الطمأنينة واليقين في قلوب المسلمين.. ومعنى هذه الدلالة أن القرآن كان دائماً في المعركة. سواء تلك المعركة الناشئة في القلوب بين تصورات الجاهلية وتصورات الإسلام والمعركة الناشئة في الجو الخارجي بين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين يتربصون بها من كل جانب.

هذه المعركة كتلك ما تزال قائمة. فالنفس البشرية هي النفس البشرية وأعداء الأمة المسلمة هم أعداؤها.. والقرآن حاضر.. ولا نجاة للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة إلا بإدخال هذا القرآن في المعركة، ليخوضها حية كاملة كما خاضها أول مرة.. وما لم يستيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح! وأقل ما تنشئه هذه الحقيقة في النفس.. أن تقبل على هذا القرآن بهذا الفهم وهذا الإدراك وهذا التصور.

أن تواجهه وهو يتحرك ويعمل وينشئ التصور الجديد، ويقاوم تصورات الجاهلية، ويدفع عن هذه الأمة، يقيها العثرات. لا كما يواجهه الناس اليوم نغمات حلوة ترتل، وكلاما جميلا يُتْلى، وينتهي الأمر.. إنه لأمر غير هذا نزل الله القرآن.. لقد نزله لينشئ حياةً كاملةً، ويحركها، ويقودها إلى شاطئ الأمان بين الأشواك والعثرات، ومشقات الطريق التي تتناثر فيها الشهوات كما تتناثر فيها العقبات. والله المستعان). [552]

يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

قَوْله تَعَالَى: **{يَسْأَلُونَك عَن الْأَهِلّة}** وَهِي جمع الْهِلَال، وَهُوَ اسْم للقمر أول مَا يَبْدُو دَقِيقًا؛ وَإِنَّمَا سمى هلالا؛ لِأَن النَّاس يُظهرون أَصْوَاتهم ويرفعونها عِنْد رُؤْيَته. يُقَال: اسْتهلّ الصَّبِي: إِذا صَاح بالبكاء. وأَهَلَّ المعتمرُ أو الحاج رفع صوته بالتلبية ، وتَهَلَّل وجهُ الرجل فرحا أو استهل أي ظهر فيه السرور وارتفع. ومنه قوله تعالى: (وما أُهِلَّ به لغير الله) أي نودي عليه بغير اسم الله تعالى وأصله رفع الصوت.

وَسبب نزُول الْآيَة: مَا روى أَن معَاذ بن جبل، وثعلبة بن غَنَمة- وهما من الأنصار - قَالَا: " يَا رَسُول الله، مَا بَال حَال الْقَمَر يَبْدُو دَقِيقًا؛ ثمَّ يمتلئ رويدا ثمَّ يعود دَقِيقًا؛ فَنزل قَوْله تَعَالَى: **{يَسْأَلُونَك عَن الْأَهِلّة قل هِيَ مَوَاقِيت للنَّاس وَالْحج}** . يَعْنِي: خلق الله هذا وقدَّره ؛ ليَكُون مَوَاقِيت لصومكم، وفطركم، وحجكم، وآجال ديونكم، وَعِدَّةَ نِسَائِكمْ، ومدد حملكم، ومواعيد أجوركم، وما إلى غير ذلك من أمور معاشكم وحياتكم التي تكون بأزمانٍ محددةٍ وأوقاتٍ وآجال مضروبة مما تقتضيه مصالح العباد، ولولا ذلك لتعثرت حياة الناس ومعايشهم فخالطها اللُبْس والتنازع والخصام. وهو من نعم الله علينا كما في قوله تعالى:

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (يونس: 5)

والمواقيت لغةً: جمع ميقات وهو بوزن (مِفْعَال) من الوقت، وهو مقدار محدد للوقت بدايته ونهايته كما قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء: 103) قال الطبري: أي فرضًا جعل له وقتًا يجب عليك أداؤه فيه. وقال الزمخشري: **{كِتاباً مَوْقُوتاً}** أى محدوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم، خوف أو أمن. وهو معنى الميقات بعينه

ومن تسخير الأهلة الناس كي تكون لهم مواقيت للحج استنبط بعض الفقهاء حكما شرعيا وهو أن الإحرام بالحج في غير أشهر الحج يصح مع الكراهة استنادا إلى هذه الآية - ذلك أن الله جعل الأهلة كلها- على مدار السنة- مواقيت للحج . قلتُ: وهو استنباطٌ بعيد المأخذ لأنه من جهة مُنْفَكَّة غير مقصود الخطاب ومرماه.

وفي تأويل قوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا...}

وفي تأويل قوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189) }

---

[552] في ظلال القرآن (1/ 179)

سبب النزول: أنهم لما كانوا إذا حجوا، ثم قدموا المدينة، لم يدخلوا من باب الدار، ويأتون البيوت من ظهورها، فنسي رجلٌ، فدخل من الباب، فنزلت: **{وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها.....}** الآية، وكأنهم كانوا يتحرجون من الدخول من الباب، من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء، كما صرح به الزهري، وهذه رواية البراء بن عازب كما عند ابن جرير والبخاري.

وكذلك كان يحدث منهم في بيوتهم، فقد روى أن الأنصار كانوا إذا قدموا من سفر، لم يدخل الرجل من قبل بابه.

ويقول الحسن البصري: كان ناسٌ من أهل الجاهلية، إذا أراد أحدهم سفرًا، وخرج من بيته يريد السفر الذي خرج له، ثم بدا له - بعد خروجه - أن يقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوَّره من قِبَلِ ظهره، إلى غير ذلك، مما يشابهه.

والمعنى: ليس البر أيها المؤمنون أن تأتوا البيوت من ظهورها تتأولون ذلك وتجعلوه دينا وقُرْبةً لله، ولكن البر من اتقى الله فخافه وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها، فأما إتيانُ البيوت؛ فأتوها من حيثُ شئتُم من أبوابها وغير أبوابها، ولا تصنعوا من عاداتكم دينا تتقربون به إلى الله وهو لم يشرِّعه ولا أمر به.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} يعني: والزموا تقوى الله، لتفلحوا فتبلغوا رضا الله تعالى ، وتدركوا به البقاءَ في جَنَّاته والخلودَ في نعيمه.

أقول: وفي الحقيقة إن اقتران الواقعتين في خطاب الآية له معنىً عميقٌ في تربية الأمة المؤمنة في المدينة المنورة ومنها إلى تربية أمة الإسلام عبر العصور...هذا المعنى يتمثل في البحث عن جوهر الدين والارتقاء عن سفاسف الأمور إلى معاليها، والتمسك بما ينفع من لُباب الدين ومعانيه الأصيلة، ونبذ الطقوس التي لا تمت للدين بصلة؛ وإنما هي من عادات الناس جُعلت دينا وتعبداً، وتنقية الدين منها لجعل دين الله خالصا من الشكليات المريضة التي تبعد المؤمن عن منبع النور الصافي لمنهج الإسلام ، وكفى بقول ابن قيم الجوزية: (ما حارب الدين مثلُ العادات). فالسؤال المتكلف حول الهلال والقمر ما هو إلا سؤال سطحي لم يرد الله تعالى أن يكون قاسيا في رده، وإنما بصبرٍ وحلم أجاب عنه جوابا شافيا يحيل المؤمن على الأصل الأصيل في التفكر العميق في حكمة الخلق والأمر، حتى يستقر الإيمان في القلوب وينمو نموه الطبيعي، وهذه إحالةٌ لطيفةٌ لمجرى سؤالٍ متعجِّلٍ سطحي. ثم يأتي تصحيح المسار الفكري والعقدي للأمة على عمومه في توسعٍ لطيفٍ يسميه علماء القرآن (الاستطراد) ليذكر لهم نبذ تلك السطحية في فهم معاني الدين وحصرها بطقوسٍ سخيفةٍ من دخول البيوت من ظهورها حال الإحرام وغيره، ليقول لهم إن البر الذي هو معنى جامعٌ للخير ليس في تلك الطقوس وإنما في تقوى الله وطاعته بالقلب واللسان والعمل، وذلك وحده هو سبيل الفلاح والنجاح كما قال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } (الحج: 37) والمعنى – كما قال ابن جرير-: لن يصل إلى الله لحومُ بُدْنِكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه أن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه، وعملتم فيها بما ندبكم إليه وأمركم به في أمرها وعظمتم بها حرماته. وكما قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج: 32)

يقول تعالى ذكره: هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس وأمرتكم به من اجتناب الرجس من الأوثان واجتناب قول الزور، حنفاء لله، وتعظيم شعائر الله، وهو استحسان البُدن واستسمانها (= تسمينها) وأداء مناسك الحجّ

على ما أمر الله جلّ ثناؤه، من تقوى قلوبكم. [553] فالمعنى في العبادات ليس صورها وطقوسها وإنما المعنى هو ما يهذب القلوب منها ويقربها لمعنى العبودية الخالصة لله تعالى. وانظر لهذا المعنى في قوله ﷺ: " كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلَاتِهِ التَّعَبُ والنَّصَب". أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة بسند حسن.

كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه قال «إن العبد ليصلي الصلاة وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها» .

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها.

وإن العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيراً كاملاً، والناقص بحسبه.

وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة وهما: تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه). [554]

تشريع الجهاد.

أقول: إن الرابط الكلي بين هذه الآيات المتتابعة المتلاحقة في سورة البقرة التي تفصل الأحكام والآداب وتصلح الأفكار والاعتقادات هو تربية المجتمع المسلم في المدينة أولا ومنه إلى كل مجتمع الإسلام عبر الأزمان من أجل بناء دولة الإيمان القوية على أركان المنهج الإسلامي المتينة.

ولأن كل دولةٍ لابد لها من أعداء ينازعونها حدودها وقيمها؛ وهذه سنة الله في الحياة والتاريخ لا ينكرها إلا غبيٌّ أو جاهل، ودولة الإيمان جاءت تحارب الظلام الذي يزدهر ويعيش على استعباد الناس بقيمه الظلامية ليكون منهم السادة الذين يخدمهم الظلم والظلام ويكون الناس الوقود لعرباتهم الفارهة تجوب دروب الحياة الناعمة البازخة، هذا الظلام لن يرضى بالنور يبدد ما هو فيه من النعيم فلابد أن يحارب بكل ما أوتي من قوةٍ كلَّ مَن يدْعون الناس إلى حَلِّ رِبقة استعبادهم للمخلوقين الفُجّار، ويدعونهم إلى عبادة الله الخلاق الجبار، فليس من مصلحة الظلاميين أن يحل النور، وهنا وجب شرع الكفاح من أجل النور الذي سماه الشرع (الجهاد)، وأخيرا نزلت الآيات التي تخوِّل المؤمنين الدفاعَ عن النور .

يقول تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) }.

---

(553)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (18/ 621)

(554)(وكذلك فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبداً ميتاً أو جارية ميتة؟ فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟ فهكذا سواء الصلاة الخيالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذا العبد . أو الأمة . الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها). انظر ابن قيم الجوزية -الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 10)

فلسفة القتال في الإسلام والشبهة الجبانة.

(1) تلبيسهم في الفرق بين الجهاد والقتال وتلبيس المُضِلِّين.

في البداية يجب أن نضع الأمور مواضعها؛ ذلك أنَّ الضالون المضلون يتخذون من الالتباس وسيلتهم الأثيرة في تزييف الحقائق وتزيين الباطل. وهنا نتوجه في أول ما نتوجه لكشف نقاط الالتباس إلى الفرق بين " الجهاد" الذي جعلوا منه ذلك " البُعبُع" -باللهجة الدارجة- أو " الفزَّاعة" التي ينفرون بها عن الإسلام؛ ليس فقط غير المسلمين ولكن المسلمين كذلك؛ بل صارت إمكانات إعلامية جبارة في بلاد المسلمين أنفسهم مُسخَّرةً لأجل التنفير من الجهاد وجعل الكلمة مرادفة للقتل والوحشية والجهل؛ منساقة وراء خطط الغرب لمحو فريضة الجهاد من قلوب المسلمين حتى يسهل عليهم قيادتهم كنعاج مستسلمة لا تملك من أمرها شيئاً ، وهو ما حذرنا منه سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي خرجه أحمد وأبو داود: " **إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** ". [555]

وليس سرا خافيا أن الأمر الذي يدعوهم إلى هذا الكيد والتضليل في البحث، إنما هو الخوف الشديد لدى الدول الأجنبية- غربيها وشرِقيها على السواء- من أن يعود معنى الجهاد في سبيل الله فيستيقظ في نفوس المسلمين ، ثم يتصل هذا المعنى بجذوة الإيمان في قلوبهم! .. فلئن تمّ هذا، فسيتم عندئذ لا محالة انهيار الحضارة الغربية المنحطة التي جعلت من الإنسان مجرد آلة مادية بائسة. ولقد نضجت عقلية الرجل الأوروبي لمعانقة الإسلام بمجرد أن يسمع دعوته خالصة إليه، ولذلك نرى اليوم الإسلام ينتشر في أوروبا والغرب انتشار النار في الهشيم، وهو ما يعلمونه حق العلم ويرعبهم أقصى الرعب حتى صار مسمى هذا الرعب عندهم من انتشار الإسلام (الإسلام-فوبيا Islam phobia) وصاروا بكل الطرق والتشريعات الجائرة يغلقون المساجد ويضيقون على المسلمين والمسلمين، ويمنعونهم شعائرهم من أقصى الشرق في الصين والهند وروسيا، إلى أقصى الغرب في أوروبا وأمريكا، ويحاولون إفساد المسلمين ومحو هويتهم بكل الأساليب، مخالفين ما يدعونه من شعارات الحرية والديموقراطية الكاذبة بدعوى محاربة التطرف ذلك المفهوم المطاط جدا الذي صنعوه هم ووضعوا تحته فقط ممارسة المسلمين لشعائر دينهم وثقافتهم.

والعجيب أن يهلل بعض المسلمين المخدوعين أو المنافقين ويصفقوا للغرب وهو يضيِّق على إخوانهم بما لا يغفره الله تعالى من اللؤم والجبن والتخاذل والجهل.

والجهاد لغةً واصطلاحا معنى عام يزيد كثيرا عن مجرد " القتال" الذي هو فقط أحد أصناف الجهاد وأدواته. فالجهاد في اللغة من الفعل (جاهد) وهو على وزن (فِعال) ويكون فقط بين طرفين؛ فهو مدافعةٌ بين طرفين فيها بذلُ جُهْدٍ ومشقة، وليس مرادفاً أبدا للقتال، وهو ما نص عليه الحديث الشريف عند البخاري: تقول عائشة: يا رسول الله، نرى الجهادَ أفضل الأعمال، أفلا نُجاهد؟ قال :"عليكن جهادٌ لا قتالَ فيه: الحج والعمرة ."

والْجِهَادُ هُوَ الْمُبَالَغَةُ وَاسْتِفْرَاغُ مَا فِي الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ(كما في لسان العرب).

---

[555] يقول ابن رجب الحنبلي معلقا عليه: فمن ترك ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الجهاد مع قدرته واشتغل عنه بتحصيل الدنيا من وجوهها المباحة حصل له من الذل فكيف إذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدنيا من وجوهها المحرمة؟!

قال العلامة الراغب الأصفهاني:

(الجَهْدُ والجُهْد: أصله الطاقة والمشقة، وقيل: الجَهْد بالفتح: المشقة، والجُهْد: الوُسْع. قال تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ} [التوبة/ 79] أي وسعهم وطاقتهم ، وقال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ} [النور/ 53] ، أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم.

والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمّل المشقة، يقال: جَهَدْتُ رأيي وأَجْهَدْتُهُ: أتعبته بالفكر.

والجِهادُ والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجِهَاد ثلاثة أضرب:

- مجاهدة العدو الظاهر. - ومجاهدة الشيطان. - ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: {وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ} [الحج/ 78] ،وقوله: { وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة/ 41] ،وقوله: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية} [الأنفال/ 72] ، وأخرج أحمد في المسند عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل» ، وأخرجه الترمذي في الزهد وفي الجهاد وقال: حسن صحيح، وأخرجه أبو داود في الجهاد .

. والمجاهدة تكون باليد واللسان، وقال ﷺ- فيما صح عنه- «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم»).[556]

وفي القرآن يقول ربنا: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان: 52] أي جاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا (قاله الطبري). فالمجاهدة بالدعوة من أهم أدوات الجهاد، ومجاهدة النفس في الامتثال لأوامر ربها والامتناع عن نواهيه، ومجاهدة الشيطان بطرد وساوسه واجتناب خطواته، ومجاهدة العدو بدفعه عن حمى الدين ورد طغيانه عن حرية الاعتقاد وحماية المستضعفين في الأرض. كل ذلك من الجهاد ويظل القتال هو جانب واحدٌ من جوانبه، ويظل له مقاصده وأصوله وقواعده التي لا يتخطاها المؤمنون.

فالله عز وجل يقول في محكم كتابه: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** (البقرة 190، 244). وهنا يجيء التقييد الأساسي لشرعية القتال في الإسلام أنه **{فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** أي في طاعة الله وطلب رضوانه. وهو تخصيصٌ للقتال في الإسلام بهدفه الأسمى وغايته العظمى وضابطه الأهم وهو أن يكون (القتال في سبيل الله) وليس في سبيل أي شيءٍ سوى الله تعالى ومرضاته. لأن القتال والقتل هو هدمُ الإنسان الذي خلقه الله بيديه، فتم تقييد ذلك الذي يضطر إليه المؤمنون بأن يكون بإذن الله وفي طاعته وفي إطار قواعده ولذلك جاء التعبير بلفظة (سبيل) التي هي من الطريق والطريقة والمنهج، فالقتال في شرع الإسلام على طريقة الله ومنهجه ولأجله لا يكون أبدا من أجل السيطرة والغنائم والطغيان والنهب، وهو ما يحاول الكاذبون إلصاقه بالإسلام وهو منه بريءٌ، والتاريخ يشهد على فرق ما كان بين المسلمين وبين غيرهم في منهج قتالهم .

(2) **رمتني بدائها وانسلت ..!**

فإن هذا الكذب والتخويف من حقيقة الجهاد في الإسلام هو ما درجوا على تلقينه لنا ؛ومن ثَمَّ حشرنا أنفسنا في خانة الدفاع المخنث والذليل عن مبادئنا وكأننا الجناة ، لكن الأمر يختلف كثيرا حين نتحدث عن ما يربون أطفالهم عليه في إسرائيل الظالمة الجاحدة ؛ وفي معظم الغرب الكذاب عموما ...

---

[556]المفردات في غريب القرآن (ص: 208). بتصرف يسيروقول صلّى الله عليه وسلم «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم» الحديث أخرجه ابن حبان وصححه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه النووي أيضا في رياض الصالحين. وأخرجه أبو داود في الجهاد، والنسائي ، وأحمد

يقول يوري إيفانوف في كتابه: «الصهيونية حذارا!» : إن دائرة الأفكار التي يسمم بها الصهاينة عقول أطفالهم والتي يرجى منها أن تستقر في أفهامهم تبدأ عادة بالتوراة. ويؤكد أندريه شوراكي في كتابه: «دولة إسرائيل» أن جميع اليهود يعمدون إلى الرجوع في كل مناسبة إلى الماضي الذي تضمنته التوراة وروح الأنبياء، وإلى الدور التاريخي والروحي للشعب اليهودي؛ أي إنهم يرجعون إلى قلب التراث الضخم الروحي والفكري والأخلاقي والقانوني للتاريخ العبري.

أما فيكتور مالكا فيرى في كتابه «مناحيم بيغن: التوراة والبندقية» أن اليهود استقوا من توراتهم تعليمات في أعمال العنف واستخدام القوة. فقد جمعت قوانين الحرب في العهد القديم في سفر التثنية، وهي تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن، وأسلوب التعامل مع أهلها، وهذه القوانين يعدها القادة الإسرائيليون مصدراً للوحي وشريعة مقدسة لاستئناف البعث اليهودي في فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب. ولعلنا نستشف من هذا الكلام المصدر الذي ينهل منه الصهاينة أفكارهم وأسلوب حياتهم وهو التوراة؛ ولكن الوسيلة التي تتم من خلالها عملية نقل هذه الأفكار والتي تنتج الاحتلال والتميز والتفرِقة والعنصرية والتعصب هي مناهج التعليم في المدارس والجامعات الإسرائيلية.

وهو ما أجملته الدكتورة الإسرائيلية (تسيبورا شاروني) في مقدمة حديثها عن التوجه القومي في برامج التدريس في المدرسة العبرية ضمن يوم دراسي في الكلية الأتوذوكسية بمدينة حيفا في عام1988م بالجمل الآتية:

«إن جميع الجنود ممن يؤدون الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة ... أولئك الشباب الذين يسكنون أور يهودا ... حيث عمليات إحراق العمال العرب ... إن ذلك كله نتاج مدرستنا ... نتاج البرامج التعليمية ...نتاج التربية الرسمية وغير الرسمية ... ولكن للتربية الرسمية نصيب الأسد في ذلك. إذ لم ترد كلمة واحدة في البرنامج التعليمي لليهود حول التطلع للسلام بين إسرائيل وجاراتها ... فمثلاً من منا يذكر كتاباً واحداً في الجغرافيا فيه اسم جبل باللغة العربية؟ لا وجود لهذا على الإطلاق؛ فالطلاب يتعلمون ذلك، وكأنه خلق هكذا ...الأسماء العربية لا وجود لها على الإطلاق ... أنا لا أتكلم عن قرى عربية تم محوها.. لا يذكرونها قطعاً ... هل هذه تربية؟ ... وماذا يعني كل هذا؟ ... لا يوجد في الصفوف إطلاقاً خارطات تشمل الخط الأخضر ... أرض إسرائيل الكاملة في جميع الخارطات بما فيها القدس والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة بوصفها جزءاً من دولة إسرائيل» .(557) ا.هـ.

. ولئن نسب كثير من تعاليم التلمود إلى حاخامات اليهود الربيين، فإن ذلك مما يؤكد قداستها في عرفهم؛ لأن كلام الحاخامات كما يقول التلمود هو كلام الله، وله عند الله المقام الأسمى، حتى أنه -سبحانه وتعالى- يستشيرهم كلما أعضلته مشكلة مستعصية (558) . -تعالى الله عما يقولون..

ومبنى تعاليم التلمود، أن بني إسرائيل صفوة الخلق، اصطفاهم الله على العالمين، واستخلفهم في الأرض يتملكونها ويسودون أهلها، حقًّا مقضيًّا لهم، وقد بشَّر التلمود اليهود بملك العالم في قوله: "كل مكان تطؤه أقدامكم يكون لكم، كل الأماكن التي تحتلونها فإنها لكم، فأنتم سترثون الجوييم -أي: الكفرة والأنجاس غير اليهود- المستكبرين في الأرض، وبعد ذلك كل مكان بعد أرض إسرائيل التي يجب أن لا تكون نجسة تحت أقدام الجوييم، إنكم بعد أن تحتلوا أرض إسرائيل يحق لكم أن تحتلوا غيرها".

---

(154)نقلا عن مجلة البيان العدد173 ، ص58 مقال : هكذا يربي اليهود أبناءهم ،بقلم نائل نخلة)

(155) نقلا عن كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، للدكتور روهلنج، ترجمة الدكتور: يوسف نصر الله ص32 و33 .

وجاء في التلمود أيضًا: "يجب على كل يهوديٍّ أن يسعى لأن تظل السلطة على الأرض لليهود دون سواهم، وقبل أن يحكم اليهود نهائيًا باقي الأمم، يجب أن تقوم الحرب على قدمٍ وساقٍ، ويهلك ثلثا العالم، وسيأتي المسيح الحقيقيّ ويحقق النصر المرتقب، وحينئذٍ تصبح الأمة اليهودية غايةً في الثراء؛ لأنها تكون قد ملكت أموال العالم جميعًا، ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجيء إسرائيل، وتكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح".

ويحلق بالتلمود -وهو كتاب اليهود السريّ المقدس- كتاب سريّ آخر، يعرف "بالكابالا" لا يقل عنه خطورةً، بما يثير من التعصب العنصريّ العنيف، ويروج له بغلظة ووحشية. والكابالا كتاب يتوارثه اليهود منذ القدم، يعالج التصوف اليهوديّ عن طريق السحر الذي يمثل شطرًا من الطقوس الدينية التي يمارسونها خفيةً، خشية اطلاع أحدٍ من الشعوب الأخرى عليها، لما فيها من التفنن في الكيد لتلك الشعوب، والتحريض على اغتيالها لاستنزاف دمائها، واستخدامها في ممارسة هذه الطقوس، ويحقق الكابالا لليهود الأهداف التالية: 1- الحفاظ على مبادىء اليهود العدوانية المتطرفة حيال الشعوب الأخرى، بإيجاد المناخ النفسيّ الملائم لتعيش هذه المبادئ، وذلك بإشعال نار الحقد والتعصب العنصريّ في صدور اليهود، بما تتضمنه من فنون الكيد والانتقام التي تحضهم عليها كشعائر دينية مقدسة. 2 - إشباع ثائرة اليهود العدوانية، وشفاء غليلهم باستنزاف دماء أعدائهم، واستخدامها في الطقوس السحرية الدموية. 3- يحس اليهود في ممارسة تعاليم الكابالا طمأنينةً وراحةً نفسيةً عميقةً، ويستشعرون أنهم إنما يمارسون شعائر مقدسة تقربهم من الله، وترفع عنهم ما حاق بهم من غضبٍ إلهيٍّ منذ الحقب الخالية.

وقد كانت تعاليم الكابالا نواةً للنشاط السري الهدَّام، الذي توفر عليه اليهود دائبين، متمثلًا في مختلف الجمعيات والمؤتمرات التي سعوا من خلالها إلى تحقيق آمالهم وأطماعهم، كما كان لتلك التعاليم تأثير مباشر في صياغة أفكار اليهود الصهيونيين على الصورة الشائعة القائمة، والأسلوب الدمويّ الجانح الذي يمارسه الصهيونيون الآن [559].

فإن قتل الأطفال- مثلا لا حصرا- هي عقيدة يهودية يتقرب بها اليهودُ للرب، كما جاء في (سفر التثنية إصحاح: 1) «أهلكوا كل ما في المدينة –يعني أريحا – من رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ وشيخٍ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها».

وهكذا هو فعلهم إلى هذا اليوم الذي نحن نحن فيه، فإن شريعتهم إقصائية عنصرية تكره جميع الناس وتريد الأرض -كل الأرض- لها وحدها، وهذا ما دونه حاخاماتهم نصا في توراتهم يقولون إنهم: «يجب أن يتخلصوا من كل ساكني الأرض» (عدد23: 52).

وإن فتاوى حاخاماتهم قديما وحديثا تمثل رافدا مهما ليس على سبيل الاختيار؛ بل هي قانونٌ ومنهج مكمل للكتب المقدسة التي تُدرس جنباً إلى جنبٍ مع كتب الشريعة اليهودية بصبغتها الصهيونية بطريقة إثنية تُمجد مجرمي الحرب الصهاينة واصفةً إياهم «بالأبطال الوطنين وبالقديسين» لقتلهم الأغيار (الفلسطينيين)، مثل كتاب (باروخ البطل) الذي نشره الحاخام (إسحق جينزبرغ). ويُمجّد هذا الكتاب الإرهابي (باروخ غولدشتاين)

---

(156) في كتاب "اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية"، للأستاذ إيليا أبو الروس، تفصيل وقائع محددة عن ممارسة اليهود طقوسًا وحشيةً على تقديم الضحايا البشرية بقتلهم بفنونٍ من التعذيب والوحشية، بقصد استخدام دمائهم المسفوحة في أغراضٍ دينيةٍ تقربًا إلى الله.. وقد ورد في الكتاب المذكور كثير من الوقائع التي أوقعها اليهود في أقطار العالم الشرقية والغربية، وكشفت عنها التحقيقات الرسمية التي أجرتها الحكومات المختصة، وكذلك أورد عبد الله التل في كتابه "خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية" كثيرًا من الوقائع المشابهة.

الذي نفّذ مذبحة المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل المحتلة في رمضان سنة 1994م، الذي تسبب في اغتيال 29 فلسطينياً بريئا وجرح العشرات أثناء ركوعهِم في صلاة الفجر؛ كانوا يصلون، ولم يكونوا يحملوا معهم سوى سجاد الصلاة! وقد رفع المفسدون الصهاينة رتبة هذا الإرهابي إلى درجة (القديس)، وأقاموا له (مزاراً دينياً) في مستعمرة (قريات أربع) ليصبح رمزاً دينياً وعنوانا وطنيا للبطولة والفداء لدولة إسرائيل.

وكتبهم المقدسة لا تفرق بين صالحٍ وفاسد، أو بين كبير وصغير، جاء في التلمود: «اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومُحَرَّم على اليهودي أن يُنجي أحدا من باقي الأمم من هلاكٍ أو يخرجه من حفرةٍ يقع فيها»، وفي موضع آخر من التلمود يقول: «حتى أفضل الغوييم (غير اليهود) يجب قتله» ويقول: «اليهودي الذي يقتل مسيحيا لا يقترف إثما، بل يقدم إلى الله أضحية مقبولة» ، ويقول: «إن الأضحية الوحيدة الضرورية بعد هدمِ الهيكلِ في القدسِ هي إفناء المسيحيين». ويقول: كل من يسفك دم شخص غير تقي – غير يهودي -، عمله مقبول عند الله، كمن يقدم قربانا إليه)..

هكذا كانوا وما زال دينهم ومنهجهم، أما أولاد عمومتهم النصارى فهم أقذر وأفسد فالتاريخ يحفظ لهم في حروبهم الكثير من الفظائع، (وما الحروب الصليبية عنا ببعيد، تلك الحروب التي استمرت قرنين من الزمان (490هـ -690)هـ، والتي قامت بين المسلمين في المشرق العربي وبين الصليبيين القادمين من أوربا؛ لاحتلال بيت المقدس وبلاد الشام ومصر، والقضاء على الإسلام، وَوَقْفِ انتشاره في أوربا. [560]

هذه - بإجمال- أسباب الحروب الصليبية. وبعد ذلك بدأت أول حملة عام (490)هـ، بقيادة (جود فري دريموند)، واستولى على كثير من بلاد الشام، ثم تتابعت الحملات، واستولوا على كثير من بلاد المسلمين، وأهمها بيت المقدس عام (492)هـ، وما كانوا ليستطيعوا فعل ذلك لولا أن المسلمين متناحرون متفككون يشتغل بعضهم ببعض.

عندئذ قام النصارى بتلك الحروب، وقتلوا المسلمين شرَّ قتلة في كثير من الأماكن، وخصوصاً في بيت المقدس؛ حيث مثَّلوا في القتلى، فلم يوقروا كبيراً، ولم يرحموا صغيراً، حتى النساء لم تسلم منهم، بل إن الزهاد والعباد الذين انقطعوا للعبادة في بيت المقدس لم يسلموا منهم، حتى إن الخيل غاصت إلى الركب من جثث القتلى؛ حيث قتل الآلاف من أهل تلك البلاد.

---

(560) وهي حروب دينية شنَّتها أوربا النصرانية الحاقدة بدعوى تحرير القدس من المسلمين، والحقيقة أنها قامت لإذلال المسلمين، ورغبة في القضاء على الإسلام.

ويذكر المؤرخون أن لتلك الحرب أسباباً كثيرة، ولعل أهمها وأجلاها وأوضحها ما يلي:

1- الحقد الصليبي، والعداء للإسلام.

2- ما أثاره الرهبان والبابوات في نفوس النصارى في أوربا، ومن تلك الإثارات ما قام به القديس بطرس؛ حيث أخذ يجوب أوربا على حماره، ويحرض الأوباش والعوام على تحرير القدس، والاستعداد لنزول المسيح.

3- رغبة النصارى في التوسع.

4- رغبة البابا أوربان الثاني في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، ومحاولته جمع النصارى تحت هدف مشترك، وهو قتال المسلمين، وغزوهم في بلادهم، وذلك عندما دعا البابا أوربان الثاني إلى مؤتمر (كليرمونت)، وألقى فيه كلمة مشهورة ملأها بالهجوم على المسلمين، وإثارة الأحقاد في نفوس النصارى، ثم أخرج في نهاية الخطبة صليباً، وعلَّقه على صدره، ودعا الحاضرين إلى تعليقه والدفاع عنه.

وإن ينسَ المسلمون شيئاً فلن ينسوا ما فعله النصارى في الأندلس، تقول الدكتورة سينجريد هونكه: في (2) يناير (1492) م، رفع الكاردينال (دبيدر) الصليب على الحمراء القلعة الملكية للأسرة الناصرية؛ فكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم المسلمين على إسبانيا، وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على أوربا طوال القرون الوسطى.

وقد احترمت المسيحية المنتصرة اتفاقاتها مع المسلمين لفترة وجيزة، ثم باشرت عملية القضاء على المسلمين وحضاراتهم وثقافتهم. لقد حُرِّم الإسلام على المسلمين، وفرض عليهم تركه، كما حرِّم عليهم استخدام اللغة العربية والأسماء العربية، وارتداء اللباس العربي، ومن يخالف ذلك كان يحرق حيًّا بعد أن يُعذَّب أشد العذاب. وغير خافٍ ما قامت به محاكم التفتيش من التفنن في أساليب القتل والوحشية في المخالفين لها من المسيحيين، فضلاً عن المسلمين.

فمن ذلك أنهم وضعوا غرفاً فيها آلات رهيبة للتعذيب، منها: آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم.

ومن ذلك أن هناك آلة للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة يلقى بها المعَّذب، ثم يطبقون بابه وخناجره، فإذا أغلق مَزَّق جسم المعذب المسكين وقطَّعة إرباً إرباً. وهناك آلات كالكلاليب تغرز في لسان الم ثم بعد ذلك كان هناك تفكير ذكي اتعظ بالهزائم العسكرية المتلاحقة التي مني بها الغرب، ونقَّب عن السر العظيم لصلابة المسلمين، وانتفاضتهم المفاجئة، ووجد السر فعلاً؛ أنه الإسلام نفسه ولا شيء سواه. ولقد فكَّر الغرب في تحطيم تلك القوة وذلك الرصيد في نفوس المسلمين، ووضع خطته الخبيثة بناء على النتيجة، خطة لا تقوم على إبادة المسلمين، ولا على احتلال أراضيهم، وإنما تقوم على إبادة الإسلام نفسه، واقتلاعه من نفوس أبنائه وضمائرهم، أو تقليص دائرته، وعزله عن واقع الحياة عذب ثم تشد ليخرج منها اللسان.

وبدؤوا بالسير حثيثاً في سبيل ذلك الأمر، وأخذوا بوصية لويس التاسع الذي أُسِر بالمنصورة في إحدى الحروب الصليبية، وعندما خرج أوصى قومه بأن يعملوا على إذابة الإسلام من نفوس أهله، وإطفاء تلك الجذوة التي ما تفتأ تعود بقوة بعد أن يُظنَّ أن المسلمين قد انتهوا تماماً، ألا وهي العقيدة.

فطالما أن جذوة العقيدة تتقد في قلوب المسلمين فإنهم لن يهزموا، وإن هزموا فسيعودون مرة أخرى.

فما الحل إذاً، وكيف تهزم هذه الأمة ؟ أخذ الغرب يبحث عن الحل فارتأى أن الحلَّ هو حرب العقيدة نفسها.

وقد سلكوا في هذا السبيل وسائل عديدة امتازت بالدقة والتنظيم، وتتلَّخص جهودهم في عدة وجوه وهي:

1- الاستشراق.
2- الاحتلال العسكري.
3- التنصير (التبشير) . [561]

فالحرب مستمرة، ولو أننا وضعنا رؤوسنا في الرمال وأنكرنا ذلك- ولا ينكره عاقلٌ- فلن يوقف ذلك زحف الأمم، شرقها وغربها على الإسلام ودوله حتى يبيد لأنه يمثل العائق الأول والأهم أمام استعباد البشرية.

---

[561] انظر رسائل في الأديان والفرق والمذاهب لمحمد الحمد ص163- 168

ويكفيك إن كنت تقرأ أن تطالع كتاب (صدام الحضارات) لصمويل هنتجتون [562].ويؤكد المؤلف في (الجزء الرابع من كتابه) على دعاوي العالمية والإنسانية التي يطرحها الغرب (أقول: وهي في الحقيقة لغرض الهيمنة الثقافية والاقتصادية فيما سموه العولمة ليست إلا ذلك) ؛ هذه الدعاوى التي تضعه بشكل متزايد في صراع مع الحضارات الأخرى (كما يقول)، وبشكل أكثر خطورة مع الإسلام والصين (وتنبه لتحديد عدو الغرب عنده بشكل صريح)، وعلى المستوى الإقليمي حروب خطوط الصدام، والتي تقع بشكل رئيسي بين المسلمين وغير المسلمين والتي تؤكد قضية الحشد فيها تأييد الدول التي تشاطرها حضارتها (أى تأييد الدول المسلمة لموقف المسلمين في صراعاتهم داخل الدول الغربية، وهي مغالطة يعرفها كل من يفهم التخاذل الإسلامي من قضايا المسلمين اليوم)، يقول: وتهدد بتوسع حدود الصراع، وبالتالي تبذل الدول الكبرى مجهوداً من أجل إنهاء هذه الحروب (في وجهة نظره). يقدم (هنتنجتون) أطروحته الأساسية وهي أن أهم اختلاف بين الشعوب حاليًا هو اختلاف ثقافي، أي أن الحرب ليست عسكرية بل حرب ثقافية بين الحضارات المختلفة، خصيصًا بين المسلمين وغير المسلمين. والجدير بالذكر أن مصطلح صدام الحضارات قد انتشر في الغرب بشكل كبير بعد أحداث 11 سبتمبر تأكيدًا على أن الغرب والإسلام بينهما حرب كبيرة. يؤكد هنتنجتون أنه يوجد صراع مستمر بين الإسلام والغرب منذ نشأة الإسلام في القرن السابع الميلادي، وبين عامي 1820 – 1920، حوالي 50% من الحروب "التي تضمنت ثنائيات من ذات أديان مختلفة كانت حروبًا بين مسلمين ومسيحيين". ويتوقع أنه سوف يوجد تعاون بين الدول الإسلامية والصين ضد عدو مشترك وهو الغرب. ويقرر أنه إذا ازدهر العالم العربي والاقتصاد الآسيوي سوف يؤثر ذلك سلبًا على تقدم الحضارة الغربية وسيطرتها. والمهاجرون العرب في الغرب لهم دور مهم في تغيير الثقافة والهوية الغربية، فهم يحملون معهم ثقافتهم وهويتهم وينصهرون داخل الثقافة الغربية. والولايات المتحدة الأمريكية هي أكثر دولة تواجه خطر هجرة العرب إليها.

---

(562) صامويل فلبس هنتنجتون Samuel Phillips Huntington. (ولد 18 أبريل 1927 - توفي 24 ديسمبر 2008) أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونوا الحضارات وليس الدول القومية كما استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. درس في جامعة يال، وهو أستاذ بجامعة هارفارد.

برز اسم هنتنجتون أول مرة في الستينات بنشره بحث بعنوان "النظام السياسي في مجتمعات متغيرة"، وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية لمنظري التحديث والتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الاستقلال.

توفى يوم 2008/12/27 عن عمر 81 عاما.

و الأفكار الرئيسية لكتابه هى :

1▪الهوية الثقافية هي التي تشكل التماسك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة وهي الاكثر اهمية بالنسبة لمعظم الناس .

2▪ السياسة العالمية اصبحت متعددة الاقطاب والحضارات.

3▪هناك تغير في توازن القوى بين الحضارات "الحضارات الاسيوية توسع قواها بينما الغرب يتراجع نفوذه والاسلام يزداد ويعود ثقافيا.

4▪عالم ما بعد الحرب الباردة عالم مكون من ٧ او ٨ حضارات ، ما يشكل المصالح والخصومات بين الدول هو العوامل الثقافية المشتركة والاختلافات.

5▪العالم في حالة فوضى حافل بالصراعات القبلية والجنسية لكن الصراعات التي تشكل خطر اعظم على الاستقرار التي بين الدول والجماعات التي تنتمي لحضارات مختلفة .

هكذا يرى كبار منظريهم؛ بل يفضحون طريقة تفكير الغرب ككل في العلاقة بيننا وبينهم، فبينما يرى الإسلام أن البشرية خلقها الله تعالى متنوعة الثقافات واللغات والأفكار والمصالح من أجل أن " تتعارف" بالتعبير القرآني، أي تتمازج معارفها وتنصهر في إناء واحد يخدم الوجود البشري كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } (الحجرات: 13)ويظل المقياس الوحيد للتفاضل بين الناس في الدستور القرآني هو أفضلية الروح البشرية التي يزكيها العلم والعمل النافع {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} (الحجرات: 13)... بينما يعلم القرآنُ المسلمين هذه القيم الدستورية لحياتهم، يرى الغرب والآخرون أن المسألة مسألة صراع ينجو فيه الأقوى، أو بتعبير أحد أصنامهم في العصر الحديث كله (داروين):" البقاء للأصلح والأقوى" في همجيةٍ تردنا لعالم الحيوانات، بل عالم الحيوان أشرف. فلو تخلينا نحن عن فكرة الصراع فلن يتخلوا عنها هم بالتأكيد.
ويظل الجهاد أو القتال هنا هو وسيلة لا غاية في نفسه؛ يظل وسيلةً لفرض السلام على الذين يرون الحياة على الأرض صراعا حيوانيا بحتا على الكلأ والعشب.

(3) معنى وشرعية الجهاد في الإسلام.

إن الرجال في الإسلام يقاتلون من أجل نشر النور ، والحق ، والعمار ، والخير ؛ ولا يبالون بأى ثمنٍ يدفعونه في طريقهم نحو تحرير العباد من رِق العباد ، ومن رِق الشهوات ، وإخراجهم من داهم الظلمات إلى النور.. ذلك لأن موتاً واحداً يخلّف حيواتٍ لا تُحصى لقلوبٍ دخلها نورُ الإسلام ..
يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة، الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها، واعتبروها بقرةً حلوباً، أو ناقةً ركوباً، يحلبون ضرعها، ويركبون ظهرها ويجزون صوفها، ثم يتركونها هزيلةً عجفاء ، كما كان شأن الإنجليز في الهند، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطاليا في طرابلس وبرِقة، وهولندا في إندونيسيا. بل وهب العرب البلاد التي فتحوها أفضل ما عندهم، من عقيدةٍ ورسالةٍ وأخلاقٍ وسجايا، ومقدرةٍ وكفايةٍ، وتنظيمٍ وإدارةٍ، أقبلوا عليها بالعقل النابغ والشعور الرِقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الصنّاعة الحاذقة ، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض؛ فأمنت بعد خوف، واستقرت بعد اضطراب، وأخذت الأرض زخرفها، وبلغت المدنية قمتها، وتحولت الصحاري الموحشة والأرض القاحلة إلى مدنٍ زاخرةٍ ، وأرضٍ خصبةٍ عامرة ، وتحولت الغابات إلى حدائقَ ذاتِ بهجة، والأشجار البرية إلى أشجار مثمرة مدنية، ونشأت علومٌ لا علمَ للأولين بها ، وفنونٌ وأساليبٌ في الحضارة لا عهد لهم بها في الماضي، وانتشرت التجارة وازدهرت الزراعة، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلادا جديدا ولبست ثوبا قشيبا..» ا. هـ.
وفي مثل شهادته يقرُّ أحدُ أشهر مفكري العالم الغربي (جوستاف لوبون) الذي يوضح الفرِق بين الأندلس-أسبانيا- قبل وبعد الفتح الإسلامي فيقول «في كتابه حضارة العرب » :
«كانت أسبانيا النصرانية ذات رخاءٍ قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يكد العرب يتمّون فتح أسبانيا حتى بدؤوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرنٍ أن يحيوا ميت الأرضين، ويعمروا خراب المدن، ويقيموا أفخم المباني، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات، التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربة زمنا طويلا، وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن الداخل

(138- 172 هـ/ 756- 788 م) - إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال أسبانيا ... في سنة (138- 756 م) فغدت قرطبة بالحقيقة أرِقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون ... وكانت دارا للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوربة العظمى الحديثة» ا. هـ.

«وإن سياسة التسامح الديني الذي سارت عليه الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين وقد كثر التصاهر بينهم، حتى أن (أيذيدور الباجي) قد دوّن مسألة زواج (عبد العزيز بن موسى بن نصير) من أرملة (روذريق Rodrigo) دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا الفعل، هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وفق المسلمين في أمور الطعام والشراب، وأن إطلاق لفظ مستعربين على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل العرب ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاطٍ وهمةٍ في هذا السبيل، فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل اللاتينية في جميع أرجاء البلاد» . [563] وهي كلمات حقٍ من كتاب (الدعوة إلى الإسلام) للسير توماس أرنولد، وهي شهادة مفكر كبير آخر من أبناء الغرب.

هذا و تجمع المصادر القديمة والبحوث الحديثة على السواء على أن الأندلس شهدت ازدهارا اقتصاديّا خلال الحكم الأموي لم يسبق له مثيل في تاريخها، حيث أقبل العرب منذ البداية على الأرض وعمروها وأنتجوا منها أطيب الثمار فقد أقاموا مشاريع الري اللازمة لارتقاء الزراعة، وقد ظلت هذه المشاريع صالحة إلى ما بعد إخراج المسلمين من الأندلس بعدة قرون، حيث يقول جوستاف لوبون : «ولا يوجد في أسبانيا الحاضرة- في القرن التاسع عشر الميلادي- من أعمال الري خلا ما أتمه العرب»..

ثم يقول : "إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا ... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوربة مادةً وعقلاً وأخلاقاً، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه ... إن أوربة مَدينةٌ للعرب بحضارتها ... والحق إن أتباع محمد كانوا يذلّوننا بأفضلية حضارتهم السابقة، وإننا لم نتحرر من عقدتنا إلا بالأمس! وإن العرب هم أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ... فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان ... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ... ". [564]

(في الإسلام خُلَّةً أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء، والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءا من أربعين من الثروة، تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين، جميل والله كل

---

(563) انظر كتاب السير توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام»

564 بل هناك عشرات الشهادات لباحثين غربيين يعترفون بفضل العرب والإسلام وحضارته لا على أوربا وحدها، بل على العالم بأسره ويكفي مراجعة كتاب جوستاف لوبون «حضارة العرب» ، و كتاب آدم متز «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» ، و كتاب توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام» ، و كتاب سيجريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب».

هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة، يصيح من فؤاد ذلك الرجل محمد - صلى الله عليه وسلم - ابن القفار والصحراء" بوحي من ربه العظيم) [565].

وبعد هذه الكلمات الصادحة بنور الحق من رجالٍ هم الأكثر حرصاً على تاريخهم وحضارتهم ؛ يعترفون فيها بأن الحرية والحضارة والتمدن والعلم كان كل ذلك وأكثر حينما كان الإسلام في الصدارة، وحينما جاهد المؤومنون به من أجل نشر نور الله تعالى في الأرض .. نعود ونردد أن أثر القوى الطيبة الصالحة في الدعوة للإسلام كان هو الغالب، ولم يكن (السيف) و(القتال) الذي يصمون به الإسلام وليس وصمةً بقدر ما هو أمرٌ بديهي لقوة ناشئةٍ تريد نشر تعاليم النور وإصلاح فسادٍ له في العقول والقلوب قرون وقرون.. قوة لقيت أشد المعاقبة لها على تحملها للنور، فحملت السلاح دفاعا عن النور الذي بأيديها، والدفاع والهجوم كذلك حينئذٍ حقها الأصيل.

و"لقد قيل كثير في شأن نشر محمد - صلى الله عليه وسلم - دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه - صلى الله عليه وسلم، فذلك أشد ما أخطئوا وجاروا، فهم يقولون: ما كان الدين لينتشر لولا السيف. ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجلٍ واحد، فالذي يعتقده هو فرد -فرد ضد العالم أجمع- فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع! وأرى -على العموم- أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون! وأنا لا أحفل إذا كان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أو بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها، فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزَم، وليس في طاقتها قط أن تقضي على ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى."

"لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها، وحق له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق، فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام، ذهب الحطب والنار لم تذهب". [566]

(ولقد شاع عن الإسلام أنه دين السيف، وهو قول يصح في هذا الدين إذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح، ولكنه غلط بَيِّن إذا أُرِيدَ به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال في موضع الإقناع.

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب: فإنه اتخذ محمدًا — عليه السلام — مثلًا لبطولة النبوة، ؛ وقال ما معناه: إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها.

---

(565) من كلمات المؤرخ والحكيم الاسكتلندي الشهير (توماس كارليل) في كتابه (الأبطال **heroes and hero-worship**).

وتوماس كارليل :(**Thomas Carlyle**) (1795- 1881م): كاتب إسكتلندي، ناقد ساخر، ومؤرخ، من مؤلفاته: الأبطال، (وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي فنقله إلى العربية الأستاذ على أدهم)، والثورة الفرنسية. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون 53/2.

(566) راجع كتاب الأبطال لتوماس كارليل. وقد نقلت منه مقتطفات متناثرة متحدة الفكرة وهى نفس فكرة المؤلف بلا أي تصرف.

والواقع الثابت في أخبار الدعوة الإسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركي قريش في مكة المكرمة؛ فهجروا ديارهم وتغرَّبوا من أهليهم حتى بلغوا إلى الحبشة قبل الْتِجائهم إلى يثرب بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة، وهو الجوار الذي لم يَضِقْ من قبل بكل لائذيه في عهد الجاهلية. ولم يعمد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الإقناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها؛ لأن القوة لا تُحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء.
لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها، ولذلك حاربوا الفرس؛ لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه. وحاربوا الروم؛ لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك فبادرهم النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد السرية المشهورة إلى تخوم الحجاز الشمالية، وعادت السرية بغير قتال حين وجدت في تبوك أن الروم لا يتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام.
ولم يفاتح النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا بالعداء في بلاد الدولتين، إنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعدادهم العدة لقتال المسلمين، وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في
بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها أو التحصن دونها.
وفي الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة إلى اتقاء الهجوم المُبيَّت (وهو ما يسمى اليوم بالحروب الاستباقية) في أرض تلك القبائل، وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لا يكتمها المشركون ولا يواربون فيها، ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الإيقاع بمحمد وأصحابه وفضِّ العرب من حوله وإيذاء كل من يدخل منهم في دينه؛ فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب إلا في أيام صلح الحديبية، ثم عادت الحرب سجالًا بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين إلى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين. وقد حرص الإسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لا يعدوه، ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق؛ لأنه لا يحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالأعمال.
أما قبائل الجزيرة العربية في قريش فلم يحاربهم الإسلام إلا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها، وأخبار السرايا الإسلامية في بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها، وكلها كما أحصاها المؤرخ العصري — أحمد زكي باشا— حروب دفاع واتقاء هجوم.
ونذكر من بعد ذلك غزوة بني قينقاع من يهود المدينة؛ فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى، وهتكهم حرمة سيدة من نساء الأنصار، ثم غزوة بني غطفان، ولم يخرج المسلمون لقتالهم إلا بعد أن علموا أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربي للإغارة على المدينة...
ثم سرية عاصم بن ثابت الأنصاري وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلًا قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان له ثأر عند أحد بعث رسول الله ﷺ مع القوم...
ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلًا يُسمَّون القُرَّاء، أخذهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة لطمعه في هداية قومه وإيمانهم، فلم يَرْعَ قومُه جواره وقتلوا القُرَّاء...

ثم غزوة بني النضير من يهود المدينة؛ وذلك لنقضهم العهد وإلقائهم صخرة على النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا كان في ديارهم، ثم غزوة دومة الجندل، ولم يخرج المسلمون إلا لَمَّا علموا أن في ذلك المكان أعرابًا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الإغارة على المدينة.

ثم غزوة بني المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين في أحُد، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا جمع الجموع للإغارة على المدينة...

ثم غزوة بني قريظة من يهود المدينة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الأحزاب...

ثم غزوة الخندق وكانت مع الأحزاب الذين حاصروا المدينة...

ثم غزوة بني لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت وإخوانه الذين حزن عليهم رسول لله صلى الله عليه وسلم، ثم غزوة الغابة لإغارة عيينة بن حصن في أربعين راكبًا على لقاح للنبي صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة.

ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القصة لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناسًا يريدون الإغارة على نَعَمِ المسلمين التي ترعى بالهيفاء، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بني سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق، ثم سرية زيد كذلك للإغارة على بني فزارة الذين تعرَّضوا له...

ثم سرية عمر بن الخطاب لِمَا بلغ المسلمين من أن جمعًا من هوازن يُظهرون العداوة للمسلمين، ثم سرية بشير بن سعيد لِمَا بلغهم من أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر للإغارة على المدينة، ثم سرية غالب الليثي ليقتص من بني مرة بفدك؛ لأنهم أصابوا سرية بشير بن سعد...

ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرُّض شرحبيل بن عمرو الغساني للحارث بن عمير الأزدي رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى يحمل كتابًا وقتْله إياه، ولم يُقتل للنبي صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجدًا شديدًا...

ثم سرية عمرو بن العاص لِمَا بلغهم من أن جماعة من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى للإغارة على المدينة، ثم سرية علي بن أبي طالب لِمَا بلغهم من أن بني سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين...

ثم غزوة خيبر؛ لأن أهلها كانوا أعظم محرِّض للأحزاب، ثم سرية عبد لله بن رواحة لِمَا بلغهم من أن باين رزام رئيس اليهود يسعى في تحريض العرب على قتال المسلمين...

ثم سرية عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان جزاء إرساله من يقتل النبي صلى الله عليه وسلم غدرًا، ثم حرب العراق لِمَا ارتكبه كسرى عندما أُرسل إليه كتاب عُرض عليه فيه الإسلام، فإنه مزق الكتاب وكتب إلى بازان — أمير له باليمن — يقول له: بَلَغني أن رجلًا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي، فَسِرْ إليه فاستَتِبْه فإن تاب وإلا فابعث إليَّ برأسه؛ أيكتب إليَّ هذا الكتاب وهو عبدي؟"...

فبعث بازان بكتاب كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع فارسَين يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فقدما إليه وقالا له: شاهنشاه بعث إلى الملك بازان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك، وقد بعثنا إليك فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخرَّبت بلادك، فليس بعد ذلك عذر للمسلمين في امتناعهم عن حرب الفرس خصوصًا وقد كان للعرب ثارات كثيرة في ذمة العجم ...

ثم غزوة تبوك لِمَا بلغ المسلمين من أن الروم جمعت الجموع تريد غزوهم في بلادهم، وقد أعقبها فتح الشام والقسم الأعظم من دولة الروم.

فهذا حق السيف كما استخدمه الإسلام في أشد الأوقات حاجةً إليه.

حق السيف مرادف لحق الحياة، وكلٌّ ما أوجب الإسلام فإنما أوجبه لأنه مضطر إليه أو مضطر إلى التخلي عن حقه في الحياة، وحقه في حرية الدعوة والاعتقاد. فإن يكن درءًا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية، فالإسلام في كلمتين هو دين السلام.

وأيسر من استقصاء الحروب وأسبابها في صدر الإسلام أن نُلقيَ نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل في انتشار هذا الدين إلا القليل مما عمله الإقناع والقدوة الحسنة؛ فإن البلاد التي قلَّت فيها حروب الإسلام هي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم، وهي بلاد إندونيسيا والهند والصين

وسواحل القارة الأفريقية وما يليها من سهول الصحاري الواسعة؛ فإن عدد المسلمين فيها من مئات الملايين من البشر ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذي لا يُجدي في تحويل الآلاف عن دينهم بَلْهَ الملايين، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التي اتجهت إليها غزوات المسلمين لأول مرة في صدر الدعوة الإسلامية، وهي بلاد العراق والشام؛ فإن عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرات ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين. ومن المفيد في هذا الصدد أن نعقد المقارنة بين البلاد التي قامت فيها الدولة الإسلامية والبلاد التي قامت فيها الدولة المسيحية من القارة الأوروبية؛ فلم يبقَ في هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية، وقد أقام المسلمون قرونًا في الأندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون.). [567]

وليس قولنا هذا بالقول الذي لا يرتكز على دليل وشواهد من التاريخ الصحيح. إن صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام نفسه يذكر ما يأتي حرفياً: (ويظهر أن أخلاق صلاح الدين، وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه، أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس انكليزي من فرسان المعبد يدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) Robert of St. Albans عام 1185 م واعتنق الإسلام، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين وبعد عامين غزا صلاح الدين (فلسطين) وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة (حطين) وكان جوي Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى. وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم)ا.هـ. [568].

وهذا شاهد من الشواهد التي لا تحصى كثرة، والتي تزخر بها كتب التاريخ في القديم والحديث، ومنها نعلم أثر القدوة الطيبة في النفوس، حتى في نفوس غير المسلمين الذين كنا نراهم خصوماً لنا وأعداء، ومنها نعلم أيضاً سبباً من الأسباب القوية التي يسرت للمسلمين ما فتح الله عليهم من فتوح، وما ظفروا به من أمجاد.

(4) الجهاد الذي هو فرض عين علينا الآن.

وهذا هو معنى الجهاد الحقيقي، إنه يبدأ في الوجدان والشعور أولا كنبتة يقينٍ بهذا الدين، ثم ينتشر في كل جنبات الروح، فيصير المرؤ بفعاله ومقاله وسكناته وحركاته مثالا حياً للدعوة إلى الله تعالى، وليس بالسيف فقط، والذي له موضعه. كما قال أبو الطيب المتنبي:

---

[567] حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس محمود العقاد 149-154 طبعة هنداوي.

568 راجع كتاب (الدعوة إلى الإسلام) للسير توماس أرنولد الإنجليزي المعروف -الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم وآخرين. ص 82- 83.

وَوَضْعُ النّدى فِي موْضعِ السّيفِ بالعُلَى....مضرٌّ كوضْع السيفِ فِي موضع النّدى.

يقول الشاعر أن الاحسان في وقت يجب فيه استعمال الشدة والحزم مضر مثل لو انك استخدمت الشدة والحزم عند وجوب استعمال الاحسان.

وهذا الجهاد هو المعنى بقوله ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِهِ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ. أن يكون المرؤ بفكره وعقيدته ووجدانه وظاهره وباطنه في فكرة الجهاد: جهاد النفس، والهوى وجهاد الشيطان، وجهاد العدو فكريا وثقافيا وعسكريا إذا لزم الأمر. أما إذا علم العدو منا موت الجهاد في نفوسنا، أو أيقن بنجاح خطته لاجتثاثه من نفوسنا، فقد هلكنا وصرنا لقمةً سهلةً سائغةً لكل آكل.

وهو معنى قول ربنا تعالى في سياق الحديث عن القتال والجهاد في الإسلام وتشريعاته: {**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**} [البقرة: 195]

ولقد تسهل الكلمات و تأخذنا المعاني البراقة ، والتنظير المنمق ؛ ولكن المسلمين اليوم في مأزقٍ حقيقيٍ ، مأزق المفارِقة الحقيقية بين المنهج والتطبيق ، مأزق التباعد المستمر والمتعاظم بين الادعاء والحقيقة ، بين الإيمان والإثبات الواقعي لهذا الإيمان .. ولنفهم المشكلة نقول إن مشكلة العالم الإسلامي اليوم ليست في عدم الدعاوى للإسلام بين غير المسلمين، ولا في اكتساب مسلمين جدد ؛ وإنما هذه المشكلة هي انصراف المسلمين عن الإسلام، وعن الشرِق إلى الغرب بحضارته وقيمه التي يدعو إليها وموازينه التي بها يزن الأمور.

ومن ثمَّ صرنا مسلمين بالاسم والولادة والموقع الجغرافي فحسب، وعزفنا عن الإسلام بالفعل، حتى أصبحنا لا نعرفه في تشريعنا وتقاليدنا التي نأخذ هذه الأيام أنفسنا بها، ولسنا في حاجة في هذا لضرب الأمثال التي نحسها ونلمسها جميعاً في رجال الحكم، وفي ممثلي البلاد الإسلامية في الشرِق والغرب، وفيمن يجب أن يكون القدوة الطيبة بحكم مناصبهم الدينية في بلادنا، والأمر لله من قبل ومن بعد.

فالرجوع إلى الإسلام في هذا العصر الذي تكالبت فيه الأمم على المسلمين تحارب دينهم وتريد أن تستعبدهم هو عين الجهاد الذي هو فرض عينٍ علينا نحن المسلمين لهذا الوقت الذي نحن فيه.

وإن الحفاظ على الإسلام في هويتنا وفي تقاليدنا وفي تفاصيل حياتنا هو الجهاد. وهو (دائرة التأثير) الفعليه التي يجب أن تكون محور هم كل مسلمٍ بعينه، وليس التفكير في (دائرة الاهتمام) التي هي الجهاد بمعناه العسكري لرفع الظلم عن المسلمين إلا نتيجة حتمية بعد مرور فترة الانتقال التي بها تتم العودة إلى الإسلام والدفاع عنه ضد الغزو المنظم للوثنية والكفر الذين ملئا العالم ويريدان تدمير آخر رايات النور على الأرض.

ولقد اختتم الله بالإسلام رسالاته للعالم، فليس لنا أن ننتظر اتصالاً جديداً من السماء بالأرض يطهرها مما كاد يعمها من شرك وضلال وفساد، ولا نبياً آخر بعد رسول الإسلام، يخرج العالم -برسالةٍ جديدة- من الظلمات إلى النور، ولا قرآناً جديداً يهدي الإنسانية الحائرة إلى سبيل الرشد والسعادة. ولكن الله الرحمن الرحيم ترك فينا بعد هذا، أو بسبب هذا، كتاباً لن يضل من اتبعه، وشريعته لن يشقى من عمل بها.

وكل ما يجب أن نعمل له، لنخرج والعالم كله من هذه الجاهلية التي احتوتنا من جميع الأطراف، هو إعادة الثقة بديننا حتى يكون أساس حياتنا في كل مقوماتها، وليس لنا أن نطلب من أحدٍ أن يؤمن بهذا الدين قبل أن نؤمن نحن به أولاً ، ولن يكون هذا الإيمان إلا بالقدوة الطيبة الصالحة نقدمها للناس جميعاً.

إن العالم يتخذ من فشل المسلمين سياسياً واقتصادياً دليلاً حاسماً على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بلْهَ العالم كله! مع أن هذا العالم المسيحي نفسه حين كان المسلمون مسلمين حقاً من ناحية العقيدة والعمل على السواء، قد تزعزع عن مسيحيته عندما شاهد ما أحرزته سيوف وعقول المسلمين من نجاح منقطع

النظير، إذ اعتقدوا- بحق - أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع على صدق دينهم، مادام الله لا يؤتي نصره إلا لعباده المختارين .

(إن هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما صلح به في الأمس، إيمانٌ به إيماناً يخالط شغاف قلب المؤمن، واستعذاب للتضحية في سبيله بما يعتز به المرء من مال ونفس، واعتزاز بما جاء به من تشريع ومبادئ وتقاليد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده، ودعوة له بالعمل الصالح والقوى الطيبة، وعدم القضاء إلا بحكمه، وجعل الحياة في كل جوانبها لا تقوم إلا عليه). (569)

(5) القتال في آيات القرآن الكريم.

يقول الله تعالى:{ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} [البقرة: 190] وهي الآية التي نناقشها في تفسيرنا بعدُ. وفيها إجمالاً أن الجهاد والقتال في الإسلام هو للعقيدة؛ لأجل حمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يَهِمُّ بالاعتداء عليها قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوةً أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثيب عليه ويعتَبر الذين يقتلون فيه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياءً لله.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **"من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا ، فهو في سبيل الله"**. والمعنى أنَّ القتال في غير طاعة الله لا يكون مرضيا لله ولا يثيب عليه بل ربما يعاقب عليه، سواء كان قتالا لإثبات النفس وشجاعتها، أو قتالا عن الحدود ودولةِ الدنيا، أو قتالاً ليُقال إنه مجاهدٌ وقوي، فكل هذا هالكٌ، ولا قيمة له في ميزان الإسلام. والذي يكون في سبيل الله من أغراض القتال هو فقط رفع راية التوحيد ونشر الإسلام أو رد عدوان الظالمين عن أهله، وما إلى ذلك من القتال في سبيل المستضعفين والمظلومين دفاعا عنهم فهو أيضاً من أخلاق الدين الأصيلة والمروءة التي ربَّى الله تعالى عليها المؤمنين كما قال تعالى:

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (النساء: 75، 76)

والمعنى: وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهدٍ مثير لحَمِيَّة المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم.

---

569 من مقدمة الدكتور محمد يوسف موسى على كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، لأبي الحسن الندوى ، وهو كتاب رائع ، ط. الرابعة، مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر، ص15.

والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض، لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض!

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف في الآية مشهد مؤثرٌ مثيرٌ للنخوة والعاطفة الإنسانية والإيمانية سواء.

ولا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا- وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة- وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد.

وهو وحده يكفي. لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات.. وهو أسلوبٌ عميقُ الوقع، بعيدُ الغَوْر في مسارب الشعور والإحساس.

{وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } استفهام غرضه الاستنكار عليهم قعودَهم وعدم مبالاتهم بالجهاد وهو الذي يحفظ عليهم كرامتهم الإنسانية وحريتهم . والخطاب هنا لضعفاء الإيمان من المسلمين ؛ وليس للمنافقين، لأنه يستنهض فيهم نخوة الإيمان ومعناه، وليس عند المنافقين من هاتين الصفتين شيء.

{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ } إما أن تكون معطوفةً على اسم الله فيكن تقدير المعنى (وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وفي سبيل المستضعفين) وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدوّ. والمستضعفون هم المؤمنون المَحْصورون في مكة صدهم المشركون عن الهجرة إلى المدينة وجعلوا يضطهدونهم ويظلمونهم. فعن أبي هريرة قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرفع رأسه يقول سمع الله لمن حمده. ربنا ولك الحمد» ويدعو لرجال يسميهم بأسمائهم فيقول «اللهم! أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين. اللهم! اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له.

وإما أن تكون {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ } منصوب على الاختصاص. يعني: وأختص من سبيل الله خلاص المستضعفين. لأن سبيل الله عامٌ في كل خير. وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصّه. وقد جعل الله -تعالى- لهم (سبيلا خاصا) عطفه على (سبيل الله) مع أنه داخلٌ فيه أو اختصه من سبيل الله بالذكر لأهميته ، والنكتة فيه إثارة النخوة، وهزُّ الأريحية الطبيعية، وإيقاظُ شعورِ الأَنَفَة والرحمة، ولذلك جاءت الآية ب(النشر بعد اللف) وهو في اصطلاح أهل البلاغة تفصيلٌ بعد إجمال غرضه البيان وإثارة المعنى فقد جاء بالمستضعفين ثم قال { من الرجال والنساء والولدان}، وإنما ذكر (الولدان) معهم، تكميلا للاستعطاف واستجلاب المرحمة، وتنبيها على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان الصغار. وإيذانا بإجابة الدعاء الآتي بسبب مشاركتهم في الدعاء. ؛ ولذلك مثَّل حالهم بما يدعو إلى نصرتهم، فقال: **{الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا }.**

فبيَّن أنهم - لأجل دينهم - فقدوا من قومهم كلَّ عونٍ ونصير، وحُرِموا كل مُغيثٍ وظهير، فهم لتقَطُّع أسبابِ الرجاء بهم يستغيثون ربهم، ويدعونه ليفرجَ كربهم، ويخرجهم من تلك القرية -وهي وطنهم- من أجل ظلم أهلها لهم، ويسخِّر لهم بعنايته الخاصة مَن يتولى أمرهم وينصرهم على مَن ظلمهم؛ **فإن رابطة الإيمان أقوى من روابط الأنساب والأوطان، وإن جهل ذلك في هذا الزمان من لا حظَّ لهم من الإسلام،** وهنا حثٌّ خفيٌّ بباطن المعنى يقول (فليكن جميعُ المؤمنين ولياً لهم ونصيرا).

قال الفخر الرازيّ: معنى الآية {وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ...} أى لا عذرَ لكم في ترك المقاتلة. وقد بلغ حال المستضعفين من المسلمين إلى ما بلغ في الضعف. فهذا حثٌّ شديدٌ على القتال، وبيانُ

العلة التي صار لها القتال واجبا. وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة. لأن هذا المعنى من الجهاد هنا يجري مجرى فِكاك الأسير. انتهى

قال بعض المفسرين: وثمرة هذه الآية تأكيد لزوم الجهاد. لأنه تعالى وبَّخ على تركه. وتدل الآية على لزوم استنقاذ المسلم من أيدي الكفار. ويأتي مثل هذا استنقاذه من كل مَضَرَّة، من ظالمٍ أو لصٍ وغير ذلك. وهى من أخلاق المروءة التي قال فيها سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح وقد حصر غاية رسالته: " إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق".

((ولا بد من لفتةٍ هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن: إن «هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها» التي يعدها الإسلام- في موضعها ذاك- دار ظلم، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي «مكة» نفس وطن المهاجرين، الذين يُدعَون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها وهم عشيرتهم ومواطنيهم. ويدعو المسلمون المستضعفون ربَّهم هذه الدعوة الحارة من أجل الخروج منها!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام- حين لم تقَم فيها شريعة الله ومنهجه وحين فُتِن فيها المؤمنون عن دينهم، وعُذِّبوا في عقيدتهم.. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم «دار ظلمٍ وطغيان» .. وهم لا يدافعون عنها، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوتهم المسلمين منها.. إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تُقَام شريعةُ الله فيه، وأرضه التي يدفع عنها هي «دار التوحيد» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجاً للحياة.. وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي، ولا يعرفه الإسلام).

(وما كان سبب شرع القتال إلا عدم حرية الدين، وظلم المشركين للمسلمين، ومع هذا كله، وما أفاضت به الآيات من بيانه، يقول الجاهلون والمتجاهلون: إن الإسلام نُشِر بالسيف والقوة، فأين كانت القوة من أولئك المستضعفين؟ !

القتال في نفسه أمرٌ قبيح، ولا يجيز العقل السليم ارتكاب القبيح إلا لإزالة شرٍ أقبح منه، والأمور بمقاصدها وغاياتها، ولذلك بين القرآن في عدة مواضع حكمة القتال وكونه للضرورة وإزالة المفسدة، وإدالة المصلحة، ولم يكتف هنا ببيان ما في هذه الآية من كون القتال المأمور به مقيدا بكونه في سبيل الله وهي سبيل الحق والعدل، وإنقاذ المستضعفين المظلومين من الظلم، حتى أكَّده بإعادة ذكره، مع مقابلته بضده، وهو ما يقاتل الكفار لأجله، فقال:

{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} وقد بان أن الطاغوت من المبالغة في الطغيان، وهو مجاوزة حدود الحق والعدل والخير، إلى الباطل والظلم والشر، فلو تَرَك المؤمنون القتال - والكافرون لا يتركونه - لغَلَب الطاغوت وعَمَّ فساده وطَمَّ **كما قال تعالى: {ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ} (البقرة/ 251)** ، فغلبت الوثنية المفسدة للعقول والأخلاق، وعمَّ الظلم بعموم الاستبداد.

قال تعالى: **{ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ}** ؛ فأنتم أيها المؤمنون أولياء الرحمن **{إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفا}**؛ لأنه يزين لأصحابه الباطل والظلم والشر، وإهلاك الحرث والنسل، فيوهمهم بوسوسته أنها خيٌر لهم، وفيها عزهم وشرفهم، وهذا هو الكيد والخداع، ومن سنن الله في تعارض الحق والباطل، أن الحق يعلو والباطل يَسْفُل، وفي مصارعة المصالح والمفاسد بقاء الأصلح، ورجحان الأمثل، **فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون شيئا ثابتا صالحا تقتضيه طبيعة العمران وسنن الوجود مؤيدة لهم، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان**

يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير حق، وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم وهي أمور تأباها فطرة البشر السليمة، وسنن العمران القويمة، فلا قوةَ ولا بقاء لها، وإنما بقاء الباطل في نومة الحقِ عنه.

وهناك معنىً آخر في هذه الآية وهو جواب عما عساه يطوف بخواطر أولئك الضعفاء، وهو أننا لا نقاتل لأننا ضعفاء والأعداء أكثر منا عددا، وأقوى منا عددا، فدلهم الله - تعالى - على قوة المؤمنين التي لا تعادلها قوة، وهو أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وهو تأييد الحق الذي يوقن به صاحبه، وصاحب اليقين والمقاصد الصحيحة الفاضلة تتوجه نفسه بكل قواها إلى إتمام الاستعداد، ويكون أجدر بالصبر والثبات، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العَدَد والعُدَد. فهو تحميس للمؤمنين بالتمسك بإيمانهم والقتال بعقيدتهم فإنها أكبر قوتهم وأعظم عدتهم. والمعنى (أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} الآية.

(وفي لمسةٍ واحدة يقف الناس على مفرق الطريق. وفي لحظةٍ ترتسم الأهداف، وتتضح الخطوط. وينقسم الناس إلى فريقين اثنين تحت رايتين واضحتين:

«الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ..

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ» ..

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل «بين الناس» باسم الله. لا تحت أي عنوان آخر. اعترافاً بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة والطاعة فيما شرع من منهج للحياة، وهو معنى التوحيد.

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق مناهج شتى- غير منهج الله- وإقرار شرائعَ شتى- غير شريعة الله- وإقامة قيم شتى- غير التي أذن بها الله- ونصب موازينَ شتى غير ميزان الله!

ويقف الذين آمنوا مستندين الى ولاية الله وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم، وشتى مناهجهم، وشتى شرائعهم، وشتى طرائقهم، وشتى قيمهم، وشتى موازينهم ... فكلهم أولياء الشيطان.

كما قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام: 153)

ويأمر الله الذين أمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان:

«فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» .

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركنٍ شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركتهم لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ. وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء.. إنما هي لله وحده، ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل يقاتلون لتغليب الباطل على الحق. لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج وشرائع البشر وحكم الجاهلية على شريعة منهج الله، ولتغليب ظلم البشر على عدل الله في حكمه وفي شرعه ومنهاجه..

كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها. وأنهم يواجهون قوماً، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف.. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها. قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة- فهو واثقٌ من النتيجة- أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة جيل المسلمين الأولين؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيالٍ كثيرة. وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال فهي كثيرة مشهورة.. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب، في أقصر فِترةٍ عُرفت في التاريخ فقد كان هذا التصور جانباً من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للمؤمنين بالحق، على أهل الباطل..

ذلك التفوق وبناء هذا التصور ذاته كان طرفاً من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين فأمسوا مهزومين!

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته. فلم يكن الأمر هيناً. ولم يكن مجرد كلمةٍ تُقَال. ولكنه كان جهداً موصولاً، لمعالجة شُحَّ النفس، وحرصها على الحياة- بأي ثمن- وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.).

يقول الأستاذ محمد عبده رحمه الله: وفي هذه الآية من العبرة أن القتال الديني (من أجل الدفاع عن دين الله الحق، وهو ما نسميه " الجهاد") أشرف من القتال المدني لأن القتال الديني في حكم الإسلام يقصد به الحق والعدل وحرية الدين، وهي المراد بقوله تعالى: **{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ} (8: 39)** ، أي حتى لا يُفْتَنُ أحدٌ عن دينه ويُكْرَه على تركه، كما في الآية: **{لا إكراه في الدين} (البقرة/256)** ، ولذلك قال- تعالى- في وصف من أُذِن لهم بالقتال بعد ما بين إلجاء الضرورة إليه:

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (الحج: 39 - 41).

وأما القتال المدني (من أجل الدولة ومصالحها ومثل لك) فإنما يقصد به الملك والعظمة، وتحكم الغالب القوي في المغلوب الضعيف، وإنما يَذُمُّ أهلُ المدنية الجهادَ؛ لأنهم أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديد في الحروب المدنية، ولهم طمع في بلادٍ ليس لها مثل تلك القوة، وإنما لها بقية من قوة العقيدة، فهم يريدون القضاء على هذه البقية ويتهمونها باطلا بهذه التهمة.

ومنها أن هذه الآيات وسائر ما ورد في القتال في السور المتعددة تدل - إذا عرضت عليها أعمالُ المسلمين - على أن الحرب التي يوجبها الدين ويشترط لها الشروط ويحدد لها الحدود وهي " الجهاد الشرعي" قد تركها المسلمون من قرونٍ طويلة، ولو وُجِدت في الأرض حكومةٌ إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد كل ما يُستَطاع من قوةٍ واستعدادٍ للحرب حتى تكون أقوى دولة حربية؛ ثم إنها مع ذلك تتجنب الاعتداء ؛ فلا تبدأ غيرَها بقتالٍ بمحض الظلم والعدوان، بل تقف عند تلك الحدود العادلة في الهجوم

والدفاع، لو وُجِدت هذه الحكومةُ لاتخذها أهلُ المدنيةِ الصحيحة قدوةً صالحة لهم، وإنما الغلبة والعزة لمن يكون أقرب إلى هداية القرآن بالفعل، على من يكون أبعد عنها وإن انتسب إليه بالقول). [570]

وما ذكر من أن آية السيف نسخت كل آيات القتال التي تبين أن القتال في الإسلام هو رد فعل على التسلط والظلم والطغيان هو مجازفةٌ لا دليل عليها من التحقيق لمعاني آيات القتال التي تدل أنها تدور في إطار فلسفةٍ واحدةٍ سواء في أهدافها وأغراضها أو في أصولها وأركانها وآدابها ومنهياتها فليس في الحقيقة في القرآن شيء يسمى " آية السيف" وإنما آيات القتال لكل منها في موضعها معنى وبيان لحكمٍ من أحكام الجهاد الشرعي كما عودنا القرآن على التدرج في أحكامه وإنزالها منازلها بظروفها وملابساتها.

يقول العقاد: ولا نعرف إشاعة أكذب من قول القائلين — جهلًا منهم أو تجاهلًا بالقرآن الكريم: إن الإسلام دين سيف، وإن العلاقة بينه وبين الأمم الأخرى علاقة حرب وقتال!

فإن شريعة القرآن لم تضع السيف قط في غير موضعه، ولم تستخدمه قط حيث يُستَغنى عنه بغيره.

وقد نشأت الدعوة الإسلامية بين أقوام يحاربونها، ويكيدون لها، ويصدون الناس عنها، وأمر المسلمون بقتال من يقاتلونهم في غير عدوان، ولا شطط: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾. **(البقرة :190)**

وكانت جزيرة العرب جزيرة بالمعنى السياسي — لا بالمعنى الجغرافي وحده — إذا نظرنا إلى الدول التي أحدقت بها في عهد الدعوة الإسلامية وتربصت بها الدوائر للإيقاع بالدعوة ودعاتها في إبان نشأتها، وكان على رأس تلك الدول أصحاب السلطان الذين يصدون عن سبيل لله؛ ذيادًا عن عروشهم، واستئثارًا بمنافعهم، وإطالة في أمد سلطانهم، ولا يرجعون في ذلك إلى الحجة والبيان؛ بل إلى السيوف والرماح، فإذا حورب هؤلاء فإنما يُحاربون بسلاحهم؛ ولا يحاربون بالجدل والبينة الحسنة، السيف للسيف، فإذا انكسر سيف السلطان بقي رعايا الدول أحرارًا فيما يختارون لأنفسهم من دين آبائهم، أو من الدين الجديد: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. (البقرة 256)

فمن اختار الدين الجديد فهو مسلم كالمسلمين فيما له وفيما عليه، ومن بقي على دين آبائه فليس عليه غير ضريبة المحكوم للحاكم، ويمنعه الحاكم بعد ذلك مما يمنع منه المسلمين، ويحميه كما يحميهم ويعوله كما يعولهم، ثم لا يُطلب منه جهاد ولا ذِياد كما يُطلب من المسلمين.

﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾. (التوبة 29)

ولم يقل الكتاب: قاتلوهم حتى يسلموا كرهًا إن كانوا لا يسلمون اقتناعًا! وكل ما هنالك من حكم السيف أنه قد أبطل حكم السيف الذي لا يدين بالحجة ولا بالرأي، وترك الناس لضمائرهم يدينون بما اختاروه من دين.

ولو أننا رجعنا إلى حروب العقائد من الوجهة العلمية لوجدنا أن أصحاب الأديان أضعاف ما أُثر عن تاريخ الإسلام، « المقدسة » الأخرى قد شنوا على غيرهم من الحروب وقد رأينا في عصرنا هذا من دعاة الإصلاح من

---

(570) راجعنا واصطحبنا لتفسير هذه الآيات تفسير المنار للشيخ محمد عبد وتلميذه محمد رشيد رضا رحمهما الله(5/ 211)، وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله (2/ 708)، وتفسير العلامة القاسمي رحمه الله = محاسن التأويل (3/ 223)، وتفسير العلامة السعدي رحمه الله = تيسير الكريم الرحمن (ص: 187).

يؤلب الأمم على حرب كل حكومة تدين بمبادئ الطغيان في الحكم ولا تؤمن بمبادئ الحرية والشورى، ومن لم يسمع هذه الدعوة باختياره سمعها على قسر واضطرار، كما حدث في الحروب بين بلاد الفاشية والنازية وبين المنكرين لقواعد الحكم في تلك البلاد). [571]

وأول آية زمنياً لتشريع الجهاد- على حسب تحقيق المفسرين- تقول: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}** (الحج 39)، فهي إذْنٌ وتصريح لكل من يتعرض للظلم والقتل، بأن يدافع عن نفسه بغض النظر عن عقيدته ودينه.، يكفى أن يكون مظلومًا، وأن يتعرض لاحتمال الإبادة بالقتل، حينئذ يأتيه نصر الله إذا قاتل دفاعًا عن حقه في الحياة، فالآية بمنطوقها بعيدا عن سبب النزول تدل عن عمومية في تشريعها الإلهى وتوسعة لشرعية معنى " الجهاد" لكل مظلوم يفرض الآخرون عليه الحرب، وهى للمسلمين آكد لأنهم بطبيعة دعوتهم للحق مضطهدين ومحارَبين، والجيل الإسلامي الأول بما تعرض له من نكال فقط لأجل دينه وعقيدته يمثل صورة عملية لتنزيل حكم هذه الآية الكريمة ؛ فإن الإيذاء الذي أوقعه المشركون بالمؤمنين وصل إلى درجة القتل بل الإبادة، وحين يقاتل المشركون قومًا مسالمين، لا يردون عن أنفسهم القتل، فإن الإبادة لأولئك المستضعفين حتمية.

أي أن القرآن يشير إلى حقيقة تاريخية بني عليها حكمٌ عادل منصف بوجوب الدفاع عن النفس وعن الاعتقاد ضد من يحاربون حرية الإنسان في الاعتقاد واتخاذ منهجٍ له في الحياة، إنه دفاعٌ عن حرية الحياة نفسها.

وحدث أن المشركين طغوا في حربهم على حرية العقيدة ، وحدث قتل وتعذيب للمسلمين، وسكت المسلمون، لأن الإذن بالقتال لم يكن قد نزل. فلما نزلت الآية جاء التشريع بالجهاد وأصبح من حقهم الدفاع عن النفس.

فالآية بعدها تقول: **{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** (الحج 40).

فالآية هنا تعطى سببًا في حيثيات الإذن بالقتال لرد العدوان. فالسبب الأول أن أولئك المظلومين تعرضوا للقتل والقتال، والسبب الثاني أنهم تعرضوا للطرد من بيوتهم ووطنهم، لمجرد أنهم يقولون (ربنا الله)، وفي الفقرة الثانية من الآية، والتي تؤكد أنه لولا حق المظلوم في الدفاع عن نفسه، لتهدمت بيوت العبادة للنصارى واليهود والمسلمين وغيرهم، حيث يذكر العابدون فيها اسم الله كثيرا.

والأهمية القصوى هنا في تأكيد القرآن والسنة -حتى في ذروة الجهاد - حصانة بيوت العبادة لليهود والنصارى والمسلمين، بل جعلت الجهاد نفسه وهو سنةٌ من سنن الله في الكون في التدافع بين الناس يتقاتلون لأجل أهدافٍ وأغراض، وهنا جعل القرآن الغرض الأسمى للقتال الإسلامي " الجهاد" هو حماية حرية العقيدة؛ والحرية هنا معنى إنساني عام، حيث ذكر الصوامع والبيع والصلوات، أي كل ما يعتكف فيه الناس للعبادة من أديرة وكنائس وغيرهما، ثم جاء بالمساجد في النهاية، وقالت الآية عن الجميع إنها يُذْكَر فيها اسم الله كثيرا. ولم تقل طبقا لعقيدة الإسلام في الألوهية حتى تجعل لكل بيوت العبادة الخاصة بكل الملل والنحل حصانة من الاعتداء. ولذلك قال رسول الله ﷺ معلماً أمته واجبات الجهاد ومحظوراته؛ قال رسول الله يوصي الجيش: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا

---

[571] كتاب الفلسفة القرآنية للأستاذ محمود عباس العقاد – طبعة مؤسسة هنداوي (ص 79-83).

تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً." رواه مسلم والترمذي وأبو داود.

وظهر ذلك المنهج السامي في تعاليم الجهاد الإسلامي واضحًا في كلمات أبي بكر الصديق –رضى الله عنه، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: "وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...". وهو شمول عظيم لكل أمر حميد، وجاء أيضًا في وصيته: "وَلا تُغْرِقُنَّ نَخْلاً وَلا تَحْرِقُنَّهَا، وَلا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلا تَهْدِمُوا بَيْعَةً..." أخرجه البيهقي في سننه وغيره.

وقد جمع العلماءُ أصنافَ الذين لا يجوز قتالهم، أو التعرُّض له بالاعتداء، فذكروا منهم: النِّساء، والأطفال، والرُّهبان ورجال الدِّين، والشُّيوخ كِبار السِّن، والزَّمنىَ(المرضى والجرحى)، والعُسفاء - وهم الأجراء والفلاَّحون - ويُشترط في الجميع ألاَّ يشتركوا في القِتال، ولا يُعينون عليه بحال.

أمَّا من الناحية العمليَّة التطبيقيَّة، فإنَّنا نجد بتصفُّح السِّيرة النبويَّة ودراستها أنَّه على الرَّغم من كثرة عدد الحروب والغزوات التي خاضها النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ثُمَّ التي خاضها أصحابه - رضوان الله تعالى عنهم - فإنَّه لم يُعرف عنهم أنَّهم قصدوا قتلَ ذراري وأطفال المشركين، أو قتْل نِسائهم، أو شيوخهم رغمَ ما تعرَّض له المسلمون من اعتداءات سافرة.

إنها الفروسية الإسلامية التي رباهم القرآن عليها والتي تبين بما لا مجال للشك فيه هدف الجهاد الإسلامي ومعانيه. فلا معنى لانتقاده أو التبرم به والتواري منه إلا عند من جهل حقيقة الإسلام ذاته.

فالمعنى والهدف الأسمى للجهاد هنا أيضًا أن تشريع الإذن بالقتال، ليس فقط لرد الاعتداء، ولكن أيضا لتقرير حرية العبادة لكل إنسان في بيت العبادة وخصوصا المسلمين الذين يلاقون تجبرا وظلما من كل أمم الأرض قديما وحديثا لا لشيء إلا لدينهم وكما في نص الآية: { إلا أن يقولوا ربنا الله} .

ولما كان منتظرًا من المؤمنين المسالمين حول النبى، أن يبتهجوا بتشريع الإذن لهم برد الاعتداء والدفاع عن النفس، ولكن حدث العكس، إذ إنهم تعودوا الصبر السلبى، وتحمل الأذي، لذلك كرهوا التشريع الجهادى برد الاعتداء وغفلوا أنه ضرورى لحمايتهم من خطر الإبادة ومن أجل نشر النور ومنع خفافيش الظلام من بسط سيطرتهم على عقول الناس واستعبادهم.

لأنه إذا عرف العدو الغشوم، والظالم الجهول، والفرعون المستبد المستعبد للبشر أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي وأنهم قادرون على حمل السلاح من أجل الدفاع عن النور الذي بأيديهم، فسيتوقف عن الاعتداء عليهم أو على غيرهم ، وبذلك يتم حقن الدماء.

وفى ذلك يقول تعالى للمؤمنين: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** (البقرة 216). لقد كرهوا القتال دفاعًا عن النفس وعن الحق، وهو خير لهم وأحبوا الاستكانة والخضوع لمن يحاربهم وهو شرٌ لهم. والسبب أنهم تعودوا السلام والصبر إلى درجة تمثل خطرًا على وجودهم ودينهم.

إلا أن هذا التوضيح القرآني للمؤمنين المسالمين، لم يكن كافيًا لبعضهم لكي يخرجهم من حالة الخضوع إلى حالة الاستعداد لرد العدوان، ولذلك فإن فريقًا منهم احتج على تشريع القتال، ورفع صوته لله بالدعاء طالبًا تأجيل هذا التشريع، وفى ذلك يقول تعالي: **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ**

كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}
(النساء 77).
(وكان هذا الكف لحكمة قدرها الله.. نستطيع أن نَحْدِس بعض أسبابها على سبيل التقدير البشري ، وأول ما نراه من أسباب هذا الكف، أنه كان يراد أولا تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر امتثالاً للأمر، وخضوعا للقيادة، وانتظاراً للإذن. وقد كانوا في الجاهلية شديدي الحماسة، يستجيبون لأول ناعق، ولا يصبرون على الضيم.. وبناء الأمة المسلمة التي تنهض بالدور العظيم الذي نيطت به هذه الأمة يقتضي ضبط هذه الصفات النفسية، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر، وتطاع فيما تقدر وتدبر، حتى لو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب التي تعودت الاندفاع والحماسة والخفة للهيجاء عند أول داع.. ومن ثم استطاع رجال من طراز عمر بن الخطاب في حميته، وحمزة بن عبد المطلب في فتوته، وأمثالهما من أشداء المؤمنين الأوائل أن يصبروا للضيم يصيب الفئة المسلمة وأن يربطوا على أعصابهم في انتظار أمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهي تقول لهم: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ» .. ومن ثم وقع التوازن بين الاندفاع والتروي، والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة.. في هذه النفوس التي كانت تعد لأمر عظيم.)[572]
فقد كانوا في مكة مأمورين بكف اليد عن الدفاع عن النفس، اكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلما فُرض عليهم القتال الدفاعى، احتج فريق منهم وطلبوا التأجيل.. وهذا يدل على عمق شعورهم بالمسالمة وكراهية الدماء، ويفند ادعاء من ادعى من المستشرقين أن محمدا ﷺاستغل تعطش العرب للقتال والدماء فسطا بهم على البلاد وعشّمهم بالغنائم والمكاسب وسمَّى ذلك جهادا ودينا، وحاشاه. فإن أكثر من ثلاث عشرة سنةٍ مرت على جيلٍ روضته العقيدة الربانية وأمره رسول الله ﷺ بمخالفة عاداته وطبعه الأَنوف في القتال والطعان، وأمرهم الله بالكف عن القتال حتى كادوا أن ينسوه، ولما أمرهم الله تعالى بالقتال وهم في حالةٍ من الضعف المادي والبدين وقلة العدد والعتاد خافوا وصار الأمر بالنسبة لهم كما وصف القرآن: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ }** (الأنفال: 5، 6) قال القرطبي ما ملخصه: مجادلتهم هي قولهم لمَّا ندبهم إلى العير (أي قافلة قريش يأخذونها حين تمر بهم في زمان غزوة بدر) وفات العير وأمرهم (بالنفير) بالقتال، ولم يكن معهم كبير استعداد للحرب شق ذلك عليهم وقالوا: (لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العُدَّة). ومعنى" في الحق" أي في القتال فمعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم. {كأنما يساقون إلى الموت} كراهةً للقاءِ القوم. {وهم ينظرون} أي يعلمون أن ذلك واقع بهم. انتهى.
والجهاد الإسلامي واضح المعالم لا لبس فيه إلا لجائر أو جاهل . يقول تعالي: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}** (البقرة 190). فالأمر هنا { وقاتلوا} محكومٌ بغايةٍ كبرى أنه { في سبيل الله}،(وعندما نتأمل قوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّه} فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة {فِي سَبِيلِ اللّه} لأنه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، ولابد أن تكون نية القتال في سبيل الله لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان فلا قتال من أجل الحياة، أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الله، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

---

[572] في ظلال القرآن (1/ 185)

ومحكومٌ بدوافعه وأسبابه المشروعة { الذين يقاتلونكم}، ومحكوم كذلك بالقاعدة التشريعية الضابطة لحدوده {وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين} والحق تعالى ينهى عن الاعتداء، أي لا يقاتل المسلم مَن لم يقاتله من الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى والعزل ، وإذا كان في القتال فلا يعتدي ويبيد ويدمر ويهدم.
هذه أخلاق المسلمين؛ بل هي شرعهم وتعاليمهم التي لا يحيدون عنها في حروبهم وفي سلمهم.
على العكس من الديانات الأخرى التي وضعوا لها دستورا وحشيا في القتال في أهدافه ودوافعه؛ وفي سلوكه وتعالميه كما بيَّنا من قبل.
قال ابن جرير في تأويل الآية: وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله ، وسبيلُه: طريقه الذي أوضحه، ودينه الذي شرعه لعباده . أى: قاتلوا في طاعتي وَعلى ما شرعت لكم من ديني، وادعوا إليه من وَلَّى عنه واستكبر بالأيدي والألسن، حتى يُنيبوا إلى طاعتي، أو يعطوكم الجزية صَغارًا إن كانوا أهل كتاب. وأمرهم تعالى ذكره بقتال مَنْ كان منه قتال من مُقاتِلة أهل الكفر دون من لم يكن منه قتالٌ من نسائهم وذراريهم.
فمعنى قوله: "ولا تعتدوا": لا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتابَين والمجوس، "إنّ الله لا يُحب المعتدين" الذين يجاوزون حدوده، فيستحلُّون ما حرَّمه الله عليهم من قتل هؤلاء الذين حَرَّم قتلهم من نساء المشركين وذراريهم. [573]

وقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}(آية 190)

فيه قال المفسرون: كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية.
روى عن الربيع وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه أوّل آية نزلت في القتال . وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كفّ عنهم، ثم نُسخت بآية سورة "براءة" التي يسمونها آية السيف. [574]
وانتَقَدَ العلامة ابنُ كثير هذا القول الذي قال به الربيع، وابن زيد، مستندًا لنظائر المعنى من القرآن، وسياق الآية، بقوله: «وفي هذا نظر؛ لأنّ قوله: {الذين يقاتلونكم} إنّما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين هِمَّتُهم قتالُ الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: {وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة} (التوبة: 36) ؛ ولهذا قال في هذه الآية: {واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}، أي: لِتَكُن هِمَّتُكم مُنبَعِثَةً على قتالهم كما أنّ هِمَّتَهُم مُنبَعِثَةٌ على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها، قصاصًا» - ثم قال بعد ذلك: «وقد حُكِي عن أبي بكر الصديق : أنّ أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة: { **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** } الآية (الحج:39) ، وهو الأشهر، وبه ورد الحديث» - .

---
[573]تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 561-564)
[574]تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 561)

عن عبد الله بن عباس - من طريق سعيد بن جبير - قال: لَمّا أُخْرِج النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيَّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليَهلِكَنَّ القومُ - فنزلت: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا} الآية - قال أبو بكر: فعلمتُ أنه سيكون قتال - قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. [575]

وفي تفسير الطبري: وقال آخرون: بل ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم يُنسَخ. وإنما الاعتداءُ الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذَّراريّ. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حُكمه اليوم. قالوا: فلا شيء نُسخ من حكم هذه الآية.

وبالسند عن يحيى بن يحيى الغساني، قال: كتبتُ إلى عمر بن عبد العزيز أسألهُ عن قوله: "وقاتلوا في سَبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يُحب المعتدين"، قال: فكتب إليّ: "إنّ ذلك في النساء والذريّة ومن لم يَنصِبْ لك الحرَب منهم".

وبالسند عن مجاهد قال: هو لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أمروا بقتال الكفار.

وعن ابن عباس قال: : معناها لا تقتلوا النساء ولا الصِّبيان ولا الشيخ الكبير وَلا منْ ألقى إليكم السَّلَمَ وكفَّ يَده، فإن فَعلتم هذا فقد اعتديتم.

قال أبو جعفر: وأولى هذين القولين بالصواب، القولُ الذي قاله عمر بن عبد العزيز. لأن دعوى المدَّعي نَسْخَ آية يحتمل أن تكون غيرَ منسوخة، بغير دلالة على صحة دعواه، تحكُّم. والتحكم لا يعجِز عنه أحد. [576]

قال أبو القاسم الراغب: والآية ليست بمنسوخة ولا ناسخة، وبيان ذلك أن من شرط الداعي إلى الحق أن يبينه ويدل عليه ويرفق، فإن اهتدى المدعو، وإلا أوعد، فإن أنجع ذلك وإلا عدل بعد إلى المحاسبة والمحاربة على ما تقتضيه السياسة، وعلى هذا قال بعضهم: " لا أستعمل سوطي ما كفاني لساني ولا سيفي ما كفاني سوطي ".

وقال الشاعر: أناةٌ فإن لم يغنِ أعْقَبَ بعدها....وعيدا فإنْ لم يغنِ أغنتْ عزائمُهُ.

فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر في أول الأمر بالرفق والأناة، وأن يقتصر على الوعظ والمجادلة الحسنة، كما قال تعالى: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** ، وكان يستمر على ذلك حتى عاتبه بعض أصحابها فقال يا نبي الله: " كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة "، فقال عليه السلام: " أمرت بالعفو فلا تقاتلوهم اليوم "، فلما ظهرت آياته، وانتشرت بنياته، ورأى من أبى الإصغاء إلى الحق، واستمر على الضلال والإضلال أُمِر حينئذ بالمقاتلة أي المحاربة، ولهذا قال تعالى:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}. ثم أُمِر بالقتال لمَن تأبَّى الرجوع إلى الحق بالمحاربة، وكان هذا أمرا بعد أمرٍ حسب مقتضى السياسة الإلهية. انتهى. [577]

وفي تأويل قوله تعالى: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} (الآية 191–192)

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مَقاتلهم وأمكنكم قتلهم، وذلك هو معنى قوله: "حيث ثقفتموهم".

---

(575)أخرجه أحمد ، والترمذي وقال: «هذا حديث حسن» ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم وقال: «هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» - وقال ابن القيم في زاد المعاد: «إسناده على شرط الصحيحين» - .

(576)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 561-564)

(577)تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 404)

ومعنى "الثِّقْفَة" بالأمر الحِذق به والبصر، يقال: "إنه لثَقِف لَقفٌ"، إذا كان جيد الحَذر في القتال، بصيرا بمواقع القتل. وأما "التَّثْقيف" فمعنى غير هذا، وهو التقويم. (قلتُ: من تثقيف الرمح وهو إزالة ما يعلق به ليكون قويما قويا)

فمعنى: "واقتلوهم حيث ثقفتموهم"، اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم.

وأما قوله: **{وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}** فإنه يُعنى بذلك المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذكره: أخرجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم - وقد أخرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها.

و قوله تعالى: **{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ}** يعني: والشرك بالله أشدُّ من القتل. وهو قول قتادة والربيع والضحاك في الآية. وقد بينت أنَّ أصل "الفتنة" الابتلاءُ والاختبار .فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجعَ عنه فيصير مشركا بالله من بعد إسلامه، أشدُّ عليه وأضرُّ من أن يُقتَل مقيمًا على دينه متمسكا عليه، مُحقًّا فيه. [578]

وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه. ويجوز أن يراد: وفتنتهم إياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم. [579]

وبصيغةٍ أخرى : أن الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجعوكم بها إلى الكفر أشد من القتل أي: من قتل المؤمن.

وأما الفتنة فمن معانيها: الاختبار والابتلاء. ومنه قول العرب: "فتنت الذهب في النار"، إذا امتحنته لتعرف جودته من رداءته، "أفتنه فتنة وفتونا". ومن معانيها العذاب.

قال تعالى: { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192)}

والمعنى: لا تكونوا البادئين فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك القتل والإخراج الواقع منكم لهم يكون جزاء كل كافر يعتدي ويظلم. فإن انتهوا عن الشرك والكفر وأسلموا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم؛ لأن الله تعالى غفور رحيم.

روى ابن جرير الطبري بالسند عن قتادة: "ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم"، فأمر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن لا يقاتلهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوا فيه بقتال، ثم نَسَخ اللهُ ذلك بقوله: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} (سورة التوبة: 5) فأمر الله نبيَّه إذا انقضى الأجل أن يقاتلهم في الحِلِّ والحرَم وعند البيت، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسولُ الله.

قلتُ: والتحقيق أن آية سورة (براءة) جاءت تعقيبا على خيانة المشركين لعهدهم مع رسول الله ﷺ والغاءً للهدنة بين رسول الله وبينهم، والغرض كان دخول مكة وجعلها مسلمة وإلغاء الشرك فيها، فهى مخصوصة بأمرٍ خاصٍ في قصة خرق المشركين للعهد وعقاب الله لهم، وليست على عمومها، وعلى نفس المعنى تأويل قول النبي ﷺ: "إنّي أمرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يَقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عَصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله".

---

[578] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 565) باختصار.

[579] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 236)

فالناس هنا هم أهل مكة المشركين، واللام هنا في كلمة (الناس) هي للمعهود الذهني، ويكون هذا من العام الذي أريد معنى الخاص.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ رِوَايَةُ الإمام النَّسَائِيِّ- رحمه الله- بِلَفْظِ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ".

وقد كان هذا بعد أكثر من عشرين سنة مكثها رسول الله ﷺ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى دين الإسلام بكل حجةٍ وبكل سبيل، فأصروا على غباوتهم وحاربوا النور بكل وسيلةٍ ومكروا وقتلوا وعذبوا وأنفقوا في سبيل الشيطان، فكان حقا على النور والحق أن يقوم لينشر ضياءه بالقوة إذا لزم الأمر.

ولِأَنَّهُ أيضا هناك فَرْقٌ بَيْنَ الْمُقَاتَلَةِ عَلَى الشَّيْءِ وَالْقَتْلِ عَلَيْهِ فَإِنَّ " الْمُقَاتِلَةَ " مُفَاعِلَةٌ، تَقْتَضِي الْحُصُولَ مِنْ الْجَانِبَيْنِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إبَاحَةِ الْمُقَاتِلَةِ عَلَى الإسلام إذَا قُوتِلَ عَلَيْه - إبَاحَةُ الْقَتْلِ عَلَيْه مِنْ الْمُمْتَنِعِ عَنْ الاستجابة له. فالأمر أنها دعوة للإسلام تُقابَل ليس بالجحود فقط وإنما بالقتال من المدعو، وهنا لزم القتال دون هذه الدعوة.

وفي هذا رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا بعث بعثاً قال " تألَّفُوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت ولا مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم ".

وقال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-:

وربما يَكُونَ الْمُرَادُ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الأمر بالقتال على الشَّهَادَةِ وَغَيْرِهَا التَّعْبِيرَ عَنْ إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِذْعَانَ الْمُخَالِفِينَ فَيَحْصُلُ فِي بَعْضٍ بِالْقَتْلِ وَفِي بَعْضٍ بِالْجِزْيَةِ وَفِي بَعْضٍ بِالْمُعَاهَدَةِ. [580]

ويؤيد هذا ما حدث على أرض الواقع من تنفيذ عملي من جانب رسول الله ﷺ وصحابته الذين لم يقاتلوا العالم، بل هادنوا وصالحوا وأخذوا الجزية وتركوا اليهود والنصارى على أديانهم، فكانت غاية القتال (الجهاد) عندهم هو حماية حرية الدعوة إلى الله وحريات الناس في اختيار التوحيد.

فالقول- إذن- بأن هذه الآية: **{ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}.**

محكمة أصح لأن دلالتها على ذلك واضحة وهو أن لا يقاتل في الحرم المكي وأن لا يبدأ به فإذا بدأ المشركون بقتال المؤمنين قاتلهم المؤمنون فيه، ويشهد لهذا حديث ابن عباس في الصحيح: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام لحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة". الحديث. [581]

وفي قوله تعالى: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

والانتهاء الذي يستأهل غفران الله ورحمته، هو الانتهاء عن الكفر، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين. فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون. ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته. فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان، لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان.

---

(580)فتح الباري لابن حجر (1/ 77)

(581)أيسر التفاسير للجزائري (1/ 173)

وما أعظم الإسلام، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة، ويسقط عنهم القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم، الذي قتلوا منه وفتنوا، وفعلوا بأهله الأفاعيل!!! [582]

قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} (الآية 193)

أما المقصد أو الغاية العظمى من الجهاد والقتال على عمومه في الإسلام، فهي في قوله تعالي: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}** (البقرة 193).

وهذه الآية مقررة لحكم سابقاتها، إذ فيها الأمر بقتال المشركين الذين قاتلوهم قتالاً يستمر حتى لا يبقى في مكة مَن يُضطهَد في دينه ويُفْتَن فيه ويكون الدين كله لله فلا يُعبَد غيرُه، وقوله **{فَإِنِ انْتَهَوْا }** عن ظلمهم وفسادهم وطغيانهم على الناس بغير حقٍ أو انتهوا من الشرك بأن أسلموا فكُفُّوا عنهم ولا تقاتلوهم، : **{فَلا عُدْوَانَ}** يجوز في الإسلام **{ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ}** ، وهي جملةٌ خاتمةٌ عظيمة تبين الغرض الأساسي لكل جهادٍ في الإسلام، إنه لردع الظالمين سواء كان جهادا (دفاعيا) لردهم عن المسلمين وعن فتنتهم في دينهم أو كان جهادا (استباقيا) لوضع حدود لمن تسول له نفسه الظلم والتعدي على حريات الناس وعلى المسلمين.

أي أن منع الفتنة هو الهدف الأساسي من تشريع القتال. والفتنة في معناها هنا هي الإكراه في الدين والاضطهاد الديني، وهذا ما كان يفعله المشركون في مكة ضد المسلمين. وبتقرير الحرية الدينية ومنع الفتنة أو الاضطهاد الديني، يكون الدين كله لله تعالي، يحكم فيه وحده يوم القيامة، دون أن يغتصب أحدهم سلطة الله في محاكم التفتيش واضطهاد المخالفين في الرأي، وذلك معنى قوله تعالي: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** (الأنفال 39). والواضح أن كل هذه التشريعات عن القتال في الإسلام، تؤكد السلام وتحميه من دعاة العدوان، وتؤكد حرية العقيدة وتفويض الأمر فيها لله تعالى يوم القيامة، وتحميها من دعاة التعصب والتطرف وإكراه الآخرين في عقائدهم واختياراتهم.

(وإذا كان النص- عند نزوله- يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، وهي التي كانت تفتن الناس، وتمنع أن يكون الدين لله، فإن النص عام الدلالة، مستمر التوجيه. والجهاد ماض إلى يوم القيامة. ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله، والاستجابة لها عند الاقتناع، والاحتفاظ بها في أمان. والأمة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة وتطلق الناس أحراراً من قهرها، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله.

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة، بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل.. هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام وينشئ مبدأ عظيماً يعني في حقيقته ميلاداً جديداً للإنسان على يد الإسلام.

ميلاداً تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة، فترجح كفة العقيدة.

كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء «الإنسان» .. إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمناً عن دينه، ويؤذون مسلماً بسبب إسلامه. أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله..

وهؤلاء على الأمة المسلمة أن تقاتلهم، وأن تقتلهم حيث وجدتهم «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» ..

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائماً. وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور.. وما يزال الأذي والفتنة تلم بالمؤمنين أفراداً وجماعات وشعوباً كاملة في بعض الأحيان.. وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور،

---

(582)في ظلال القرآن (1/ 190)

وفي أي شكل من الأشكال، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام، فكان ميلاداً جديداً للإنسان..

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم فلا عدوان عليهم- أي لا مناجزة لهم- لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ». [583]

(فإن قال قائل: وهل يكون رد الظلم من باب الاعتداء على الظالم فيقال: "فَلا عُدوان إلا على الظالمين"؟ .

قيل: إن المعنى في ذلك غير ما ظننتَ، وإنما ذلك على وَجه المجازاة، لما كان من المشركين من الاعتداء، يقول: افعلوا بهم مثل الذي فعلوا بكم، كما يقال: "إن تَعاطيتَ منّي ظلما تعاطيته منك"، والثاني ليس بظلم، كما قال عمرو بن شأس الأسديّ:

جَزَيْنَا ذَوِى العُدْوَانِ بِالأمْسِ قَرْضَهُمْ ... قِصَاصًا، سَواءً حَذْوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ.

وإنما كان ذلك نظير قوله: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} (سورة البقرة: 15) وليس من الله استهزاء وإنما هو على سبيل المشاكلة، وقوله: {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} (سورة التوبة: 79) وقد بينا وجه ذلك ونظائره فيما مَضى). [584]

قوله تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ} (الآية 194)

وتتكرر القاعدة التشريعية في ضبط الجهاد باعتداء أهل الظلم والظلام على المؤمنين في قوله تعالي: **{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** (البقرة 194).

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "الشهر الحرام بالشهر الحرام" ذا القعدة، وهو الشهر الذي كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اعتمر فيه عُمرة الحديبية، فصدّه مشركو أهل مكة عن البيت ودخول مكة، سنة ست من هجرته، وصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين في تلك السنة، على أن يعود من العام المقبل، فيدخل مكة ويقيم ثلاثا، فلما كان العامُ المقبل، وذلك سنة سبع من هجرته، خرج معتمرا وأصحابه في ذي القَعدة - وهو الشهر الذي كان المشركون صدُّوه عن البيت فيه في سنة ست- وأخلى له أهل مكة البلد حتى دخلها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقضى حاجته منها، وأتم عمرته، وأقام بها ثلاثا، ثم خرج منها منصرفا إلى المدينة، فقال الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمسلمين مَعه "الشهرُ الحرام" يعني ذا القَعدة، الذي أوصَلكم الله فيه إلى حَرمَه وبيته، على كراهة مشركي قُريش ذلك، حتى قضيتم منه حاجتكم "بالشهر الحرام"، الذي صدكم مشركو قريش العامَ الماضيَ قَبله فيه حتى انصرفتم عن كره منكم عن الحرم، فلم تدخلوه، ولم تصلوا إلى بيت الله، فأقصَّكم الله أيها المؤمنون من المشركين بإدخالكم الحرم في الشهر الحرام على كره منهم لذلك، بما كان منهم إليكم في الشهر الحرام من الصدّ والمنْع من الوصول إلى البيت. وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد والسدي.

قال أبو جعفر: وإنما سمى الله جل ثناؤه ذا القَعدة "الشهرَ الحرام"، لأن العرب في الجاهلية كانت تحرِّم فيه القتال والقتل، وتضع فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحدًا، ولو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه. وإنما كانوا سموه "ذا القَعدة" لقعودهم فيه عن المغازي والحروب، فسماه الله بالاسم الذي كانت العرب تُسمِّيه به.

---

(583)في ظلال القرآن (1/ 190)

(584)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 573) بتصرف.

وأما "الحرمات" فإنها جمع "حُرْمة"، "كالظلمات" جمع "ظلمة"، "والحجرات" جمع "حُجرة". وإنما قال جل ثناؤه: "والحرمات قصاص" فجمع، لأنه أراد: الشهرَ الحرام، والبلد الحرام وحُرمة الإحرام.
فقال جل ثناؤه لنبيه محمد والمؤمنين معه: دخولكم الحرَم، بإحرامكم هذا، في شهركم هذا الحرام، قَصاصُ مما مُنعتم من مثله عامَكم الماضي، وذلك هو "الحرمات" التي جعلها الله قصَاصًا.
وقد بينا أن "القصاص" هو المجازاة من جهة الفعل أو القول أو البَدن، وهو في هذا الموضع من جهة الفعل.
وقوله تعالى **{ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ }** أصح التأويل فيه ما روى عن مجاهد، لأن الآيات قبلها إنما هي أمرٌ من الله للمؤمنين بجهاد عدوهم على صفة، وذلك قوله: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم" والآيات بعدها، وقوله: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه" إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمرُ بالقتال والجهاد، واللهُ جل ثناؤه إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة.
فمعلوم بذلك أن هذه الآيات مدنيّة لا مكيّة، إذ كان فرضُ قتال المشركين لم يكن وَجَب على المؤمنين بمكة، وأنّ قوله: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" نظيرُ قوله: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم" وأن معناه: فمن اعتدى عليكم في الحَرم فقاتَلكم فاعتدوا عليه بالقتال نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم، لأني قد جعلتُ الحُرمات قصاصًا، فمن استحلّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حُرْمةً في حَرَمي، فاستحلوا منه مثله فيه.
{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) } يعني: واتقوا الله أيها المؤمنون في حُرُماته وحدوده أن تعتَدُوا فيها، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أن الله يُحب المتقين، الذين يتقونه بأداء فَرائضه وتجنب محارمه. [585]
روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: "إنكم لا تغلبون عدوكم بعددٍ ولا عُدَّةٍ، ولكنْ تغلبونهم بهذا الدين، فإذا استويتم أنتم وعدوكم في الذنوب، كانت الغلبة للأقوى".

قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } (الآية 195)

(والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال. ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال، ومركب القتال، وزاد القتال.. لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند. إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال.
وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم. إنها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمي نفسها من أهلها أو من أعدائها، إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها! ولكن كثيراً من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد، والذود عن منهج الله وراية العقيدة، لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم، ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب. وكانوا يجيئون إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد، الذي لا يبلغ على الأقدام. فإذا لم يجد ما يحملهم عليه «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ» .. كما حكى عنهم القرآن الكريم.
من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق في سبيل الله. الإنفاق لتجهيز الغزاة. وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق في معظم المواضع.. [586]

---

(585)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 575) بتصرف.

(586)في ظلال القرآن (1/ 192)

قال تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} . واعلم أن الإنفاق هو صرف المال، فإذا قُيِّد الإنفاق بذكر (سبيل الله)، فالمراد به في طريق الدين، لأن السبيل هو الطريق، وسبيل الله هو دينه. فكل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية سواء كان إنفاقا في حج أو عمرة أو كان جهادا بالنفس، أو تجهيزا للغير، أو كان إنفاقا في صلة الرحم، أو في الصدقات أو على العيال، أو في الزكوات والكفارات، أو عمارة السبيل وغير ذلك، إلا أن الأقرب في هذه الآية وقد تقدم ذكر الجهاد أنه يراد به الإنفاق في الجهاد، بل قال: {وأنفقوا في سبيل الله} لوجهين:

الأول: أن هذا كالتنبيه على العلة في وجوب هذا الإنفاق، وذلك لأن المال مال الله فيجب إنفاقه في سبيل الله، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال.

والثاني: أن هذه الآية إنما نزلت وقت ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة لقضاء العمرة، وكانت تلك العمرة لا بد من أن تفضي إلى القتال إن منعهم المشركون، فكانت عمرة وجهادا، واجتمع فيه المعنيان، فلما كان الأمر كذلك، لا جرم قال تعالى: {وأنفقوا في سبيل الله} ولم يقل: وأنفقوا في الجهاد والعمرة. [587]

{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يُقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها.

والمعنى: النهى عن ترك الإنفاق في سبيل اللَّه لأن فيه تقوية العدو وتعطيل فريضة الجهاد التي تُطْمع الكفار فيما في أيدي المسلمين فيهلكوا ، وهو أول معاني الآية.

وروى أن رجلا من المهاجرين حمل على صف العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصارى: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أُنزلت فينا، صحبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها،

---

[587] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (5/ 294).

وقال العلامة السعدي رحمه الله: (يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى إضعاف الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سببٌ موصلٌ إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء على المسلمين، ومن ذلك إلقاء الإنسان بنفسه في قتالٍ أو سفرٍ مهلك دون حاصلٍ قوي، ، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين.

انظر تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 90) بتصرف يسير.

رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . [588]

وكما قال سيدنا رسول الله ﷺ: **" ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب ". أخرجه الطبراني بسند حسن.**

ويشهد له حديث العينة وفيه: " **إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** ". وهو حديث صحيح. [589]

وقيل في معنى آخر من معاني قوله تعالى: «**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**» هو تنبيه وتحذير من هذا الشعور الحماسى الذي قد يغلب على المجاهد وهو فى ميدان المعركة، فيتحدى الموت الذي يتخطف النفوس من حوله، فيندفع متهورا يلقى الموت فى غير مبالاة.

والإسلام حريصٌ على أهله ضنين بهم، فلا يبيع حياتهم إلا بالثمن الكريم الغالي، ولا يجيز لهم هذا البيع إلا حيث تجب التضحية والفداء فى سبيل الله، ولا سبيل آخر غير هذا السبيل تُقَدَّم فيه النفوس قربانا لله وفى سبيل الله بالنكاية فى العدو، فإن قُتِل بعدها فقد كتب بدمه الطهور حرفا من حروف النصر لجبهة الحق، ولم يضع استشهاده هباءً.

قال ابن عاشور: عُقِّبَ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَهَا عَوَاقِبُ ضَارَّةٌ إِبْلَاغًا لِلنَّصِيحَةِ وَالْإِرْشَادِ لِئَلَّا يَدْفَعَ بِهِمْ يَقِينُهُمْ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ إِلَى التَّفْرِيطِ فِي وَسَائِلِ الْحَذَرِ مِنْ غَلَبَةِ الْعَدُوِّ، فَالنَّهْيُ عَنِ الْإِلْقَاءِ بِالنُّفُوسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ يَجْمَعُ مَعْنَى الْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ وَغَيْرِهِ مِنْ تَصَارِيفِ الْحَرْبِ وَحِفْظِ النُّفُوسِ. [590]

وقال زيد بن أسلم: المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زاد، وقد كان فعل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو يكون عالة على الناس. (نقله القرطبي)

وقيل: المعنى لا تلقوا بأنفسكم في الهلاك وعذاب الله تعالى بفعل الذنوب والتقصير في التقوى والطاعات.

وقيل: هي عامة في كل أمر خطير على حياة المسلم، لا يجوز له أن يخوض ما يمكن أن يكون فيه هلاكه.

وقيل: أنه تعالى لما أمره بالإنفاق نهاه عن أن ينفق كل ماله، فإن إنفاق كل المال يفضي إلى التهلكة عند الحاجة الشديدة إلى المأكول والمشروب والملبوس فكان المراد منه ما ذكره في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً} (الشورى: 67) وَفِي قَوْلِهِ: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ...} (الْإِسْرَاءِ: 29)

---

[588] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 237) بتصرف يسير. قلتُ: ربما كان هذا من أبي أيوب رضى الله عنه على سبيل التدبر واستبطان معنى الآية، وهو من ديدن السلف في التعامل مع معاني القرآن العظيم، وإلا فالظاهر منها هو معنى النهى عن إيراد النفس موارد الهلكة بكل ما تحمله من معاني.

(589) قال الشيخ الألباني رحمه الله: فذكر أن تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث بل لما اقترن به من الإخلاد إليه والانشغال به عن الجهاد في سبيل الله، فهذا هو المراد بالحديث، وأما الزرع الذي لم يقترن به شيء من ذلك فهو المراد بالأحاديث المرغبة في الحرث فلا تعارض بينها ولا إشكال. والحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم كما يشهد بذلك واقع المسلمين في كثير من البلاد، وما حادثة مهاجمة اليهود للمسلمين وهم سجود صبح الجمعة من رمضان سنة (1414 هجرية) في مسجد الخليل في فلسطين ببعيد. وصدق الله: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}.. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها 6/ 353، 44/1.

[590] التحرير والتنوير (2/ 213)

قال الإمام الطبري: قوله «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» عام في جميع ما ذُكِر لدخوله فيه إذ اللفظ يحتمله.
وقوله تعالى: **{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**
يرتقي بالمؤمن من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» ..
ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام. وهي كما قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل الطاعات كلها، وتنتهي عن المعاصي كلها، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة، وفي السر والعلن على السواء.
وهذا هو التعقيب الذي ينهي آيات القتال والإنفاق، فيعيد النفس في أمر الجهاد إلى الإحسان. أعلى مراتب الإيمان. وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم. ويدخل فيه الإحسان بالجاه، بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك، الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملا والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضا، الإحسان في عبادة الله تعالى. وفي هذا نكتةٌ لطيفةٌ تعود بالإحسان واتباع أمر الله تعالى ومراقبته في كل شيء إلى معنىً جميلٍ من معاني الجهاد وهو معنى جهاد النفس من أجل الارتقاء بها لمرتبة الإحسان الذي هو غاية كل الطاعات.
وفي الحقيقة هناك ارتباط معنوي بين جملة (وأنفقوا في سبيل الله) و (لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة) بملاحظة أنّ عبارات الآيات القرآنية مترابطة ومتلازمة، والظّاهر أنّ الرّابطة بين هاتين العبارتين هو أنّكم لو لم تنفقوا في سبيل الله وفي مسار الجهاد فقد ألقيتم أنفسكم في التّهلكة.
ويمكن أن يكون الارتباط أكثر من ذلك وهو أن نقول : إنّ هذه الآية بالرّغم من أنّها وردت في ذيل آيات الجهاد، ولكنّها تبيّن حقيقة كليّة واجتماعيّة، وهي أنّ الإنفاق بشكل عام سببٌ لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمّرة، لأنه حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق وتتراكم الثروة في أحد أقطاب المجتمع تنشأ طبقة محرومة بائسة، ولا يلبث أن يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء وثروتهم ويتّضح من ذلك ارتباط الإنفاق بإبعاد التهلكة.
ومن هنا فالإنفاق يعود بالخير على الأثرياء قبل أن يصيب خيره المحرومين، لأنّ تعديل الثروة يصون الثروة، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ» وهو حديث ضعيف الإسناد معناه صحيح بإذن الله.
وبتعبير بعض المفسّرين أنّ الامتناع من الإنفاق في سبيل الله يؤدّي إلى موت الرّوح الإنسانيّة في الفرد بسبب البخل، وكذلك يؤدّي إلى موت المجتمع بسبب الضعف الاقتصادي وخاصّةً في النظام الإسلامي المبني على أساس الإحسان والخير. ولذلك كان ختام الآية عبقريا بذكر الإحسان.

فصل: في حكم الرجل يلقي بنفسه يقتحم في المعركة.

قال العلماء المحققون: فأما أن يحمل الرجل على جُملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج وحده فلذلك حالتان:
الأولى: إنْ غلب على ظنه أن سيُقتُل عدوه وينجو فحسنٌ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يُقتَل ولكن سيُحدث نكايةً أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا.

ورُوى أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نفرت خيل المسلمين من الفيلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلا من طين وآنس به فرسه حتى ألفه، فلما أصبح لم ينفر فرسه من الفيل فحمل على الفيل الذي يقدمها فقيل له: إنه قاتلك. فقال: لا ضير أن أُقتَل ويُفتَح للمسلمين.

وكذلك يوم اليمامة لما تحصنت بنو حنيفة بالحديقة، قال رجل- هو البراء بن مالك أخو أنس بن مالك كما في تاريخ الطبري- من المسلمين: ضعوني في الحجفة وألقوني إليهم، ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب. ومن هذا ما روي أن رجلا قال للنبي صلّى الله عليه وسلّم: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا؟ قال: «فلك الجنة» فانغمس في العدو حتى قُتِل.

ومنه ما روي أن رجلا من الأنصار تخلف عن بني معاوية فرأى الطير عكوفا على من قتل من أصحابه، فقال لبعض من معه سأتقدم إلى العدو فيقتلونني ولا أتخلف عن مشهد قتل فيه أصحابي، ففعل ذلك فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال فيه قولا حسنا.

وما روي أن قوما حاصروا حصنا، فقاتل رجل حتى قتل فقيل ألقى بيده إلى التهلكة فبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فقال: كذبوا أليس يقول الله تعالى **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ}** (الْبَقَرَةِ: 207). وهذا كله محمول على أنه سيفعل فعلا غلب على ظنه أنه ينفع المسلمين ويحزن الكفار في الحرب.

والحالة الثانية: أنه يعلم أن تأثيره في الأعداء قليل، فبقائه والحفاظ على حياته في معسكر المسلمين أولى وأهم، فحياة المسلم غالية لا يأمره الإسلام بفقدها إلا لهدف عظيم. أجل، إذا لم يكن الهدف مهمّاً ولا يستحق أن يضحّي الإنسان بنفسه في سبيله، أو أنّه يكون مهمّاً ولكن بإمكانه تحقيقه بوسائل وطرق اُخرى أفضل، ففي هذه الموارد لا ينبغي إلقاء النفس في الخطر.

وأساساً هناك تباين بين مفهومي التهلكة والشّهادة، فالتّهلكة تعني الموت بدون دليلٍ موجّه، في حين أنّ الشهادة تعني تضحية الفرد في سبيل هدف مقدّس ونيل الحياة الأبديّة الخالدة.

ويجب الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ نفس الإنسان ليست أثمن شيء في وجوده، فهناك حقائق أثمن للنفس مثل الإيمان بالله والاعتقاد بالإسلام وحفظ القرآن وأهدافه المقدّسة، بل حفظ حيثيّة وعزّة المجتمع الإسلامي، فهذه أهداف أسمى من التّهلكة، ولم ينهَ عنها الشرع المقدّس إطلاقاً.

تم هذا المقطع من تدبر كتاب الله سبحانه وتعالى بحول الله وقوته ومدده وتوفيقه.

فرغت من تبييضه ومراجعته/

الجمعة الموافق للرابع من شهر رمضان المعظم لعام 1442 هجرية/2021 من ميلاد المسيح ﷺ.

كتبه الراجي عفو ربه

أبو عمر وحمزة د. محمد عبد المعطي محمد.

والصلاة والسلام من الرب العظيم على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات